

تفسير النفس في

(مدارك لشرىل وحقائق لتأويل)

تأليف

أبي لبركات عبد بن أحمد بن محمود لنسفي

(ت ٧١٠ هـ)

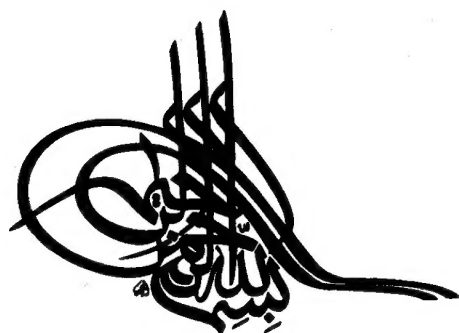
حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
يوسف علي بدوي

رَاجَعَهُ وَتَدَمَّرَ لَهُ
محي الدين ديبستو

المجلد الأول

دار الكتب للطباعة

بيروت



تفسير النسيجي
(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

حُقوقُ الطَّبعِ وَالنَّصْرِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاشِرِ
الطَّبعةُ الأولى
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

٢

تقديم

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حمد الشاكرين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى من اتبع هدي كتاب الله المبين، وعمل بسنة رسول الله ﷺ الأمين إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، وهو الدستور الخالد للأمة الإسلامية، منه تستمد عقيدتها وتنبع تشريعاتها، وبنور مبادئه وأذابه تهتدي إلى الحق، وتستقيم على الصراط، وتعتصم من كل ضلال أو زيغ.

وقد أنزله الله قرآناً عربياً، بلغة العرب ووفق أساليب بلاغتهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وكان الصحابة يفهمونه ويعلمون معاني مفرداته وتراكيبه، ولكنهم يتفاوتون في معرفة تأويله وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه، وكان أكثرهم كلاماً في التفسير عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

كما اشتهر من التابعين مفسرون، ثم جاء دور المؤلفين في التفسير على اختلاف مدارسهم، وأساليبهم، وتنوع مناهجهم واتجاههم في شرحهم لكتاب الله تعالى بما يتناسب مع كل عصر.

ومن المفسرين الذين حفظت لنا الأجيال تصنيفه أبو البركات عبد الله بن محمود النسفي المتوفى سنة (٧١٠هـ). وتفسيره «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» حظي باهتمام العلماء قديماً وحاضراً قراءة وتدریساً في حلقات العلم، وهو من مقررات المعاهد والكلديات الشرعية، وقد قرأت منه جزءاً كبيراً على شيخنا العلامة عبد الرحمن الزعبي (الطبيي) - رحمه الله تعالى - في

معهد العلوم الشرعية التابع للجمعية الغراء بدمشق ما بين سنة ١٩٥٦ و ١٩٥٨ م. وقد حاولتُ التعرفُ على المميزات الجوهرية لهذا التفسير فوجدتها لا تتعدى خمسة أمور:

- ١- جمعه بين محاسن تفسيري الكشاف والبيضاوي، وابتعاده عما في «الكشاف» من الاعتزال، وعما في «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» من الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة بشكل عام.
- ٢- التوسط بين القصر والطول، والبعد عن الاختصار المُخلّ، والشرح المُملّ.

٣- اعتناؤه بالقراءات ووجوه الإعراب من غير استطراد.

٤- اهتمامه بالأحكام الفقهية من خلال المذاهب الاجتهادية، وهو حنفي ينتصر لمذهبه، ويردُّ على من خالفه من غير غلو ولا تعصب مذموم.

٥- لم يحفل بكثير من الإسرائيليات، وردَّ كثيراً منها، ولكنه لم ينج من إيراد بعضها.

وقد وفقنا الله تعالى لإخراج هذا التفسير في طبعة جديدة محققة، تبرز هذه الجوانب العلمية المتقدمة، وقد تمت مقابلة المطبوع منه على نسخة خطية موثقة، وانصبَّ جهد الأستاذ يوسف علي بدوي على تصحيح نصوصه وتخراج أحاديثه، كما تفضل الأستاذ أحمد محمد السيد بقراءة التجربة الثالثة من تجارب تصحيحه، وكان من نصيبي مراجعة التجربة الثانية من تجارب تنزيده على أحدث وأجمل برامج الحاسوب (الكمبيوتر).

فأسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل في خدمة كتابه العزيز، وأن يكتب له القبول التام عند الأساتذة الأجلاء والطلاب الأعزاء، وأن يجعل أجر ذلك في صحائف أعمالنا، إنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير.

وكتبه

محيي الدين ديب مستو
(أبو أديب)

دمشق في ٣ رجب ١٤١٦ هـ

٢٥/١١/١٩٩٥ م



مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي أنزل الكتاب للعالمين نذيراً؛ فيذكر المؤمن ليكون صبوراً شكوراً، ويُنذر الكافر ناراً وسعيراً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، أرسله ربّه شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله تعالى بإذنه وسراجاً منيراً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن محمداً رسول الله لا نبي بعده.

أمّا بعد: فإنّ الله تعالى أنزل كتابه الكريم يهدي به إلى الصراط المستقيم من اتّبع رضوانه سُبُل السلام، ويُخرج الناس من ظلمات الجهل والعماية إلى نور العلم والإيمان والحجة الساطعة.

ووقف الصحابةُ أمام القرآن يفهمون نصوصه، ويسألون رسولهم ﷺ عمّا خفي من معانيه، وعمّا دقّت مراميّه، فيكشف لهم الرسول ذلك، ويُجَلّي لهم بيانه وبلاغته النبوية. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وخَلَفَ خلفٌ أوّلوا القرآن على غير تأويله، وسلكوا في شرح نصوصه طرقاً ملتوية، فيها التعسّف والتكلّف، فكان في ذلك فتنة كبرى وفساد عريض. وتصدّى لهؤلاء جبهة العلماء البارعين، فوضّحوا المعاني، وكشفوها، وأفهموا الناس المراد بأدقّ لفظ، وأعذب بيان.

ونشأت مدارس في التفسير كثيرة، كال تفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي الجائز والمذموم، إضافةً إلى تفسير الفلاسفة، والفقهاء، والتفسير العلمي، والمذهبي، والأدبي الاجتماعي...

ولكلّ وجهة هو مؤلّيها.

ويأتي الإمام النسفي علماً بارزاً في دنيا المفسرين، فيدوّن مُصنّفه: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» ليكون موجز العبارة، سهل المأخذ، وسطاً، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، مُحلّياً بأقوال أهل السُنّة والجماعة، خالياً من أباطيل أهل البدع والضلالة... إلى ما هنالك من محاسن كثيرة.

وممّا يُلحَظ على هذا التفسير أنّه مُقِلٌّ جدّاً في ذكره للإسرائيليات، وهذه محمّدة له، فإن ذَكَرَ شيئاً من ذلك تعقّبهُ في الغالب، وأحياناً يترك ذلك لفطنة القارئ.

وهو تفسيرٌ متداول بين أهل العلم، وقد رغبت دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، أن تُقدِّما لقرائهما الأعزاء، طبعةً محققة، ونشرة علمية، فأحضرتا له نسخة مخطوطة، فخرج في أصدق مخبر، وحلّته بأرقى أنواع التنضيد الضوئي، والورق الفاخر، والحلة القشبية، فبدا بأبهى منظر، فهو يجمع بين الحسنين.

ومن الله تعالى نسأل حُسْنَ الثواب، وكمال الرضا، وتمام المغفرة، وأن يكتب ثوابَ ذلك في صحائفنا، وصحائف والدينا، إنه على ما يشاء قدير.

اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علماً يا أرحم الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

يوسف بدوي

دمشق في ١ / ٧ / ١٤١٦ هـ

١ / ١٢ / ١٩٩٦ م



ترجمة المؤلف

● اسمه ونشأته:

هو عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسْفِي، أبو البركات. لُقِّب: حافظ الدين، ونُسِبَ إلى مدينة نَسَف^(١)، فغلبت نسبته إليها.

وُلِدَ في مدينة إِيَذَج^(٢)، إلا أننا لا نعرف سنة ولادته بالتحديد.

كان مشهوراً بالزهد، والصلاح، والتقوى. وقد تفرَّغ للعلم، والدراسة، والبحث، وعرف اللغة العربية والفارسية، ورحل إلى بغداد في نهاية حياته، وذاع صيته في الآفاق.

قال اللكنوي: «كان إماماً كاملاً، عديم النظر في زمانه، رأساً في الفقه والأصول، بارعاً في الحديث ومعانيه»^(٣).

ونعته ابن حجر العسقلاني بـ «علامة الدنيا»^(٤).

وعلى هذا نرى أنَّ النسفي ذو مكانة مرموقة بين فقهاء عصره ومتكلميهِ، وقد عدّه ابن كمال باشا من طبقات المقلّدين القادرين على التمييز بين القويّ والضعيف؛ الذين شأنهم ألاّ ينقلوا في كتبهم الأقوال المردودة والروايات الضعيفة، وهي أدنى طبقات المتفقيهِ^(٥). وقال: «وبه اختتم الاجتهاد، ولم يوجد بعده مجتهد في المذاهب»^(٦).

(١) معجم البلدان (٢٨٥/٥) والروض المعطار (٥٧٩).

(٢) معجم البلدان (٢٨٨/٥ - ٢٨٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٣٠٢ - ٣٠٣).

(٣) الفوائد البهية (١٠١).

(٤) الدرر الكامنة (٢٤٧/٢).

(٥) النسفي ومنهجه في التفسير، لأميمة بدر الدين، رسالة ماجستير عام ١٩٩٠م، غير منشورة.

(٦) الفوائد البهية (١٠١ - ١٠٢).

وقد نشأ النسفي في بيئة علمية دينية، كان لها أهمية كبيرة في حياته، وفي نشأته العلمية، فمال إلى اعتزال الحياة السياسية، والتفرغ للعلم.

● شيوخه:

لم تذكر المصادر أكثر من ثلاثة شيوخ للإمام النسفي؛ مما يحملنا على الظن أنَّ ثمة شيوخاً آخرين أغفلت الكتبُ ذكرهم، فلم يصل إلينا شيءٌ عنهم. أمَّا الثلاثة فهم:

(١) شمس الأئمة الكردي، محمد بن عبد الستار بن محمد العمادي^(١)، توفي سنة (٦٤٢هـ).

(٢) بدر الدين خواهر زادة، محمد بن محمود بن عبد الكريم^(٢)، توفي سنة (٦٥١هـ).

(٣) حميد الدين الضرير، علي بن محمد بن علي الرامشي^(٣)، توفي سنة (٦٦٦هـ).

● تلامذته:

ذكر المؤرخون تلميذَيْن له، هما:

١ - السفناقي، الحسين بن علي بن حجاج، حسام الدين^(٤)، توفي سنة (٧١٤هـ).

٢ - الجيلي، محمد بن محمد^(٥).

● مذهبه الفقهي والكلامي:

تابع النسفي أستاذه الكردي في موافقة أبي حنيفة في الفقه، كما أكَّدت ذلك

(١) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٧٦ - ١٧٧ - ٢٤٢ - ٢٤٣).

(٢) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٢٥).

(٣) انظر ترجمته في الفوائد البهية (٢٠٠).

(٤) انظر ترجمته في الفوائد البهية (١٠٢).

(٥) ذكره طاشكبري زادة في مفتاح السعادة (٥٧/٢).

كُتِبَ الفقهية، وبشكل خاص «كنز الدقائق» الذي جعله خالصاً في الفقه الحنفي، كما أنَّ آراءه الفقهية المبثوثة في تفسيره تدلُّ على ذلك.

أمَّا نزعتة الكلامية فتبدو واضحة في تفسيره، حيث يؤيِّد مذهب أبي منصور الماتريدي - رحمه الله -.

● مؤلفاته:

أمَّا المطبوعة فهي:

- (١) بحر الكلام: كتاب في أصول الكلام.
- (٢) عمدة عقيدة أهل السنة والجماعة: مطبوع بعناية الأستاذ كيورتن.
- (٣) كشف الأسرار شرح المصنف على المنار: لخص فيه أصول الفقه لشمس الأئمة السرخسي، وهو مطبوع في جزأين.
- (٤) كنز الدقائق: متن مشهور في الفقه.
- (٥) منار الأنوار: في أصول الفقه.
- (٦) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: وهو كتابنا هذا^(١).

وأمَّا كتبه المخطوطة فهي:

- (١) الاعتماد في الاعتقاد.
 - (٢) عمدة العقائد.
 - (٣) الكافي في شرح الوافي.
 - (٤) المستقصى في شرح الفقه النافع.
 - (٥) المصقّى في شرح المنظومة.
- وهذه المؤلفات الكثيرة تشهد بمكانة النسفي العلمية، وأستاذيته.

(١) صدرت الطبعة الأولى في وزارة المعارف بالقاهرة سنة (١٩٤٢م) في (٣) مجلدات، ثم صدر في دمشق عن المكتبة الأموية (مجلدان)، ثم صدر مع تفسير الخازن، عن دار الفكر ببيروت (٤ أجزاء) وغير ذلك.

● وفاته:

اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاة النسفي، فذهب اللكنوي^(١) والبغدادي^(٢) وصاحب كشف الظنون^(٣) إلى أنَّ وفاته كانت عام (٧١٠هـ). أمَّا ابنُ حجر العسقلاني^(٤) فرأى أنَّ وفاته كانت عام (٧٠١هـ)، وذهب القاسم بن قطلوبغا^(٥) إلى أنه توفي بعد عام (٧١٠هـ).

(



-
- (١) الفوائد البهية (١٠١).
 (٢) هدية العارفين (١/٤٦٤).
 (٣) كشف الظنون (٢/١٩٢٢ - ١٢٧٤ - ١٨٢٣ - ١٨٦٧).
 (٤) الدرر الكامنة (٢/٢٤٧).
 (٥) الفوائد البهية (١٠١).

تفسير النسفي

- استعان النسفي في تفسيره بعدد من تفاسير السابقين له، وهي:
- ☆ الكشف، للزنجشري: وهو مصدر أساس في تفسيره، حيث لخص النكات البلاغية، والإشارات اللغوية، والاستطرادات الأدبية.
 - ☆ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي: ويبدو تأثر النسفي به في تتبع الكثير من نظرات البيضاوي اللغوية، ونقل عبارات حرفية.
 - ☆ تفسير قتادة: حيث نقل عنه في كثير من المواضع.
 - ☆ تفسير مجاهد: حيث استعان به، وأخذ عنه أقواله.
 - ☆ التأويلات، لأبي منصور الماتريدي: ولا غرابة في ذلك؛ حيث أن النسفي ماتريدي، وأحب أن تكون آراء شيخه أبي منصور مؤيدة لآرائه في كتبه ومؤلفاته.
 - ☆ شرح التأويلات.
 - ☆ اللباب.
- والكتابان الأخيران لم يذكر النسفي اسمي مؤلفيهما.
- كما استعان النسفي بمصادر كثيرة من كتب الحديث، ومنها:
- صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وصحاح المصابيح للبغوي، وبعض المسانيد.
- أمّا مصادره في الفقه فقد أشار إلى:
- المبسوط، للبرزدوي (ت ٤٨٢هـ).
 - الكافي (له).

- شرح المنار (له).

ومن مصادره اللغوية:

- كتاب سيبويه.
- التبيان في إعراب القرآن.
- الصحاح، للجوهري.
- كشف المعضلات وإيضاح المشكلات، للباقولي الضرير.
- ومن مصادره في القراءات:

- مصحف عبد الله بن مسعود.
- مصاحف أهل الكوفة، وأهل الحرمين، والبصرة، والشام.
- مصحف نافع.
- مصحف حفصة.
- الإشارة والبشارة.
- الوقوف.

وقد كان للعلماء آراء في تفسير النسفي، نذكر منها ما قاله عطية الجبوري^(١):

«القرّاء في تفسير النسفي يلاحظ أنه ملخص لتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير أنوار التنزيل للبيضاوي. ولما كان النسفي من أهل السنة والجماعة، وهو حنفي المذهب؛ لذا لم يذكر كلّ ما يُصادفه من قضايا الاعتزال في الكشاف، ويستخلص منه النكت البلاغية، والمعاني العقلية الدقيقة. أضف إلى ذلك المحسنات اللفظية، فجاء كتابه هذا وسطاً بين الطول والقصر. ولم يكتفِ بما ذكر، بل زاد عليها كثيراً من أقوال النحاة والإعراب ووجوه القراءات، وإسناد القراءات إلى أصحابها. وكان مقتصرأ في ذلك على القراءات السبع. وهو يسيّر في تفسيره على طريقة الأسئلة والأجوبة؛ إلا أنه لم يجعلها ظاهرة».

(١) دراسات في التفسير ورجاله (١٠٧).

وقال الدكتور الذهبي في «التفسير والمفسرون» (٣٠٥/١): «لم يقع فيما وقع فيه صاحبُ الكشف من ذكره الأحاديث الموضوعة في فضائل السور»^(١).

وقال الدكتور منيع محمود:

«تبني النسفي كل ما كتبه الإمام الزمخشري تقريباً في البلاغة القرآنية»^(٢).
ويتابع فيقول:

«والناظر في هذا التفسير يجد فيه فهماً واعياً، وخبرة دقيقة، وإطلاعاً واسعاً، وحسن استفادة من هذا الاطلاع... ويمتاز تفسيره بإقلاله من الإسرائيليات، وابتعاده ما استطاع عنها. كما يمتاز بتحرّيه في اختيار الأحاديث، ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر في تركه ذكر الأحاديث الموضوعة في فضائل السور. كما أنه لم يتوسّع في الإعراب، ولم يدخل في تفصيلات فرعية تُشتّتُ الذهن، وتبتعد بالقارئ عن الجوِّ القرآني، ولم يخلُ تفسيره من الإشارة إلى المذاهب الفقهية في بعض آيات الأحكام، والانتصار لمذهبه الحنفي»^(٣).

إلا أن النسفي رغم احتياطه وتحفّظه لم يسلم من الإسرائيليات، ولم يشِرْ إلى خطئها، أو ضعف روايتها، كما في: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] قال: «روي: أنه صاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاووس فقال: يقول: كما تدين تُدان. وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبون. وصاح خطاف فقال: يقول: قدّموا خيراً تجدوه. وصاحت رخمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحداة تقول: كل شيء هالك إلا الله...» دون أن يتعقّب ما ذكره من ذلك كله!

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥] نراه يذكر خبر هدية بلقيس لسليمان، وما كان من امتحانها له. وهو خبرٌ أشبه ما يكون بقصة نسجها خيالٌ شخصٍ مسرفٍ في

(١) التفسير والمفسرون؛ للذهبي (٣٠٥/١).

(٢) مناهج المفسرين (٢٢٠).

(٣) المصدر السابق (٢١٧).

تَحْيَلُهُ، ومع ذلك فلا يعقب عليها الإمام النسفي بكلمة واحدة!
وقال قاسم القيسي^(١):

«هو تفسيرٌ وسطٌ في التأويلات، جامع لوجوه الإعراب والقراءات، مُتَضَمِّنٌ لدقائق البديع والإشارات، مُوشَّحٌ بأقاويل أهل السُّنَّة والجماعة، خالٍ من أباطيل أهل البدع والضلالة والشناعة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل».

وقال الدكتور صبحي الصالح^(٢):

«وَأَمَّا النَّسْفِيُّ فَيَعْنِيهِ بِالدرْجَةِ الْأُولَى: الدِّفَاعُ عَنْ وَجْهَةِ نَظَرِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَالرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ، وَتَفْسِيرُهُ جَامِعٌ لَوْجُوهِ الْإِعْرَابِ وَالْقِرَاءَاتِ، وَفِيهِ إِشَارَاتٌ دَائِمَةٌ إِلَى رَوَائِعِ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي عِبَارَةٍ مُوجِزَةٍ».



(١) تاريخ القرآن (١٤١).

(٢) مباحث في علوم القرآن (٢٩٣).

وصف المخطوطة

تقعُ المخطوطة في مجلدين، وهي من وقف المدرسة الأحمدية بحلب.

● المجلدة الأولى:

تحمل رقم (١٣٢٣٠)، عدد الأوراق (٢٨٦)، قياس (١٤ × ٢١ سم)، في الصفحة (٢٣) سطراً، في السطر (١٣ - ١٥) كلمة.

● المجلدة الثانية:

تحمل رقم (١٣٢٣١)، عدد الأوراق (٣٠٢)، قياس (١٥ × ٢٢ سم)، في الصفحة (٢٥) سطراً، في السطر (١٢ - ١٨) كلمة.

والخط في المجلدتين واضح، مقروء، وبعضه مشكول، والآيات مكتوبة بحرف أكبر لتوضيحها وإبرازها.

وقد نسخ هذه المخطوطة: ميكائيل بن حاجي محمد بن حاجي، وفرغ منها في يوم الجمعة وقت الضحوة الكبرى من شهر ربيع الآخر سنة (٧٢٧هـ) أي: بعد وفاة المؤلف بسبعة عشر عاماً.



منهج التحقيق

بعد حصولنا على نسخة مخطوطة من مكتبة الأسد العامرة، كانت هذه الخطوات:

- (١) مقابلة المخطوط على المطبوع، وإثبات الفروق ذات الأهمية.
 - (٢) تخريج الآيات الشواهد من أماكنها من سور القرآن، مع ذكر أرقامها، وقد أخذت من المصحف؛ نائياً بها عن أخطاء الطباعة.
 - (٣) تخريج الأحاديث قدر المستطاع من مظانها الحديثية.
 - (٤) توزيع فقرات النص، مع وضع علامات الترقيم.
 - (٥) جعل المصحف في أعلى الصفحة، ثم يأتي شرح الآيات مرقمة.
 - (٦) ضبط الشعر؛ منعاً للبس في قراءته.
 - (٧) التعليق على بعض المواضع بما يُفيد ويُغني.
 - (٨) صنّع «ترويسة» في كل صفحة؛ لتسهيل الدلالة، والظفر بالبغية بأيسر سبيل، وأسرع وقت.
 - (٩) كتابة مقدّمة عن حياة الإمام النسفي، ولمحة عن مصادر كتابه.
 - (١٠) إعداد فهرس للسور والآيات في نهاية كل جزء، وفهرس عام للأحاديث في نهاية الكتاب.
- نسأل الله تعالى التوفيق، والنفع بهذا العمل، إنه على ما يشاء قدير.
- والحمد لله ربّ العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِوَحْيِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَاعْتَصِمُ بِالْقُرْآنِ
 سَيِّدِ الْوَحْيِ وَسَلِّمْ مُحَمَّدٌ الْمُرْسَلُ الْمُرْسَلُ عَنْ غَايَةِ الْأَوْصَالِ الْمُرْسَلِ بِضَافَةٍ عَنْ ذَرَارِ
 الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ الْمُتَقَفِّ بِلَا تَوْحِيدَ قَبْلَ كَيْ مَوْجُودِ الْبَالِغِ بِنِعْتِ السَّيِّدَةِ بِجَعْلِ
 مَحْدُودِ الْمَلِكِ الَّذِي طَبَسَتْ سِحَابُ جَلَالِهِ الْإِبْصَارَ الْمُبْكَرَ الَّذِي زَاوَتْ سُلُوكَاتُ كِبَرِيَّاتِهِ
 الْأَفْكَارَ الْقَدِيمَ الَّذِي تَعَالَى عَنْ مِثَالِهِ الْخُذَّانِ الْعَظِيمَ الَّذِي تَخَرَّجَ مِنْ حَاسَةِ الْكَمَالِ
 الْمُتَعَالَى عَنْ مَفَاهِجِ الْأَحْسَامِ وَمَشَاعِلِ الْأَنْبَاءِ الْقَادِرَ الَّذِي لَا يَسْتَأْذِنُ إِلَهًا
 بِالْكَفِّ الْقَاهِرَ الَّذِي لَا يَسْتَأْذِنُ عَنْ التَّجْمِيلِ وَالْكَفِّ الْعَظِيمَ الَّذِي يَخْلُقُ الْإِنْسَانَ وَمَعَهُ
 الْبَيَانُ الْحَكِيمَ الَّذِي نَزَلَ الْقُرْآنُ شَفَاءً لِلدَّوَابِّ وَالْإِبْدَانِ وَالْعِلَافَةِ وَالسَّلَامَ عَلَى الْمُسْتَرِ
 مِنْ ذُرِّيَةِ الْبَلَاءِ وَالْبَرَاءَةِ الْمُحَلَّ بِخُجُوعِ الْفَاحِشَةِ وَالْفَاحِشَةِ الْمُتَعَوِّثَةِ إِلَى حَقِيقَةِ
 الدَّاعِي إِلَى الْحَقِّ وَطَرِيقَةِ سُبْحِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَمِنْهُ وَنَبِيِّهِ وَعَلَى الْأَخْيَرِ مَعْرُوفٍ وَتَسْبِيحِهِ
 قَالُوا مَوْزَانًا لِنِعِ الْإِنْعَامِ الْعَظِيمِ وَلِجَبْرِ الْهَامِ الْمَقْدَمِ اسْتَغْنَى عَنْهُ الْإِنْفِاقُ بِحَسْبِ الْإِنْفِاقِ
 وَالْعَفْرِقَةُ كُنْتُ حَقَائِقَ اسْرَارِ التَّوْحِيدِ مُقَالِحَ دَقَائِقِ اسْرَارِ التَّوْحِيدِ وَنَزَاجَاتِ كَلَامِ
 الرَّحْمَنِ صَاحِبِ عَلَى الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ الْيَامِعِ بَيْنَ الْأَسْوَدِ وَالْفَرْقِ الْمَرْجُوعِ إِلَيْهِ
 فِي الْمَعْقُولِ وَالْمُسْتَعْمِلِ حَافِظِ الْمَلَّةِ وَالِدِينِ شَيْخِ الْأَسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ وَارِثِ عُلُومِ
 الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كَمَلِ حُجُولِ الْمُجْرِدِينَ قُدْرَةِ قُدُومِ الْمُحَقِّقِينَ ذَوِ السَّعَادَاتِ
 وَالْكَرَامَاتِ أَبَوِ الْعُرُوفَاتِ عَمِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَالْمُسْمَى سُبْحَانَ اللَّهِ الْأَسْلَامِ بِطَوْرِ
 تَقَاتِهِ وَالْمُسْلِمِينَ بِحَقِّ تَقَاتِهِ وَدَسَائِلِهِ مِنْ تَقَاتِهِ أَجَانَتُهُ كِتَابًا أَوْ سَطْرًا فِي الْأَوَّلِ
 لِجَامِعِهِ جَمْعُهُ الْأَعْرَافِ وَالْفُرَادِ سَمِعْنَا لَدَقَائِقِ عِلْمِ الْبَدْعِ وَالْإِسْتِزَادِ
 حَالِنَا نَاقًا وَبَلَّغْنَا لِمَالِ السُّبْحِ وَالْمَجَامِعِ حَالِيًا عَنْ أَبَاطِيلِ الْمَلْأَةِ الْبَدْعِ وَالْعِلَالَةِ الْبَدْعِ
 بِالْطَوِيلِ الْمَلْأَةِ وَلَا يَالِقُصْبِ الْمَلْأَةِ وَكُنْتُ أَقْدَمَ فِيهِ دَجَلًا وَأَوْخَرُ أُخْرَى اسْتِغْنَاءً
 لِقُوَّةِ الْبَشَرِ مِنْ مَرَكِ مَدِ الْوُطَرِ وَاحِدًا بِسَبِيلِ الْحَذَرِ عَنْ رُكُوبِ الْحُطَرِ صَبْرًا
 تَسْمِيَةً فِيهِ تَوْفِيقُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْعَوَانِي لِكَثْرَةِ وَاسْتِغْنَاءٍ فِي مَدَى تَسْمِيَةٍ
 وَتَسْمِيَةٍ بِمَدَارِ تَسْمِيَةٍ وَحَقَائِقِ التَّوْحِيدِ وَهُوَ الْمُسْتَرِ كَلَامُ مُسْتَرِ بِوَحْيِ عَلَى مَا نَزَلَ

تفسير النفس في

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

تأليف

أبي البركات عبد بن أحمد بن محمود النسفي

(ت ٧١٠ هـ)

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ

رَاجَعَهُ وَتَدَمَّرَ لَهُ

يوسف علي بدوي

محيي الدين ديبستو

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

هو حسبي، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم.

الحمد لله المنزه بذاته عن إشارة الأوهام، المقدس بصفاته عن إدراك العقول والأفهام، المتصف بالألوهية قبل كل موجود، الباقي بنعت السرمدية^(١) بعد كل محدود، الملك الذي طمست سُبُحات^(٢) جلاله الأبصار، المتكبر الذي أزاحت سطوات كبريائه الأفكار، القديم الذي تعالى عن ثُمائلة الحُذْثان^(٣)، العظيم الذي تنزه عن مماسة المكان؛ المتعالي عن مُضاهاة الأجسام، ومشابهة الأنام، القادر الذي لا يُشار إليه بالتكليف، القاهر الذي لا يُسأل عن التَّحميل والتكليف^(٤)، العليم الذي خَلَق الإنسانَ، وعَلَّمه البيان، الحكيم الذي نَزَلَ القرآنَ شفاءً للأرواح والأبدان.

والصَّلَاة والسَّلَام على المستل من أرومة^(٥) البلاغة والبراعة، المحتل في بحبوحة النصيحة والفصاحة، محمد المبعوث إلى خليقته، الداعي إلى الحق وطريقته. صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وشيعته، وعلى الآخذين بعهوده وشريعته.

(١) «السرمدية»: الدائمة.

(٢) «سُبُحات»: أنوار.

(٣) «الحُذْثان»: جمع أحاديث، وهي جمع حديث، وهو: الجديد من الأشياء.

(٤) في الأصل المخطوط: التكيف، والمثبت من المطبوع.

(٥) «الأرومة»: الأصل.

قال مولانا الشيخ الإمام المعظم، والخبر الهمام المقدم، أستاذ أهل الأرض، محيي السُّنة والفرض، كشاف حقائق أسرار التنزيل، مفتاح دقائق أسرار التأويل، ترجمان كلام الرحمن، صاحب علم المعاني والبيان، الجامع بين الأصول والفروع، المرجوع إليه في المعقول والمسموع، حافظ الملة والدين، شيخ الإسلام والمسلمين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، أكمل فحول المجتهدين، قدوة قُدوم^(١) المحققين، ذو السَّعادات والكرامات، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي - نفع الله الإسلام بطول بقائه، والمسلمين بيمين لقائه^(٢) :-

قد سألني مَنْ تتعَيَّن إجابته كتاباً وسطاً في التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، متضمناً لدقائق علمي البديع والإشارات، حالياً بأقاويل أهل السُّنة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البِدْع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل.

وكنْتُ أقدم فيه رجلاً وأؤخر أخرى استقصاراً لقوَّة البشر، عن درك هذا الوطر، وأخذاً بسبيل الحذر، عن ركوب الخطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممت في مدَّة يسيرة، وسمَّيته بـ: «مدارك التنزيل، وحقائق التأويل» وهو الميسر لكلِّ عسير، وهو على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.



(١) «القُدوم»: جمع قُدُم: الجري الكثير الإقدام.

(٢) هذا الكلام إما من الناسخ أو من أحد تلاميذ المؤلف - رحمه الله - .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مكية، وقيل : مدنية. والأصح أنها مكية ومدنية. نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، ثم نزلت بالمدينة حين حُوِّلَت القبلة إلى الكعبة. وتسمَّى أم القرآن للحديث^(١)، ولاشتمالها على المعاني التي في القرآن، وسورة الوافية والكافية لذلك، وسورة الكنز، لقوله ﷺ حاكياً عن الله تعالى: «فاتحة الكتاب كنزٌ من كنوز عرشي»^(٢). وسورة الشفاء والشافية؛ لقوله ﷺ: «فاتحة الكتاب شفاءٌ من كلِّ داءٍ إلا السَّام»^(٣). وسورة المثاني؛ لأنها تُثَنَّى في كلِّ صلاة. وسورة الصلاة لما يُروى، ولأنها تكون واجبة أو فريضة. وسورة الحمد والأساس، فإنها أساس القرآن. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالأساس. وآيها سبعٌ بالاتفاق، والله أعلم.

١- ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قُرَاءُ المدينة والبصرة والشام على أنَّ التسمية ليست بآية من الفاتحة، ولا من غيرها من السور، وإنما كُتِبَت للفصل والتبؤك بالابتداء بها، وهو مذهب أبي حنيفة ومَن تابعه - رحمهم

(١) قال ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأمِّ القرآن» رواه مسلم (٣٩٤) (٣٦).

(٢) رواه ابن راهويه. (فيض القدير ٤/٤٢٠).

(٣) رواه سعيد بن منصور، وأبو الشيخ في «الثواب». (فيض القدير ٤/٤١٨) والديلمي في

مسند الفردوس (٤٣٨٥) بلفظ: «فاتحة الكتاب شفاء من السم».

الله - ولذا لا يُجهر بها عندهم في الصلاة. وقراء مكة والكوفة على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه - رحمهم الله - ولذا يجهرون بها، وقالوا: قد أثبتتها السلف في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن [عما ليس منه]^(١). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: من تركها فقد ترك مئة وأربع عشرة آية من كتاب الله. ولنا حديث أبي هريرة قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة» أي: الفاتحة «بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدي عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجّدي عبدي. وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صرّط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين» قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل^(٢).

فلا ابتداء بقوله: «الحمد لله رب العالمين» دليلٌ على أن التسمية ليست من الفاتحة، وإذا لم تكن من الفاتحة لا تكون من غيرها إجماعاً. والحديث مذكورٌ في «صحيح المصابيح». وما ذكروا لا يضرنا؛ لأن التسمية آية من القرآن أنزلت للفصل وللتبرك في الابتداء بها بين السور عندنا، ذكره فخر الإسلام في «المبسوط»، وإنما يرد علينا أن لو لم نجعلها آية من القرآن، وتمايم تقريره في «الكافي». وتعلقت الباء بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ، أو أتلو، لأنّ الذي يتلو التسمية مقروء، كما أن المسافر إذا حلّ وارتحل فقال: باسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحلّ، وبسم الله أرتحل، وكذا الذابح. وكل فاعل يبدأ في فعله باسم الله كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له. وإنما قدر المحذوف

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) رواه أحمد (٢٤١/٢) ومسلم (٣٩٥) (٣٨) وأبو داود (٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٣٧٨٤).

متأخراً لأنّ الأهم من الفعل والمتعلّق به [هو المتعلّق به]^(١). وكانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، وباسم العزى، فوجب أن يقصد الموحّد معنى اختصاص اسم الله عزوجل بالابتداء، وذا بتقديمه وتأخير الفعل. وإنما قدّم الفعل في ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] لأنها أول سورة نزلت في قول، وكان الأمر بالقراءة أهم، فكان تقديم^(٢) الفعل أوقع. ويجوز أن يحمل ﴿أَقْرَأْ﴾ على معنى: افعل القراءة وحققها، كقولهم: فلان يعطي ويمنع، غير متعدّ إلى مقروء به، وأن يكون باسم ربك مفعول اقرأ الذي بعده. واسم الله يتعلّق بالقراءة تعلق الدّهْن بالإنبات في قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] على معنى: متبركاً باسم الله اقرأ، ففيه تعليم عباده كيف يتبرّكون باسمه تعالى، وكيف يعظمونه. وبنيت الباءُ على الكسر لأنها تلازم الحرفية والجر، فكسرت لتشابه حركتها عملها. والاسم من الأسماء التي بنوا أوائلها على السُكون كالابن والابنة وغيرهما، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة تفادياً عن الابتداء بالسكون تعذراً، وإذا وقعت في الدّرج لم يفتقر إلى زيادة شيء. ومنهم من لم يزدها، واستغنى عنها بتحريك الساكن، فقال: سِمٌ وَسُمٌ. وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز، كيد، ودم، وأصله: سمو بدليل تصريحه كأسماء، وسمى، وسميت. واشتقاقه من السمو، وهو: الرفعة؛ لأن التسمية تنويه بالمسمى، وإشادة بذكره. وحذفت الألف في الخط هنا، وأثبتت في قوله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] لأنه اجتمع فيها^(٣) مع أنها تسقط في اللفظ لكثرة الاستعمال، وطولت الباء عوضاً من حذفها. وقال عمر بن عبد العزيز لكاّته: طولُ الباء وأظهر السينات، ودوّر الميم.

والله: أصله الإله، ونظيره الناس، أصله: الأناس، حُذفت الهمزة، وعُوّض عنها حرف التعريف. والإله من أسماء الأجناس، يقع على كل معبود

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) من المطبوع.

(٣) أي: في التسمية.

بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بالحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب، ثم غلب على الثريا. وأما الله بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق، لم يطلق على غيره، وهو اسم غير صفة؛ لأنك تصفه، ولا تصف به، لا تقول: شيء إله، كما لا تقول: شيء رجل، وتقول: إله واحد صمد، ولأن صفاته تعالى لا بُدَّ لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتها كلها صفات لبقيت صفات غير جارية على اسم موصوف بها، وإذا لا يجوز. ولا اشتقاق لهذا الاسم عند الخليل والزجاج ومحمد بن الحسن والحسين بن الفضل. وقيل: معنى الاشتقاق: أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد. وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم أَلَهْ: إذا تحير، ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أن الأوهام تتحير في معرفة المعبود، وتدهش الفطن، ولذا كثر الضلال، وفشا الباطل، وقُلَّ النظر الصحيح. وقيل: هو من قولهم أَلَهْ يَأَلَهُ إلهاً: إذا عبد، فهو مصدر بمعنى مألوه، أي: معبود، كقوله: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقه. وتفخم لأمه إذا كان قبلها فتحة أو ضمة، وترقق إذا كان قبلها كسرة، ومنهم من يرققها بكل حال، ومنهم من يفخم بكل حال، والجمهور على الأول.

والرحمن: فعلان من رحم، وهو الذي وسعت رحمته كل شيء، كغضبان من غضب، وهو الممتلئ غضباً. وكذا الرحيم: فاعيل منه، كمريض من مرض. وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم؛ لأن في الرحيم زيادة واحدة، وفي الرحمن زيادتين، وزيادة اللفظ تدلُّ على زيادة المعنى؛ ولذا جاء في الدعاء: «يا رحمن الدنيا» لأنه يعم المؤمن والكافر «ورحيم الآخرة» لأنه يخصُّ المؤمن. وقالوا: الرحمن خاص تسمية؛ لأنه لا يوصف به غيره، وعام معنى لما بينا، والرحيم بعكسه لأنه يوصف به غيره، ويخصُّ المؤمنين، ولذا قدم الرحمن - وإن كان أبلغ - والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى، يقال: فلان عالم نحير؛ لأنه كالعلم لما لم يوصف به غير الله. ورحمة الله: إنعامه على عباده، وأصلها: العطف. وأما قول الشاعر في مسيلمة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ

..... وأنت غيثُ الورى لا زلت رحماناً^(١)

فباب من تعنتهم في كفرهم.

ورحمٰن غير منصرف عند مَنْ زعم أنَّ الشرط انتفاء فعلاية، إذ ليس له فعلاية، ومن زعم أن الشرط وجود فعلى صرفه إذ ليس له فعلى، والأول الوجه.

٢ - ﴿الْحَمْدُ﴾ الوصف بالجميل على جهة التفضيل. وهو رفع بالابتداء، وأصله النصب، وقد قرئ بإضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة في معنى الإخبار، كقولهم: شكراً، وكفراً. والعدول عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره. والخبر: ﴿لِلَّهِ﴾ واللام متعلق بمحذوف، أي: واجب أو ثابت. وقيل: الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على شجاعته وحسبه. وأما الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح، قال:

أفادتكم التعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجّباً والحمد باللسان وحده، وهو إحدى شعب الشكر، ومنه الحديث: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبداً لم يحمده»^(٢). وجعله رأس الشكر؛ لأن ذكر النعمة باللسان أشيع لها من الاعتقاد وآداب الجوارح لحفاء عمل القلب، وما في عمل الجوارح من الاحتمال. ونقيض الحمد: الذم، ونقيض الشكر: الكفران. وقيل: المدح: ثناء على ما هو له من أوصاف الكمال ككونه باقياً، قادراً، عالماً، أديباً، أزلياً. والشكر: ثناء على ما هو منه من أصناف الإفضال، والحمد يشملهما. والألف واللام فيه للاستغراق عندنا خلافاً للمعتزلة؛ ولذا قرن باسم

(١). عجز بيت، وصدره: سموت بالمجد يا بن الأكرمين أبا.

(٢). رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٣٩٥) والديلمي في مسند الفردوس (٢٧٨٤).

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

الله؛ لأنه اسم ذات، فيستجمع صفات الكمال. وهو بناءٌ على مسألة خلق الأفعال، وقد حَقَّقْتَهُ في مواضع.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب: المالك، ومنه: قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجلٌ من قريش أحب إليّ من أن يربني رجلٌ من هوازن. تقول: ربّه يرثه، فهو ربّ. ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة، كما وصف بالعدل. ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهو في العبيد مع التقيد: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]. وقال الواسطي: هو الخالقُ ابتداءً، والمرتبّي غذاءً، والغافر انتهاءً، وهو اسم الله الأعظم. والعالم: هو ما علم به الخالق من الأجسام والجواهر والأعراض، أو كل موجود سوى الله تعالى، سُمِّيَ به لأنه علّم على وجوده، وإنما جمع بالواو والنون مع أنه يختص بصفات العقلاء، أو ما في حكمها من الأعلام، لما فيه معنى الوصفية، وهي: الدلالة على معنى العلم.

٣ - ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ذَكَرْهُمَا قَدْ مَرَّ، وهو دليل على أن التسمية ليست من الفاتحة، إذ لو كانت منها لما أعادها؛ لخلو الإعادة عن الإفادة.

٤ - ﴿مَلِكِ﴾ عاصم وعلي، (مَلِكٍ): غيرهما. وهو الاختيار عند البعض؛ لاستغنائه عن الإضافة، ولقوله ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ولأنَّ كُلَّ مَلِكٍ مَالِكٌ، وليس كل مالك ملكاً، ولأن أمر الملك ينفذ على المالك دون عكسه، وقيل: المالك أكثر ثواباً؛ لأنه أكثر حروفاً. وقرأ أبو حنيفة والحسن - رحمهما الله -: مَلَكٌ.

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء، ويقال: كما تدين ثُدان، أي: كما تفعل تُجَازَى. وهذه إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، أي: مالك الأمر كله في يوم الدين. والتخصيص بيوم الدين لأن الأمر فيه لله وحده. وإنما ساغ وقوعه صفةً للمعرفة مع أنَّ إضافة اسم الفاعل إضافةً غير حقيقية؛ لأنه أريد به الاستمرار، فكانت الإضافة حقيقيةً، فساغ أن يكون صفةً للمعرفة.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

وهذه الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه وتعالى من كونه رباً، أي: مالئاً للعالمين، ومنعماً بالنعم كلها، ومالكاً للأمر كله يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به في قوله ﴿الحمد لله﴾ دليل على أنَّ مَنْ هذه صفاته لم يكن أحداً أحقَّ منه بالحمد والثناء عليه.

٥ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إيا عند الخليل وسيبويه اسم مضمَر. والكاف حرف خطاب عند سيبويه ولا محل له من الإعراب، وعند الخليل هو اسم مضمَر أضيف إيا إليه؛ لأنه يشبه المظهر لتقدمه على الفعل والفاعل. وقال الكوفيون: إياك بكمالها اسم. وتقديم المفعول لقصد الاختصاص، والمعنى: نخضك بالعبادة، وهي: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ونخضك بطلب المعونة. وعدل عن الغيبة إلى الخطاب للالتفات، وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَمَ بِكُمْ يَتِيمٌ فَطَبَقْ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَمَسْقَنَةٌ﴾ [فاطر: ٩] وقول امرئ القيس:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْأَثْمَدِ ونَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَزُقْ^(١)
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلِيلَةُ ذِي الْعَائِرِ الْأَزْمَدِ^(٢)
وَذَلِكَ مِنْ نَبَأٍ جَاءَنِي وَخُبْرَتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْهَدِ

فالتفت في الآيات الثلاثة حيث لم يقل: ليلي، وبت، وجاءك، وللمعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن نظريةً لنشاطه، وأمثلاً^(٣) باستدراب إصغائه. وقد تختصَّ مواقعُه بفوائد ولطائف قلماً تصح إلا للحدِّاق المهرة، والعلماء النحارير، وقليل ما هم. وما اختصَّ به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء،

(١) «الأثمَد»: اسم موضع. «الخلي»: هو الرجل الخلو من الهموم.

(٢) «العائِر»: الذي يجد وجعاً في عينه.

(٣) في حاشية الأصل: في نسخة: وأميل.

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك. وقُدِّمت العبادة على الاستعانة؛ لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة، أو لنظم الآي كما قدم الرحمن، وإن كان الأبلغ لا يقدم. وأطلقت الاستعانة لتتناول كل مستعان فيه. ويجوز أن يراد الاستعانة به ويتوفيقه على أداء العبادة، ويكون قوله «اهدنا» بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا:

٦ - ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: ثبتنا على المنهاج الواضح، كقولك للقائم: قم حتى أعود إليك، أي: اثبت على ما أنت عليه. أو: اهدنا في الاستقبال كما هديتنا في الحال. وهدى يتعدى إلى مفعول بنفسه، فأما تعديه إلى مفعول آخر فقد جاء متعدياً إليه بنفسه كما في هذه الآية، وقد جاء متعدياً باللام وإلى، كقوله تعالى: ﴿هَدَيْنَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله: ﴿هَدَيْنِي رَوْحِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]. والسرائط: الجادة، من سراط الشيء: إذا ابتلعه، كأنه يسطر السَّابِلَة^(١) إذا سلكوه. والسرائط من قلب السين صاداً؛ لتجانس الطاء في الإطباق؛ لأن الصاد والضاد والطاء والظاء من حروف الإطباق. وقد تشمَّ الصاد صوت الزاي؛ لأن الزاي إلى الطاء أقرب؛ لأنهما مجهورتان. وهي قراءة حمزة، والسين قراءة ابن كثير في كل القرآن، وهو الأصل في الكلمة. الباقون بالصاد الخالصة، وهي لغة قريش، وهي الثابتة في الإمام^(٢). ويذكر ويؤث كالطريق والسبيل، والمراد به: طريق الحق، وهو ملة الإسلام.

(١) «السَّابِلَة»: الطريق المسلوكة، والمازؤون عليها.

(٢) أي: المصحف الإمام.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

٧ - ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الصراط، وهو في حكم تكرير العامل. وفائدته: التأكيد والإشعار بأن الصراط المستقيم تفسيره صراط المسلمين؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه، وأكده. وهم المؤمنون، أو الأنبياء عليهم السلام، أو قوم موسى قبل أن يُغَيَّرُوا.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بدل من الذين أنعمت عليهم، يعني: أنَّ المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله تعالى والضلال، أو صفة للذين، يعني: أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال. وإنما ساغ وقوعه صفةً للذين، وهو معرفة، وغير لا يتعرف بالإضافة؛ لأنه إذا وقع بين متضادين، وكانا معرفتين، تعرف بالإضافة، نحو: عجبت من الحركة غير السكون، والمنعم عليهم والمغضوب عليهم متضادان، ولأن الذين قريبٌ من النكرة؛ لأنه لم يُرَدَّ به قومٌ بأعيانهم، وغير المغضوب عليهم قريب من المعرفة؛ للتخصيص الحاصل له بإضافته، فكل واحد منهما فيه إبهامٌ من وجه، واختصاص من وجه، فاستويا. وعليهم - الأولى - محلها النصب على المفعولية، ومحل الثانية الرفع على الفاعلية. وغضب الله: إرادة الانتقام من المكذبين، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده. وقيل: المغضوب عليهم هم اليهود لقوله تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]. والضالون: هم النصاري؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧]. و«لا» زائدة عند البصريين للتوكيد، وعند الكوفيين هي بمعنى غير.

أمين: صوتٌ سُمِّيَ به الفعل الذي هو استجب، كما أن رويد اسمٌ لأهل. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: سألتُ رسول الله ﷺ عن معنى أمين، فقال: «افعل»^(١). وهو مبنئ، وفيه لغتان مد ألفه وقصرها، وهو الأصل، والمند بإشباع الهمزة، قال:

(١) رواه الكلبي. تفسير القرطبي (١/١٢٨).

.....

..... ويرحمُ اللهُ عبداً قال آميناً^(١)
وقال:

..... آمينَ، فزاد الله ما بيننا بُعداً^(٢)
قال ﷺ: «لَقَنَنِي جَبْرِيلُ آمِينَ عِنْدَ قِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّهُ كَالْخَتَمِ عَلَى الْكِتَابِ»^(٣). وليس من القرآن بدليل أنه لم يثبت في المصاحف.

* * *

(١) وصدرة: يا رب لا تسلبني حبّها أبداً.

(٢) عجز بيت، وصدرة: تباعد في فُطْحُلٍ إِذْ سَأَلْتُهُ.

(٣) قال ابن حجر: لم أجده هكذا. (حاشية الكشف ١/١٨).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم

١ - ﴿الْم﴾ ونظائرها: أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم، فالألف تدلُّ على أوسط حروف قال، واللام تدلُّ على الحرف الأخير منه وكذلك ما أشبهها. والدليل على أنها أسماء أن كلاً منها يدلُّ على معنى في نفسه، ويتصرف فيها بالإمالة، والتفخيم، وبالتعريف، والتنكير، والجمع، والتصغير.

وهي معربة، وإنما سكتت سكون زيد وغيره من الأسماء، حيث لا يمسها إعراب لفقد مقتضيه. وقيل: مبنية لأنها كالأصوات نحو: غاق، في حكاية صوت الغراب. ثم الجمهور على أنها أسماء السور. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أقسم الله بهذه الحروف. وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: إنها اسمُ الله الأعظم. وقيل: إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وما سميت معجزة إلا لإعجامها وإبهامها. وقيل: ورود هذه الأسماء على نمط التعديد كالإيقاظ لمن تُحْدِي بالقرآن، وكالتحريك للنظر في أنَّ هذا المتلو عليهم، وقد عجزوا عنه عن آخرهم، كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم؛ ليؤدبهم النَّظْرُ إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم يظهر عجزهم عن أن

يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولات، وهم أمراء الكلام، إلا لأنه ليس من كلام البشر، وأنه كلامُ خالقِ القوى والقدر. وهذا القولُ من الخلاقة^(١) بالقبول بمنزل.

وقيل: إنما وردت السورُ مصدرّةً بذلك ليكون أول ما يقرعُ الأسماع مستقلاً بوجه من الإغراب، وتقدمة من دلائل الإعجاز، وذلك أنَّ النطقَ بالحروف أنفسها كانت العربُ فيه مستوية الأقدام: الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف، فإنه كان مختصاً بمن خط، وقرأ، وخالط أهل الكتاب، وتعلم منهم، وكان مستبعداً من الأميّ التكلّم بها استبعاد الخط والتلاوة، فكان حكم النطق بذلك مع اشتهاؤه أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكم الأفاصيص المذكورة في القرآن؛ التي لم تكن قریش ومَن يضاھيهم في شيء من الإحاطة بها، في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي، وشاهد بصحة نبوته ﷺ.

واعلم أنَّ المذكورة في الفواتح نصفُ أسامي حروف المعجم، وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، وهي مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. فمن المهموسة نصفها: الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء. ومن المجهورة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون. ومن الشديدة نصفها: الألف، والكاف، والطاء، والقاف. ومن الرخوة نصفها: اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون. ومن المطبقة نصفها: الصاد، والطاء. ومن المنفتحة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون. ومن المستعلية نصفها: القاف، والصاد، والطاء. ومن

(١) «الخالق»: الحظ والنصيب من الخير.

المنخفضة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون. ومن حروف القلقله نصفها: القاف، والطاء. وغير المذكورة من هذه الأجناس مكثورة بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظم الشيء ينزل منزلة كله، فكأن الله تعالى عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما مرّ من التبكيت لهم، وإلزام الحجة إياهم. وإنما جاءت مفرقة على السور؛ لأن إعادة التنبيه على المتحدّي به مؤلفاً منها لا غير أوصل إلى الغرض، وكذا كلُّ تكرير وَرَدَ في القرآن، فالمطلوب منه تمكين المكرر في النفوس وتقريره.

ولم تجيء على وتيرة واحدة، بل اختلفت أعداد حروفها مثل: ص، وق، ون، وطه، وطس، ويس، وحم، والم، والر، وطسم، والمص، والمر، وكهيعص، وحم عسق، فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة، كعادة افتنانهم في الكلام. وكما أنّ أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف، سلك في الفواتح هذا المسلك. والم آية حيث وقعت، وكذا المص آية، والمر لم تعد آية، وكذلك الر لم تعد آية في سورها الخمس، وطسم آية في سورتها، وطه ويس آيتان، وطس ليست بآية، وحم آية في سورها كلها، وحم عسق آيتان، وكهيعص آية، وص. ون وق ثلاثتها لم تعد آية. وهذا عند الكوفيين، ومن عداهم لم يعد شيئاً منها آية.

وهذا علمٌ توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور، ويُوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور، ونعق بها كما ينعق بالأصوات، أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله: ﴿الْعَلَّ﴾ [آل عمران: ١] أي: هذه الم، ثم ابتداء فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

ولهذه الفواتح محلٌّ من الإعراب فيمن جعلها أسماء للسور؛ لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام، وهو الرفع على الابتداء، أو النصب والجر لصحة القسم بها، وكونها بمنزلة: الله، والله على اللغتين. ومن لم يجعلها أسماء للسور

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ

لم يتصور أن يكون لها محل في مذهبه، كما لا محل للجملة المبتدأة وللنفردات المعدودة.

٢ - ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي: ذلك الكتاب الذي وعدوا به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام، أو ذلك إشارة إلى الم. وإنما ذكر اسم الإشارة، والمشار إليه مؤنث، وهو السورة؛ لأنَّ الكتاب إن كان خبره كان ذلك في معناه، ومسماه مسماه، فجاز إجراء حكمه عليه بالتذكير، وإن كان صفة فالإشارة به إلى الكتاب صريحاً؛ لأن اسم الإشارة مشارٌ به إلى الجنس الواقع صفة له. تقول: هند ذلك الإنسان، أو ذلك الشخص فعل كذا. ووجه تأليف ذلك الكتاب مع الم إن جعلت الم اسماً للسورة أن يكون الم مبتدأ، وذلك مبتدأ ثانياً، والكتاب خبره، والجملة خبر للمبتدأ الأول، ومعناه: أن ذلك هو الكتاب الكامل، كأن ما عده من الكتب في مقابلته ناقص، كما تقول: هو الرجل، أي: الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال. وأن يكون الم خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه الم جملة، وذلك الكتاب جملة أخرى. وإن جعلت الم بمنزلة الصوت، كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب، أي: ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك، وهو مصدر رابني: إذا حصل فيه الريبة، وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها، ومنه قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الشك ريبة، وإن الصدق طمأنينة»^(١) أي: فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر، وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن. ومنه: ريب الزمان، وهو: ما يقلق النفوس، ويشخص بالقلوب من نوائبه. وإنما نفى الريب على سبيل الاستغراق، وقد ارتاب فيه كثير؛ لأن المنفي كونه متعلقاً للريب، ومظنة له؛ لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان، بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه، لا أن أحداً لا يرتاب. وإنما لم يقل: لا فيه ريب، كما قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧]

(١) رواه أحمد (٢٠٠/١) والترمذي (٢٥١٨).

فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ

لأن المراد في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنه حق لا باطل كما يزعم الكفار. ولو أولى الظرف لبعد عن المراد، وهو أن كتاباً آخر فيه ريب لا فيه، كما قصد في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصفات: ٤٧] تفضيل خمر الجنة على خمر الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي.

والوقف على فيه هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفاً على لا ريب، ولا بد للواقف من أن ينوي خبراً، والتقدير: لا ريب فيه ﴿فِيهِ هُدًى﴾ فيه بإشباع كل هاء، مكى. ووافقه حفص في ﴿فِيهِ مَهْكَنًا﴾ [الفرقان: ٦٩] وهو الأصل، كقولك: مررت به، ومن عنده، وفي داره، فكما لا يقال: في داره، ومن عنده، وجب ألا يقال: فيه. قال سيبويه: ما قاله مؤد إلى الجمع بين ثلاثة أحرف سواكن الباء قبل الهاء والهاء، إذ الهاء المتحركة في كلامهم بمنزلة الساكنة؛ لأن الهاء خفية فالخفي قريب من الساكن، والياء بعدها. والهدى مصدر على فعل كالبكى، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]. وإنما قيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون مهتدون؛ لأنه كقولك للعزيز المكرم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته، كقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ولأنه سَمَاهُمْ عند مشارفتهم لا كتساء لباس التقوى متقين، كقوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»^(١) وقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا أراد أحدكم الحجَّ فليعجل فإنه يمرضُ المريض. فسَمَى المشارف للقتل والمرض قَتِيلًا ومريضاً. ولم يقل: هدى للضالين؛ لأنهم فريقان: فريق علم بقاءهم على الضلالة، وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى، وهو هدى لهؤلاء فحسب، فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقليل: هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال، فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا، فقليل: هدى للمتقين مع أن فيه تصديراً للسورة؛ التي هي أولى

.....

الزهاوين، وسنام القرآن؛ بذكر أوليائه تعالى.

والمتقي في اللغة اسم فاعل، من قولهم: وقاه فاتقى، ففاؤها واو ولامها ياء، فإذا بنيت من ذلك افتعل قلبت الواو تاء، وأدغمتها في التاء الأخرى، فقلت: اتقى، والوقاية: فرط الصيانة؛ وفي الشريعة: مَنْ يقي نفسه تعاطي ما يستحقُّ به العقوبة من فعل أو ترك. ومحل هدى الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر مع لا ريب فيه لـ: ذلك، أو النصب على الحال من الهاء في: فيه. والذي هو أرسخُ عرقاً في البلاغة أن يقال قوله: ﴿الم﴾ جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية و﴿لا ريب فيه﴾ جملة ثالثة و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة.

وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف عطف، وذلك لمجيئها متأخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك: أنه نبّه أولاً على أنه الكلام المتحدّى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي، ثم نفى عنه أن يتشبه به طرفٌ من الريب، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لعالم: فيم لذتك؟ قال: في حجة تتبخر اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً.

ثم أخبر عنه بأنه ﴿هدى للمتقين﴾ فقرّر بذلك كونه يقيناً لا يحومُ الشك حوله وحقاً ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾. ثم لم تخلُ كلُّ واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم الرشيق من نكتة ذات جزالة. ففي الأولى الحذف والرمز إلى المطلوب بألطف وجه، وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف، وفي الرابعة الحذف، ووضع المصدر، الذي هو هدى، موضع الوصف، الذي هو هاد، كأن نفسه هداية، وإيراده منكرراً، ففيه إشعارٌ بأنه هدى لا يكتنه كنهه، والإيجاز في ذكر المتقين كما مرّ.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

٣ - ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع أو نصب على المدح، أي: هم ﴿الذين يؤمنون﴾ أو: أعني ﴿الذين يؤمنون﴾ أو هو مبتدأ، وخبره ﴿أولئك على هدى﴾ أو جر على أنه صفة للمتقين. وهي صفة واردة بياناً وكشفاً للمتقين، كقولك: زيد الفقيه المحقق؛ لاشتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من الإيمان؛ الذي هو أساس الحسنات، والصلاة والصدقة: فهما أمّا العبادات البدنية والمالية، وهما العيار^(١) على غيرهما. ألا ترى أن النبي ﷺ سَمَّى الصلاة عماد الدين، وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة، وسَمَّى الزكاة فطرة الإسلام، فكان من شأنهما استتباع سائر العبادات؛ ولذا اختصر الكلام بأن استغنى عن عد الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين. أو صفة مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها كقولك: زيد الفقيه المتكلم الطيب، ويكون المراد بالمتقين: الذين يجتنبون السيئات ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون. وهو إفعال من الأمن، وقولهم: آمَنه، أي: صدقه، وحقيقته: آمَنه التكذيب والمخالفة. وتعديته بالباء لتضمُّنه معنى أقرّ واعترف ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بما غاب عنهم؛ مما أنبأهم به النبي ﷺ من أمر البعث، والنشور، والحساب وغير ذلك. فهو بمعنى الغائب، تسمية بالمصدر، من قولك: غاب الشيء غيباً. هذا إن جعلته صلة للإيمان، وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء، أي: يؤمنون غائبين عن المؤمن به، وحقيقته: متلبسين بالغيب. والإيمان الصحيح أن يقرّ باللسان، ويصدق بالجنان، والعمل ليس بداخل في الإيمان ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يؤدونها، فعبر عن الأداء بالإقامة؛ لأن القيام بعض أركانها، كما عبر عنه بالقنوت، وهو: القيام، وبالركوع والسجود والتسبيح لوجودها فيها. أو أريد بإقامة الصلاة تعديل أركانها، من أقام العود: إذا قومه؛ أو الدوام عليها والمحافظة، من قامت السوق: إذا نفقت؛ لأنه إذا حوِّط عليها كانت كالشيء التّافق الذي تتوجّه إليه الرغبات،

(١) «العيار»: ما اتُّخذ أساساً للمقارنة والتقدير.

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ

وإذا ضُيِّعت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه. والصلاة فعلة من صلي، كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى: حرك الصلوتين، أي: الأليتين؛ لأن المصلي يفعل ذلك في ركوعه وسجوده. وقيل للداعي: مصل، تشبيهاً له في تحشُّعه بالراعي والساجد ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم، وما بمعنى الذي ﴿يُنْفِقُونَ﴾ يتصدقون. أدخل من التبعية صيانة لهم عن التبذير المنهي عنه، وقدم المفعول دلالة على كونه أهم. والمراد به: الزكاة؛ لا اقترانه بالصلاة التي هي أختها، أو هي وغيرها من النفقات في سُبُل الخير لمجيئه مطلقاً. وأنفق الشيء وأنفذه أخوان، كنفق الشيء ونفد، وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء فداًل على معنى الخروج والذهاب. ودلت الآية على أن الأعمال ليست من الإيمان، حيث عطف الصلاة والزكاة على الإيمان، والعطف يقتضي المغايرة.

٤ - ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه؛ من الذين آمنوا بكل وحي أنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات. ثم إن عطفَتهم على الذين يؤمنون بالغيب دخلوا في جملة المتقين. وإن عطفَتهم على المتقين لم يدخلوا، فكأنه قال: هدى للمتقين وهدى للذين يؤمنون بما أنزل إليك. أو المراد به وصف الأولين، ووسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك: هو الشجاع والجواد. وقوله:

إلى الملك القزم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم والمعنى: أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن. والمراد جميع القرآن لا القدر الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم؛ لأنَّ الإيمان بالجميع واجب. وإنما عبّر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقياً، تغليبا للموجود على ما لم يوجد، ولأنه إذا كان بعضه نازلاً، وبعضه منتظر النزول،

وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢﴾

جعل كأن كله قد نزل ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: سائر الكتب المنزلة على النبيين عليهم الصلاة والسلام ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ هي تأنيث الآخر الذي هو ضد الأول، وهي صفة، والموصوف محذوف، وهو الدار؛ بدليل قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣] وهي من الصفات الغالبة، وكذلك الدنيا. وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة، وألقى حركتها على اللام ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه.

٥ - ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ الجملة في موضع الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ، وإلا فلا محل لها. ويجوز أن يجري الموصول الأول على المتقين، وأن يرتفع الثاني على الابتداء، وأولئك خبره، ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب؛ الذين لا يؤمنون بنبوّة رسول الله ﷺ، وهم ظانّون أنّهم على الهدى، وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله. ومعنى الاستعلاء في ﴿على هدى﴾ مثلاً لتمكّنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسّكهم به بحيث شبّهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل. وقد صرّحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً، وامتنى الجهل، واقتعد غارب الهوى. ومعنى ﴿هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: أوتوه من عنده. ونكر هدى ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه، كأنه قيل: على أي هدى. ونحوه: لقد وقعت على لحم، أي: على لحم عظيم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الظافرون بما طلبوا، الناجون عما هربوا، فالفلاح: درك البغية، والمفلح: الفائز بالبغية، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر. والتركيب دالٌّ على معنى الشق والفتح، وكذا أخواته في الفاء والعين نحو: فلق، وفلذ، وفلى. وجاء بالعطف هنا بخلاف قوله: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لاختلاف الخبرين المقتضيين للعطف هنا، واتحاد الغفلة، والتشبيه بالبهائم ثم، فكانت الثانية مقرّرة للأولى، وهي من العطف بمعزل. وهم فصل، وفائدته الدلالة على أنّ الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره. أو هو مبتدأ،

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ

والمفلحون خبره، والجملة خبر أولئك. فانظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهي: ذكر اسم الإشارة، وتكريره، ففيه تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الأثرة بالهدى، فهي ثابتة لهم بالفلاح. وتعريف «المفلحون» ففيه دلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم يفلحون في الآخرة، كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك، فاستخبرت من هو، ف قيل: زيد التائب، أي: هو الذي أُخْبِرْتُ بتوبته. وتوسط الفصل بينه وبين أولئك ليبصرك مراتبهم، ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا. اللهم زيننا بلباس التقوى، واحشرنا في زمرة مَنْ صَدَرَتْ بذكرهم سورة البقرة.

٦ - لما قَدَّمَ ذكر أولياته بصفاتهم المقربة إليه، وَبَيَّنَ أَنَّ الكتاب هدى لهم، فَقَيَّ على أثره بذكر أضدادهم، وهم العتاة المردة الذين لا ينفعُ فيهم الهدى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. الكفر: ستر الحق بالجحود. والتركيب دالٌّ على الستر، ولذا سُمِّي الزارع كافراً، وكذا الليل. ولم يأتِ بالعاطف هنا كما في قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [١٢] وَلَئِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [الانفطار: ١٣ - ١٤] لَأَنَّ الجملة^(١) هنا مسوقة لذكر الكتاب بياناً، لا خبراً عن المؤمنين، وسيقت الثانية للإخبار عن الكفار بكذا. فبين الجملتين تفاوتٌ في المراد، وهما على حدٍّ لا مجال للعطف فيه. وإن كان مبتدأ على تقدير فهو كالجارى عليه. والمراد بالذين كفروا: أناس بأعيانهم علم الله أنهم لا يؤمنون، كأبي جهل، وأبي لهب، وأضراهما ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ بهمزين، كوفي. وسواء بمعنى الاستواء، وصف به كما يوصف بالمصادر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٌ﴾ [آل عمران: ٦٤] أي: مستوية. وارتفاعه على أنه خبر لإن و﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ أم لم تنذرهم ﴿مرتفعٌ به على الفاعلية، كأنه قيل: إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه. أو يكون سواء خبراً مقدماً و﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ أم لم تنذرهم﴾ في

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ

موضع الابتداء، أي: سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لأن. وإنما جاز الإخبار عن الفعل، مع أنه خبر أبدأ؛ لأنه من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى. والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً. قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام، كما جرى على حرف النداء في قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة. يعني: إن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما جرى ذلك على صورة النداء ولا نداء. والإنذار: التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مؤكدة للجملة قبلها، أو خبر لأن، والجملة قبلها اعتراض، أو خبر بعد خبر. والحكمة بالإنذار مع العلم بالإصرار إقامة للحجة، وليكون الإرسال عاماً، وليثاب الرسول ﷺ.

٧ - ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال الزجاج: الختم: التغطية؛ لأنَّ في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه تغطية له لئلا يطلع عليه. وقال ابن عباس: طبع الله على قلوبهم فلا يعقلون الخير. يعني: إنَّ الله طبع عليها، فجعلها بحيث لا يخرج منها ما فيها من الكفر، ولا يدخلها ما ليس فيها من الإيمان. وحاصل الختم والطبع: خَلَقَ الظلمة والضيق في صدر العبد عندنا، فلا يؤمن ما دامت تلك الظلمة في قلبه؛ وعند المعتزلة إعلامٌ محضٌ على القلوب بما يظهر للملائكة أنهم كفار، فيلعبونهم، ولا يدعون لهم بخير. وقال بعضهم: إنَّ إسنَادَ الختم إلى الله تعالى مجاز، والخاتم في الحقيقة الكافر، إلا أنه تعالى لما كان هو الذي أقدره وأمكنه أسند إليه الختم، كما يسند الفعل إلى السبب، فيقال: بنى الأمير المدينة؛ لأنَّ للفعل ملابسات شتى، يلبس الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان، والمكان، والمسبب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء مجازاً؛ لمضاهاتها الفاعل في ملابسة الفعل، كما يضاهي الرجل الأسد في جرأته، فيستعار له اسمه. وهذا فرع مسألة خَلَقَ الأفعال ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ وخذ السمع كما وخذ البطن في قوله: كلوا في بعض بطنكم تعفوا؛ لأمن اللبس، ولأنَّ السمع مصدر في أصله، يقال: سمعت الشيء سمعاً وسماعاً، والمصدر

وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ
وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ

لا يجمع؛ لأنه اسم جنس، يقع على القليل والكثير، فلا يحتاج فيه إلى التثنية والجمع، فلمح الأصل. وقيل: المضاف محذوف، أي: وعلى مواضع سمعهم. وقرئ ﴿وعلى أسماعهم﴾ ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ بالرفع خبر ومبتدأ. والبصر: نور العين، وهو: ما يبصر به الرائي، كما أن البصيرة: نور القلب، وهي: ما به يستبصر ويتأمل، وكأنهما جوهرا ن لطيفان خلقهما الله تعالى، فيهما آلتين للإبصار والاستبصار. والغشاوة: الغطاء، فعالة، من غشاه: إذا غطاه. وهذا البناء لما يشتمل على الشيء، كالعصابة، والعمامة، والقلادة. والأسماع داخلة في حكم الختم لا في حكم التغطية؛ لقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَقَلْبِهِمْ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم. ونصب المفضل وحده غشاوة بإضمار جعل. وتكرير الجار في قوله: ﴿وعلى سمعهم﴾ دليل على شدة الختم في الموضوعين. قال: الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: الكافر لما لم يسمع قول الحق، ولم ينظر في نفسه وغيره من المخلوقين ليرى آثار الحدث، فيعلم أن لا بد له من صانع، جعل كأن على بصره وسمعه غشاوة، وإن لم يكن ذلك حقيقة. وهذا دليل على أن الأسماع عنده داخلة في حكم التغطية. والآية حُجَّةٌ لنا على المعتزلة في الأصلح، فإنه تعالى أخبر أنه ختم على قلوبهم، ولا شك أن ترك الختم أصلح لهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب مثل النكال بناء ومعنى؛ لأنك تقول: أعذب عن الشيء: إذا أمسك عنه، كما تقول: نكل عنه. والفرق بين العظيم والكبير، أن العظيم يقابل الحقيق، والكبير يقابل الصغير، فكأن العظيم فوق الكبير، كما أن الحقيق دون الصغير. ويستعملان في الجثث والأحداث جميعاً، تقول: رجل عظيم وكبير، تريد: جثته، أو خطره. ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعاً من التغطية غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاء التعمامي عن آيات الله، ولهم من بين الآلام العظام نوعٌ عظيم من العذاب، لا يعلم كنهه إلا الله تعالى.

٨ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ افتتح سبحانه وتعالى بذكر

وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ثم ثنى بالكافرين قلوباً وألسنة، ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبت الكفرة؛ لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وعناداً، ولذا نزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وقال مجاهد: أربع آيات من أول السورة في نعت المؤمنين، وآيتان في ذكر الكافرين، وثلاث عشرة آية في المنافقين، نعى عليهم فيها مكرهم، وخبثهم، وسفههم، واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكّم بفعلهم، وسجل بطغيانهم، وعمهم، ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة.

وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا، كما تعطف الجملة على الجملة. وأصل ناس: أناس حذفته همزته تخفيفاً. وحذفها مع لام التعريف كاللازم، لا يكاد يقال: الأناس. ويشهد لأصله: إنسان، وأناسي، وإنس. وسُمُّوا بذلك لظهورهم، وأنهم يؤنسون، أي: يبصرون، كما سُمِّي الجن لاجتنانهم. ووزن ناس فعال؛ لأن الزنة على الأصول، فإنك تقول وزن قِ افعال، وليس معك إلا العين. وهو من أسماء الجمع، ولام التعريف فيه للجنس. ومن موصوفة، ويقول: صفة لها، كأنه قيل: ومن الناس ناس يقولون كذا، وإنما خصّوا بالإيمان بالله واليوم الآخر، وهو الوقت الذي لا حد له، وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع. وإنما سُمِّي بالآخر لتأخره عن الأوقات المنقضية، أو الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ لأنهم أوهموها في هذا المقال أنهم أحاطوا بجانبَي الإيمان أوله وآخره. وهذا لأنَّ حاصل المسائل الاعتقادية يرجعُ إلى مسائل المبدأ، وهي: العلم بالصانع وصفاته وأسمائه، ومسائل المعاد، وهي: العلم بالنشور، والبعث من القبور، والصراط، والميزان، وسائر أحوال الآخرة. وفي تكرير الباء إشارة إلى أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام. وإنما طابق قوله ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ - وهو في ذكر شأن الفاعل لا الفعل - قولهم ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ وهو في ذكر شأن الفعل لا الفاعل، لأنَّ المراد إنكار ما ادَّعوه

يُخَادِعُونَ اللَّهَ

ونفيه على أبلغ وجه وأكده، وهو: إخراج ذواتهم من أن تكون طائفة من المؤمنين. ونحوه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] فهو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها. وأطلق الإيمان في الثاني بعد تقييده في الأول؛ لأنه يحتمل أن يراد التقييد، ويترك للدلالة المذكور عليه، ويحتمل أن يُراد نفي أصل الإيمان وفي ضمنه نفي المذكور أولاً. والآية تنفي قول الكرامية: إنَّ الإيمانَ هو الإقرارُ باللسان لا غير؛ لأنه نفى عنهم اسم الإيمان مع وجود الإقرار منهم. وتؤيد قول أهل السنة: إنه إقرار باللسان وتصديق بالجنان. ودخلت الباء في خبر ما مؤكدة للنفي؛ لأنه يستدلُّ به السامع على الجحد إذا غفل عن أول الكلام. ومَنْ موحد اللفظ، فلذا قيل: يقول. وجمع ﴿وما هم بمؤمنين﴾ نظراً إلى معناه.

٩ - ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي: رسول الله، فحذف المضاف كقوله: ﴿وَسَلِّ الْقُرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] كذا قاله أبو علي - رحمه الله - وغيره، أي: يظهرون غير ما في أنفسهم، فالخداعُ: إظهارُ غير ما في النفس. وقد رفع الله منزلة النبي ﷺ حيث جعل خداعه هو خداعه، وهو كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وقيل: معناه يخادعون الله في زعمهم؛ لأنهم يظنون أنَّ الله ممن يصحُّ خداعه. وهذا المثال يقع كثيراً لغير اثنين، نحو قولك: عاقبت اللص. وقد قرئ: يخدعون الله. وهو بيانٌ ليقول، أو مستأنف، كأنه قيل: ولم يدعون الإيمان كاذبين؟ وما منفعتهم في ذلك؟ فقيل: ﴿يخادعون الله﴾ ومنفعتهم في ذلك: متاركتهم عن المحاربة التي كانت مع من سواهم من الكفار، وإجراء أحكام المؤمنين عليهم، ونيلهم من الغنائم، وغير ذلك. قال صاحب «الوقوف»: الوقف لازم على ﴿بمؤمنين﴾ لأنه لو وصل لصار التقدير: وما هم بمؤمنين مخادعين، فينتفي الوصف، كقولك: ما هو برجل كاذب، والمراد: نفي الإيمان عنهم، وإثبات الخداع لهم. ومَنْ جعل يخادعون حالاً من الضمير في: يقول، والعامل فيها: يقول، والتقدير: يقول آمنا بالله مخادعين، أو حالاً من الضمير في بمؤمنين، والعامل فيها اسم الفاعل،

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

والتقدير: وما هم بمؤمنين في حال خداعهم، لا يقف. والأول الوجه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يخادعون رسول الله والمؤمنين بإظهار الإيمان، وإضمار الكفر ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم؛ لأنَّ ضررها يلحقهم، وحاصل خداعهم - وهو العذاب في الآخرة - يرجع إليهم، فكأنهم خدعوا أنفسهم ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ أبو عمرو ونافع ومكي للمطابقة. وعذر الأولين أن خدع وخادع - هنا - بمعنى واحد. والنفس: ذات الشيء وحقيقته، ثم قيل للقلب والروح: النفس؛ لأن النفس بهما، وللدنفس نفس؛ لأنَّ قوامها بالدم، وللماء نفس لفرط حاجتها إليه. والمراد بالأنفس - هاهنا - ذواتهم. والمعنى بمخادعتهم ذواتهم: أن الخداع لاصق بهم، لا يعدوهم إلى غيرهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن حاصل خداعهم يرجع إليهم. والشعور: علم الشيء علم حس، من الشعار، وهو: ثوب يلي الجسد. ومشاعر الإنسان: حواسه؛ لأنها آلات الشعور. والمعنى: إن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتمامي غفلتهم كالذي لاحس له.

١٠ - ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق؛ لأن الشك تردّد بين الأمرين، والمنافق متردد. في الحديث: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين»^(١). والمريض متردد بين الحياة والموت. ولأن المرض ضد الصحة، والفساد يقابل الصحة، فصار المرض اسماً لكل فساد، والشك والنفاق فساد في القلب ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: ضعفاً عن الانتصار، وعجزاً عن الاقتدار. وقيل: المراد به خلق النفاق في حالة البقاء بخلق أمثاله، كما عرف في زيادة الإيمان ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فاعيل بمعنى مفعول، أي: مؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ كوفي. أي: بكذبهم في قولهم: ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ فما مع الفعل بمعنى

(١) رواه أحمد (٣٢/٢ و ٤٧) ومسلم (٢٧٨٤) والنسائي (١٢٤/٨).

و «العائرة»: هي التي تفارق جماعة الغنم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

المصدر. والكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه ﴿يَكْذِبُونَ﴾ غيرهم، أي: بتكذيبهم النبي ﷺ فيما جاء به. وقيل: هو مبالغة في كذب، كما بولغ في صدق فقيل: صدق. ونظيرهما: بان الشيء وبين.

١١ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ معطوف على: يقول آمنا^(١)، لأنك لو قلت: ومن الناس من إذا قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لكان صحيحاً. والفساد: خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، وضده: الصلاح، وهو: الحصول على الحال المستقيمة النافعة. والفساد في الأرض: هيج الحروب والفتن؛ لأن في ذلك فساد ما في الأرض، وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس، والزروع، والمنافع الدينية والدنيوية. وكان فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار، ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم، وإغرائهم عليهم، وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بين المؤمنين والكافرين بالمدارة، يعني: إن صفة المصلحين خلصت لنا، وتمحضت من غير شائبة قاذح فيها من وجه من وجوه الفساد؛ لأن إنما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم، كقولك: إنما ينطلق زيد، وإنما زيد كاتب. وما: كافة؛ لأنها تكفها عن العمل.

١٢ - ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مفسدون، فحذف المفعول للعلم به. ألا: مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي؛ لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِيرٍ﴾ [القيامة: ٤٠]. ولكونها في هذا المنصب من التحقيق لا تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم. وقد ردّ الله ما ادّعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ ردّ، وأدلّه على سخط عظيم. والمبالغة فيه

(١) في المطبوع: معطوف على: يكذبون، ويجوز أن يعطف على: يقول آمنا.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

من جهة الاستئناف، وما في ألوان من التأكيد، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل،
وقوله: ﴿لَا يشعرون﴾.

١٣ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ نصحوهم
من وجهين: أحدهما: تقييح ما كانوا عليه لبعده عن الصواب وجره إلى الفساد،
وثانيهما: تبصيرهم الطريق الأسد من اتباع ذوي الأحلام. فكان من جوابهم أن
سقّوهم لتماذي جهلهم. وفيه تسلية للعالم مما يلقي من الجهلة. وإنما صح
إسناد قيل إلى لا تفسدوا وآمنوا، مع أن إسناد الفعل إلى الفعل لا يصح؛ لأنه
إسناد إلى لفظ الفعل، والممتنع إسناد الفعل إلى معنى الفعل، فكأنه قيل: وإذا
قيل لهم هذا القول. ومنه: زعموا مطية الكذب. وما في كما: كافة كما في
ربما، أو مصدرية كما في ﴿يَمَارَحُجَّتْ﴾ [التوبة: ٢٥]. واللام في الناس
للعهد، أي: كما آمن الرسول ﷺ ومن معه، وهم ناس معهودون، أو عبد الله
بن سلام وأشياعه، أي: كما آمن أصحابكم وإخوانكم. أو للجنس، أي: كما
آمن الكاملون في الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن
عداهم كالبهائم. والكاف في ﴿كما آمن﴾ في موضع النصب؛ لأنه صفة مصدر
محذوف، أي: إيماناً مثل إيمان الناس، ومثله ﴿كما آمن السفهاء﴾.
والاستفهام في ﴿أنؤمن﴾ للإنكار. واللام في السفهاء مشار بها إلى الناس. وإنما
سقّوهم - وهم العقلاء المراجع^(١) - لأنهم لجهلهم اعتقدوا أن ما هم فيه هو
الحق، وأن ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً. والسفه: سخافة
العقل، وخفة الحلم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم هم السفهاء.
وإنما ذكر - هنا - لا يعلمون، وفيما تقدم: لا يشعرون؛ لأنه قد ذكر السفه،
وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له، ولأن الإيمان يحتاج فيه إلى
نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة. أما الفساد في الأرض فامرٌ مبنيٌّ

(١) «المراجع»: جمع مِرْجَاح، وهو الخليم.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

على العادات، فهو كالمحسوس. والسفهاء: خبر إن. وهم: فصل، أو مبتدأ، والسفهاء: خبر هم. والجملة: خبر إن.

١٤ - ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ قرأ أبو حنيفة - رحمه الله - ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ يقال: لقيته ولاقيته: إذا استقبلته قريباً منه. الآية الأولى في بيان مذهب المنافقين والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون مع المؤمنين من الاستهزاء بهم، ولقائهم بوجوه المصدقين، وإيهامهم أنهم معهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ خلوت بفلان وإليه: إذا انفردت معه. ويلى أبلغ؛ لأن فيه دلالة الابتداء والانتهاء، أي: إذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم. ويجوز أن يكون من خلا بمعنى مضى. وشياطينهم: الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم، وهم اليهود. وعن سيبويه أن نون الشياطين أصلية، بدليل قولهم: تشيطن. وعنه: أنها زائدة. واشتقاقه من: شطن: إذا بعد؛ لبعده من الصلاح والخير، أو من شاط: إذا بطل، ومن أسمائه: الباطل ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم. وإنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بأن، لأنهم في خطابهم مع المؤمنين في ادعاء حدوث الإيمان منهم، لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان، إما لأن أنفسهم لا تساعدكم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث وتحرك، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التأكيد والمبالغة. وكيف يطمعون في رواجه وهم بين ظهرائي المهاجرين والأنصار. وأما خطابهم مع إخوانهم فقد كان^(١) عن رغبة، وقد كان متقبلاً منهم، رائجاً عنهم، فكان مظنة للتحقيق، ومثنة^(٢) للتأكيد ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ تأكيد لقوله ﴿إنا معكم﴾ لأن معناه الثبات على اليهودية، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ رد للإسلام، ودفع له منهم؛ لأن المستهزىء بالشيء،

(١) في الأصل المخطوط: كانوا، والمثبت من المطبوع؛ لأنه أنسب للسياق.

(٢) «مثنة»: موضع ومثنته.

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ
بِالْهُدَى

المستخف به: منكر له، ودافع لكونه معتداً به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته. أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم بقولهم، حين قالوا لهم: إنا معكم: إن كنتم معنا فلم توافقون المؤمنين؟ فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾. والاستهزاء السخرية والاستخفاف، وأصل الباب: الخفة، من الهزء، وهو القتل السريع، وهزأ يهزأ: مات على المكان.

١٥ - ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يجازيهم على استهزائهم، فسمي جزاء الاستهزاء باسمه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] فسمي جزاء السيئة سيئة، وجزاء الاعتداء اعتداء، وإن لم يكن الجزاء سيئة واعتداء. وهذا لأن الاستهزاء لا يجوز على الله تعالى من حيث الحقيقة؛ لأنه من باب العبث، وتعالى عنه. قال الزجاج: وهو الوجه المختار. واستئناف قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ من غير عطف، في غاية الجزالة والفخامة، وفيه: إن الله تعالى هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ، الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، لما ينزل بهم من النكال والدُّل والهوان. ولما كانت نكايات الله وبلاياه تنزل عليهم ساعة فساعة قيل: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ولم يقل: الله مستهزئ بهم؛ ليكون طبقاً لقوله: إنما نحن مستهزون ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يمهلهم. عن الزجاج ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في غلوهم في كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال، أي: يتحIRON ويترددون. وهذه الآية حُجَّةٌ على المعتزلة في مسألة الأصلح.

١٦ - ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ خبره: ﴿الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي: استبدلوا بها، واختاروها عليه. وإنما قال: ﴿اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ ولم يكونوا على هدى؛ لأنها في قوم آمنوا ثم كفروا، أو في اليهود الذين كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ، فلما جاءهم كفروا به، أو جعلوا التمكنهم منه كأن الهدى قائم فيهم، فتركوه بالضلالة. وفيه دليل على جواز البيع تعاطياً؛ لأنهم لم يتلفظوا بلفظ الشراء، ولكن تركوا الهدى بالضلالة عن اختيار، وسمى ذلك

فَمَا رِبِحَتْ يَجْعَرْتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا

شراء، فصار دليلاً لنا على أَنَّ مَنْ أَخَذَ شَيْئاً مِنْ غَيْرِهِ، وَتَرَكَ عَلَيْهِ عَوْضَهُ بِرِضَاهُ، فَقَدْ اشْتَرَاهُ وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ. وَالضَّلَالَةُ: الْجُورُ عَنِ الْقَصْدِ، وَقَدْ الْاهْتِدَاءُ. يُقَالُ: ضَلَّ مَنْزِلَهُ، فَاسْتَعِيرَ لِلذَّهَابِ عَنِ الصَّوَابِ فِي الدِّينِ ﴿فَمَا رِبِحَتْ يَجْعَرْتُهُمْ﴾ الرِّبْحُ: الْفَضْلُ عَلَى رَأْسِ الْمَالِ، وَالتَّجَارَةُ: صِنَاعَةُ التَّاجِرِ، وَهُوَ الَّذِي يَبِيعُ وَيَشْتَرِي لِلرِّبْحِ. وَإِسْنَادُ الرِّبْحِ إِلَى التَّجَارَةِ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، وَمَعْنَاهُ: فَمَا رِبِحُوا فِي تِجَارَتِهِمْ، إِذِ التَّجَارَةُ لَا تَرْبِحُ. وَلَمَّا وَقَعَ شِرَاءُ الضَّلَالَةِ بِالْهَدْيِ مَجَازاً أَتْبَعَهُ ذِكْرَ الرِّبْحِ وَالتَّجَارَةِ تَرْشِيحاً لَهُ، كَقَوْلِهِ:

وَمَا رَأَيْتُ النَّسْرَ عَزَّ ابْنَ دَأْيَةٍ وَعَشَّشَ فِي وَكْرِيهِ جَاشَ لَهُ صَدْرِي

وَلَمَّا شَبَّ الشَّيْبَ بِالنَّسْرِ وَالشَّعْرَ الْفَاحِمَ بِالْغُرَابِ، أَتْبَعَهُ ذِكْرَ التَّعْشِيشِ وَالْوَكْرِ ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لَطَرِيقِ التَّجَارَةِ، كَمَا يَكُونُ التَّجَارُ الْمُتَصَرِّفُونَ الْعَالَمُونَ بِمَا يَرِيحُ فِيهِ وَيَخْسِرُ. وَالْمَعْنَى: إِنْ مَطْلُوبَ التَّجَارِ سَلَامَةٌ رَأْسِ الْمَالِ وَالرِّبْحِ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ أَضَاعُوهُمَا، فَرَأْسُ مَالِهِمُ الْهَدْيُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَعَ الضَّلَالَةِ، وَإِذَا لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا الضَّلَالَةُ لَمْ يَوْصَفُوا بِإِصَابَةِ الرِّبْحِ، وَإِنْ ظَفَرُوا بِالْأَغْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ، لِأَنَّ الضَّالَّ خَاسِرٌ، وَلَأنَّهُ لَا يُقَالُ لِمَنْ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ رَأْسُ مَالِهِ: قَدْ رِبِحَ. وَقِيلَ: الَّذِينَ: صِفَةُ أَوْلَئِكَ، وَ﴿فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ: فِي حُلِّ الرِّفْعِ خَبَرِ أَوْلَئِكَ.

١٧ - ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لَمَّا جَاءَ بِحَقِيقَةِ صِفَتِهِمْ عَقِبَهَا بِضَرْبِ الْمَثَلِ زِيَادَةً فِي الْكُشْفِ، وَتَتِمِّمًا لِلْبَيَانِ. وَلِضَرْبِ الْأَمْثَالِ فِي إِبْرَازِ خَفِيَّاتِ الْمَعَانِي وَرَفْعِ الْأَسْتَارِ عَنِ الْحَقَائِقِ تَأْثِيرٌ ظَاهِرٌ. وَلَقَدْ كَثُرَ ذَلِكَ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ. وَمِنْ سُورِ الْإِنْجِيلِ سُورَةُ الْأَمْثَالِ. وَالْمَثَلُ فِي أَصْلِ كَلَامِهِمْ: هُوَ الْمَثَلُ، وَهُوَ النَّظِيرُ. يُقَالُ: مِثْلٌ وَمِثْلٌ وَمِثْلٌ كَشِبُهُ وَشَبَّهُ وَشَبِيهِ. ثُمَّ قِيلَ لِلْقَوْلِ السَّائِرِ الْمِثْلُ مُضْرِبُهُ بِمُورَدِهِ: مِثْلٌ. وَلَمْ يَضْرِبُوا مِثْلًا إِلَّا قَوْلًا فِيهِ غَرَابَةٌ، وَلِذَا حُوْفِظَ عَلَيْهِ فَلَا يَغْيَرُ. وَقَدْ اسْتَعِيرَ الْمَثَلُ لِلْحَالِ، أَوِ الصِّفَةِ، أَوِ الْقِصَّةِ إِذَا كَانَ لَهَا شَأْنٌ، وَفِيهَا غَرَابَةٌ. كَأَن قِيلَ: حَالَهُمُ الْعَجِيبَةُ الشَّأْنُ كَحَالِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ أَلْقَى وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أَي: وَفِيمَا قَصَصْنَا

فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة الشأن، ثم أخذ في بيان عجائبها ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] أي: الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة. ووضع الذي موضع الذين كقوله: ﴿وَحُضِّنُمْ كَالَّذِي خَاصُّوا﴾ [التوبة: ٦٩] فلا يكون تمثيل الجماعة بالواحد، أو قصد جنس المستوقدين. أو أريد الفوج الذي استوقد ناراً، على أن ذوات المنافقين لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد. ومعنى استوقد: أوقد. ووقود النار: سطوعها. والنار: جوهر لطيف مضيء حارٌ مُحْرَق. واشتقاقها من: نار ينور؛ إذا نفر؛ لأنَّ فيها حركةً واضطراباً ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الإضاءة: فرطُ الإنارة، ومصدقه قوله ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] وهي في الآية متعددة. [ويحتمل أن تكون غير متعددة]^(١) مسندة إلى ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ والتأنيث للحمل على المعنى؛ لأن ما حول المستوقد أماكن وأشياء. وجواب فلما ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وهو ظرف زمان، والعامل فيه جوابه مثل إذا. وما موصولة، وحوله نصب على الظرف، أو نكرة موصوفة، والتقدير: فلما أضاءت شيئاً ثابتاً حوله. وجمْعُ الضمير وتوحيده للحمل على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى. والثور: ضوء النار، وضوء كل نير. ومعنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً. ومعنى ذهب به: استصعبه، ومضى به. والمعنى: أخذ الله نورهم، وأمسكه ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ الله ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ [فاطر: ٢] فكان أبلغ من الإذهاب. ولم يقل: ذهب الله بضوئهم لقوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ لأنَّ ذِكْرَ النور أبلغ؛ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة، والمراد: إزالة النور عنهم رأساً، ولو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة، وبقاء ما يسمَّى نوراً. ألا ترى كيف ذكر عقيبه ﴿وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ والظلمة: عرض ينافي النور، وكيف جمعها، وكيف نكرها، وكيف أتبعها ما يدُلُّ على أنها ظلمة لا يترأى فيها شبحان، وهو قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾. وترك بمعنى: طرح

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

وخلّى إذا علق بواحد، فإذا علق بشيئين كان مضمناً معنى صير، فيجري مجرى أفعال القلوب، ومنه: ﴿وَرَكَّهْمَ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ أصله: هم في ظلمات، ثم دخل ترك فنصب الجزأين. والمفعول الساقط من ﴿لَا يَبْصُرُونَ﴾ من قبيل المتروك المطروح، لا من قبيل المقدر المنوي، كأنَّ الفعلَ غير متعدٍّ أصلاً، وإنما شُبِّهَتْ حالهم بحال المستوقد؛ لأنهم غبَّ^(١) الإضاءة وقعوا في ظلمةٍ وحيرة. نعم المناقُ خابطٌ في ظلمات الكفر أبداً، ولكن المراد ما استضاءوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجرة على ألسنتهم، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمةُ النفاق، المفضية بهم إلى ظلمة العقاب السرمذ. وللآية تفسيرٌ آخر وهو: أنهم لما وُصِفُوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عَقَبَ ذلك بهذا التمثيل ليمثل هُداهم الذي باعوه بالنار المضئنة ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها بذهاب الله بنورهم، وتركه إياهم في الظُّلمات. وتنكير النار للتعظيم.

١٨ - ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ﴾ أي: هم صُمٌّ. كانت حواشهم سليمة، ولكن لما سَدُّوا عن الإصاحبة إلى الحق مسامعهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم، جعلوا كأنما إيفت مشاعرهم^(٢). وطريقته عند علماء البيان طريقة قولهم: هم ليوثٌ للشجعان، وبحورٌ للأسخياء، إلا أنَّ هذا في الصفات، وذلك في الأسماء. وما في الآية تشبيهٌ بليغٌ في الأصح لا استعارة؛ لأنَّ المستعارَ له مذكورٌ وهم المنافقون، والاستعارة إنما تُطلق حيث يُطوى ذِكْرُ المستعار له، ويجعل الكلامُ خلواً عنه، صالحاً لأن يُراد به المنقول عنه والمنقول إليه، لولا دلالة الحال، أو فحوى الكلام ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها؛ لتنوع الرُّجوع إلى الشيء وعنه. أو أراد أنهم مُتَحَيِّرُونَ، بقوا جامدين في مكاناتهم لا يرجعون ولا يدرون أيتقدّمون أم يتأخّرون.

(١) «الغب»: العاقبة والآخر.

(٢) «إيفت مشاعرهم»: دخلت عليها آفةٌ وعامة.

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعْدٌ وَرَقٌّ

١٩ - ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعْدٌ وَرَقٌّ ﴾ ثنى الله سبحانه وتعالى في شأنهم بتمثيل آخر لزيادة الكشف والإيضاح، شبه المنافقين في التمثيل الأول بالمستوقد ناراً، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار. وهنا شبه دين الإسلام بالصَّيْب؛ لأنَّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر؛ وما يتعلَّق به من شبه الكفار بالظلمات؛ وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق؛ وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصَّواعق. والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، فحذف مثل لدلالة العطف عليه، وذوي لدلالة يجعلون عليه. والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء بهذه الصفة فلقوا منها ما لقوا، فهذا تشبيه أشياء بأشياء، إلا أنه لم يُصرَّح بذكر المشبهات، كما صرح في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّءُ﴾ [غافر: ٥٨]. وقول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي^(١)

بل جاء به مطوياً ذكره على سنن الاستعارة. والصَّحِيحُ أَنَّ التمثيلين من جملة التمثيلات المركبة دون المفردة لأنه يتكلف لواحد واحد شيء بقدر شبهه به. بيانه أَنَّ العرب تأخذُ أشياءً فرادى معزولاً بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحُجْزَة^(٢) ذلك وتشبيهها بنظائرها، كما فعل امرؤ القيس، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامَّت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا...﴾ الآية [الجمعة: ٥] فالمرادُ تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحاليتين عنده من حمل أسفار الحكمة،

(١) «العناب»: ثمر أحمر رطب. «الحشف»: الجاف الرديء من التمر.

(٢) «الحُجْزَة»: موضع شدِّ الإزار من الوسط. يُقال: هذا كلامٌ أخذَ بعضُهُ بِحُجْزٍ بعض: أي: متناسق متماسك.

وحل ما سواها من الأوقار^(١)، ولا يشعر من ذلك إلا بما يمرُّ بدقيّه من التعب والكد. وكقوله: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤٥] فالمراد قلة بقاء زهرة الحياة الدنيا كقلة بقاء الخضر، فهو تشبيه كيفية كيفية. فأما أن يُراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيصة شيئاً واحداً، فلا. فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالهم، وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، شَبَّهَتْ حيرتهم وشدة الأمر بما يكابد من أطفنت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل. وكذلك مَنْ أَخَذَتْهُ السَّمَاءُ فِي اللَّيْلَةِ الْمَظْلَمَةِ مَعَ رَعْدٍ وَبُرْقٍ وَخَوْفٍ مِنَ الصَّوَاعِقِ. وَالتَّمَثِيلُ الثَّانِي أُبْلَغُ؛ لِأَنَّهُ أَدُلُّ عَلَى فِرطِ الْحَيْرَةِ وَشِدَّةِ الْأَمْرِ، وَلِذَا أُخِّرَ. وَهُمْ يَتَدَرَّجُونَ فِي نَحْوِ هَذَا مِنَ الْأَهْوَنِ إِلَى الْأَعْظَى. وَعُطِفَ أَحَدُ التَّمَثِيلَيْنِ عَلَى الْآخَرِ بِأَوْ؛ لِأَنَّهُمَا فِي أَصْلِهِمَا لَتَسَاوِي شَيْئَيْنِ فَصَاعِداً [فِي الشُّكِّ عِنْدَ الْبَعْضِ، ثُمَّ اسْتَعِيرَتْ لِمَجْرَدِ التَّسَاوِي] ^(٢) كَقَوْلِكَ: جَالِسِ الْحَسَنَ أَوْ ابْنَ سِيرِينَ، تَرِيدُ أَنَّهُمَا سَيَّانٌ فِي اسْتِصْوَابٍ أَنْ يُجَالَسَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطْعَمُهُمْ مِنْهُمْ إِيَّامًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أَي: الْآثِمُ وَالْكَفُورُ سَيَّانٌ فِي وَجُوبِ الْعَصِيَانِ. فَكَذَا هُنَا مَعْنَاهُ: أَنَّ كَيْفِيَّةَ قِصَّةِ الْمُنَافِقِينَ مُشَبَّهَةٌ لِكَيْفِيَّتِي هَاتَيْنِ الْقِصَّتَيْنِ، وَأَنَّ الْقِصَّتَيْنِ، سَوَاءٌ فِي اسْتِقْلَالِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِوَجْهِ التَّمَثِيلِ، فَبِأَيْتِهِمَا مِثْلَتُهُمَا فَأَنْتَ مُصِيبٌ، وَإِنْ مِثْلَتُهُمَا بَعْدَ جَمِيعاً فَكَذَلِكَ. وَالصَّيِّبُ: الْمَطَرُ الَّذِي يَصُوبُ، أَي: يَنْزِلُ وَيَقْعُ. وَيُقَالُ لِلْسَّحَابِ: صَيْبٌ أَيْضاً. وَتَنْكِيرُ صَيْبٍ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْمَطَرِ شَدِيدٌ هَائِلٌ، كَمَا نَكَرْتَ النَّارَ فِي التَّمَثِيلِ الْأَوَّلِ. وَالسَّمَاءُ: هَذِهِ الْمَظْلَّةُ. وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّهَا مَوْجٌ مَكْفُوفٌ. وَالْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ السَّمَاءِ - وَالصَّيْبِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ السَّمَاءِ - أَنَّهُ جَاءَ بِالسَّمَاءِ مَعْرِفَةً فَأَفَادَ أَنَّهُ غَمَامٌ أَخَذَ بِأَفَاقِ السَّمَاءِ، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ مِنْ سَمَاءٍ، أَي: مِنْ أَفَقٍ وَاحِدٍ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَفَاقِ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَفَقٍ مِنْ آفَاقِهَا سَمَاءٌ. فَفِي التَّعْرِيفِ مِبَالِغَةٌ كَمَا فِي تَنْكِيرِ صَيْبٍ

(١) «الأوقار»: جمع الوقر، وهو الحمل الثقيل.

(٢) مابين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءَآذَانِهِمْ

وتركيبه وبنائه. وفيه دليلٌ على أنَّ السحابَ من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه. وقيل: إنه يأخذُ من البحر ويرتفع. ظلمات: مرفوع^(١) بالجار والمجرور؛ لأنه قد قوي لكونه صفة لصيَّب، بخلاف ما لو قلت ابتداء: فيه ظلمات، ففيه خلاف بين الأخفش وسيبويه. والرعد: الصَّوت الذي يُسمع من السحاب لاصطكاك أجرام السحاب، أو مَلَك يسوقُ السحاب. والبرق: الذي يلمعُ من السحاب، من برق الشيء بريقاً: إذا لمع. والضمير في فيه يعودُ إلى الصيَّب، فقد جعل الصيَّب مكاناً للظلمات، فإن أريدَ به السحاب فظلماته إذا كان أ سحماً^(٢) مطبقاً، ظلماتا سُحُمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل. وأما ظلمات المطر فظلمةُ تكاثفه بتتابع القطر وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة الليل. وجعل الصيَّب مكاناً للرعد والبرق على إرادة السحاب به ظاهر. وكذا إن أريدَ به المطر؛ لأنهما مُلتبسان به في الجملة. ولم يجمع الرعد والبرق لأنهما مصدران في الأصل، يقال: رعدت السماء رعداً، وبرقت برقاً، فروعي حُكْمُ الأصل بأن ترك جمعهما. وتكررت هذه الأشياء لأن المراد أنواعٌ منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءَآذَانِهِمْ﴾ الضمير لأصحاب الصيَّب وإن كان محذوفاً، كما في قوله: ﴿أَوْهَمَ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] لأن المحذوف باقٍ معناه وإن سقط لفظه. ولا محلّ ليجعلون لكونه مستأنفاً؛ لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدة والهول، فكأنَّ قائلاً قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ ف قيل: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءَآذَانِهِمْ﴾ ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقال: ﴿يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] وإنما ذكر الأصابع، ولم يذكر الأنامل، ورؤوس الأصابع هي التي تُجعل في الآذان، اتساعاً، كقوله: ﴿فَأَقْطَعُوا آيِدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] والمراد إلى الرسغ. ولأنَّ في ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل. وإنما لم يذكر الأصبع الخاص الذي تُسدُّ به الأذن؛ لأن السبابة فعالة من السب، فكان

(١) من المطبوع.

(٢) «أسحماً»: أسود.

مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا

اجتنابها أولى بآداب القرآن، ولم يذكر المُسَبِّحَة لأنها مُستحدثة غير مشهورة ﴿مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ متعلق بيجعلون، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم. والصاعقة: قصفة رعد تنقض معها شقّة من نار. قالوا: تنقذُ من السحاب إذا اصطكت أجرامه. وهي نار لطيفة حديدة، لا تمرُّ بشي إلا أتت عليه، إلا أنها مع حدّتها سريعة الخمود. يُحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طُفئت. ويقال: صعقت الصاعقة: إذا أهلكته فصعق، أي: مات إما بشدة الصوت، أو بالإحراق ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مفعول له. والموت: فساد بنية الحيوان أو عرض لا يصحُّ معه إحساس معاقب للحياة ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يعني: أنهم لا يفوتونه، كما لا يفوت المحاط به المحيط به، فهو مجاز، وهذه الجملة اعتراض لا محلّ لها.

٢٠ - ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ الخطف: الأخذ بسرعة، وكاد يُستعمل لتقريب الفعل جداً، وموضع يخطف نصب؛ لأنه خبر كاد ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ كل ظرف، وما نكرة موصوفة، معناها: الوقت، والعائد محذوف، أي: كل وقت أضاء لهم فيه، والعامل فيه جوابها وهو ﴿مَشَوْا فِيهِ﴾ أي: في ضوئه. وهو استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في تارتي خفوق البرق وخفيته؟ وهذا تمثيلٌ لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب، وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون. إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطفَ أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة، فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وقر لمعانه بقوا واقفين. وأضاء: متعد، أي: كلما نور لهم ممشى ومسلكاً أخذوه، والمفعول محذوف؛ أو غير متعد، أي: كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره. والمشي: جنس الحركة المخصوصة، فإذا اشتدّ فهو سعي، فإذا ازداد فهو عدوٌ ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أظلم غير متعد. وذكر مع أضاء كلما، ومع أظلم إذا؛ لأنهم حراصٌ على وجود ما همّهم به معقود من إمكان المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، ولا كذلك التوقف ﴿قَامُوا﴾ وقفوا، وثبتوا

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ

في مكانهم، ومنه: قام الماء: إذا جدد ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بقصيف الرعد، ﴿وَأَبْصَرَهُمْ﴾ بوميض البرق. ومفعول شاء محذوف لدلالة الجواب عليه، أي: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بهما. ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء، وأراد: لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب، كنحو قوله:

فلو شئتُ أن أبكي دماً لَبَكَيْتُهُ عليه ولكن ساحة الصبرِ أوسعُ
وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا﴾ [الأنبياء: ١٧] و﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إن الله قادرٌ على كل شيء.

٢١ - لما عدَّد الله فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم، وما اختصَّت به كلُّ فرقة مما يسعدها، ويشقيها، ومحظيها^(١)، ويرديها أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾. قال علقمة: ما في القرآن ﴿يا أيها الناس﴾ فهو خطابٌ لأهل مكة، وما فيه ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فهو خطابٌ لأهل المدينة. وهذا خطابٌ لمشركي مكة. ويا: حرف وضع لنداء البعيد - وأي والهمزة للقريب - ثم استعمل في مناداة من غفل وسها، وإن قرب ودنا، تنزيلاً له منزلة من بُعد ونأى، فإذا نُودي به القريب المقاطن فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه مُعتنى به جداً. وقول الداعي: يارب - وهو أقربُ إليه من حبل الوريد - استقصارٌ منه لنفسه، واستبعاد لها عن مظانِّ الزلفى، هضماً لنفسه، وإقراراً عليها بالتفريط مع فرط التهالك على استجابة دعوته. وأي: وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أن ذو والذي وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس، ووصف المعارف بالجمال. وهو اسمٌ مبهمٌ يفتقرُ إلى ما يزيلُ إبهامه، فلا بُدَّ أن

(١) أي: عند الله تعالى.

اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً

يردفه اسم جنس، أو ما يجري مجراه يتصف به، حتى يتَّضح المقصودُ بالنداء. فالذي يعمل فيه يا: أي. والتابعُ له صفته، نحو: يا زيد الظريف. إلا أن أياً لا يستقلُّ بنفسه استقلال زيد، فلم ينفكَّ عن الصفة. وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لتأكيد معنى النداء، وللعوض عما يستحقُّه، أي: من الإضافة. وكثر النداءُ في القرآن على هذه الطريقة؛ لأن ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه، ووعدته ووعيده، أمور عظام، وخطوب جسام، يحبُّ عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت^(١) أن ينادوا بالآكد الأبلغ ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ وحْدوه. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كلُّ عبادةٍ في القرآن فهي توحيد ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة موضحة مميزة؛ لأنهم كانوا يسمُّون الآلهة أرباباً. والخَلْقُ: إيجادُ المعلوم على تقدير واستواء. وعند المعترلة: إيجادُ الشيء على تقدير واستواء. وهذا بناء على أنَّ المعلومَ شيءٌ عندهم؛ لأنَّ الشيءَ ما صحَّ أن يعلم ويخبر عنه عندهم، وعندنا هو اسمٌ للموجود (خَلَقَكُمْ): بالإدغام، أبو عمرو ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ احتج عليهم بأنه خالقهم وخالق مَنْ قبلهم؛ لأنهم كانوا مُقرِّين بذلك، ف قيل لهم: إن كنتم مقرِّين بأنه خالقكم فاعبدوه، ولا تعبدوا الأصنام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: اعبدوا على رجاء أن تتقوا فتنجوا بسببه من العذاب. ولعل للترجي والإطماع، ولكنه إطماعٌ من كريم، فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه، وبه قال سيبويه. قال قطرب: هو بمعنى كي، أي: لكي تتقوا.

٢٢ - ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ﴾ أي: صيَّر. ومحل الذي نصب على المدح، أو رفع بإضمار هو ﴿فِرَاشًا﴾ بساطاً تقعدون عليها، وتنامون، وتقبلون، وهو مفعول ثانٍ لجعل. وليس فيه دليلٌ على أن الأرضَ مسطَّحة أو كروية إذ الافتراضُ ممكنٌ على التَّقديرين ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفاً، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا

(١) أي: فاقتضت الحال.

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

السَّمَاءُ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴿٢٢﴾ [الأنبياء: ٣٢] وهو مصدر سُمِّيَ به المني ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ بالماء. نعم خروج الثمرات بقدرته ومشيته وإيجاده، ولكن جعل الماء سبباً في خروجها، كماء الفحل في خلق الولد، وهو قادرٌ على إنشاء الكل بلا سبب، كما أنشأ نفوسَ الأسباب والمواد، ولكن له في إنشاء الأشياء مدرجاً لها من حال إلى حال، وناقلاً من مرتبة إلى مرتبة، حكماً وعبراً للنظار بعيون الاستبصار. ومن في ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ للتبعيض، أو للبيان. ﴿رِزْقًا﴾ مفعول له إن كانت من للتبعيض، ومفعول به لأخرج إن كانت للبيان. وإنما قيل: الثمرات دون الثمر والثمار - وإن كان الثمرُ المخرجُ بماء السماء كثيراً - لأن المراد جماعة الثمرة، ولأن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض؛ لالتقائها في الجمعية ﴿لَكُمْ﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين، وإن جعل اسماً للمعنى فهو مفعول به، كأنه قيل: رزقاً إياكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ هو متعلق بالأمر، أي: اعبدوا ربكم فلا تجعلوا له أنداداً؛ لأنَّ أصلَ العبادة وأساسها التوحيد، وألا يجعل له ند ولا شريك. ويجوز أن يكون ﴿الذي﴾ رفعا على الابتداء، وخبره ﴿فلا تجعلوا﴾ ودخول الفاء لأن الكلام يتضمن الجزاء، أي: الذي حقكم هذه الآيات العظيمة، والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية، فلا تتخذوا له شركاء. والند: المثل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المنافي. ومعنى قولهم ليس لله ند ولا ضد: نفي ما يسد مسدّه، ونفي ما ينافيه ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها لا تخلق شيئاً، ولا ترزق، والله الخالق الرازق. أو مفعول تعلمون متروك، أي: وأنتم من أهل العلم، وجعل الأصنام لله أنداداً غاية الجهل. والجملة حال من الضمير في ﴿فلا تجعلوا﴾.

٢٣ - ولما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية، ويبطل الإشراك - خلقهم أحياء قادرين، وخلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم، وخلق السماء التي هي

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ

كالقبة المضروبة، والخيمة المطبّبة^(١) على هذا القرار، وما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلّة والمطلّة بإنزال الماء منها عليها، والإخراج به من بطنها أشباه النسل من الثمار رزقاً لبني آدم. فهذا كلّ دليل موصول إلى التوحيد، مبطل للإشراك؛ لأنّ شيئاً من المخلوقات لا يقدر على إيجاد شيء منها - عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ، وما يقرر إعجاز القرآن، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ الآية. ما: نكرة موصوفة، أو بمعنى الذي ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ، والعبد: اسم لمملوك من جنس العقلاء. والمملوك: موجود قهر بالاستيلاء.

وقيل: نزلنا دون أنزلنا؛ لأن المراد النزول على سبيل التدرّج والتنجيم، وهو من محازة لمكان التحدي. وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة، وآيات غبّ آيات، على حسب النوازل، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفقراً حيناً فحيناً شيئاً فشيئاً، لا يلقي الناظم ديوان شعره دفعة، ولا يرمي النائر^(٢) بخطبه ضربة، فلو أنزل الله لأنزله جملة. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على تدرّج: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ أي: فهااتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهلموا نجماً فرداً من نجومه: سورة من أصغر السور. والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات. وواوها إن كانت أصلاً؛ فإما أن تُسمّى بسور المدينة، وهو حائطها؛ لأنها طائفة من القرآن محدودة محوّرة على حيالها، كالبلد المسوّر، أو لأنها محتوية على فنون من العلم، وأجناس من الفوائد، كاحتواء سور المدينة على ما فيها. وإما أن تسمّى بالسورة التي هي الرتبة؛ لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب، يترقى فيها القارئ، وهي أيضاً في نفسها مُرتّبة:

(١) «طَبَّبَ الخيمة»: جعل لها حبلاً طويلة وشدها بها.

(٢) في الأصل المخطوط: الناظر، والمثبت من المطبوع؛ لأنّ النائر يقابل الناظم.

مِنْ مِّثْلِهِ

طوال، وأوساط، وقصار، أو لرفعة بنائها^(١)، وجلالة محلّها في الدين. وإن كانت مُنْقَلَبَةً عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن، كالسورة التي هي: البقية من الشيء. وأما الفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً فهي كثيرة - ولذا أنزل الله تعالى التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه عليهم السلام مسورة مترجمة السور، وبوّب المصنّفون في كلّ فنّ كتبهم أبواباً مُوشَّحة الصدور بالتراجم - منها: أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف، كان أحسن من أن يكون بياناً واحداً. ومنها: أن القارئ إذا ختم سورة، أو باباً من الكتاب، ثم أخذ في آخر كان أنشط له، وأبعث على الدرس، والتحصيل منه، لو استمر على الكتاب بطوله. ومن ثم جزأ القراء القرآن أسباعاً، وأجزاء، وعشوراً، وأخماساً. ومنها: أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفةً مستقلة بنفسها، ولها فاتحة وخاتمة، فيعظم عنده ما حفظه، ويجلّ في نفسه. ومنه حديث أنس - رضي الله عنه -: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ فينا^(٢). ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل ﴿مِنْ مِّثْلِهِ﴾ متعلق بسورة صفة لها. والضمير لما نزلنا، أي: بسورة كائنة من مثله. يعني: فأتوا بسورةٍ ممّا هو على صفته في البيان الغريب، وعلو الطبقة في حُسن النظم؛ أو لعبدنا، أي: فأتوا ممّن هو على حاله من كونه أمياً لم يقرأ الكتب، ولم يأخذ من العلماء، ولا قصد إلى مثلٍ ونظير هنالك. وردّ الضمير إلى المنزل أولى؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] ولأن الكلام مع ردّ الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً، وذلك: أن الحديث في المنزل لا في المنزل عليه، وهو مسوق إليه، فإنّ المعنى: وإن ارتبتم في أنّ القرآن منزلٌ من عند الله، فهاتوا أنتم نبذاً مما يماثله. وقضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله ﷺ أن يقال: وإن ارتبتم في أنّ محمداً منزل عليه،

(١) في المطبوع: شأنها.

(٢) رواه أحمد (١٢٠/٣) وفيه: جدّ فينا، أي: عظم.

وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا

فهاتوا قرآنًا من مثله، ولأنَّ هذا التفسير يلائم قوله: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ جمع شهيد؛ بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة ﴿مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غير الله، وهو متعلق بـ ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ أي: ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله، وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق، أو من يشهد لكم بأنه مثل القرآن ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن ذلك مختلق، وأنه من كلام محمد عليه الصلاة والسلام، وجواب الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله، أي: إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا أنتم بمثله، واستعينوا بالهتكم على ذلك.

٢٤ - ﴿إِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا...﴾ لَمَّا أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرَّفون صدقَ النبي ﷺ قال لهم: فإذا لم تعارضوه، وبان عجزكم، ووجِبَ تصديقُه فآمنوا، وخافوا العذاب المعدَّ لمن كذَّب وعاند. وفيه دليلان على إثبات النبوة: صحة كون المتحدث به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا، وهو غيبٌ لا يعلمه إلا الله. ولما كان العجزُ عن المعارضة قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم؛ لا تكالهم على فصاحتهم، واعتمادهم على بلاغتهم، سيق الكلام معهم على حسب حسابانهم، فجيء بـ ﴿إِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ الذي للشك، دون إذا الذي للوجوب، وعبرَ عن الإتيان بالفعل؛ لأنه فعلٌ من الأفعال، والفائدة فيه: أنه جارٍ مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً، إذ لو لم يُعَدَلْ عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله. ولا محلَّ لقوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ لأنها جملةٌ اعتراضية. وحسَّن هذا الاعتراضَ أنَّ لفظ الشرط للتردُّد، فقطع التردُّد بقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾. ولا ولن أختان في نفي المستقبل، إلا أنَّ في لن تأكيداً، وعن الخليل: أصلها لا أن، وعند الفراء لا، أبدلت ألفها نوناً. وعند سيبويه: حرفٌ موضوعٌ للتأكيد نفي المستقبل. وإنما علم أنه إخبارٌ عن الغيب على ما هو به، حتى صار معجزةً؛ لأنهم لو عارضوه بشيءٍ لاشتهر، فكيف والطاعنون فيه أكثر من الذابِّين عنه؟! وشرط في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؛ لأنهم إذا لم يأتوا بها وتبيَّن عجزهم عن المعارضة صحَّ عندهم صدقُ الرسول، فإذا صحَّ

فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ

عندهم صدقهُ، ثم لزموا العنادَ، وأبوا الانقياد استوجبوا النارَ، فقل لهم: إن استبستم العجزَ فاتركوا العنادَ، فوضع ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ موضعه؛ لأنَّ اتقاء النار سببُ ترك العناد، وهو من باب الكناية، وهي من شُعَبِ البلاغة، وفائدته: الإيجاز الذي هو من حلية القرآن. والوقود: ما ترفعُ به النار، يعني: الخطب. وأما المصدر فمضمومٌ، وقد جاء فيه الفتح. وصلة الذي والتي يجبُ أن تكونَ معلوماً للمخاطب، فيحتمل أن يكونوا سمعوا من أهل الكتاب، أو من رسول الله، أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]. وإنما جاءت النارُ مُنْكَرَةً ثُمَّ، ومعرفةً هنا؛ لأن تلك الآية نزلت بمكة، ثم نزلت هذه بالمدينة مشاراً بها إلى ما عرفوه أولاً. ومعنى قوله تعالى: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أنها نارٌ ممتازة عن غيرها من النيران بأنها تَتَّقَدُ بالناس والحجارة. وهي حجارةُ الكبريت، فهي أشدُّ توقُّداً، وأبطأ خموداً، وأنثن رائحةً، وألصق بالبدن؛ أو الأصنام المعبودة، فهي أشدُّ تحسراً. وإنما قرنَ الناسَ بالحجارة لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا، حيث عبدوها، وجعلوها لله أنداداً، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي: حطبها، فقرنهم بها محماة في نار جهنم إبلاغاً في إيلاهم ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ هُيئت لهم. وفيه دليلٌ على أنَّ النارَ مخلوقةٌ، خلافاً لما يقوله جهنم^(١).

٢٥ - سُنَّةُ اللَّهِ فِي كِتَابَةِ أَنْ يَذَكَرَ التَّرْغِيبَ مَعَ التَّرْهِيْبِ تَنْشِيطاً لِكِتْسَابِ مَا يُزَلَّفُ^(٢)، وَتَنْشِيطاً^(٣) عَنْ اقْتِرَافِ مَا يَتَلَفُ. فَلَمَّا ذَكَرَ الْكُفَّارَ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَوَعَدَهُمْ بِالْعِقَابِ قَفَّاهُ^(٤) بِذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْمَالِهِمْ، وَتَبَشِيرَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ

(١) هو جَهَنَّمُ بن صفوان: ضالّ مبتدع، قتله نصر بن سيار سنة (١٢٨هـ).

(٢) «يزلف»: يُقَرَّبُ وَيُقَدَّمُ.

(٣) «تنشيطاً»: تعويقاً وإشغالاً.

(٤) «قفّاه»: أنبعه.

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. والمأمور بقوله ﴿وبشر﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام، أو كل أحد، وهذا أحسن؛ لأنه يُؤذَنُ بَأَنَّ الأمرَ لعظمه، وفخامة شأنه محقَّقٌ بأن يبشِّرَ به كلٌّ من قدر على البشارة به. وهو معطوف على ﴿فاتقوا﴾ كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبشر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم. أو جملة وصف ثواب المؤمنين معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كقولك: زيد يُعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمراً بالعفو والإطلاق. والبشارة: الإخبار بما يظهر سرور المخبر به، ومن ثم [قال العلماء]^(١) إذا قال لعبيده: أيكم بشّرني بقدوم فلان فهو حرٌّ، فبشروه فرادى عتق أولهم؛ لأنه هو الذي أظهر سروره بخبره دون الباقي، ولو قال: أخبرني مكان بشّرني عتقوا؛ لأنهم أخبروه. ومنه البشارة: لظاهر الجلد، وتبشير الصُّبح: ما ظهر من أوائل ضوئه. وأما ﴿فَيَبْشِرُهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] فمن العكس في الكلام الذي يقصدُ به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به، كما يقول الرجلُ لعدوّه: أبشر بقتل ذريتكَ ونهب مالك. والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم. والصالحات: كلُّ ما استقام من الأعمال بدليل العقل، والكتاب، والسُّنة. واللام للجنس. والآية حُجَّةٌ على مَنْ جَعَلَ الأعمال إيماناً؛ لأنه عطف الأعمال الصَّالحة على الإيمان والمعطوف غير المعطوف عليه. ولا يقال: إنكم تقولون: يجوزُ أن يدخلَ المؤمن الجنة بدون الأعمال الصالحة، والله تعالى بشّر بالجنة لمن آمن وعمل صالحاً؛ لأن البشارة المطلقة بالجنة شَرْطُها اقترانُ الأعمال الصَّالحة بالإيمان، ولا نجعل لصاحب الكبيرة البشارة المطلقة، بل نثبت بشارة مقيدة بمشيئة الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه بقدر ذنوبه، ثم يدخله الجنة ﴿أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ أي: بأنَّ لهم، وموضع أن وما عملت فيه: النصب ببشر عند سيبويه، خلافاً للخليل، وهو كثيرٌ في التنزيل. والجنة: البستان من النخل والشجر المتكاثف. والتركيب دائر على

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي

معنى الستر، ومنه: الجن، والجنون، والجنين، والجنة، والجنان، والجنان. وَسُمِّيَتْ دَارُ الثَّوَابِ جَنَّةً لِمَا فِيهَا مِنَ الْجَنَانِ. والجنة مخلوقة كقوله تعالى: ﴿أَسْكَنْ أَنتَ وَزَوَّجَكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] خلافاً لبعض المعتزلة. ومعنى جمع الجنة وتنكيرها: أَنَّ الْجَنَّةَ اسْمٌ لِدَارِ الثَّوَابِ كُلِّهَا، وهي مشتملة على جنات كثيرة، ومرتبة مراتب بحسب أعمال العاملين، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجملة في موضع النصب صفة لجنات. والمراد: من تحت أشجارها، كما ترى الأشجار النابتة على شواطئ الأنهار الجارية، وأنهار الجنة تجري في غير أخذود، وأنزلة البساتين ما كانت أشجارها مظلمة، والأنهار في خلالها مطردة. والجري: الاطراد. والنهر: المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، يقال للنيل: نهر مصر، واللغة الغالبة: النَّهْرُ، ومدارُ التركيب على السعة. وإسناد الجري إلى الأنهار مجازي. وإنما عرف الأنهار لأنه يحتمل أن يراد بها أنهارها، فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعْلَ الرُّؤُسِ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] أو يُشارُ باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥] الآية. والماء الجاري من النعمة العظمى، واللذة الكبرى؛ ولذا قرن الله تعالى الجنات بذكر الأنهار الجارية، وقدمه على سائر نعمتها ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ صفة ثانية لجنات، أو جملة مستأنفة، لأنه لما قيل: إن لهم جنات، لم يخلُ خلدُ السامع أن يقع فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا، أم أجناس آخر لا تشابه هذه الأجناس؟ ف قيل: إن ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا، أي: أجناسها أجناسها وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله ﴿مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي﴾ أي: كلما رزقوا من الجنات - من أي ثمرة كانت، من: تفاحها، أو رمانها، أو غير ذلك - رزقاً، قالوا ذلك. ف(من) الأولى والثانية كلتاها لابتداء الغاية؛ لأن الرزق قد ابتدئ من الجنات، والرزق من الجنات قد ابتدأ من ثمرة. ونظيره أن تقول: رزقني فلان، فيقال لك: من أين؟ فتقول: من بستانه، فيقال: من أي ثمرة رزقك من بستانه؟ فتقول: من الرمان. وليس المراد بالثمرة التفاحة الواحدة،

رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ

أو الرمانة الفضة، وإنما المراد نوع من أنواع الثمار ﴿رُزِقْنَا﴾ أي: رزقناه، فحذف العائد ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا، فلما قُطِعَ عن الإضافة بُنِيَ. والمعنى: هذا مثل الذي رزقنا من قبل، وشبهه بدليل قوله: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا﴾. وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تريد: أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته. الضمير في «به» يرجع إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً، لأن قوله: ﴿هذا الذي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ انطوى تحته ذِكْرُ ما رزقوه في الدارين. وإنما كان ثمار الجنة مثل ثمار الدنيا، ولم تكن أجناساً أخرى؛ لأنَّ الإنسانَ بالمألوف آنس، وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفه نفّر عنه طبعه، وعافته نفسه، لأنه إذا شاهد ما سلف له به عهدٌ، ورأى فيه مزية ظاهرة، وتفاوتاً بيئاً، كان استعجابه به أكثر، واستغرابه أوفر. وتكريرهم هذا القول عند كلِّ ثمرة يرزقونها دليلٌ على تناهي الأمر، وتمادي الحال في ظهور المزية، وعلى أنَّ ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجبهم في كل أوان. أو إلى الرزق^(١)، كما أنَّ هذا إشارة إليه. والمعنى: أن ما يُرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانساً في نفسه، كما يُحكى عن الحسن: يُؤتى أحدهم بالصَّحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بالأخرى، فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل. فيقول الملك: كُلْ فاللون واحد، والطعم مختلف. وعنه عليه السلام: «والذي نفسُ محمد بيده! إنَّ الرجلَ من أهل الجنة ليتناولُ الثمرة ليأكلها فما هي بواصلةٍ إلى فيه حتى يبدلها الله مكانها مثلها^(٢)» فإذا أبصروها والهيئة هيئة الأولى قالوا ذلك. وقوله: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا﴾ جملة معترضة للتقرير، كقولك: فلان أحسن بفلان - ونعم ما فعل - ورأى من الرأي كذا، وكان صواباً. ومنه: ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ أزواج: مبتدأ، ولهم الخبر، وفيها ظرف للاستقرار

(١) أي: الضمير في «به» عائد إلى الرزق.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٤٤٩) والبخاري كما في كشف الأستار (٣٥٣٠) وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٤٥) بلفظ: «لا ينزع رجلٌ من أهل الجنة من ثمرها شيئاً إلا نبت مكانها مثلاًها».

مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ من مساوىء الأخلاق، لا طمحات^(١) ولا مرحات^(٢)؛ أو مما يختصُّ بالنساء من الحيض والاستحاضة، وما لا يختص بهن من البول والغائط، وسائر الأقدار والأدناس. ولم تُجمع الصفة كالموصوف لأنهما لغتان فصيحتان، ولم يقل: طاهرة لأن مطهرة أبلغ؛ لأنها تكون للتكثير، وفيها إشعارٌ بأن مُطَهَّرًا طَهْرُهُنَّ، وما ذلك إلا الله عز وجل ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الخلد: البقاء الدائم الذي لا ينقطع. وفيه بطلان قول الجهمية، فإنهم يقولون بفناء الجنة وأهلها؛ لأنه تعالى وصف بأنه الأول والآخر، وتحقيق وصف الأولية بسبقه على الخلق أجمع، فيجب تحقيق وصف الآخرة بالتأخر عن سائر المخلوقات، وذا إنما يتحقق بعد فناء الكل، فوجب القول به ضرورة، ولأنه تعالى باقٍ، وأوصافه باقية، فلو كانت الجنة باقية مع أهلها لوقع التشابه بين الخالق والمخلوق، وذا محال. قلنا: الأول في حقِّه هو الذي لا ابتداءً لوجوده، والآخر هو الذي لا انتهاءً له، وفي حقنا الأول هو الفرد السابق، والآخر هو الفرد اللاحق. وأتصافه بهما لبيان صفة الكمال، ونفي النقيصة والزوال، وذا في تنزيهه عن احتمال الحدوث والفناء لا فيما قالوه. وأنى يقع التشابه في البقاء، وهو تعالى باقٍ لذاته، وبقاؤه واجبُ الوجود، وبقاء الخلق به، وهو جائزُ الوجود؟!

٢٦ - لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب به مثلاً، ضحكت اليهودُ، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله فنزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ أي: لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها. وأصل الحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يُعاب به ويُذمُّ. ولا يجوزُ على القديم التغير، والخوف، والذم. ولكن الترك لما كان من لوازمه عبَّر عنه به. ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة

(١) «لا طمحات»: لا يغيضن أزواجهن، ولا ينظرن إلى غيرهم.

(٢) «لا مرحات»: المَرَح: التبخر والاختيال.

فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا

فقالوا: أما يستحيي ربُّ محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت. فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال. وهو فنٌّ من كلامهم بديع. وفيه لغتان: التعدي بنفسه وبالجار، يقال: استحييته، واستحييت منه، وهما محتملتان هنا. وضرب المثل: صنعه، من: ضرب اللبن وضرب الخاتم و﴿ما﴾ هذه إبهامية، وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبيهته إبهاماً وزادته عموماً كقولك: أعطني كتاباً ما، تريد: أي كتاب كان. أو صلة للتأكيد كالتي في قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] كأنه قال: لا يستحيي أن يضرب مثلاً البتة. وبعوضة: عطف بيان لمثلاً، أو مفعول ليضرب، ومثلاً: حال من النكرة مقدّمة عليه، أو انتصبا مفعولين على أنَّ ضرب بمعنى جعل. واشتقاقها من البعوض - وهو القطع - كالبعض والعضب يقال: بَعْضُهُ البعوض، ومنه: بعض الشيء لأنه قطعة منه. والبعوض في أصله صفة على فعول كالقَطُوع فغلبت ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فما تجاوزها، وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً، وهو: القلّة والحقارة. أو فما زاد عليها في الحجم، كأنه أراد بذلك ردّ ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت؛ لأنهما أكبر من البعوضة. ولا يقال: كيف يضرب المثل بما دون البعوضة، وهي النهاية في الصّغر؛ لأنّ جناح البعوضة أقلُّ منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسول الله ﷺ مثلاً للدنيا^(١) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الضمير للمثل، أو لأن يضرب. والحق: الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، يقال: حق الأمر؛ إذا ثبت ووجب ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ في موضع النصب على الحال، والعامل معنى الحق، وذو الحال الضمير المستتر فيه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ ويوقف عليه؛ إذ لو وصل لصار ما بعده صفة له، وليس كذلك. وفي قولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ استحقار، كما قالت عائشة - رضي الله عنها - في عبد الله

(١) كأنه يشير إلى حديث سهل بن سعد مرفوعاً: «لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناح بعوضة ما سقى منها شربة ماء» رواه الترمذي (٢٣٢٠).

يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا

ابن عمرو: يا عجباً لابن عمرو هذا! مُحَقَّرَةٌ له. ومثلاً: نصب على التمييز، أو على الحال، كقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]. و﴿أما﴾ حرف فيه معنى الشرط، ولذا يُجاب بالفاء، وفائدته في الكلام: أن يعطيه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيده، وأنه لا محالة ذاهب، قلت: أما زيد فذاهب؛ ولذا قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب. وهذا التفسير يفيد كونه تأكيداً، وأنه في معنى الشرط. وفي إيراد الجملتين مصدرتين به وإن لم يقل: فالذين آمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون، إحادٌ عظيمٌ لأمر المؤمنين، واعتدادٌ بليغ بعلمهم أنه الحق، ونعي على الكافرين إغفالهم حظهم، ورميهم بالكلمة الحمقاء. و﴿ماذا﴾ فيه وجهان: أن يكون ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي، وما: استفهاماً، فيكون كلمتين. وأن تكون ذا: مركبة مع ما مجعولتين اسماً واحداً للاستفهام، فيكون كلمة واحدة. فما على الأول: رفع بالابتداء، وخبره: ذا مع صلته، أي: أراد، والعائد محذوف. وعلى الثاني منصوب المحل بأراد، والتقدير: أي شيء أراد الله. والإرادة مصدر أردت الشيء؛ إذا طلبته نفسك، ومال إليه قلبك، وهي عند المتكلمين معنى يقتضي تخصيص المفعولات بوجهٍ دون وجه. والله تعالى موصوفٌ بالإرادة على الحقيقة عند أهل السنة. وقال معتزلة بغداد: إنه تعالى لا يُوصَفُ بالإرادة على الحقيقة. فإذا قيل: أراد الله كذا، فإن كان فعله فمعناه أنه فعل، وهو غيرُ ساهٍ ولا مكره عليه، وإن كان فعل غيرهِ فمعناه أنه أمر به ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جارٍ مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بأما، وأن فريقَ العالمين بأنه الحق، وفريقَ الجاهلين المستهزئين به، كلاهما موصوفٌ بالكثرة، وأن العلمَ بكونه حقاً من باب الهدى، وأن الجهلَ بحسن مورده من باب الضلالة، وأهلُ الهدى كثيرٌ في أنفسهم، وإنما يوصفون بالقلة بالقياس إلى أهل الضلال، ولأنَّ القليلَ من المهتدين كثيرٌ في الحقيقة، وإن قلوا في الصورة.

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا
وَالْإِضْلَالُ: خَلَقُ فِعْلُ الضَّلَالِ فِي الْعَبْدِ، وَالْهَدَايَةُ: خَلَقُ فِعْلُ الْاهْتِدَاءِ.

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

هذا هو الحقيقة عند أهل السُّنة. وسياق الآية لبيان أنَّ ما استنكره الجُهلة من الكفار، واستغريه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضرراً بها المثل، ليس بموضع الاستنكار والاستغراب؛ لأنَّ التمثيل إنما يُصار إليه لما فيه من كشف المعنى، وإدناء التوهم من المشاهد. فإن كان التمثيل له عظيمًا كان التمثيل به كذلك، وإن كان حقيراً كان التمثيل به كذلك. ألا ترى أنَّ الحقَّ لما كان واضحاً جلياً تمثّل له بالضياء والنور، وأنَّ الباطل لما كان بضدَّ صفته تمثّل له بالظلمة. ولما كانت حالُ الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله لا حال أحقر منها، وأقلّ - ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقلّ من الذباب، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً - لم يستنكر، ولم يستبدع، ولم يقل للتمثيل: استحي من تمثيلها بالبعوضة؛ لأنه مصيبٌ في تمثيله، محقٌّ في قوله، سائقٌ للمثل على قضية مضربه. وبيان أنَّ المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والنظر في الأمور بناظر العقل، إذا سمعوا بهذا التمثيل علموا أنه الحق، وأنَّ الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم إذا سمعوه كابروا، وعاندوا، وقضوا عليه بالبطلان، وقابلوه بالإنكار، وأنَّ ذلك سبَّب هدى المؤمنين، وضلال الفاسقين. والعجب منهم كيف أنكروا ذلك، وما زال الناسُ يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش^(١) الأرض، فقالوا: أجمع من ذرة، وأجراً من الذباب، وأسمع من قراد، وأضعف من فراشة، وآكل من السوس، وأضعف من البعوضة، وأعز من مخّ البعوض. ولكن ديدنُ المحجوج والمبهور أن يرضى لفرط الحيرة بدفع الواضح، وإنكار اللائح ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ هو مفعول يضل، وليس بمنصوب على الاستثناء؛ لأنَّ يضلّ لم يستوفِ مفعوله. والفسق: الخروج عن القصد. وفي الشريعة: الخروج عن الأمر بارتكاب الكبيرة، وهو النازلُ بين المنزلتين، أي: بين منزلة المؤمن والكافر عند المعتزلة، وسيمرُّ عليك ما يبطله إن شاء الله.

(١) كذا في المخطوط، وفي المطبوع: وخشاش.

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

٢٧ - ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ النقضُ: الفسخُ وفكُّ التركيب. والعهد: الموثق. والمرادُ بهؤلاء الناقضين لعهد الله أhabar اليهود المتعتنون، أو منافقوهم، أو الكفار جميعاً. وعهد الله: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمرٌ وصَّاهم به، ووثقه عليهم. أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بُعثَ إليهم رسولٌ يصدِّقه الله بمعجزاته صدقوه، واتبعوه، ولم يكتموا ذكره. أو أخذَ الله العهدَ عليهم ألا يسفكوا دماءهم، ولا يبغى بعضهم على بعض، ولا يقطعوا أرحامهم. وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود، العهد الأول: الذي أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقرؤوا بربوبيته، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ...﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]، وعهد خصَّ به النبيين أن يبلغوا الرسالة، وقيموا الدين، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧] وعهد خصَّ به العلماء، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أصله من الوثاقة، وهي: إحكامُ الشيء. والضمير للعهد. وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله، وإلزامه أنفسهم. ويجوز أن يكونَ بمعنى توثقته، كما أن الميعادَ بمعنى الوعد. أو لله تعالى، أي: من بعد توثقته عليهم. ومن: لابتداء الغاية ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ هو قطعهم الأرحام وموالاتة المؤمنين، أو قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاجتماع على الحق، في إيمانهم ببعض، وكفرهم ببعض. والأمر: طلب الفعل بقول مخصوص على سبيل الاستعلاء. وما: نكرة موصوفة، أو بمعنى الذي. وأن يوصل: في موضع جرّ بدل من الهاء، أي: بوصله، أو في موضع رفع، أي: هو أن يوصل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بقطع السبيل، والتعويق عن الإيمان ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمْ﴾ فصل. والخبر ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ أي: المغبونون، بحيث استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصّلاح، والعقاب بالثواب.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ

٢٨ - ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ معنى الهمزة التي في كيف مثله في قولك: أنكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر، ويدعو إلى الإيمان، وهو الإنكار والتعجب. ونظيره قولك: أظير بغير جناح؟ وكيف تطير بغير جناح؟! والواو في: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ نطفاً في أصلاب آبائكم للحال و«قد» مضمرة. والأموات: جمع ميت، كالأقوال جمع قِيلَ. ويقال لعادم الحياة أصلاً: ميت أيضاً، كقوله تعالى: ﴿بَلَدَةٌ مَيِّتًا﴾ [الفرقان: ٤٩] ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ في الأرحام ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تصيرون إلى الجزاء. أو: ثم يحييكم في قبوركم، ثم إليه ترجعون للنشور. وإنما كان العطف الأول بالفاء والبواقي بضم؛ لأنَّ الإحياء الأول قد تعقب الموت بلا تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الحياة، والحياة الثانية كذلك بتراخى عن الموت إن أريد النشور، وإن أريد إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضاً مترخ عن النشور. وإنما أنكر اجتماع الكفر مع القصّة التي ذكرها؛ لأنها مشتملة على آياتٍ بَيِّنَاتٍ تصرفهم عن الكفر، ولأنها تشتمل على نعمٍ جسامٍ حقها أن تُشكر ولا تُكفر.

٢٩ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لأجلكم، ولانتفاعكم به في دنياكم ودينكم. أما الأول فظاهر، وأما الثاني فالنظر فيه وما فيه من العجائب الدالّة على صانع قادرٍ حكيمٍ عليم، وما فيه من التذكير بالآخرة؛ لأنَّ ملاذّها تذكر ثوابها، ومكارهها تذكر عقابها. وقد استدل الكرخي وأبو بكر الرازي والمعتزلة بقوله ﴿خلق لكم﴾ على أنَّ الأشياء التي يصحُّ أن يُنتفع بها خلقت مباحة في الأصل ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال من ما ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ الاستواء: الاعتدال والاستقامة، يقال: استوى العود، أي: قام واعتدل، ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل، إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: أقبل وعمد إلى خلق

فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ يَكْلُ شَيْءٍ عَالِمٌ ﴿١١﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً

السَّمَوَاتِ بعد خلق ما في الأرض، من غير أن يريدَ فيما بين ذلك خَلْقَ شَيْءٍ آخر، والمرادُ بالسَّما: جهات العلو، كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق. الضمير في ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ﴾ مُبْهِمٌ يفسره ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ كقولهم: رَبُّهُ رَجُلًا. وقيل: الضمير راجع إلى السماء، ولفظها واحد، ومعناها الجمع؛ لأنها في معنى الجنس. ومعنى تسويتهم: تعديل خلقهن، وتقويمه، وإخلاؤه من العوج والفطور، أو إتمام خلقهن. و﴿ثم﴾ هنا لبيان فَضْلِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ على خَلْقِ الْأَرْضِ. ولا يناقض هذا قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] لأنَّ جرم الأرض تقدّم خَلْقُهُ خلق السماء، وأما دحواها فمتأخر. وعن الحسن: خلق الله الأرضَ في موضع بيت المقدس كهَيْئَةِ الْفِهْرِ^(١)، عليها دخان ملترق بها، ثم أصدع الدخان وخلق منه السموات، وأمسك الفهر في موضعها، وبسط منها الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿كَأَنَّا رَتْقًا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وهو الالتزاق ﴿وَهُوَ يَكْلُ شَيْءٍ عَالِمٌ﴾ فمن ثم خلقهن خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت، مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم. (وَهُوَ) وأخواته مدني غير ورش. (وَهُوَ): هو وأبو عمرو وعلي، جعلوا الواو كأنها من نفس الكلمة، فصار بمنزلة عضد، وهم يقولون في عَضُدٍ عَضُدٌ بالسكون.

٣٠ - ولما خلق الله تعالى الأرض أسكنَ فيها الجنَّ، وأسكن في السماء الملائكة، فأفسدت الجنُّ في الأرض، فبعث إليهم طائفةً من الملائكة فطردهم إلى جزائر البحار ورؤوس الجبال، وأقاموا مكانهم. فأمر نبيّه عليه السلام أن يذكر قَصَّتْهُمْ فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾. إذ نصب بإضمار اذكر. والملائكة: جمع ملائكة، كالشمائل جمع شمائل، وإلحاق التاء لتأنيث الجمع ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ أي: مُصَيِّرٌ، من جعل الذي له مفعولان، وهما ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وهو من يخلف غيره. فعيلة بمعنى فاعلة، وزيدت الهاء للمبالغة. والمعنى: خليفة منكم؛

(١) «الفهر»: الحَجَر.

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا

لأنهم كانوا سكان الأرض، فخلقهم فيها آدم وذريته، ولم يقل خلّائف أو خلفاء لأنه أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه، كما تستغني بذكر أبي القبيلة في قولك: مضر وهاشم. أو أريد: من يخلفكم، أو خلفاً يخلفكم، فوحد لذلك. أو خليفة مني؛ لأن آدم كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي، قال الله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ أَنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] وإنما أخبرهم بذلك ليسألوا ذلك السؤال، ويجابوا بما أجيبوا به، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم. أو ليعلم عباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يجهل. وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو من جهة اللوح، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ أي: يصب. والواو في ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ للحال، كما تقول: أحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان؟! ﴿بِحَمْدِكَ﴾ في موضع الحال، أي: نسبح حامدين لك، ومتلبسين بحمدك، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ ذَلَّلْنَا بِكُفْرٍ﴾ [المائدة: ٦١] أي: دخلوا كافرين ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ونظهر أنفسنا لك. وقيل: التسييح والتقديس: تبعيد الله من السوء، من سبّح في الأرض، وقدس فيها: إذا ذهب فيها، وأبعد ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من الحكم في ذلك ما هو خفي عليكم. يعني: يكون فيهم الأنبياء، والأولياء، والعلماء. وما: بمعنى الذي، وهو مفعول أعلم، والعائد: محذوف، أي: ما لا تعلمونه. (إني) حجازي وأبو عمرو.

٣١ - ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ هو اسم أعجمي، وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر. واشتقاقهم آدم من أديم الأرض، أو من الأدمة، كاشتقاقهم يعقوب من العقب، وإدريس من الدرس، وإبليس من الإبلّاس ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماء، إذ الاسم يدل على المسمّى، وعوض منه اللام، كقوله تعالى:

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَكَادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] ولا يصحُّ أن يقدر: وعلم آدم مسميات الأسماء؛ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ لأن التعليم تعلق بالأسماء لا بالمسميات؛ لقوله تعالى ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ و﴿أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ولم يقل: أنبئوني بهؤلاء، وأنبئهم بهم. ومعنى تعليمه أسماء المسميات: أنه تعالى أراه الأجناس التي خلقها، وعلمه أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أي: عرض المسميات. وإنما ذكر لأن في المسميات العقلاء فغلّبهم، وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي﴾ أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أني أستخلف في الأرض مفسدين، سفاكين للدماء. وفيه ردّ عليهم، وبيان أن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا.

٣٢ - ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً لك أن يخفى عليك شيء، أو عن الاعتراض عليك في تدبيرك. وأفادتنا الآية أن علم الأسماء فوق التخلي للعبادة، فكيف بعلم الشريعة؟! وانتصابه على المصدر تقديره: سبحت الله تسييحاً ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ وليس فيه علم الأسماء. وما: بمعنى الذي. والعلم بمعنى المعلوم، أي: لا معلوم لنا إلا الذي علمتنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ غير المعلم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما قضيت وقدرت. والكاف اسم إن، وأنت: مبتدأ، وما بعده خبره، والجملة خبر إن. أو ﴿أَنْتَ﴾ فصل، والخبر ﴿الْعَلِيمُ﴾ والحكيم: خبر ثان.

٣٣ - ﴿قَالَ يَتَكَادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ سمى كل شيء باسمه ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أعلم ما غاب فيهما عنكم،

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

ما كان، وما يكون ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ نظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تسرون.
 ٣٤ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي: اخضعوا له، وأقروا بالفضل له.
 عن أبي بن كعب، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان ذلك انحناءً، ولم يكن خروراً على الذقن. والجمهور على أنَّ المأمور به وَضْعُ الوجه على الأرض. وكان السجود تحيةً لآدم - عليه السلام - في الصحيح، إذ لو كان الله تعالى لما امتنع عنه إبليس. وكان سجود التحية جائزاً فيما مضى، ثم نُسِخَ بقوله ﷺ لسلمان حين أراد أن يسجد له: «لا ينبغي لمخلوق أن يسجد لأحدٍ إلا لله تعالى»^(١) ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الاستثناء متصل؛ لأنه كان من الملائكة، كذا قاله عليّ، وابن عباس، وابن مسعود - رضي الله عنهم - ولأن الأصل أنَّ الاستثناء يكون من جنس المستثنى منه. ولهذا قال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] معناه صار من الجن كقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِفِينَ﴾ [هود: ٤٣] وقيل: الاستثناء منقطع؛ لأنه لم يكن من الملائكة، بل كان من الجن بالنص، وهو قول الحسن وقتادة، ولأنه خلق من نار، والملائكة خلقوا من النور، ولأنه أبى، وعصى، واستكبر، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ولا يستكبرون عن عبادته، ولأنه قال: ﴿أَفَلَسْخَذُونَهُمْ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] ولا نَسَلٌ للملائكة. وعن الجاحظ: أنَّ الجنَّ والملائكة جنسٌ واحد، فمن طهر منهم فهو ملك، ومن خبث فهو شيطان، ومن كان بين بين فهو جنٌّ ﴿أَبَى﴾ امتنع بما أمر به ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ تكبر عنه ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وصار من الكافرين بإبائه، واستكباره، وردّه الأمر، لا بترك العمل بالأمر؛ لأنَّ ترك السجود لا يخرج من إيمان، ولا يكون كفراً عند أهل السنة، خلافاً للمعتزلة والخوارج. أو كان من الكافرين في علم الله، أي: وكان في علم الله أنه يكفر بعد إيمانه، لا لأنه كان

(١) رواه الترمذي (١١٥٩) من حديث أبي هريرة. وأحمد (١٥٨/٣) من حديث أنس و(٨٦/٦) من حديث عائشة و(٢٢٧/٥) من حديث معاذ بن جبل.

وَقُلْنَا يَتَّخِذُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ

كافراً أبداً في علم الله. وهي مسألة الموافاة.

٣٥ - ﴿وَقُلْنَا يَتَّخِذُ أَسْكُنُ﴾ أمر من سكن الدار يسكنها سكنى: إذا أقام فيها. ويقال: سكن المتحرك سكناً ﴿أَنْتَ﴾ تأكيد للمستكن في اسكن؛ ليصح عطف ﴿وَزَوْجُكَ﴾ عليه ﴿الْجَنَّةَ﴾ هي جنّة الخلد التي وعدت للمتقين؛ للنقل المشهور، واللام للتعريف. وقالت المعتزلة: كانت بستاناً باليمن؛ لأن الجنة لا تكليف فيها، ولا خروج عنها. قلنا: إنما لا يخرج منها من دخلها جزاء. وقد دخل النبي ﷺ ليلة المعراج، ثم خرج منها. وأهل الجنة يُكَلَّفُونَ المعرفة والتوحيد ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ من ثمارها، فحذف المضاف ﴿رَغَدًا﴾ وصف بالمصدر، أي: أكلاً رغداً واسعاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ و(شِئْتُمَا) وبابه بغير همز، أبو عمرو. وحيث للمكان المبهم، أي: أي مكان من الجنة شئتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي: الحنطة. ولذا قيل: كيف لا يغضي الإنسان، وقوته من شجرة العصيان؟ أو الكرمة؛ لأنها أصل كل فتنة، أو: التينة ﴿فَتَكُونَا﴾ جزم عطف على: تقربا، أو نصب جواب للنهي ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ من الذين ظلموا أنفسهم، أو من الضارين أنفسهم.

٣٦ - ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي: عن الشجرة. أي: فحملهما الشيطان على الزلة بسببها. وتحقيقه: فأصدر الشيطان زلتهما عنها. أو: فأزلهما عن الجنة بمعنى: أذهبهما عنها، وأبعدهما. (فَأَزَلَّهُمَا): حمزة. وزلة آدم بالخطأ في التأويل إما بحمل النهي على التنزيه دون التحريم، أو بحمل اللام على التعريف العهد، وكان الله تعالى أراد الجنس. وهذا دليل على أنه يجوز إطلاق اسم الزلة على الأنبياء عليهم السلام، كما قال مشايخ بخارى. فإنها اسم الفعل يقع على خلاف الأمر من غير قصد إلى الخلاف، كزلة الماشي في الطين. وقال مشايخ سمرقند: لا يطلق اسم الزلة على أفعالهم كما لا تطلق المعصية، وإنما يقال: فعلوا الفاضل، وتركوا الأفضل، فعوتبوا عليه ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم والكرامة، أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة في ﴿عنها﴾. وقد توصل إلى إزالتهما بعد ما قيل له: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤] لأنه منع عن

وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ

دخولها على جهة التكرمة كدخول الملائكة، لا عن دخولها على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء. وروي أنه أراد الدُّخُول فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به. وقيل: قام عند الباب فنَادَى ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا﴾ الهبوط: النزول إلى الأرض. والخطاب لآدم وحواء وإبليس، وقيل: والحية. والصحيح لآدم وحواء. والمراد: هما وذريتهما؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلاً كأنهما الإنس كلهم، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣] ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ المراد به: ما عليه النَّاسُ من التَّبَاغِي، والتعادي، وتضليل بعضهم لبعض. والجملة في موضع الحال من الواو في ﴿أَهْبِطُوا﴾ أي: أَهْبِطُوا متعادين ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسَقَرٌّ﴾ موضع استقرار، أو استقرار ﴿وَمَتَعٌ﴾ وتمتُّع بالعيش ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى يوم القيامة، أو إلى الموت. قال إبراهيم بن أدهم: أورتنا تلك الأكلة حزناً طويلاً.

٣٧ - ﴿فَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي: استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها. وينصب آدم ورفع^(١) كلمات: مكى، على أنها استقبلته بأن بلغته، واتصلت به، وهن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وفيه موعظةٌ لذريتهما حيث عرفوا كيفية السبيل إلى التنصُّل من الذنوب. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: أن أحبَّ الكلام إلى الله تعالى ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله إلا أنت. ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفرُ الذنوب إلا أنت». وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: يارب! ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: يارب! ألم تنفخ في روحي من روحك؟ ألم تسبق رحمتك غضبك؟ ألم تسكنني جنتك؟ وهو تعالى يقول: بلى، بلى. قال: فلم أخرجتني من الجنة؟ قال: بشؤم معصيتك. قال: فلو تبت أراجعي أنت إليها؟ قال: نعم ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فرجع عليه بالرحمة والقبول، واكتفى بذكر توبة آدم؛

(١) أي: (فتلقى آدم من ربه كلمات).

إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ

لأن حواء كانت تبعاً له. وقد طوي ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك ﴿إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ﴾ الكثير القبول للتوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ على عباده.

٣٨ - ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ حال، أي: مجتمعين. وكَرَّر الأمر بالهبوط للتأكيد، أو لأنَّ الهبوط الأول من الجنة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرض، أو لما نيط به من زيادة قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أي: رسول أبعته إليكم، أو كتاب أنزله عليكم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ في مقابلة قوله: ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ﴾ أي: بالقبول والإيمان به ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا. والشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول، كقولك: إن جئتني فإن قدرت أحسنت إلي. (فلا خوف) بالفتح في كل القرآن: يعقوب.

٣٩ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: أهلها ومستحقوها. والجملة في موضع الرفع خبر المبتدأ، أعني: الذين ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٤٠ - ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هو يعقوب - عليه السلام - وهو لقب له، ومعناه في لسانهم: صفوة الله، أو عبد الله. فإسرا هو العبد، أو الصفوة، وإيل: هو الله بالعبرية. وهو غير منصرف لوجود العلمية والعجمة ﴿أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ذكَّروهم النعمة ألا يخلوا بشكرها، ويطيعوا مانحها. وأراد بها: ما أنعم به على آبائهم، مما عدَّد عليهم من الإنجاء من فرعون وعذابه، ومن الغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل، والتوبة عليهم؛ وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد ﷺ المبشَّر به في التوراة والإنجيل ﴿وَأَوْفُوا﴾ أدُّوا وافيّاً تاماً. يقال: وفيت له بالعهد، فأنا واف به، وأوفيت له بالعهد، فأنا موفٍ به. والاختيار: أوفيت، وعليه نزل التنزيل ﴿بِعَهْدِي﴾ بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي، والطاعة لي، أو من الإيمان بنبي الرحمة والكتاب المعجز ﴿أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ بما

وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ
وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم. والعهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً. وعن قتادة هما: ﴿لَيْنَ أَقَمْتُمْ﴾ و﴿لَا كُفْرَنَ﴾ [المائدة: ١٢]. وقال أهل الإشارة: أوفوا في دار محتتي، على بساط خدمتي، بحفظ حرمتي، أوف في دار نعمتي، على بساط كرامتي، بسرور رؤيتي ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ فلا تنقضوا عهدي، وهو من قولك: زيدا رهبت. وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وإيائي: منصوب بفعل مضمر دل عليه ما بعده، وتقديره: فأرهبوا إيائي فارهبون. وحذف الأول لأن الثاني يدل عليه. وإنما لم ينتصب بقوله ﴿فَأَرْهَبُونِ﴾ لأنه أخذ مفعوله، وهو الياء المحذوفة، وكسرة النون دليل الياء، كما لا يجوز نصب زيد في: زيدا فاضربه باضرب الذي هو ظاهر.

٤١ - ﴿وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة من الهاء المحذوفة، كأنه قيل: أنزلته مصدقاً ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة. يعني: في العبادة، والتوحيد، والنبوة، وأمر محمد ﷺ ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: أول من كفر به، أو أول حزب، أو فوج كافر به، أو: ولا يكن كل واحد منكم أول كافر به. وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفة به وبصفته. والضمير في ﴿به﴾ يعود إلى القرآن ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِإِيتَانِي﴾ بتغيرها، وتحريفها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال الحسن: هو الدنيا بحذافيرها. وقيل: هو الرياسة التي كانت لهم في قومهم، خافوا عليها الفوات لو اتبعوا رسول الله ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾ (فخافوني، فارهبوني، فاتقوني) بالياء في الحالين، وكذلك كل ياء محذوفة في الخط: يعقوب.

٤٢ - ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ لبس الحق بالباطل: خلطه. والباء، إن كانت صلة مثلها في قولك: لبست الشيء بالشيء: خلطته به، كان المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها، فيختلط الحق بالباطل الذي كتبتم، حتى لا يميز بين حقها وباطلكم. وإن كانت باء الاستعانة كالتي في قولك:

وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٤﴾
 ﴿٤٥﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنَّ أَكْثَرًا فَاعِلُونَ ﴿٤٦﴾
 وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ

كتب بالقلم كان المعنى: ولا تجعلوا الحق ملتبساً مشتبهاً بباطلكم الذي تكتبونه ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ هو مجزوم، داخل تحت حكم النهي بمعنى: ولا تكتُموا. أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، أي: ولا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وكتمان الحق، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وهما أمران متميزان؛ لأن لبس الحق بالباطل ما ذكرنا من كَتَبِهِمْ في التوراة ما ليس منها. وكتمانهم الحق أن يقولوا: لا نجد في التوراة صفة محمد، أو حكم كذا ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في حال علمكم أنكم لا بسون، كاتمون، وهو أقبح لهم؛ لأن الجهل بالقبيح ربما عذر مرتكبه.

٤٣ - ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: صلاة المسلمين وزكاتهم ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ منهم؛ لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم، أي: أسلموا وأعملوا عمل أهل الإسلام. وجاز أن يُراد بالركوع الصلاة، كما يُعبّر عنها بالسجود، وأن يكون أمراً بالصلاة مع المصلين، يعني: في الجماعة. أي: صلّوها مع المصلّين لا منفردين.

٤٤ - ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ الهمزة للتقرير، مع التوبيخ، والتعجب من حالهم ﴿بِالْبِرِّ﴾ أي: سعة الخير والمعروف. ومنه: البرُّ لسعته. ويتناول كل خير، ومنه قولهم: صدقت، وبررت. وكان الأخبارُ يأمرُون مَنْ نصحوه في السرِّ من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد عليه الصلاة والسلام ولا يتبعونه. وقيل: كانوا يأمرُون بالصدقة ولا يتصدقون، وإذا أتوا بالصدقات ليفرقوها خانوا فيها ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتركونها من البر، كالمُنسيات ﴿وَأَنْتُمْ لَتَكُنَّ أَكْثَرًا فَاعِلُونَ﴾ تبكيت، أي: تتلون التوراة وفيها نعت محمد ﷺ، أو فيها الوعيد على الخيانة، وترك البر، ومخالفة القول بالعمل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تفتنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وهو توبيخ عظيم.

٤٥ - ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي: بالجمع

وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٦﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٧﴾
يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

بينهما، وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة، محتملين لمشاقها، وما يجب فيها من إخلاص القلب، ودفع الوسوس الشيطانية، والهواجس النفسانية، ومراعاة الآداب، والخشوع، واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السموات والأرض؛ أو استعينوا على البلى والنائب بالصبر عليها، والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها. وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(١). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه نعي إليه أخوه قثم، وهو في سفر، فاسترجع وصلى ركعتين، ثم قال: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾. وقيل: الصبر: الصوم، لأنه حبس عن المفطرات، ومنه قيل لشهر رمضان: شهر الصبر. وقيل: الصلاة: الدعاء، أي: استعينوا على البلى بالصبر، والالتجاء إلى الدعاء، والابتغال إلى الله في دفعه ﴿وَأِنَّهَا﴾ الضمير للصلاة، أو للاستعانة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لشاقّة ثقيلة، من قولك: كبر عليّ هذا الأمر ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ لأنهم يتوقعون ما أذخر للصابرين على متاعبها، فتتهون عليهم، ألا ترى إلى قوله:

٤٦ - ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبَّهُمْ﴾ أي: يتوقعون لقاء ثوابه، ونيل ما عنده، ويطمعون فيه. وفسر يظنون بيقنون لقراءة عبد الله^(٢): يعلمون، أي: يعلمون أنه لا بُدَّ من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك. وأما من لم يؤقن بالجزاء، ولم يرج الثواب كانت عليه مشقة خالصة. والخشوع والإخبات: التطامن، وأما الخضوع: فاللين والانقياد. وفسر اللقاء: بالرؤية، وملاقو ربهم: بمعانيه بلا كيف ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ لا يملك أمرهم في الآخرة أحد سواه.

٤٧ - ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ التكرير للتأكيد ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ نصب عطف على نعمتي، أي: اذكروا نعمتي وتفضيلي ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على الجم الغفير من الناس، يقال: رأيت عالماً من الناس، والمراد: الكثرة.

(١) رواه الطبري بهذا اللفظ في تفسيره (١/٢٦٠) من حديث حذيفة.

(٢) أي: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

٤٨ - ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾ أي: يوم القيامة، وهو مفعول به، لا ظرف ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾ مؤمنة ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ كافرة ﴿شَيْئًا﴾ أي: لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق التي لزمته. وشيئاً مفعول به، أو مصدر، أي: قليلاً من الجزء. والجملة منصوبة المحل صفة يوماً، والعائد منها إلى الموصوف محذوف تقديره: لا تجزى فيه ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ (ولا تُقْبَلُ) بالتاء، مكى وبصري. والضمير في ﴿منها﴾ يرجع إلى النفس المؤمنة، أي: لا تقبل منها شفاعة للكافرة. وقيل: كانت اليهود تزعم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا، فهو كقوله: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]. وتثبت المعتزلة بالآية في نفي الشفاعة للعصاة مردود لأن المنفي شفاعة الكفار وقد قال عليه الصلاة والسلام: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، من كَذَّبَ بها لم ينلها»^(١) ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فدية؛ لأنها معادلة للمفدى ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُعَاوَنُونَ. وجمع لدلالة النفس المنكرة على النفوس الكثيرة. وذكر لمعنى العباد أو الأناسي.

٤٩ - ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أصل آل: أهل؛ ولذلك يصغر بأهيل، فأبدلت هاؤه ألفاً. وخص استعماله بأولي الخطر كالملوك وأشباههم، فلا يقال: آل الإسكاف والحجّام. وفرعون: عَلِمَ لمن ملك العمالة، كقيصر لملك الروم، وكسرى لملك الفرس ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ حال من آل فرعون، أي: يولونكم، من: سامه خسفاً؛ إذا أولاه ظلماً. وأصله: من سام السلعة: إذا طلبها، كأنها بمعنى: يبيغونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ويريدونكم عليه. ومساومة البيع: مزيدة، أو مطالبة. وسوء: مفعول ثان ليسومونكم، وهو مصدر سيء، يقال: أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل، يُراد: قبحهما. ومعنى سوء العذاب - والعذاب

(١) رواه أحمد (٢١٣/٣) وأبو داود (٤٧٣٩) والترمذي (٢٤٣٥) من حديث أنس بن مالك، دون الجملة الثانية.

يُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

كله سىء-: أشدّه وأفظعه ﴿يُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بيان لقوله ﴿يسومونكم﴾ ولذا ترك العاطف ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يتركون بناتكم أحياء للخدمة. وإنما فعلوا بهم ذلك؛ لأن الكهنة أنذروا فرعون بأنه يولد مولودٌ يزول ملكه بسببه، كما أنذروا نمرود فلم يغن عنهما اجتهدهما في التحفّظ، وكان ما شاء الله ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾ محنة إن أشير بذلكم إلى صنع فرعون، ونعمة إن أشير به إلى الإنجاء ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ صفة لبلاء ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ثانية.

٥٠ - ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم. وقرىء: (فرّقنا)، أي: فصلنا، يقال: فرّق بين الشيئين، وفرّق بين الأشياء؛ لأن المسالك كانت اثني عشر على عدد الأسباط ﴿بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ كانوا يسلكونه، ويتفرق الماء عند سلوكهم، فكانما فرق بهم. أو فرقناه بسبيكم. أو فرقناه ملتبساً بكم، فيكون في موضع الحال. روي: أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: أين أصحابنا؟ فنحن لا نرضى حتى نراهم! فأوحى الله إليه أن قل بعصاك هكذا، فقال بها على الحيطان، فصارت فيها كوى، فترأوا^(١)، وتسامعوا كلامهم ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ إلى ذلك وتشاهدونه، ولا تشكّون فيه.

٥١ - وإنما قال: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ لأن الله تعالى وعده بالوحي، ووعدّه: هو المجيء للميقات إلى الطور ﴿وَعَدْنَا﴾ حيث كان: بصري. لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون، ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه، وعد الله تعالى موسى أن ينزل عليه التوراة، وضرب له ميقاتاً: ذا القعدة وعشر ذي الحجة. وقال ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لأن الشهور غُرُرُها^(٢) بالليالي. وأربعين: مفعول ثانٍ لواعدنا

(١) في الكشف (١/١٣٩): تراموا.

(٢) «الغُرُر»: جمع الغُرّة، وهي من الشهر: أوله، وليلة استهلال القمر.

ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِلَهُكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

لا ظرف؛ لأنه ليس معناه: واعدناه في أربعين ليلة ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي: إلهاً، فحذف المفعول الثاني لاتخذتم. وبابه بالإظهار^(١)، مكي وحفص ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: بوضعكم العبادة غير موضعها، والجملة حال، أي: عبدتموه ظالمين.

٥٢ - ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ محونا ذنوبكم عنكم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد اتخاذه العجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا النعمة في العفو عنكم.

٥٣ - ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ يعني: الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاً يفرق بين الحق والباطل، وهو التوراة، ونظيره: رأيت الغيث والليث، تريد: الرجل الجامع بين الجود والجرأة؛ أو: التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات؛ أو: الشرع الفارق بين الحلال والحرام. وقيل: الفرقان: انفلاق البحر، أو: النصر الذي فرق بينه وبين عدوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا.

٥٤ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ للذين عبدوا العجل ﴿يَنْقُومِ إِلَهُكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ معبوداً ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت. وفيه تقرير لما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم؛ الذي برأهم أبرياء من التفاوت إلى عبادة البقر؛ الذي هو مثلٌ في الغباوة والبلادة ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قيل: هو على الظاهر، وهو البخع^(٢) وقيل: معناه: قتل بعضهم بعضاً، وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبد، فقتل سبعون ألفاً

(١) وأدغم الذال (اتَّخَذْتُمْ) الباقون، وأبوبكر عن عاصم أيضاً. انظر كتاب السبعة (ص ١٥٥).

(٢) «البخع»: بَخَعَ نَفْسَهُ: قَتَلَهَا غِيظاً أَوْ غَمّاً.

ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تُشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التوبة والقتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ من الإصرار على المعصية ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الفضال بقبول التوبة وإن كثرت ﴿الرَّحِيمُ﴾ يعفو الحوبة وإن كبرت. والفاء الأولى للتسبيب؛ لأنَّ الظلم سببُ التوبة. والثانية للتعقيب؛ لأن المعنى: فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم، إذ الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم. والثالثة متعلقة بشرط محذوف، كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم.

٥٥ - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً، وانتصاها على المصدر كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس، أو على الحال من نَرَى، أي: ذوي جهرة ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي: الموت. قيل: هي نارٌ جاءت من السماء فأحرقتهم. رُوي أنَّ السَّبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام عند الانطلاق إلى الجبل قالوا له: نحن لم نعبد العجل كما عبده هؤلاء، فأرنا الله جهرة. فقال موسى: سألته ذلك فأباه عليّ. فقالوا: إنك رأيت الله تعالى، فلن نُؤْمِنَ لك حتى نرى الله جهرة، فبعث الله عليهم صاعقةً فأحرقتهم. وتعلقت المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية؛ لأنه لو كان جائز الرؤية لما عذبوا بسؤال ما هو جائز الثبوت. قلنا: إنما عُوقبوا بكفرهم؛ لأن قولهم: إنك رأيت الله فلن نُؤْمِنَ لك حتى نرى الله جهرة، كفر منهم. ولأنَّهم امتنعوا عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته حتى يروا ربَّهم جهرة، والإيمانُ بالأنبياء واجبٌ بعد ظهور معجزتهم^(١)، ولا يجوز اقتراح الآيات عليهم. ولأنهم لم يسألوا سؤالَ استرشادٍ، بل سؤالَ تعنتٍ وعناد ﴿وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ﴾ إليها حين نزلت.

٥٦ - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ أحييناكم، وأصله: الإثارة ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تُشْكُرُونَ﴾ نعمة البعث بعد الموت.

(١) في المطبوع: معجزاتهم.

وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

٥٧ - ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ جعلنا الغمام يظلمكم. وذلك في التيه سحر الله لهم السحاب يسيرٌ بسيرهم يظلمهم بسيرهم يظلمهم من الشمس، وينزل بالليل عمودٌ من نار يسرون في ضوءه، وثيابهم لا تتسخ، ولا تبلى ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ﴾ الترنجيب، وكان ينزل عليهم مثل الثلج من طلوع الشمس، لكل إنسان صاع ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ كان يبعث الله عليهم الجنوب فتحشر عليهم السلوى، وهي السَّمَانَى، فيذبح الرجل منها ما يكفيه. وقلنا لهم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ لذيذات أو حلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعني: فظلموا بأن كفروا هذه النعم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أنفسهم: مفعول يظلمون، وهو خبر كان.

٥٨ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ قلنا لهم بعد ما خرجوا من التيه ﴿أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: بيت المقدس، أو أريحاء، والقرية: المجتمع من: قريت، لأنها تجمع الخلق. أمروا بدخولها بعد التيه ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من طعام القرية وثمارها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ﴾ باب القرية، أو باب القبة التي كانوا يصلون إليها. وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام، وإنما دخلوا الباب في حياته، ودخلوا بيت المقدس بعده ﴿سُجَّدًا﴾ حال، وهو جمع ساجد. أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله تعالى، وتواضعاً له ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فعله من الخط، كالجلسة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي: مسألتنا حطة، أو أمرك حطة. والأصل النصب، وقد قرئ به بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة. وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات. وقيل: أمرنا حطة، أي: أن نحط في هذه القرية، ونستقر فيها. وعن علي - رضي الله عنه -: هو بسم الله الرحمن الرحيم. وعن عكرمة: هو لا إله إلا الله ﴿نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ جمع خطيئة، وهي الذنب (يُغْفَرُ)، مدني. (تُغْفَرُ)، شامي ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من كان محسناً منكم

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ

كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة.

٥٩ - ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فيه حذف، وتقديره: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالذي قيل لهم ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فبدل يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه، وإلى آخر بالباء، فالذي مع الباء متروك، والذي بغير باء موجود. يعني: وضعوا مكان حطة قولاً غيرها. أي: أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قول ليس معناه ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله. وقيل: قالوا مكان حطة: حنطة. وقيل: قالوا بالنبطية: حطا سميقتا، أي: حنطة حمراء استهزاء منهم بما قيل لهم، وعدولاً عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ عذاباً. وفي تكرير الذين ظلموا زيادة في تقبيح أمرهم، وإيدان بإنزال الرجز عليهم لظلمهم ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ صفة لرجز ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم. روي أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً.

٦٠ - ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ موضع إذ نصب، كأنه قيل: واذكروا إذ استسقى، أي: استدعى أن يسقى قومه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ عطشوا في التيه، فدعا لهم موسى بالسقيا، فقيل له: اضرب بعصاك الحجر. واللام للعهد، والإشارة إلى حجر معلوم. فقد روي أنه حجر طوري حمله معه، وكان مربعاً، له أربعة أوجه، كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين، وكانوا ستمئة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً. أو: الجنس، أي: اضرب الشيء الذي يقال له الحجر. وهذا أظهر في الحجة، وأبين في القدرة ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ الفاء متعلقة بمحذوف، أي: فضرِب فانفجرت، أي: سالت بكثرة، أو فإن ضربت فقد انفجرت، وهي على هذا فاء فصيحة، لا تقع إلا في كلام بليغ ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ على عدد الأسباط. وقرىء بكسر الشين وفتحها، وهما لغتان. وعيناً: تمييز ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط ﴿مَّشْرِبَهُمْ﴾ عينهم التي

كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَسْمُوْنَ
لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا
وَقَشَائِبِهَا وَقُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفٌ بِالَّذِي
هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا ثُمَّ وَضَعَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ

يشربون منها ﴿كُلُوا﴾ وقلنا لهم: كلوا من المن والسلوى ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من ماء
العيون ﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أي: الكل مما رزقكم الله ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ﴾
لا تفسدوا فيها، والعيث: أشد الفساد ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة، أي: لا تتماذوا
في الفساد في حال فسادكم؛ لأنهم كانوا متمادين فيه.

٦١ - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَسْمُوْنَ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ هو ما رزقوا في التيه من المن
والسلوى. وإنما قالوا: ﴿عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهما طعامان؛ لأنهم أرادوا بالواحد
ما لا يتبدل. ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة، يداوم عليها كل يوم
لا يبدلها، يقال: لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً، ويراد بالوحدة: نفي التبدل
والاختلاف. أو أرادوا: أنهما ضرب واحد، لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ
والترف، وكانوا من أهل الزراعات، فأرادوا ما ألفوا من البقول والحبوب وغير
ذلك ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ سله، وقل له: أخرج لنا ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يُظْهِرْ لَنَا، ويوجد
﴿مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ هو ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به: أطيب
البقول، كالنعناع، والكرفس، والكراث، ونحوهما مما يأكل الناس ﴿وَقَشَائِبِهَا﴾
يعني: الخيار ﴿وَقُومِهَا﴾ هو الحنطة، أو الثوم، لقراءة ابن مسعود: وثومها
﴿وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفٌ﴾ أقرب منزلة، وأدون مقداراً،
والدنو والقرب يُعَبَّرُ بهما عن قلة المقدار ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أرفع، وأجل ﴿أَهْبِطُوا
مِصْرًا﴾ من الأمصار، أي: انحدروا إليه من التيه. وبلاد التيه: ما بين بيت
المقدس إلى قسرين، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ؛ أو: مصر
فرعون، وإنما صرفه مع وجود السبيين، وهما: التأنيث والتعريف؛ لإرادة
البلد، أو لسكون وسطه كنوح ولوط، وفيهما العجمة والتعريف ﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾
فيها ﴿مَآسًا ثُمَّ﴾ أي: فإن الذي سألتكم يكون في الأمصار، لا في التيه ﴿وَضَرَبَتْ
عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾ أي: الهوان والفقر، يعني: جعلت الذلة محيطة بهم،

وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ
بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

مشملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه. أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه. فاليهود صاغرون، أذلاء، أهل مسكنة وفقر، إما على الحقيقة، وإما لتصاغرهم وتفارقهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية. (عليهم الذلة) حمزة وعلي، وكذا كل ما كان قبل الهاء ياء ساكنة. وبكسر الهاء^(١) والميم، أبو عمرو. وبكسر الهاء وضم الميم، غيرهم ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ من قولك: باء فلان بفلان: إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له، أي: صاروا أحقاء بغضبه. وعن الكسائي: رجعوا ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ضرب الذلة، والمسكنة، والخلافة بالغضب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ﴾ بالهمزة، نافع، وكذا باب. أي: ذلك بسبب كفرهم، وقتلهم الأنبياء. وقد قتلت اليهود شعياً، وزكريا، ويحيى صلوات الله عليهم. والنبي من النبأ؛ لأنه يخبر عن الله تعالى، ففعل، بمعنى مفعول، أو بمعنى مفعول. أو: من نبا، أي: ارتفع. والنبوة: المكان المرتفع ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عندهم أيضاً، فإنهم لو أنصفوا لم يذكروا شيئاً يستحقون به القتل عندهم، وهو في محل النصب على الحال من الضمير في يقتلون، أي: يقتلونهم مبطلين ﴿ذَٰلِكَ﴾ تكرار للإشارة ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي، واعتدائهم حدود الله في كل شيء، مع كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء. وقيل: هو اعتداؤهم في السبت. ويجوز أن يُشار بذلك إلى الكفر، وقتل الأنبياء، على أن ذلك بسبب عصيانهم، واعتدائهم؛ لأنهم انهمكوا فيهما، وغلوا حتى قست قلوبهم، فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء؛ أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

٦٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بألستهم من غير مواطاة القلوب، وهم المنافقون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ تهودوا، يقال: هاد يهود وتهود: إذا دخل في اليهودية، وهو

(١) أي: (عليهم).

وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

هائد، والجمع: هود ﴿وَالنَّصَارَى﴾ جمع نصران، كندمان وندامى، يقال: رجل نصران وامرأة نصرانة، والياء في نصراني للمبالغة، كالتي في أحمرى. سُموا نصارى لأنهم نصروا المسيح ﴿وَالصَّبِيحِينَ﴾ الخارجين من دين مشهور إلى غيره، من: صبا: إذا خرج من الدين. وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة. وقيل: هم يقرؤون الزبور ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابهم. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وعمل «من آمن» الرفع إن جعلته مبتدأ خبره: «فلهم أجرهم» والنصب إن جعلته بدلاً من اسم إن والمعطوف عليه. فخير إن في الوجه الأول الجملة كما هي، وفي الثاني فلهم، والفاء لتضمن من معنى الشرط.

٦٣ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ بقبول ما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي: الجبل، حتى قبلتم، وأعطيت الميثاق. وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم، وأبوا قبولها. فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام فقطع^(١) الطور من أصله، ورفع فظلمه فوقهم، وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا ألقى عليكم، حتى قبلوا. وقلنا لهم ﴿خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب، أي: التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِدٍّ وعزيمة. ﴿وَادْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ واحفظوا ما في الكتاب، وادرسوه، ولا تنسوه، ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين.

٦٤ - ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ ثم أعرضتم عن الميثاق، والوفاء به ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد القبول ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتأخير العذاب عنكم، أو

لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٢﴾ فَعَلَّانَهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ

بتوفيقكم للتوبة ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الهالكين في العذاب.

٦٥ - ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ عرفتم، فيتعدى إلى مفعول واحد ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ هو مصدر، سبت اليهود: إذا عظمت يوم السبت. وقد اعتدوا فيه، أي: جاوزوا ما حُدَّ لهم فيه من التجرد للعبادة، وتعظيمه، واشتغلوا بالصيد. وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يصيدوا في السبت، ثم ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت، فإذا مضى تفرقت، فحفروا حياضاً عند البحر، وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لأمنها من الصيد، فكانوا يسدّون مشارعها من البحر، فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾ بتكويننا إياكم ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ خبر كان، أي: كونوا جامعين بين القردية والخصوء، وهو الصغار والطرود.

٦٦ - ﴿فَعَلَّانَهَا﴾ يعني: المسخة ﴿نَكَالًا﴾ عبرة تُنكل من اعتبر بها، أي: تمنعه ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لما قبلها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ وما بعدها من الأمم والقرون؛ لأن مسختهم ذُكرت في كُتب الأولين، فاعتبروا بها، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين نهوهم عن الاعتداء من صالحى قومهم، أو لكل مُتَّقٍ سمعها.

٦٧ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي: واذكروا إذ قال موسى. وهو معطوف على نعمتي في قوله: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] كأنه قال: اذكروا ذاك، واذكروا إذ قال موسى. وكذلك هذا في الظروف التي مضت، أي: اذكروا نعمتي، واذكروا وقت إنجائنا إياكم، واذكروا وقت فرقنا، واذكروا نعمتي، واذكروا وقت استسقاء موسى ربه لقومه، والظروف التي تأتي إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَنْتَنَّا بِرَحْمَتِنَا﴾ [البقرة: ١٢٤] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ﴾ أي: بأن

تَذَبَّحُوا بِقَرَّةٍ قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزُوءًا قَالِ اعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آذَعْ لَنَارَبِّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ

﴿ تَذَبَّحُوا بِقَرَةٍ ﴾ قال المفسرون: أول القصَّة مؤخر في التلاوة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٧٢]. وذلك أن رجلاً مُوسِراً اسمه عاميل، قتله بنو عمه ليرثوه، وطرحوه على باب مدينة، ثم جاؤوا يطالبون بدينه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة، ويضربوه ببعضها ليحيا، فيخبرهم بقاتله ﴿ قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزُوءًا ﴾ أتجعلنا مكان هزة، أو أهل هزة، أو الهزة نفسه لفرط الاستهزاء. (هُزَاءٌ) بسكون الزاي والهمزة، حمزة. وبضميتين والواو، حفص^(١). غيرهما بالثقل والهمزة ﴿ قَالَ اعُوذُ بِاللَّهِ ﴾ العياذ واللياذ من وادٍ واحد. ﴿ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ لأن الهزة في مثل هذا من باب الجهل والسفه. وفيه تعريض بهم، أي: أنتم جاهلون حيث نسبتموني إلى الاستهزاء.

٦٨ - ﴿ قَالُوا آذَعْ لَنَارَبِّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ ﴾ سؤالٌ عن حالها وصفتها؛ لأنهم كانوا عالمين بماهيتها، لأنَّ ما وإن كانت سؤالاً عن الجنس، وكيف عن الوصف، ولكن قد تقع ما موقع كيف. وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة، يضرب ببعضها ميت فيحيا، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن. وما هي: خبر ومبتدأ ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ ﴾ مُسِنَّة. وَسُمِّيتَ فارضاً لأنها فرضت ستنها، أي: قطعتها، وبلغت آخرها، وارتفع فارض لأنه صفة لبقرة ﴿ وَلَا يَكْرُ ﴾ فتيّة، عطف عليه ﴿ عَوَانٌ ﴾ نَصَف ﴿ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ بين الفارض والبكر. ولم يقل: بين ذينك، مع أن بين يقتضي شيئين فصاعداً؛ لأنه أراد بين هذا المذكور. وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا. قال أبو عبيدة: قلت لرؤية في قوله:

فيها خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقٌ كأنه في الجِلْدِ تَوَلَّعُ الْبَهَقِ^(٢)

إن أردت الخطوط فقل: كأنها، وإن أردت السواد والبلق فقل: كأنهما.

(١) أي: (هُزَاءٌ). وانظر كتاب السبعة (١٥٩).

(٢) «بلق»: بياض. «تولع»: تخطيط. «البهق»: بياض مشوب بكدره. وهو داء يتغيّر منه لون الجلد.

فَفَعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّكَ يَبِّئْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّكَ يَبِّئْ لَنَا مَا
هِيَ إِنْ الْبَقَرُ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

فقال: أردتُ كأن ذاك ﴿فَفَعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به، أو أمركم بمعنى مأمورك، تسمية للمفعول بالمصدر، كضرب الأمير.

٦٩ - ﴿قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّكَ يَبِّئْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ موضع ما: رفع؛ لأن معناه الاستفهام، تقديره: ادع لنا ربك بين لنا أي شيء لونها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد: أصفر فاقع. وهو توكيد لصفراء، وليس خبراً عن اللون، إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل. ولا فرق بين قولك صفراء فاقعة، وصفراء فاقع لونها. وفي ذكر اللون فائدة التوكيد؛ لأن اللون اسم للهيئة، وهي الصفرة، فكأنه قيل: شديد الصفرة صفرتها، فهو من قولك: جدّ جدّه ﴿تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ لحسنها. والشُرور: لذة في القلب عند حصول نفع أو توقّعه. عن علي - رضي الله عنه -: من لبس نعلًا صفراء قلّ همّه؛ لقوله تعالى: ﴿تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾.

٧٠ - ﴿قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّكَ يَبِّئْ لَنَا مَا هِيَ﴾ تكرير للسؤال عن حالها، وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها. عن النبي ﷺ: «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم، ولكن شدّدوا فشدد الله عليهم»^(١) والاستقصاء شؤم ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير، فاشتبه علينا ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى البقرة المراد ذبحها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل. «وإن شاء الله» اعتراض بين اسم إن وخبرها. وفي الحديث: «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد»^(٢) أي: لو لم يقولوا إن شاء الله.

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢١٨٨) وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور (١٨٩/١).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٣٤٥/١).

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا
قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءُكُمْ
فِيهَا

٧١- ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ صفة لبقرة بمعنى: بقرة غير ذلول. يعني: لم تذلل للكراب، وإثارة الأرض ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ ولا هي من النواضح التي يُسنى^(١) عليها لسقي الحروث. ولا الأولى نافية، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى؛ لأن المعنى لا ذلول تثير الأرض، أي: تقلبها للزراعة، وتسقي الحرث، على أن الفعلين صفتان للذلول، كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ عن العيوب، وآثار العمل ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لُمعة في نُقبتها من لون آخر سوى الصفرة، فهي صفراء كلها حتى قرننها وظلفها. وهي في الأصل مصدر، وشاه وشياً وشية: إذا خلط بلونه لوناً آخر ﴿قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكال في أمرها. (جِئْتَ) وبابه بغير همز، أبو عمرو ﴿فَذَبْحُوهَا﴾ فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها، فذبحوها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها، أو خوف الفضيحة في ظهور القاتل. روي أنه كان في بني إسرائيل شيخٌ صالح له عجلة، فأتى بها الغِضَّة^(٢)، وقال: اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر، وكان براً بوالديه، فشبت البقرة، وكانت من أحسن البقر وأسمه. فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها^(٣) ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير. وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة. وهذا البيان من قبيل تقييد المطلق فكان نسخاً. والنسخ قبل الفعل جائز، وكذا قبل التمكن منه عندنا، خلافاً للمعتزلة.

٧٢- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ بتقدير: واذكروا. خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم ﴿فَادَّارَءُكُمْ فِيهَا﴾ فاختلغتم، واختصمتم في شأنها؛ لأن المتخاصمين يدرأ

(١) «يسنى»: يُسقى.

(٢) «الغِضَّة»: الشجر الكثير المُلتَفّ.

(٣) «المسك»: الجلد.

وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعِي اللَّهُ أَلْمَوْتِ
وَرِيكُم بِآيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

بعضُهم بعضاً، أي: يدفعه. أو تدافعتُم بمعنى طَرَحَ قتلها بعضكم على بعض، فيدفع المطروح عليه الطارح. أو لأن الطرح في نفسه دفع. وأصله: تدارأتم، ثم أرادوا التخفيف فقلبوا التاء دالاً لتصير من جنس الدال؛ التي هي فاء الكلمة، ليتمكن الإدغام، ثم سَكَنُوا الدال، إذ شرط الإدغام أن يكونَ الأول ساكناً، وزيدت همزة الوصل؛ لأنه لا يمكن الابتداء بالساكن (فاداراتم) بغير همز، أبو عمرو ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ مُظْهَرٌ لا محالة ما كتتم من أمر القتل، لا يتركه مكتوماً. وأعمل ﴿يُخْرِجُ﴾ على حكاية ما كان مستقبلاً في وقت التدارؤ. وهذه الجملة اعتراضٌ بين المعطوف والمعطوف عليه، وهما (اداراتم) و:

٧٣ - ﴿فَقُلْنَا﴾ والضمير في ﴿أَضْرِبُوهُ﴾ يرجعُ إلى النفس. والتذكير بتأويل الشخص والإنسان. أو: إلى القتل لما دلَّ عليه ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿بِبَعْضِهَا﴾ ببعض البقرة، وهو لسانها، أو فخذها اليمنى، أو عَجَبُهَا^(١). والمعنى: فضربه فحيي. فحذف ذلك لدلالة: ﴿كَذَلِكَ يُعِي اللَّهُ أَلْمَوْتِ﴾ عليه. رُوي أَنَّهُمْ لما ضربه قام بإذن الله تعالى، وقال: قتلني فلان وفلان، لابني عمه، ثم سقط ميتاً، فأخذوا، وقتلوا. ولم يورث قاتل بعد ذلك. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُعِي اللَّهُ أَلْمَوْتِ﴾ إما أن يكون خطاباً للمنكرين في زمن النبي ﷺ، وإما أن يكون خطاباً للذين حضروا حياة القتل بمعنى: وقلنا لهم: ﴿كَذَلِكَ يُعِي اللَّهُ أَلْمَوْتِ﴾ يوم القيامة ﴿وَرِيكُم بِآيَاتِهِ﴾ دلائله على أنه قادر على كل شيء ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتعملون على قضية عقولكم، وهي أن: من قدر على إحياء نفس واحدة، قدر على إحياء جميعها؛ لعدم الاختصاص.

والحكمة في ذبح البقرة وضربه ببعضها - وإن قدر على إحيائه بلا واسطة

(١) «عَجَبُهَا»: العَجَب من كل شيء: مؤخره.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً

التقرب به -: الإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب، والتعليم لعباده ترك التشديد في الأمور، والمسارة إلى امتثال أوامر الله من غير تفتيش، وتكثير سؤال، وغير ذلك. وقيل: إنما أمروا بذبح البقرة دون غيرها من البهائم؛ لأنها أفضل قرايبنهم، ولعبادتهم العجل، فأراد الله تعالى أن يهون معبودهم عندهم. وكان ينبغي أن يقدم ذكر القتل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأَتْكُمْ فِيهَا﴾ فقلنا: اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها. ولكنه تعالى إنما قصَّ قصصَ بني إسرائيل تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها. وهاتان القصتان - وإن كانتا متصلتين - فتستقل كل واحدة منهما بنوع من التقريع. فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال، وما يتبع ذلك. والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما تبعه من الآلة العظيمة. وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب المراد في ثنية التقريع. ولقد رُوِعت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصّة برأسها، أن وصلت بالأولى بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: ﴿اضربوه ببعضها﴾ ليعلم أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع، وقصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة. وقيل: هذه القصة تشير إلى أنَّ مَنْ أراد إحياء قلبه بالمشاهدات فليمت نفسه بأنواع المجاهدات.

٧٤ - ومعنى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: استبعاد القسوة ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ ما ذكر مما يوجب لين القلوب ورقتها. وصفة القلوب بالقسوة مثل لبوؤها عن الاعتبار والاتعاظ. من بعد ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى إحياء القتل، أو إلى جميع ما تقدم من الآيات المعدودة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فهي في قسوتها مثل الحجارة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ منها. وأشد: معطوف على الكاف، تقديره: أو مثل أشد قسوة، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. أو هي في أنفسها أشد قسوة. يعني: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة، أو بجوهر أقسى منها، وهو الحديد مثلاً. أو مَنْ عرفها شبهها بالحجارة، أو قال: هي أقسى من الحجارة.

وَلَاِنَّ مِنَ الْحَجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ أَفَنُظْمِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا

وإنما لم يقل أفسى لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة. وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس، كقولك: زيد كريم، وعمرو أكرم ﴿وَلَاِنَّ مِنَ الْحَجَارَةِ﴾ بيان لزيادة قسوة قلوبهم على الحجارة ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ «ما» بمعنى الذي، في موضع النصب، وهو اسمُ إن، واللام للتوكيد، والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة ﴿وَلَاِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ﴾ أصله يشقق، وبه قرأ الأعمش، فقلبت التاء شيئا، وأدغمت ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ يعني: أنَّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير، ومنها: ما ينشق انشقاقاً بالطول، أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً، وقلوبهم لا تندى ﴿وَلَاِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ يتردى من أعلى الجبل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ قيل: هو مجاز عن انقيادها لأمر الله، وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به. وقيل: المراد به حقيقة الخشية على معنى: أنه يخلق فيها الحياة والتميز. وليس شرط خلق الحياة، والتميز في الجسم أن يكون على بنية مخصوصة عند أهل السُنَّة، وعلى هذا قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ الآية [الحشر: ٢١]. يعني: وقلوبهم لا تخشى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبالباء، مكى. وهو وعيد.

٧٥ - ﴿أَفَنُظْمِعُونَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أن يؤمنوا لأجل دعوتكم، ويستجيبيوا لكم، كقوله تعالى: ﴿فَقَامَنْ لَمْ يُؤْمَرْ﴾ [العنكبوت: ٢٦] يعني: اليهود ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ طائفة فيمن سلف منهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي: التوراة ﴿ثُمَّ يَحْرِفُونَ﴾ كما حرفوا صفة رسول الله ﷺ، وآية الرجم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ من بعد ما فهموه، وضبطوه بعقولهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون مفترون. والمعنى: إن كفر هؤلاء وحرفوا، فلهم سابقة في ذلك.

٧٦ - ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أي: المنافقون، أو اليهود ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي:

قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ

المخلصين من أصحاب محمد ﷺ ﴿قَالُوا﴾ أي: المنافقون ﴿ءَامَنَّا﴾ بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشّر به ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ﴾ الذين لم ينافقوا ﴿إِلَى بَعْضٍ﴾ إلى الذين نافقوا ﴿قَالُوا﴾ عاتبين عليهم. ﴿أُتُحَدِّثُونَهُمْ﴾ أتخبرون أصحاب محمد ﷺ ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بيّن الله لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه. جعلوا محاجتهم به وقولهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله. ألا تراك تقول: هو في كتاب الله تعالى هكذا، وهو عند الله هكذا بمعنى واحد. وقيل: هذا على إضمار المضاف، أي: عند كتاب ربكم. وقيل: ليجادلوكم، ويخاصموكم به، بما قلتم لهم عند ربكم في الآخرة يقولون: كفرتم بعد أن وقفتم على صدقه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن هذه حُجّة عليكم حيث تعترفون به، ثم لا تتابعونه.

٧٧ - ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ جميع ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان.

٧٨ - ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن اليهود ﴿أُمِّيُونَ﴾ لا يحسنون الكتب، فيطالعوا التوراة، ويتحققوا ما فيها ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿إِلَّا أَمَانِيًّ﴾ إلا ما هم عليه من أمانيتهم، وأنّ الله يعفو عنهم، ويرحمهم، ولا تمسهم النار إلا أياماً معدودة؛ أو: إلا أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد، ومنه قول عثمان - رضي الله عنه -: ما تمنيت منذ أسلمت. أو: إلا ما يقرؤون، من قوله:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهَا لَأَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ^(١)

(١) «تمنى كتاب الله»: تلاه. «الحمام»: الموت.

وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُمْ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا

ابن عباس ومجاهد وغيرهما - رضي الله عنهم - ﴿وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُمْ﴾ وسدَّت عليه مسالك النجاة، بأن مات على شركه. فأما إذا مات مؤمناً فأعظم الطاعات، وهو الإيمان معه، فلا يكون الذنب محيطاً به، فلا يتناول النص. وبهذا التأويل يبطل تشبُّث المعتزلة والخوارج. وقيل: استولت عليه كما يحيط العدو، ولم يتفصَّ عنها بالتوبة^(١). (خطيئاته) مدني ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٨٢ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٨٣ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الميثاق: العهد المؤكَّد غاية التأكيد.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إخبار في معنى النهي، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر. وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنه سُورِع إلى الامتثال والانتهاء، وهو يخبر عنه. وتنصُّره قراءة أبي ﴿لا تعبدوا﴾، وقوله: ﴿وقولوا﴾ والقول مضمَر. (لا يعبدون) مكِّي وحمة وعلي؛ لأن بني إسرائيل اسم ظاهر، والأسماء الظاهرة كُلُّها غيب. ومعناه: ألا يعبدوا، فلما حذفت «أن» رفع. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأحسنوا، ليلتئم عطف الأمر، وهو قوله: ﴿وقولوا﴾ عليه. ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ القرابة. ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو الذي: فقد أباه قبل الحلم إلى الحلم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لَا يَتِمُّ بَعْدَ الْبُلُوغِ»^(٢). ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو الذي: أسكنته الحاجة. ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ قولاً هو حسن في نفسه لإفراط حسنه.

(١) يتفص عنها: يتخلص.

(٢) رواه أبو داود (٢٨٧٣) من حديث علي.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلْغَامِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمُ اسْتَرْسَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ

(حَسَنًا) حمزة وعلي. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الميثاق ورفضتموه. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ قيل: هم الذين أسلموا منهم. ﴿وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وأنتم قوم عادتكم الإعراض، والتولية عن المواثيق.

٨٤ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا يفعل ذلك بعضكم ببعض. جعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به أصلاً، أو ديناً. وقيل: إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه؛ لأنه يقتضيه منه. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق، واعترفتكم على أنفسكم بلزومه. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ عليها، كما تقول: فلان مقرر على نفسه بكذا، شاهد عليها. أو: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ اليوم يامعشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق.

٨٥ - ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ استبعاد لما أسند إليهم من القتل، والإجلاء، والعدوان، بعد أخذ الميثاق منهم، وإقرارهم، وشهادتهم. أنتم: مبتدأ، وهؤلاء: بمعنى الذين. ﴿تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ صلة هؤلاء، وهؤلاء مع صلته: خبر أنتم. ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ غير مراقبين ميثاق الله. ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتخفيف، كوفي. أي: تتعاونون. وبالتشديد، غيرهم. فمن خفف فقد حذف إحدى التاءين. ثم قيل: هي الثانية؛ لأن الثقل بها، وقيل: الأولى. ومن شدد قلب التاء الثانية ظاء، وأدغم. ﴿بِالْإِلْغَامِ وَالْعُدْوَانِ﴾ بالمعصية والظلم. ﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمُ اسْتَرْسَىٰ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أسارى تفادوهم: أبو عمرو. أسرى تفادوهم: مكى وشامي. أسرى تفادوهم: حمزة، أسارى تفادوهم علي. فدى وفادى بمعنى. وأسارى: حال، وهو جمع أسير، وكذلك أسرى. ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ الضمير للشأن، أو هو ضمير مبهم تفسيره ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾

أَفْتَوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

أَفْتَوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ﴿﴾ بفداء الأسرى ﴿﴾ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴿﴾ بالقتال والإجلاء. قال السدي: أخذ الله عليهم أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء الأسير، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ﴾ هو إشارة إلى الإيمان ببعض والكفر ببعض ﴿مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ فضيحة وهوان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ وهو الذي لا رَوْحَ فيه ولا فرح، أو إلى أشد من عذاب الدنيا ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالياء، مكى، ونافع، وأبو بكر.

٨٦ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ اختاروها على الآخرة اختيار المشتري ﴿فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم.

٨٧ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة، أتاه جملة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يقال: قفاه: إذا اتبعه من القفا، نحو: ذنبه من الذنب. وقفاه به: إذا أتبعه إياه: يعني: وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل. وهم يوشع، وأشمويل، وشمعون، وداود، وسليمان، وشعيا، وأرميا، وعزير، وحزقييل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ هي بمعنى: الخادم. ووزن مريم عند النحويين مفعول؛ لأن فَعِيلًا لم يثبت في الأبنية. البيّنات: المعجزات الواضحات كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالمغيبات ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: الطهارة. وبالسكون^(١) حيث كان: مكى. أي: بالروح المقدسة، كما

(١) سكون الدال (القدس).

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

يقال: حاتم الجود. ووصفها بالقدس للاختصاص والتقريب. أو بجبريل - عليه السلام - لأنه يأتي بما فيه حياة القلوب. وذلك لأنه رفعه إلى السماء حين قصد اليهود قتله. أو بالإنجيل كما قال في القرآن: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. أو باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ﴾ تحب ﴿أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تعظمتن عن قبوله ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام. ولم يقل: قتلتم لوفاق الفواصل، أو لأنَّ المراد: وفريقاً تقتلون بعد؛ لأنكم تحومون^(١) حول قتل محمد ﷺ لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه، وسَمِمت له الشاة. والمعنى: ولقد آتينا يابني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناكم، فكلما جاءكم رسولٌ منهم بالحق استكبرتم عن الإيمان به. فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ، والتعجب من شأنهم.

٨٨ - ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف، أي: هي حلقة مغشاة بأغطية لا يتوصَّل إليها ما جاء به محمد ﷺ ولا تفقهه. مستعار من الأغلف الذي لم يُخْتَن. ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ فردَّ الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك؛ لأنها خلقت على الفطرة والتمكَّن من قبول الحق. وإنما طردهم بكفرهم وزينهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ «فقليلًا» صفة مصدر محذوف، أي: فإيماناً قليلاً يؤمنون و«ما» مزيدة. وهو إيمانهم ببعض الكتاب. وقيل: القلة بمعنى العدم. وقيل: غُلْفٌ تخفيف غُلْف، وقرئ به، جمع: غلاف، أي: قلوبنا أوعية للعلوم، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره. أو أوعية للعلوم، فلو كان ما جئت به حقاً لقبلنا.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِسْمَا أَسْرَأُوا بِهِ أَنْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِیًّا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾

٨٩ - ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: اليهود. ﴿كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم لا يخالفه. ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: القرآن ﴿يَسْتَفْهِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم، قالوا: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان؛ الذي نجد نعته في التوراة، ويقولون لأعدائهم المشركين: قد أظلم زمانٌ نبِيٌّ يخرجُ بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ ما موصولة، أي: ما عرفوه، وهو: فاعل جاء ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ بغياً، وحسداً، وحرصاً على الرئاسة ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكُفْرِ﴾ أي: عليهم، وضعاً للظاهر موضع المضمرة؛ للدلالة على أَنَّ اللعنة لحقتهم لكفرهم. واللام للعهد؛ أو للجنس، ودخلوا فيه دخولاً أولياً. وجواب لما الأولى مضمرة، وهو نحو: كذبوا به، أو أنكروه. أو «كفروا» جواب الأولى والثانية؛ لأن مقتضاهما واحد.

٩٠ - و«ما» في ﴿بَشِّرْهُمْ﴾ ما نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بش، أي: بش شيئاً. ﴿أَشْتَرُوا بِوَدِّهِمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: باعوه. والمخصوص بالذم ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿بَغْيًا﴾ مفعول له، أي: حسداً وطلباً لما ليس لهم، وهو علة ﴿أَشْتَرُوا﴾ ﴿أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ﴾ لأن ينزل، أو على أن ينزل، أي: حسدوه على أن ينزل الله ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ الذي هو الوحي ﴿عَلَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ فصاروا أحقاء بغضب مترادف؛ لأنهم كفروا بنبي الحق؛ وبغوا عليه. أو كفروا بمحمد بعد عيسى عليهما الصلاة والسلام. أو بعد قولهم ﴿عَزَّزْنَا بِنُورِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وقولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وغير ذلك. ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ مَذَلٌ

وَلَا إِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُوا بِمَا
 وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ
 وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا
 ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا

(يُسْمَا) وبابه غير مهموز: أبو عمرو، و(يُنزِل) بالتخفيف: مكي وبصري.

٩١ - ﴿وَلَا إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لهؤلاء اليهود ﴿ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ﴾ يعني: القرآن،
 أو هو مطلق يتناول كل كتاب. ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي: التوراة
 ﴿وَيَكْفُرُوا بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي: قالوا ذلك، والحال أنهم يكفرون بما وراء
 التوراة. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ غير مخالف له. وفيه ردٌ لمقاتلتهم؛ لأنهم
 إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها. ومصدقاً: حال مؤكدة ﴿قُلْ فَلِمَ
 تَقُولُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ﴾ أي: فلم قتلتم، فوضع المستقبل موضع الماضي، ويدل عليه
 قوله ﴿مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: من قبل محمد ﷺ. اعتراض عليهم
 بقتلهم الأنبياء مع ادعائهم الإيمان بالتوراة. والتوراة لاتسوغ قتل الأنبياء.
 قيل: قتلوا في يوم واحد ثلاثمائة نبي في بيت المقدس.

٩٢ - ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالآيات التسع. وأدغم الدال في
 الجيم حيث كان، أبو عمرو وحمزة وعلي. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنُ
 بَعْدِهِ﴾ من بعد خروج موسى عليه السلام إلى الطور ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ هو
 حال، أي: عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها. أو: اعتراض،
 أي: وأنتم قوم عادتكم الظلم.

٩٣ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾
 كرّر ذكر رفع الطور؛ لما ينط به من زيادة ليست مع الأولى ﴿وَاسْمِعُوا﴾ ما
 أمرتم به في التوراة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. وطابق قوله
 جوابهم من حيث إنه قال لهم: اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة،

وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَا يَا مُرْكُم بِهِ
 إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ
 خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا
 بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾

فقالوا: سمعنا، ولكن لاسماع طاعة ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: تداخلهم حبه، والحرص على عبادته، كما يتداخل الثوب الصبغ. وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ بيان لمكان الإشراب. والمضاف - وهو الحب - محذوف ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم، واعتقادهم التشبيه ﴿قُلْ يَسْكَا يَا مُرْكُم بِهِ﴾ إِيْمَانُكُمْ بالتوراة؛ لأنه ليس في التوراة عبادة العجل. وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكُّم. وكذا إضافة الإيمان إليهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تشكيك في إيمانهم، وقدح في صحَّة دعواهم له.

٩٤ - ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي: الجنة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ظرف. ولكم: خبر كان. ﴿خَالِصَةً﴾ حال من الدار الآخرة، أي: سالمة لكم، ليس لأحد سواكم فيها حق. يعني: إن صحَّ قولكم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١] ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ هو للجنس ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون؛ لأنَّ من أيقن أنَّه من أهل الجنة اشتاق إليها؛ تخلصاً من الدار ذات الشوائب، كما نقل عن العشرة المبشرين بالجنة أنَّ كلَّ واحدٍ منهم كان يحبُّ الموت، ويحُرُّ إليه.

٩٥ - ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ هو نصب على الظرف، أي: لن يتمنوه ما عاشوا ﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ﴾ بما أسلفوا من الكفر بمحمد ﷺ، وتحريف كتاب الله، وغير ذلك. وهو من المعجزات؛ لأنه إخبارٌ بالغيب. وكان كما أخبر به، كقوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]. ولو تمنَّوه لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديدٌ لهم.

وَلَنَجْذِبَهُمْ إِلَىٰ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَخٍ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

٩٦ - ﴿وَلَنَجْذِبَهُمْ إِلَىٰ أَحْرَصِ النَّاسِ﴾ مفعولا وجد: ﴿هم﴾ و﴿أحرص﴾

﴿عَلَىٰ حَيَوتِهِ﴾ التنكير يدلُّ على أن المراد حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة؛ ولذا كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبي: (على الحياة) ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هو محمولٌ على المعنى؛ لأن معنى أحرص الناس: أحرص من الناس. نعم قد دخل الذين أشركوا تحت الناس، ولكنهم أفردوا بالذكر، لأنَّ حرصهم شديدٌ، كما أن جبريل وميكائيل خصّا بالذكر وإن دخلّا تحت الملائكة. أو أريد: وأحرص من الذين أشركوا، فحذف لدلالة «أحرص الناس» عليه. وفيه توبيخٌ عظيمٌ؛ لأنَّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم. فإذا زاد في الحرص من له كتاب، وهو مقررٌ بالجزاء، كان حقيقاً بأعظم التوبيخ. وإنما زاد حرصهم على الذين أشركوا؛ لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار، لعلمهم بحالهم، والمشركون لا يعلمون ذلك. وقوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف. وقيل: أراد بالذين أشركوا: المجوس؛ لأنهم كانوا يقولون لملوكهم: عش ألف نيروز. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو قول الأعاجم: زي هزار سال. وقيل: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ كلام مبتدأ، أي: ومنهم ناس يودُّ أحدُهم، على حذف الموصوف. والذين أشركوا على هذا مشارٌ به إلى اليهود؛ لأنهم قالوا: عزيز ابن الله ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْضَخٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الضمير لأحدهم، وقوله: ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ فاعل بمزحزحه، أي: وما أحدُهم بمن يزحزحه من النار تعميره. ويجوز أن يكون ﴿هو﴾ مبهماً و﴿أن يعمر﴾ موضحة. والزحزحة: التبعيد، والإنحاء. قال في «جامع العلوم» وغيره: ﴿لو يعمر﴾ بمعنى: أن يعمر. فلو هنا نائبة عن أن، وأن مع الفعل في تأويل المصدر، وهو مفعول يودُّ، أي: يودُّ أحدُهم تعمير ألف سنة ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بعمل هؤلاء الكفار، فيجازيهم عليه. وبالتالي، يعقوب.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

٩٧ - ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ بفتح الجيم وكسر الراء بلا همز^(١)، مكى، وبفتح الراء والجيم والهمز مشبعاً، كوفي غير حفص، وبكسر الراء والجيم بلا همز، غيرهم. ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة. ومعناه: عبدالله؛ لأن جبر هو العبد بالسريانية، وإيل اسم الله. روي أن ابن سوريا - من أحابار اليهود - حاج النبي ﷺ، وسأله عمن يهبط عليه بالوحي. فقال: «جبريل». فقال: ذاك عدونا، ولو كان غيره لآمنا بك، وقد عادانا مراراً، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرجه بختنصر، فبعثنا من يقتله فلقية ببابل غلاماً مسكيناً، فدفع عنه جبريل، وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم، فإنه لا يسلطكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى أي ذنب تقتلون^(٢)؟ ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ فإن جبريل نزل القرآن. ونحو هذا الإضمار، أعني: إضمار ما لم يسبق ذكره، فيه فخامة حيث يجعل لفرط شهرته، كأنه يدلّ على نفسه، ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: حفظه إياك. وخصّ القلب لأنه محلّ الحفظ، كقوله: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]. وكان حق الكلام أن يقال: على قلبي، ولكن جاء على حكاية كلام الله كما تكلم به، وإنما استقام أن يقع (فإنه نزل) جزاء للشرط؛ لأنّ تقديره: إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته، حيث نزل كتاباً مُصَدِّقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه، وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم، ويصحّ المنزل عليهم. وقيل: جواب الشرط محذوف، تقديره: مَنْ كان عدوّاً لجبريل فليمت غيظاً، فإنه نزل الوحي على قلبك ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمره ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ردّ على اليهود حين قالوا: إنّ جبريل ينزل بالحرب والشدة، فقيل: فإنه ينزل

(١) أي (لجبريل) و(لجبرئيل).

(٢) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٨ و ١٩).

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ
 لِلْكَافِرِينَ ﴿١٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٩٩﴾
 أَوْ كَلِمَاتٍ عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٠﴾

بالهدى والبشرى أيضاً. (بإذن الله) حال من ضمير الفاعل في نزل، أي: مأذوناً له، ومصدقاً: حال من الهاء في نزله، وكذا هدى وبشرى؛ أي: هادياً ومبشراً. وقالت الباطنية: القرآن لم ينزل على رسول الله بالأحرف التي نقرأها، ولكنه إلهام أنزل على قلبه؛ إلا أن محمداً ﷺ عبّره بالعربية، وبهذه الحروف التي نقرأها، فالقرآن ذلك الباطن لا هذه الألفاظ لقوله: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ...﴾ ولكننا نقول: هذا فاسد؛ لأن الله تعالى جعله معجزاً ينظمه العجيب حيث قال: ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] وهذا يتعلق بالنظر.

٩٨ - ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ بصري وحفص، و(ميكائيل) باختلاس الهمزة كميكايل، مدني، و(ميكائيل) بالمد وكسر الهمزة مشبعة، غيرهم. وخصّ الملكان بالذكر لفضلهما، كأنهما من جنس آخر، إذ التغاير في الوصف ينزل منزلة التغاير في الذات ﴿فَأَنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: لهم. فجاء بالظاهر ليدلّ على أن الله إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة كفر كعداوة الأنبياء، ومن عاداهم عاداه الله.

٩٩ - ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفرة. واللام للجنس. والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال ابن سوريا لرسول الله ﷺ: ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فتبعلك بها، فنزلت^(١).

١٠٠ - الواو في ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ﴾ للعطف على محذوف تقديره: أكفروا بالآيات البينات وكلما ﴿عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ﴾ نقضه، ورفضه. وقال ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنّ منهم من لم ينقض. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالتوراة، وليسوا من الدين في

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا
الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا
يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ

شيء فلا يعدون نقض المواثيق ذنباً، ولا يبالون به.

١٠١ - ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ
فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة. والذين أوتوا الكتاب: اليهود.
﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ يعني: التوراة؛ لأنهم بكفروهم برسول الله ﷺ المصدق لما
معهم كافرون بها، نابذون لها. أو: كتاب الله: القرآن، نبذوه بعد ما لزمهم
تلقيه بالقبول ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثلٌ لتركهم، وإعراضهم عنه. مثلٌ بما يُرمى به
وراء الظهر استغناء عنه، وقلة التفات إليه ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب
الله.

١٠٢ - ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ أي: نبذ اليهود كتاب الله، واتبعوا كتب
السحر والشعوذة؛ التي كانت تقرؤها ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَنَ﴾ أي: على عهد ملكه،
وفي زمانه. وذلك أَنَّ الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمُّون إلى ما
سمعوا أكاذيب يلقونها، ويلقونها إلى الكهنة، وقد دَوَّنوها في كتب يقرؤونها
ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن
الجن تعلم الغيب. وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تمَّ لسليمان ملكه إلا
بهذا العلم، وبه سحر الجن، والإنس، والريح ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ تكذيب
للشياطين، ودفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر، والعمل به. ﴿وَلَكِنَّ
الشَّيَاطِينَ﴾ هم الذين ﴿كَفَرُوا﴾ باستعمال السحر، وتدوينه. (ولكن)،
بالتخفيف (الشياطين) بالرفع: شامي وحمزة وعلي ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ في
موضع الحال، أي: كفروا معلِّمين الناس السحر، قاصدين به إغواءهم،
وإضلالهم ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ الجمهور على أن «ما» بمعنى: الذي.
وهو نصب عطف على السحر. أي: ويعلمونهم ما أنزل على الملكين. أو
على ﴿ما تتلوا﴾ أي: واتبعوا ما أنزل على الملكين ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ﴾

وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقَّ يَقُولَا إِلَّا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ

علمان لهما، وهما عطف بيان للملكين. والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، إن كان فيه ردّ ما لزم في شرط الإيمان. ومن تجنّبه، أو تعلمه لا يعمل به، ولكن ليتوقّاه، ولثلاً يغتر به كان مؤمناً. قال الشيخ أبو منصور الماتريدي - رحمه الله ^(١) -: القول بأن السحر كفر على الإطلاق خطأ، بل يجب البحث عن حقيقته، فإن كان في ذلك ردّ ما لزم في شرط الإيمان فهو كفر، وإلا فلا. ثم السحر الذي هو كفر يقتل عليه الذكور لا الإناث. وما ليس بكفر، وفيه إهلاك النفس، ففيه حكم قطاع الطريق، ويستوي فيه الذكور والإناث، وتقبل توبته إذا تاب. ومن قال: لا تقبل فقد غلط، فإن سحرة فرعون قُبلت توبتهم. وقيل: ﴿أُنْزِلَ﴾ أي: قذف في قلوبهما مع التّهي عن العمل. قيل: إنهما ملكان اختارتهما الملائكة لتركب فيهما الشهوة حين عَيَّرَتْ بني آدم، فكانا يحكما في الأرض، ويصعدان بالليل فهويا زهرة فحملتهما على شرب الخمر، فزنيا، فرأهما إنسان فقتلاه فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة، فهما يعذبان منكوسين في جبّ بابل. وسُمِّيَتْ بابل لتبلبل الألسن بها ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ وما يعلم الملكان أحداً ﴿حَقَّ يَقُولَا﴾ حتى ينبهاه، وينصحه، ويقول له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء، واختبار من الله. ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بتعلمه، والعمل به على وجه يكون كفراً ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ الفاء عطف على قوله ﴿يعلمون الناس السحر﴾، أي: يعلمونهم فيتعلمون من السحر والكفر اللذين دلّ عليهما قوله ﴿كفروا﴾ و﴿يعلمون الناس السحر﴾؛ أو على مضمر، والتقدير: فيأتون فيتعلمون. والضمير لما دلّ عليه (من أحد) أي: فيتعلم الناس من الملكين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي: علم السحر الذي يكون سبباً في

(١) هو محمد بن محمد: من أئمة علماء الكلام. له «التوحيد» و«تأويلات أهل السنة» وغير ذلك، توفي سنة (٣٣٣ هـ).

وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ
خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
أَنْظَرْنَا

التفريق بين الزوجين، بأن يحدث الله عنده النشوز والخلاف ابتلاء منه. وللسر حقيقة عند أهل السنة - كثرة الله - وعند المعتزلة هو تخييل، وتمويه ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ﴾ بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلمه، ومشيتته ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ في الآخرة. وفيه دليل على أنه واجب الاجتناب، كتعلم الفلسفة التي تجرُّ إلى الغواية ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ من نصيب. ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ باعوها. وإنما نفى العلم عنهم بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ مع إثباته لهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ على سبيل التوكيد القسمي؛ لأن معناه: لو كانوا يعملون بعلمهم. جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم لا يعلمون.

١٠٣ - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ برسول الله والقرآن ﴿وَأَتَقَوْا﴾ الله، فتركوا ما هم عليه من نبد كتاب الله. واتباع كُتُب الشياطين ﴿لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ثواب الله خيرٌ مما هم فيه - وقد علموا - لكنه جهلهم لما تركوا العمل بالعلم، والمعنى: لأثبوا من عند الله ما هو خير. وأوثر الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو؛ لما فيها من الدلالة على ثبات المثوبة، واستقرارها. ولم يقل لمثوبة الله خير؛ لأنَّ المعنى: لشيء من الثواب خيرٌ لهم. وقيل ﴿لو﴾ بمعنى التمني، كأنه قيل: وليتهم آمنوا. ثم ابتداء ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾.

١٠٤ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظَرْنَا﴾ كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله! أي: راقبنا وانتظرنا حتى نفهمه ونحفظه. وكانت لليهود كلمة يتسايون بها

وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٦﴾ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا

عبرانية أو سريانية، وهي: راعينا. فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا
افترضوه^(١)، وخاطبوا به الرسول، وهم يعنون به تلك المسبة. ففيه المؤمنين
عنها، وأمروا بما هو في معناها، وهو ﴿انظرونا﴾ من نظره: إذا انتظره.
﴿وَأَسْمَعُوا﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله ﷺ، ويلقي عليكم من
المسائل، بأذان واعية، وأذهان حاضرة، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة، وطلب
المراعاة. أو: واسمعوا سماع قبول وطاعة، ولا يكن سماعكم كسماع اليهود
حيث قالوا: سمعنا وعصينا ﴿وَاللْكَافِرِينَ﴾ وللإهود الذين سبوا رسول الله
ﷺ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

١٠٥ - ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾
وبالتخفيف^(٢)، مكى وأبو عمرو ﴿مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من الأولى للبيان؛ لأنَّ
الذين كفروا جنس، تحته نوعان: أهل الكتاب والمشركون. والثانية: مزيدة
لاستغراق الخير. والثالثة: لابتداء الغاية. والخير: الوحي، وكذلك: الرحمة
﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يُوحى
إليهم، فيحسدونكم، وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي، والله يختصُّ
بالنبوة من يشاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فيه إشعارٌ بأن إيتاء النبوة من
الفضل العظيم.

١٠٦ - ولما طعنوا في النسخ فقالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر،
ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً، ويرجع عنه غداً، نزل:
﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾. تفسير النسخ لغَةً: التبديل. وشرعاً: بيان انتهاء
الحكم الشرعي المطلق؛ الذي تقرَّر في أوهامنا استمراره، بطريق التراخي. فكان

(١) «افترضوه»: اغتتموه وانتزهوه.

(٢) أي: (أَنْ يُنَزَّلَ).

نَأْتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ
 مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ
 تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ
 بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

تبديلاً في حقنا، بياناً محضاً في حق صاحب الشرع. وفيه جواب عن البداء الذي يدعيه منكروه، أعني: اليهود. ومحلّه: حكم يحتمل الوجود والعدم في نفسه لم يلحق به ما ينافي النسخ من توقيت أو تأييد ثبت نصّاً أو دلالة. وشرطه: التمكن من عقد القلب عندنا دون التمكن من الفعل، خلافاً للمعتزلة. وإنما يجوزُ النسخُ بالكتاب والسنة متفقاً ومختلفاً. ويجوزُ نسخ التلاوة والحكم، والحكم دون التلاوة، والتلاوة دون الحكم، ونسخ وصف بالحكم؛ مثل الزيادة على النص. فإنه نسخ عندنا خلافاً للشافعي - رحمه الله - والإنساء: أن يذهب بحفظها عن القلوب. أو (نَسَاهَا) مكي وأبو عمرو، أي: نَوَخَرَهَا، من نَسَات، أي: أخرت ﴿نَأْتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أي: نَأْتٍ بآية خير منها للعباد، أي: بآية العمل بها أكثر للشواب ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾ في ذلك، إذ لا فضيلة لبعض الآيات على البعض ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر، فهو يقدرُ على الخير، وعلى مثله.

١٠٧ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يملك أموركم ويدبرها، وهو أعلم بما يتبعّدكم به من ناسخ أو منسوخ ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يمنعكم من العذاب.

١٠٨ - ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ أم منقطعة، وتقديره: أتريدون ﴿أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ روي أن قريشاً قالوا: يا حمدا! اجعل لنا الصفا ذهباً، ووسع لنا أرض مكة. فنهوا أن يقترحوا عليه الآيات، كما اقترح قوم موسى عليه حين قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ ومن ترك الثقة بالآيات المنزلّة، وشكّ فيها، واقترح غيرها. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قصده، ووسطه.

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ

١٠٩ - ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أن يردوكم ﴿مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا﴾ حال من «كُم» أي: يردونكم عن دينكم كافرين. نزلت حين قالت اليهود للمسلمين بعد واقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم؟ ولو كنتم على الحق لما هُزِمتُم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم ﴿حَسَدًا﴾ مفعول له، أي: لأجل الحسد، وهو: الأسف على الخير عند الغير ﴿مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ يتعلق بوذ، أي: ودوا من عند أنفسهم، ومن قبل شهوتهم، لا من قبل التدين والميل مع الحق، لأنهم ودوا ذلك ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: من بعد علمهم بأنكم على الحق، أو بحسداً، أي: حسداً متبالغاً منبعثاً من أصل نفوسهم ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ بالقتال. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدرُ على الانتقام منهم.

١١٠ - ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ من حسنة صلاة، أو صدقة، أو غيرها ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تجدوا ثوابه عنده ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يضيع عنده عمل عامل.

١١١ - والضمير في ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. أي: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً. وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى. فلفَّ بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله وأمناً من الإلباس لما عُلِمَ من التعادي بين الفريقين، وتضليل كل واحد منهما صاحبه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ

وهود: جمع هائد، كعائد وعوذ. وَوَحَدَ اسم كان للفظ مَنْ، وجمع الخبر لمعناه ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أشير بها إلى الأمانى المذكورة، وهي أمانيتهم ألا ينزل على المؤمنين خيرٌ من ربهم، وأمانيتهم أن يردوهم كفاراً، وأمانيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم. أي: تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم. والأمنية: أفعولة من التمني، مثل: الأضحوة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ هلموا حُجَّتكم على اختصاصكم بدخول الجنة. وهات بمنزلة هاء، بمعنى: أحضر. وهو متصل بقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، و﴿تِلْكَ أَمَانِيهِمْ﴾ اعتراض ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

١١٢ - ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ مَنْ أخلص نفسه له، لا يشرك به غيره. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مُصَدِّقٌ بالقرآن ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ جواب ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾. وهو كلامٌ مبتدأ مُضْمَنٌ لمعنى الشرط. و﴿بَلَىٰ﴾ ردٌ لقولهم: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١١٣ - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: على شيء يصح، ويُعتدُّ به. والواو في: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ للحال. والكتاب للجنس. أي: قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب. وحقٌّ مَنْ حمل التوراة والإنجيل، وآمن به، ألا يكفر بالباقي؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من الكتابين مُصَدِّقٌ للآخر ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك القول الذي سمعت به ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب، كعبدة الأصنام، والمعطلة، قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء. وهذا توبيخٌ عظيم لهم، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك مَنْ لا يعلم

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: بين اليهود والنصارى بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب اللائق به.

١١٤ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ موضع ﴿مَنْ﴾ رفع على الابتداء، وهو استفهام، و﴿أظلم﴾ خبره. والمعنى: أي أحد أظلم. و﴿أن﴾ يذكر ﴿ثاني مفعولي منع، لأنك تقول: منعه كذا، ومثله ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ [الإسراء: ٥٩] ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء: ٩٤]. ويجوز أن يحذف حرف الجر مع أن، أي: من أن يذكر، وأن تنصبه مفعولاً له، بمعنى منعها كراهة أن يذكر. وهو حكم عام لجنس مساجد الله، وأن مانعها من ذكر الله مفرط في الظلم. والسبب فيه طرح النصارى في بيت المقدس الأذى، ومنعهم الناس أن يصلوا فيه، أو: منع المشركين رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية. وإنما قيل: ﴿مساجد الله﴾ وكان المنع على مسجد واحد، وهو بيت المقدس، أو المسجد الحرام؛ لأن الحكم ورّد عامّاً، وإن كان السبب خاصّاً، كقوله تعالى: ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] والمتزول فيه الأخنس بن شريق ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بانقطاع الذكر. والمراد بـ ﴿مَنْ﴾: العموم، كما أريد العموم بمساجد الله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله ﴿إِلَّا خَائِفِينَ﴾ حال من الضمير في يدخلوها، أي: على حال التهيب، وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها، ويلوها، ويمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم. وقيل: ﴿ما كان لهم﴾ في حكم الله يعني: أن الله قد حكم وكتب في اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقوّمهم حتى لا يدخلوها إلا خائفين. روي أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا مُتَنَكِّراً خيفة أن يُقتل. وقال قتادة: لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا بولغ ضرباً. ونادى رسول الله ﷺ: «ألا لا يحجّن بعد هذا العام

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ
فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلِيلٌ ﴿١١٧﴾

مشارك^(١). وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول والتخلية بينهم وبينه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قتل وسبي للحربي، وذلة بضرب الجزية للذمي ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: النار.

١١٥ - ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب كلها له، وهو مالكةا، ومتولياها ﴿فَأَيْنَمَا﴾ شرط. ﴿تُولُوا﴾ مجزوم به. أي: ففي أي مكان فعلتم التولية، يعني: تولية وجوهكم شطر القبلة، بدليل قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] والجواب: ﴿فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: جهته التي أمر بها ورضيها. والمعنى: أنكم إذا مُنِعْتُمْ أَنْ تَصَلُّوا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أَوْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَدْ جُعِلَتْ لَكُمْ الْأَرْضُ مَسْجِدًا، فَصَلُّوا فِي آيَةِ بَقْعَةٍ شَتَمْتُمْ مِنْ بَقَاعِهَا، وَافْعَلُوا التَّوْلِيَةَ فِيهَا، فَإِنَّ التَّوْلِيَةَ مَحْكِيَةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو واسع الرحمة، يريد التوسعة على عباده، وهو عليم بمصالحهم. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما -: نزلت في صلاة المسافرين على الراحلة أينما توجهت. وقيل: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبتوا خطأهم فعُذِّروا. وهو حُجَّةٌ على الشافعي - رحمه الله - فيما إذا استدبر. وقيل: فأينما تولوا للذكر والدعاء.

١١٦ - ﴿وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ يريد الذين قالوا: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله. (قالوا) شامي. فإثبات الواو باعتبار أنه قصة معطوفة على ما قبلها، وحذفه باعتبار أنه استئناف قصة أخرى ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك، وتباعد ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو خالقه ومالكة، ومن جملته المسيح، وعزير. والولادة تنافي الملك ﴿كُلُّ لَّهُ قَلِيلٌ﴾ منقادون، لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره. والتثنية في ﴿كل﴾ عوض عن المضاف إليه، أي: كل ما في

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ

السموات والأرض، أو كل من جعلوه لله ولداً ﴿له قانتون﴾ مطيعون، عابدون، مقرّون بالربوبية، منكرون لما أضافوا إليهم. وجاء بما الذي لغير أولي العلم، مع قوله: قانتون، كقوله: سبحانه ما سخر^(١) لنا.

١١٧ - ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مخترعهما ومبدعهما لا على مثال سبق. وكل من فعل ما لم يسبق إليه يقال له: أبدعت. ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة: مبتدع؛ لأنه يأتي في دين الإسلام ما لم يسبقه إليه الصحابة والتابعون - رضي الله عنهم - ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي: حكم، أو: قدر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ هو من كان التامة، أي: أخذت فيحدث. وهذا مجاز عن سرعة التكوين، وتمثيل، ولا قول ثم. وإنما المعنى: أن ما قضاه من الأمور، وأراد كونه، فإنما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما [أن] المأمور المطيع الذي يؤمر فيمثل [لا يتوقف، ولا يمتنع]^(٢) ولا يكون منه إباء. وأكد بهذا استبعاد الولادة؛ لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مباينة لصفات الأجسام، فأنتى يتصور التوالد ثم؟! والوجهُ الرفع في ﴿فَيَكُونُ﴾ وهو قراءة العامة على الاستئناف، أي: فهو يكون. أو على العطف على يقول. ونصبه ابن عامر على لفظ ﴿كن﴾ لأنه أمر، وجواب الأمر بالفاء نصب. وقلنا: إن ﴿كن﴾ ليس بأمر حقيقة، إذ لا فرق بين أن يقال: وإذا قضى أمراً فإنما يكونه فيكون، وبين أن يقال: فإنما يقول له كن فيكون. وإذا كان كذلك فلا معنى للنصب. وهذا لأنه لو كان أمراً فإما أن يخاطب به الموجود، والموجود لا يخاطب بكن، أو المعدوم والمعدوم لا يخاطب.

١١٨ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المشركين أو من أهل الكتاب. ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ هلا يكلمنا كما يكلم

(١) في المطبوع: سخر كن.

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

أَوْ تَأْتِينَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

الملائكة، وكلم موسى، استكباراً منهم وعتوًّا ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةً﴾ جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات الله آيات، واستهانة بها ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: لقوم ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها، والإذعان لها، والاكتفاء بها عن غيرها.

١١٩ - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بالعقاب ﴿وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ولا نسألك عنهم: ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت، وبلغت جهدك في دعوتهم؟ وهو حال كندرياً، وبشيراً، وبالحق، أي: وغير مسؤول، أو: مستأنف. قراءة نافع: (ولا تسأل)، على النهي. ومعناه: تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب، كما تقول: كيف فلان؟ سائلاً عن الواقع في بلية. فيقال لك: لا تسأل عنه. وقيل: نهى الله نبيه عن السؤال عن أحوال الكفرة حين قال: «ليت شعري ما فعل أبواي؟»^(١).

١٢٠ - ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ كأنهم قالوا: لن نرضى عنك - وإن أبلغت في طلب رضانا - حتى تبيع ملتنا، إقناطاً منهم لرسول الله ﷺ عن دخولهم في الإسلام. فذكر الله عز وجل كلامهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ الذي رضي لعباده ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ أي: الإسلام. وهو الهدى كله، ليس وراءه هدى، والذي تدعون إلى أتباعه ما هو هدى، إنما هو هوى. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أقوالهم التي هي أهواء ويدع ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: من العلم بأن دين الله هو الإسلام، أو: من الدين المعلوم

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/٢٣٤).

مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُ بُكْمًا

صحته بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة ﴿مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر.

١٢١ - ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ صلته. وهم مؤمنو أهل الكتاب، وهو: التوراة والإنجيل؛ أو أصحاب النبي ﷺ، والكتاب: القرآن ﴿يَتْلُونَهُ﴾ حال مقدرة من هم؛ لأنهم لم يكونوا تالين له وقت إتيائه، ونصب على المصدر ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي: يقرؤونه حق قراءته في الترتيل، وأداء الحروف، والتدبر، والتفكير. أو: يعملون به ويؤمنون بما في مضمونه، ولا يغيرون ما فيه من نعت النبي ﷺ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ والجملة خبر: الذين. ويجوز أن يكون يتلونه: خبراً، والجملة خبر آخر ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

١٢٢ - ﴿يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أنعمتها عليكم ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وتفضيلي إياكم على عالمي زمانكم.

١٢٣ - ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هم: رفع بالابتداء، والخبر: ينصرون، والجمال الأربع وصف ليوماً. أي: واتقوا يوماً لا تجزى فيه، ولا يقبل فيه، ولا تنفعها فيه، ولا هم ينصرون فيه. وتكرير هاتين الآيتين لتكرار المعاصي منهم، وختم قصة بني إسرائيل بما بدأ به.

١٢٤ - ﴿وَإِذْ﴾ أي: واذكر إذ ﴿أَخَذْنَا مِنْهُ بُكْمًا﴾ اختبره بأوامر ونواهٍ. والاختبار منا: لظهور ما لم نعلم. ومن الله: لإظهار ما قد علم. وعاقبة الابتلاء: ظهور الأمر الخفي في الشاهد والغائب جميعاً؛ فلذا تجوز إضافته إلى الله

فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا

تعالى. وقيل: اختبار الله عبده مجاز عن تمكينه من اختيار أحد الأمرين^(١)، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك. وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله -: (إبراهيمُ ربّه) برفع إبراهيم، وهي قراءة ابن عباس - رضي الله عنهما -. أي: دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر، هل يجيبه إلهن أم لا^(٢) ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهن حقّ القيام، وأذاهن أحسن التادية من غير تفريط وتوان. ونحوه ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]. ومعناه في قراءة أبي حنيفة - رحمه الله - فأعطاه ما طلبه، لم ينقص منه شيئاً. والكلمات على هذا: ما سأل إبراهيم ربه في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] ﴿وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مَنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]. والكلمات على القراءة المشهورة خمس في الرأس: الفرق، وقصّ الشارب، والسواك، والمضمضة، والاستنشاق. وخمس في الجسد: الختان، وتقليم الأظفار، ونف الإبط، وحلق العانة، والاستنجاء. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هي ثلاثون سهماً من الشرائع، عشر في براءة ﴿التَّكْوِينِ﴾ الآية [التوبة: ١١٢]. وعشر في الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥]، وعشر في المؤمنين والمعارج إلى قوله: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩ والمعارج: ٣٤]. وقيل: هي مناسك الحج^(٣) ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ هو اسم

(١) أي: ما يريد الله تعالى، وما يشتهي العبد.

(٢) «الابتلاء»: الاختبار والامتحان، وابتلاء الله تعالى يرجع إلى إعلامه عباده؛ لا إلى استعلامه؛ لأنه يعلم ما يكون، فلا يحتاج إلى الابتلاء ليعلم. والمعنى: أنه عامله معاملة المختبر، وأكثر المفسرين قالوا في تفسير الكلمات: أنها عشر خصال من السنة؛ خمس في الرأس وخمس في الجسد. (من تفسير الوسيط).

(٣) قال عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام: يا خليلي أن تطهر، فتمضمض، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فاستاك، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فأخذ شارب، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ ففرق شعره، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر فاستنجد، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر فحلق عانته، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فتنف إبطه، فأوحى الله تعالى إليه أن =

قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا آلِیَّتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا
وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَهِیمَ مُصَلًّی

من يؤتم به، أي: يأتون بك في دينهم ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل من ذريتي إماماً يقتدى به. ذرية الرجل: أولاده ذكورهم وإناتهم فيه سواء. فعليّة من الذرة، أي: الخلق، فأبدلت الهمزة ياء ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ بسكون الياء، حمزة وحفص. أي: لا تصيب الإمامة أهل الظلم من ولدك، أي: أهل الكفر. أخبر أنّ إمامة المسلمين لا تثبت لأهل الكفر. وأنّ من أولاده المسلمين والكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]. والمحسن: المؤمن، والظالم: الكافر. قالت المعتزلة: هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة. قالوا: وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه، فقد جاء المثل السائر: «من استرعى الذئب ظلم»^(١). ولكننا نقول: المراد بالظالم الكافر هنا، إذ هو الظالم المطلق. وقيل: إنه سأل أن يكون ولده نبياً كما كان هو، فأخبر أن الظالم لا يكون نبياً.

١٢٥ - ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آلِیَّتَ﴾ أي: الكعبة، وهو اسم غالب لها، كالنجم للثريا ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مباءة ومرجعاً للحجاج والعمار يتفرقون عنه، ثم يثوبون إليه ﴿وَأَمَّا﴾ وموضع أمن، فإن الجاني يأوي إليه، فلا يتعرّض له حتى يخرج. وهو دليل لنا في الملتجى إلى الحرم ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَهِیمَ مُصَلًّی﴾ وقلنا: اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه أخذ بيد عمر فقال: «هذا مقام إبراهيم» فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ فقال ﷺ: «لم أؤمر بذلك» فلم تغب الشمس حتى نزلت^(٢). وقيل: مصلى: مدعى. ومقام إبراهيم: الحجر الذي فيه

= تطهر؛ فقلّم أظفاره، فأوحى الله تعالى إليه أن تطهر؛ فأقبل بوجهه على جسده ماذا يصنع؟ فاختنن بعد عشرين ومئة سنة. (من تفسير الوسيط).

(١) انظره في مجمع الأمثال للميداني (١/٢٦٠، ٢٢٦ و٢/٣٠٢).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: رواه أبو نعیم. (الكشاف ١/١٨٥). ورواه ابن أبي داود في المصاحف (كثر العمال ٣٨١٠٧).

وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ
مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسِ
الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ

أثر قدميه. وقيل: الحرم كله مقام إبراهيم. (وَاتَّخَذُوا) شامي ونافع بلفظ الماضي، عطفًا على جعلنا، أي: واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به؛ لاهتمامه به، وإسكان ذريته عنده، قبله يصلون إليها. ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أمرناهما ﴿أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي﴾ بفتح الباء، مدني وحفص. أي: بأن طهرا، أو: أي: طهرا. والمعنى: طهراه من الأوثان، والأنجاس والخبائث كلها ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ للدائرين حوله ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المجاورين الذين عكفوا عنده، أي: أقاموا لا يرحون، أو المعتكفين. وقيل: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ للزراع إليه من البلاد ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾: والمقيمين من أهل مكة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ والمصلين، جمعا راعك وساجد.

١٢٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ أي: اجعل هذا البلد، أو هذا المكان ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ ذا أمن، كعيشة راضية، أو: آمناً من فيه، كقولك: ليل نائم. فهذا مفعول أول، وبلداً مفعول ثان، وآمناً صفة له ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ لأنه لم يكن له ثمرة. ثم أبدل ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من أهله، بدل البعض من الكل، أي: وارزق المؤمنين من أهله خاصة. قاسَ الرزقَ على الإمامة فخصَّ المؤمنين به ﴿قَالَ﴾ الله تعالى جواباً له: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: وأرزق من كفر ﴿فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا﴾ تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً إلى حين أجله. فأمتعته، شامي ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أجلسه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع الذي يصيرُ إليه، النار. فالخصوصُ بالذمِّ محذوف.

١٢٧ - ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ﴾ حكاية حال ماضية ﴿الْقَوَاعِدَ﴾ هي جمع قاعدة، وهي: الأساس والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبية، ومعناها: الثابتة. ورفع الأساس: البناء عليها، لأنها إذا بني عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتناولت بعد التقاصر ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ بيت الله، وهو: الكعبة

وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ هو عطف على إبراهيم، وكان إبراهيم يبي، وإسماعيل يناوله الحجارة ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولان ربنا. وهذا الفعل في محلّ النصب على الحال، وقد أظهره عبد الله في قراءته، ومعناه: يرفعانها قائلين ربنا ﴿تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ تَقَرَّبْنَا إِلَيْكَ ببناء هذا البيت ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائرننا، ونيّاتنا. وفي إيهام القواعد وتبيينها بعد الإيهام تفخيمٌ لشأن المبين.

١٢٨ - ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلصين لك أوجهنا، من قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]. أو مستسلمين، يقال: أسلم له، واستسلم: إذا خضع، وأذعن. والمعنى: زدنا إخلاصاً، وإذعاناً لك ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ واجعل من ذريتنا ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾. ومن للتبعيض، أو للتبيين. وقيل: أراد بالأمّة أمة محمد ﷺ. وإنما خصّاً بالدعاء ذريتهما لأنهم أولى بالشفقة، كقوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ منقول من رأى؛ بمعنى: أبصر، أو عرف؛ ولذا لم يتجاوز إلى مفعولين، أي: وبصّرنا متعبداتنا في الحج، أو عرفناها. وواحد المناسك: منسك، بفتح السين وكسرها، وهو: المتعبّد، ولهذا قيل للعباد: ناسك. (وأرنا) مكى، قاسه على فخذ في فخذ. وأبو عمرو: يشمُّ الكسرة ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ ما فرط منا من التقصير، أو استتابا لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

١٢٩ - ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمّة المسلمة ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ من أنفسهم. فبعث الله فيهم محمداً ﷺ. قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي». أي: إن أمانة رأت أنه خرج منها نور ملاً مكّة^(١) ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يقرأ عليهم، ويبلغهم ما توحى إليه من دلائل وحدانيتك،

(١) رواه أحمد (١٢٧/٤) وابن حبان (٦٤٠٤) والحاكم (٦٠٠/٢) والبزار كما في كشف الأستار (٢٣٦٥).

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ
عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ
بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئَ

وَصِدْقُ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة،
وفهم القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس ﴿إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يُغْلَبُ ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما أوليت.

١٣٠ - ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ استفهام بمعنى: الجحد، وإنكار أن
يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح؛ الذي هو ملة إبراهيم. والملة:
السنة والطريقة، كذا عن الزجاج ﴿إِلَّا مَنْ﴾ في محل الرفع على البدل من الضمير
في: يرغب. وصح البدل لأن من يرغب غير موجب، كقولك: هل جاءك أحد
إلا زيد؟! والمعنى: وما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: جهل
نفسه، أي: لم يفكر في نفسه، فوضع «سفه» موضع «جهل»، وعدي كما
عدي. أو معناه: سفه في نفسه، فحذف في، كما حذف من في قوله: ﴿وَأَخْتَارَ
مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه، و«على» في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا
عُقْدَةَ النَّكاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] أي: على عقدة النكاح. والوجهان عن
الزجاج. وقال الفراء: هو منصوب على التمييز، وهو ضعيف لكونه معرفة
﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بيان لخطأ رأي من يرغب
عن ملته، لأن من جمع كرامة الدارين لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه.

١٣١ - ﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف لاصطفيناه، أو انتصب بإضمار اذكر؛ كأنه قيل:
اذكر ذلك الوقت؛ لتعلم أنه المصطفى الصالح؛ الذي لا يرغب عن ملة مثله
﴿لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ﴾ أذعن، أو: أطع، أو: أخلص دينك لله ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ أي: أخلصت، أو انقدت.

١٣٢ - ﴿وَوَصَّى﴾ (وأوصى)، مدني وشامي ﴿بِهَا﴾ بالملة، أو بالكلمة،
وهي ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ هو معطوف على
إبراهيم، داخل في حكمه، والمعنى: ووصى بها يعقوب بنيه أيضاً ﴿يَبْنَئَ﴾

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدْنَا وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

على إضمار القول ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ﴾ أي: أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان، وهو دين الإسلام، ووفَّقكم للأخذ به ﴿فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع، فلا تنهأ عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في صلاته.

١٣٣ - ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار. والشهداء: جمع شهيد، بمعنى: الحاضر. أي: ما كنتم حاضرين يعقوب - عليه السلام -؛ إذ حضره الموت، أي: حين احتضر. والخطاب للمؤمنين، بمعنى: ما شهدتم ذلك، وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحي. أو متصلة، ويقدر قبلها محذوف. والخطاب لليهود؛ لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبيٌّ إلا على اليهودية. كأنه قيل: أتدعون على الأنبياء اليهودية؟ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت؟! ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من إذ الأولى، والعامل فيهما شهداء، أو ظرف لحضر ﴿لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾: ما: استفهام في محل نصب بتعبدون، أي: أي شيء تعبدون. وما: عام في كل شيء. أو هو سؤال عن صفة المعبود، كما تقول: ما زيد تريد أفقيه أم طيب؟ ﴿مِن بَعْدِي﴾ من بعد موتي ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ﴾ أعيد ذكر الإله؛ لثلا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطف بيان لآبائك، وجعل إسماعيل من جملة آبائه، وهو عمه؛ لأنَّ العم أب. قال عليه الصلاة والسلام في العباس: «هذا بقية آبائي»^(١) ﴿إِلَهُهَا وَجِدْنَا﴾ بدل من إله آبائك، كقوله: ﴿يَا نَاصِيَةَ﴾ نَاصِيَةُ كَذِبٍ ﴿[العلق: ١٥ - ١٦] أو نصب على الاختصاص، أي: نريد بإله آبائك إلهاً واحداً ﴿وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ﴾

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠٩/١٢).

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾
 وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
 بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾

حال من فاعل نعبد، أو: جملة معطوفة على نعبد، أو: جملة اعتراضية مؤكدة.

١٣٤ - ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة؛ التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: أن أحداً لا ينفعه كسب غيره، متقدماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم. وذلك لا فتخارهم بأبائهم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا تؤاخذون بسيئاتهم.

١٣٥ - ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أي: قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا﴾ جزم لأنه جواب الأمر ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بل تتبع ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ حال من المضاف إليه، نحو: رأيت وجه هند قائمة. والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، لأن كلاً منهم يدعي اتباع ملة إبراهيم، وهو على الشرك.

١٣٦ - ﴿قُولُوا﴾ هذا خطاب للمؤمنين، أو للكافرين، أي: قولوا لتكونوا على الحق، وإلا فأنتم على الباطل ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ السبط: الحافد. وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ. والأسباط: حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر. ويُعدى أنزل بإلى وعلى، فلذا ورد هنا بإلى، وفي آل عمران بعلى ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، كما فعلت اليهود والنصارى. و«أحد» في معنى الجماعة؛ ولذا صح دخول بين عليه ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ لله مخلصون.

فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ ءَاهَتُوا وَإِنْ لَوَلَوْا فَلَايَمًا هُمْ فِي شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ

١٣٧ - ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ ءَاهَتُوا﴾ ظاهر الآية مشكل، لأنه يوجب أن يكون لله تعالى مثل، وتعالى عن ذلك. فقيل: الباء زائدة، ومثل صفة مصدر محذوف، تقديره: فإن آمنوا إيماناً مثل إيمانكم، والهاء يعود إلى الله عز وجل. وزيادة الباء غير عزيز، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا﴾ [يونس: ٢٧] والتقدير: جزاء سيئة مثلها، كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. وقيل: المثل: زيادة، أي: فإن آمنوا ما آمنتم به، يؤيده قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه -: ﴿بما آمنتم به﴾ وما: بمعنى الذي؛ بدليل قراءة أبي ﴿بالذي آمنتم به﴾. وقيل: الباء للاستعانة، كقولك: كتبت بالقلم، أي: فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتك التي آمنتم بها ﴿وَإِنْ لَوَلَوْا﴾ عما تقولون لهم، ولم ينصفوا، أو إن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها ﴿فَلَايَمًا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي: فما هم إلا في خلاف وعداوة، وليسوا من طلب الحق في شيء ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ ضمان من الله لإظهار رسوله عليهم. وقد أنجز وعده بقتل بعضهم، وإجلاء بعض، ومعنى السين: أن ذلك كائن لا محالة، وإن تأخر إلى حين ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما ينطقون به ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يضمرون من الحسد والغل، وهو معاقبهم عليه، فهو وعيد لهم، أو: وعد لرسول الله ﷺ، أي: يسمع ما تدعو به، ويعلم نيتك، وما تريده من إظهار دين الحق، وهو مستجيب لك، وموصلك إلى مرادك.

١٣٨ - ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ دين الله. وهو مصدر مؤكد منتصب عن قوله ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٨] وهي فعلة من: صبغ، كاجلسة من: جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ. والمعنى: تطهير الله؛ لأن الإيمان يطهر النفوس. والأصل فيه: أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر، يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، فإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً. فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: آمنا بالله، وصبغنا الله

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٩﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٤٠﴾ أَمْ نَقُولُ أَنْ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ

بالإيمان صبغته، ولم نصبغ صبغتك. وجيء بلفظ الصبغة للمشاكلة، كقولك لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس فلان. تريد رجلاً يصطنع الكرم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ تمييز، أي: لا صبغة أحسن من صبغته، يريد: الدين، أو التطهير ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ عطف على ﴿آمنا بالله﴾ وهذا العطف يدل على أن قوله ﴿صبغة الله﴾ داخل في مفعول ﴿قولوا آمنا﴾ أي: قولوا هذا وهذا، ونحن له عابدون، ويرد قول من زعم أن صبغة الله بدل من: ملة إبراهيم، أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله، لما فيه من فك النظم، وإخراج الكلام عن الثثامه. وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيويه، والقول ما قالت حذام.

١٣٩ - ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أي: أتجادلوننا في شأن الله، واصطفائه النبي من العرب دونكم؟ وتقولون: لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا؟ وترونيكم أحق بالنبوة منا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ نشرك جميعاً في أننا عباده، وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده ﴿وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ يعني: أن العمل هو أساس الأمر، وكما أن لكم أعمالاً فلنا كذلك ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي: نحن له موحدون، نُخْلِصُهُ^(١) بالإيمان وأنتم به مشركون. والمخلص أخرى بالكرامة، وأولى بالنبوة من غيره.

١٤٠ - ﴿أَمْ نَقُولُ﴾ بالتاء: شامي وكوفي، غير أبي بكر. وأم على هذا معادلة للهمزة في: أتجادلوننا، يعني: أي الأمرين تأتون: الحاجة في حكم الله، أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟ أو منقطعة، أي: بل أتقولون؟ يقولون، غيرهم بالياء. وعلى هذا لا تكون الهمزة إلا منقطعة ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ ثم أمر نبيه ﷺ أن

قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ اللَّهُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَئُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٢﴾ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ آلِي كَانُوا
عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٣﴾

يقول مستفهماً، راداً عليهم بقوله: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾. يعني: أن الله شهد لهم بملّة الإسلام في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: كتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها، وهي: شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية. والمعنى: أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم؛ لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها. أو: أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها. وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته. و«من» في قوله ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ مثلها في قولك: هذه شهادة مني لفلان؛ إذا شهدت له، في أنها صفة لها ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من تكذيب الرسل وكتمان الشهادة.

١٤١ - ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَئُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كررت للتأكيد، أو لأنّ المراد بالأول الأنبياء عليهم السلام، وبالثاني: أسلاف اليهود والنصارى.

١٤٢ - ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ الخفاف الأحلام، فأصل السفه: الخفة. وهم اليهود لكرهتهم التوجه إلى الكعبة، وأنهم لا يرون النسخ؛ أو المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء؛ أو: المشركون لقولهم: رغب عن قبلة آبائهم، ثم رجع إليها، والله ليرجعن إلى دينهم. وفائدة الإخبار بقولهم قبل وقوعه توطين النفس، إذ المفاجأة بالمكروه أشد، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، فقبل الرمي يُراش السهم ﴿مَا وَلَدَهُمْ﴾ ما صرفهم ﴿عَن قِبَلِهِمُ آلِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ يعنون بيت المقدس. والقبلة: الجهة التي يستقبلها الإنسان في الصلاة؛ لأنّ المصلّي يقابلها ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها له ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ من أهلها ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق مستو. أي: يرشد من يشاء إلى قبلة الحق، وهي الكعبة التي أمرنا بالتوجه

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

إليها. أو الأماكن كلها لله، فيأمر بالتوجه إلى حيث شاء، فتارة إلى الكعبة، وطوراً إلى بيت المقدس، لا اعتراض عليه؛ لأنه المالك وحده.

١٤٣ - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾ ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم. فالكاف: للتشبيه، وذا: جر بالكاف، واللام: للفرق بين الإشارة إلى القريب والإشارة إلى البعيد، والكاف: للخطاب لا محل لها من الإعراب ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خياراً. وقيل للخيار: وسط؛ لأنَّ الأطراف يتسارع إليها الخلل، والأوساط محمية. أي: كما جعلت قبلكم خير القبل جعلتكم خير الأمم. وعلة الجعل أي: لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل، وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا، ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات والإعراض عن الآيات فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين قبلكم وبعدهم. أو: عدولاً، لأن الوسط عدلٌ بين الأطراف، ليس إلى بعضها أقرب من بعض. أي: كما جعلنا قبلكم متوسطة بين المشرق والمغرب، جعلناكم أمة وسطاً بين الغلو والتقصير؛ فإنكم لم تغلوا غلو النصارى حيث وصفوا المسيح بالألوهية، ولم تقصروا تقصير اليهود حيث وصفوا مريم بالزنى، وعيسى بأنه ولد الزنى ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ غير منصرف لمكان ألف التانيث ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ صلة شهداء ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ عطف على ﴿لتكونوا﴾ روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبينه على أنهم قد بلغوا - وهو أعلم - فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق. فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته، فيزكيهم، ويشهد بعدالتهم. والشهادة قد تكون بلا مشاهدة، كالشهادة بالتسامع في الأشياء المعروفة. ولما كان الشهيد كالقريب جيء بكلمة الاستعلاء، كقوله تعالى: ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] وقيل: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ في الدنيا فما لا يصح إلا بشهادة العدول

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ

الأخبار ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ يزكّيكم، ويعلم بعد التكم. واستدل الشيخ أبو منصور - رحمه الله - بالآية على أن الإجماع حجة؛ لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة. والعدل: هو المستحق للشهادة وقبولها. فإذا اجتمعوا على شيء، وشهدوا به، لزم قبوله. وأخرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخراً؛ لأنّ المراد في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي: ﴿وما جعلنا القبلة﴾ الجهة ﴿التي كنت عليها﴾ وهي الكعبة. فالتى كنت عليها ليست بصفة للقبلة، بل هي ثاني مفعولي جعل. روي أن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة، تأليفاً لليهود، ثم حوّل إلى الكعبة. [وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالكتاب بخلاف ما يقوله الشافعي لأن التوجه إلى بيت المقدس ثبت بوحى غير متلوّ وقد نسخ بالكتاب] ^(١) ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي: ﴿وما جعلنا القبلة﴾ التى تحب أن تستقبلها، الجهة ﴿التي كنت عليها﴾ أولاً بمكة، إلا امتحاناً للناس وابتلاء؛ لنعلم الثابت على الإسلام الصادق فيه ممن هو على حرف ينكص ﴿على عقبيه﴾ لقلقه يرجع فيرتدّ عن الإسلام عند تحويل القبلة. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: معنى قوله ﴿لنعلم﴾ أي: لنعلم كائناً أو موجوداً ما قد علمناه أنه يكون ويوجد. فالله تعالى عالمٌ في الأزل بكل ما أراد وجوده، أنه يوجد في الوقت الذي شاء وجوده فيه. ولا يوصف بأنه عالمٌ في الأزل بأنه موجودٌ كائن؛ لأنه ليس بموجود في الأزل فكيف يعلمه موجوداً؟ فإذا صار موجوداً يدخل تحت علمه الأزلي فيصير معلوماً له موجوداً كائناً. والتغير على المعلوم لا على العلم. أو: لتمييز التابع من الناكص، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧] فوضع العلم موضع التمييز؛ لأنّ العلم به يقع التمييز. أو: ليعلم رسول الله ﷺ والمؤمنون. وإنما أسند علمهم إلى ذاته لأنهم

(١) كذا في الأصل المخطوط، وهو ساقط من المطبوع.

وَأِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ رَأَى ثَقَلَبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

خواصه. أو هو على ملاطفة الخطاب لمن لا يعلم، كقولك لمن ينكر ذوب الذهب: فلنلقه في النار لنعلم أيدوب؟ ﴿وَأِنْ كَانَتْ﴾ أي: التحويلة، أو: الجعلة، أو القبلة. وإن هي المخففة ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أي: ثقيلة شاقة، وهي خبر كان. واللام: فارقة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: هداهم الله، فحذف العائد. أي: إلا على الثابتين الصادقين في اتباع الرسول ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس. سَمَّى الصَّلَاةَ إِيْمَانًا؛ لأن وجوبها على أهل الأيمان، وقبولها من أهل الإيمان، وأداؤها في الجماعة دليل الإيمان. لما توجه رسول الله ﷺ إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات قبل التحويل من إخواننا؟ فترلت، ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾ ^(١) مهموز مشبع، حجازي، وشامي، وحفص. (رؤف) غيرهم بوزن فعل، وهما للمبالغة ﴿رَحِيمٌ﴾ لا يضيع أجورهم. والرفاة أشد من الرحمة. وجع بينهما كما في ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣].

١٤٤ - ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ تردّد وجهك، وتصرّف نظرك في جهة السماء. وكان رسول الله ﷺ يتوقّع من ربّه أن يحوِّله إلى الكعبة موافقة لإبراهيم، ومخالفة لليهود، ولأنها أدعى للعرب إلى الإيمان؛ لأنها مفخرتهم، ومزارهم، ومطافهم ﴿فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ﴾ فلنعطينك، ولنمكّنك من استقبالها، من قولك: وليته كذا: إذا جعلته والياً له؛ أو: فلنجعلك تلي سمتها دون سمت بيت المقدس ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ تحبها، ونميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها، ووافقت مشيئة الله وحكمته ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: نحوه. وشطر: نصب على الظرف. أي: اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد، أي: في جهته وسمته؛ لأن استقبال عين القبلة متعسّر على النائي. وذكر المسجد

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٧٨/١).

وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

الحرام دون الكعبة دليل على أن الواجب مراعاة الجهة دون العين. روي أنه ﷺ قدم المدينة فضلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وجه إلى الكعبة^(١) ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ من الأرض، وأردتم الصلاة، ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي: التحويل إلى الكعبة هو الحق؛ لأنه كان في إشارة أنبيائهم برسول الله ﷺ أنه يصلي إلى القبلتين ﴿مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء، مكى، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم؛ وبالتاء غيرهم. فالأول وعيد للكافرين بالعقاب على الجحود والإباء، والثاني وعد للمؤمنين بالشواب على القبول والأداء.

١٤٥ - ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أراد ذوي العناد منهم ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ برهان قاطع أن التوجه إلى الكعبة هو الحق ﴿مَاتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد. مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق، وجواب القسم المحذوف سد مسد جواب الشرط ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ حسم لأطماعهم، إذ كانوا اضطربوا في ذلك، وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم. ووحدت القبلة وإن كان لهم قبلتان، فاليهود قبلة، وللنصارى قبلة؛ لاتحادهم في البطلان ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ يعني: أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك، يختلفون في شأن القبلة، لا يرجى اتفاقهم، كما لا تُرجى موافقتهم لك، فاليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى مطلع الشمس ﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: من بعد وضوح البرهان، والإحاطة بأن القبلة هي الكعبة، وأن دين الله هو

إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
وَلَئِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُتَمَرِّينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُومُولٌهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ

الإسلام ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لمن المرتكبين الظلم الفاحش. وفي ذلك لطفٌ للسامعين، وتهيبج للثبات على الحق، وتحذير لمن يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى. وقيل: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد أمته. ولزم الوقف على ﴿الظالمين﴾ إذ لو وصل لصار:

١٤٦ - ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ صفة للظالمين، وهو مبتدأ والخبر: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: محمداً ﷺ، أو القرآن، أو تحويل القبله، والأول أظهر؛ لقوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ قال عبد الله بن سلام: أنا أعلم به مني بابني. فقال له عمر: ولم؟ قال: لأنني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي فلعل والدته خانت. فقبل عمر رأسه ﴿وَلَئِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ﴾ أي: الذين لم يسلموا. ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ حسداً وعناداً ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله تعالى بيّنه في كتابهم.

١٤٧ - ﴿الْحَقُّ﴾ مبتدأ خبره: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾. واللام: للجنس، أي: الحق من الله لا من غيره. يعني: أن الحق ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه. وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب، فهو الباطل. أو: للعهد، والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله ﷺ. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق و﴿من ربك﴾ خبر بعد خبر، أو: حال ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ الشاكين في أنه من ربك.

١٤٨ - ﴿وَلِكُلِّ﴾ من أهل الأديان المختلفة ﴿وُجْهٌ﴾ قبله. وقُرىء^(١) بها ﴿هُوَ﴾ الضمير لكل ﴿مُولِيًا﴾ الضمير للوجهة. أي: هو مولئها وجهه، فحذف أحد المفعولين. أو ﴿هو﴾ لله تعالى، أي: الله مولئها إياه. هو (مُولَاها)، شامي، أي: هو مولئ تلك الجهة قد وليها. والمعنى: ولكل أمة قبله يتوجه إليها منكم ومن غيركم ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أنتم ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ فاستبقوا إليها غيركم من

(١) قرأ بها أبي: (ولكل قبله).

أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

أمر القبلة وغيره ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ أنتم وأعداؤكم ﴿يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ يوم القيامة، فيفصل بين المحق والمبطل. أو: ﴿ولكل منكم﴾ يا أمة محمد ﴿وجهة﴾ جهة يصلي إليها جنوبية، أو شمالية، أو شرقية، أو غربية، فاستبقوا الفاضلات من الجهات، وهي: الجهات المسامطة للكعبة وإن اختلفت ﴿أينما تكونوا﴾ من الجهات المختلفة ﴿يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ ويجمعكم، ويجعل صلاتكم كأنها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٤٩ - ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ ومن أي بلد خرجت للسفر ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إذا صليت ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن هذا المأمور به ﴿لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبالباء، أبو عمرو.

١٥٠ - ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده؛ لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة، فكرر عليهم ليشبوا. على أنه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر، فاختلفت فوائدها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: قد عرفكم الله جلّ ذكره أمر الاحتجاج في القبلة بما قد بين في قوله: ﴿ولكل وجهه هو موليا﴾، ﴿لئلا يكون للناس﴾ لليهود ﴿عليكم حجة﴾ في خلاف ما في التوراة من تحويل القبلة. وأطلق اسم الحجة على قول المعاندين؛ لأنهم يسوقونه سياق الحجة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أي: لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا المعاندين منهم، القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه، وحباً لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء عليهم السلام. أو: معناه: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة؛ التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وهم أهل مكة حين يقولون: بدا له فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥١﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٢﴾ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٣﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٤﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٥﴾

دينهم. ثم استأنف منبهاً بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم؛ فإنهم لا يضرورنكم ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا أمري ﴿وَلَا تَمْنَعِي عَلَيْكُمْ﴾ أي: عرفتكم لئلا يكون عليكم حجة، ولأنتم نعمتي عليكم بهدائي إياكم إلى الكعبة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولكي تهتدوا إلى قبلة إبراهيم.

١٥١ - والكاف في: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ إما أن يتعلق بما قبله، أي: ولأنتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب، كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول؛ أو بما بعده، أي: كما ذكرتم بإرسال الرسول، فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب. فعلى هذا يوقف على ﴿تهتدون﴾ وعلى الأول لا. ﴿رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ من العرب ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ﴾ يقرأ عليكم ﴿آيَاتِنَا﴾ القرآن. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة والفقه. ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ما لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي.

١٥٢ - ﴿فَأَذْكُرُونِي﴾ بالمقدرة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمغفرة. أو: بالثناء والعتاء، أو: بالسؤال والنوال، أو: بالتوبة وعفو الحوبة، أو: بالإخلاص والخلاص، أو: بالمناجاة والنجاة ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولا تجحدوا نعمائي.

١٥٣ - ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ فيه ثنال كل فضيلة ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ فإنها تنهى عن كل رذيلة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة.

١٥٤ - ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر رجلاً ﴿أَمُوتَ﴾ أي: هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ أي: هم أحياء ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لا تعلمون ذلك؛ لأن حياة الشهيد لا تعلم حساً. عن الحسن

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ
الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ

- رضي الله عنه -: إِنَّ الشهداءَ أحياء عند الله، تُعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الرُّوحُ والفرحُ، كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشيّاً، فيصل إليهم الوجع. وعن مجاهد: يُرزقون ثمر الجنة، ويمجدون ريجها، وليسوا فيها.

١٥٥ - ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنصيبكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم، هل تصبرون على ما أنتم عليه من الطاعة أم لا؟ ﴿بِشَيْءٍ﴾ بقليل من كل واحدة من هذه البلايا وطرف منه. وقُلَّ ليؤذن أن كلَّ بلاءٍ أصاب الإنسان - وإن جلَّ - ففوقه ما يقلُّ إليه^(١)، ويريه أن رحمته معهم في كلِّ حال. وأعلمهم بوقوع البلاء قبل وقوعها؛ ليوطنوا نفوسهم عليها ﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾ خوف العدو أو الله ﴿وَالْجُوعِ﴾ أي: القحط، أو صوم شهر رمضان ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ بموت المواشي، أو الزكاة. وهو عطف على شيء، أو على الخوف، أي: وشيء

من نقص الأموال ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ بالقتل، والموت، أو بالمرض، والشيب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ ثمرات الحرث، أو موت الأولاد؛ لأنَّ الولد ثمرَةُ الفؤاد ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ على هذه البلايا، أو المسترجعين عند البلايا؛ لأنَّ الاسترجاع تسليم وإذعان. وفي الحديث: «مَن استرجعَ عند المصيبة جَبَرَ الله مصيبتَه، وأحسن عقابه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»^(٢). وطُفِيَ سراجُ رسول الله ﷺ فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقل: أمصيبة هي؟ قال: «نعم كلُّ شيءٍ يُؤْذِي المؤمنَ فهو مصيبة»^(٣). والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ مَن يتأتَّى منه البشارة.

١٥٦ - ﴿الَّذِينَ﴾ نصب صفة للصابرين. ولا وقف عليها، بل يُوقف على

(١) في المطبوع: إليهم.

(٢) رواه الطبراني في الكبير، كما في مجمع الزوائد (٢/٣٣١). والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦٨٨).

(٣) رواه أبو داود في المراسيل (٤١٢).

إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا

﴿راجعون﴾. ومن ابتدأ بالدين، وجعل الخبر ﴿أولئك﴾ يقف على الصابرين، لا على راجعون. والأول الوجه؛ لأنَّ الذين وما بعده بيانٌ للصبر ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ مكروه. اسم فاعل من أصابته شدة، أي: لحقته. ولا وقف على مصيبة؛ لأنَّ ﴿قَالُوا﴾ جواب إذا، وإذا وجوابها: صلة الذين ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرار له بالملك ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرارٌ على نفوسنا بالهَلْكَ.

١٥٧ - ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الصلاة: الحنو والتعطف، فوضعت موضع الرأفة، وجمع بينها وبين الرحمة؛ كقوله: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧] ﴿رَوْوْفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] والمعنى: عليهم رأفة بعد رأفة، ورحمة بعد رحمة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ لطريق الصواب، حيث استرجعوا، وأذعنوا لأمر الله. قال عمر - رضي الله عنه -: نِعَمَ العَدْلَانِ، ونِعَمَ العَلَاوَةِ، أي: الصلاة، والرحمة، والاهتداء.

١٥٨ - ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرَّةَ﴾ هما علمان للجبلين ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من أعلام مناسكه وتمعباته، جمع: شعيرة، وهي: العلامة ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ قَصَدَ الكعبة. ﴿أَوْ اعْتَمَرَ﴾ زار الكعبة. فالحج: القصد، والاعتمار: الزيارة. ثم غلبا على قصد البيت وزيارته للنسكين المعروفين. وهما في المعاني كالتَّجْمِ والبيت في الأعيان ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ فلا إثم عليه ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: يتطوف، فأدغم التاء في الطاء. وأصل الطوف: المشي حول الشيء. والمراد - هنا -: السعي بينهما. قيل: كان على الصفا أساف، وعلى المروة نائلة، وهما صنمان. يروى أنهما كانا رجلاً وامراًة زنيا في الكعبة، فمُسِّخا حجرتين، فَوَضِعَا عليهما ليعتبر بهما، فلما طالت المدة عُبدَا من دون الله، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما. فلما جاء الإسلام، وكُفِّرَت الأوثان، كَرِهَ المسلمون الطوافَ بينهما لأجل فِعْلِ الجاهلية، فرفع عنهم الجناح بقوله ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾. وهو دليلٌ على أنه

وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ أُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

ليس بركن كما قال مالك والشافعي - رحمهما الله تعالى - ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: بالطواف بهما. وهو كذلك مُشْعِرٌ بأنه ليس بركن. (وَمَنْ يَطَّوَّعُ)، حمزة وعلي، أي: يتطوع، فأدغم التاء في الطاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ مجاز على القليل كثيراً ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأشياء صغيراً وكبيراً.

١٥٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من أحابار اليهود ﴿مَا أَنزَلْنَا﴾ في التوراة ﴿وَالْبَيِّنَاتِ﴾ من الآيات الشاهدة على أمر محمد ﷺ ﴿وَالْهُدَىٰ﴾ الهداية إلى الإسلام بوصفه ﷺ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ أوضحناه ﴿لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ في التوراة. لم ندع فيه موضع إشكال، فعمدوا إلى ذلك المبين فكتموه ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ الذين يتأتى منهم اللعن، وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين.

١٦٠ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن الكتمان، وترك الإيمان ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أحوالهم، وتداركوا ما فرط منهم ﴿وَبَيَّنَّاهُ﴾ وأظهروا ما كتموا ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أقبل توبتهم ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

١٦١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يعني: الذين ماتوا من هؤلاء الكافرين، ولم يتوبوا ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ذكر لعنتهم أحياء، ثم لعنتهم أمواتاً. والمراد بالناس: المؤمنون. أو المؤمنون والكافرون؛ إذ بعضهم يلعن بعضاً يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

١٦٢ - ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من «هم» في «عليهم» ﴿فِيهَا﴾ في اللعنة، أو في النار؛ إلا أنها أضمرت تفخيماً لشأنها وتهويلاً ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ من الإنظار، أي: لا يمهلون، أو: لا ينتظرون ليعتذروا؛ أو لا ينظر

وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ
الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

إليهم نظر رحمة.

١٦٣ - ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فرد في ألوهيته لا شريك له فيها، ولا يصح أن يُسمَّى غيره إلهاً ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته. وموضع ﴿هو﴾ رفع؛ لأنه بدلٌ من موضع ﴿لا إله﴾ ولا يجوز النصب هنا؛ لأنَّ البدل يدلُّ على أن الاعتمادَ على الثاني، والمعنى في الآية على ذلك، والنصب يدلُّ على أنَّ الاعتمادَ على الأول. ورفع ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أي: المُولي لجميع النعم أصولها وفروعها، ولا شيء سواه بهذه الصفة، فما سواه إما نعمة، وإما منعم عليه. على أنه خبر مبتدأ، أو على البدل من «هو»، لا على الوصف؛ لأنَّ المضمَر لا يُوصف.

١٦٤ - ولما عجب المشركون من إله واحد، وطلبوا آيةً على ذلك نزل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في اللون، والطول، والقصر، وتعاقبهما في الذهاب والمجيء ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ بالذي ينفعهم مما يحمل فيها؛ أو بنفع الناس. ومن في: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لابتداء الغاية ﴿مِنَ مَّاءٍ﴾ مطر. لبيان الجنس؛ لأن ما ينزل من السماء مطر وغيره. ثم عطف على أنزل ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ بالماء ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يسها. ثم عطف على ﴿فَأَحْيَا﴾، ﴿وَبَثَّ﴾ وفرق. ﴿فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ هي كل ما يدب ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ الرِّيح، حمزة وعلي. أي: وتقليبها في مهاها قبولاً، ودبوراً، وجنوباً، وشمالاً، وفي أحوالها حارة، وباردة، وعاصفة، ولينة، وعقماً، ولواقع. وقيل: تارة بالرحمة، وطوراً بالعذاب ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ المذلل المنقاد لمشيئة الله تعالى، فيمطر حيث شاء ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ في الهواء ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ينظرون بعيون عقولهم،

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ

ويعتبرون، فيستدلون بهذه الأشياء على قدرة موجدتها، وحكمة مبدعها، ووحدانية منشئها. وفي الحديث: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمَجَّ بها»^(١) أي: لم يتفكر فيها، ولم يعتبر بها.

١٦٥ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: ومع هذا البرهان النير من الناس ﴿مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ أمثالاً من الأصنام ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يُعَظِّمُونَهُمْ، ويخضعون لهم تعظيم المحبوب ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ كتعظيم الله، والخضوع له. أي: يحبُّون الأصنام كما يحبون الله، يعني: يسوِّون بينهم وبينه في محبتهم؛ لأنهم كانوا يقرُّون بالله، ويتقرَّبون إليه. وقيل: يحبونهم كحبِّ المؤمنين الله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من المشركين لآلهتهم؛ لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره بحال، والمشركون يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد، فيفزعون إليه، ويخضعون له ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ ترى ﴿شَامِي﴾ نافع وشامي، على خطاب الرسول، أو كلِّ مخاطب. أي: ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إشارة إلى متَّخِذِي الْأَنْدَادِ ﴿إِذْ يَرْوْنَ﴾ يَرَوْنَ ﴿شَامِي﴾ العذاب أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿حَال﴾ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿شَدِيدُ عَذَابِهِ﴾ أي: ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشرتهم أَنَّ الْقُدْرَةَ كُلَّهَا لله تعالى على كل شيء من الثواب والعقاب دون أندادهم، ويعلمون شِدَّةَ عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، لكان منهم ما لا يدخلُ تحت الوصف من الندم والحسرة. فحذف الجواب؛ لأنَّ لو إذا جاء فيما يشوقُ إليه، أو يخوف منه قلما يوصل بجواب ليذهب القلب فيه كلَّ مذهب. ولو يليها الماضي، وكذا إذ وضعها لتدلَّ على الماضي. وإنما دخلنا على المستقبل - هنا - لأنَّ إخبار الله تعالى عن المستقبل باعتبار صدقه كالماضي.

١٦٦ - ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ مدغمة الذال في التاء حيث وقعت، عراقي غير عاصم.

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٧١٥٨).

الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكَّرْنَا كَرَّةً فَنَتَّبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّمَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾

وهو بدل من ﴿إذ يرون العذاب﴾ ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي: المتَّبعون، وهم الرؤساء. ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ من الأتباع ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ الواو فيه للحال، أي: تبرؤوا في حال رؤيتهم العذاب ﴿وَتَقَطَّعَتْ﴾ عطف على تبرأ ﴿بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ الوصل التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد، ومن الأنساب، والمحاب.

١٦٧ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي: الأتباع ﴿لَوْ أَكَّرْنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَتَّبَرَأُ﴾ نصب على جواب التمني، لأن لو في معنى التمني، والمعنى: ليت لنا كرة فتبرأ ﴿مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ الآن ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإراء الفطيع ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: عبادتهم الأوثان ﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات، وهي مفعول ثالث ليريم. ومعناه: أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم، فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ بل هم فيها دائمون.

١٦٨ - ونزل فيمن حرّموا على أنفسهم البحائر ونحوها: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ كُلُّوا﴾ نزل فيمن حرّموا على أنفسهم البحائر ونحوها. أمر بإباحة ﴿وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من للتبعض؛ لأن كلّ ما في الأرض ليس بمأكول ﴿حَلَالًا﴾ مفعول كلوا، أو: حال مما في الأرض ﴿طَيِّبًا﴾ طاهراً من كلّ شبهة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرقة التي يدعوكم إليها. وبسكون الطاء: أبو عمرو^(١) غير عيَّاش ونافع وحزة وأبو بكر. والخطوة في الأصل: ما بين قدمي الخاطي. يقال: اتبع خطواته: إذا اقتدى به، واستنَّ بسُنَّته ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لا خفاء به. وأبان: متعد ولازم. ولا يناقض هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: الشيطان؛ لأنه عدوٌّ للناس

(١) أي: هو أبو عمرو بن العلاء، لا عيَّاش بن محمد العبدي القرني.

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفِينَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أُولُو كَا۟تِبٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا
يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً

حقيقة، ووليئهم ظاهراً؛ فإنه يريهم في الظاهر الموالاته، ويُرَيْن لهم أعمالهم، ويريدُ بذلك هلاكهم في الباطن.

١٦٩ - ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه، وظهور عداوته. أي: لا يأمركم بخير قط، إنما يأمركم ﴿بِالسُّوءِ﴾ بالقبیح، ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ وما يتجاوز الحدَّ في القبح من العظائم. وقيل: السوء: ما لا حدَّ فيه. والفحشاء: ما فيه حدٌّ ﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع الجر بالعطف على ﴿بالسوء﴾ أي: وبأن تقولوا. ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو قولكم: هذا حلال، وهذا حرام، بغير علم، ويدخل فيه: كلُّ ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوزُ عليه.

١٧٠ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الضمير للناس. وعدل بالخطاب عنهم على طريق الالتفات. قيل: هم المشركون. وقيل: هم طائفة من اليهود. لما دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإيمان، واتباع القرآن ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفِينَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا﴾ فإنهم كانوا خيراً منا، وأعلم. فردَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿أُولُو كَا۟تِبٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الواو للحال. والهمزة بمعنى الردِّ والتعجّب. معناه: أتتبعونهم: ولو كان آباؤهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من الدِّين ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ للصواب.

١٧١ - ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المضاف محذوف، أي: ﴿ومثل﴾ داعي ﴿الذين كفروا﴾ ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ يصيح. والمراد ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ البهائم. والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة، ودوي الصوت، من غير إلقاء أذهان، ولا استبصار، كمثل الناقق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناقق ونداءه؛ الذي هو تصويت بها، وزجرٌ لها، ولا تفقه شيئاً آخر كما يفهم العقلاء. والنعيق: التصويت. يقال: نعى المؤذن، ونعى الراعي بالضأن.

صُمُّكُمْ عُنَىٰ فَهَمْ لَا يَقُولُونَ ﴿١٧٦﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ
وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ

والنداء: مَا يُسْمَعُ. والدعاء: قَدْ يُسْمَعُ وقد لَا يُسْمَعُ ﴿صُمُّكُمْ﴾ خبر مبتدأ مضمّر،
أي: هم صم ﴿بُكُمْ﴾ خبر ثان ﴿عُنَى﴾ عن الحق. خبر ثالث. ﴿فَهَمْ لَا
يَقُولُونَ﴾ الموعظة.

١٧٢ - ثم بيّن أن ما حرّمه المشركون حلال، فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من مُسْتَلَذَّاتِهِ، أو من حلالاته ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ الذي
رزقكموها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن صحَّ أنكم تحتصونه بالعبادة،
وتقرّون أنه مُعْطِي النعم.

١٧٣ - ثم بيّن المحرم فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وهي: كل
ما فارقه الروح من غير ذكاة مما يذبح. و﴿إِنَّمَا﴾ لإثبات المذكور، ونفي
ماعداه، أي: ما حرّم عليكم إلا الميتة ﴿وَالْدَّمَ﴾ يعني: السائل، لقوله في موضع
آخر ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقد حلّت الميتتان والدمان بالحديث:
«أحلّت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال»^(١) ﴿وَلَحْمَ
الْخِنْزِيرِ﴾ يعني: الخنزير بجميع أجزائه. وخصّ اللحم لأنه المقصود بالأكل
﴿وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: ذبح للأصنام، فذكر عليه غير اسم الله. وأصل
الإهلال: رفع الصوت. أي: رفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل
الجاهلية: باسم اللات والعزى ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: ألجىء. بكسر النون،
بصري وحزة وعاصم، لالتقاء الساكنين، أعني: النون والضاد. وبضمها
غيرهم، لضمة الطاء ﴿غَيْرَ﴾ حال. أي: فأكل ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ ﴿بَاغٍ﴾ للذة
وشهوة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متعدّ مقدار الحاجة. وقول من قال غير باغ على الإمام ولا
عاد في سفر حرام، ضعيف، لأن سفر الطاعة لا يبيح بلا ضرورة. والحبس
بالحضر يبيح بلا سفر. ولأن بغية لا يخرج عن الإيمان، فلا يستحق الحرمان.

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾

والمضطر يباح له قدر ما يقع به القوام، وتبقى معه الحياة دون مافيه حصول
الشبع، لأن الإباحة للاضطرار فتقدر بقدر ماتندفع الضرورة ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في
الأكل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ للذنوب الكبائر، فأني يؤاخذ بتناول الميتة عند الاضطرار
﴿رَحِيمٌ﴾ حيث رخص.

١٧٤ - ونزل في رؤساء اليهود وتغييرهم نعت النبي ﷺ، وأخذهم على ذلك
الرشا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾ في صفة محمد ﷺ
﴿وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عوضاً، أو: ذا ثمن ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم. تقول: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه ﴿إِلَّا
النَّارَ﴾ لأنه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه، فكأنه أكل النار. ومنه
قولهم: «أكل فلان الدم» إذا أكل الدية التي هي بدل منه. قال:

يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِكْفًا.....

أي: ثمن إكاف، فسماه إكافاً لتلبسه به بكونه ثمناً له ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كلاماً يسرهم، ولكن بنحو قوله: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾
[المؤمنون: ١٠٨] ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم، أو: لا يشي
عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم. والجمل الثلاث معطوفة على خبر «إِنَّ»، فقد
صار لـ«إِنَّ» أربعة أخبار من الجمل.

١٧٥ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ بكتمان
نعت محمد ﷺ ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ فأني شيء أصبرهم على عمل يؤدي إلى
النار. وهذا استفهامٌ معناه التوبيخ.

(١) عجز بيت، وصدرة؛ إن لنا أحمره عجافاً.
«أحمره»: حير. «عجاف»: مهزول. «إكاف»: برذعة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ

١٧٦ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: ذلك العذاب بسبب أن الله نزل ما نزل من الكتب بالحق ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا﴾ أي: أهل الكتاب ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ هو للجنس، أي: في كتب الله، فقالوا في بعضها حق، وفي بعضها باطل ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق. أو: كفرهم ذلك بسبب أن الله نزل القرآن بالحق كما يعلمون، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شقاق بعيد عن الهدى.

١٧٧ - ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا﴾ أي: ليس البر توليتكم ﴿وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ الخطاب لأهل الكتاب، لأن قبلة النصارى مشرق بيت المقدس، وقبلة اليهود مغربه، وكل واحد من الفريقين يزعم أن البر التوجه إلى قبلته، فردّ عليهم بأن البر ليس فيما أنتم عليه، فإنه منسوخ ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ بر ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ أو: ذا البر من آمن، والقولان على حذف المضاف، والأول أجود. والبر: اسم للخير، ولكل فعل مرضي. وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البر العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة، ولكن البر الذي يجب الاهتمام به بر من آمن وقام بهذه الأعمال. (ليس البر) بالنصب على أنه خبر ليس، واسمه (أن تولوا)، حمزة وحفص. ولكن: ﴿الْبِرُّ﴾: نافع، وشامي. وعن المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت: ولكن البر. وقرىء: (ولكن البار) ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: يوم البعث ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ أي: جنس كتب الله، أو القرآن ﴿وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: على حب الله، أو: حب المال، أو: حب الإيتاء، يريد: أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: القرابة. وقدمهم لأنهم أحق. قال ﷺ: «صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذوي رحمك صدقة

وَالْيَتَمَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ

وصلة^(١) و﴿وَالْيَتَمَى﴾ المراد: الفقراء من ذوي القربى واليتامى، وإنما أطلق لعدم الإلباس ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ المسكين: الدائم السكون إلى الناس؛ لأنه لا شيء له، كالسكّر للدائم السكر. ﴿وَأَبْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع، وهو جنس وإن كان مفرداً لفظاً، وجعل ابناً للسبيل لملازمته له. أو الضيف ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ المستطعمين ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وفي معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم. أو في فك الأسارى ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة، قيل: هو تأكيد للأول، وقيل: المراد بالأول: نوافل الصدقات والمباركة ﴿وَالْمُوفُونَ﴾ عطف على «من آمن» ﴿بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ الله أو الناس ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ نصب على المدح والاختصاص إظهاراً لفضل الصبر في الشدائد، ومواطن القتال، على سائر الأعمال ﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾ الفقر والشدّة ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض والزمانة ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وقت القتال. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: أهل هذه الصفة هم الذين صدقوا في الدين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

١٧٨ - رُوي أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما طول^(٢) على الآخر، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد، والذكر بالأنثى، والاثنتين بالواحد. فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ حين جاء الله بالإسلام، فنزل^(٣) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ﴾ أي: فُرض ﴿عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ﴾ وهو عبارة عن المساواة، وأصله: من قص أثره، واقتصه: إذا اتبعه، ومنه القاص لأنه يتبع

(١) رواه أحمد (١٧/٤) والترمذي (٦٥٨) والنسائي (٩٢/٥) وابن ماجه (١٨٤٤) من حديث سلمان بن عامر.

(٢) «الطول»: الفضل والقدرة.

(٣) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ١/٢٢١).

فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعٌ
بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ

الآثار والأخبار ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ جمع قتل. والمعنى: فرض عليكم اعتبار الماثلة والمساواة بين القتل. ﴿الْحَرْ بِالْحَرْ﴾ مبتدأ وخبر، أي: الحر مأخوذ أو مقتول بالحر ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى﴾ وقال الشافعي - رحمه الله -: لا يقتل الحر بالعبد لهذا النص. وعندنا يجري القصاص بين الحر والعبد بقوله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] كما بين الذكر والأنثى. وبقوله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»^(١). وبأن التفاضل غير معتبر في الأنفس؛ بدليل أَنَّ جماعة لو قتلوا واحداً قُتِلُوا به. وبأن تخصيص الحكم بنوع لا ينفيه عن نوع آخر، بل يبقِي الحكم فيه موقوفاً على ورود دليل آخر، وقد ورد كما بيَّنا ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ قالوا: العفو ضد العقوبة، يقال: عفوت عن فلان: إذا صفحت عنه، وأعرضت عن أن تعاقبه. وهو يعدى بعن إلى الجاني وإلى الجناية ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٢] ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وإذا اجتمعَا عَدِي إلى الأول باللام، فتقول: عفوت له عن ذنبه، ومنه الحديث: «عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق»^(٢). وقال الزجاج: ﴿من عفى له﴾ أي: من ترك له القتل بالدية. وقال الأزهري: العفو في اللغة: الفضل، ومنه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩] ويقال: عفوت لفلان بمال: إذا أفضلت له، وأعطيته. وعفوت له عما لي عليه: إذا تركته. ومعنى الآية عند الجمهور: فمن عفى له من جهة أخيه شيء من العفو، على أَنَّ الفعل مسندٌ إلى المصدر كما في: سير يزيد بعض السير. والأخ: وليّ المقتول. وذكر بلفظ الأخوة بعثاً له على العطف؛ لما بينهما من الجنسية والإسلام. و﴿من﴾ هو القاتل المعفو له عما جنى. وترك المفعول الآخر استغناء عنه، وقيل: أقيم له مقام عنه. والضمير في: له وأخيه: لمن، وفي: إليه: للأخ، أو للمتبع الدال عليه: ﴿فَاتَّبَاعٌ﴾ لأن المعنى: فليتبع الطالب القاتل

(١) رواه أبو داود (٢٧٥١) وابن ماجه (٢٦٨٥).

(٢) رواه أحمد (١٨/١) وأبو داود (١٥٩٤) وابن ماجه (١٨١٢) و(١٨١٣).

ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّرِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّمَّنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَّتَذَوَّلِي الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

بالمعروف بأن يطالبه مطالبه جميلة. وليؤدَّ إليه المطلوب، أي: القاتل بدلَ الدم، أداءً بإحسان، بالألا يطله ولا يبخسه. وإنما قيل: شيء من العفو ليعلم أنه إذا عفا عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة تمَّ العفو، وسقط القصاص. ومن فسر ﴿عفي﴾ بترك جعل «شيء» مفعولاً به. وكذا من فسر به بأعطى، يعني: أن الولي إذا أعطي له شيء من مال أخيه، يعني: القاتل، بطريق الصلح فليأخذه بمعروف من غير تعنيف، وليؤدَّه القاتلُ إليه بلا تسويف. وارتفاع ﴿اتباع﴾ بأنه خبر مبتدأ مضمّر، أي: فالواجب اتباع ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور من العفو، وأخذ الدية ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّرِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فإنه كان في التوراة القتل لا غير، وفي الإنجيل العفو بغير بدل لا غير، وأبيح لنا القصاص والعفو وأخذ المال بطريق الصلح توسعة وتيسيراً. والآية تدلُّ على أن صاحبَ الكبيرة مؤمن للوصف بالإيمان بعد وجود القتل، ولبقاء الأخوة الثابتة بالإيمان، ولاستحقاق التَّخْفِيف والرحمة ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التخفيف، فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل أو القتل بعد أخذ الدية ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة.

١٧٩ - ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ كلام فصيح، لما فيه من الغرابة؛ إذ القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل ظرفاً للحياة. وفي تعريف القصاص وتنكير الحياة بلاغة بيّنة؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة؛ لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا، فكان في القصاص حياة وأي حياة! أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل، لوقوع العلم بالقصاص من القاتل؛ لأنه إذا هم بالقتل، فتذكر الاقتصاص، ارتدع، فسلم صاحبه من القتل، وهو من القود، فكان شرعُ القصاص سببَ حياة نفسين ﴿يَتَذَوَّلِي الْأَلْبَابَ﴾ يا ذوي العقل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ القتل حذراً من القصاص.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

١٨٠ - ﴿كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: إذا دنا منه فظهرت أمارته ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالا كثيرا. لما روي عن علي - رضي الله عنه -: أنَّ مولى له أراد أن يوصي وله سبعمئة فمنعه، قال: قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير: هو المال الكثير، وليس لك مال^(١). وفاعل ﴿كُتِبَ﴾: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وكانت الوصية للوارث في بدء الإسلام، فنسخت بآية الموارث كما بيناه في «شرح المنار». وقيل: هي غير منسوخة؛ لأنها نزلت في حق من ليس بوارث بسبب الكفر؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام؛ يسلم الرجل ولا يسلم أبواه وقرباته، والإسلام قطع الإرث، فشرعت الوصية فيما بينهم قضاء لحق القرابة ندباً. وعلى هذا لا يراد بـ«كُتِبَ»: فرض ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل، وهو: ألا يوصي للغني ويدع الفقير، ولا يتجاوز الثلث ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد، أي: حق ذلك حقاً ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ على الذين يتقون الشرك.

١٨١ - ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ فمن غير الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ أي: الإيصاء ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فما إثم التبديل إلا على مبدليه دون غيرهم من الموصي والموصى له؛ لأنهما بريئان من الحيف ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لقول الموصي ﴿عَلِيمٌ﴾ بجور المبدل.

١٨٢ - ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ علم. وهذا شائع في كلامهم، يقولون: أخاف أن ترسل السماء، ويريدون: الظن الغالب الجاري مجرى العلم ﴿مِنْ مُوصٍ﴾ (مُوصٍ)، كوفي غير حفص ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تبعداً للحيف ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصى لهم، وهم: الوالدان والأقربون بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ﴾ حينئذ؛ لأن تبديله تبديل باطل إلى حق. ذكر من يبدل بالباطل، ثم من يبدل بالحق؛ ليعلم أن كل تبديل لا يؤثم.

(١) قال ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة (حاشية الكشف ١/٢٢٣).

إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٣﴾ يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ

وقيل: هذا في حال حياة الموصي. أي: فمن حضر وصيته فراه على خلاف الشرع فنهاء عن ذلك، وحمله على الصلاح، فلا إثم على هذا الموصي بما قال أولاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

١٨٣ - ﴿يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ﴾ أي: فرض ﴿عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾ هو مصدر صام، والمراد: صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي: كتابة مثل ما كتب، فهو صفة مصدر محذوف ﴿عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ على الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام إلى عهدكم، فهو عبادة قديمة. والتشبيه باعتبار أنَّ كلَّ واحدٍ له صوم أيام، أي: أنتم متعبدون بالصيام في أيام، كما تعبد من كان قبلكم ﴿لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ المعاصي بالصيام؛ لأن الصيام أظلف لنفسه^(١)، وأردع لها من مواقعه السوء. أو: لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين؛ إذ الصوم شعارهم.

١٨٤ - وانتصاب ﴿أَيَّامًا﴾ بالصيام، أي: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تصوموا ﴿أَيَّامًا﴾ ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾ مؤقَّتات بعدد معلوم، أي: قلائل، وأصله: أن المال القليل يقدر بالعدد لا الكثير ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ يخاف من الصوم زيادة المرض ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر ﴿فَعِدَّةٌ﴾ فعليه عدة، أي: فأفطر، فعليه صيام عدد أيام فطره. والعدة بمعنى المعدود، أي: أمر أن يصوم أياماً معدودة مكانها ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ سوى أيام مرضه وسفره. و«أخر» لا ينصرف للوصف والعدل عن الألف واللام؛ لأن الأصل في فعلی صفة أن تستعمل في الجمع بالألف واللام، كالكبرى والكبر، والصغرى والصغر ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر لهم إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ نصف صاع من بر، أو صاع من غيره. فطعام بدل من فدية ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينٍ﴾ مدني وابن ذكوان. وكان ذلك في بدء الإسلام، فرض عليهم الصوم

(١) «أظلف لنفسه»: أمتع لها.

فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ

ولم يتعدّوه، فاشتدّ عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية، ثم نسخ التخيير بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ولهذا كرّر قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ لأنه لما كان مذكوراً مع المنسوخ ذكر مع الناسخ؛ ليدل على بقاء هذا الحكم. وقيل: معناه: لا يطيقونه، فأضمر لا لقراءة حفصة كذلك. وعلى هذا لا يكون منسوخاً ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد على مقدار الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ فالتطوع أو الخير خير له ﴿يَطَوَّعُ﴾ بمعنى يتطوع، حمزة وعلي ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ أيها المطيقون ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية وتطوع الخير. وهذا في الابتداء. وقيل: وأن تصوموا في السفر والمرض خير لكم؛ لأنه أشق عليكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرط محذوف الجواب.

١٨٥ - ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ خبره: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: ابتدء فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر، أو أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾. وهو بدل من الصيام، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو شهر. والرمضان مصدر رمض: إذا احترق من الرمضاء. فأضيف إليه الشهر، وجعل علماً، ومنع الصرف للتعريف والألف والنون. وسمّوه بذلك لا رتماضهم فيه من حرّ الجوع، ومقاساة شدّته، ولأنهم سموا الشهور بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر. فإن قلت: ما وجه ما جاء في الحديث: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً»^(١)، مع أن التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً؟ قلت: هو من باب الحذف لأمن الإلباس. القرآن حيث كان غير مهموز، مكّي. وانتصب ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ على الحال، أي: أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آيات واضحة مكشوفات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بين الحق

(١) رواه البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٥٩). «احتساباً»: طلباً لوجه الله وثوابه.

فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَنْبَاءٍ أُخَرُ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ
وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٦﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

والباطل . ذكر أولاً أنه هدى، ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن كان شاهداً، أي: حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر فليصم فيه ولا يفطر. والشهر منصوب على الظرف، وكذا الهاء في «ليصمه» ولا يكون مفعولاً به؛ لأن المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَنْبَاءٍ أُخَرُ﴾ «فعدة»: مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليه عدة، أي: صوم عدة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ حيث أباح الفطر بالسفر والمرض ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وَمَنْ فَرَضَ الْفِطْرَ عَلَى الْمَرِيضِ وَالْمَسَافِرِ حَتَّى لَوْ صَامَا تَجِبَ عَلَيْهِمَا الْإِعَادَةُ، فَقَدْ عُدِلَ عَنْ مُوجِبِ هَذَا ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ عدة ما أفطرتُم بالقضاء إذا زال المرض والسفر. فالفعل المعلن محذوف، مدلول عليه بما سبق تقديره: لتعلموا ولتكمّلوا العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ شرع ذلك. يعني: جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر. فقله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ علة الأمر بمراعاة العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا﴾ علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخيص وهذا نوع من اللف اللطيف المسلك. وعدى التكبير بعلى؛ لتضمنه معنى الحمد؛ كأنه قيل: لتكبروا الله، أي: لتعظموه حامدين على ما هداكم إليه. (وَلِتُكْمِلُوا) بالتشديد: أبو بكر.

١٨٦ - ولما قال أعرابي لرسول الله ﷺ: أقرّيب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ نزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾^(١) علماً وإجابة لتعالیه عن القرب

أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلَيْسَتْ جِيبُوا إِلَى وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٧﴾
أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ

مكاناً ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾ (الدَّاعِي، دَعَانِي) في الحالين، سهل ويعقوب. ووافقهما أبو عمرو ونافع غير قالون في الوصل. غيرهم بغير ياء في الحالين. ثم إجابة الدعاء وعدّ صدق من الله لا خلف فيه، غير أن إجابة الدعوة تخالف قضاء الحاجة. فإجابة الدعوة أن يقول العبد: يا رب! فيقول الله: لبيك عبدي. وهذا أمرٌ موعود موجودٌ لكل مؤمن. وقضاء الحاجة: إعطاء المراد، وذا قد يكون ناجزاً، وقد يكون بعد مدة، وقد يكون في الآخرة، وقد تكون الخيرة له في غيره ﴿فَلَيْسَتْ جِيبُوا إِلَى﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أني أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ واللام فيهما للأمر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ليكونوا على رجاء من إصابة الرشد، وهو: ضد الغي.

١٨٧ - كان الرجل إذا أمسى حلّ له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة، أو يرقد، فإذا صلاها أو رقد، ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة. ثم إن عمر - رضي الله عنه - واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ يبكي، ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ وأخبره بما فعل فقال ﷺ: «ما كنتَ جديراً بذلك» فنزل ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ الصَّيَامِ الرَّفْتُ﴾^(١) أي: الجماع ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ عَدِي بِلَى لتضمته معنى الإفضاء، وإنما كنى عنه بلفظ الرفث الدال على معنى القبح، ولم يقل الإفضاء إلى نسائكم؛ استقباحاً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختياناً لأنفسهم. ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان، ويشتمل كلُّ واحد منهما على صاحبه في عناقه، شبه باللباس المشتمل عليه بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾. وقيل: لباس، أي: ستر عن الحرام. و﴿هن لباس لكم﴾ استئناف كالبيان لسبب الإحلال. وهو: أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة، قلّ صبركم عنهن، وصعب عليكم اجتنابهن؛ فلذا رخص لكم في مباشرتهن ﴿عَلِمَ

اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ
وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ
الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ

اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴿١﴾ تظلمونها بالجماع، وتنقصونها حظها من
الخير. والاختيان: من الخيانة، كالاكتساب من الكسب، فيه زيادة وشدة
﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ حين تبتم بما ارتكبتم من المحظور ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ما فعلتم قبل
الرخصة ﴿فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ﴾ جامعوهن في ليالي الصوم. وهو أمر إباحة. وسُميت
الجماعة مباشرة لالتصاق بشريتهما ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قسم
الله لكم، وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة. أي: لا تباشروا لقضاء الشهوة
وحدها، ولكن لا ابتغاء ما وضع الله له النكاح من التنازل. أو: ﴿وابتغوا﴾
المحل الذي كتبه الله لكم وحلله دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرم ﴿وَكُلُوا
وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ هو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق
كالخيطة الممدودة ﴿مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ وهو ما يمتد من سواد الليل. شبهها بخيطين
أبيض وأسود لامتدادهما ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ بيان أنَّ الخيط الأبيض من الفجر لا من
غيره. واكتفى به عن بيان الخيط الأسود؛ لأنَّ بيان أحدهما بيان للآخر. أو من
للتبعيض لأنه بعض الفجر وأوله. وقوله «من الفجر» أخرجه من باب
الاستعارة، وصيرَه تشبيهاً بليغاً، كما أن قولك: «رأيت أسداً» مجاز، فإذا
زدت: من فلان، رجع تشبيهاً. وعن عدي بن حاتم قال: عمدتُ إلى عقالين
أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتي، فنظرت إليهما، فلم يتبين لي الأبيض من
الأسود، فأخبرتُ النبي ﷺ بذلك فقال: «إنك لعريضُ القفا» - أي: سليم
القلب؛ لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته - «إنما ذلك بياض
النهار وسواد الليل»^(١). وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أي: الكف عن
هذه الأشياء. وفيه دليل على جواز النية بالنهار في صوم رمضان، وعلى جواز
تأخير الغسل إلى الفجر، وعلى نفي الوصال، وعلى وجوب الكفارة في الأكل

(١) رواه البخاري (٤٥١٠) ومسلم (١٠٩٠).

وَلَا تُبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكَفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

والشرب، وعلى أَنَّ الجنب لا تنافي الصوم ﴿وَلَا تُبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكَفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ معتكفون فيها. بَيَّنَّ أَنَّ الجماعَ يحلُّ في ليالي رمضان لكن لغير المعتكف. والجملة في موضع الحال، وفيه دليلٌ على أَنَّ الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد، وأنه لا يختصُّ به مسجد دون مسجد ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام التي ذكرت. ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أحكامه المحدودة ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ بالمخالفة، والتغير. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ شرائعه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المحارم.

١٨٨ - ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا يأكل بعضكم مالَ بعض ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بالوجه الذي لم يبيحه الله، ولم يشرعه ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ ولا تدلُّوا بها، فهو مجزوم داخلٌ في حُكْمِ النهي، يعني: ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بشهادة الزور، أو بالأيمان الكاذبة، أو بالصلح مع العلم بأن المقضى له ظالم. وقال ﷺ للخصمين: «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ، ولعلَّ بعضكم ألحنُ بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه. فمن قضيتُ له شيء من حقِّ أخيه فلا يأخذن منه شيئاً، فإنَّ ما أقضي له قطعة من نار». فبكيا، وقال كلُّ واحد منهما: حقي لصاحبي^(١). وقيل: ﴿وتدلُّوا بها﴾ وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة. يقال: أدل دلو، أي: ألقاه في البئر للاستسقاء ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم على الباطل. وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح، وصاحبه بالتوبخ أحق.

١٨٩ - قال معاذُ بن جبل: يا رسول الله! ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيدُ حتى يمتلئ ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا

(١) أحمد (٣٠٨/٦) والبخاري (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) (٤).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا
الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾

لا يكونُ على حالة واحدة كالشمس، فنزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾^(١) جمع هلال، سُمِّيَ به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أي: معالم يوقت بها الناس مزارعهم، ومتاجرهم، ومحال ديونهم، وصومهم، وفطرمهم، وعدد نسائهم، وأيام حيضهن، ومدة حملهن، وغير ذلك، ومعالم للحج يعرف بها وقته. كان ناسٌ من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحدٌ منهم حائطاً، ولا داراً، ولا فسطاطاً من باب، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فنزل: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ أي: ليس البر بتحرّجكم من دخول الباب. ولا خلاف في رفع البر هنا؛ لأن الآية ثمّ تحتل الوجهين كما بيّنّا، فجاز الرفع والنصب ثمّ، وهذه لا تحتل إلا وجهاً واحداً، وهو الرفع؛ إذ الباء لا تدخل إلا على خبر ليس ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ برّ ﴿مَنِ اتَّقَى﴾ ما حرّم الله. (البيوت) وبابه، مدني وبصري وحفص، وهو الأصل، مثل: كعب وكعوب، ومن كسر الباء فلمكان الباء بعدها، ولكن هي توجب الخروج من كسر إلى ضمّ. وكأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة، وعن الحكمة في نقصانها، وتامها^(٢): معلوم أنّ كلّ ما يفعله الله تعالى لا يكون إلا حكمة. فدعوا السؤال عنه، وانظروا في خصلة^(٣) واخذة تفعلونها مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برّاً. فهذا وجه اتصاله بما قبله. ويحتمل أن يكون ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت الحج؛ لأنه كان من أفعالهم في الحج. ويحتمل أن يكون هذا تمثيلاً لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثّل من يترك باب البيت ويدخل من ظهره. والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البرّ برّ من اتقى ذلك، وتجنّبه، ولم يجسر على مثله

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٣٢).

(٢) من المطبوع.

(٣) من المطبوع.

وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخِرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا

﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وباشروا الأمور من وجوها؛ التي يجب أن تباشر عليها، ولا تعكسوا. أو: المراد: وجوب الاعتقاد بأن جميع أفعاله تعالى حكمة وصواب، من غير اختلاج شبهة، ولا اعتراض شك في ذلك، حتى لا يسأل عنه؛ لما في السؤال من الاتهام بمقارفة الشك ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لتفوزوا بالنعيم السرمدي.

١٩٠ - ﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المقاتلة في سبيل الله: الجهاد لإعلاء كلمة الله، وإعزاز الدين ﴿الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ﴾ يناجزونكم القتال دون المحاجزين. وعلى هذا يكون منسوخاً بقوله تعالى: ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. وقيل: هي أول آية نزلت في القتال، فكان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتل، ويكف عمن كف. أو: الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصب من الشيوخ، والصبيان، والرهبان، والنساء. أو: الكفرة كلهم؛ لأنهم قاصدون لمقاتلة المسلمين، فهم في حكم المقاتلة ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ في ابتداء القتال، أو بقتال من نهيت عنه من النساء والشيوخ ونحوهما، أو بالمثلثة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

١٩١ - ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ﴾ وجدتموهم. والثقف: الوجود على وجه الأخذ والغلبة ﴿وَآخِرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: من مكة. وعدهم الله تعالى فتح مكة بهذه الآية، وقد فعل رسول الله ﷺ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: شرهم بالله أعظم من القتل الذي يحل بهم منكم. وقيل: الفتنة عذاب الآخرة. وقيل: المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان، فيعذب به أشد عليه من القتل. وقيل لحكيم: ما أشد من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت. فقد جعل الإخراج من الوطن من الفتن التي يتمنى عندها الموت ﴿وَلَا

فَقَتِّلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٢﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٣﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ

فَقَتِّلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوَكُمْ فِيهِ ﴿١٩١﴾ أي: ولا تبدؤوا بقتالهم في الحرم حتى يبدؤوا. فعندنا المسجد الحرام يقع على الحرم كله ﴿فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ﴾: في الحرم، فعندنا يقتلون بالأشهر الحرم إلا أن يبدؤوا بالقتال معنا، فحيثنذ نقتلهم، وإن كان ظاهر قوله: ﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ يبيح القتل في الأمكنة كلها. لكن لقوله: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ خص الحرم إلا عند البداءة منهم، كذا في «شرح التأويلات» ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ مبتدأ وخبر. ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن (قتلوكم): حمزة وعلي. ١٩٢- ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن الشرك، والقتال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لما سلف من طغيانهم. ﴿رَحِيمٌ﴾ بقبول توبتهم، وإيمانهم.

١٩٣- ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك. وكان تامة، وحتى بمعنى: كي، أو: إلى أن ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً ليس للشيطان فيه نصيب، أي: لا يعبد دونه شيء ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فإن امتنعوا عن الكفر فلا تقاتلوهم، فإنه لا عدوان إلا على الظالمين، ولم يبقوا ظالمين. أو: فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين. سمى جزاء الظالمين ظلماً للمشاكلة، كقوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤].

١٩٤- قاتلهم المشركون عام الحديبية في الشهر الحرام، وهو ذو القعدة، فقبل لهم عند خروجهم لعمره القضاء، وكراهتهم القتال، وذلك في ذي القعدة: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ مبتدأ خبره: ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي: هذا الشهر بذلك الشهر، وهتكه بهتكم، يعني: تهتكون حرمة عليهم، كما هتكوا حرمة عليكم ﴿وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ أي: وكل حرمة يجري فيها القصاص. من هتك حرمة، أي حرمة كانت اقتض منه بأن تهتك له حرمة. فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك، ولا تبالوا، وأكد ذلك بقوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ

مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٦﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ

مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴿١٩٥﴾ من: شرطية. والباء غير زائدة، والتقرير: بعقوبة مماثلة وَاتَّقُوا لعدوانهم؛ أو: زائدة، وتقديره: عدواناً مثل عدوانهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالنصر.

١٩٥ - ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تصدقوا في رضا الله، وهو عام في الجهاد وغيره ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي: أنفسكم. والباء زائدة. أو: ولا تقتلوا أنفسكم بأيديكم، كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده؛ إذا تسبب لهلاكها. والمعنى: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه سبب الهلاك، أو: عن الإسراف في النفقة حتى يفقر نفسه، ويضيع عياله، أو: عن الإضرار بالنفس، أو: عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو. والتهلكة والهلاك والهلك واحد ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ الظن بالله في الإحلاف ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى المحتاجين.

١٩٦ - ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وأدوهما تامين بشرائطهما وفرائضهما لوجه الله تعالى، بلا توان ولا نقصان. وقيل: الإتمام يكون بعد الشروع. فهو دليل على أن من شرع فيهما لزمه إتمامهما. وبه نقول: إنَّ العمرة تلزم بالشروع. ولا تمسك للشافعي - رحمه الله - بالآية على لزوم العمرة؛ لأنه أمر بإتمامها. وقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع. أو: إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك. أو: أن تفرد لكل واحد منهما سفرأ. أو: أن تنفق فيهما حلالاً. أو: ألا تتجرع معهما ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾ يقال: أحصر فلان: إذا منعه أمر من خوف، أو مرض، أو عجز، وحصر: إذا حبسه عدو عن المضي. وعندنا: الإحصار يثبت بكل منع من عدو، أو مرض، أو غيرهما لظاهر النص. وقد جاء في الحديث: «من كسر أو عرج فقد حل» أي: جاز له أن يحل «وعليه الحج من قابل»^(١). وعند الشافعي - رحمه الله -: الإحصار بالعدو وحده. وظاهر النص يدل على أن

(١) رواه أبو داود (١٨٦٢) والترمذي (٩٤٠) والنسائي (١٩٩/٥) وابن ماجه (٣٠٧٧).

فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ
أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ۖ فِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّن تَمَنُّعٍ بِالْعِمَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا
اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَلِكَ

الإحصار يتحقق في العمرة أيضاً؛ لأنه ذِكر عقبهما ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فما تيسر منه، يقال: يسر الأمر واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب. والهدي: جمع هدية. يعني: فإن منعتكم من المضي إلى البيت، وأنتم محرمون بحج أو عمرة، فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدى من بعير أو بقرة أو شاة، فما: رفع بالابتداء، أي: فعليكم ما استيسر، أو نصب، أي: فاهدوا ما استيسر ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ الخطاب للمحصرين.، أي: لا تحلقوا بخلق الرأس حتى تعلموا أنَّ الهدى الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ محله، أي: مكانه الذي يجب نحره فيه، وهو الحرم. وهو حجة لنا - في أن دم الإحصار لا يذبح إلا في الحرم - على الشافعي - رحمه الله - إذ عنده يجوز في غير الحرم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ فمن كان منكم به مرض يجوجه إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ وهو القمل، أو الجراحة ﴿فِدْيَةٌ﴾ فعلية إذا حلق فدية ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من بر ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ شاة. وهو مصدر، أو جمع نسكة ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ الإحصار، أي: فإذا لم تحصروا، وكنتم في حال أمن وسعة ﴿فَمَن تَمَنَّعَ﴾ استمتع ﴿بِالْعِمَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ واستمتع بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعه بالتقرب بها إلى الله قبل انتفاعه بالتقرب بالحج. وقيل: إذا حلَّ من عمرته انتفع باستباحة ما كان محرماً عليه إلى أن يحرم بالحج ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ هو هدي المتعة، وهو نسك يؤكل منه، ويذبح يوم النحر ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدى. ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ فعلية صيام ثلاثة أيام في وقت الحج - وهو أشهره - ما بين الإحرامين: إحرام العمرة، وإحرام الحج ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ في وقوعها بدلاً عن الهدى، أو في الثواب، أو المراد: رفع الإبهام فلا يتوهم في الواو أنها بمعنى الإباحة، كما في: جالس الحسن وابن سيرين. ألا ترى أنه لو جالسهما، أو واحداً منهما، كان ممثلاً ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى التسع. إذ لا تمتع

لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾
 الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي
 الْحَجِّ

ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندنا. وعند الشافعي - رحمه الله - إلى الحكم الذي هو وجوب الهدى، أو الصيام، ولم يوجب عليهم شيئاً ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم أهل المواقيت، فمن دونها إلى مكة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه في الحج وغيره ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتقّه.

١٩٧ - ﴿الْحَجُّ﴾ أي: وقت الحج، كقولك: البرد شهران ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ معروفات عند الناس، لا يشكلن عليهم، وهي: سؤال، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة. وفائدة توقيت الحج بهذه الأشهر أن شيئاً من أفعال الحج لا يصح إلا فيها، وكذا الإحرام عند الشافعي - رحمه الله - وعندنا وإن انعقد لكنه مكروه. وجمعت - أي الأشهر - لبعض الثالث، أو لأن اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤] ﴿فَمَنْ فَرَضَ﴾ ألزمه نفسه بالإحرام ﴿فِيهِنَّ الْحَجُّ﴾ في هذه الأشهر ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ هو الجماع، أو ذكره عند النساء، أو الكلام الفاحش ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو المعاصي، أو السباب؛ لقوله ﷺ: «سباب المؤمن فسوق»^(١). أو التنازع بالألقاب؛ لقوله تعالى: ﴿يَنْسُ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١]. ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ ولا وراء مع الرفقاء، والخدم، والمكاريين^(٢). وإنما أمر باجتناب ذلك، وهو واجب الاجتناب في كل حال؛ لأنه مع الحج أسمع، كلبس الحرير في الصلاة، والتطريب في قراءة القرآن. والمراد بالنفي وجوب انتفائها، وأنها حقيقة بالأ تكون. وقرأ أبو عمرو ومكي الأولين بالرفع، فحملهما على معنى النهي، كأنه قيل: فلا يكونن رفث ولا فسوق، والثالث: بالنصب، على معنى الإخبار بانتفاء الجدال، كأنه قيل: ولا شك ولا خلاف في الحج. ثم حث على الخير

(١) رواه أحمد (٣٨٥/١) والبخاري (٤٨) ومسلم (٦٤) (١١٦).

(٢) «المكاريين»: جمع المكاري، وهو مكري الدواب.

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَاتِك خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَىٰ وَتَقْوَىٰ
يَتَأُولَى الْأَلْبَسِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ
فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ

عقيب النهي عن الشر، وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان
الفسوق البر والتقوى، ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة؛ بقوله تعالى:
﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ واعلم بأنه عالم به يجازيكم عليه. ورد قول من
نفى علمه بالجزئيات. كان أهل اليمن لا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون،
فيكونون كلاً على الناس، فنزل فيهم: ﴿وَتَكْرَدُوا﴾ أي: تزودوا، واتقوا
الاستطعام وإبرام الناس^(١) والتثقل عليهم ﴿فَاتِك خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَىٰ﴾ أي:
الاتقاء عن الإبرام والتثقل عليهم؛ أو تزودوا للمعاد باتقاء المحظورات؛ فإن
خير الزاد اتقاؤها ﴿وَتَقْوَىٰ﴾ وخافوا عقابي، وهو مثل: دعان ﴿يَتَأُولَى
أَلْبَسِ﴾ يا ذوي العقول، يعني: أن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من
الألباء فكانه لا لب له.

١٩٨ - ونزل في قوم زعموا: أن لا حجَّ لجمال وتاجر، وقالوا: هؤلاء
الداج^(٢) وليسوا بالحاج: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا﴾ في أن تبْتَغُوا في
مواسم الحج ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ عطاء وتفضلاً، وهو النفع والربح
بالتجارة والكراء ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ دفعتم بكثرة، من إفاضة الماء، وهو: صبه
بكثرة. وأصله: أفضتم أنفسكم، فترك ذكر المفعول ﴿مِنْ عَرَفَتٍ﴾ هي علم
للموقف سُمِّيَ بجمع كأذرعات. وإنما صرفت لأنَّ التاء فيها ليست للتأنيث،
بل هي مع الألف قبلها علامة جمع المؤنث. وسُمِّيَتْ بذلك لأنها وصفت
لإبراهيم عليه السلام، فلما رآها عرفها. وقيل: التقى فيها آدم وحواء فتعارفا.
وفيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة؛ لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده
﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتلبية، والتهليل، والتكبير، والثناء، والدعوات، أو

(١) إبرام الناس: أبرمه: أضجره.

(٢) الداج: الأعوان والمكارون.

عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَنَّاكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ

بصلاة المغرب والعشاء ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ هو قَرَح، وهو: الجبل الذي يقفُ عليه الإمام وعليه الميمنة. والمشعر: المعلم؛ لأنه معلم العبادة. ووصف بالحرام لحرمته. وقيل: المشعر الحرام: المزدلفة. وسميت: المزدلفة، وجمعاً؛ لأن آدم عليه السلام اجتمع فيها مع حواء وازدلف إليها، أي: دنا منها، أو: لأنه يجتمع فيها بين الصَّلَاتَيْنِ، أو: لأنَّ الناس يزدلفون إلى الله تعالى، أي: يتقربون بالوقوف فيها ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَنَّاكُمْ﴾ ما: مصدرية، أو كافة، أي: اذكروه ذكراً حسناً، كما هداكم هداية حسنة، أو: اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه، ولا تعدلوا عنه ﴿وَإِن كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل الهدى ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ الجاهلين، لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه. وإن مخففة من الثقيلة، واللام فارقة.

١٩٩ - ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ثم لتكن إفاضتكم ﴿من حيث أفاض الناس﴾ ولا تكن من المزدلفة. قالوا: هذا أمرٌ لقريش بالإفاضة من عرفات إلى جَمْع، وكانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفات، ويقولون: نحن قُطَّان حرمه فلا نخرج منه. وقيل: الإفاضة من عرفات مذكورة، فهي الإفاضة من جمع إلى مِنَى. والمراد بالناس على هذا: الحُمْسُ^(١)، ويكون الخطاب للمؤمنين ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من مخالفتكم في الموقف، ونحو ذلك من جاهليتكم، أو من تقصيركم في أعمال الحج ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بكم.

٢٠٠ - ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ فإذا فرغتم من عبادتكم التي أمرتم

(١) سميت قريش حنساً لشدهم في دينهم، والأحمس: الشديد الصلب بالدين. والتحمس: التشدد. (من حاشية المخطوط).

فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾

بها في الحج، ونفرتهم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ أي: فاذكروا الله ذكراً مثل ذكركم آباءكم. والمعنى: فأكثرُوا من ذِكْرِ الله، وبالغوا فيه، كما تفعلون في ذكر آبائكم، ومفاخرهم، وأيامهم. وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل فيعدّدون فضائل آبائهم، ويذكرون محاسن أيامهم ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي: أكثر. وهو في موضع جر عطف على [ما أضيف إليه]^(١) الذكر في قوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾ كما تقول: كذكر قريش آبائهم، أو قوم أشدّ منهم ذكراً. وذِكْرًا: تمييز ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ فمن الذين يشهدون الحج من يسأل الله حظوظ الدنيا فيقول: ﴿رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا، أي: إعطاءنا في الدنيا خاصة، يعني: الجاه والغنى ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ نصيب؛ لأنّ همّه مقصور على الدنيا لكفره بالآخرة. والمعنى: أكثرُوا ذكر الله ودعاءه؛ لأنّ الناس من بين مقلّ لا يطلب بذكر الله إلا أغراض الدنيا، ومكثر يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين، أي: من الذين قيل فيهم:

٢٠١ - ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن الذين يشهدون الحج ﴿مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي

الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نعمة وعافية، أو علماً وعبادة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ عفواً ومغفرة. أو: المال والجنة، أو: ثناء الخلق ورضا الحق، أو: الإيمان والأمان، أو: الإخلاص والخلاص، أو: السنة والجنة، أو: القناعة والشفاعة، أو: المرأة الصالحة والحدود العيون، أو: العيش على سعادة والبعث من القبر على بشارة ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ احفظنا من عذاب جهنم، أو: عذاب النار: امرأة السوء.

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

٢٠٢ - ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الداعون بالحسنتين ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة. أو: من أجل ما كسبوا. أو: سُمِّي الدعاء كسباً؛ لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب. ويجوز أن يكون ﴿أُولَئِكَ﴾ للفريقين، وأن لكل فريق نصيباً من جنس ما كسبوا ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد. فبادروا إكثار الذكر، وطلب الآخرة. أو: وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم، وكثرة أعمالهم، ليدل على كمال قدرته، ووجوب الحذر من نفسه. وروي: أنه يحاسبُ الخلق في قدر حلب شاة، وروي: في مقدار لمحة.

٢٠٣ - ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ هي أيام التشريق. وذكر الله فيها التكبير في أدبار الصلوات وعند الجمار ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ فمن عجل في النفر، أو استعجل النفر، وتعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل. يقال: تعجل في الأمر واستعجل، ومتعدين، يقال: تعجل الذهاب واستعجله. والمطاوعة أوفق لقوله: «ومن تأخر» ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ من هذه الأيام الثلاثة، فلم يمكث حتى يرمي في اليوم الثالث، واكتفى برمي الجمار في يومين من هذه الأيام الثلاثة ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فلا يأنم بهذا التعجل ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ حتى رمى في اليوم الثالث ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ الصيد، أو الرفث والفسوق. أي: هو مخير في التعجل والتأخر، وإن كان التأخر أفضل. فقد يقع التخيير بين الفاضل والأفضل، كما خير المسافر بين الصوم والإفطار، وإن كان الصوم أفضل. وقيل: كان أهل الجاهلية فريقين، منهم من جعل المتعجل آثماً، ومنهم من جعل المتأخر آثماً، فورد القرآن بنفي المأثم عنهما ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع الأمور ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ حين يبعثكم من القبور.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ

٢٠٤ - كان الأخنس بن شريق حلو المنطق، إذا لقي رسول الله ﷺ ألان له القول، وادّعى أنه يحبّه، وأنه مسلم، وقال: يعلم الله أنني صادق، فنزل فيه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ يروقك، ويعظم في قلبك. ومنه الشيء العجيب؛ الذي يعظم في النفس ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿فِي﴾ يتعلق بالقول، أي: يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا؛ لأنه يطلب بادعاء المحبة حظ الدنيا، ولا يريد به الآخرة. أو يبعجبك، أي: يعجبك حلو كلامه في الدنيا لا في الآخرة؛ لما يرهقه في الموقف من الحُبسة واللُّكنة ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي: يحلف ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ شديد الجدال والعداوة للمسلمين. والخصام: المخاصمة. والإضافة بمعنى في؛ لأن أفعل يضاف إلى ما هو بعضه، تقول: زيد أفضل القوم، ولا يكون الشخص بعض الحدث، فتقديره: ألد في الخصومة. أو: الخصام: جمع خصم، كصعب وصعباب، والتقدير: وهو أشدّ الخصوم خصومة.

٢٠٥ - ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ عنك، وذهب بعد إلانة القول، وإحلاء المنطق ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ﴾ كما فعل بثقيف، فإنه كان بينه وبينهم خصومة، فبيّتهم ليلاً، وأهلك مواشيهم، وأحرق زروعهم ﴿فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ أي: الزرع، والحيوان. أو إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاية السوء من الفساد في الأرض؛ بإهلاك الحرث والنسل. وقيل: يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر، فيهلك الحرث، والنسل ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾.

٢٠٦ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ للأخنس ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ في الإفساد، والإهلاك ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ حملته النخوة وحمية الجاهلية على الإثم؛ الذي ينهى عنه، وألزمته ارتكابه. أو: الباء للسبب، أي: أخذته العزة من أجل الإثم الذي في

فَحَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي
السَّلَامِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾
فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

قلبه، وهو: الكفر ﴿فَحَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيه ﴿وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: الفراش جهنم.

٢٠٧ - ونزل في صهيب حين أراده المشركون على ترك الإسلام، وقتلوا نفراً كانوا معه، فاشتري نفسه بماله منهم، وأتى المدينة، أو: فيمن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر حتى يقتل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ يبيعها ﴿ابْتِغَاءَ﴾ لا ابتغاء ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث أثابهم على ذلك.

٢٠٨ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ﴾ وبفتح السين^(١)، حجازي وعليّ. وهو: الاستسلام والطاعة، أي: استسلموا لله، وأطيعوه. أو: الإسلام. والخطاب لأهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا بنبينهم وكتبهم. أو: للمنافقين؛ لأنهم آمنوا بالسنتهم ﴿كَآفَّةً﴾ لا يخرج أحدٌ منكم يده عن طاعته. حال من الضمير في ادخلوا، أي: جميعاً، أو: من السلم لأنها تؤنث، كأنهم أمروا أن يدخلوا في الطاعات كلها، أو: في شعب الإسلام وشرائعه كلها. وكافة: من الكف؛ كأنهم كفوا أن يخرج منهم أحدٌ باجتماعهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وسأوسه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

٢٠٩ - ﴿فَإِن زَلَلْتُمْ﴾ ملتم عن الدخول في السلم ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الحجج الواضحة، والشواهد اللائحة على أن ما دُعيتم إلى الدخول فيه هو الحق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، لا يمنعه شيء من عذابكم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يعذب إلا بحق. وروي أن قارئاً قرأ «غفور رحيم» فسمعه

(١) أي: (السلم).

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَلِلَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَاتٍ يَبْنَؤُا وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ
اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

أعرابي لم يقرأ القرآن فأنكره، وقال: ليس هذا من كلام الله إذ الحكيم لا يذكر
الغفران عند الزلل والعصيان؛ لأنه إغراء عليه.

٢١٠ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ما ينتظرون. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أمر الله
وبأسه كقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣] ﴿فَجَاءَهَا بِأَسَنَاءَ﴾ [الأعراف:
٤] أو المأتي به محذوف، بمعنى: أن يأتيهم الله بآسئه للدلالة عليه بقوله:
﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ [في ظُلَلٍ] جمع ظلة، وهي: ما أظلك ﴿مِنَ الْغَمَامِ﴾
السحاب. وهو للتهويل؛ إذ الغمام مَظِلَّةُ الرحمة، فإذا أنزل منه العذاب كان
الأمر أفظع وأهول ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: وتأتي الملائكة الذين وكلوا بتعذيبهم،
أو المراد: حضورهم يوم القيامة ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: وتمَّ أمرُ إهلاكهم،
وفُرِّغَ منه ﴿وَلِلَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ أي: بأنه ملك العباد بعضُ الأمور فترجع إليه
الأمور يوم النشور. (تَرْجِعُ الْأُمُورُ) حيث كان، شامي، وحمزة، وعليّ.

٢١١ - ﴿سَلَّ﴾ أصله: أسأل، فنقلت فتحة الهمزة إلى السين بعد حذفها،
واستغني عن همزة الوصل، فصار: سل. وهو أمرٌ للرسول، أو لكلِّ أحد.
وهو سؤال تقريع، كما يسأل الكفرة يوم القيامة ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَاتٍ
يَبْنَؤُا﴾ على أيدي أنبيائهم، وهي معجزاتهم، أو: من آية في الكتب شاهدة
على صحة دين الإسلام. وكم استفهامية، أو خبرية ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ هي
آياته، وهي أجلُّ نعمة من الله لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة.
وتبديلهم إياها: أن الله أظهرها لتكون أسباب هداهم، فجعلوها أسباب
ضلالهم، كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. أو: حرفوا
آيات الكتب الدالة على دين محمد ﷺ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ من بعد ما عرفها،
وصحَّت عنده؛ لأنه إذا لم يعرفها فكانها غائبة عنه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن
استحقه.

٢١٢ - ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ المزين هو الشيطان، زين لهم الدنيا،

وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
 حِسَابٍ ﴿٢١٧﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ

وحسنها في أعينهم بوساوسه، وحببها إليهم، فلا يريدون غيرها. أو: الله تعالى بخلق الشهوات فيهم، ولأنَّ جميع الكائنات منه، ويدلُّ عليه قراءة من قرأ: ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(١) ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين كابن مسعود، وعمار، وصهيب، ونحوهم. أي: لا يريدون غير الدنيا، وهم يسخرون ممن لاحظ له فيها، أو ممن يطلب غيرها ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الشرك، وهم: هؤلاء الفقراء ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لأنهم في جنة عالية، وهم في نار هابوية ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير. يعني: أنه يوسع على مَنْ أَرَادَ التوسعة عليه، كما وسع على قارون وغيره. وهذه التوسعة عليكم من الله لحكمة وهي: استدراجكم بالنعمة، ولو كانت كرامة لكان المؤمنون أحقَّ بها منكم.

٢١٣ - ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على دين الإسلام من آدم إلى نوح عليهما السلام. أو: هم نوح ومن كان معه في السفينة. فاختلَفُوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ﴾، ويدلُّ على حذفه قوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وقراءة عبد الله^(٢) ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]. أو: كان الناس أمة واحدة كفاراً، فبعث الله النبيين فاختلَفُوا عليهم. والأول الأوجه ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب للمؤمنين ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب للكافرين، وهما حالان ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: مع كل واحد منهم كتابه ﴿بِالْحَقِّ﴾ ببيان الحق ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الله، أو الكتاب، أو النبي المنزل عليه ﴿بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في دين الإسلام؛ الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ في الحق ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف. أي: ازدادوا في الاختلاف لما أنزل

(١) هي قراءة مجاهد وابن محيصن وحيد بن قيس وأبي حيو.

(٢) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ

عليهم الكتاب ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ على صدقه ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ مفعول له، أي: حسداً بينهم، وظلماً لحرصهم على الدنيا، وقلة إنصاف منهم ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أي: فهدى الله الذين آمنوا للحق؛ الذي اختلف فيه من اختلف ﴿ مِنْ الْحَقِّ ﴾ بيان لما اختلفوا فيه ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بعلمه ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

٢١٤ - ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ أم منقطعة لا متصلة؛ لأن شرطها أن يكون قبلها همزة الاستفهام، كقولك: أعندك زيد أم عمرو؟ أي: أيهما عندك؟ وجوابه: زيد إن كان عنده زيد، أو: عمرو إن كان عنده عمرو. وأما «أم» المنقطعة فتقع بعد الاستفهام وبعد الخبر، وتكون بمعنى بل والهمزة، والتقدير: بل أحسبتم. ومعنى الهمزة فيها للتقرير، وإنكار الحسبان واستبعاده. لما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات تشجيعاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات، والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب، وإنكارهم لآياته وعداوتهم له، قال لهم على طريقة الالتفات - التي هي أبلغ -: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ ﴿ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ ﴾ أي: ولم يأتكم. وفي لما معنى التوقع، يعني: أن إتيان ذلك مُتَوَقَّعٌ منتظر ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا ﴾ مضوا. أي: حالهم التي هي مثل في الشدة ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من التبیین والمؤمنين ﴿ مَسَّتْهُمُ ﴾ بيان للمثل، وهو استئناف، كأن قائلًا قال: كيف كان ذلك المثل؟ ف قيل: ﴿ مَسَّتْهُمُ ﴾ ﴿ الْبَأْسَاءُ ﴾ أي: البؤس ﴿ وَالضَّرَاءُ ﴾ المرض، والجوع ﴿ وَزُلْزَلُوا ﴾ وحركوا بأنواع البلايا، وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه من المؤمنين فيها: ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ أي: بلغ بهم الضجر، ولم يبق لهم صبر، حتى قالوا ذلك. ومعناه: طلب النصر، وتمنيهِ، واستطالة زمن

أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

الشدة ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ قيل لهم إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر
(يقول) بالرفع، نافع، على حكاية حال ماضية، نحو: شربت الإبل حتى
يجيء البعير يجرب بطنه. وغيره بالنصب على إضمار أن، ومعنى الاستقبال؛
لأن أن علم له.

٢١٥ - ولما قال عمرو بن الجموح، وهو شيخ كبير، وله مال عظيم: ماذا
ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ نزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ
فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فقد تضمن قوله: ﴿ما أنفقتم من
خير﴾ بيان ما ينفقونه، وهو: كل خير. وبنى الكلام على ما هو أهم، وهو
بيان المصروف؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها. عن الحسن: هي في
التطوع ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجزي عليه.

٢١٦ - ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ فُرض عليكم جهاد الكفار ﴿وَهُوَ كُرْهُ
لَكُمْ﴾ من الكراهة، فوضع المصدر موضع الوصف مبالغة كقولها:
..... فإِنما هي إقبالٌ وإدبارٌ^(١)

كأنه في نفسه كراهة لفرط كراحتهم له. أو هو: فعل بمعنى مفعول،
كالخيز بمعنى المخبوز، أي: وهو مكروه لكم ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ
لَكُمْ﴾ فأنتم تكرهون الغزو، وفيه إحدى الحسنين، إما: الظفر والغنيمة،
وإما الشهادة والجنة ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ وهو القعود عن الغزو ﴿وَهُوَ شَرٌّ
لَكُمْ﴾ لما فيه من الذل، والفقر، وحرمان الغنيمة والأجر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو
خير لكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فبادروا إلى ما يأمركم به وإن شقَّ
عليكم.

(١) عجز بيت للخنساء، وصدره: لا تسأم الدهر منه كلما ذكرت.

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ
مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ

٢١٧ - ونزل في سرية بعثها رسول الله ﷺ، فقاتلوا المشركين، وقد أهل
هلال رجب وهم لا يعلمون ذلك، فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر
الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي: يسألك الكفار
أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل الاشتمال من
الشهر. وقرئ ﴿عن قتالٍ فيه﴾ على تكرير العامل بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا
لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: إثم كبير. ﴿قتال﴾
مبتدأ و﴿كبير﴾ خبره. وجاز الابتداء بالنكرة لأنها قد وصفت بـ: فيه. وأكثر
الأقويل على أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾
[التوبة: ٥] ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: منع المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه
عن البيت عام الحديبية. وهو مبتدأ ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي: بالله. عطف عليه
﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عطف على سبيل الله. أي: وصد^(١) عن سبيل الله وعن
المسجد الحرام. وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء في به، أي: كفر به
وبالمسجد الحرام. ولا يجوز عند البصريين العطف على الضمير المجرور
إلا بإعادة الجار، فلا تقول: مررت به وزيد، ولكن تقول: وزيد. ولو كان
معطوفاً على الهاء هنا ل قيل: وكفر به وبالمسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ أي:
أهل المسجد الحرام، وهم رسول الله ﷺ والمؤمنون. وهو عطف على «صد»
أيضاً ﴿مِنْهُ﴾ من المسجد الحرام. وخبر الأسماء الثلاثة ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي:
مما فعلته السرية من القتال في الشهر الحرام على سبيل الخطأ، والبناء على
الظن ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الإخراج، أو الشرك ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام.
أو: تعذيب الكفار المسلمين أشد قبحاً من قتل هؤلاء المسلمين في الشهر
الحرام ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ أي: إلى الكفر، وهو إخبار

إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

عن دوام عداوة الكفار للمسلمين، وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم. وحتى معناها التعليل، نحو: فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة، أي: يقاتلونكم كي يردوكم. وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَسْتَطَعُوا﴾ استبعاد لاستطاعتهم، كقولك لعدوك: إن ظفرت بي فلا تبق علي، وأنت واثق بأنه لا يظفر بك ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ ومن يرجع عن دينه إلى دينهم. ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أي: يموت على الردة ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لما يفوتهم بالردة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام، وفي الآخرة من الثواب، وحسن المآب ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وبها احتج الشافعي - رحمه الله - على أن الردة لا تحبط العمل حتى يموت عليها. وقلنا: قد علق الحبط بنفس الردة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِسْلَامِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] والأصل عندنا: أن المطلق لا يحمل على المقيد، وعنده يحمل عليه، فهو بناء على هذا.

٢١٨ - ولما قالت السرية: أ يكون لنا أجر المجاهدين في سبيل الله؟ نزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ تركوا مكة وعشائرهم ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المشركين. ولا وقف عليه؛ لأن ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ خبر إن. قيل: من رجا طلب، ومن خاف هرب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٢١٩ - نزل في الخمر أربع آيات. نزل بمكة: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل: ٦٧] فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال. ثم إن عمرو ونفراً من الصحابة قالوا: يا رسول الله! أقتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال فتزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ فشربها قوم، وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن عوف جماعة فشربوا وسكروا، فأمر بعضهم فقراً: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، فتزل: ﴿لَا تَقْرَبُوا

قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا

الضَّلَوةَ وَأَنْتَ سَكْرَى ﴿[النساء: ٤٣]﴾ فقل من يشربها. ثم دعا عتبان بن مالك جماعة فلما سكروا منها تخاصموا وتضاربوا، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزل: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١] فقال عمر: انتهينا يا رب! وعن علي - رضي الله عنه -: لو وقعت قطرة في بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها، ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت فيه الكلأ لم أرعه. والخمر: ما غلى واشتد وقذف بالزبد من عصير العنب. وسميت بمصدر خمره خمرأ: إذا ستره؛ لتغطيتها العقل. والميسر: القمار، مصدر من يسر، كالموعد من فعله، يقال: يسرته: إذا قمرته. واشتقاقه من اليسر؛ لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة بلا كد وتعب. أو من اليسار كأنه سلب يساره. وصفة الميسر: أنه كانت لهم عشرة أقداح، سبعة منها عليها خطوط وهي: الفذ وله سهم، والتوأم وله سهمان، والرقب وله ثلاثة، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة، والمسبل وله ستة، والمعلّى وله سبعة، وثلاثة أغفال لا نصيب لها وهي: المنيح، والسفيح، والوغد، فيجعلون الأقداح في خريطة، ويضعونها على يد عدل، ثم يجلبجلها، ويدخل يده فيخرج باسم رجل قذحاً قذحاً منها، فمن خرج له قذح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القذح، ومن خرج له قذح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً، وغرم ثمن الجزور كله. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء، ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك، ويذمون من لم يدخل فيه. وفي حكم الميسر أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما. والمعنى: يسألونك عما في تعاطيهما بدليل: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بسبب التخاصم، والنشاتم، وقول الفحش والزور. كثير: حمزة وعلي ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ بالتجارة في الخمر، والتلذذ بشربها، وفي الميسر بارتفاق الفقراء، أو نيل المال بلا كد ﴿وَإِثْمُهُمَا﴾ وعقاب الإثم في تعاطيهما ﴿أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ لأن أصحاب الشرب والقمار يقتربون فيهما الآثام من وجوه كثيرة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا

يُنْفِقُونَ قُلُوبُ الْعَفْوِ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

يُنْفِقُونَ قُلُوبُ الْعَفْوِ ﴿٢١٩﴾ أي: الفضل، أي: أنفقوا ما فضل عن قدر الحاجة. وكان
التصدق بالفضل في أول الإسلام فرضاً^(١)، فإذا كان الرجل صاحب زرع
أمسك قوت سنة وتصدق بالفضل، وإذا كان صانعاً أمسك قوت يومه وتصدق
بالفضل، فنسخت بآية الزكاة. (العفو) أبو عمرو. فمن نصبه جعل «ماذا» اسماً
واحداً في موضع النصب بينفقون، والتقدير: قل: ينفقون العفو، ومن رفعه
جعل ﴿ما﴾ مبتداً، وخبره ﴿ذا﴾ مع صلته، فذا بمعنى الذي، وينفقون:
صلته، أي: ما الذي ينفقون؟ فجاء جواب العفو، أي: هو العفو، فأعراب
الجواب كإعراب السؤال؛ ليطابق الجواب السؤال ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف في
موضع نصب نعت لمصدر محذوف، أي: تبيناً مثل هذا التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

٢٢٠ - ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أي: في أمر الدنيا ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ وفي: يتعلق
بتفكرون، أي: تفكرون فيما يتعلق بالدارين، فتأخذون بما هو أصلح لكم.
أو: تفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما، وأكثرهما منافع. ويجوز أن يتعلق
بـ ﴿يُبَيِّنُ﴾، أي: يبين لكم الآيات في أمر الدارين وفيما يتعلق بهما ﴿لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ﴾. ولما نزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]
اعتزلوا اليتامى، وتركوا مخالطتهم، والقيام بأموالهم، وذكروا ذلك لرسول
الله ﷺ فنزل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: مداخلتهم على وجه
الإصلاح لهم ولأموالهم خيرٌ من مجانبتهم ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم، ولم
تجانبوهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم في الدين، ومن حق الأخ أن يخالط
أخاه. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ لأموالهم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ لها، فيجازه على
حسب مداخلته، فاحذروه، ولا تتحروا غير الإصلاح ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إعناتكم

لَاغْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنُوهٖ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَرَسَّالُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ

﴿لَاغْنَتَكُمْ﴾ لحملككم على العنت، وهو: المشقة، وأخرجكم، فلم يطلق لكم مداخلتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، يقدر على أن يعنت عباده، ويخرجهم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يكلف إلا وسعهم، وطاقاتهم.

٢٢١ - لما سأل مرشد النبي ﷺ عن أن يتزوج عناق - وكانت مشركة - نزل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾ ^(١) أي: لا تتزوجوهن. يقال: نكح إذا تزوج، وأنكح: غيره: زوجه ﴿وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ولو كان الحال أن المشركة تعجبكم وتحبونها ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تزوجوهم بمسلمة، كذا قاله الزجاج. وقال جامع العلوم: حذف أحد المفعولين، والتقدير: ولا تنكحوهن المشركين ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ ثم بين علة ذلك فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ وهو إشارة إلى المشركات والمشركين ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ إلى الكفر الذي هو عمل أهل النار فحقهم ألا يوالوا، ولا يصاهروا ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: وأولياء الله - وهم المؤمنون - يدعون إلى الجنة والمغفرة، وما يوصل إليهما، فهم الذين تجب موالاتهم، ومصاهرتهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بعلمه، أو بأمره ﴿وَبَيِّنُوهٖ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

٢٢٢ - كانت العرب لم يؤاكلوا الحائض، ولم يشاربوها، ولم يساكنوها، كفعل اليهود والمجوس، فسأل أبو الدحداح رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: يا رسول الله! كيف نصنع بالنساء إذا حضن؟ فتزل: ﴿وَرَسَّالُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ ^(٢)

(١) رواه أبو داود (٢٠٥١) والترمذي (٢١٧٦) والنسائي (٦٦/٦).

(٢) رواه مسلم (٣٠٢) وأبو داود (٢٥٨) والترمذي (٢٩٨١).

قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ

هو مصدر، يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاء مجيئاً ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ أي: المحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه ﴿فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوهن، أي: فاجتنبوا مجامعتهن. وقيل: إِنَّ النَّصَارَى كانوا يجامعونهن، ولا يبالون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهن في كل شيء، فأمر الله بالاعتقاد بين الأمرين. ثم عند أبي حنيفة وأبي يوسف - رحمهما الله - يجتنب ما اشتمل عليه الإضرار. ومحمد - رحمه الله -: لا يوجب إلا اعتزال الفرج. وقالت عائشة - رضي الله عنها -: يجتنب شعار الدم، وله ما سوى ذلك ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ مجامعين، أو: ولا تقربوا مجامعتهن ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ بالتشديد، كوفي غير حفص، أي: يغتسلن، وأصله: (يَطْهَرْنَ)، فأدغم التاء في الطاء لقرب مخرجيهما. غيرهم (يَطْهَرْنَ)، أي: ينقطع دمهن. والقراءتان كآيتين فعملنا بهما، وقلنا له: أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم، وإن لم تغتسل؛ عملاً بقراءة التخفيف، وفي أقل منه لا يقربها حتى تغتسل، أو يمضي عليها وقت الصلاة عملاً بقراءة التشديد. والحمل على هذا أولى من العكس؛ لأنه حينئذ يجب ترك العمل بإحداهما لما عرف. وعند الشافعي - رحمه الله -: لا يقربها حتى تطهر وتطهر. دليله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فجامعوهن، فجمع بينهما ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ من المأثي الذي أمركم الله به، وحلله لكم، وهو القبل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من ارتكاب ما نهوا عنه، أو العوادين إلى الله تعالى، وإن زلوا فزلوا. والمحبة لمعرفته بعظم عفو الله حيث لا ييأس ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ بالماء، أو المتزهين من أدبار النساء، أو من الجماع في الحيض، أو من الفواحش.

٢٢٣ - كان اليهود يقولون: إذا أتى الرجل أهله بركة أتى الولد أحول، فنزل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مواضع حرث لكم. وهذا مجاز، شبهن بالمحارث تشبيهاً لما يُلقى في أرحامهن من النطف؛ التي منها النسل بالبذور، والولد

فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتَمْتُمْ وَقَدِمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَوَةٌ وَبَشِيرِ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ

بالنبات. ووقع قوله: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ بياناً وتوضيحاً لقوله ﴿فأتوهن﴾ من حيث أمركم الله ﴿أي: إن المأتى الذي أمركم الله به هو مكان الحرث لا مكان الفرث، تنبيهاً على أنَّ المطلوب الأصلي في الإتيان هو طلبُ النسل لا قضاء الشهوة، فلا تأتونهن إلا من المأتى الذي نيط به هذا المطلوب﴾ ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتَمْتُمْ﴾ جامعوهن متى شتتم، أو كيف شتتم، بركة أو مستلقية، أو مضطجعة بعد أن يكون المأتى واحداً، وهو موضع الحرث. وهو تمثيل، أي: فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شتتم، لا يحظر عليكم جهة دون جهة. وقوله: ﴿هو أذى فاعتزلوا النساء﴾ ﴿من حيث أمركم الله﴾ ﴿فأتوا حرثكم أنى شتتم﴾ من الكنايات اللطيفة، والتعريضات المستحسنة. فعلى كل مسلم أن يتأدب بها، ويتكلف مثلها في المحاورات والمكاتبات ﴿وَقَدِمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة وما هو خلاف مانهيتهم عنه. أو هو طلب الولد، أو التسمية على الوطء ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ فلا تجترئوا على المناهي ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَوَةٌ﴾ صائرون إليه فاستعدوا للقاءه ﴿وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالثواب يا محمد.

وإنما جاء يسألونك ثلاث مرات بلا واو، ثم مع الواو ثلاثاً؛ لأن سؤالهم عن تلك الحوادث الأول كأنه وقع في أحوال متفرقة، فلم يؤت بحرف العطف؛ لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ. وسألوا عن الحوادث الآخر في وقت واحد، فجاء بحرف الجمع لذلك.

٢٢٤ - ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ العُرْضَةُ فُعلة بمعنى مفعول، كالقبضة، وهي: اسم ما تعرضه دون الشيء: من: عرض العود على الإناء، فيتعرض دونه، ويصير حاجزاً ومانعاً منه. تقول: فلان عرضة دون الخير. وكان الرجل يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد، أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحث في يميني، فيتترك البر إرادة البر في يمينه، فقليل لهم: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾

أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

أي: حازراً لما حلفتُم عليه. وسُمِّيَ المحلوف عليه يميناً بـتلبسه باليمين، كقوله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها [فليكفر عن يمينه]»^(١). وقوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ عطف بيان لأيمانكم، أي: للأُمُور المحلوف عليها التي هي: البر، والتقوى، والإصلاح بين الناس. واللام تتعلق بالفعل، أي: ولا تجعلوا الله لإيمانكم برزخاً. ويجوز أن تكون اللام للتعليل، ويتعلق أن تَبْرُوا بالفعل، أو بالعرضة، أي: ولا تجعلوا الله لأجل أيمانكم به عرضة لأن تَبْرُوا ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

٢٢٥- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو: الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره. ولغو اليمين: الساقط الذي لا يعتد به في الأيمان، وهو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه والأمر بخلافه. والمعنى: لا يعاقبكم بلغو اليمين الذي يحلفه أحدكم. وعند الشافعي - رحمه الله -: هو ما يجري على لسانه من غير قصد للحلف، نحو: لا والله. وبلى والله ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ﴾ ولكن يعاقبكم ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بما اقترفته من إثم القصد إلى الكذب في اليمين، وهو: أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله، وهو اليمين الغموس. وتعلق الشافعي بهذا النص على وجوب الكفارة في الغموس؛ لأن كسب القلب: العزم، والقصد. والمؤاخذه غير مبينة هنا، وبينت في المائدة، فكان البيان ثمة بياناً هنا. وقلنا: المؤاخذه هنا مطلقة، وهي في دار الجزاء، والمؤاخذه ثم مقيدة بدار الابتلاء، فلا يصح حمل البعض على البعض ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم.

(١) رواه أحمد (١٨٥/٢) والنسائي (١٠/٧) وابن ماجه (٢١١١). وما بين حاصرتين مستدرك من مصادر التخريج.

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصُ بِأَنْفُسِهِنَّ

٢٢٦ - ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ يقسمون. وهي قراءة ابن عباس - رضي الله عنهما -
 ﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾ يتعلق بالجار والمجرور، أي: للذين، كما تقول: لك مني
 نصرة، ولك مني معونة، أي: للمؤلين من نسائهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾
 ﴿أَشْهُرٍ﴾ أي: استقر للمؤلين ترقب أربعة أشهر، لا يبؤلون؛ لأن آلى يعدى
 بعلی، يقال: آلى فلان على امرأته. وقول القائل: آلى فلان من امرأته، وهم
 توهمه من هذه الآية. ولك أن تقول: عدی بمن لما في هذا القسم من معنى
 البعد، فكأنه قيل: يبعدون من نسائهم مؤلين ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ في الأشهر، لقراءة
 عبد الله: (فإن فاؤوا فيهن) أي: رجعوا إلى الوطء عن الإصرار بتركه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث شرع الكفارة.

٢٢٧ - ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ بترك الفيء، فتربصوا إلى مضي المدة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ
 سَمِيعٌ﴾ لإيلائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيته. وهو وعيد على إصرارهم وتركهم الفیئة.

وعند الشافعي - رحمه الله - معناه: ﴿فَإِنْ فاؤوا﴾ ﴿وَإِنْ عزموا﴾ بعد مضي
 المدة؛ لأنَّ الفاء للتعقيب. وقلنا: قوله ﴿فَإِنْ فاؤوا﴾ ﴿وَإِنْ عزموا﴾ تفصيل
 لقوله ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ والتفصيل يعقب الفصل، كما تقول: أنا
 نزيلكم هذا الشهر، فإن أحمدتكم أقمت عندكم إلى آخره، وإلا لم أقم إلا ريثما
 أتحوّل.

٢٢٨ - ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصُ﴾ أراد المدخول بهن من ذوات الأقراء ﴿يَتَرَبَّصُ

بأنفسِهِنَّ﴾ خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام: ولتربص المطلقات. وإخراج
 الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى
 امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً. ونحوه: قولهم
 في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت
 الرحمة، فهو يخبر عنها. وبناءه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد؛ لأن الجملة
 الاسمية تدلُّ على الدوام والثبات بخلاف الفعلية. وفي ذكر الأنفس تهييج لهن

ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَيُعَوِّلُهُنَّ أَحَقُّ بِرَيْهِنَّ

على التربص، وزيادة بعث؛ لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنهن على الطموح، ويجبرنهن على التربص ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ جمع قرء أو قرء. وهو الحيض لقوله ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك»^(١). وقوله: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان»^(٢) ولم يقل: طهران، وقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَسْتَنِّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]. فأقام الأشهر مقام الحيض دون الأطهار، ولأن المطلوب من العدة استبراء الرحم، والحيض هو الذي يستبرأ به الأرحام دون الطهر، ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة، ولأنه لو كان طهراً كما قال الشافعي، لانقضت العدة بقرأين وبعض الثالث، فانتقص العدد عن الثلاثة؛ لأنه إذا طلقها في آخر الطهر، فذا محسوب من العدة عنده، وإذا طلقها في آخر الحيض، فذا غير محسوب من العدة عندنا، والثلاث اسم خاص لعدد مخصوص لا يقع على ما دونه. ويقال: أقرأت المرأة إذا حاضت، وامرأة مقرىء. وانتصاب ثلاثة على أنه مفعول به، أي: يتربصن مضي ثلاثة قروء، أو على الظرف، أي: يتربصن مدة ثلاثة قروء. وجاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراء لاشتراكهما في الجمعية اتساعاً. ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء من الأقراء فأوثر عليه تنزيلاً لقليل الاستعمال منزلة المhemل ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد، أو من دم الحيض، أو منهما. وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها، فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها؛ أو كتمت حيضها وقالت - وهي حائض - : قد طهرت؛ استعجالاً للطلاق ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عظم فعلهن؛ لأن من آمن بالله وبعقابه لا يجترىء على مثله من العظامم ﴿وَيُعَوِّلُهُنَّ﴾ البعول: جمع بعل، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع ﴿أَحَقُّ بِرَيْهِنَّ﴾ أي: أزواجهن أولى برجعتهن.

(١) رواه الدارقطني (١/ ٢١٢).

(٢) رواه أبو داود (٢١٨٩) والترمذي (١١٨٢) وابن ماجه (٢٠٨٠).

فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ

وفيه دليلٌ على أن الطلاقَ الرَّجعي لا يجرُمُ الوطءَ حيث سمَّاهُ زوجاً بعد الطلاق ﴿فِي ذَلِكَ﴾ في مدة ذلك الترتُّبُص. والمعنى: أن الرجلَ إن أراد الرجعة، وأبتها المرأة، وجب إثارة قوله على قولها، وكان هو أحقَّ منها، لا أنَّ لها حقاً في الرجعة ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ بالرجعة ﴿إِصْلَاحًا﴾ لما بينهم وبينهن، وإحساناً إليهن، ولم يريدوا مضارَّتهن. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ ويجب لهن من الحق على الرجال من المهر، والنفقة، وحسن العشرة، وترك المضارَّة، مثل الذي يجب لهن عليهن من الأمر والتَّهْيِءِ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس، فلا يكلف أحد الزوجين صاحبه ما ليس له. والمراد بالمماثلة: مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه، أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ زيادة في الحق، وفضيلة بالقيام بأمرها، إن اشتركا في اللذة والاستمتاع، وبالإِنْفَاق، وملك النكاح ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يعترض عليه في أموره ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يأمر إلا بما هو صواب وحسن.

٢٢٩ - ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ الطلاق بمعنى التطليق، كالسلام بمعنى التسليم.

أي: التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، دون الجمع والإرسال دفعة واحدة. ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير، كقوله: ﴿ثُمَّ أَتِيجَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [المالك: ٤] أي: كرة بعد كرة، لا كرتين اثنتين. وهو دليلٌ لنا في أن الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة في طهر واحد؛ لأنَّ الله تعالى أمرنا بالتفريق؛ لأنه وإن كان ظاهره الخبر فمعناه الأمر، وإلا يؤدي إلى الخلف في خبر الله تعالى؛ لأن الطلاقَ على وَجْه الجمع قد يوجد. وقيل: قالت أنصارية: إن زوجي قال: لا أزال أطلقك ثم أراجعك، فنزلت: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾^(١) أي: الطلاق الرجعي مرتان؛ لأنه لا رجعة بعد الثالث ﴿فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ﴾ بـرجعة.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤٥٦/٢).

أَوْ تَسْرِجْ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا

والمعنى: فالواجب عليكم إمساك بمعروف ﴿أَوْ تَسْرِجْ بِإِحْسَنٍ﴾ بألا يراجعها حتى تبين بالعدة. وقيل: بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث. نزل في جميلة وزوجها ثابت بن قيس بن شماس، وكانت تبغضه، وهو يحبها، وقد أعطاها حديقة، فاختلعت منه بها، وهو أول خلع كان في الإسلام ^(١) ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج أو الحكام لأنهم الآمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكأنهم الآخذون والمؤتون ﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ مما أعطيتموهن من المهور ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إلا أن يعلم الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية؛ لما يحدث من نشوز المرأة، وسوء خلقها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الولاة. وجاز أن يكون أول الخطاب للأزواج، وآخره للحكام ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فلا جناح على الرجل فيما أخذ، ولا عليها فيما أعطت ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فيما افتدت به نفسها، واختلعت به من بدل ما أوتيت من المهر. ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ حمزة على البناء للمفعول، وإبدال ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾ من ألف الضمير. وهو من بدل الاشتمال، نحو: خيف زيد تركه إقامة حدود الله ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: ما حد من النكاح، واليمين، والإيلاء، والطلاق، والخلع، وغير ذلك ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تتجاوزوها بالمخالفة ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الضارون أنفسهم.

٢٣٠ - ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ مرة ثالثة بعد المَرَّتَيْنِ. فإن قلت: الخلع طلاق عندنا، وكذا عند الشافعي - رحمه الله - في قول. فكأن هذه تطليقة رابعة، قلت: الخلع طلاق ببطلان طلاقه، وهذه بيان لتلك، أي: فإن طلقها الثالثة ببطلان فحكم التحليل كذا ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد التطليقة الثالثة ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا

غَيْرُهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

غَيْرُهُ ﴿ حتى تتزوج غيره. والنكاح يسند إلى المرأة، كما يسند إلى الرجل كالزواج. وفيه دليل على أن النكاح يتعقد بعبارتها. والإصابة شرطت بحديث العسيلة، كما عرف في أصول الفقه. والفقه فيه: أنه لما أقدم على فراق لم يبق للندم مخلصاً، لم تحل له إلا بدخول فحل عليها ليمتنع عن ارتكابه ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ الزوج الثاني بعد الوطء ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ على الزوج الأول وعليها ﴿ أَنْ يَتَرَاجَعَا ﴾ أن يرجع كل واحد منهما إلى صاحبه بالزواج ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية. ولم يقل: إن علما أنهما يقيمان؛ لأن اليقين مغيبٌ عنهما لا يعلمه إلا الله ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا ﴾ وبالنون^(١)، المفضل ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يفهمون ما بين لهم.

٢٣١ - ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُنَّ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي: آخر عدتهن، وشارفن منتهاها. والأجل: يقع على المدة كلها وعلى آخرها، يقال لعمر الإنسان: أجل، وللموت الذي ينتهي به: أجل ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي: فإذا أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة، وإما أن يخليها حتى تنقضي عدتها، وتبين من غير ضرار ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا ﴾ مفعول له، أو حال، أي: مضارين. وكان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدتها، ثم يراجعها لا عن حاجة، ولكن ليطول العدة عليها، فهو الإمساك ضراراً ﴿ لِيَعْتَدُوا ﴾ لتظلموهن، أو لتلجئوهن إلى الافتداء ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ يعني: الإمساك للضرار ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ بتعريضها لعقاب الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ أي: جدوا بالأخذ بها، والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها، وإلا فقد اتخذتموها هزواً. يقال لمن لم يجد في الأمر: إنما أنت لاعب وهازيء ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾

(١) أي: (نبيها).

وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

بالإسلام، وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ من القرآن والسنة. وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقها ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ بما أنزل عليكم، وهو حال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما امتحنكم به ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من الذكر، والاتقاء، والاتعاظ، وغير ذلك، وهو أبلغ وعد ووعد.

٢٣٢ - ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلُهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتهن. فدلّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين، لأنّ النكاح يعقبه هنا، وإذا يكون بعد العدة؛ وفي الأولى الرجعة، وإذا يكون في العدة ﴿فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ﴾ فلا تمنعهن. العضل: المنع والتضييق ﴿أَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ من أن ينكحن ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ الذين يرغبن فيهم، ويصلحون لهن. وفيه إشارة إلى انعقاد النكاح بعبارة النساء. والخطاب للأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً، ولا يتركونهن يتزوجن من شئن من الأزواج. سموا أزواجاً باسم ما يؤول إليه. أو: للأولياء في عضلهن أن يرجعن إلى أزواجهن؛ الذين كانوا أزواجاً لهن. سموا أزواجاً باعتبار ما كان. نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأول. أو: للناس، أي لا يوجد فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم، وهم راضون، كانوا في حكم العاضلين ﴿إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ﴾ إذا تراضى الخطاب والنساء ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما يحسن في الدين والمروءة من الشرائط. أو: بمهر المثل والكف؛ لأن عند عدم أحدهما للأولياء أن يتعرّضوا. والخطاب في: ﴿ذَلِكَ﴾ للنبي ﷺ، أو لكل واحد ﴿يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فالموعظة إنما تنجح فيهم ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ترك العضل والضرار ﴿أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: لكم، من أدناس الآثام. أو: ﴿أزكى وأطهر﴾ أفضل وأطيب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في ذلك من الزكاء، والطهر ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ حَوْلَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ﴾

٢٣٣ - ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ حَوْلَ كَامِلَيْنِ﴾ خبر في معنى الأمر المؤكد، كـ «يتربصن» وهذا الأمر على وجه النذب، أو على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه، أو لم توجد له ظئر، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار، أو أراد الوالدات المطلقات، وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع ﴿حَوْلَيْنِ﴾ ظرف ﴿كَامِلَيْنِ﴾ تأمين، وهو تأكيد، لأنه مما يتسامح فيه، فإنك تقول: إنك أقمت عند فلان حولين ولم تستكملهما ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ بيان لمن توجه إليه الحكم، أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة. والحاصل: أن الأب يجب عليه إرضاع ولده دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك، ولا تجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم ما دامت زوجة أو معتدة ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ الهاء يعود إلى اللام الذي بمعنى الذي، والتقدير: وعلى الذي يولد له وهو الوالد. و«له» في محل الرفع على الفاعلية كـ «عليهم» في ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. وإنما قيل على المولود له دون الوالد ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم، إذ الأولاد للآباء والنسب إليهم لا إليهن، فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأطوار. ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد، حيث لم يكن هذا المعنى، وهو قوله ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣] ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بلا إسراف ولا تقتير، و تفسيره ما يعقبه، وهو: ألا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه، ولا يتضاراً ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وجدها، أو قدر إمكانها. والتكليف: إلزام ما يؤثر في الكلفة. وانتصاب «وسعها» على أنه مفعول ثان لتكلف لا على الاستثناء، ودخلت «إلا» بين المفعولين ﴿لَا تُضَارَّ﴾ مكى وبصري بالرفع على الإخبار^(١). ومعناه النهي. وهو يحتمل البناء للمفعول، وأن يكون الأصل تضارر بكسر الراء، أو

(١) أي: (لا تضار والدته).

وَالِدَةٌ يُؤَلِّدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهَا يُؤَلِّدُهَا وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ
مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا

تضارّر بفتحها. الباقون (لاتضارّ) على النهي. والأصل: تضارر، أسكنت الراء الأولى، وأدغمت في الثانية بعد أن سكنت، فالتقى الساكنان، ففتحت الثانية لالتقاء الساكنين ﴿وَالِدَةٌ يُؤَلِّدُهَا﴾ أي: لاتضارّ والدّة زوجها بسبب ولدها، وهو أن تعنّف به، وتطلب منه ما ليس بعدلٍ من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقول بعد ما ألفها الصبي: اطلب له ظئراً، وما أشبه ذلك ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهَا يُؤَلِّدُهَا﴾ أي: ولا يضارّ مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعه شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها، أو يأخذه منها وهي تريد إرضاعه.

وإذا كان مبنياً للمفعول فهو نهي عن أن يلحق بها الضرر من قبل الزوج، وعن أن يلحق الضرر بالزوج من قبلها بسبب الولد.

أو: تضار بمعنى تضر، والباء من صلتها، أي: لاتضر والدّة ولدها فلا تسيء غذاءه وتعهده، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها. ولا يضرّ الوالد به بأن ينتزع من يدها، أو يقصر في حقّها، فتقصر هي في حقّ الولد. وإنما قيل بولدها وبولده، لأنه لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه، وكذلك الوالد ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ عطف على قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، أي: وعلى وارث الصبي عند عدم الأب ﴿وَمِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي: مثل الذي كان على أبيه في حياته من الرزق والكسوة. واختلف فيه، فعند ابن أبي ليلى: كلّ من ورثه. وعندنا من كان ذا رحم محرم منه؛ لقراءة ابن مسعود - رضي الله عنه - : (وعلى الوارث ذي الرحم المحرم مثل ذلك) وعند الشافعي - رحمه الله - لا نفقة فيما عدا الولاد ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ يعني: الأبوين ﴿فِصَالًا﴾ فطاماً صادراً ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك، زادا على الحولين، أو نقصا. وهذه توسعة بعد التحديد. والتشاور: استخراج الرأي. من شُرْتُ العسل: إذا استخرجته. وذكره ليكون التراضي عن تفكّر، فلا يضرّ الرضيع. فسبحان الذي

وَلِإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ
بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي
أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

أدب الكبير، ولم يهمل الصغير. واعتبر اتفاقهما لأنَّ للأب النسبة والولاية، وللأم الشفقة والعناية ﴿وَلِإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي: لأولادكم، عن الزجاج. وقيل: استرضع منقول من أَرْضِع، يقال: أرضعت المرأة الصبي، واسترضعها الصبي معدي إلى مفعولين أي: أن تسترضعوا المراضع أولادكم، فحذف أحد المفعولين. يعني: غير الأم عند إياها، أو عجزها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إلى المراضع ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ ما أردتم إيتاءه من الأجرة. (أَتَيْتُمْ): مكى، من: أتى إليه إحساناً: إذا فعله، ومنه قوله: ﴿كَانَ وَعْدُ مَاثِيًا﴾ [مريم: ٦١] أي: مفعولاً. والتسليم ندب لا شرط للجواز ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بسَلَّمْتُمْ، أي: سلمتم الأجرة إلى المراضع بطيب نفس وسرور ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه أعمالكم، فهو يجازيكم عليها.

٢٣٤ - ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ تقول: توفيت الشيء، واستوفيته: إذا أخذته وافياً تاماً، أي: تُستوفى أرواحهم ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون ﴿أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: وزوجات الذين يتوفون منكم يتربصن، أي: يعتددن، أو: معناه: يتربصن بعدهم بأنفسهن. فحذف بعدهم للعلم به. وإنما احتيج إلى تقديره، لأنه لا بد من عائد يرجع إلى المبتدأ في الجملة التي وقعت خبراً. (يَتَوَفَّوْنَ)؛ المفضل، أي: يستوفون آجالهم ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي: وعشر ليال، والأيام داخلة معها. ولا يستعمل التذكير فيه ذهاباً إلى الأيام، تقول: صمت عشراً. ولو ذكرت لخرجت من كلامهم ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فإن انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة والحكام ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التعرض للخطاب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بالبواطن.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ

٢٣٥ - ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ الخطبة: الاستنكاح. والتعريض: أن تقول لها: إنك لجميلة، أو صالحة، ومن غرضي أن أتزوج، ونحو ذلك من الكلام الموهوم أنه يريد نكاحها، حتى تحبس نفسها عليه إن رغب في. ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول: إني أريد أن أتزوجك. والفرق بين الكناية والتعريض أن الكناية: أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، والتعريض: أن تذكر شيئاً تدلُّ به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتكَ لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا:

..... وحسبك بالتسليم مني تقاضيا

فكانه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أو سترتم وأضمرتم في قلوبكم، فلم تذكره بالاستتكم لا معرضين ولا مصرحين ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ لا محالة، ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهن، فاذكروهن ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ جماعاً، لأنه مما يسر، أي: لا تقولوا في العدة: إني قادرٌ على هذا العمل ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو أن تعرضوا ولا تصرّحوا. وإلا متعلق بلا تواعدوهن، أي: لا تواعدوهن مواعدة قطعاً، إلا مواعدة معروفة غير منكورة ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ من عزم الأمر، وعزم عليه. وذكر العزم مبالغة في النهي عن عقد النكاح؛ لأن العزم على الفعل يتقدمه، فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى. ومعناه: ولا تعزموا عقد عقدة النكاح، أو: ولا تقطعوا عقدة النكاح، لأن حقيقة العزم القطع، ومنه الحديث: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل» وروي: «لمن لم يبيت الصيام»^(١). أي: ولا تعزموا على عقدة النكاح ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ حتى

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٣٦﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْأَوْسَعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٧﴾

تنقضي عدتها. وسميت العدة كتاباً لأنها فرضت بالكتاب، يعني: حتى يبلغ الترتيب المكتوب عليها أجله، أي: غايته ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ ولا تعزموا عليه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

٢٣٦ - ونزل فيمن طلق امرأته ولم يكن سمى لها مهراً، ولا جامعها ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تبعه عليكم من إيجاب مهر ﴿إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ شرط. ويدل على جوابه ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ والتقدير: إن طلقتم النساء فلا جناح عليكم ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ ما لم تجمعهن. وما شرطية، أي: إن لم تمسوهن. (تَمَسَّوهُنَّ): حمزة، وعلي، حيث وقع؛ لأنَّ الفعل واقع بين اثنين ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ إلا أن تفرضوا لهن فريضة، أو: حتى تفرضوا. وفرض الفريضة: تسمية المهر. وذلك أن المطلقة غير الموطوءة لها نصف المسمى إن سمي لها مهر. وإن لم يسم لها مهر فليس لها نصف مهر المثل، بل تجب المتعة ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ معطوف على فعل محذوف، تقديره: فطلقوهن ومتعهن. والمتعة: درع وملحفة وخمار ﴿عَلَى الْأَوْسَعِ﴾ الذي له سعة ﴿قَدَرُهُ﴾ مقداره الذي يطيقه. (قَدَرُهُ) فيهما: كوفي غير أبي بكر، وهما لغتان ﴿وَعَلَى الْمُقْتَرِ﴾ الضيق الحال. والدليل على أن الجناح تبعه المهر قوله: ﴿وإن طلقتموهن﴾ إلى قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ فقوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ إثبات للجناح المنفي ثمة ﴿قَدَرُهُ﴾ ولا تجب المتعة عندنا إلا لهذه، وتستحب لسائر المطلقات ﴿مَتَّعًا﴾ تأكيد لمتعهن، أي: تمتعاً ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة ﴿حَقًّا﴾ صفة لمتاعاً، أي: متاعاً واجباً عليهم، أو: حق ذلك حقاً ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ على المسلمين، أو على الذين يحسنون إلى المطلقات بالتمتع. وسماهم قبل الفعل محسنين، كقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»^(١). وليس هذا

(١) رواه البخاري (٣١٤٢) ومسلم (١٧٥١).

وَأِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى

الإحسان هو التبرع بما ليس عليه، إذ هذه المتعة واجبة.

٢٣٧ - ثم بين حُكْم التي سَمَى لها مهراً في الطلاق قبل المس، فقال: ﴿وَأِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أن مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجر. أي: من قبل مسكن إياهن. ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾ في موضع الحال ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ مهراً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ يريد المطلقات. وأن مع الفعل في موضع النصب على الاستثناء؛ كأنه قيل: فعليكم نصف ما فرضتم في جميع الأوقات إلا وقت عفوهم عنكم من المهر. والفرق بين الرجال يعفون والنساء يعفون؛ أن الواو في الأول ضميرهم والنون علم الرفع. والواو في الثاني لام الفعل والنون ضميرهن، والفعل مبني لا أثر في لفظه للعامل ﴿أَوْ يَعْفُوا﴾ عطف على محله ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ هو الزوج، كذا فسره علي - رضي الله عنه -: وهو قول سعيد بن جبير، وشريح، ومجاهد، وأبي حنيفة، والشافعي على الجديد - رضي الله عنهم -. وهذا لأن الطلاق بيده، فكان بقاء العقد بيده. والمعنى: أن الواجب شرعاً هو النصف إلا أن تسقط هي الكل، أو يعطي هو الكل تفضلاً. وعند مالك والشافعي في القديم: هو الولي. قلنا: هو لا يملك التبرع بحق الصغيرة، فكيف يجوز حمله عليه؟! ﴿وَأَنْ تَعْفُوا﴾ مبتدأ خبره ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾. والخطاب للأزواج والزوجات على سبيل التغليب، ذكره الزجاج. أي: عفو الزوج بإعطاء كل المهر خير له، وعفو المرأة بإسقاط كله خير لها. أو: للأزواج ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ﴾ التفضل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي: ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على تفضلكم.

٢٣٨ - ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ داوموا عليها بمواقيتها، وأركانها، وشرائطها ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ بين الصلوات، أي: الفضلى، من قولهم

وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ زُرُبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَّعًا

للأفضل: الأوسط. وإنما أفردت وعطفت على الصلوات لا نفرادها بالفضل. وهي صلاة العصر عند أبي حنيفة - رحمه الله - وعليه الجمهور، لقوله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملاء الله بيوتهم نارا»^(١). وقال ﷺ: «إنها الصلاة التي شغل عنها سليمان حتى توارت بالحجاب»^(٢). وفي مصحف حفصة (والصلاة الوسطى صلاة العصر) ولأنها بين صلاتي الليل وصلاتي النهار. وفضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم، ومعايشهم. وقيل: صلاة الظهر؛ لأنها في وسط النهار. أو صلاة الفجر؛ لأنها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل. أو صلاة المغرب؛ لأنها بين الأربع والمثنى، ولأنها بين صلاتي مخافة وصلاتي جهر. أو صلاة العشاء، لأنها بين وترين. أو هي غير معينة، كليلة القدر؛ ليحفظوا الكل ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَانِتِينَ﴾ حال، أي: مطيعين خاشعين، أو ذاكرين الله في قيامكم. والقنوت: أن تذكر الله قائماً. أو مطيلين القيام.

٢٣٩ - ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فإن كان بكم خوف من عدو، أو غيره ﴿فَرَجَالًا﴾ حال، أي: فصلوا راجلين، وهو جمع راجل، كقائم وقيام ﴿أَوْ زُرُبَانًا﴾ وُحْدَانًا بإيماء. ويسقط عنه التوجه إلى القبلة ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ فإذا زال خوفكم ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ فصلوا صلاة الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ أي: ذكرنا مثلما علمكم ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من صلاة الأمن.

٢٤٠ - ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ بالنصب، شامي، وأبو عمرو، وحمزة، وحفص، أي: فليوصوا وصية، عن الزجاج. غيرهم بالرفع، أي: فعليهم وصية ﴿مَّتَّعًا﴾ نصب بالوصية، لأنها مصدر. أو

(١) رواه أحمد (١/١٥٠) والبخاري (٢٩٣١) ومسلم (٦٢٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢/٥٠٥).

إِلَى الْهَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي
 أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ
 حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾
 ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

تقديره: متعوهن متاعاً ﴿إِلَى الْهَوْلِ﴾ صفة لمتاعاً ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ مصدر مؤكد،
 كقولك: هذا القول غير ما تقول. أو: بدل من متاعاً. والمعنى: أن حق الذين
 يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا، بأن تمتع أزواجهم بعدهم
 حولاً كاملاً، أي: ينفق عليهن من تركته، ولا يخرجن من مساكنهن. وكان
 ذلك مشروعاً في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتوفون منكم
 ويذرون أزواجاً﴾ إلى قوله: ﴿أربعة أشهر وعشراً﴾ والناسخ متقدم عليه تلاوة،
 ومتأخر نزولاً، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] مع
 قوله تعالى: ﴿قَدْ زُرِيَ ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] ﴿فَإِنْ خَرَجْنَا﴾ بعد
 الحول ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من التزويج، والتعرض
 للخطاب ﴿مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ مما ليس بمنكر شرعاً ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيما
 حكم.

٢٤١ - ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ﴾ أي: نفقة العدة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا﴾ نصب على
 المصدر ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

٢٤٢ - ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هو في موضع
 الرفع؛ لأنه خبر لعل. وإن أريد به المتعة فالمراد غير المطلقة المذكورة، وهي:
 على سبيل النذب.

٢٤٣ - ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار
 الأولين، وتعجب من شأنهم. ويجوز أن يخاطب به من لم ير ولم يسمع؛ لأن
 هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجب ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾
 من قرية، قيل: واسط، وقع فيهم الطاعون، فخرجوا هاربين، فأماهم الله، ثم
 أحياهم بدعاء حزقيل عليه السلام. وقيل: هم قوم من بني إسرائيل، دعاهم
 ملكهم إلى الجهاد، فهربوا حذراً من الموت، فأماهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم

وَهُمُ الْأَوْفُ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخْيَلَهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

﴿وَهُمُ الْأَوْفُ﴾ في موضع النصب على الحال، وفيه دليل على الألف الكثيرة؛ لأنها جمع كثرة. وهي جمع: ألف، لا آلف ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مفعول له ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أي: فأماهم الله. وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيتته، وتلك ميتة خارجة عن العادة. وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد، وأن الموت إذا لم يكن منه بد، ولم ينفع منه مفر، فأولى أن يكون في سبيل الله ﴿ثُمَّ أَخْيَلَهُمْ﴾ ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفر من حكم الله وقضائه. وهو معطوف على فعل محذوف تقديره: فماتوا ثم أحياهم، أو لما كان معنى قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ فأماهم، كان عطفاً عليه معنى ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث يبصرهم ما يعتبرون به، كما بصر أولئك، وكما بصرهم باقتصاص خبرهم. أو: لذو فضل على الناس حيث أحياء أولئك ليعتبروا فيفوزوا، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم النشور ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلك.

٢٤٤ - والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله، وهو قوله: ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فحرض على الجهاد بعد الإعلام بأن الفرار من الموت لا يعني. هذا الخطاب لأمة محمد ﷺ، أو لمن أحياهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

٢٤٥ - ﴿مَنْ﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء ﴿ذَا﴾ خبره ﴿الَّذِي﴾ نعت لذا، أو بدل منه ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ صلة الذي. سَمَى ما ينفق في سبيل الله قرضاً؛ لأن القرض ما يقبض ببدل مثله من بعد. سَمَى به لأن المقرض يقطعه من ماله فيدفعه إليه. والقرض: القطع، ومنه: المقرض، وقرض الفأر، والانقراض. فنبههم بذلك على أنه لا يضيع عنده، وأنه يجزيهم عليه لا محالة ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيبة النفس من المال الطيب. والمراد: النفقة في الجهاد؛ لأنه لما أمر بالقتال في

فِيضْلِعِفُهُ لَهُمْ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِثْقَالَيْ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّكُمْ الْفِتْنَى أَلَّا تَقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا

سبيل الله، ويحتاج فيه إلى المال، حث على الصدقة ليتها أسباب الجهاد ﴿فِيضْلِعِفُهُ لَهُمْ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ بالنصب، عاصم، على جواب الاستفهام، وبالرفع؛ أبو عمرو، ونافع، وحمة، وعلي، عطفاً على (يقرض). أو هو مستأنف، أي: فهو يضاعفه. (فيضعه)، شامي. فيضعفه: مكي ﴿أَضْعَافًا﴾ في موضع المصدر ﴿كَثِيرَةً﴾ لا يعلم كنهها إلا الله، وقيل: الواحد بسبعمئة ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ﴾ يقتر الرزق على عباده، ويوسعه عليهم، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم، لا يبدلكم الضيق بالسعة. ويصط: حجازي، وعاصم، وعلي ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على ما قدمتم.

٢٤٦ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الأشراف، لأنهم يملأون القلوب دلالة، والعيون مهابة ﴿مِثْقَالَيْ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ من للتبعيض ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ من بعد موته. ومن: لابتداء الغاية ﴿إِذْ قَالُوا﴾ حين قالوا ﴿لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾ هو شمعون، أو يوشع، أو أشمويل ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ انفض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه، وننتهي إلى أمره ﴿نُقَاتِلَ﴾ بالنون والجزم على الجواب ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صلة نقاتل ﴿قَالَ﴾ النبي: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ (عسيتم) حيث كان، نافع ﴿إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّكُمْ الْفِتْنَى﴾ شرط فاصل بين اسم عسى وخبره، وهو ﴿أَلَّا تَقَاتِلُوا﴾. والمعنى: هل قاربتم ألا تقاتلوا، يعني: هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون وتجنبون، فأدخل «هل» مستفهما عما هو متوقع عنده. وأراد بالاستفهام: التقرير، وتثبت أن المتوقع كائن، وأنه صائب في توقعه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وأي داع لنا إلى ترك القتال، وأي غرض لنا فيه ﴿وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ الواو في ﴿وقد﴾ للحال. وذلك أن قوم جالوت كانوا يسكنون بين مصر وفلسطين، فأسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة

فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾
 وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ
 الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ
 اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ
 مَن

وأربعين. يعنون إذا بلغ الأمر منا هذا المبلغ فلا بد من الجهاد ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي: أجبوا إلى ملتتمسهم ﴿تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عنه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم كانوا ثلاثمئة وثلاثة عشر، على عدد أهل بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد.

٢٤٧ - ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ هو اسم أعجمي كجالوت، وداد. ومُنْع من الصرف للتعريف، والعجمة ﴿مَلِكًا﴾ حال ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: كيف؟ ومن أين؟ وهو إنكارٌ لتملكه عليهم، واستبعاد له ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ الواو للحال ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أي: كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك؛ لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير، ولا بُدَّ للملك من مال يعتضد به. وإنما قالوا ذلك لأن النبوة كانت في سبط لاوي بن يعقوب عليه السلام، والملك في سبط يهوذا، وهو كان من سبط بنيامين، وكان رجلاً سقاء، أو دباغاً فقيراً. وروي أن نبيهم دعا الله حين طلبوا منه مَلِكًا فأتى بعضا يُقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ الطاء في اصطفاه بدل من التاء لمكان الصاد الساكنة، أي: اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، ولا اعتراض على حكمه. ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال وهما: العلم المبسوط، والجسامة، فقال: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ مفعول ثان ﴿فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ قالوا: كان أعلم بني إسرائيل بالحرب والديانات في وقته، وأطول من كلِّ إنسان برأسه ومنكبه. والبسطة: السعة والامتداد. والملك لا بُدَّ أن يكون من أهل العلم، فإنَّ الجاهل ذليلٌ مُزْدَرَى، غير منتفع به، وأن يكون جسيماً؛ لأنه أعظم في النفوس، وأهيئ في القلوب ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن

يَسْأَلُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْكُمْ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي

يَسْأَلُ ﴿٢٤٧﴾ أي: الملك له غير منازع فيه، وهو يؤتاه من يشاء إيتاءه، وليس ذلك بالوراثه ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي: واسع الفضل والعطاء، يوسع على من ليس له سعة من المال، ويغنيه بعد الفقر ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بمن يصطفيه للملك. فثمة طلبوا من نبيهم آية على اصطفاء الله طالوت.

٢٤٨ - ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أي: صندوق التوراة. وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه، فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل، ولا يفرون ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سكون، وطمأنينة ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ هي رُضاض^(١) الألواح، وعصا موسى، وثيابه، وشيء من التوراة، ونعلا موسى، وعمامة هارون عليهما السلام ﴿وَمِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ أي: مما تركه موسى وهارون، والآل مقحم لتفخيم شأنهما ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: التابوت. وكان رفعه الله بعد موسى، فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه. والجملة في موضع الحال. وكذا ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾. و﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ نعت لسكينة و﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ نعت لبقية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ إن كنتم مؤمنين ﴿إِنَّ فِي رجوع التابوت إليكم علامة أن الله قد ملك طالوت عليكم إن كنتم مُّصَدِّقِينَ﴾.

٢٤٩ - ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾ خرج ﴿بِالْجُنُودِ﴾ عن بلده إلى جهاد العدو. و«بالجنود» في موضع الحال، أي: مختلطاً بالجنود، وهم ثمانون ألفاً. وكان الوقت قيظاً، وسألوا أن يجري الله لهم نهراً ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ مختبركم، أي: يعاملكم معاملة المختبر ﴿بِنَهَرٍ﴾ وهو نهر فلسطين، ليميز المحق في الجهاد من المعذر ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ كرعاً ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فليس من أتباعي

(١) الرُّضاض: الفتات والدُّفاق.

وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ
 فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ
 وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ
 غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يُؤْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ
 وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى
 الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يُؤْذِنُ

وأشياعي ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ ومن لم يذقه، من: طعم الشيء: إذ ذاقه ﴿فَإِنَّهُ
 مِنِّي﴾ وبفتح الياء، مدني وأبو عمرو. واستثنى ﴿إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ﴾ من قوله
 ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾. والجملة الثانية في حكم المتأخرة عن الاستثناء،
 إلا أنها قدّمت للعناية ﴿غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ غرفة، حجازي وأبو عمرو: بمعنى
 المصدر. وبالضم بمعنى المغروف. ومعناه: الرخصة في اغتراف الغرفة باليد
 دون الكرع. والدليل عليه: ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ﴾ أي: فكرعوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾
 وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: النهر ﴿هُوَ﴾ طالوت
 ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: القليل ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾ أي: لا قوة لنا
 ﴿بِجَالُوتَ﴾ هو جبار من العمالقة. من أولاد عمليق بن عاد، وكان في بيضته
 ثلاثمائة رطل من الحديد! ﴿وَجُنُودُهُ﴾ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ
 يوقنون بالشهادة. قيل: الضمير في ﴿قَالُوا﴾ للكثير الذين انخدلوا. والذين
 يظنون ﴿هم القليل الذين ثبتوا معه. ورؤي: أنَّ الغرفة كانت تكفي الرجل
 لشربه وإداوته. والذين شربوا منه اسودّت شفاههم، وغلبهم العطش ﴿كَم
 مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ كم خبرية، وموضعها رفع بالابتداء ﴿غَلَبَتْ﴾ خبرها ﴿فِتْنَةُ
 كَثِيرَةٍ يُؤْذِنُ اللَّهُ﴾ بنصره ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر.

٢٥٠ - ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ خرجوا لقتالهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا
 أَفْرِغْ﴾ اصعب. ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ على القتال ﴿وَثَبَّتْ أقدامنا﴾ بتقوية قلوبنا،
 وإلقاء الرعب في صدور عدونا ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أعنا عليهم.

٢٥١ - ﴿فَهَزَمُوهُمْ﴾ أي: طالوت والمؤمنون جالوت وجنوده ﴿يُؤْذِنُ

اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِنْ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَكْمُورِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

اللَّهُ ﴿بِقضائه﴾ ﴿وَقَتَلَ دَاوُدَ جَالُوتَ﴾ كان إيشى أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بنيهِ، وكان داود سابعهم، وهو صغير، يرعى الغنم، فأوحى الله إلى نبيه: أن داود هو الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه فجاء، وقد مر في طريقه بثلاثة أحجار، دعاه كل واحد منها أن يحمله، وقالت له: إنك تقتل بنا جالوت، فحملها في مغلته، ورمى بها جالوت فقتله، وزوجه طالوت بنته، ثم حسده، وأراد قتله، ثم مات تائباً ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ في مشارق الأرض المقدسة ومغاربها، وما اجتمعت بنو إسرائيل على ملك قط قبل داود ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ والنبوة ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من صنعة الدروع، وكلام الطيور، وغير ذلك ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ هو مفعول به ﴿بَعْضُهُمْ﴾ بدل من الناس. (دِفَاعُ): مدني، مصدر: دفع، أو دافع ﴿يَبْغِضُ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: ولولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس ببعض، ويكف بهم فسادهم، لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها من الحرث والنسل. أو: ولولا أن الله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بغلبة الكفار، وقتل الأبرار، وتخريب البلاد، وتعذيب العباد ﴿وَلَئِنْ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَكْمُورِينَ﴾ بإزالة الفساد عنهم، وهو دليل على المعتزلة في مسألة الأصلح.

٢٥٢ - ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني: القصص التي اقتضتها من حديث الألوف، وإماتتهم، وإحيائهم، وتمليك طالوت، وإظهاره على الجبارة على يد صبي ﴿تَتْلُوهَا﴾ حال من ﴿آيات الله﴾ والعامل فيه معنى الإشارة، أو ﴿آيات الله﴾ بدل من ﴿تلك﴾ و﴿تتلوها﴾ الخبر ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب؛ لأنه في كتبهم كذلك ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب، أو سماع من أهله.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا﴾

٢٥٣ - ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في هذه السورة من آدم إلى داود، أو التي ثبت علمها عند رسول الله ﷺ. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بالخصائص وراء الرسالة لاستوائهم فيها كالمؤمنين، يستوون في صفة الإيمان، ويتفاوتون في الطاعات بعد الإيمان. ثم بين ذلك بقوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي: كلمه الله، حذف العائد من الصلة، يعني: منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير، وهو موسى عليه السلام. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ مفعول أول. ﴿دَرَجَاتٍ﴾ مفعول ثان، أي: بدرجات، أو: إلى درجات. يعني: ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة. وهو محمد ﷺ؛ لأنه هو المفضل عليهم بإرساله إلى الكافة، وبأنه أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف أو أكثر، وأكبرها القرآن؛ لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر. وفي هذا الإبهام تفخيم وبيان أنه العلم الذي لا يشبهه على أحد، والمتميز الذي لا يلتبس. وقيل: أريد به محمد وإبراهيم وغيرهما من أولي العزم من الرسل. ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قويناه بجبريل، أو بالإنجيل. ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا﴾ أي: ما اختلف لأنه سببه. ﴿الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرسل. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ المعجزات الظاهرات. ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ بمشيتي. ثم بين الاختلاف فقال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ بمشيتي. يقول الله: أجريت أمور رسلي على هذا، أي: لم يجتمع لأحد منهم طاعة جميع أمته في حياته، ولا بعد وفاته، بل اختلفوا عليه ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾. ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا﴾ كثره للتأكيد. أي: لو شئت ألا يقتلوا لم يقتلوا، إذ لا يجري في ملكي إلا ما يوافق مشيتي. وهذا يبطل قول المعتزلة؛ لأنه أخبر أنه لو شاء ألا يقتلوا لم يقتلوا،

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَنْ ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُٗٓ إِلَّا بِإِذْنِهِٗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

وهم يقولون: شاء ألا يقتلوا فافتلوا. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أثبت الإرادة لنفسه، كما هو مذهب أهل السنة.

٢٥٤ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ في الجهاد في سبيل الله، أو هو عام في كل صدقة واجبة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يوم لا تقدرُونَ فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق؛ لأنه لا بيع فيه حتى تبتاعوا ما تنفقونه ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ حتى يسامحكم أخلاؤكم به ﴿وَلَا شَفِيعَةٌ﴾ أي: للكافرين، فأما المؤمنون فلهم شفاعة. أو: إلا بإذنه ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أنفسهم بترك التقديم ليوم حاجتهم. أو: الكافرون بهذا اليوم هم الظالمون. ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ﴾: مكى، وبصري.

٢٥٥ - ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مع اسمه، وخبره، وما أبدل من موضعه: في موضع الرفع خبر المبتدأ، وهو الله ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الباقي الذي لا سبيلَ عليه للفناء ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق، وحفظه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ﴾ نعاس، وهو: ما يتقدم النوم من الفتور ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ عن المفضل: السَّنة: ثقل في الرأس، والنعاس: في العين، والنوم: في القلب. وهو تأكيد للقيوم؛ لأنَّ من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قَيُّومًا. وقد أوحى إلى موسى عليه السلام: قل لهؤلاء إني أمسك السموات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس لزالتا^(١) ﴿لَهُمَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَمِلْكًا ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُٗٓ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ليس لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه. وهو بيان للمكوتة وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام. وفيه ردُّ لزعم الكفار أن الأصنام تشفع لهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما كان قبلهم وما يكون

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٦٦٦٩)، وانظر: مجمع الزوائد (٨٣/١).

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

بعدهم. والضمير لما في السموات والأرض؛ لأن فيهم العقلاء ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ من معلومه، يقال في الدعاء: اللهم اغفر علمك فينا، أي: معلومك ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ إلا بما علم ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: علمه. ومنه: الكراسية لتضمنها العلم. والكراسي: العلماء. وسمى العلم كرسيًا تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم. وهو كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. أو ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك. أو عرشه، كذا عن الحسن. أو هو سرير دون العرش. في الحديث: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بفلاة. وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»^(١)، أو قدرته، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ ولا يثقله، ولا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ حفظ السموات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ في ملكه وسلطانه ﴿الْعَظِيمُ﴾ في عزه وجلاله. أو ﴿الْعَلِيُّ﴾: المتعالي عن الصفات التي لا تليق به، ﴿العظيم﴾: المتصف بالصفات التي تليق به، فهما جامعان لكمال التوحيد. وإنما ترتبت الجملة في آية الكرسي بلا حرف عطف؛ لأنها وردت على سبيل البيان. فالأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق، وكونه مهيمناً عليه غير ساه عنه. والثانية: لكونه مالكا لما يدبره. والثالثة: لكبرياء شأنه. والرابعة: لإحاطته بأحوال الخلق. والخامسة: لسعة علمه، وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله، وعظم قدره. وإنما فضلت هذه الآية حتى وردَ في فضلها ما ورد، منه ما روي عن علي - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمّنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله»^(٢). وقال ﷺ: «سيد البشر آدم وسيد

(١) رواه ابن مردويه، كما في تفسير ابن كثير (٤٥٨/١).

(٢) رواه البيهقي كما في حاشية الكشاف (٣٠٣/١).

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ

العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال الطور، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي^(١). وقال: «ما قرئت هذه الآية في دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة»^(٢). وقال: «من قرأ آية الكرسي عند منامه بعث إليه ملك يحرسه حتى يصبح»^(٣). وقال: «من قرأ هاتين الآيتين حتى يمسي حفظ بهما حتى يصبح، وإن قرأهما حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي: آية الكرسي وأول حم المؤمن إلى ﴿إليه المصير﴾»^(٤) لاشتمالها على توحيد الله تعالى، وتعظيمه، وتمجيده، وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار. وبه يعلم أن أشرف العلوم علم التوحيد.

٢٥٦- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي: لا إجبار على الدين الحق، وهو دين الإسلام. وقيل: هو إخبار في معنى النهي. وروي أنه كان لأنصاري ابنان فتنصرا، فلزمهما أبوهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا، فاختصما إلى رسول الله ﷺ فقال الأنصاري: يا رسول الله! أيدخل بعضي في النار وأنا أنظر؟! فنزلت. فخلاهما^(٥). قال ابن مسعود وجماعة: كان هذا في الابتداء، ثم نسخ بالأمر بالقتال ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ بالشیطان، أو الأصنام ﴿وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ

(١) رواه الدليمي في مسند الفردوس (٣٤٧١).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (الكشاف ٣٠٢/١).

(٣) رواه ابن الضريس عن قتادة، كما في الدر المنثور (١٥/٢).

(٤) رواه الترمذي (٢٨٧٩).

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٥٢).

أَسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ أَهْمُ الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمَيِّتُ

أَسْتَمْسَكَ ﴿ تمسك ﴾ بِالْعُرْوَةِ ﴿ أي: المتعصم، والمتعلق ﴾ الْوُثْقَى ﴿ تأنيث الأوثق، أي: الأشد من الحبل الوثيق، المحكم، المأمون ﴾ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴿ لا انقطاع للعروة. وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال، بالمشاهد المحسوس، حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده. والمعنى: فقد عقد لنفسه من الدين عقداً وثيقاً لا تحله شبهة ﴾ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴿ لإقراره ﴾ عَلِيمٌ ﴿ باعتقاده.

٢٥٧ - ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أرادوا أن يؤمنوا، أي: ناصرهم، ومتولّي أمورهم ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ من ظلمات الكفر والضلالة. وجمعت لاختلافها ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ إلى الإيمان والهداية. ووحد لاتحاد الإيمان ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مبتدأ. والجملة، وهي ﴿ أُولَٰئِكَ أَهْمُ الظُّلُمَاتِ ﴾ خبره ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ وجمع؛ لأن الطاغوت في معنى الجمع، يعني: والذين صمّموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك. أو: الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشبهة في الدين إن وقعت لهم بما يهديهم، ويوفقهم له من حلّها، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين. والذين كفروا أولياؤهم الشياطين، يخرجونهم من نور البينات؛ الذي يظهر لهم، إلى ظلمات الشكّ والشبهة ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

٢٥٨ - ثُمَّ عَجَّبَ نَبِيهِ ﷺ، وَسَلَّاهُ بِمَجَادَلَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام نَمْرُودَ الَّذِي كَانَ يَدْعِي الرِّبُوبِيَّةَ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ في معارضته رِبُوبِيَّةَ رَبِّهِ. والهاء في «رَبِّهِ» يرجع إلى إِبْرَاهِيمَ، أو إلى الذي حَاجَّ، فهو رَبُّهُمَا ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ لأن آتاه الله: يعني: أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر، فحاجّ لذلك. وهو دليل على المعتزلة في الأصلح، أو: حاجّ وقت أن آتاه الله الملك ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ نصب بجاجّ، أو بدل من أن آتاه إذا جعل بمعنى: الوقت ﴿ إِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ ﴾ رَبِّي، حمزة ﴿ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمَيِّتُ ﴾ كأنه قال له: من ربك؟ قال:

قَالَ أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ

ربي الذي يحيي ويميت ﴿قَالَ﴾ نمرود: ﴿أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ﴾ يريد: أعفو عن القتل، وأقتل. فانقطع اللعين بهذا عند المخاصمة، فزاد إبراهيم عليه السلام ما لا يتأتى فيه التلبس على الضعفة، حيث ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ عليه السلام ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴿وهذا ليس بانتقال من حجة إلى حجة كما زعم البعض لأن الحجة الأولى كانت لازمة، ولكن لما عاند اللعين حجة الإحياء بتخلية واحد وقتل آخر، كلمه من وجه لا يعاند. وكانوا أهل تنجيم. وحركة الكواكب من المغرب إلى المشرق معلومة لهم. والحركة الشرقية المحسوسة لنا قسرية كتحرريك الماء النمل على الرحي إلى غير جهة حركة النمل، فقال: إن ربي يحرك الشمس قسراً على غير حركتها، فإن كنت رباً فحركها بحركتها، فهو أهون ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ تحيّر، ودهش ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم. وقالوا: وإنما لم يقل نمرود: فليأت ربك بالشمس من المغرب لأن الله تعالى صرفه عنه. وقيل: إنه كان يدعي الربوبية لنفسه، وما كان يعترف بالربوبية لغيره. ومعنى قوله: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أن الذي ينسب إليه الإحياء والإماتة أنا لا غيري. والآية تدلُّ على إباحة التكلم في علم الكلام والمناظرة فيه؛ لأنه قال: ﴿ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه﴾ والمحااجة تكون بين اثنين، فدلَّ على أن إبراهيم حاجه أيضاً. ولو لم يكن مباحاً لما باشرها إبراهيم عليه السلام؛ لكون الأنبياء عليهم السلام معصومين عن ارتكاب الحرام. ولأننا أمرنا بدعاء الكفرة إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإذا دعوناهم إلى ذلك لا بدُّ أن يطلبوا منا الدليل على ذلك، وذا لا يكون إلا بعد المناظرة، كذا في «شرح التأويلات».

٢٥٩- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ﴾ معناه: أو أرايت مثل الذي، فحذف لدلالة «ألم تر» عليه؛ لأن كلتيهما كلمة تعجيب. أو: هو محمول على المعنى دون اللفظ، تقديره: أرايت كالذي حاجَّ إبراهيم، أو: كالذي مرَّ. وقال صاحب

عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْلَمُ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ
عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ
فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ

«الكشاف»^(١): فيه الكاف زائدة، والذي عطف على قوله: ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ﴾
عن الحسن: إن المارَّ كان كافراً بالبعث لا انتظامه مع نمرود في سلك، ولكلمة
الاستبعاد التي هي: ﴿أَنَّى يُجِيبُ﴾. والأكثر أنه عزيز، أراد أن يعاين إحياء
الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم عليه السلام. و﴿أَنَّى يُجِيبُ﴾ اعتراف
بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء واستعظام لقدرة المحيي ﴿عَلَى قَرْيَةٍ﴾ هي بيت
المقدس حين خَرَّبَهُ بختنصر. أو: هي التي خرج منها الألوف ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى
عُرُوشِهَا﴾ ساقطة مع سقوفها، أو: سقطت السقوف ثم سقطت عليها الحيطان،
وكل مرتفع عرش ﴿قَالَ أَنَّى يُعْلَمُ﴾ أي: كيف ﴿هَذِهِ﴾ أي: أهل هذه ﴿اللَّهُ بَعْدَ
مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أي: أحياه ﴿قَالَ﴾ له مَلَكٌ ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ
لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناء على الظن. وفيه دليلٌ جواز الاجتهاد. روي أنه
مات ضحى، وبعث بعد مئة سنة قبل غيبوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى
الشمس: ﴿يَوْمًا﴾ ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾
﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ روي: أن طعامه كان تيناً
وعنباً، وشرابه عصيراً ولبناً، فوجد التين والعنب كما جنيا، والشراب على حاله
﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير والهاء أصلية أو هاء سكت. واشتقاقه من السنة على
الوجهين؛ لأن لامها هاء؛ لأن الأصل سنهه، والفعل سانهت فلاناً، أي:
عاملته سنة. أو: واو، لأن الأصل سنوة، والفعل سانيت. ومعناه: لم تغيره
السنون. لم يتسن بحذف الهاء في الوصل، وبإثباتها في الوقف، حمزة وعلي
﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه، ونخرت. وكان له حمار قد ربطه
فمات، وبقيت عظامه. أو: ﴿وانظر﴾ إليه سالماً في مكانه كما ربطته، وذلك
من أعظم الآيات أن يُعَيِّشَهُ مئة عام من غير علف ولا ماء، كما حفظ طعامه

(١) انظر الكشاف؛ للزمخشري (١/٣٨٩) طبعة دار المعرفة - بيروت.

وَلَنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ
نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ
قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ

وشرا به من التغير ﴿وَلَنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾ فعلنا ذلك. يريد إحياءه بعد الموت، وحفظ ما معه. وقيل: الواو عطف على محذوف، أي: لتعتبر ولنجعلك. قيل: أتى قومه راكباً حماراً، وقال: أنا عزيز، فكذبوه، فقال: هاتوا التوراة، فأخذ يقرؤها عن ظهر قلبه، ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزيز، فذلك كونه آية. وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أي: عظام الحمار، أو عظام الموتى الذين تعجب من إحيائهم. ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نحركها، ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب. نُشْرِهَا بالراء، حجازي وبصري، نحييها ﴿ثُمَّ نَكْسُوها﴾ أي: العظام ﴿لَحْمًا﴾ جعل اللحم كاللباس مجازاً ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ فاعله مضمّر تقديره: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أن الله على كل شيء قدير ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، كقولهم: ضربني، وضربت زيداً. ويجوز ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ ما أشكل عليه، يعني: أمر إحياء الموتى. قال: (اعلم) على لفظ الأمر، حمزة وعلي، أي: ﴿قال﴾ الله له: ﴿اعلم﴾ أو: هو خاطب نفسه.

٢٦٠- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي﴾ بصّرني ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ موضع ﴿كيف﴾ نصب بتحيي ﴿قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وإنما قال له: ﴿أولم تؤمن﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً؛ ليجيب بما أجاب به؛ لما فيه من الفائدة الجلية للسامعين و﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفي. معناه ﴿بلى﴾ آمنت، ولكن لأزيد سكوناً وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال. وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب، وأزيد للبصيرة. فعلم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف الضروري. واللام تتعلق بمحذوف، تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ طاووساً، وديكاً، وغراباً، وحمامة

فَصْرَهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ
 أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢١٦﴾ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ

﴿فَصْرَهُنَّ إِلَيْكَ﴾ وبكسر الصاد^(١)، حمزة، أي: أملهن، واضمهن إليك ﴿ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ثم جزئهن، وفزق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك وفي أرضك، وكانت أربعة أجبل، أو سبعة. (جُزْءًا) بضمين وهمز، أبو بكر ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ قال لهن: تعالين يا ذن الله ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: ساعيات مسرعات في طيرانهن، أو: في مشيهن على أرجلهن. وإنما أمره بضمها إلى نفسه بعد أخذها ليتأملها، ويعرف أشكالها وهيئاتها، وحلأها؛ لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء، ولا يتوهم أنها غير تلك. ورؤي: أنه أمر بأن يذبحها، ويتف ريشها، ويقطعها، ويفزق أجزاءها، ويخلط ريشها ودماءها ولحومها، وأن يمسك رؤوسها، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال، على كل جبل ربعاً من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين يا ذن الله تعالى. فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثاً، ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن، كل جثة إلى رأسها ﴿وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يمتنع عليه ما يريدہ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يدبر لا يفعل إلا مافيه الحكمة.

٢٦١ - ولما برهن على قدرته على الإحياء، حثَّ على الإنفاق في سبيل الله، وأعلم أن من أنفق في سبيله فله في نفقته أجر عظيم، وهو قادر عليه، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لابد من حذف مضاف، أي: مثل نفقتهم، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ المنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء. ومعنى إنباتها سبع سنابل: أن تخرج ساقاً يتشعب منه سبع شعب، لكل واحد سنبله. وهذا التمثيل تصويرٌ للأضعاف، كأنها ماثلة بين عيني الناظر. والمثل به موجود في الدخن والذرة، وربما

(١) أي: (فَصْرَهُنَّ).

وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٌ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾

فرخت ساق البرّة في الأرض القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ. على أنّ التمثيل يصحّ وإن لم يوجد على سبيل الفرض والتقدير. ووضع سنابل موضع سنبلات كوضع قروء موضع أقرأء ﴿وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، لتفاوت أحوال المنفقين. أو يزيد على سبعة لمن يشاء. يُضَاعَفُ، شامي. (يضعفُ)، مكّي ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ واسع الفضل والجلود ﴿عَلِيمٌ﴾ بنّات المنفقين.

٢٦٢- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا﴾ هو أن يعتدّ على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأوجب عليه حقاً له. وكانوا يقولون: إذا صنعت صنعة فانسوها ﴿وَلَا أَدَى﴾ هو أن يتناول عليه بسبب ما أعطاه. ومعنى «ثم» إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثواب إنفاقهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من بخس الأجر ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوته. أو: لا خوف من العذاب، ولا حزن بفوت الثواب. وإنما قال هنا ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وفيما بعد ﴿فلهم أجرهم﴾ لأن الموصول هنا لم يضمن معنى الشرط، وضمنه ثمة.

٢٦٣- ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ ردّ جميل ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول. أو: ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٌ﴾ وصحّ الإخبار عن المبتدأ النكرة لاختصاصه بالصفة ﴿وَاللَّهُ غَفِيرٌ﴾ لاحتاجه له إلى منفق يمن ويؤذي ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معاجلته بالعقوبة. وهذا وعيد له. ثم أكّد ذلك بقوله:

يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أَكْثُلُهَا

٢٦٤- ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي﴾ الكاف نصب صفة مصدر محذوف، والتقدير: إبطالاً مثل إبطال الذي ﴿يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لا تبطلوا ثواب صدقاتكم بالمن والأذى كإبطال المنافق الذي ينفق ماله رياء الناس، ولا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثواب الآخرة. ورياء: مفعول له ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ مثله ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بحجر أملس عليه تراب ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ لا يجيدون ثواب شيء مما أنفقوا. أو الكاف في محل نصب على الحال؛ أي: لا تبطلوا صدقاتكم بمائلين الذي ينفق. وإنما قال ﴿لا يقدرُونَ﴾ بعد قوله ﴿كالذي ينفق﴾ لأنه أراد بالذي ينفق الجنس، أو: الفريق الذي ينفق ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ما داموا مختارين الكفر.

٢٦٥- ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وتصديقاً للإسلام، وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم؛ لأنه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله، عُلِمَ أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه، ومن إخلاص قلبه. ومن: لابتداء الغاية. وهو معطوف على المفعول له، أي: للابتغاء والتثبيت. والمعنى: ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ بستان ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ مكان مرتفع. وخصها لأن الشجر فيها أزكى، وأحسن ثمراً. (بِرَبْوَةٍ)^(١): عاصم، وشامي ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أَكْثُلُهَا﴾

(١) أي: بفتح الراء، وقرأ الباقون (بِرَبْوَةٍ) بضم الراء.

ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيُّودُ أَحَدَكُمُ
 أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ
 الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ
 كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

ثمرتها. (أكلها): نافع، ومكي، وأبو عمرو ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثلي ما كانت ثمر
 قبل بسبب الوابل ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فمطر صغير القطر يكفيها لكرم
 منبتها. أو: مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة
 بالوابل والطل. وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة، فكذلك
 نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها رضا الله تعالى زاكية عند الله زائدة
 في زلفاهم، وحسن حالهم عنده ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم على
 إكثار وإقلال، ويعلم نيאתكم فيهما من رياء وإخلاص.

٢٦٦- الهمزة في: ﴿أَيُّودُ أَحَدَكُمُ﴾ للإنكار ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ بستان
 ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لصاحب البستان ﴿فِيهَا﴾ في الجنة
 ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يريد بالثمرات: المنافع التي كانت تحصل له فيها. أو: أن
 النخيل والأعنب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصهما بالذكر، وجعل
 الجنة منهما - وإن كانت محتوية على سائر الأشجار - تغليبا لهما على غيرهما، ثم
 أردفهما ذكر كل الثمرات ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ للحال، ومعناه: أن تكون له جنة
 وقد أصابه الكبر. والواو في: ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ أولاد صغار للحال أيضاً،
 والجملة في موضع الحال من الهاء في أصابه ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ ريح تستدير في
 الأرض، ثم تسطع نحو السماء كالعمود ﴿فِيهِ﴾ في الإعصار. وارتفع ﴿نَارٌ﴾
 بالظرف، إذ جرى الظرف وصفاً لإعصار ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ الجنة. وهذا مثل لمن
 يعمل الأعمال الحسنة رياء، فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسر عند
 ذلك حسرة من كانت له جنة جامعة للثمار، فبلغ الكبر، وله أولاد ضعاف،
 والجنة معاشهم، فهلك بالصاعقة ﴿كَذَلِكَ﴾ كهذا البيان الذي بين فيما
 تقدم ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ في التوحيد والدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾
 فتتبهوا.

يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم
مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو

٢٦٧- ﴿يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من جياذ
مكسوباتكم. وفيه دليل وجوب الزكاة في أموال التجارة ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ
الْأَرْضِ﴾ من الحب، والتمر، والمعادن، وغيرها. والتقدير: ومن طيبات
ما أخرجنا لكم، إلا أنه حذف لذكر الطيبات ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ ولا تقصدوا
المال الرديء ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ تحصونه بالإنفاق. وهو في محل الحال، أي:
ولا تيمموا الخبيث منفقين، أي: مقدرين النفقة ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ وحالكم أنكم
لا تأخذونه في حقوقكم ﴿إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ إلا بأن تتساحوا في أخذه،
وترخصوا فيه. من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه: إذا غص بصره.
ويقال للبائع: أغمض، أي: لا تستقص كأنك لا تبصر. وعن ابن عباس
- رضي الله عنهما -: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره، فنهوا عنه
﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ عن صدقاتكم ﴿حَكِيمٌ﴾ مستحق للحمد، أو: محمود.

٢٦٨- ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ﴾ في الإنفاق ﴿الْفَقْرَ﴾ ويقول لكم: إن عاقبة
إنفاقكم أن تفتقروا. والوعد يُستعمل في الخير والشر ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾
ويعفركم على البخل، ومنع الصدقات، إغراء الأمر للمأمر. والفاحش عند
العرب: البخل ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمُ﴾ في الإنفاق ﴿مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ لذنوبكم، وكفارة لها
﴿وَفَضْلًا﴾ وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم. أو: وثواباً عليه في الآخرة
﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ يوسع على من يشاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، ونياتكم.

٢٦٩- ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ علم القرآن والسنة. أو: العلم النافع
الموصل إلى رضا الله، والعمل به. والحكيم عند الله هو: العالم العامل ﴿وَمَن
يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ ﴿وَمَن يُؤْتَ﴾ يعقوب. أي: ومن يؤته الله الحكمة ﴿فَقَدْ أُوتِيَ
خَيْرًا﴾ تنكير تعظيم، أي: أوتي خيراً، أي: خير كثير ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو

الْأَلْبَبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقْتُمْ فَنِعْمَ هِيَ وَلَئِنْ تَخَفَوْهَا وَتَوَتَّوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

الْأَلْبَبِ ﴿٢٦٩﴾ وما يتَّعَظُ بمواعظ الله إلا ذوو العقول السليمة، أو العلماء: العمال. والمراد به: الحث على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق.

٢٧٠- ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ في طاعة الله، أو: في معصيته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ لا يخفى عليه، وهو مجازيكم عليه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقات، أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو يندرون في المعاصي، أو لا يفون بالنذور ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ممن ينصرهم من الله، ويمنعهم من عقابه.

٢٧١- ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقْتُمْ فَنِعْمَ هِيَ﴾ فنعم شيئاً إبداءها. وما نكرة غير موصولة ولا موصوفة، والمخصوص بالمدح هي. ﴿فَنِعْمَ هِيَ﴾ بكسر النون وإسكان العين، أبو عمرو، ومدني غير ورش. ويفتح النون وكسر العين، شامي، وحزة، وعليّ. وبكسر النون والعين، غيرهم ﴿وَلَئِنْ تَخَفَوْهَا وَتَوَتَّوْهَا الْفُقَرَاءُ﴾ وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم. قالوا: المراد: صدقات التطوع. والجهري في الفرائض أفضل لنفي التهمة، حتى إذا كان المزكي ممن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل. والمتطوع إن أراد أن يقتدى به كان إظهاره أفضل ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ بالنون وجزم الراء^(١)، مدني، وحزة، وعليّ. وبالياء ورفع الراء، شامي، وحفص. وبالنون والرفع، غيرهم. فَمَنْ جَزَمَ فَقَدْ عَطَفَ عَلَى مَحَلِّ الْفَاءِ وما بعده لأنه جواب الشرط. ومن رفع فعلى الاستئناف. والياء على معنى: يكفر الله ﴿عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ والنون على معنى: نحن نكفر ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإبداء والإخفاء ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم.

(١) أي: (وَيُكَفِّرُ).

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٢) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ

٢٧٢- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المن، والأذى، والإنفاق من الخبيث، وغير ذلك، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي فحسب ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أو: ليس عليك التوفيق على الهدى، أو خلق الهدى، وإنما ذلك إلى الله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من مال ﴿فَلَا تُنْفِسُكُمْ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم، فلا تمنوا به على الناس، ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ وليست نفقتكم إلا ابتغاء وجه الله، أي: رضا الله ولطلب ما عنده، فما بالكم تمنون بها، وتنفقون الخبيث الذي لا يوجه مثله إلى الله؟ أو: هذا نفي معناه النهي، أي: ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه، وأن يكون على أحسن الوجوه، وأجلها ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ولا تنقصون، كقوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْنَاهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص.

٢٧٣- الجار في: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلق بمحذوف، أي: اعمدوا للفقراء. أو: هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه الصدقات للفقراء ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم الذين أحصرهم الجهاد، فمنعهم من التصرف ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به ﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ للكسب. وقيل: هم أصحاب الصفة، وهم نحو من أربعمئة رجل من مهاجري قريش، لم تكن لهم مساكن في المدينة، ولا عشائر، فكانوا في صفة المسجد، وهي سقيفته^(١)، يتعلمون القرآن بالليل، ويرضخون النوى^(٢) بالنهار، وكانوا يخرجون في كل

(١) «الصُّفَّة»: الطَّلَّة؛ أي: الموضع المظلل، والسقيفة: العريش يُسْتَقَلُّ به.

(٢) «يرضخون النوى»: يكسرونه ويدقونه.

يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ
النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

سرية بعثها رسول الله ﷺ، فمن كان عنده فضل أتاهاهم به إذا أمسى ﴿يَحْسَبُهُمُ
الْجَاهِلُ﴾ بحالهم. يحسبهم وبابه: شامي، ويزيد، وحمة، وعاصم،
غير الأعشى، وهبيرة. والباقون بكسر السين ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ﴾ مستغنين
من أجل تعقفهم عن المسألة ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ من صفرة الوجه، وراثته
الحال ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾ إلحاحاً. قيل: هو نفي السؤال والإلحاح
جميعاً، كقوله:

على لاجِبٍ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ (١)

يريد: نفي المنار والاهتداء به. والإلحاح: هو اللزوم، وألا يفارق إلا بشيء
يُعْطَاهُ. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَيَّ الْحَلِيمَ الْمُتَعَقِّفَ، وَيُبْغِضُ الْبَذِيَّ السَّالَّ
الْمُلْحِفَ» (٢). وقيل: معناه أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحوا ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ لا يضيع عنده.

٢٧٤- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً﴾ هما حالان، أي: سرين ومعلنين، يعني: يُعْمَمُونَ الأوقات
والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا
قضاءها، ولم يؤخروه، ولم يتعللوا بوقت ولا حال. وقيل: نزلت في أبي بكر
الصديق - رضي الله عنه - حين تصدَّق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل،
وعشرة بالنهار، وعشرة في السر، وعشرة في العلانية. أو: في علي - رضي الله
عنه - لم يملك إلا أربعة دراهم، تصدَّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً، وبدرهم

(١) صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه: إذا سافه العود النَّبَاطِيُّ جَزَجَرَا.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٣٥/٨).

فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ
يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ
يَأْتِيهِمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلَ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ
رَبِّهِ فَانْتَهَى

سراً، وبدرهم علانية ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴾ .

٢٧٥- ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾ هو فضل مال خال عن العوض في معاوضة
مال بمال. وكتب «الربوا» بالواو على لغة من يفخم، كما كتبت: الصلوة،
والزكاة. وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ إذا بُعِثُوا من
قبورهم ﴿ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي: المصروع، لأنه تحبط في
المعاملة، فجوزي على المقابلة. والخبط: الضرب على غير استواء كخبط
العشواء^(١) ﴿ مِنْ الْمَسِّ ﴾ من الجنون. وهو يتعلق بـ: «لا يقومون» أي:
لا يقومون من المس الذي بهم إلا كما يقوم المصروع. أو بـ: «يقوم» أي: كما
يقوم المصروع من جنونه. والمعنى: أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين
كالمصروعين. تلك سيماهم يُعرفون بها عند أهل الموقف. وقيل: الذين يخرجون
من الأحداث يُوفَضُونَ إلا أكلة الربا، فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين؛
لأنهم أكلوا الربا، فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم، فلا يقدرّون على الإيفاض
﴿ ذَلِكَ ﴾ العقاب ﴿ يَأْتِيهِمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلَ الرِّبَا ﴾ ولم يقل إنما
الربا مثل البيع، مع أن الكلام في الربا لا في البيع، لأنه جيء به على طريقة
المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حلّ الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في
الحل، حتى شبهوا به البيع ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ إنكار لتسويتهم بينهما،
إذ الحل مع الحرمة ضدان، فأنتى يتماثلان؟! ودلالة على أن القياس يهدمه
النص؛ لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ
مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهي عن الربا ﴿ فَانْتَهَى ﴾ فتنع

(١) «العشواء»: الناقة التي لا تبصر ما أمامها، فهي تحبط بيديها كل شيء.

فَلَهُمْ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

النهي، وامتنع ﴿فَلَهُمْ مَا سَلَفَ﴾ فلا يؤاخذ بما مضى منه؛ لأنه أخذ قبل نزول التحريم ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يحكم في شأنه يوم القيامة، وليس من أمره إليكم شيء، فلا تطالبوه به ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى استحلال الربا، عن الزَّجَّاج. أو: إلى الربا مستحلاً ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين؛ لأن من أحل ما حرم الله - عز وجل - فهو كافر؛ فلذا استحق الخلود. وبهذا تبين أنه لا تعلُّق للمعتزلة بهذه الآية في تخليد الفسَّاق.

٢٧٦ - ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ يذهب ببركته، ويهلك المال الذي يدخل فيه ﴿وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ ينميتها، ويزيدها، أي: يزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة، ويبارك فيه. وفي الحديث: «ما نقصت زكاة من مال قط»^(١) ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ عظيم الكفر باستحلال الربا ﴿أَثِيمٍ﴾ متماد في الإثم بأكله.

٢٧٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قيل: المراد به: الذين آمنوا بتحريم الربا.

٢٧٨ - ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا، وبقيت لهم بقايا، فأمرُوا أن يتركوها، ولا يطالبوا بها. رُوي: أنها نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مال، فطالبوهم عند المَحَلِّ^(٢) بالمال والربا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كاملي الإيمان، فإنَّ دليل كماله امتثالُ المأمور به.

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) أي: حلُّ الأجل، كما في أسباب النزول للواحدي (ص ١٢٥).

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا

٢٧٩ - ﴿ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فاعلموا بها. من: أذن بالشيء: إذا علم. يؤيده قراءة الحسن: (فأيقنوا) فأذنوا، حمزة، وأبو بكر، غير ابن غالب، فاعلموا بها غيركم. ولم يقل: بحرب الله ورسوله؛ لأن هذا أبلغ؛ لأن المعنى: فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله. وروي: أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ من الارتباء ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ المديونين بطلب الزيادة عليها ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالنقصان منها.

٢٨٠ - ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ وإن وقع غريم من غرمائكم ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ ذو إفسار ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فالحكم، أو: فالأمر نظرة، أي: إنظار ﴿إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ يسار. ميسرة، نافع، وهما لغتان ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بالتخفيف، عاصم، أي: تتصدقوا برؤوس أموالكم، أو ببعضها على من أعسر من غرمائكم. وبالتشديد غيره. فالتخفيف على حذف إحدى التاءين، والتشديد على الإدغام ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في القيامة. وقيل: أريد بالتصدق: الإنظار، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»^(١) ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم فتعملوا به، جعل من لا يعمل به - وإن علمه - كأنه لا يعلمه.

٢٨١ - ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ ترجعون أبو عمرو. فرجع لازم ومتعد. قيل: هي آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام، وقال: وضعها في رأس المثتين والثمانين من البقرة، وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحدًا وعشرين يومًا، أو أحدًا وثمانين، أو سبعة أيام، أو ثلاث ساعات ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ

﴿كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما كسبت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصان الحسنات وزيادة السيئات.

٢٨٢- ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾ أي^(١): إذا دأب بعضكم بعضاً. يقال: دأبت الرجل: إذا عاملته بدين معطياً أو آخذاً ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مدة معلومة كالخصاد، أو: الدئاس^(٢)، أو: رجوع الحاج. وإنما احتيج إلى ذكر الدين، ولم يقل: إذا تدايتم إلى أجل مسمى؛ ليرجع الضمير إليه في قوله ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكْتُبُوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن. ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال. وإنما أمر بكتابة الدين؛ لأن ذلك أوثق، وآمن من النسيان، وأبعد من الجحود. والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكْتُبُوهُ. والأمر للندب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن المراد به السلم. وقال: لما حرم الله الربا أباح السلم. المضمون إلى أجل معلوم في كتابه، وأنزل فيه أطول آية. وفيه دليل على اشتراط الأجل في السلم ﴿وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ﴾ بين المتداينين ﴿كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ هو متعلق بكاتب صفة له، أي: كاتب مأمون على ما يكتب، يكتب بالاحتياط، لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص. وفيه دليل أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط، حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشرع. وهو أمر للمتداينين بتخير الكاتب، وألا يستكتبوا إلا فقيهاً ديناً حتى يكتب ما هو مُتَّفَقٌ عليه ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يمتنع واحد من الكتاب ﴿أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ مثل ما علمه الله كتابة الوثائق، لا يبدل، ولا يُغَيَّرُ. ﴿وَكَمَا﴾ متعلق بأن يكتب ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة لا يعدل عنها ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ ولا يكن المملّي إلا من وجب عليه

(١) من المطبوع.

(٢) يقال: داس الحب، دياساً ودِياسَةً، درسه.

وَلَيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا

الحق؛ لأنه هو المشهود على ثباته في ذمته، وإقراره به، فيكون ذلك إقراراً على نفسه بلسانه، والإملاء والإملاء لغتان ﴿وَلَيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ وليتق الله الذي عليه الدين ربه فلا يمتنع عن الإملاء، فيكون جحوداً لكل حقه ﴿وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ ولا ينقص من الحق الذي عليه شيئاً في الإملاء، فيكون جحوداً لبعض حقه ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي: مجنوناً؛ لأن السفه خفة في العقل. أو محجوراً عليه لتبذيره وجهله بالتصرف ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ صيباً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ لعمي به، أو خرس، أو جهل باللغة ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ الذي يلي أمره، ويقوم به ﴿بِالْعَدْلِ﴾ بالصدق، والحق ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ واطلبوا أن يشهد لكم شهيدين على الدين ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ من رجال المؤمنين. والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام. وشهادة الكفار بعضهم على بعض مقبولة عندنا ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ فليشهد رجل وامرأتان. وشهادة الرجال مع النساء تُقبل فيما عدا الحدود والقصاص ﴿مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ ممن تعرفون عدالتهم. وفيه دليل على أنَّ غير المرضي شاهد ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ لأجل أن تنسى إحداها الشهادة فتذكرها الأخرى. (إن تفضل إحداها) على الشرط (فتذكر) بالرفع والتشديد، حمزة. كقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥] (فتذكر) بالنصب، مكى وبصري، من الذكر لا من الذكر ﴿وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لأداء الشهادة، أو للتحمل؛ لثلاث تنويع (١) حقوقهم. وسمّاهم شهداء قبل التحمل تنزيلاً لما يشارف منزلة الكائن. فالأول للفرض، والثاني للندب ﴿وَلَا تَسْمَعُوا﴾ ولا تملوا. قال الشاعر (٢):

(١) «تنويع»: تذهب.

(٢) هو زهير بن أبي سلمى.

أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا بَيَّعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ

سَمِعْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامُ
والضمير في: ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ للدين، أو الحق ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ على أي حال كان الحق من صغر أو كبر. وفيه دلالة جواز السَّلَم في الثياب؛ لأن ما يكال أو يوزن لا يقال فيه الصغير والكبير، وإنما يقال في الدرعي. ويجوز أن يكون الضمير للكتاب، وأن يكتبوه مختصراً، أو مشبعاً ﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ لأنه في معنى المصدر، أي: ذلك الكتاب ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل من القسط، وهو: العدل ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ظرف لأقسط. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ وأعون على إقامة الشهادة. وبني أفعال التفضيل - أي: أقسط وأقوم - من أقسط وأقام على مذهب سيبويه ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وأقرب من انتفاء الربب للشاهد والحاكم وصاحب الحق، فإنه قد يقع الشك في المقدار والصفات، وإذا رجعوا إلى المكتوب زال ذلك. وألف أدنى منقلبة من واو؛ لأنه من الدنو ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ عاصم. أي: إلا أن تكون التجارة تجارة. أو: إلا أن تكون المعاملة تجارة حاضرة. غيره: (تجارة) حاضرة على كان التامة. أي: إلا أن تقع تجارة حاضرة. أو: هي ناقصة، والاسم «تجارة حاضرة» والخبر «تُدِيرُونَهَا». ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ظرف لتدِيرُونَهَا، ومعنى إدارتها بينهم: تعاطيها يداً بيد ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ يعني: إلا أن تتابعوا بيعاً ناجزاً يداً بيد، فلا بأس ألا تكتبوها؛ لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا بَيَّعْتُمْ﴾ أمر بالإشهاد على التبائع مطلقاً ناجزاً، أو كالتأ؛ لأنه أحوط، وأبعد من وقوع الاختلاف. أو أريد به «وأشهدوا إذا تباعتم» هذا التبائع يعني: التجارة الحاضرة، على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة. والأمر للندب ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يحتمل البناء للفاعل لقراءة عمر - رضي الله عنه - ولا يُضَارُّ، وللمفعول

وَأَنِ تَقَعْلُوا فَإِنَّهُ فَسَوْفَ يَكْفِيكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ

لقراءة ابن عباس - رضي الله عنهما -: ولا يضارَر. والمعنى: نهي الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف، والزيادة، والنقصان. أو النهي عن الضرر بهما بأن يعجلا عن مهم ويلزأ^(١)، أو: لا يعطى الكاتب حقه من الجعل، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلده ﴿وَأَنِ تَقَعْلُوا﴾ وإن تضاروا ﴿فَإِنَّهُ﴾ فإن الضرارَ ﴿فُسَوْفَ يَكْفِيكُمْ﴾ ماثم ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أوامره ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ شرائع دينه ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يلحقه سهو، ولا قصور.

٢٨٣ - ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المتدانيون ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ﴾ (فرهن): مكى، وأبو عمرو. أي: فالذي يستوثق به رهن. وكلاهما جمع رهن، كسقف وسقف، وبغل وبغال. ورهن في الأصل مصدر سَمِيَ به، ثم كثر تكسير الأسماء. ولما كان السفر مظنة لإعواز الكتب والإشهاد، أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتب والإشهاد، لا أن السفر شرط تجويز الارتهان. وقوله: ﴿مَقْبُوضَةً﴾ يدلُّ على اشتراط القبض، لا كما زعم مالك: أن الرهن يصح بالإيجاب والقبول بدون القبض ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ فإن أمن بعض الدائنين بعض المديونين بحسن ظنه به، فلم يتوثق بالكتابة، والشهود، والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾ دينه. واثمن: افتعل، من الأمن. وهو حثٌّ للمديون على أن يكون عند ظن الدائن، وأمنه منه، واثماته له، وأن يؤدي إليه الحق الذي ائتمنه عليه فلم يرتهن منه. وسَمِيَ الدين أمانة، وهو مضمون، لائتمانه عليه بترك الارتهان منه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في إنكار حقه

(١) «اللزأ»: يقال: هو لزاز خصومة، أي: ملازم لها، قادر عليها.

وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ هذا خطاب للشهود ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ ارتفع قلبه بآثم على الفاعلية، كأنه قيل: فإنه يآثم قلبه، أو: بالابتداء. وآثم: خبره مقدم، والجملة: خبر إن. وإنما أسند إلى القلب، والجملة هي الآثمة، لا القلب وحده؛ لأنَّ كتمان الشهادة أن يضمها في القلب، ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترفاً مكتسباً بالقلب أسند إليه؛ لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ، كما تقول: هذا مما أبصرته عيني، ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي. ولأنَّ القلب رئيسُ الأعضاء، والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله. فكأنه قيل: فقد تمكَّن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان منه. ولأنَّ أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب! وإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب، فقد شهد له بأنه من معازم الذنوب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من كتمان الشهادة وإظهارها ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه.

٢٨٤ - ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ يعني: من سوء ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ يكافئكم، ويجازيكم. ولا تدخل الوسوس وحديث النفس فيما يخفيه الإنسان؛ لأن ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه، والحاصل: أن عزم الكفر كفر، وخطرة الذنوب من غير عزم معفوة، وعزم الذنوب إذا ندم عليه، ورجع عنه، واستغفر منه مغفور. فأما إذا همّ بسيئة، وهو ثابت على ذلك، إلا أنه منع عنه بمانع ليس باختياره، فإنه لا يعاقب على ذلك عقوبة فعله. أي: بالعزم على الزنى لا يعاقب عقوبة الزنى. وهل يعاقب عقوبة عزم الزنى؟ قيل: لا، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله عفا عن أمتي ما حدثت به أنفسها

فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٥﴾ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

ما لم تعمل، أو تتكلم به»^(١). والجمهور على أنَّ الحديث في الخطرة دون العزم، وأن المؤاخذه في العزم ثابتة، وإليه مال الشيخ أبو منصور، وشمس الأئمة الحلواني - رحمهما الله -. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ الآية [النور: ١٩]. وعن عائشة - رضي الله عنها -: ما همَّ العبد بالمعصية من غير عمل؛ يعاقب على ذلك بما يلحقه من الهم والحزن في الدنيا. وفي أكثر التفاسير: أنه لما نزلت هذه الآية جزعت الصحابة - رضي الله عنهم - وقالوا: أنؤاخذ بكل ما حدثت به أنفسنا؟! فنزل قوله: ﴿آمن الرسول﴾ إلى قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ فتعلق ذلك بالكسب دون العزم. وفي بعضها: أنها نسخت هذه الآية. والمحققون على أن النسخ يكون في الأحكام لا في الأخبار ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ برفعهما: شامي، وعاصم، أي: فهو يغفر ويعذب. وبجزمهما: غيرهم عطفاً على جواب الشرط. وبالإدغام: أبو عمرو، وكذا في الإشارة والبشارة. وقال صاحب «الكشاف»: مُدْغِمُ الرَّاءِ فِي اللَّامِ لَاحِنٌ مَخْطِئٌ. لأنَّ الرَّاءَ حَرْفٌ مُكْرَرٌ، فَيَصِيرُ بِمَنْزِلَةِ الْمُضَاعَفِ، وَلَا يَجُوزُ إِدْغَامُ الْمُضَاعَفِ. وراويه عن أبي عمرو مَخْطِئٌ مرتين؛ لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس في العربية^(٢) ما يؤذن بجهل عظيم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المغفرة والتعذيب وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر.

٢٨٥ - ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إن عطف المؤمنين على الرسول كان الضمير الذي التنوين نائب عنه في ﴿كُلٌّ﴾ راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أي: كلهم ﴿ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾، ووقف عليه. وإن كان مبتدأ كان عليه ﴿كل﴾ مبتدأ ثانياً، والتقدير: كل منهم، وآمن: خبر المبتدأ

(١) رواه أحمد (٢/٢٥٥) والبخاري (٢٥٢٨) وأبو داود (٢٢٠٩) والترمذي (١١٨٣) والنسائي (٦/١٥٦ - ١٥٧) وابن ماجه (٢٠٤٤).

(٢) في الكشاف: بالعربية.

لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦٓ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا
لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا

الثاني، والجملة: خبر الأول، وكان الضمير للمؤمنين. ووحد ضمير كل في آمن على معنى: كل واحد منهم آمن. (وكتابه): حمزة، وعلي، يعني: القرآن، أو الجنس ﴿لَا تُفَرِّقْ﴾ أي: يقولون ﴿لَا تفرق﴾ بل تؤمن بالكل ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أحد في معنى الجمع؛ ولذا دخل عليه بين، وهو لا يدخل إلا على اسم يدل على أكثر من واحد، تقول: المال بين القوم، ولا تقول: المال بين زيد ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا﴾ أجبتنا قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أملك ﴿غُفْرَانَكَ﴾ أي: اغفر لنا غفرانك، فهو منصوب بفعل مضمر ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع، وفيه إقرار بالبعث والجزاء. والآية تدل على بطلان الاستثناء في الإيمان، وعلى بقاء الإيمان لمرتكب الكبائر.

٢٨٦ - ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ محكي عنهم، أو مستأنف ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا طاقتها وقدرتها؛ لأن التكليف لا يرد إلا بفعل يقدر عليه المكلف، كذا في «شرح التأويلات». وقال صاحب «الكشاف»: الوسع: ما يسع الإنسان، ولا يضيق عليه، ولا يخرج فيه، أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه، ويتيسر عليه دون مدى غاية الطاقة والمجهود... فقد كان في طاقة الإنسان أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ينفعها ما كسبت من خير، ويضرها ما اكتسبت من شر. وخص الخير بالكسب والشر بالاكْتِسَاب؛ لأن الافتعال للانكماش، والنفس تنكمش في الشر، وتتكلف للخير ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا﴾ تركنا أمراً من أوامرك سهواً ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ودل هذا على جواز المؤاخظة في النسيان والخطأ - خلافاً للمعتزلة - لإمكان التحرز عنهما في الجملة. ولولا جواز المؤاخظة بهما لم يكن للسؤال معنى ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ عبئاً يأصِر حامله، أي: يحبس مكانه لثقله. استعير للتكليف الشاق، من نحو: قتل الأنفس، وقطع

كَمَا حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا
وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

موضع النجاسة من الجلد^(١) والثوب، وغير ذلك ﴿كَمَا حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ كاليهود ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ امح سيئاتنا ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ واستر ذنوبنا. وليس بتكرار، فالأول للكبائر، والثاني للصغائر ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بتثقيل ميزاننا مع إفلاسنا. أو: الأول من المسخ، والثاني من الخسف، والثالث من الغرق ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ سيدنا ونحن عبيدك، أو: ناصرنا، أو: متولي أمورنا ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فمن حق المولى أن ينصر عبده.

في الحديث: «من قرأ ﴿آمن الرسول﴾ إلى آخره في ليلة كفتاه»^(٢). وفيه: «من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأته عن قيام الليل»^(٣). ويجوز أن يقال: قرأت سورة البقرة، أو قرأت البقرة، لما روي عن علي - رضي الله عنه -: خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش. وقال بعضهم: يُكره ذلك، بل يقال: قرأت السورة التي تُذكر فيها البقرة، والله أعلم.

* * *

(١) في هامش المخطوط: المراد: جلد الخف والفرو، لا جلد البدن.

(٢) رواه أحمد (١٢٢/٤) والبخاري (٥٠٠٩) ومسلم (٨٠٧) (٢٥٥).

(٣) رواه ابن عدي من حديث ابن مسعود. وفي إسناده: الوليد بن عباد، وهو مجهول عن أبان بن أبي عياش، وهو متروك. (الكشاف ١/٣٣٣).

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْع - اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَمَّى الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾

٢١ - ﴿الْع - اللَّهُ﴾ حُرِّكَتِ الميم لالتقاء الساكنين، أعني سكونها وسكون لام الله، وفتحت لخطّة الفتحة، ولم تكسر للياء وكسر الميم قبلها، تحامياً عن توالي الكسرات. وليس فتح الميم لسكونها وسكون ياء قبلها، إذ لو كان كذلك لوجب فتحها في «حم» ولا يصحّ أن يقال: إن فتح الميم هو فتحة همزة الله نقلت إلى الميم؛ لأنّ تلك الهمزة همزة وصل تسقط في الدرج، وتسقط معها حركتها، ولو جاز نقل حركتها لجاز إثباتها، وإثباتها غير جائز. وأسكن يزيد والأعشى الميم وقطعاً الألف. والباقون بوصل الألف وفتح الميم. والله مبتدأ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبره. وخبر: (لا) مضمّر، والتقدير: لا إله في الوجود إلا ﴿هو﴾. و﴿هو﴾ في موضع الرفع بدل من موضع لا واسمه ﴿الْعَمَّى الْقَيُّومُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحي، أو بدل من هو. والقيوم: فيعول، من قام، وهو القائم بالقسط والقائم على كل نفس بما كسبت.

٣ - ﴿نَزَلَ﴾ أي: هو نزل. ﴿عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال، أي: نزله حقاً ثابتاً ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما قبله ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ هما اسمان

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾

أعجبيان. وتكلف اشتقاقهما من الوري والنجل، ووزنهما بتفعلة وإفعليل، إنما يصح بعد كونهما عربيين. وإنما قيل: ﴿نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة.

٤ - ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ لقوم موسى وعيسى، أو لجميع الناس ﴿وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ﴾ أي: جنس الكتب؛ لأن الكل يفرق بين الحق والباطل. أو: الزبور. أو: كثر ذكر القرآن بما هو نعت له تفخيماً لشأنه ﴿إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة، وغيرها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ذو عقوبة شديدة، لا يقدر على مثلها منتقم.

٥ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: في العالم. فعبّر عنه بالسماء والأرض. أي: هو مطلع على كفر من كفر، وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه.

٦ - ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من الصور المختلفة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في سلطانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبيره. روي أنه لما قدم وفد بني نجران - وهم ستون راكباً، أميرهم العاقب، وعمدتهم السيد، وأسقفهم وحرهم أبو حارثة - خاصموا في أن عيسى إن لم يكن ولداً لله فمن أبوه؟ فقال ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولداً ولا هو يشبه أباه؟» قالوا: بلى. قال: «ألم تعلموا أن الله تعالى حي لا يموت وعيسى يموت، وأن ربنا قيم على العباد يحفظهم ويرزقهم، وعيسى لا يقدر على ذلك، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وعيسى لا يعلم إلا ما علم، وأنه صور عيسى في الرحم كيف شاء، فحملته أمه ووضعت، وأرضعته، وكان يأكل، ويحدث، وربنا مثزه عن ذلك كله؟» فانقطعوا، فنزل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية^(١).

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (الدر المنثور ١٤٢/٢).

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ

٧ - ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿مِنْهُ﴾ من الكتاب ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أحكمت عبارتها، بأن حُفِظَتْ من الاحتمال والاشتباه ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتاب تحمل التشابهات عليها، وترد إليها ﴿وَأُخَرُ﴾ وآيات أخر ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ مشتبهات محتملات. مثال ذلك: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فلاستواء يكون بمعنى الجلوس، وبمعنى القدرة والاستيلاء، ولا يجوز الأول على الله تعالى بدليل المحكم، وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. أو المحكم: ما أمر الله به في كل كتاب أنزله، نحو قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ...﴾ [الأنعام: ١٥١] الآيات، ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ...﴾ [الإسراء: ٢٣] الآيات. والمتشابه ما وراءه. أو: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً. وما احتمل أوجهاً. أو ما يعلم تأويله، وما لا يعلم تأويله. أو: الناسخ: الذي يعمل به، والمنسوخ: الذي لا يعمل به. وإنما لم يكن كل القرآن محكماً لما في المتشابه من الابتلاء، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتباعهم القرائح في استخراج معانيه، ورده إلى المحكم، من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمّة، ونيل الدرجات عند الله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميل عن الحق، وهم أهل البدع ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم، ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق ﴿مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم، ويضلّوهم ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلب أن يؤوّلوه التأويل الذي يشتهونه. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يبتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ والذين رسخوا، أي: ثبتوا فيه، وتمكنوا، وعضّوا فيه بضرس قاطع. مستأنف عند الجمهور. والوقف عندهم على قوله ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وفسروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه. وهو مبتدأ عندهم، والخبر: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾. وهو ثناء منه تعالى عليهم بالإيمان على

كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾

التسليم، واعتقاد الحقبة بلا تكييف. وفائدة إنزال المتشابه: الإيمان به، واعتقاد حقيّة ما أراد الله به، ومعرفة قصور أفهام البشر عن الوقوف على ما لم يجعل لهم إليه سبيلاً. ويعضده قراءة أبي: (ويقول الراسخون)، وعبد الله (إن تأويله إلا عند الله). ومنهم من لا يقف عليه ويقول بأن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه ﴿ويقولون﴾ كلام مستأنف موضح لحال الراسخين. بمعنى: هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنا به، أي: بالمتشابه أو بالكتاب ﴿كُلٌّ﴾ من متشابهه ومحكمه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ من عند الله الحكيم؛ الذي لا يتناقض كلامه ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتعظ، وأصله: يتذكر ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول، وهو مدح للراسخين بإلقاء الذهن، وحسن التأمل وقيل: يقولون حال من الراسخين.

٨ - ﴿رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا تملها عن الحق بخلق الميل في القلوب ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ للعمل بالمحكم والتسليم للمتشابه ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ من عندك، نعمة بالتوفيق والتثبيت ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ كثير الهبة. والآية من مقول الراسخين. ويحتمل الاستئناف، أي: قولوها. وكذلك التي بعدها وهي:

٩ - ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أي: تجمعهم لحساب يوم، أو لجزاء يوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك في وقوعه ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ الموعد. والمعنى: أن الإلهية تنافي خلف الميعاد، كقولك: إن الجواد لا يخيب سائله. أي: لا يخلف ما وعد المسلمين والكافرين من الثواب والعقاب.

١٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برسول الله ﴿لَن تُغْنِي﴾ تنفع، أو تدفع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ﴾ حطبها.

كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَتَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
 الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّتِي جَاءَتْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ

١١ - ﴿كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الدأب مصدر دأب في العمل : إذا كدح فيه . فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله . والكاف مرفوع المحل ، تقديره : دأب هؤلاء الكفرة في تكذيب الحق كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم . أو منصوب المحل بلن تغني ، أي : لن تغني عنهم ، مثل : ما لم تغن عن أولئك . (كذاب) بلا همز حيث كان ، أبو عمرو ﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ تفسير لدأبهم مما فعلوا أو فعل بهم ، على أنه جواب سؤال مقدر عن حالهم . ويجوز أن يكون حالاً ، أي : قد كذبوا ﴿فَاَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم ، يقال : أخذته بكذا ، أي : جازيته عليه ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ شديد عقابه ، فالإضافة غير محضة .

١٢ - ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم مشركو مكة ﴿سَعْتٌ﴾ يوم بدر ﴿وَتَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ من الجِهنَّمَ^(١) ، وهي : بئر عميقة . وبالياء فيهما ، حمزة وعلي ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المستقر ، جهنم .

١٣ - ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ الخطاب لمشركي قريش ﴿فِي فِئَتَيْنِ الَّتِي جَاءَتْكُمْ﴾ يوم بدر ﴿فِئَةٌ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ فئة أخرى ﴿كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ﴾ يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين ألفين ، أو مثلي عدد المسلمين ستمئة ونيفاً وعشرين . أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ، ويجنبوا عن قتالهم . تَرَوْنَهُمْ ، نافع ، أي : ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فتكم الكافرة ، أو مثلي أنفسهم . ولا يناقض هذا ما قال في سورة الأنفال : ﴿وَيُقِلُّ لَكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال : ٤٤] لأنهم قللوا أولاً في

(١) في اللسان : الجِهنَّمَ : القعر البعيد .

رَأَى الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي
الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ
مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ

أعينهم حتى اجترؤوا عليهم، فلما اجتمعوا كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان
التقليل والتكثير في حالتين مختلفتين. ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال
﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْغُولُونَ﴾
[الصافات: ٢٤] وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة،
وإظهار الآية. ومثلهم نصب على الحال؛ لأنه من رؤية العين بدليل قوله:
﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾ يعني: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن
يَشَاءُ﴾ كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في تكثير
القليل ﴿لَعِبْرَةً﴾ لعظة ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لذوي البصائر.

١٤ - ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ﴾ المزين هو الله عند الجمهور للابتلاء، كقوله: ﴿إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ﴾ [الكهف: ٧] دليله قراءة مجاهد ﴿زَيْنَ
لِلنَّاسِ﴾ على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان. ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ الشهوة:
توقان النفس إلى الشيء. جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها
مشتهاة. أو: كأنه أراد تخصيسها بتسميتها شهوات؛ إذ الشهوة مستردة عند
الحكماء، مذموم من اتبعها، شاهد على نفسه بالبهيمية. ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾
والإماء داخلة فيها. ﴿وَالْبَنِينَ﴾ جمع ابن. وقد يقع في غير هذا الموضع على
الذكور والإناث. وهنا أريد به الذكور، فهم المشتَهون في الطباع، والمعدون
للدفاع. ﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ جمع قنطار، وهو: المال الكثير. قيل: ملء مسك^(١) ثور
أو مئة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام وبمكة مئة رجل قد قنطروا.
﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ المنضدة، أو المدفونة. ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ سُمِّيَ ذهباً
لسرعة ذهابه بالإنفاق، وفضة لأنها تفرق بالإنفاق. والفضُّ: التفريق.
﴿وَالْخَيْلِ﴾ سُمِّيَتْ به لاختيالها في مشيها. ﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة، من: السَّومة،

(١) «مسك»: جلد.

وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾
 ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
 بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا بِمَا قَدْغُفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ
 النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّٰدِقِينَ وَالْقٰنِیْنَ وَالْمُنْفِقِیْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِیْنَ
 بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

وهي: العلامة، أو المرعية، من: أسام الدابة، وسومها. ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ هي
 الأرواح الثمانية. ﴿وَالْحَرْثِ﴾ الزرع. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا﴾ يتمتع بها في الدنيا. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ المرجع.

١٥ - ثم زهدهم في الدنيا فقال: ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ من الذي
 تقدّم ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ كلام مستأنف، فيه دلالة على بيان ما هو
 خير من ذلكم. فجنات مبتدأ و﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ خبره. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
 صفة لجنات. ويجوز أن يتعلق اللام بخير. واختص المتقين؛ لأنهم هم المتفعون
 به. ويرتفع جنات على: هو جنات. وتنصره قراءة من قرأ جنات بالجر، على
 البذل من خير. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: رضا
 الله. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ عالم بأعمالهم فيجازيهم عليها، أو بصير بالذين
 اتقوا وبأحوالهم؛ فلذا أعد لهم الجنات.

١٦ - ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ نصب على المدح، أو رفع، أو جر صفة للمتقين، أو
 للعباد. ﴿رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا بِمَا قَدْغُفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إجابة لدعوتك. ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾
 لوعذك. ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بفضلك.

١٧ - ﴿الصَّٰدِقِينَ﴾ على الطاعات والمصائب. وهو نصب على المدح.
 ﴿وَالْقٰنِیْنَ﴾ قولاً بإخبار الحق، وفعللاً بإحكام العمل، ونية بإمضاء
 العزم. ﴿وَالْمُنْفِقِیْنَ﴾ الداعين، أو المطيعين. ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِیْنَ﴾ المتصدقين.
 ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِیْنَ بِالْأَسْحَارِ﴾ المصلين، أو طالبي الغفرة. وخص الأسحار؛ لأنه

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

وقتُ إجابة الدعاء، ولأنه وقتُ الخلوة. قال لقمان لابنه: يا بني! لا يكن
الديك أكيس منك ينادي بالأسحار وأنت نائم. والواو المتوسطة بين الصفات
للدلالة على كمالهم في كلِّ واحدةٍ منها. وللإشعار بأن كلَّ صفةٍ مستقلة بالمدح.
١٨ - ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ أي: حكم أو قال. ﴿أَنَّهُ﴾ أي: بأنه. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بما عاينوا من عظيم قدرته. ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ أي: الأنبياء أو العلماء.
﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويثيب،
ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض، والعمل على السوية
فيما بينهم. وانتصابه على أنه حال مؤكدة من اسم الله تعالى، أو من (هو).
وإنما جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه، ولو قلت: جاء زيد
وعمر وراكباً لم يجوز؛ لعدم الإلباس، فإنك لو قلت: جاءني زيد وهند راكباً جاز
لتميظه بالذكورة. أو: على المدح. وكرر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ للتأكيد. ﴿الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ رفع على الاستئناف، أي: هو العزيز، وليس بوصف لـ«هو» لأنَّ
الضمير لا يُوصف. يعني: أنه العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي لا يعدلُ
عن الحق.

١٩ - ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ جملة مستأنفة. وقرئ^(١) ﴿أَنَّ الدِّينَ﴾
على البدل من قوله ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: شهد الله أن الدين عند الله
الإسلام.

قال ﷺ: «من قرأ الآية عند منامه خلق الله تعالى منها سبعين ألف خلق
يستغفرون له إلى يوم القيامة. ومن قال بعدها: وأنا أشهد بما شهد الله به،
وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي [عند الله] وديعة، يقول الله تعالى يوم
القيامة: إن لعبدي عندي عهداً، وأنا أحق من وفي بالعهد، أدخلوا عبدي
الجنة»^(٢).

(١) من المطبوع.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٢٥ - ٣٢٦) وقال: رواه الطبراني، وفيه عمر =

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَلِيُّ بَيِّنَاتٍ مِنْهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافهم أنهم تركوا الإسلام، وهو التوحيد، فثلث النصارى، وقالت اليهود: عزيز ابن الله. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَلِيُّ﴾ أنه الحق الذي لا محيد عنه. ﴿بَيِّنَاتٍ مِنْهُمْ﴾ أي: ما كان ذلك الاختلاف إلا حسداً بينهم، وطلباً منهم للرئاسة وحظوظ الدنيا، واستتباع كل فريق ناساً، لا شبهة في الإسلام. وقيل: هو اختلافهم في نبوة محمد ﷺ حيث آمن به بعض، وكفر به بعض. وقيل: هم النصارى واختلافهم في أمر عيسى بعدما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ﴾ بحججه، ودلائله. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سريع المجازاة.

٢٠- ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ فإن جادلوك في أن دين الله الإسلام. والمراد بهم: وفد بني نجران عند الجمهور. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾^(١) أي: أخلصت نفسي وجملي لله وحده، لم أجعل فيها لغيره شريكاً بأن أعبد، وأدعو إليها معه. يعني: أن ديني دين التوحيد، وهو الدين القويم الذي ثبتت عندكم صحته، كما ثبتت عندي، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه، ونحوه: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤]. فهو دفعٌ للمحاجة بأن ما هو عليه، ومن معه من المؤمنين هو اليقين الذي لا شك فيه، فما معنى المحاجة فيه؟! ﴿وَجْهِيَ﴾: مدني، وشامي، وحفص، والأعشى، والبرجمي. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف على التاء في أسلمت،

= ابن المختار، وهو ضعيف. وانظر الدر المنثور (١٦٦/٢). وما بين حاصرتين ساقط من المخطوط.

(١) في الأصل المخطوط: ثبتت قراءة: ﴿وَجْهِيَ﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي، ويعقوب، والحضرمي، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٦/٢).

وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِ ءَاسَلِمْتُمْ ؕ فَإِنْ ءَاسَلَمُوا فَقَدْ ءَهِتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ ؕ وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ ۖ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾

أي: أسلمت أنا ومن اتبعني. وحسن للفاصل. ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع، فيكون مفعولاً معه. ومن اتبعني: في الحالين: سهل، ويعقوب. وافق أبو عمرو في الوصل. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى. ﴿وَالْأُمِّيَّةِ﴾ والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب. ﴿ءَاسَلِمْتُمْ﴾ بهزتين، كوفي. يعني: أنه قد أتاكم من البينات حصول الإسلام، فهل أسلمتم؟ أم أنتم بعد على كفركم؟ وقيل: لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الأمر، أي: أسلموا، كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا. ﴿فَإِنْ ءَاسَلَمُوا فَقَدْ ءَهِتَدُوا﴾ فقد أصابوا الرشd، حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أي: لم يضروك، فإنك رسول منبه، ما عليك إلا أن تبلغ الرسالة، وتنبه على طريق الهدى. ﴿وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ﴾ فيجازيهم على إسلامهم وكفرهم.

٢١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ﴾ هم أهل الكتاب راضون بقتل آبائهم الأنبياء. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ حال مؤكد؛ لأن قتل النبي لا يكون حقاً. ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ ويقاتلون: حمزة. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل. ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ أي: سوى الأنبياء، قال ﷺ: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة. فقام مئة واثنان عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا قتلهم بالمعروف، ونهوه عن المنكر، فقتلوا جميعاً في آخر النهار من ذلك اليوم»^(١). ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ دخلت الفاء في خبر إن لتضمن اسمها معنى الجزاء، كأنه قيل: الذين يكفرون فبشّرهم؛ بمعنى: من يكفر

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ
 نَصِيرَةٍ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ
 بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا
 أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ يَوْمَ
 يُنْفَخُ السُّورَةُ

فسرهم. وهذا لأن (إن) لا تغير معنى الابتداء فهي للتحقيق، فكأن دخولها
 ك: لا دخول. ولو كان مكانها ليت أو لعل لامتنع دخول الفاء.

٢٢ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: ضاعت. ﴿فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ﴾ فلهم اللعنة والحزني في الدنيا، والعذاب في الآخرة. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ
 نَصِيرَةٍ﴾ جمع لوقف رؤوس الآي، وإلا فالواحد النكرة في النفي يعم.

٢٣ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ يريد أحرار اليهود، وأنهم
 حصلوا نصيباً وافراً من التوراة. و«من» للتبعض، أو للبيان. ﴿يُدْعَوْنَ﴾ حال
 من الذين. ﴿إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: التوراة أو القرآن. ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ جعل
 حاكماً حيث كان سبباً للحكم. أو: ليحكم النبي. روي أنه ﷺ دخل مدراسهم
 فدعاهم. فقال لهم نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت؟ قال
 النبي ﷺ: «على ملة إبراهيم». قالوا: إن إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: «إن
 بيننا وبينكم التوراة فهلوموا إليها». فأبيا^(١). ﴿ثُمَّ يُتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ استبعاد
 لا يزال الإعراضُ ديدنهم.

٢٤ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أي: ذلك التولي
 والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب، وطمعهم في الخروج من
 النار بعد أيام قلائل، وهي أربعون يوماً، أو سبعة أيام. وذلك: مبتدأ، وبأنهم
 خبره ﴿وَعَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غرَّبُوا افتراؤهم على الله، وهو
 قولهم: نحن أبناء الله وأحبَّاءه فلا يعذبنا بذنوبنا إلا مدة يسيرة.

٢٥ - ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ يَوْمَ يُنْفَخُ السُّورَةُ﴾ فكيف يكون حالهم في ذلك الوقت ﴿لَا

لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ
الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن
تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

رَيْبَ فِيهِ ﴿ لا شك فيه ﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴿ جزاء ما كسبت ﴾ وَهُمْ ﴿ وهم ﴾ يرجع إلى كل نفس على المعنى؛ لأنه في معنى كل الناس ﴿ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بزيادة في سيئاتهم، ونقصان في حسناتهم.

٢٦ - ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ ﴾ الميم عوض من يا، ولذا لا يجتمعان. وهذا بعض خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه، وفيه لام التعريف، ويقطع همزته في: يا الله، وبالتفخيم ﴿ مَلِكُ الْمَلِكِ ﴾ تملك جنس الملك، فتصرف فيه تصرف الملأ كما يملكون. وهو نداء ثان، أي: يا مالك الملك ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ تعطي من تشاء النصيب الذي قسمت له من الملك ﴿ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾ أي: تنزعه. فالملك الأول عام، والمملكان الآخران خاصان بعضان من الكل. روي أنه ﷺ حين فتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقالت اليهود والمنافقون: هيهات! هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك. فنزلت ^(١) ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ ﴾ بالملك ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ بنزعه منه ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ أي: الخير والشر، فاكتمى بذكر أحد الضدين عن الآخر. أو: لأن الكلام وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرته الكفرة، فقال: ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ تؤتبه أوليائك على رغم من أعدائك ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ولا يقدر على شيء أحد غيرك إلا بإقدارك.

وقيل: المراد بـ ﴿الملك﴾ ملك العافية، أو ملك القناعة. قال ﷺ: «ملوك الجنة من أمتي القانعون بالقوت يوماً فيوماً» ^(٢). أو: ملك قيام الليل. وعن

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص(٦٣).

(٢) لم نجده في المصادر الحديثية المتوافرة لدينا.

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ

الشبلي: الاستغناء بالكون عن الكونين^(١). ﴿تعز﴾ بالمعرفة أو بالاستغناء بالكون أو بالقناعة ﴿وتدل﴾ بأضدادها. ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب بقوله:

٢٧ - ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ فالإيلاج: إدخال الشيء في الشيء، وهو مجاز هنا، أي: تنقص من ساعات الليل، وتزيد في النهار، وتنقص من ساعات النهار وتزيد في الليل ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الحيوان من النطفة، أو الفرخ من البيضة، أو المؤمن من الكافر ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ النطفة من الإنسان، أو البيض من الدجاج، أو الكافر من المؤمن ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يعرف الخلق عدده ومقداره، وإن كان معلوماً عند الله ليدل على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادرٌ على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم، ويؤتية العرب ويعزهم. وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي. فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة. فلا تشتغلوا بسب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم. وهو معنى قوله ﷺ: «كما تكونوا يولى عليكم»^(٢). «الحي من الميت» و«الميت من الحي» بالتشديد حيث كان: مدني وكوفي، غير أبي بكر.

٢٨ - ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ نها أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم،

(١) «الكونان»: الدنيا والآخرة.

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٣٧٢).

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُ تُقْنَةً
وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ
تُبْذَلُوا يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا

أو لصداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك. وقد كرّر ذلك في القرآن. والمحبة في الله
والبغض في الله بابٌ عظيمٌ في الإيمان ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أن لكم في
موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين، فلا تؤثرهم عليهم ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: ومن يوال الكفرة، فليس من ولاية الله في شيء؛
لأن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُ تُقْنَةً﴾ إلا أن تخافوا من
جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. أي: إلا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على
نفسك ومالك، فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة، وإبطان المعادة ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ
نَفْسَكُمْ﴾ أي: ذاته، فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه. وهذا وعيد شديد ﴿وَإِلَى
اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: مصيركم إليه، والعذاب معدّ لديه، وهو وعيد آخر.

٢٩ - ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَلُوا﴾ من ولاية الكفار، أو غيرها، مما
لا يرضي الله ﴿يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ ولم يخف عليه، وهو أبلغ وعيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ استئناف، وليس بمعطوف على جواب الشرط، أي: هو الذي
يعلم ما في السموات وما في الأرض، فلا يخفى عليه سرّكم وعلمكم ﴿وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيكون قادراً على عقوبتكم.

٣٠ - ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ يوم: منصوب بتود. والضمير في «بينه» لليوم. أي: يوم
القيامة حين تجد كل نفس خيراً وشراً حاضرين، تتمنى لو أنّ بينها وبين ذلك
اليوم وهو له أمداً بعيداً، أي: مسافة بعيدة. أو: باذكر. ويقع على «ما
عملت» وحده. ويرتفع «وما عملت» على الابتداء و«تود» خبره. أي: والذي
عملته من سوء تودّ هي لو تباعد ما بينها وبينه. ولا يصحّ أن تكون «ما»
شرطية لارتفاع تودّ. نعم: الرفع جائز إذا كان الشرط ماضياً، لكن الجزم هو

وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾

الكثير، وعن المبرد: أن الرفع شاذ. وكرر قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ليكون على بال منهم، لا يغفلون عنه ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ومن رآفته بهم أن حذرهم نفسه حتى لا يتعرضوا لسخطه. ويجوز أن يريد أنه، مع كونه محذوراً لكمال قدرته، مرجو لسعة رحمته؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

٣١ - ونزل حين قال اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ محبة العبد لله: إيثار طاعته على غير ذلك، ومحبة الله العبد: أن يرضى عنه، ويحمد فعله. وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فأراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل. فمن ادّعى محبته، وخالف سنة رسوله، فهو كذاب، وكتاب الله يكذبه. وقيل: محبة الله: معرفته، ودوام خشيته، ودوام اشتغال القلب به وبذكره، ودوام الأنس به. وقيل: هي اتباع النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله إلا ما خص به. وقيل: علامة المحبة أن يكون دائم التفكير، كثير الخلوة، دائم الصمت، لا يبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودي، ولا يحزن إذا أصيب، ولا يفرح إذا أصاب، ولا يخشى أحداً ولا يرجوه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٣٢ - ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ قيل: هي علامة المحبة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن قبول الطاعة، ويحتمل أن يكون مضارعاً، أي: فإن تتولوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا يحبهم.

٣٣ - ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ﴾ اختار ﴿آدَمَ﴾ أبا البشر ﴿وَنُوحًا﴾ شيخ المرسلين ﴿وَعَالِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق وأولادهما ﴿وَعَالِ عِمْرَانَ﴾ موسى وهارون هما ابنا عمران بن يصر. وقيل: عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان. وبين العمرانين ألف وثمانمئة سنة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ عِمْرَنُ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ

٣٤ - ﴿ذُرِّيَّةً﴾ بدل من آل ابراهيم وآل عمران ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ مبتدأ، وخبره في موضع النصب صفة لذرية. يعني: أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة، بعضها متشعب من بعض: موسى وهارون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوي، ولاوي من يعقوب، ويعقوب من إسحاق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان، وهو يتصل بيهودا بن يعقوب بن إسحاق. وقد دخل في آل ابراهيم رسول الله ﷺ. وقيل: بعضها من بعض في الدين ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يصلح للاصطفاء. أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها.

٣٥ - ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ وإذ: منصوب به، أو بإضمار اذكر ﴿أَمْرَأْتُ عِمْرَنُ﴾ هي امرأة عمران بن ماثان، أم مريم، جدة عيسى، وهي: حنة بنت فاقوذا ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾ أوجبت ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ هو حال من ما، وهي بمعنى الذي، أي: معتقاً لخدمة بيت المقدس، لا يد لي عليه، ولا أستخدمه. وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم. أو مخلصاً للعبادة، يقال: طين حرّ، أي: خالص ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ (مَنِّي): مدني، وأبو عمرو. والتقبل: أخذ الشيء على الرضا به ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

٣٦ - ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ الضمير لـ «ما في بطني» وإنما أنث على تأويل الحبلية، أو النفس، أو النسمة ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ حال من الضمير في وضعتها، أي: وضعت الحبلية، أو النفس، أو النسمة أنثى. وإنما قالت هذا القول لأنّ التحرير لم يكن إلا للغلمان، فاعتذرت عما نذرت، وتحزنت إلى ربها. ولتكلمها بذلك على وجه التحزن والتحسر، قال الله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ تعظيماً لموضوعها. أي: والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وما علق به من عظام الأمور. ﴿وَضَعْتُ﴾ شامي، وأبو بكر، بمعنى: ولعل الله فيه سرّاً

وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

وحكمة. وعلى هذا يكون داخلاً في القول، وعلى الأول يوقف عند قوله ﴿أُنْثَى﴾ وقوله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ ابتداء إخبار من الله تعالى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ﴾ الذي طلبت ﴿كَالْأُنْثَى﴾ التي وهبت لها، واللام فيهما للعهد ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ معطوف على ﴿إِنِّي وضعتها أنثى﴾ وما بينهما جملتان معترضتان. وإنما ذكرت حنة تسميتها مريم لربها؛ لأن مريم في لغتهم: العابدة، فأرادت بذلك التقرب، والطلب إليه أن يعصمها، حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يصدق فيها ظنها بها. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعانة لها ولولدها من الشيطان بقوله: ﴿وَإِنِّي﴾ ﴿وَإِنِّي﴾ مدني ﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أجبرها ﴿وَذَرَيْتَهَا﴾ أولادها ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ الملعون. في الحديث: «ما من مولود يُولدُ إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها»^(١).

٣٧ - ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ قبل الله مريم، ورضي بها في النذر مكان الذكر ﴿يَقْبُولُ حَسَنٍ﴾ قيل: القَبُول: اسم ما يقبل به الشيء، كالسقوط: لما يسقط به. وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر، ولم تُقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ، وتصلح للسدانة. رُوي أنَّ حنة لما ولدت مريم لفُتتْها في خرقة، وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحرار أبناء هارون، وهم في بيت المقدس، كالحجبة في الكعبة. فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة. فتنافسوا فيها؛ لأنها كانت بنت إمامهم، وصاحب قربانهم. وكانت بنو مائتان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم. فقال لهم زكريا: أنا أحقُّ بها، عندي أختها. فقالوا: لا، حتى نقرعَ عليها. فانطلقوا - وكانوا سبعة وعشرين - إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا فوق الماء، ورسبت أقلامهم. فتكفلها. وقيل: هو مصدر، على تقدير حذف المضاف، أي: فتقبلها

(١) رواه أحمد (٢/٢٣٣) والبخاري (٣٤٣١) ومسلم (٢٣٦٦).

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ
يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾
هُنَالِكَ

بذي قبول حسن، أي: بأمر ذي قبول حسن، وهو الاختصاص ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن التربية الحسنة. قال ابن عطاء: ما كانت ثمرته مثل عيسى، فذاك أحسن النبات. ونباتاً: مصدر على خلاف الصدر، أو التقدير: فنبتت نباتاً ﴿وَكَفَّلَهَا﴾^(١) قبلها، أو ضمن القيام بأمرها. ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ كوفي، أي: كفَّلها الله زكريا، يعني: جعله كافلاً لها، وضامناً لمصالحها ﴿زَكَرِيَّا﴾ بالقصر كوفي، غير أبي بكر، في كل القرآن. وقرأ أبو بكر بالمد والنصب هنا. غيرهم بالمد والرفع كالثانية والثالثة. ومعناه في العبري: دائم الذكر والتسبيح ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ قيل: بنى لها زكريا محراباً في المسجد، أي: غرفة تصعد إليها بسلم. وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدمها، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس. وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب. وكان لا يدخل عليها إلا هو وحده ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ كان رزقها ينزل عليها من الجنة، ولم ترضع ثدياً قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه؟! ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تستبعد. قيل: تكلمت وهي صغيرة، كما تكلم عيسى وهو في المهد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من جملة كلام مريم، أو: من كلام رب العالمين ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرة، أو تفضلاً بغير محاسبة، ومجازاة على عمل.

٣٨ - ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب.

أو: في ذلك الوقت. فقد يستعار هنا، وحيث، وثم: للزمان. لما رأى حال

(١) في الأصل المخطوط ثبت قراءة: ﴿كَفَّلَهَا﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عامر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف، وابن محيصن، واليزيدي. معجم القراءات القرآنية (٢/ ٢٤).

دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾

مريم في كرامتها على الله ومنزلتها، رغب أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أمها حنة في الكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً، فقد كانت أمها كذلك. وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً﴾ ولداً. والذرية يقع على الواحد والجمع ﴿طَيِّبَةً﴾ مباركة. والتأنيث للفظ الذرية ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيبه.

٣٩ - ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قيل: ناداه جبريل عليه السلام. وإنما قيل: الملائكة لأنَّ المعنى: أتاه النداء من هذا الجنس، كقولهم: فلان يركب الخيل. ﴿فناديه﴾ بالياء والإمالة: حمزة وعلي ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ وفيه دليل على أن المرادات تطلب بالصلوات، وفيها إجابة الدعوات، وقضاء الحاجات. وقال ابن عطاء: ما فتح الله تعالى على عبد حالة سنية إلا باتباع الأوامر، وإخلاص الطاعات، ولزوم المحاريب ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ ^(١) بكسر الألف: شامي، وحمزة، على إضمار القول، أو: لأنَّ النداء قول. الباكون بالفتح، أي: بأن الله ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ يُبَشِّرُكَ وما بعده: حمزة، وعلي، من بَشَرَةٍ. والتخفيف والتشديد لغتان ﴿يَحْيَى﴾ هو غير منصرف. إن كان عجمياً، وهو الظاهر فالتعريف والعجمة، كموسى وعيسى. وإن كان عربياً فالتعريف ووزن الفعل، كي عمر ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال منه ﴿بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعيسى، مؤمناً به، فهو أول من آمن به. وسُمِّي عيسى كلمة الله لأنَّ تكوُّنه بكن بلا أب. أو مصدقاً بكلمة من الله، مؤمناً بكتاب منه ﴿وَسَيِّدًا﴾ هو الذي يسود قومه، أي: يفوقهم في الشرف. وكان يحيى فائقاً على قومه؛ لأنه لم يركب سيئة قط، ويالها من سيادة! وقال الجنيد: هو الذي جاد بالكونين عوضاً عن المكون ﴿وَحَصُورًا﴾ هو الذي لا يقرب النساء مع القدرة حصراً لنفسه، أي: منعاً لها من الشهوات ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ناشئاً من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الهمزة.

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَماً وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرُؤُماً إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ

الأنبياء، أو كائناً من جُملة الصالحين.

٤٠ - ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ استبعاد من حيث العادة، واستعظام للقدرة، لا تشكك ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ كقولهم: أدركته السن العالية، أي: أكثر في الكبر، وأضعفني، وكان له تسع وتسعون سنة، وامرأته ثمان وتسعون ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لا تلد ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأفعال العجيبة.

٤١ - ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي﴾ مدني، وأبو عمرو ﴿آيَةً﴾ علامة أعرف بها الجبل لأتلقى النعمة بالشكر إذا جاءت ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أي: لا تقدر على تكليم الناس ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَماً﴾ إلا إشارة بيد، أو رأس، أو عين، أو حاجب. وأصله: التحرك يقال: ارتمز: إذا تحرك. واستثنى الرمز وهو ليس من جنس الكلام؛ لأنه لما أدى مؤدى الكلام، وفهم منه ما يفهم منه سمي كلاماً. أو هو استثناء منقطع. وإنما خصّ تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة، مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله؛ ولذا قال: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي: في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة، والأدلة الظاهرة. وإنما حبس لسانه عن كلام الناس ليخلص المدة لذكر الله، لا يشغل لسانه بغيره. كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر، وأحسن الجواب ما كان منتزعا من السؤال. والعشي: من حين الزوال إلى الغروب. والإبكار: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

٤٢ - ﴿وَإِذْ﴾ عطف على إذ قالت امرأة عمران، أو التقدير: واذكر إذ ﴿قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرُؤُماً﴾ روي أنهم كلموها شفاهاً ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أولاً حين تقبلت من أم، ورباك، واختصك بالكرامة السنية ﴿وَوَطَّهَّرَكِ﴾ مما يستقذر من

وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِى مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيءُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ

الأفعال ﴿وَأَصْطَفَاكِ﴾ آخرًا ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ بأن وهب لك عيسى من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

٤٣ - ﴿يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾ أديمي الطاعة، أو: أطيلي قيام الصلاة ﴿وَأَسْجُدِي﴾. وقيل: أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود؛ لكونهما من هيئات الصلاة، ثم قيل لها: ﴿وَأَزْكِى مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: ولتكن صلاتك مع المصلين، أي: في الجماعة. أو: وانظمي نفسك في جملة المصلين، وكوني في عدادهم، ولا تكوني في عداد غيرهم.

٤٤ - ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من قصة حنة، وزكريا، ويحيى، ومريم ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يعني: أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ﴾ أزلامهم، وهي: قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين. أو: هي الأقلام التي كانوا يكتبون التوراة بها، اختاروها للقرعة تبركا بها ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون، كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم يكفل مريم، أو ليعلموا، أو يقولون ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في شأنها تنافسا في التكفل بها.

٤٥ - ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: اذكر ﴿يَمْرِيءُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ أي: بعيسى ﴿مِنْهُ﴾ في موضع جر صفة لكلمة ﴿اسْمُهُ﴾ مبتدأ. وذكر ضمير الكلمة لأنَّ المسمّى بها مذكر ﴿الْمَسِيحُ﴾ خبره، والجملة في موضع جر صفة لكلمة. والمسيح لقب من الألقاب المشرفة، كالصديق، والفاروق. وأصله: مشيحا بالعبرانية، ومعناه: المبارك، كقوله: ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١] وقيل: سُمّي مسيحا لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برأ، أو: لأنه كان يمسح الأرض بالسياحة، لا يستوطن مكانا ﴿عِيسَى﴾ بدل من المسيح ﴿ابْنُ

مَرِيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٦﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا
وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٨﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٩﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِتَايَةٍ مِّن

مَرِيَمَ ﴿٤٦﴾ خبراً مبتدأ محذوف، أي: هو ابن مريم. ولا يجوز أن يكون صفة لعيسى؛ لأن اسمه عيسى فحسب وليس اسمه عيسى ابن مريم، وإنما قال ﴿ابن مريم﴾ إعلماً لها أنه يولد من غير أب، فلا ينسب إلا إلى أمه ﴿وَجِيهًا﴾ ذا جاه وقدر ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة، والطاعة ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بعلو الدرجة، والشفاعة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ برفعه إلى السَّماء. وقوله: ﴿وَجِيهًا﴾ حال من «كلمة» لكونها موصوفة، وكذا ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: وثابتاً من المقربين وكذا:

٤٦ - ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ أي: ومُكَلِّمًا الناس ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ حال من الضمير في يكلم، أي: ثابتاً في المهد، وهو: ما يُمهد للصبى من مضجعه، سُمِّيَ بالمصدر ﴿وَكَهْلًا﴾ عطف عليه، أي: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً، أي: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة؛ التي يستحكم فيها العقل، ويستنبأ فيها الأنبياء ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حال أيضاً، والتقدير: يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات.

٤٧ - ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٨﴾ أي: إذا قدر تكون شيء كونه من غير تأخير. لكنه عبر بقوله: ﴿كُنْ﴾ إخباراً عن سرعة تكون الأشياء بتكوينه.

٤٨ - ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ مدني، وعاصم، وموضعه حال معطوفة على: وجيهاً. الباقر بالنون على أنه كلام مبتدأ ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: الكتابة، وكان أحسن الناس خطأً في زمانه. وقيل: كُتِبَ الله ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ بيان الحلال والحرام. أو: الكتاب: الخط باليد، والحكمة: البيان باللسان ﴿وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

٤٩ - ﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونجعلهُ رسولاً. أو: يكون في موضع الحال، أي: وجيهاً في الدنيا والآخرة ورسولاً ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي﴾ بآني ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِتَايَةٍ مِّن

رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنَّتُمْ بَنَاتِيهِمْ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿٢٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ

رَبِّكُمْ﴾ بدلالة تدلُّ على صدقي فيما أدَّعيه من النبوة ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ﴾ نصب بدل من ﴿أني قد جئتكم﴾. أو: جر بدل من «آية». أو: رفع على هي ﴿أني أخلق لكم﴾ ﴿إني﴾ نافع على الاستئناف ﴿مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف، أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ فيصير طيراً كسائر الطيور. طائراً: مدني ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمره. قيل: لم يخلق شيئاً غير الخُفَّاش ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ الذي وُلد أعمى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿كَرَّرَ بِإِذْنِ اللَّهِ دَفْعاً لَّهُمْ مِّن يَتَوَهَّم فِيهِ الْإِلَهِيَّةَ. رُوي أَنَّهُ أَحْيَا سَامَ بْنَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ. فَقَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مِّبِينٌ، فَأَرْنَا آيَةً. فَقَالَ: يَا فُلَانُ! أَكَلْتَ كَذَا، وَيَا فُلَانُ خُبِّي لَكَ كَذَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ و«ما» فيهما بمعنى الذي، أو: مصدرية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما سبق. ﴿لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

٥٠ - ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: قد جئتكم بآية، وجئتكم مُصَدِّقاً ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ردَّ على قوله: ﴿بآية من ربكم﴾ أي: جئتكم بآية من ربكم، ولأحل لكم. وما حرم الله عليهم في شريعة موسى عليه السلام: الشحوم، ولحوم الإبل، والسّمك، وكلّ ذي ظفر. فأحلّ لهم عيسى بعض ذلك ﴿وَجَنَّتْ بَنَاتِيهِمْ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كرّر للتأكيد ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في تكذيبي وخلافي ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في أمري.

٥١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إقرار بالعبودية، ونفي للربوبية عن نفسه،

فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

بخلاف ما يزعم النصارى ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ دوني ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يؤدّي صاحبه إلى النعيم المقيم.

٥٢ - ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ علم من اليهود كفراً، علماً لا شبهة فيه، كعلم ما يدرك بالحواس ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي﴾ مدني. وهو جمع ناصر كأصحاب، أو جمع نصير كأشراف ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يتعلّق بمحذوف حال من الياء، أي: من أنصاري ذاهباً إلى الله، ملتجئاً إليه ﴿قَالَ الْخَوَارِيُّونَ﴾ حواري الرجل: صفوته، وخاصّته ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أعوان دينه ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ﴾ ياعيسى ﴿بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾ إنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم؛ لأن الرّسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم. وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد

٥٣ - ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أي: رسولك عيسى ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم، أو: مع الذين يشهدون لك بالوحدانية، أو: مع أمة محمد ﷺ؛ لأنهم شهداء على الناس.

٥٤ - ﴿وَمَكْرُوهًا﴾ أي: كفار بنى إسرائيل الذين أحسّ^(١) منهم الكفر حين أرادوا قتله، وصلّبه ﴿وَمَكْرَ اللَّهِ﴾ أي: جازاهم على مكرهم بأن رفع عيسى إلى السماء، وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قُتل. ولا يجوز إضافة المكر إلى الله تعالى إلا على معنى الجزاء؛ لأنه مذموم عند الخلق. وعلى هذا: الخداع والاستهزاء، كذا في «شرح التاويلات» ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ أقوى المجازين، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

(١) أي: أحسّ عيسى عليه السلام.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ
الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾

٥٥ - ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ ظرف لمكر الله ﴿يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مستوف
أجلك. ومعناه: أني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومميتك حتف أنفك،
لا قتلاً بأيديهم ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى سمائي ومقر ملائكتي ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا﴾: من سوء جوارهم، وخبث صحبتهم. وقيل: متوفيك: قابضك من
الأرض، من: توفيت مالي على فلان: إذا استوفيته. أو: مميتك في وقتك
بعد النزول من السماء ورافعك الآن، إذ الواو لا توجب الترتيب. قال
النبي ﷺ: «ينزل عيسى خليفة على أمتي، يدق الصليب، ويقتل الخنازير،
ويلبث أربعين سنة، ويتزوج، ويولد له، ثم يتوفى. وكيف تهلك أمة أنا في
أولها وعيسى في آخرها، والمهدي من أهل بيتي في وسطها؟»^(١) أو متوفي
نفسك بالنوم، ورافعك وأنت نائم؛ حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في
السماء آمن، مقرب. ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ أي: المسلمين - لأنهم متبعوه في
أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع - دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود
والنصارى ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعلنونهم بالحجة، وفي
أكثر الأحوال بها وبالسيف ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

٥٦ - ٥٧ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ﴾ وتفسير الحكم هاتان الآيتان. (فيؤفّيهم): حفص.

(١) رواه ابن جرير (٢٩١/٣)، وانظر: الدر المنثور (٢/٢٢٥).

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ
 ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ
 الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا

٥٨ - ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره. وهو مبتدأ ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ خبره ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ القرآن. يعني: المحكم، أو: كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

٥٩ - نزل لما قال وفد بني نجران: هل رأيت ولدأ بلا أب؟ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم عليه السلام ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ قدره جسداً من طين. وهي جملة مفسرة لحالة شبه عيسى بآدم ولا موضع لها. أي: خلق آدم من تراب، ولم يكن ثمة أب ولا أم. فكذلك حال عيسى مع أن الوجود من غير أب وأم أغرب، وأخرق للعادة من الوجود من غير أب. فشبّه الغريب بالأغراب ليكون أقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه. وعن بعض العلماء: أنه أُسر بالروم فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له. قال: فأدم أولى لأنه لا أبوين له. قالوا: كان يحيى الموتى. قال: فحزقيل أولى لأن عيسى أحيا أربعة نفر وحزقيل ثمانية آلاف. فقالوا: كان يبرئ الأكمه والأبرص. قال: ففجرجيس أولى لأنه طُبِّخَ وأُخْرِقَ ثم قام سالماً ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ أي: أنشأه بشراً ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: فكان. وهو حكاية حال ماضية. و«ثم» لترتيب الخبر على الخبر، لا لترتيب المخبر عنه.

٦٠ - ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق ﴿فَلَا تَكُنْ﴾ أيها السامع ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين، ويحتمل أن يكون الخطاب للنبي ﷺ. ويكون من باب التهيج لزيادة الثبات؛ لأنه ﷺ معصوم من الامتراء.

٦١ - ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ من النصارى ﴿فِيهِ﴾ في عيسى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ من البيانات الموجبة للعلم. و«ما» بمعنى الذي ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ هلموا. والمراد: المجيء بالعزم والرأي، كما تقول: تعال نفكر في هذه المسألة

نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ

﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أي: يدع كل منا ومنكم أبناء ونساء ونفسه إلى المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ ثم نتباهل بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم. والبهلة - بالفتح والضم -: اللعنة، وبهله الله: لعنه الله وأبعده من رحمته. وأصل الابتهاال هذا، ثم يستعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. روي أنه ﷺ لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى ننظر، فقال العاقب - وكان ذا رأيهم -: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى! أن محمداً نبي مرسل، وما باهل قومٌ نبياً قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن. فإن أبيتم إلا إلف دينكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا رسول الله ﷺ وقد غداً محتضناً للحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمّنوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى! إني لأرى وجوهاً لو سألوها الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا، فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني. فقالوا: يا أبا القاسم! رأينا ألا نباهلك. فصالحهم النبي على ألفي حلة كل سنة. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده! إن الهلاك قد تدلّى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير»^(١). وإنما ضمّ الأبناء والنساء، وإن كانت المباهلة مختصة به وبمن يكاذبه؛ لأنّ ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله، واستيقانه بصدقه، حيث استجراً على تعريض أعزّته وأفلاذ كبده لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبّته وأعزّته إن تمّت المباهلة. وخصّ الأبناء والنساء لأنهم أعزّ الأهل، وألصقهم بالقلوب، وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على قرب مكانهم ومنزلتهم. وفيه دليل واضح على صحة نبوة النبي ﷺ؛ لأنه لم

(١) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وابن مروان: متروك، متهم بالكذب (حاشية الكشف ٣٦٩/١).

فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ اللَّهُ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

يرؤ أحد من موافق أو مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ منا ومنكم في شأن عيسى. ونبتهل، ونجعل: معطوفان على ندع.

٦٢ - ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي قصّ عليك من نبأ عيسى ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ فصل بين اسم إن وخبرها، أو مبتدأ. و﴿القصص الحق﴾ خبره. والجملة: خبر إن. وجاز دخول اللام على الفصل؛ لأنه إذا جاز دخولها على الخبر، كان دخولها على الفصل أجوز؛ لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ. و﴿مِنْ﴾ في: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ بمنزلة البناء على الفتح في «لا إله إلا الله» في إفادة معنى الاستغراق. والمراد: الردّ على النصارى في تثليثهم ﴿وَلَئِنْ اللَّهُ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في الانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير الأحكام.

٦٣ - ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا، ولم يقبلوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب المذكور في قوله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا قَوْفَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

٦٤ - ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ﴾ هم أهل الكتابين، أو وفد نجران، أو يهود المدينة ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ أي: مستوية ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل. وتفسير الكلمة قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: تعالوا إليها حتى لا نقول: عزيز ابن الله، ولا المسيح ابن الله؛ لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله. وعن عدي بن حاتم: ما كنا نعبدكم يا رسول الله! قال: «أليس كانوا

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي
 إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ؕ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ هَٰئِنتُمْ
 هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا
 كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٩﴾

يحلّون لكم، ويحرّمون، فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم. قال: «هو ذاك»^(١)
 ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: لزمتمكم الحجة
 فوجب عليكم أن تعترفوا، وتسلموا بأننا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب
 للمغلوب في جدال أو صراع: أتعترف بأنني أنا الغالب، وسلّم إليّ الغلبة.

٦٥ - ﴿يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ
 بَعْدِهِ﴾ زعم كلّ فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، وجادلوا
 رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه. فقيل: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة،
 والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين
 عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة
 متطاولة؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال.

٦٦ - ﴿هَٰئِنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ ها: للتنبيه، وأنتم: مبتدأ، وهؤلاء: خبره
 ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى. يعني: أنتم هؤلاء الأشخاص
 الحمقى، وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ مما
 نطق به التوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا ذكر له في
 كتابيكم من دين إبراهيم. وقيل: هؤلاء: بمعنى الذين، وحاججتم: صلته.
 ﴿ها أنتم﴾ بالمد وغير الهمز حيث كان، مدني، وأبو عمرو ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ علم
 ما حاججتم فيه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم جاهلون به ثم أعلمهم بأنه بريء من
 دينهم فقال:

٦٧ - ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِذْنِهِمْ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَذَتِ طَافِةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَافِةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ

كأنه أراد بالمشركين: اليهود والنصارى؛ لإشراكهم به عزيزاً والمسيح. أو: وما كان من المشركين كما لم يكن منهم.

٦٨ - ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِذْنِهِمْ﴾ إن أخصهم به، وأقربهم منه، من: الولي، وهو: القرب ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه وبعده ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ خصوصاً. خصّ بالذكر لخصوصيته بالفضل، والمراد: محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من أمته ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ناصرهم.

٦٩ - ﴿وَذَتِ طَافِةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَضِلُّوكُمْ﴾ هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية ﴿وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم؛ لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

٧٠ - ﴿يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالتوراة والإنجيل. وكفرهم بها: أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة رسول الله ﷺ وغيرها. ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تعترفون بأنها آيات الله. أو: تكفرون بالقرآن، ودلائل نبوة الرسول، وأنتم تشهدون نعتة في الكتابين. أو: تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق.

٧١ - ﴿يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ تخلطون الإيمان بموسى وعيسى بالكفر بمحمد ﷺ ﴿وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ﴾ نعت محمد ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق.

٧٢ - ﴿وَقَالَتْ طَافِةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فيما بينهم ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: القرآن ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ ظرف، أي: أوله. يعني: اظهروا الإيمان

وَكَفَرُوا بآخِرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ آلِهْدِي هُدَىٰ
 اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلَ يَبْدِ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ
 يَشَاءُ

بما أنزل على المسلمين في أول النهار. ﴿وَكَفَرُوا بآخِرِهِمْ﴾ واكفروا به في آخره
 ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل المسلمين يقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا
 لأمر قد تبين لهم، فيرجعون برجوعكم.

٧٣ - ﴿وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ آلِهْدِي هُدَىٰ اللَّهُ﴾ «ولا تؤمنوا» متعلق
 بقوله: ﴿أَنْ يُوَفَّقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ وما بينهما اعتراض. أي: ولا تظهروا
 إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم. أرادوا:
 أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من الكتب مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه
 إلا إلى أشياعكم وحدهم، دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون
 المشركين؛ لئلا يدعوهم إلى الإسلام ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على أن
 «يؤتى». والضمير في «يحاجوكم» لأحد؛ لأنه في معنى الجمع. بمعنى:
 ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق،
 ويغالبونكم عند الله بالحجة. ومعنى الاعتراض أن الهدى هدى الله، من شاء
 هداه حتى أسلم أو ثبت على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدكم،
 وحيلكم، وذبيكم^(١) تصديقكم عن المسلمين والمشركين. وكذلك قوله: ﴿قُلْ
 إِنْ الْفَضْلَ يَبْدِ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يريد الهداية والتوفيق. أو: يتم الكلام عند قوله
 ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: ﴿وَلَا تَوْمِنُوا﴾ هذا الإيمان الظاهر، وهو إيمانهم
 وجه النهار ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا
 منكم؛ لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم. ومعنى قوله:
 ﴿أَنْ يُوَفَّقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ قلتم ذلك، ودبرتموه لا شيء
 آخر. يعني: أن ما بكم من الحسد والبغي ﴿أَنْ يُوَفَّقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من
 العلم والكتاب، دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم. ويدل عليه قراءة ابن كثير (أَنْ)

(١) «ذبيكم»: أي: منكم.

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ ﴿٧٣﴾ يَخْلُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾
 ﴿٧٥﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ
 لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ سَبِيلٌ

بالمد والاستفهام يعني: الآن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم من الكتاب تحسدونهم؟
 وقوله: ﴿أو يحاجوكم﴾ على هذا معناه: دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحدٌ مثل
 ما أوتيتم، أو لما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم ﴿وَاللَّهُ
 وَاسِعٌ﴾ أي: واسع الرحمة ﴿عَلَيْهِ﴾ بالمصلحة.

٧٤ - ﴿يَخْلُصُ بِرَحْمَتِهِ﴾ بالنبوة، أو بالإسلام ﴿مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ﴾.

٧٥ - ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ هو عبد الله بن
 سلام. استودعه رجلٌ من قريش ألفاً ومئتي أوقية ذهباً، فأداه إليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ
 إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ هو فنحاص بن عازوراء استودعه رجلٌ من قريش
 ديناراً، فجحده، وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصارى لغلبة الأمانة
 عليهم، والخائنون في القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ
 قَائِمًا﴾ إلا مدة دوامك عليه ياصاحب الحق قائماً على رأسه، ملازماً له.
 (يؤده) و(لا يؤده) بكسر الهاء مشبعة: مكى، وشامي، ونافع، وعلي،
 وحفص. واختلس أبو عمرو في رواية. غيرهم بسكون الهاء ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة
 إلى ترك الأداء الذي دلَّ عليه: لا يؤده ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ سَبِيلٌ﴾
 أي: تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي:
 لا يتطرق علينا إثم وذم في شأن الأميين، يعنون: الذين ليسوا من أهل
 الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم، والإضرار بهم لأنهم ليسوا على
 ديننا. وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، وكانوا يقولون: لم يجعل لهم في
 كتابنا حرمة. وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم،
 فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ

كتابهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بادعائهم أَنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِمْ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ.

٧٦ - ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين، أي: بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾ جملة مستأنفة، مقررّة للجملة التي سدت بلى مسدّها. والضمير في ﴿بعهده﴾ يرجع إلى الله تعالى، أي: كل من أوفى بعهد الله واتقاه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: يحبهم، فوضع الظاهر موضع الضمير، وعموم المتقين قام مقام الضمير الراجع من الجزاء إلى مَنْ. ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر، وأعمال السوء. قيل: نزلت في عبد الله ابن سلام ونحوه من مسلمي أهل الكتاب. ويجوز أن يرجع الضمير إلى من أوفى، أي: كل من وفى بما عاهد عليه، واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه.

٧٧ - ونزل فيمن حرّف التوراة، وبَدَّل نعتَه ﷺ من اليهود، وأخذ الرشوة على ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به، ولننصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا من التروس، والارتشاء، ونحو ذلك. وقوله: ﴿بعهد الله﴾ يُقَوِّي رجوع الضمير في ﴿بعهده﴾ إلى الله ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ بما يسرهم ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ نظر رحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يشي عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٧٨ - ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب. ﴿لَفَرِيقًا﴾ هم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحَيِّ بن أخطب، وغيرهم ﴿يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ يفتلون بها بقرائته عن الصحيح إلى المحرّف. والليّ: الفتل، وهو: الصرف.

لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

والمراد: تحريفهم؛ كآية الرجم، ونعت محمد ﷺ، ونحو ذلك ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ يرجع الضمير إلى ما دلَّ عليه ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ وهو المحرّف، ويجوز أن يراد: يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب، لتحسبوا ذلك الشبه ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة. ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وليس هو من التوراة ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وما هو من الكتاب﴾ وزيادة تشنيع عليهم ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

٧٩ - ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى عليه السلام. وقيل: قال رجل: يا رسول الله! نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يُسجدَ لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحقَّ لأهله»^(١) ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة، وهي: السنة، أو فصل القضاء ﴿وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ﴾ عطف على «يؤتيه» ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ يَقُولُ كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ ولكن يقول: كونوا ربانيين، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون، وهو: شديد التمسك بدين الله وطاعته. وحين مات ابنُ عباس قال ابنُ الحنفية: مات ربانيُّ هذه الأمة. وعن الحسن ﴿ربانيين﴾ علماء فقهاء. وقيل: علماء معلّمين. وقالوا: الرباني: العالم العامل ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ كوفي وشامي، أي: غيركم. غيرهم بالتخفيف ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرأون. والمعنى: بسبب كونكم عالمين، وبسبب كونكم دارسين للعلم، كانت الربانية - التي هي قوة التمسك بطاعة الله - مسببة عن العلم والدراسة. وكفى به دليلاً على خيبة سعي من

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٧٤) من حديث الحسن البصري. قال ابن حجر: لم أجده إسناداً. (حاشية الكشاف ٣٧٨/١).

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَةَ وَالنِّسَاءَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِمْ وَلَتَنْصُرُنَّهُمْ

جهد نفسه، وكذا روحه في جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان كمن غرس شجرة حسنة تؤنقه بمنظرها، ولا تنفعه بثمرها. وقيل: معنى ﴿تدرسون﴾ تدرسونه على الناس، كقوله: ﴿لِقَرَأَةِ آلِ النَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فيكون معناه معنى تدرسون، من التدريس، كقراءة ابن جبير.

٨٠ - ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿ثم يقول﴾. ووجهه أن تجعل «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: ﴿ما كان لبشر﴾ والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبه الله، وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة، وترك الأنداد، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له، ويأمركم ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَةَ وَالنِّسَاءَ أَرْبَابًا﴾ كما تقول: ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني، ولا يستخف بي. وبالرفع: حجازي، وأبو عمرو، وعليّ، على ابتداء الكلام. والهمزة في: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ﴾ للإنكار، والضمير في ﴿لا يأمركم﴾ و﴿أَيَأمركم﴾ للبشر، أو لله. وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ المخاطبين كانوا مسلمين، وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له.

٨١ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ هو على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك. أو المراد: ميثاق أولاد النبيين، وهم بنو إسرائيل، على حذف المضاف. واللام في: ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ لام التوطئة؛ لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف، وفي ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ لام جواب القسم، و﴿ما﴾ يجوز أن تكون متضمنة لمعنى الشرط، و﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ ساد مسدَّ جواب القسم والشرط جميعاً، وأن تكون موصولة بمعنى: للذي آتيتكموه لتؤمنن به. ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾ معطوف على الصلة والعائد منه إلى (ما) محذوف، والتقدير: ثم جاءكم به ﴿رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ للكتاب الذي معكم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِمْ﴾ بالرسول ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُمْ﴾ أي: الرسول، وهو محمد ﷺ ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ حمزة و«ما» بمعنى الذي، أو مصدرية. أي: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب

قَالَ أَقَرَّرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقَرَّرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

والحكمة، ثم لمجيء رسول مصدق لما معكم. واللام للتعليل. أي: أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول، ولتنصرنه لأجل أنني آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف. (آتيناكم) مدني ﴿قَالَ﴾ أي: الله ﴿أَقَرَّرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: قبلتم عهدي. وسُمِّي إصرًا لأنه مما يؤصر، أي: يشد، ويعقد ﴿قَالُوا أَقَرَّرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأنا معكم على ذلكم من إقراركم وتشاهدكم. وهذا تأكيد عليهم، وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: قال الله للملائكة: اشهدوا.

٨٢ - ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق، والتوكيد، ونقض العهد بعد قبوله، وأعرض عن الإيمان بالنبي الجائي ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفار.

٨٣ - ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ﴾ دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة. والمعنى: فأولئك هم الفاسقون. فغير دين الله ييغون، ثم توسطت الهمزة بينهما. ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره: أيتولون، فغير دين الله ييغون. وقدم المفعول وهو ﴿غير دين الله﴾ على فعله؛ لأنه أهم من حيث إن الإنكار - الذي هو معنى الهمزة - متوجه إلى المعبود بالباطل ﴿يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ الإنس والجن ﴿طَوْعًا﴾ بالنظر في الأدلة، والإنصاف من نفسه ﴿وَكْرْهًا﴾ بالسيف، أو بمعاناة العذاب، كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [غافر: ٨٤] وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال، أي: طائعين ومكرهين ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فيجازون على الأعمال. (ييغون) و(يرجعون) بالياء فيهما، حفص. وبالتاء في الثاني وفتح الجيم، أبو عمرو؛ لأن

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ

الباغين هم المتولون، والراجعون جميع الناس. وبالناء فيهما وفتح الجيم، غيرهما.
 ٨٤ - ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعن معه بالإيمان. فلذا وحّد الضمير في ﴿قل﴾ وجمع في ﴿آمنّا﴾. أو: أمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه. وعدى ﴿أنزل﴾ هنا بحرف الاستعلاء وفي البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين، إذ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسول، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر. وقال صاحب «اللباب»: الخطاب في البقرة للأمة لقوله ﴿قولوا﴾ فلم يصح إلا «إلى»؛ لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً وهنا قال ﴿قل﴾ وهو خطاب للنبي ﷺ دون أمته، فكان اللائق به «على» لأن الكتب منزلة عليه لا شركة للأمة فيه. وفيه نظر؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ٧٢] ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب، وكان فيهم أنبياء ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ﴾ كرّر في البقرة ﴿وما أوتي﴾ ولم يكرر هنا لتقدم ذكر الإيتاء، حيث قال: ﴿لما آتيتكم﴾ ﴿من ربهم﴾ من عند ربهم. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ في الإيمان، كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ موحدون مخلصون أنفسنا له، لا نجعل له شريكاً في عبادتنا.

٨٥ - ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ يعني: التوحيد، وإسلام الوجه لله. أو: غير دين محمد ﷺ ﴿دينًا﴾ تمييز ﴿فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ من الذين وقعوا في الخسران.

٨٦ - ونزل في رهط أسلموا، ثم رجعوا عن الإسلام، ولحقوا بمكة ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ والواو في: ﴿وشهدوا أن الرسول حق﴾

وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾

للحال، وقد مضى، أي: كفروا وقد شهدوا أن الرسول، أي: محمداً حق. أو للعطف على ما في ﴿إيمانهم﴾ من معنى الفعل؛ لأن معناه: بعد أن آمنوا ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الشواهد كالقرآن، وسائر المعجزات ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ما داموا مختارين الكفر، أو: لا يهديهم طريق الجنة إذا ماتوا كفراً.

٨٧ - ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ مبتدأ ثان، خبره ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ وهما خبر أولئك. أو: جزاؤهم بدل الاشتمال من أولئك ﴿وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

٨٨ - ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من الهاء والميم في ﴿عليهم﴾ ﴿فِيهَا﴾ في اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

٨٩ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الكفر العظيم، والارتداد ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا، أو: دخلوا في الصلاح ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لكفرهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

٩٠ - ونزل في اليهود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعبسى والإنجيل ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بموسى والتوراة ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن. أو ﴿كَفَرُوا﴾ برسول الله ﷺ بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بإصرارهم على ذلك، وطعنهم فيه في كل وقت. أو: نزل في الذين ارتدوا، ولحقوا بمكة وازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نترصد بمحمد ريب المنون ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي: إيمانهم عند البأس؛ لأنهم لا يتوبوا إلا عند الموت، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ [غافر: ٨٥] ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ
 افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا
 مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

٩١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ الفاء في ﴿فلن يقبل﴾ يؤذن بأن الكلام بُني على الشرط والجزاء، وأنَّ سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر. وترك الفاء فيما تقدّم يُشعر بأن الكلام مبتدأ وخبر، ولا دليل فيه على التسيب ﴿ذَهَبًا﴾ تمييز ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ أي: ﴿فلن يقبل من أحدهم﴾ فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً. قال ﷺ: «يقال للكافر يوم القيامة: لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم فيقال له: لقد سئلت أيسر من ذلك»^(١). قيل: الواو لتأكيد النفي ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ معينين، دافعين للعذاب.

٩٢ - ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ﴾ لن تبلغوا حقيقة البر، أو: أن تكونوا أبراراً، أو: لن تنالوا بر الله، وهو ثوابه ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها. وعن الحسن: كل من تصدق ابتغاء وجه الله بما يحبه ولو عمرة فهو داخل في هذه الآية، قال الواسطي: الوصول إلى البر بإنفاق بعض المحاب، وإلى الرب بالتخلي عن الكونين. وقال أبو بكر الوراق: لن تنالوا برّي بكم إلا ببركم بإخوانكم. والحاصل: أنه لا وصول إلى المطلوب إلا بإخراج المحبوب. وعن عمر بن عبد العزيز: أنه كان يشتري أعدال^(٢) السكر ويتصدق بها، فقيل له: لم لا تتصدق بثمرها؟ قال: لأن السكر أحب إليّ، فأردت أن أنفق مما أحب ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَلِيمٌ﴾ أي: هو عليم بكل شيء تنفقونه، فيجازيكم بحسبه. و«من» الأولى للتبويض لقراءة عبد الله (حتى تنفقوا بعض ما تحبون) والثانية للتبيين. أي: من أي شيء كان الإنفاق طيب تحبونه، أو خبيث تكرهونه.

(١) رواه أحمد (٢١٨/٣) والبخاري (٦٥٣٨) ومسلم (٢٨٠٥) (٥٢).

(٢) «أعدال»: جمع عدل وهو الكيس يُعبأ فيه المتاع والحاجات.

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٣) ﴿ فَمَنْ أَفْزَرَنِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٩٤)

٩٣ - ولما قالت اليهود للنبي ﷺ: إنك تدعي أنك على ملة إبراهيم، وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها! فقال ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحله» (١) فقالت اليهود: إنها لم تنزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام، نزل تكذيباً لهم: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ ﴾ أي: المطعومات التي فيها النزاع؛ فإن منها ما هو حرام قبل ذلك، كالميتة، والدم ﴿ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أي: حلالاً، وهو مصدر، يقال: حلَّ الشيء حلاً، ولذا استوى في صفة المذكر والمؤنث والواحد والجمع، قال الله تعالى: ﴿ لَاهُنَّ جِلَّ لَّهُمْ ﴾ [المتحنة: ١٠] ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ ﴾ أي: يعقوب. ﴿ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ﴾ وبالتخفيف، مكي وبصري. وهو لحوم الإبل وألبانها، وكانا أحب الطعام إليه. والمعنى: أن المطاعم كلها لم تنزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة سوى ما حرم إسرائيل على نفسه. فلما نزلت التوراة على موسى حرم عليهم فيها لحوم الإبل وألبانها، لتحريم إسرائيل ذلك على نفسه ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبيحتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ما حُرِّمَ عليهم تحريمٌ حادث بسبب ظلمهم وبغيهم، لا تحريم قديم كما يدعون. فلم يجروا على إخراج التوراة وبُهِتُوا. وفيه دليلٌ بين على صدق النبي ﷺ، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه.

٩٤ - ﴿ فَمَنْ أَفْزَرَنِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بزعمه أن ذلك كان محرماً في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم، ولا يلتفون إلى البينات.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٧٥ - ٧٦).

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ
لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ

٩٥ - ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ في إخباره أنه لم يحرم. وفيه تعريضٌ بكذبهم، أي: ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل، وأنتم الكاذبون ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ﷺ ومن آمن معه، حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم، حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم، وألزمكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم، أي: مائلاً عن الأديان الباطلة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٩٦ - لما قالت اليهود للمسلمين: قبلتنا قبل قبلكم نزل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الواضع هو الله عز وجل. ومعنى وضع الله بيتاً للناس: أنه جعله متعبداً لهم، فكأنه قال: إن أول متعبد للناس الكعبة. وفي الحديث: «إن المسجد الحرام وُضِعَ قبل بيت المقدس بأربعين سنة»^(١). قيل: أول من بناه إبراهيم، وقيل: هو أول بيت حُجَّ بعد الطوفان، وقيل: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، وقيل: هو أول بيت بناه آدم عليه السلام في الأرض. وقوله: ﴿وَضَعَ لِلنَّاسِ﴾ في موضع جر صفة لبيت، والخبر: ﴿لِلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي: للبيت الذي ببكة، وهي علم للبلد الحرام، ومكة وبكة لغتان فيه، وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من بكَّه: إذا زحمه؛ لازدحام الناس فيها، أو لأنها تبك أعناق الجبابرة، أي: تدقها، لم يقصدها جبار إلا قصمه الله ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير لما يحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب، وتكفير السيئات ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم و﴿مباركاً﴾ و﴿هدى﴾ حالان من الضمير في ﴿وضع﴾.

٩٧ - ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ علامات واضحات، لا تلتبس على أحد ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ وصحَّ بيان الجماعة بالواحد لأنه وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه، وقوة دلالاته على قدرة الله تعالى، ونبوة إبراهيم عليه السلام من تأثير قدمه في حجر صلده، أو لا شتماله على آيات؛ لأن

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٠ و ١٦٦) والبخاري (٣٣٦٦) ومسلم (٥٢٠).

وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا

أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبيين آية، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة. على أن: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ عطف ببيان لآيات - وإن كان جملة ابتدائية، أو شرطية - من حيث المعنى؛ لأنه يدلّ على أمن داخله، فكأنه قيل: فيه آيات بينات: مقام إبراهيم، وأمن داخله، والاثنتان في معنى الجمع، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات، وكثير سواهما، نحو: انمحاق الأحجار مع كثرة الرماة، وامتناع الطير من العلو عليه، وغير ذلك. ونحوه في طيّ الذكر قوله ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: الطَّيِّبُ، وَالنِّسَاءُ، وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١). فقرة عيني ليس من الثلاث، بل هو ابتداء كلام؛ لأنها ليست من الدنيا، والثالث مطوي. وكأنه ﷺ ترك ذكر الثالث تنبيهاً على أنه لم يكن من شأنه أن يذكر شيئاً من الدنيا، فذكر شيئاً هو من الدين. وقيل في سبب هذا الأثر: أنه لما ارتفع ببيان الكعبة، وضعف إبراهيم عليه السلام عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر، فغاصت فيه قدماه. وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة، فقالت له امرأة إسماعيل عليه السلام: انزل حتى تغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر، فوضعت على شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه حتى غسلت شقّ رأسه، ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر، فبقي أثر قدميه عليه ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وأمان من دخله بدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وكان الرجل لو جنى كلّ جناية، ثم التجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر - رضي الله عنه -: لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. ومن لزمه القتل في الحلّ بقود، أو ردة، أو زنى، فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى، ولا يطعم، ولا يسقى، ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل: آمناً من النار؛ لقوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ بُعِثَ يَوْمَ

(١) رواه أحمد (١٠٨/٣) والنسائي في السنن الكبرى (٨٨٨٨) والحاكم (١٦٠/٢).

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

القيامة آمناً من النار»^(١). وعنه عليه السلام: «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة، وهما مقبرتا مكة والمدينة»^(٢). وعنه عليه السلام: «من صبر على حرّ مكة ساعة من نهار تباعدت منه جهنم مسيرة مئتي عام»^(٣). ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ أي: استقر له عليهم فرض الحج. (حج البيت): كوفي غير أبي بكر، وهو اسم، وبالفتح مصدر، وقيل: هما لغتان في مصدر حج ﴿مَنْ﴾ في موضع جر، على أنه بدل البعض من الكل ﴿اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فسرها النبي صلى الله عليه وآله بالزاد والراحلة^(٤). والضمير في «إليه» للبيت، أو للحج، وكل مأنى إلى الشيء فهو سبيلٌ إليه. لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ جمع رسول الله صلى الله عليه وآله أهل الأديان كلّهم فخطبهم، فقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجّوا»^(٥) فأمنت به ملة واحدة وهم المسلمون، وكفرت به خمس ملل، قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه، فنزل: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: جحد فرضية الحج، وهو قول ابن عباس، والحسن، وعطاء. ويجوز أن يكون من الكفران، أي: من لم يشكر ما أنعمت عليه من صحة الجسم، وسعة الرزق، ولم يحج ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ مستغن عنهم، وعن طاعتهم. وفي هذه الآية أنواع من التأكيد، والتشديد، منها: اللام، وعلى، أي: أنه حق واجب لله في رقاب الناس. ومنها: الإبدال، ففيه تشنية للمراد، وتكرير له، ولأن الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين. ومنها: قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ مكان «ومن لم يحج» تغليظاً على تاركي الحج. ومنها: ذكر

(١) رواه البيهقي في الشعب (٤١٨٠).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ١/٣٨٩).

(٣) رواه العقيلي في الضعفاء الكبير (١/٢٢٦) وقال: حديث باطل، لا أصل له.

(٤) رواه الترمذي (٢٩٩٨).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (٤/٢٠).

قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِّبُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِّبُ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۖ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَتَّاهِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾

الاستغناء، وذلك دليلٌ على المقت، والسخط، ومنها: قوله: ﴿عن العالمين﴾ وأن لم يقل: «عنه» وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان؛ لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لامحالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدل على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه.

٩٨ - ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِّبُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ الواو للحال. والمعنى: ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ الدالة على صدق محمد ﷺ، والحال أن الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها.

٩٩ - ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِّبُ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ الصد: المنع ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ﴾ عن دين حق علم أنه سبيل الله التي أمر بسلوكها، وهو الإسلام، وكانوا يمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم. وحل ﴿تَبَعُونَهَا﴾ تطلبون لها: نصب على الحال ﴿عَوَجًا﴾ اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة؛ بتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها، ونحو ذلك ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أنها سبيل الله التي لا يصد عنها إلا ضالّ مضلّ ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الصد عن سبيله، وهو وعيدٌ شديد.

١٠٠ - ثم نهى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصّادّين عن سبيله بقوله: ﴿يَتَّاهِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ قيل: مرّ شاس بن قيس اليهودي على نفرٍ من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه تحدّثهم وتألّفهم، فأمر شاباً من اليهود أن يذكرهم يوم بُعث لعلهم يغضبون. وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس. ففعل، فتنازع القوم عند ذلك، وقالوا: السلاح! السلاح! فبلغ النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أندعون

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا

الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وألف بينكم؟!« فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، فألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً باكين، فنزلت الآية^(١).

١٠١ - ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ معنى الاستفهام فيه: الإنكار والتعجب، أي: من أين يتطرق إليكم الكفر؟! ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ والحال أن آيات الله - وهي القرآن المعجز - تلى عليكم على لسان الرسول غضة طرية ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ وبين أظهركم رسول الله ﷺ يُنبِّهكم ويعظكم، ويزيح عنكم شبهكم ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ ومن يتمسك بدينه، أو بكتابه، أو: هو حث لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكائدهم ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أرشد إلى الدين الحق، أو: من يجعل ربه ملجأ ومفرجاً عند الشبه يحفظه عن الشبه.

١٠٢ - ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ واجب تقواه وما يحق منها، وهو القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم. وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا ينسى. أو: هو ألا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه، أو بنيه، أو أبيه. وقيل: لا يتقي الله عبدٌ حق تقاته حتى يخزن لسانه. والتقاء من اتقى، كالتؤدة من اتأد ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت.

١٠٣ - ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ تمسكوا بالقرآن؛ لقوله ﷺ: «القرآن حبل الله المتين، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد. من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هُدي إلى صراط مستقيم»^(٢) ﴿جَمِيعًا﴾ حال

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٣/٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٩٠٦) مطولاً، وقال: هذا حديث إسناده مجهول، وفي الحارث الأعمور مقال.

وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

من ضمير المخاطبين. وقيل: تمسكوا بإجماع الأمة دليله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي: ولا تتفرقوا، يعني: ولا تفعلوا ما يكون عنه التفرق، ويزول معه الاجتماع. أو: ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم، كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ كانوا في الجاهلية بينهم العداوة والحروب، فألف بين قلوبهم بالإسلام، وقذف في قلوبهم المحبة، وصاروا إخواناً ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ وكنتم مشفين على أن تقعوا في نار جهنم؛ لما كنتم عليه من الكفر ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بالإسلام. وهو رد على المعتزلة، فعندهم هم الذين ينقذون أنفسهم لا الله تعالى. والضمير للحفرة، أو: للنار أو للشفا، وأثت لإضافته إلى الحفرة. وشفا الحفرة: حرفها. ولامها واو؛ فلهذا يشئ: شفوان ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: القرآن الذي فيه أمر ونهي، ووعد ووعيد ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لتكونوا على رجاء الهداية، أو لتهتدوا به إلى الصواب، وما ينال به الثواب.

١٠٤ - ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما استحسنة الشرع

والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عما استقبحة الشرع والعقل. أو: المعروف: ما وافق الكتاب والسنة، والمنكر: ما خالفهما. أو: المعروف: الطاعة. والمنكر: المعاصي. والدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال والتروك، وما عطف عليه خاص. ومن: للتبعض؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له إلا من علم بالمعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته؛ فإنه يبدأ بالسهل، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب، قال الله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ثم قال: ﴿فَقْتُلُوا﴾ [الحجرات: ٩]. أو للتبيين، أي: وكونوا أمة تأمرون؛ كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ
اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا
الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٨﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴿[آل عمران: ١١٠]﴾ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم
الأخصاء بالصلاح الكامل. قال ﷺ: «من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر فهو
خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه»^(١). وعن علي رضي الله
عنه - أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٠٥ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ بالعداوة ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في الديانة. وهم
اليهود والنصارى؛ فإنهم اختلفوا، وكفر بعضهم بعضاً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾
الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة، وهي: كلمة الحق ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ﴾.

١٠٦ - ونصب ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ بالظرف وهو ﴿لَهُمْ﴾ أو بعظيم، أو
بذكروا. أي: وجوه المؤمنين ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه الكافرين. والبياض
من النور، والسواد من الظلمة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم:
﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ فحذف الفاء والقول جميعاً للعلم به. والهمزة للتوبيخ والتعجب من
حالهم ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يوم الميثاق، فيكون المراد به: جميع الكفار، وهو قول
أبيي، وهو الظاهر. أو: هم المرتدون، أو المنافقون، أي: أكفرتم باطناً بعد
إيمانكم ظاهراً. أو: أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان: تكذيبهم برسول الله
ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

١٠٧ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ففي نعمته، وهي: الثواب
المخلد، ثم استأنف فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها، ولا يموتون.
١٠٨ - ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الواردة في الوعد، والوعيد، وغير ذلك ﴿نَتْلُوهَا

(١) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٤٠٠/٣) في ترجمة كادح بن رحمة. قال الأزدي
وغیره: كذاب.

عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى

عَلَيْكَ ﴿﴾ ملتبسة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ والعدل، من جزاء المحسن والمسيء ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي: لا يشاء أن يظلم هو عباده، فيأخذ أحداً بغير جرم، أو يزيد في عقاب مجرم، أو ينقص من ثواب محسن.

١٠٩ - ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿ تُرْجَعُ ﴾، شامي، وحمزة، وعلي.

١١٠ - كان: عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، ولا دليل فيه على عدم سابق، ولا على انقطاع طارىء، ومنه قوله: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ كأنه قيل: وجدتم خير أمة، أو: كنتم في علم الله، أو: في اللوح خير أمة، أو: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ أظهرت. ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ اللام تتعلق بأخرجت ﴿ تَأْمُرُونَ ﴾ كلام مستأنف، بين به كونهم خير أمة، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم. بينت بالإطعام والإلباس وجه الكرم فيه ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بالإيمان، وطاعة الرسول ﴿ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ عن الكفر، وكل محذور ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وتدومون على الإيمان به. أو: لأن الواو لا تقتضي الترتيب ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ بمحمد ﷺ ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم فيه؛ لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة، واستتباع العوام. ولو آمنوا لكان لهم من الرئاسة، والاتباع، وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوا على الإيمان به من إتياء الأجر مرتين ﴿ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المتمردون في الكفر.

١١١ - ﴿ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ إلا ضرراً مقتصراً على أذى بقول من

وَأِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا
بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ الْنَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

طعن في الدين، أو: تهديد، أو: نحو ذلك ﴿وَأِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارَ﴾
منهزمين، ولا يضروكم بقتل، أو أسر ﴿ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ﴾ ثم لا يكون لهم نصر
من أحد، ولا يمنعون منكم. وفيه تثبيت لمن أسلم منهم؛ لأنهم كانوا يؤذونهم
بتوبيخهم وتهديدهم، وهو ابتداء إخبار معطوف على جملة الشرط والجزاء،
وليس بمعطوف على «يولوكم» إذ لو كان معطوفاً عليه لقليل: ثم لا ينصروا.
وإنما استؤنف ليؤذن أن الله لا ينصرهم قاتلوا أم لم يقاتلوا. وتقدير الكلام:
أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم: أنهم لا ينصرون. و«ثم»
للتراخي في المرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار
بتولييتهم الأدبار.

١١٢ - ﴿ضُرِبَتْ﴾ ألزمت ﴿عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أي: على اليهود ﴿أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا﴾
وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ في محل النصب على الحال، والباء متعلق بمحذوف
تقديره: إلا معتصمين، أو متمسكين بحبل من الله ﴿وَحَبْلٍ مِنَ الْنَّاسِ﴾ والحبل:
العهد، والذمة. والمعنى: ضربت عليهم الذلة في كل حال، إلا في حال
اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس، يعني: ذمة الله وذمة المسلمين، أي: لا عزَّ
لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية ﴿وَبَاءُ وَ
بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ استوجبوه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر عقوبة لهم على
قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] أو خوف الفقر مع قيام
اليسار ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذلك:
إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة، والمسكنة، والبواء بغضب الله، أي: ذلك
كائن بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا
عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: ذلك الكفر، وذلك القتل كائن بسبب عصيانهم لله،
واعتدائهم لحدوده.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣) ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤) ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾

١١٣ - ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ليس أهل الكتاب مستويين ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كلام مستأنف لبيان قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ كما وقع قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بياناً لقوله: ﴿كُتِّمَ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ جماعة مستقيمة عادلة، من قولك: أقمت العود فقام، أي: استقام، وهم الذين أسلموا منهم. ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن. ﴿ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ ساعاته، واحدها: إني، كمعي، أو: إني، كقنو، أو: إني، كنخي ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يصلون. قيل: يريد صلاة العشاء، لأن أهل الكتاب لا يصلونها. وقيل: عبّر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود.

١١٤ - ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان، وسائر أبواب البر ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الكفر، ومنهيات الشرع ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون إليها خشية الفوت. وقوله: يتلون، ويؤمنون: في محل الرفع صفتان لأمة، أي: أمة قائمة، تالون، مؤمنون. وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله؛ لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيزاً، وكفرهم ببعض الكتب والرسل، ومن الإيمان باليوم الآخر؛ لأنهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم كانوا مدهنيين. ومن المسارعة في الخيرات؛ لأنهم كانوا متباطئين غير راغبين فيها. والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه؛ لأن من رغب في الأمر سارع بالقيام به ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما وصفوا به ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المسلمين، أو من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله، ورضيهم.

١١٥ - ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ بالياء فيهما، كوفي غير أبي بكر. وأبو عمرو وغيره. غيرهم بالتاء. وعُدِّي يكفروه إلى مفعولين - وإن كان «شكر»

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخِذُوا بِطَانَةٍ مِنْ دُونِكُمْ

و«كفر» لا يتعديان إلا إلى واحد، تقول: شكر النعمة وكفرها - لتضمُّنه معنى الحرمان، كأنه قيل: فلن تحرموه، أي: فلن تحرموا جزاءه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب.

١١٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: من عذاب الله ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١١٧ - ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في المفاخر، والمكارم، وكسب الثناء، وحسن الذكر بين الناس. أو: ما يتقربون به إلى الله مع كفرهم ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ كمثال مهلك ريح، وهو الحرث، أو: مثل إهلاك ما ينفقون كمثال إهلاك ريح ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو مبتدأ وخبر في موضع. جرُّ صفة لريح، مثل: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر ﴿فَأَهْلَكَتُهُ﴾ عقوبة على كفرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإهلاك حرثهم ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. أو: يكون الضمير للمنفقين، أي: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها لائقة للقبول.

١١٨ - ونزل نهياً للمؤمنين عن مصافاة المنافقين: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخِذُوا بِطَانَةٍ﴾ بطانة الرجل ووليجه: خصيصه، وصفية. شبه ببطانة الثوب، كما يقال: فلان شعاري. وفي الحديث: «الأنصار شعار، والناس دثار»^(١) ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ من دون أبناء جنسكم، وهم المسلمون، وهو صفة لبطانة. أي:

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا وَدُوًّا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ
 أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُوْنَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّوْنَهُمْ وَلَا يُحِبُّوْنَكُمْ
 وَتُؤْمِنُوْنَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ
 الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم ﴿لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا﴾ في موضع النصب صفة
 لبطانة. يعني: لا يقصرون في فساد دينكم. يقال: ألا في الأمر يألو: إذا قصر
 فيه. والخبال: الفساد. وانتصب خبالاً على التمييز، أو على حذف في، أي: في
 خبالكم ﴿وَدُوًّا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: عنتكم. فما: مصدرية. والعنت: شدة الضرر
 والمشقة، أي: تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه. وهو
 مستأنف على وجه التعليل للنهي عن اتحاذهم بطانة، كقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ
 مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ لأنهم لا يتمالكون - مع ضبطهم أنفسهم - أن ينفلت من ألسنتهم
 ما يعلم به بغضهم للمسلمين ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من البغض لكم ﴿أَكْبَرُ﴾
 مما بدا. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالة
 أولياء الله، ومعاداة أعدائه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾ ما يُبَيِّن لكم.

١١٩ - ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ﴾ ها للتنبيه، وأنتم: مبتدأ، وأولاء: خبره، أي: أنتم
 أولاء الخاطئون في موالة منافقي أهل الكتاب ﴿تُحِبُّوْنَهُمْ وَلَا يُحِبُّوْنَكُمْ﴾ بيان
 لخطئهم في موالاتهم حيث يبدلون محبتهم لأهل البغضاء. أو: أولاء: موصول
 صلته ﴿تُحِبُّوْنَهُمْ﴾. والواو في: ﴿وَتُؤْمِنُوْنَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ للحال، وانتصابها من
 «لا يحبونكم» أي: لا يحبونكم، والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم مع
 ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم. وفيه
 توبيخ شديد؛ لأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. وقيل: الكتاب للجنس
 ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أظهروا كلمة التوحيد ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ فارقوكم، أو خلا
 بعضهم ببعض ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ يوصف المغناط والندام بعض
 الأنامل، والبنان، والإبهام ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم
 حتى يهلكوا به. والمراد بزيادة الغيظ: زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام، وعز
 أهله، وما لهم في ذلك من الذل والخزي ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو يعلم

إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ سَوَّاهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ

ما في صدور المنافقين من الخنق والبغضاء، وما يكون منهم في حال خلوّ بعضهم ببعض. وهو داخل في جملة المقول، أي: أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم، وهو مضمرة الصدور، فلا تظنوا أن شيئاً من أسراركم يخفى عليه. أو: خارج عن المقول، أي: قل لهم ذلك يا محمد، ولا تتعجب من إطلاعي إياك على ما يسرون، فإني أعلم بما هو أخفى من ذلك، وهو: ما أضمره في صدورهم.

١٢٠ - ﴿إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ﴾ رخاء، وخصب، وغنيمة، ونصرة ﴿سَوَّاهُمْ﴾ تحزنهم إصابتها ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أضداد ما ذكرنا. والمس مستعار من الإصاية، فكأن المعنى واحد، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَاذْكُرْهَا لِلَّهِ وَلَئِنْ تُصِيبَكَ شَرٌّ فَاذْكُرْهُ لِلَّهِ﴾ [التوبة: ٥٠]. ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بإصابتها ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مانهين عنه من موالاتهم. أو: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على تكاليف الدين ومشاقه ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله في اجتنابكم محارمه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ مكرهم، وكنتم في كنف الله. وهذا تعليم من الله، وإرشاد إلى أن يُستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ مكي، وبصري، ونافع، من ضاره يضيره بمعنى ضره، وهو واضح. والمشكل قراءة غيرهم لأنه جواب الشرط، وجواب الشرط مجزوم، فكان ينبغي أن يكون بفتح الراء كقراءة المفضل عن عاصم، إلا أن ضمة الراء لإتباع ضمة الضاد، نحو: مدّ: يا هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالتاء سهل، أي: من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿مُحِيطٌ﴾ ففاعل بكم ما أنتم أهله. وبالياء غيره، أي: أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

١٢١ - ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ واذكر يا محمد إذ خرجت غدوة من أهلك بالمدينة. والمراد: غدوه من حجرة عائشة - رضي الله عنها - إلى أحد ﴿تُبَوِّئُ

الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ تنزلهم، وهو حال ﴿مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾ مواطن ومواقف من الميمنة، والميسرة، والقلب، والجناحين، والساقة. وللقتال: يتعلق بـ«تبوء» ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ سميعٌ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم وضماثركم. روي أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، ودعا عبد الله بن أبي فاستشاره، فقال: أقم بالمدينة، فما خرجنا على عدو قط إلا أصاب منا، وما دخلوا علينا إلا أصابنا منهم. فقال ﷺ: «إني رأيت في منامي بقرأ مذبحاً حولي، فأولتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلثة فأولتها هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة». فلم يزل به قومٌ ينشطون في الشهادة حتى لبس لأمته، ثم ندموا، فقالوا: الأمر إليك يا رسول الله، فقال ﷺ: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل». فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال^(١).

١٢٢ - ﴿إِذْ هَمَّتْ﴾ بدل من إذ غدوت. أو: عمل فيه معنى ﴿عليم﴾ ﴿طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ﴾ حيّان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس. وكان ﷺ خرج إلى أحد في ألف، والمشركون في ثلاثة آلاف، ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخذل عبد الله بن أبي بثلث الناس، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فهم الحيان باتباعه، فعصمهم الله، فمضوا مع رسول الله ﷺ ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ أي: بأن تفشلا، أي: بأن تَجَبَّنَا وتضعفا. والفشل: الجبن، والخَوَرُ ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهَا﴾ محبهما، أو ناصرهما، أو متولي أمرهما، فما لهما تفشلان، ولا تتوكلان على الله؟! ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرهم ألا يتوكلوا إلا عليه، ولا يفوضوا أمورهم إلا إليه. قال جابر: والله ما يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به، وقد أخبرنا الله بأنه ولينا.

١٢٣ - ثُمَّ ذَكَرَهُمْ مَا يُوْجِبُ عَلَيْهِمُ التَّوَكُّلَ مِمَّا يَسَّرَ لَهُمْ مِنَ الْفَتْحِ يَوْمَ بَدْرٍ،

(١) رواه أحمد (٢٧١/١) والبيهقي في دلائل النبوة (٢٠٥/٣).

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

وهم في حال قلة وذلة فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وهو اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يُسَمَّى بدرًا، فَسُمِّيَ به. أو ذكر بدرًا بعد أحد للجمع بين الصبر والشكر ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ لقلّة العدد - فإنهم كانوا ثلاثمئة وبضعة عشر، وكان عدوهم زهاء ألف مقاتل - والعدد فإنهم خرجوا على النواضح، يعتقب النفر منهم على البعير الواحد، وما كان معهم إلا فرس واحد، ومع عدوهم مئة فرس، والشكّة والشوكة. وجاء بجمع القلة، وهو «أذلة»؛ ليدلّ على أنهم على ذلتهم كانوا قليلًا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم الله به عليكم من النصر.

١٢٤ - ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصركم على أن يقول لهم ذلك يوم بدر، أي: نصركم الله وقت مقاتلتكم هذه، أو: بدل ثان من «إذ غدوت»، على أن يقول لهم ذلك يوم أحد ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ «منزّلين»: شامي. «منزّلين»: أبو حيوة، أي: النّصرة. ومعنى ألن يكفيكم: إنكار ألا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة. وجيء بـ «ألن» الذي هو لتأكيد النفي، للإشعار بأنهم كانوا لقلّتهم، وضعفهم، وكثرة عدوهم وشوكتهم كالأيسين من النصر.

١٢٥ - ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد لن، أي: يكفيكم الإمداد بهم. فأوجب الكفاية، ثم قال: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾ على القتال ﴿وَتَتَّقُوا﴾ خلاف الرسول ﷺ ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ يعني: المشركين ﴿مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ هو من فارت القدر: إذا غلت، فاستعير للسرعة، ثم سميت بها الحالة التي لا ريث بها، ولا تعريج على شيء من صاحبها، فقليل: خرج من فوره، كما تقول: من ساعته لم يلبث. ومنه قول الكرخي: الأمر المطلق على الفور لا على التراخي. والمعنى: إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يعني: أن الله تعالى يعجل نصرته، ويسر فتحكم إن

مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ غُلَامًا يَتَّبِعُهُ خَاطِئِينَ ﴿١٢٧﴾
لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

صبرتم واتقيتم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بكسر الواو، مكى، وأبو عمرو، وعاصم، وسهل،
أي: معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامة يعرفون بها في الحرب. والسومة:
العلامة. عن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنانها.
غيرهم بفتح الواو، أي: معلمين. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على
أكتافهم. وكانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك. قال
قتادة: نزلت ألفاً فصاروا ثلاثة آلاف، ثم خمسة آلاف.

١٢٦ - ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الضمير يرجع إلى الإمداد الذي دلَّ عليه ﴿أَن
يَمْدُكُمْ﴾ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم
بأنكم تنصرون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارة
بالنصر، وطمأنينة لقلوبهم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا من عند المقاتلة،
ولا من عند الملائكة، ولكن ذلك مما يُقَوِّي به الله رجاء النصرة، والطمع في
الرحمة ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالب في أحكامه ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي يعطي النصر
لأوليائه، ويبتليهم بجهاد أعدائه.

١٢٧ - واللام في: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل
والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش:
متعلقة بقوله: ﴿ولقد نصركم الله﴾ أو بقوله: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾
أو: بـ ﴿يَمْدُكُمْ رَبُّكُمْ﴾ ﴿أَوْ يَكْتَسِبَ غُلَامًا يَتَّبِعُهُ خَاطِئِينَ﴾ وحقيقة
الكبت: شدة وهن تقع في القلب، فيصرع في الوجه لأجله ﴿فَيَنْفَلِبُوا خَاطِئِينَ﴾
فيرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم.

١٢٨ - ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اسم ليس ﴿شيء﴾ والخبر ﴿لك﴾ ﴿ومن
الأمرك﴾ حال من شيء؛ لأنها صفة مقدّمة ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على ﴿ليقطع
طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم﴾. و﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ اعتراض بين
المعطوف والمعطوف عليه. والمعنى: أنَّ الله تعالى مالك أمرهم، فإما أن

أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

يهلكهم، أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصرُّوا على الكفر. وليس لك من أمرهم شيء، إنما أنت عبدٌ مبعوثٌ لإنذارهم ومجاهدتهم. وعن الفراء ﴿أو﴾ بمعنى: حتى. وعن ابن عيسى بمعنى: إلا أن، كقولك: لألزمك؛ أو تعطيني حقي. أي: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم. وقيل: أراد أن يدعو عليهم فنهاء الله تعالى؛ لعلمه أن فيهم من يؤمن ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ مستحقون للتعذيب.

١٢٩ - ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الأمر ضله لا لك؛ لأنَّ ما في السموات وما في الأرض ملكه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ للمؤمنين ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ الكافرين ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٣٠ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ ﴿مُضَاعَفَةً﴾: مكى، وشامي. هذا نهي عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه. كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله يقول: إما أن تقضي حقي، أو تربى، وتزيد في الأجل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أكله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٣١ - ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ كان أبو حنيفة - رضي الله عنه - يقول: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه. وقد أمدَّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوقُّرهم على طاعته وطاعة رسول الله، بقوله:

١٣٢ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وفيه ردٌّ على المرجئة في قولهم: لا يضر مع الإيمان ذنب ولا يعذب بالنار أصلاً، وعندنا: غير الكافرين

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [١٣٣] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

من العصاة قد يدخلها، ولكن عاقبة أمره الجنة. وفي ذكره تعالى: «لعل» «وعسى» في نحو هذه المواضع - وإن قال أهل التفسير: إن لعل وعسى من الله للتحقيق - ما لا يخفى على العارف من دقة مسلك التقوى، وصعوبة إصابة رضا الله تعالى، وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه.

١٣٣ - ١٣٤ - ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ سارعوا: مدني، وشامي. فمن أثبت الواو عطفها على ما قبلها، ومن حذفها استأنفها. ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة: الإقبال على ما يؤصل إليهما. ثم قيل: هي الصلوات الخمس، أو التكبيرة الأولى، أو الطاعة، أو الإخلاص، أو التوبة، أو الجمعة، والجماعات ﴿ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ أي: عرضها عرض السموات والأرض؛ كقوله ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١] والمراد: وصفها بالسعة والبسط، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه. وخصّ العرض لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض. وما روي: أنَّ الجنة في السماء السابعة، أو في السماء الرابعة، فمعناه أنها في جهتها، لا أنها فيها، أو في بعضها، كما يقال: في الدار بستان، وإن كان يزيد عليها؛ لأنَّ المراد: أنَّ بابه إليها ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ في موضع جر صفة لجنة أيضاً، أي: جنة واسعة معدة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ودلَّت الآيتان على أن الجنة والنار مخلوقتان ثمَّ المتقي: من يتقي الشرك، كما قال ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد: ٢١] أو: من يتقي المعاصي. فإن كان المراد الثاني فهي لهم بغير عقوبة، وإن كان الأوَّل فهي لهم أيضاً في العاقبة. ويوقف عليه إن جعل ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ في حال اليسر والعسر، مبتدأ، وعطف عليه ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾. وجعل الخبر ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾. وإن جعل وصفاً للمتقين، وعطف عليه ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ أي: أعدت للمتقين والتائبين فلا وقف، فإن قلت: الآية تدلُّ على أنَّ الجنة معدة للمتقين والتائبين

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

دون المصرّين، قلت: جاز أن تكون معدّة لهما، ثم يدخلها بفضل الله وعفوه غيرها، كما يقال: أعدت هذه المائدة للأمر، ثم قد يأكلها أتباعه. ألا ترى أنه قال: ﴿وَأَنْقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] ثم قد يدخلها غير الكافرين بالاتفاق؟! وافتتح بذكر الإنفاق؛ لأنه أشق شيء على النفس، وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو، ومواساة فقراء المسلمين. وقيل: المراد: الإنفاق في جميع الأحوال؛ لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ والممسكين الغيظ عن الإمضاء. يقال: كظم القربة إذا مלאها، وشدّ فاهها، ومنه: كظم الغيظ: وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر، ولا يظهر له أثراً. والغيظ: توقّد حرارة القلب من الغضب. وعن النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملاً الله قلبه أمناً وإيماناً»^(١) ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه. وروي: «ينادي مناد يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا»^(٢). وعن ابن عيينة: أنه رواه للرشيد - وقد غضب على رجل - فخلّاه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ اللام للجنس، فيتناول كل محسن، ويدخل تحته هؤلاء المذكورون. أو: للعهد، فيكون إشارة إلى هؤلاء. عن الثوري: الإحسان: أن تحسن إلى المسيء فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة.

١٣٥ - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ فعلة متزايدة القبح. ويجوز أن يكون «والذين» مبتدأ خبره: «أولئك» ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قيل: الفاحشة: الكبيرة، وظلم النفس: الصغيرة. أو: الفاحشة: الزنى، وظلم النفس: القبلية، واللمسة، ونحوهما ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ بلسانهم، أو قلوبهم ليعبثهم على التوبة ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين. قيل: بكى إبليس حين نزلت

(١) رواه أبو داود (٤٧٧٦) والترمذي (٢٠٢٢) وابن ماجه (٤١٨٦).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٧٤٥١).

وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾
 أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 وَيَنعمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ

هذه الآية ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿من﴾ مبتدأ، و﴿يعفّر﴾ خبره، وفيه ضمير يعود إلى من. و﴿إلا الله﴾ بدل من الضمير في ﴿يعفّر﴾ والتقدير: ولا أحد يغفر الذنوب إلا الله. وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه. وفيه تطييبٌ لنفوس العباد، وتنشيطٌ للتوبة، وبعثٌ عليها، وردعٌ عن اليأس والقنوط، وبيان لسعة رحمته وقرب مغفرته من التائب، وإشعار بأن الذنوب - وإن جلّت - فإنَّ عفوه أجلّ، وكرمه أعظم ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ ولم يقيموا على قبيح فعلهم. والإصرار: الإقامة. قال ﷺ: «ما أصرَّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة»^(١). وروي: «لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»^(٢) ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من الضمير في «ولم يصروا» أي: ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم أسأؤوا، أو: ﴿وهم يعلمون﴾ أنه لا يغفر ذنوبهم إلا الله.

١٣٦ - ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون. ﴿جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم﴾ بتوبته ﴿وَجَنَّتْ﴾ برحمته ﴿تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَنعمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف، أي: ونعم أجر العاملين ذلك، يعني: المغفرة والجنات. نزلت في تمار قال لا امرأة تريد التمر: في بيتي تمر أجود، فأدخلها بيته وضمها إلى نفسه، وقبّلها، فندم. أو: في أنصاري استخلفه ثقيفي - وقد أخى بينهما النبي ﷺ - في غيبة غزوة، فأتى أهله لكفاية حاجة فرآها فقبّلها، فندم، فساح في الأرض صارخاً، فاستعته الله تعالى.

١٣٧ - ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يريد ما سنّه الله تعالى في

(١) رواه أبو داود (١٥١٤) والترمذي (٣٥٥٤).

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٧٩٤٤).

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ

الأمم المكذبين من وقائعه ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ فتعبروا بها.

١٣٨ - ﴿هَذَا﴾ أي: القرآن، أو: ما تقدم ذكره ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى﴾ أي: إرشاد ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ ترغيب وترهيب ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك.

١٣٩ - ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم من الهزيمة. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من الغنيمة. أو: على من قتل منكم، أو جرح. وهو تسليّة من الله لرسوله وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد، وتقوية لقلوبهم ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب؛ لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد. أو: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ بالنصر والظفر في العاقبة. وهي بشارة لهم بالعلو والغلبة ﴿وَلَنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣]. أو: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ شأنًا؛ لأن قتالكم لله، وإعلاء كلمته، وقاتلهم للشيطان وإعلاء كلمة الكفر. أو: لأن قتالكم في الجنة وقتلاهم في النار ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالنهاي، أي: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ إن صحَّ إيمانكم، يعني: أن صحة الإيمان توجب قوة القلب، والثقة بوعده الله، وقلة المبالاة بأعدائه. أو: بالأعلو، أي: إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله به، ويُبشِّرُكم به من الغلبة.

١٤٠ - ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ ^(١) بضم القاف حيث كان كوفي، غير حفص. ويفتح القاف غيرهم. وهما لغتان كالضَّعْف والضُّعْف. وقيل: بالفتح: الجراحة، وبالضم: ألمها ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أي: إن نالوا منك يوم أحد فقد نلتهم قبله يوم بدر؛ ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، لم يمنعهم عن

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿قَرْحٌ﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وعاصم، وخلف، والأعمش، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٢/٦٦).

وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذَوُّلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٣﴾

معاودتكم إلى القتال، فأنتم أولى ألا تضعفوا ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿الْآيَاتُ﴾ صفة،
والخبر ﴿نداولها﴾ ﴿نُذَوُّلُهَا﴾ نُصَرَّفُهَا. ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: نصرف ما فيها من
النعم والنقم، نعطي لهؤلاء تارة، وطوراً لهؤلاء، كييت الكتاب:

فَيَوْمًا عَلَيْنَا وَيَوْمًا لَنَا وَيَوْمًا نُسَاءُ وَيَوْمًا نُسَرَّ (١)
﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: نداولها لضروب من التدبير، وليعلم الله
المؤمنين مميزين بالصبر والإيمان من غيرهم، كما علمهم قبل الوجود ﴿وَيَتَّخِذَ
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وليكرم ناساً منك بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد. أو:
ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة من قوله: ﴿لِنَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراض بين بعض
التعليل وبعض. ومعناه: والله لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان
المجاهدين في سبيله، وهم: المنافقون، والكافرون.

١٤١ - ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ التمحيص: التطهير، والتصفية ﴿وَيَمْحَقَ
الْكَافِرِينَ﴾ ويهلكهم. يعني: إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز،
والاستشهاد، والتمحيص. وإن كانت على الكافرين فلمحقهم، ومحو آثارهم.

١٤٢ - ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها
الإنكار، أي: لا تحسبوا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي: ولما تجاهدوا؛
لأن العلم متعلق بالمعلوم. فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقة؛ لأنه منتفٍ
بانتفائه، تقول: ما علم الله في فلان خيراً، أي: ما فيه خير حتى يعلمه. ولما
بمعنى لم، إلا أن فيه ضرباً من التوقع، فدلَّ على نفي الجهاد فيما مضى، وعلى
توقّعه فيما يستقبل ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن. والواو بمعنى الجمع،
نحو: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. أو: جزم للعطف على يعلم الله. وإنما

(١) البيت للنمر بن تولب.

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ

حركت الميم لالتقاء الساكنين. واختيرت الفتحة لفتحة ما قبلها.

١٤٣ - ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ خطب به الذين لم يشهدوا بدرأ، وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ لينالوا كرامة الشهادة، وهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين، وكان رأيه في الإقامة بالمدينة. يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه، وتعرفوا شدته ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ أي: رأيتموه معانين، مشاهدين له حين قتل إخوانكم بين أيديكم، وشارفتم أن تقتلوا. وهذا توبيخ لهم على تمتيهم الموت، وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه، ثم انهزامهم عنه. وإنما تمنوا الشهادة لينالوا كرامة الشهداء من غير قصد إلى ما يتضمنه من غلبة الكفار، كمن شرب الدواء من طبيب نصراني، فإن قصده حصول الشفاء، ولا يخطر بباله أن فيه جرَّ منفعة إلى عدو الله، وتنفيقاً لصناعته.

١٤٤ - لما رمى ابنُ قميثة رسولَ الله ﷺ بحجرٍ فكسر رباعيته، أقبل يريد قتله، فذبح عنه مصعب بن عُمَيْر، وهو صاحب الراية، حتى قتله ابن قميثة، وهو يرى أنه رسول الله ﷺ. فقال: قتلْتُ محمداً. وصرخ صارخ - قيل: هو الشيطان -: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، ففشا في الناس خبر قتله، فانكفؤوا. وجعل رسول الله ﷺ يدعو: «إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ» حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله! فدينك بآبائنا وأمهاتنا، أتنا خبرُ قتلِكَ فولينا مدبرين، فنزل^(١): ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فسيخلو كما خلوا. وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه؛ لأن المقصود من بعثة الرسل تبليغ الرسالة، وإلزام الحجة، لا وجوده بين أظهر قومه ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة التي قبلها على معنى

(١) قال ابن حجر: هذا منتزع من عدة أخبار في وقعة أحد (حاشية الكشف ١/٤٢١).

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا

التسبب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلوة الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت، أو قتل، مع علمهم أن خلوة الرسل قبله، وبقاء دينهم متمسكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد ﷺ لا للانقلاب عنه. والانقلاب على العقبين مجاز عن الارتداد، أو عن الانزمام ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ وإنما ضرر نفسه ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ الذين لم ينقلبوا. وسماهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

١٤٥ - ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما جاز ﴿لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بعلمه، أو بأن يأذن للملك الموت في قبض روحه. والمعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله. وفيه تحريض على الجهاد، وتشجيع على لقاء العدو، وإعلام أن الحذر لا ينفع، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك، واقتحم المعارك ﴿كَتَبْنَا﴾ مصدر مؤكد؛ لأن المعنى: كتب الموت كتاباً ﴿مُوجَلًّا﴾ مؤقتاً له أجل معلوم لا يتقدم، ولا يتأخر ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ بقتاله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة. وهو تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد. ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ من ثوابها ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: إعلاء كلمة الله، والدرجة في الآخرة ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ وسنجزى الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله، فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

١٤٦ - ﴿وَكَانَ﴾ أصله أي، دخل عليه كاف التشبيه، وصارا في معنى كم التي للتكثير. وكان بوزن كاع حيث كان، مكي ﴿مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ﴾ قتل كائناً معه مكي، وبصري، ونافع ﴿مَعَهُ﴾ حال من الضمير في قتل، أي: قتل كائناً معه ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ والربيون: الربانيون. وعن الحسن بضم الراء، وعن البعض بفتحها، فالفتح على القياس؛ لأنه منسوب إلى الرب، والضم والكسر من تغييرات النسب ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ فما فتروا عند قتل نبيهم ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا

وَمَا اسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
 ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَقَالَتْ لَهُمْ
 اللَّهُ تَوَابٌ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابٍ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُوا كُفْرَكُمْ وَعَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
 بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

ضَعُفُوا ﴿﴾ عن الجهاد بعده ﴿وَمَا اسْتَكَاثُوا﴾ وما خضعوا لعدوهم. وهذا تعريضٌ
 بما أصابهم من الوهن عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، واستكانتهم لهم
 حيث أرادوا أن يعتضدوا بابن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ
 الصَّابِرِينَ﴾ على جهاد الكافرين.

١٤٧ - ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: وما كان قولهم إلا
 هذا القول، وهو إضافة الذنوب إلى أنفسهم، مع كونهم ربانيين، هضماً لها
 ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ تجاوزنا حدَّ العبودية ﴿وَتَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ في القتال. ﴿وَانصُرْنَا
 عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بالغبلة. وقدم الدعاء بالاستغفار من الذنوب على طلب
 تثبيت الأقدام في موطن الحرب والنصرة على الأعداء؛ لأنه أقرب إلى الإجابة؛
 لما فيه من الخضوع والاستكانة.

١٤٨ - ﴿فَقَالَتْ لَهُمُ اللَّهُ تَوَابٌ الدُّنْيَا﴾ أي: النصرة، والظفر، والغنيمة ﴿وَحُسْنُ
 ثَوَابٍ الْآخِرَةِ﴾ المغفرة والجنة. وخُصَّ بالحسن دلالة على فضله، وتقدمه، وأنه
 هو المعتد به عنده ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هم محسنون، والله يحبهم.

١٤٩ - ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُوا كُفْرَكُمْ وَعَلَىٰ
 أَعْقَبِكُمْ﴾ يرجعوكم إلى الشرك ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ قيل: هو عام في جميع
 الكفار. وعلى المؤمنين أن يجانبوهم، ولا يطيعوهم في شيء حتى لا يستجروهم
 إلى موافقتهم. وعن السدي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه، وتستأمنوهم،
 يردوكم إلى دينهم. وقال عليّ - رضي الله عنه -: نزلت في قول المنافقين
 للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم، وادخلوا في دينهم.

١٥٠ - ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم، فاستغنوا عن نصره غيره ﴿وَهُوَ خَيْرُ
 النَّاصِرِينَ﴾.

سَكُنْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
 سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ
 صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
 وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَّا تُحِبُّونَ

١٥١ - ﴿سَكُنْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الرُّعْبُ: شامي، وعليّ. وهما لغتان. قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد، فانهزموا إلى مكة من غير سبب، ولهم القوة والغلبة ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم، أي: كان السبب في إلقاء الرعب في قلوبهم إشراكهم به ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة. ولم يرز أن هناك حجة إلا أنها لم تنزل عليهم؛ لأن الشرك لا يستقيم أن تقوم عليه حجة. وإنما المراد: نفي الحجة ونزولها جميعاً، كقوله:

..... ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرُ (١)

أي: ليس بها ضب فينجحر، ولم يعن: أن بها ضباً ولا ينجحر ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾ ورجعهم ﴿النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ النار فالمخصوص بالذم محذوف.

١٥٢ - ولما رجع رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى المدينة قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟! فنزل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: حقق ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ تقتلونهم قتلاً ذريعاً. وعن ابن عيسى: حسه: أبطل حسه بالقتل ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره، وعلمه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبتم. ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: اختلفتم. ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أمر نبيكم بترككم المركز، واشتغالكم بالغنيمة ﴿مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر، وقهر الكفار. ومتعلق إذا محذوف تقديره: ﴿حتى إذا فشلت منكم نصره. وجاز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم.

(١) عجز بيت لابن أحمر، وصدرة: لا تنزع الأرنب أهوالها.

مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذَا تَصَعَّدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ

﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة، وهم الذين تركوا المركز لطلب الغنيمة.

رُوي أن رسول الله ﷺ جعل أحدًا خلف ظهره، واستقبل المدينة، وأقام الرماة عند الجبل، وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم، ولا يبرحوا؛ كانت الدولة للمسلمين أو عليهم. فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقيون يضربونهم بالسيوف، حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم، حتى إذا فشلوا وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا هاهنا؟ فادخلوا عسكر المسلمين، وخذوا الغنيمة مع إخوانكم. وقال بعضهم: لا تخالفوا أمر رسول الله ﷺ. فممن ثبت مكانه: عبد الله بن جبير - أمير الرماة - في نفر دون العشرة، وهم المعنيون بقوله ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فكرّ المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير، وأقبلوا على المسلمين حتى هزموهم، وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: كف معونته عنكم، فغلبوكم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ليمتحن صبركم على المصائب، وثباتكم عندها. وحقيقته: ليعاملكم معاملة المختبر؛ لأنه يجازي على ما يعمله العبد لا على ما يعلمه منه ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ حيث ندمتم على ما فرط منكم من عصيان أمر رسول الله ﷺ ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو عنهم، وقبول توبتهم. أو: هو متفضل عليهم في جميع الأحوال، سواء أدبيل لهم، أو أدبيل عليهم؛ لأن الابتلاء رحمة، كما أن النصرة رحمة.

١٥٣ - وانتصب ﴿إِذَا تَصَعَّدُونَ﴾ تبالغون في الذهاب في صعيد الأرض. والإصعاد: الذهاب في صعيد الأرض، والإبعاد فيه. بصرفكم، أو بقوله: ﴿ليبتليكم﴾ أو بلاضمار: اذكروا ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾ ولا تلتفتون. وهو عبارة عن غاية انزاهم، وخوف عدوهم ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ يقول: ﴿إِلَيَّ عباد الله! أنا رسول الله! من يكرّ فله الجنة».

فِي أُخْرَيْنَكُم مَّا قَاتَبْتُم بِغَمٍّ لِّكَيْلٍ تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا
مَّا أَصَابَكُمْ ۚ وَاللَّهُ خَيْرٌ يِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا
نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ

والجملة في موضع الحال ﴿فِي أُخْرَيْنَكُم﴾ في ساقتمكم، وجماعتكم الأخرى، وهي
المتأخرة. يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول: في أولهم،
وأولاهم؛ بتأويل مقدمتهم، وجماعتهم الأولى ﴿قَاتَبْتُم﴾ عطف على
صرفكم، أي: فجازاكم الله ﴿غَمًّا﴾ حين صرفكم عنهم، وابتلاكهم. ﴿يَغَمُّ﴾
بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم أمره، أو: غمًا مضاعفًا، غمًا بعد
غم، وغمًا متصلًا بغم، من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله ﷺ،
والجرح، والقتل، وظفر المشركين، وفوت الغنيمة والنصر ﴿لِّكَيْلٍ تَحْزَنُوا
عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ لتتمرنوا على تجرع الغموم، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت
من المنافع ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ ولا على مصيب من المضار ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يِّمَّا
تَعْمَلُونَ﴾ عالم بعملكم، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا ترغيب في
الطاعة، وترهيب عن المعصية.

١٥٤ - ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نُّعَاسًا﴾ ثم أنزل الله الأمن على

المؤمنين، وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم، حتى نَعَسُوا، وغلبهم النوم. عن
أبي طلحة: غشينا النعاس ونحن في مصافنا، فكان السيف يسقط من يد أحدهنا
فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه^(١). والأمنة: الأمن. و﴿نُعَاسًا﴾ بدل من أمنة. أو
هو مفعول، و﴿أمنة﴾ حال منه مقدمة عليه، نحو: رأيت راكبًا رجلًا.
والأصل: أنزل عليكم نعاسًا ذا أمنة، إذ النعاس ليس هو الأمن. ويجوز أن
يكون «أمنة» مفعولاً له، أو حالاً من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة، أو على أنه
جمع آمن، كبار وبررة ﴿يَغْشَىٰ﴾ يعني: النعاس. «تغشى» بالتاء والإمالة: حمزة،
وعلي، أي: الأمنة ﴿طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ هم أهل الصدق، واليقين ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾
هم المنافقون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ما يهتمهم إلا هم أنفسهم وخلصها، لا هم

يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ
 الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ
 شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى
 مَضَاجِعِهِمْ

الدين، ولا هم رسول الله ﷺ والمسلمين - رضوان الله عليهم - ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ في حكم المصدر، أي: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به. وهو ألا ينصر محمداً ﷺ ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل منه. والمراد: الظن المختصر بالملة الجاهلية. أو: ظن أهل الجاهلية، أي: لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط، يعنون: النصر، والغلبة على العدو ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ﴾ أي: النصر، والغلبة ﴿كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ولأوليائه المؤمنين ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] ﴿كُلَّهُ﴾ تأكيد للأمر والله ﴿خبر إن﴾ ﴿كُلَّهُ﴾ بصري. وهو مبتدأ، و﴿الله﴾ خبره، والجملة خبر إن. ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ خوفاً من السيف ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم، أو بعضهم لبعض، منكرين لقولك لهم: ﴿إن الأمر كله لله﴾ ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أي: لو كان الأمر كما قال محمد ﴿إن الأمر كله لله﴾ ولأوليائه، وأنهم الغالبون، لما غلبنا قط، ولما قُتِل من المسلمين من قُتِل في هذه المعركة. ﴿قد أهتمهم﴾ صفة لطائفة. و﴿يظنون﴾ خبر لطائفة، أو صفة أخرى، أو حال، أي: قد أهتمهم أنفسهم ظانين. و﴿يقولون﴾ بدل من ﴿يظنون﴾. و﴿يخفون﴾ حال من ﴿يقولون﴾. و﴿قل إن الأمر كله لله﴾ اعتراض بين الحال وذو الحال. و﴿يقولون﴾ بدل من ﴿يخفون﴾ أو استئناف ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: من علم الله منه أنه يقتل في هذه المعركة، وكتب ذلك في اللوح، لم يكن بُدَّ من وجوده. فلو قعدتم في بيوتكم ﴿لَبَرَزَ﴾ من بينكم ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ مصارعهم بأحد، ليكون ما علم الله أنه يكون. والمعنى: أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون لعلمه أن العاقبة في الغلبة لهم، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأن

وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ

ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان، فعل ذلك. أو فعل ذلك لمصالح جمة، وللابتلاء، والتمحيص ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بخفياتها.

١٥٥ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ انهموا ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع محمد ﷺ وجمع أبي سفيان للقتال بأحد ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ دعاهم إلى الزلة، وحملهم عليها ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ بتركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه. فالإضافة إلى الشيطان لطف وتقريب، والتعليل بكسبهم وغط وتأديب. وكان أصحاب محمد ﷺ تولوا عنه يوم أحد إلا ثلاثة عشر رجلاً، منهم: أبو بكر، وعلي، وطلحة، وابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والباقون من الأنصار ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

١٥٦ - ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كابن أبي وأصحابه ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: في حق إخوانهم في النسب، أو: في النفاق ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سافروا فيها للتجارة، أو غيرها ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ جمع غاز، كعاف وعُقى، وأصابعهم موت، أو قتل ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام تتعلق بـ«لا تكونوا»، أي: لا تكونوا كهؤلاء في النطق بذلك القول، واعتقاده؛ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم خاصة، ويصون منها قلوبكم. أو: بـ«قالوا»، أي: قالوا ذلك، واعتقدوه؛ ليكون ذلك حسرة في قلوبهم. والحسرة: الندامة على فوت المحبوب ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ رد لقولهم: إن القتال يقطع الآجال، أي: الأمر بيده، قد يحيي المسافر والمقاتل، ويميت

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ

المقيم والقاعد ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على أعمالكم. يعملون: مكّي، وحمزة، وعليّ، أي: الذين كفروا.

١٥٧ - ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ «متم» وبابه بالكسر، نافع، وكوفي، غير عاصم. تابعهم حفص إلا في هذه السورة، كأنه أراد الوفاق بينه وبين قتلتم. غيرهم بضم الميم في جميع القرآن. فالضم من: مات يموت. والكسر: من مات يمات كخاف يخاف، فكما تقول: خفت، تقول: مت ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ «ما» بمعنى الذي، والعائد محذوف. وبالياء: حفص^(١).

١٥٨ - ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ إلى الرحيم الواسع الرحمة، المشيب، العظيم الثواب تحشرون. ولوقوع اسم الله في هذا الموضع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن غني عن البرهان. «لمغفرة» جواب القسم، وهو ساذ مسدّ جواب الشرط. وكذلك ﴿لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾. كذب الكافرين أولاً في زعمهم: أن من سافر من إخوانهم، أو غزا، لو كان بالمدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنه سبب التقاعد عن الجهاد. ثم قال لهم: ولئن تمّ عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت، أو القتل في سبيل الله، فإن ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا؛ لأن الدنيا زاد المعاد، فإذا وصل العبد إلى المراد لم يحتاج إلى الزاد.

١٥٩ - ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ﴾ «ما» مزيدة للتوكيد، والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله. ومعنى الرحمة: ربطه على جأشه، وتوفيقه

(١) أشار المصنف - رحمه الله - إلى قراءة حفص المثبتة في النص، وأما قراءة «تجمعون» بالياء، فهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي.

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ

للفرق، والتلطف بهم ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ جافياً ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحدٌ منهم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ ما كان منهم يوم أحد مما يختص بك ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يختص بحق الله، إتماماً للشفقة عليهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي تطيباً لنفوسهم، وترويحاً لقلوبهم، ورفعاً لأقدارهم، ولتقتدي بك أمتك فيها. في الحديث: «ما تشاور قوم قط إلا هُدُوا لأرشد أمرهم»^(١). وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب رسول الله ﷺ^(٢). ومعنى: شاورت فلاناً: أظهرت ما عندي وما عنده من الرأي، وشرت الدابة: استخرجت جريها. وشرت العسل: أخذته من مأخذه. وفيه دلالة جواز الاجتهاد، وبيان أن القياس حُجَّةٌ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على الأرشد، لا على المشورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، والتوكل: الاعتماد على الله، وتفويض الأمر إليه. وقال ذو النون: خلع الأرباب وقطع الأسباب.

١٦٠ - ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم. وإنما يدرك نصر الله من تبرا من حوله وقوته، واستعصم بربه وقدرته ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد خذلانه، وهو: ترك المعونة؛ أو هو من قولك: ليس لك من يحسن إليك من

(١) قال ابن حجر: المحفوظ عن الحسن. ورواه الطبري موقوفاً عليه في التفسير (١٥٢/٤).

(٢) قال ابن حجر: هذا فيه تحريف، والصواب: من رسول الله ﷺ لأصحابه. رواه الترمذي بإثر حديث (١٧١٤) في الجهاد.

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦١﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٢﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ
كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَاؤُلُهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٣﴾

بعد فلان، تريد: إذا جاوزته. وهذا تنبيه على أنَّ الأمر كله لله، وعلى وجوب
التوكل عليه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وليخص المؤمنون ربهم بالتوكل
والتفويض إليه، لعلمهم: أنه لا ناصر سواه، ولأن إيمانهم يقتضي ذلك.

١٦١ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ مكى، وأبو عمرو، وعاصم، أي: يخون.
وبضم الباء وفتح الغين غيرهم. يقال: غلَّ شيئاً من المغنم غلولاً، وأغلَّ
إغلالاً: إذا أخذه في خفية، ويقال: أغله إذا وجده غالاً. والمعنى: ما صح له
ذلك، يعني: أن النبوة تنافي الغلول. وكذا من قرأ على البناء للمفعول، فهو
راجع إلى هذا لأن معناه: وما صح له أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالاً إلا إذا ان
غالاً. روي أن قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر مما أصيب من المشركين، فقال بعضُ
المنافقين: لعل رسول الله ﷺ أخذها. فنزلت الآية ^(١) ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ﴾ أي: يأت بالشيء الذي غلَّه بعينه، حاملاً له على ظهره، كما جاء في
الحديث ^(٢) ؛ أو: يأت بما احتمل من وباله وإثمه ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا
كَسَبَتْ﴾ تُعطى جزاءها وافياً. ولم يقل: ثم يوفى ما كسب - ليتصل بقوله: ومن
يغلل - بل جيء بعام ليدخل تحته كل كاسب من الغال وغيره، فاتصل به من
حيث المعنى. وهو أبلغ؛ لأنه إذا علم الغال: أنَّ كلَّ كاسب خيراً أو شراً مجزي
فموفى جزاءه، علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب ﴿وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ﴾ أي: جزاء كلِّ على قدر كسبه.

١٦٢ - ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ﴾ أي: رضا الله. قيل: هم المهاجرون
والأنصار ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وهم المنافقون والكفار ﴿وَمَاؤُلُهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ
الْمَصِيرُ﴾ المرجع.

(١) رواه الترمذي (٣٠٠٩).

(٢) رواه أحمد (٤٢٦/٢) والبخاري (٣٠٧٣) ومسلم (١٨٣١).

هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ

١٦٣ - ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات. أو: ذوو درجات. والمعنى: تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتها، فيجازيهم على حسابها.

١٦٤ - ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه. وخصّ المؤمنين منهم؛ لأنهم هم المنتفعون ببعثته ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من جنسهم عربياً مثلهم. أو: من ولد إسماعيل كما أنهم من ولده. والمنّة في ذلك من حيث إنه إذا [كان منهم] ^(١) كان اللسان واحداً، فيسهل أخذ ما يحبّ عليهم أخذه عنه. وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه، وكان لهم شرف بكونه منهم. وفي قراءة رسول الله من أنفسهم، أي: من أشرفهم ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي: القرآن، بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم بالإيمان من دنس الكفر والطغيان، أو: يأخذ منهم الزكاة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ القرآن، والسنة ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ من قبل بعثة الرسول ﷺ. ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عَمَى، وجهالة ﴿مُبِينٍ﴾ ظاهر لا شبهة فيه. إن خففة من الثقلة، واللام فارقة بينها وبين النافية. والتقدير: وإن الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال مبين.

١٦٥ - ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ يريد ما أصابهم يوم قُتِلَ سبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين، وأسر سبعين. وهو في موضع رفع صفة لمصيبة ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ من أين هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَا فَوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ

لاختياركم الخروج من المدينة، أو لترككم المركز ﴿لما﴾ نصب بقلتم، و﴿أصابتكم﴾ في محل الجر بإضافة لما إليه، وتقديره: أقلتم حين أصابتكم، و﴿أنى هذا﴾ نصب؛ لأنه مقول. والهمزة: للتقرير والتقرير. وعطفت الواو هذه الجملة على ما مضى من قصة أحد من قوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ أو على محذوف، كأنه قيل: أفعلتم كذا، وقلتم حينئذ كذا؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على النصر وعلى منعه.

١٦٦ - ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ «ما» بمعنى الذي، وهو مبتدأ ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ جمعكم وجمع المشركين بأحد. والخبر: ﴿فَيَا ذِينَ اللَّهِ﴾ فكائن بإذن الله، أي: بعلمه، وقضائه ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦٧ - ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وهو كائن؛ لتمييز المؤمنون والمنافقون، وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ للمنافقين، وهو كلام مبتدأ ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: جاهدوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ أي: قاتلوا دفعاً عن أنفسكم، وأهليكم، وأموالكم، إن لم تقاتلوا للآخرة. وقيل: ﴿أَوْ ادفعوا﴾ العدو بتكثيركم سواد المجاهدين إن لم تقاتلوا؛ لأن كثرة السواد مما ترؤع العدو ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ أي: لو نعلم ما يصح أن يُسمى قتالاً لاتبعناكم. يعنون: أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم ليس بشيء، ولا يقال لمثله: قتال، إنما هو: إلقاء النفس في التهلكة ﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ يعني: أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك، وما ظهرت منهم أماراة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين، وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم، واقتربوا من الكفر. أو: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان؛ لأن تقليلهم سواد المؤمنين بالانخذال تقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ يَا فَوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: يظهرون خلاف ما يضمرون من

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

الإيمان وغيره. والتقيد بالأفواه للتأكيد، ونفي المجاز ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق.

١٦٨ - ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ أي: ابن أبي وأصحابه. وهو في موضع رفع على «هم الذين قالوا». أو: على الإبدال من واو «يكتمون». أو نصب بإضمار: أعني. أو على البدل «من الذين نافقوا». أو جرّ على البدل من الضمير في «أفواههم» أو قلوبهم ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد ﴿وَقَعَدُوا﴾ أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال. ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من الانصراف عن رسول الله ﷺ والقعود، ووافقونا فيه، لما قتلوا كما لم نقتل ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن الحذر ينفع من القدر، فخذوا حذرکم من الموت. أو: معناه: قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً، وهو القعود عن القتال، فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً. ورؤي أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً.

١٦٩ - ونزل في قتلى أحد: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ شامي، وحمزة، وعلي، وعاصم، وبكسر السين غيرهم. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ قتلوا، شامي ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ بل هم أحياء ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مقربون عنده، ذوو زلفى ﴿يُرْزَقُونَ﴾ مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون. وهو تأكيد لكونهم أحياء، ووصف لحالهم التي هم عليها من التنعم برزق الله.

١٧٠ - ﴿فَرِحِينَ﴾ حال من الضمير في يرزقون ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو التوفيق في الشهادة، وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مقربين، معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها. وقال النبي ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، تدور في أنهار

وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧١﴾
 ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ
 اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ

الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش»^(١). وقيل: هذا الرزق في الجنة يوم القيامة. وهو ضعيف؛ لأنه لا يبقى للتخصيص فائدة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ﴾ بإخوانهم المجاهدين الذين ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا من بعدهم، وهم قد تقدموهم. أو: ﴿لم يلحقوا بهم﴾: لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من «الذين»، والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين، وهو: أنهم يعيشون آمنين يوم القيامة. بشرهم الله بذلك، فهم مستبشرون به. وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقيين بعدهم على الجد في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١٧١ - ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ يسرون بما أنعم الله عليهم، وما تفضل عليهم من زيادة الكرامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ عطف على النعمة والفضل. وإن الله علي، بالكسر على الاستئناف، وعلى أن الجملة اعتراض ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يُوفَّر عليهم.

١٧٢ - ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ الجرح. رُوي أن أباسفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد، فبلغوا الروحاء ندموا، وهتوا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم، ويريم من نفسه وأصحابه قوة، فندب النبي أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، فخرج يوم الأحد من المدينة مع سبعين رجلاً حتى بلغوا حراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، وكان بأصحابه القرح، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

فذهبوا. فنزلت ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا﴾ «من» للتبيين، مثلها في قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾ [الفتح: ٢٩] لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا، لا بعضهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

١٧٣ - ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ بدل من الذين استجابوا ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا

لَكُمْ﴾ رُوي أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد! موعدنا موسم بدر القابل. فقال ﷺ: «إن شاء الله». فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة، فألقى الله الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي - وقد قدم معتمراً - فقال: يا نعيم! إني واعدتُ محمداً أن نلتقي بموسم بدر. وقد بدا لي أن أسلم فالحق بالمدينة، فبسطهم، ولك عندي عشرة من الإبل. فخرج نعيم، فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: أتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم؟! فوالله لا يفلت منكم أحد. فقال ﷺ: «والله

لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد». فخرج في سبعين راكباً، وهم يقولون: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ حتى وافوا بدرأ، وأقاموا بها ثمانى ليال. وكانت معهم تجارة فباعوها، وأصابوا خيراً، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ولم يكن قتال، ورجع أبو سفيان إلى مكة. فسَمَّى أهل مكة جيشه جيش السويق، وقالوا: إنما خرجتم لتأكلوا السويق^(١). فالناس الأول: نعيم، وهو جمع أريد به الواحد. أو كان له أتباع يثبطون مثل تشبیطه. والثاني: أبو سفيان وأصحابه ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ فخافوهم ﴿فَزَادَهُمْ﴾ أي: المقول الذي هو: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ أو: القول، أو: نعيم ﴿إِيمَانًا﴾ بصيرة، وإيقاناً ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كافينا الله، أي: الذي يكفيننا الله. يقال: أحسبه الشيء: إذا كفاه، وهو بمعنى المحسب، بدليل أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة؛

(١) رواه ابن سعد من طريق ابن إسحاق، وموسى بن عقبة، وغيرهما. (حاشية الكشف

وَيَنْعَمَ الْوَسِيْلُ ﴿١٧٦﴾ فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٧﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٨﴾ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

لأن إضافته غير حقيقية لكونه في معنى اسم الفاعل ﴿وَيَنْعَمَ الْوَسِيْلُ﴾ ونعم الموكول إليه هو.

١٧٤ - ﴿فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهي السلامة، وحذر العدو منهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ وهو الربح في التجارة، فأصابوا بالدرهم درهمين ﴿لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ﴾ لم يلقوا ما يسوؤهم من كيد عدو. وهو حال من الضمير في ﴿انقلبوا﴾ وكذا ﴿بنعمة﴾ والتقدير: فرجعوا من بدر منعمن برينين من سوء ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بجراءتهم، وخروجهم إلى وجه العدو على أثر تشبته. وهو معطوف على انقلبوا ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا.

١٧٥ - ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ هو خبر ﴿ذلكم﴾ أي: ﴿إنما ذلكم﴾ المثبط هو ﴿الشيطان﴾ وهو نعيم ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: المنافقين. وهو جملة مستأنفة بيان لشيطنته. أو: ﴿الشيطان﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿يخوف﴾ الخبر ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: أوليائه ﴿وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يقتضي أن يؤثر العبد خوف الله على خوف غيره. وخافوني في الوصل والوقف، سهل ويعقوب. وافقهما أبو عمرو في الوصل.

١٧٦ - ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾ يحزنك في كل القرآن: نافع، إلا في سورة الأنبياء ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ﴿الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يعني: لا يحزنوك لخوف أن يضررك، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي: أوليائه الله، يعني: أنهم لا يضررون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، وما وبال ذلك عائداً على غيرهم. ثم يتن كيف يعود وباله عليهم بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: نصيباً من الثواب ﴿وَلَهُمْ﴾ بدل الثواب ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك أبلغ ما ضر به الإنسان نفسه. والآية تدل على إرادة الكفر

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ

والمعاصي؛ لأن إرادته ألا يكون لهم ثواب في الآخرة لا تكون بدون إرادة كفرهم، ومعاصيهم.

١٧٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: استبدلوه به ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ هو نصب على المصدر، أي: شيئاً من الضرر. الآية الأولى فيمن نافق من المتخلفين، أو ارتد عن الإسلام، والثانية في جميع الكفار. أو على العكس ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٧٨ - ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ وثلاثة بعدها مع ضم الباء في ﴿يَحْسَبْنَهُمْ﴾ بالياء، مكى، وأبو عمرو. وكلها بالتاء حمزة. وكلها بالياء مدني، وشامي إلا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فإنها بالتاء. الباقيون: الأوليان بالياء، والأخريان بالتاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيمن قرأ بالياء رفع، أي: ولا يحسبن الكافرون. وأن مع اسمه وخبره في قوله: ﴿أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ في موضع المفعولين ليحسبن، والتقدير: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ إملاءنا خيراً لأنفسهم. و«ما» مصدرية، وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في الإمام متصلة، فلا يخالف. وفيمن قرأ بالتاء نصب، أي: ولا تحسبن الكافرين. و﴿أنما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ بدل من الكافرين، أي: ولا تحسبن أن ما نملي للكافرين خير لهم. وأن مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين. والإملاء لهم: إمهالهم، وإطالة عمرهم ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ «ما» هذه حقها أن تكتب متصلة؛ لأنها كافة دون الأولى. وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها، كأنه قيل: ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم؟ فقيل: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾. والآية حجة لنا على المعتزلة في مسألتني الأصلح، وإرادة المعاصي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

١٧٩ - اللام في: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اختلاط

حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ

المؤمنين الخُلص والمُنافقين؛ لتأكيد النفي ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص ﴿يَمِيزُ﴾: حمزة، وعليّ. والخطاب في ﴿أَنْتُمْ﴾ للمصدقين من أهل الإخلاص والنفاق. كأنه قيل: ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه، وإخباره بأحوالكم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ وما كان الله ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول بنفاق الرجل، وإخلاص الآخر، أنه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله، فيخبر عن كفرها وإيمانها ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: ولكن الله يرسل الرسول فيوحي إليه، ويخبره بأن في الغيب كذا، وأن فلاناً في قلبه النفاق، وفلاناً في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة نفسه. والآية حُجّة على الباطنية، فإنهم يدّعون ذلك العلم لإمامهم، فإن لم يشتوا النبوة له صاروا مخالفين للنص، حيث أثبتوا علم الغيب لغير الرسل. وإن أثبتوا النبوة له صاروا مخالفين لنص آخر، وهو قوله: ﴿وَحَآتَمَ النَّيْسُ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بصفة الإخلاص. ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ النفاق ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

١٨٠ - ونزل في مانعي الزكاة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من قرأ بالتاء قدر مضافاً محذوفاً، أي: ولا تحسبن بخل الباخلين. و﴿هو﴾ فصل. و﴿خيراً لهم﴾ مفعول ثان. وكذا من قرأ بالياء، وجعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله، أو ضمير أحد. ومن جعل فاعله «الذين يبخلون» كان التقدير: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ بخلهم ﴿هو خيراً لهم﴾ وهو: فصل، وخيراً لهم: مفعول ثان ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: البخل ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لأن أموالهم ستزول عنهم، ويبقى عليهم وبأل البخل ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ

الْفَيْسَمَةِ وَاللَّهُ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨١﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٢﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ

الْفَيْسَمَةِ تفسير لقوله ﴿بل هو شر لهم﴾ أي: سيجعل مالهم الذي منعه عن الحق طوقاً في أعناقهم، كما جاء في الحديث: «من منع زكاة ماله يصير حية ذكراً أقرع له نابان فيطوق في عنقه فينشه ويدفعه إلى النار»^(١) ﴿وَاللَّهُ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وله ما فيهما مما يتوارثه أهلها من مال وغيره، فما لهم يخلون عليه بملكه، ولا ينفقونه في سبيل الله؟! والأصل في ميراث: موارث، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وبالباء مكى، وأبو عمرو، فالتاء على طريقة الالتفات، وهي أبلغ في الوعيد. والباء على الظاهر.

١٨١ - ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قال ذلك اليهود

حين سمعوا قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقالوا: إن إله محمد يستقرض منا، فنحن إذا أغنياء وهو فقير. ومعنى سماع الله له، أنه لم يخف عليه، وأنه أعد له كفاء من العقاب ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوا في الصحائف. أو: سنحفظه إذ الكتاب من الخلق ليحفظ ما فيه، فسمي به مجازاً. و«ما» مصدرية، أو: بمعنى الذي ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ معطوف على ما. جعل قتلهم الأنبياء قرينة له، إيداناً بأنهما في العظم أخوان، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجترأ على مثل هذا القول ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم يوم القيامة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: عذاب النار كما أذقتهم المسلمين الغصص. قال الضحاك: يقول لهم ذلك خزنة جهنم. وإنما أضيف إلى الله تعالى؛ لأنه بأمره كما في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾. ﴿سَيُكْتَبُ﴾، و﴿وَقَتْلَهُمُ﴾، ويقول: حمزة.

١٨٢ - ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من عقابهم ﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ﴾ أي:

ذلك العذاب بما قدّمتم من الكفر والمعاصي. والإضافة إلى اليد؛ لأن أكثر

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٢٠) والبخاري (١٤٠٢) والنسائي (٦/ ٢٣-٢٤) وابن ماجه (١٧٨٦).

وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ
لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَٰلَيْسَتْ
وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

الأعمال يكون بالأيدي، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب. ولأنه يقال للأمر بالشيء: فاعله، فذكر الأيدي للتحقيق، يعني: أنه فعل نفسه لا غيره بأمره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وبأن الله لا يظلم عباده، فلا يعاقبهم بغير جرم.

١٨٣ - ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ في موضع جر على البدل من ﴿الذين قالوا﴾. أو: نصب بإضمار: أعني. أو: رفع بإضمار: هم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أمرنا في التوراة، وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ بألا نؤمن. ﴿لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أي: يقرب قرباناً فتزل نار من السماء فتأكله، فإن جئتنا به صدقناك. وهذه دعوى باطلة، وافتراء على الله؛ لأن أكل النار القربان سبب الإيمان للرسول الآتي به؛ لكونه معجزة، فهو إذاً وسائر المعجزات سواء ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَٰلَيْسَتْ﴾ بالمعجزات سوى القربان ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي: بالقربان. يعني: قد جاء أسلافكم الذين أنتم على ملتهم، وراضون بفعلهم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: إن كان امتناعكم عن الإيمان لأجل هذا، فلم لم تؤمنوا بالذين أتوا به؟ ولم قتلتموهم؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم: إنما نؤخر الإيمان لهذا.

١٨٤ - ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن كذبك اليهود، فلا يهولنك، فقد فعلت الأمم بأنبيائها كذلك ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ الكتب، جمع زبور، من الزبر، وهو: الكتابة. ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ شامي ﴿وَالكِتَابِ﴾ جنسه. ﴿الْمُنِيرِ﴾ المضيء. قيل: هما واحد في الأصل. وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين. فالزبور: كتاب فيه حكم زاجرة. والكتاب المنير هو: الكتاب الهادي.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْجِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾
 ﴿تُتْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿١٨٦﴾

١٨٥ - ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من العموم. والمعنى: لا يحزنك تكذيبهم إياك، فمرجع الخلق إليّ، فأجازيهم على التكذيب، وأجازيك على الصبر، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: تعطون ثواب أعمالكم على الكمال يوم القيامة؛ فإن الدنيا ليست بدار الجزاء ﴿فَمَنْ زُحْجِحَ﴾ بعد، والزحزحة: الإبعاد؛ ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظفر بالخير. وقيل: فقد حصل له الفوز المطلق، وقيل: الفوز: نيل المحبوب، والبعد عن المكروه ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويفرّ، حتى يشتريه، ثم يتبيّن له فسادُه ورداءته. والشیطان: هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبیر: إنما هذا لمن أثرها على الآخرة. فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ. وعن الحسن: كخضرة النبات، ولعب البنات، لا حاصل لها.

١٨٦ - ﴿تُتْلَوْنَ﴾ والله لتبلون، أي: لتختبرن ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالإنفاق في سبيل الله، وبما يقع فيها من الآفات ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بالقتل، والأسر، والجراح، وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب. وهذه الآية دليل على أنّ النفس هي الجسم المعاین دون ما فيه من المعنى الباطن، كما قال بعض أهل الكلام والفلسفة، كذا في «شرح التأويلات» ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ كالطعن في الدين، وصّد من أراد الإيمان، وتخطيط من آمن، ونحو ذلك. ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مخالفة أمر الله ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ فإن الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ من معزومات الأمور، أي: مما يجب العزم عليه من الأمور. خوطب المؤمنون بذلك؛ ليوطنوا أنفسهم على

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيْنْتُهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

احتمال ما سيلقون من الشدائد والصبر عليها، حتى إذا لقوها - لقوها وهم مستعدون - لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغته، فينكرها، وتشمئز منها نفسه.

١٨٧ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ واذكروا وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب ﴿لُبِّيْنْتُهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ عن الناس. بالتاء على حكاية مخاطبتهم، كقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدَنَّ﴾ [الإسراء: ٤]. وبالياء: مكِّي، وأبو عمرو، وأبو بكر؛ لأنه غيب. والضمير للكتاب. أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانهم ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فنبدوا الميثاق، وتأكيده عليهم، أي: لم يراعوه، ولم يلتفتوا إليه. والنبد وراء الظهر مثل في الطرح، وترك الاعتداد. وهو دليل على أنه يجب على العلماء أن يبينوا الحق للناس، وما علموه، وألا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطبيب لنفوسهم، أو لجزء منفعة، أو دفع أذية، أو لبخل بالعلم. وفي الحديث: «من كتم علماً عن أهله ألجمه الله بلجام من نار»^(١) ﴿وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً سيراً ﴿فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

١٨٨ - والخطاب في: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لرسول الله ﷺ، وأحد المفعولين ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ والثاني ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ تأكيد. تقديره: لا تحسبنهم فائزين ﴿بِمَا آتَوْا﴾ بما فعلوا، وهي قراءة أبي. وجاء وأتى يستعملان بمعنى فعل ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ وَعَدُّوْا مَاتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]. وقرأ النخعي: بما آتوا، أي: أعطوا ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ بمنجاة منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

(١) رواه أحمد (٢/٢٦٣) وأبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩) وابن ماجه (٢٦١).

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

روي أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء مما في التوراة، فكتموا الحق، وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوه، واستحمدوا إليه، وفرحوا بما فعلوا من تدليسهم فأطلع الله رسوله على ذلك؛ وسأله بما أنزل من وعيدهم. أي: لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك، ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه، ناجين من العذاب. وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين، وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم، ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة. وفيه وعيد لمن يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب، ويجب أن يحمده الناس بما ليس فيه.

١٨٩ - ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهم. وفيه تكذيب لمن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على عقابهم.

١٩٠ - ﴿إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ واضحة على صانع قديم، عليم، حكيم، قادر ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لمن خلص عقله عن الهوى خلوص اللب عن القشر. فيرى أن العرض المحدث في الجواهر يدل على حدوث الجواهر؛ لأن جوهرًا ما لا ينفك عن عرض حادث، وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث. ثم حدوثها يدل على محدثها، وذا قديم، وإلا لاحتاج إلى محدث آخر إلى ما لا يتناهى. وحسن صنعه يدل على علمه، وإتقانه يدل على حكمته، وبقاؤه يدل على قدرته. قال ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»^(١). وحكي أنه كان في بني إسرائيل من إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلمت سحابة، فعبده فتى فلم تظله، فقالت له أمه: لعل فرطاً فرطت منك في

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٠٩/٢).

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

مدتك؟! قال: ما أذكر. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبر؟! قال:
لعل. قالت: فما أوتيت إلا من ذاك.

١٩١ - ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع جر نعت لـ: «أولي»، أو نصب بإضمار أعني،
أو رفع بإضمار هم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ يصلون ﴿قِيَمًا﴾ قائمين عند القدرة
﴿وَقُعُودًا﴾ قاعدين. ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: مضطجعين عند العجز. وقياماً
وقعوداً حالان من ضمير الفاعل في ﴿يذكرون﴾. و﴿على جنوبهم﴾ حال أيضاً.
أو: المراد الذكر على كل حال؛ لأن الإنسان لا يخلو عن هذه الأحوال. وفي
الحديث: «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله»^(١) ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾
فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وما يدلُّ عليه اختراع هذه الأجرام العظام، وإبداع
صنعتها، وما دبرَ فيها مما تكلُّ الأفهام عن إدراك بعض عجائبه، من عظم شأن
الصانع، وكبرياء سلطانه. وعن النبي ﷺ: «بيننا رجل مستلقٍ على فراشه إذ رفع
رأسه، فنظر إلى النجوم وإلى السماء، فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً، اللهم
اغفر لي، فنظر الله إليه فغفر له»^(٢). وقال ﷺ: «لا عبادة كالتفكير»^(٣). وقيل:
الفكرة تذهب الغفلة، وتحدث للقلب الخشية، وما جلّيت القلوب بمثل
الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكر ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أي: يقولون
ذلك. وهو في محل الحال، أي: يتفكرون قائلين. والمعنى: ما خلقته خلقاً باطلاً
بغير حكمة، بل خلقته لحكمة عظيمة، وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين، وأدلة
لهم على معرفتك. وهذا إشارة إلى الخلق على أن المراد به المخلوق، أو إلى
السموات والأرض؛ لأنها في معنى المخلوق، كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوق
العجيب باطلاً ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً لك عن الوصف بخلق الباطل. وهو
اعتراض ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الفاء دخلت لمعنى الجزاء، تقديره: إذا نزهناك فقنا.

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٢/١٠).

(٢) رواه الثعلبي. حاشية الكشف (٤٥٤/١).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٦٤٨).

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاِئِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ

١٩٢ - ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أهنته، أو أهلكته، أو فضحته. واحتج أهل الوعيد بالآية مع قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨] في أَنَّ مَنْ يدخل النار لا يكون مؤمناً ويخلد. قلنا: قال جابر: إخزاء المؤمن تأديبه، وإن فوق ذلك لخزياً ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ اللام إشارة إلى من يدخل النار، والمراد: الكفار ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ من أعوان وشفعاء يشفعون لهم كالمؤمنين.

١٩٣ - ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ تقول: سمعت رجلاً يقول كذا، فتوقع الفعل على الرجل، وتحذف المسموع؛ لأنك وصفته بما يسمع، فأغناك عن ذكره، ولولا الوصف لم يكن منه بُد، وأن يقال: سمعت كلام فلان، والمنادي هو الرسول ﷺ، أو القرآن ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ لأجل الإيمان بالله، وفيه تفخيم لشأن المنادي، إذ لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان ﴿أَنْ ءَامِنُوا﴾ بأن آمنوا، أو: أي: آمنوا ﴿بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: فيه دليل بطلان الاستثناء في الإيمان ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ صغائرنا ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ مخصوصين بصحبته، معدودين في جملتهم. والأبرار: المتمسكون بالسنة، جمع بر، أو بار، كرب وأرباب، وصاحب وأصحاب.

١٩٤ - ﴿رَبَّنَا وَءَاِئِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ أي: على تصديق رسلك، أو: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو: على السنة رسلك. و﴿على﴾ متعلق بوعدتنا. والموعود هو الثواب، أو النصرة على الأعداء. وإنما طلبوا إنجاز ما وعد الله - والله لا يخلف الميعاد - لأن معناه: طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد. أو: المراد: اجعلنا ممن لهم الوعد إذ الوعد غير مبيّن لمن هو. أو: المراد ثبتنا على ما يوصلنا إلى عدتك، يؤيده قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٥﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ
أَوْ أَنْتُمْ بِبَعْضِكُمْ مِّنَ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي
وَقُتِلُوا وَقَاتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٦﴾ لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٧﴾

أو: هو إظهار للخضوع والضعف ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ هو مصدر بمعنى الوعد.
١٩٥ - ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أجاب، يقال: استجاب له، واستجابه
﴿أَنِّي﴾ بآني. ﴿لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ﴾ صفة لعامل ﴿مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ﴾ بيان
لعامل ﴿بَعْضِكُمْ مِّنَ بَعْضٍ﴾ الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، كلكم بنو آدم.
أو: بعضكم من بعض في النصرة والدين. وهذه جملة معترضة بُيِّنَتْ بها شركة
النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده العاملين. عن جعفر الصادق - رضي
الله عنه -: من حزنه أمر فقال خمس مرات: ربنا... أنجاه الله مما يخاف،
وأعطاه ما أراد. وقرأ الآيات ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ مبتدأ، وهو تفصيل لعمل
العامل منهم، على سبيل التعظيم له، كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال
السنية الفائقة، وهي الهجرة عن أوطانهم، فارين إلى الله بدينهم إلى حيث
يؤمنون عليه. فالهجرة كائنة في آخر الزمان كما كانت في أول الإسلام ﴿وَأُخْرِجُوا
مِن دِيَارِهِمْ﴾ التي وُلِدُوا فيها ونشؤوا ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ بالشتم، والضرب،
ونهب المال. يريد: سبيل الدين ﴿وَقُتِلُوا وَقَاتِلُوا﴾ وغزوا المشركين واستشهدوا
﴿وَقَاتِلُوا﴾: مكى، وشامي. (وقتلوا وقاتلوا) على التقديم والتأخير، حمزة،
وعلي. وفيه دليل على أَنَّ الواو لا توجب الترتيب. والخبر ﴿لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهو جواب قسم محذوف
﴿ثَوَابًا﴾ في موضع المصدر المؤكد، يعني: إثابة، أو ثويباً ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لأن
قوله: ﴿لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ في معنى: لأثيبهم ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ
حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي: يختص به، ولا يقدر عليه غيره.

١٩٦ - ورؤي أَنَّ طائفةً من المؤمنين قالوا: إن أعداء الله فيما نرى من
الخير، وقد هلكنا من الجوع، فنزل: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾.

مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ

والخطاب لكل أحد. أو للنبي ﷺ، والمراد به غيره. أو: لأن مدرة^(١) القوم ومقدمهم يخاطب بشيء، فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكانه قيل: لا يغرنكم. أو: لأن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم، فأكد عليه ما كان عليه، وثبت على التزامه، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. وهذا في النهي نظير قوله في الأمر: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦].

١٩٧ - ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: تقبلهم في البلاد متاع قليل. وأراد: قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو: في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، أو: أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه، وكل زائل قليل ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وساء ما مهدوا لأنفسهم.

١٩٨ - ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ عن الشرك ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا﴾ الثُّزُل والثُّزُل: ما يقام للنازل. وهو حال من جنات لتخصصها بالصفة، والعامل اللام في «لهم»؛ أو: هو مصدر مؤكد، كأنه قيل: رزقاً، أو: عطاء ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ صفة له ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الكثير الدائم ﴿خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل. «لكن» بالتشديد: يزيد. وهو للاستدراك، أي: لا بقاء لتمتعهم، لكن ذلك للذين اتقوا.

١٩٩ - ونزلت في ابن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب، أو: في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم، وكانوا على دين عيسى عليه السلام، فأسلموا ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ دخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن

(١) جاء في حاشية الأصل المخطوط: مدرة القوم: سيدهم.

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين ﴿خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن؛ لأن من يؤمن في معنى الجمع ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم، وهو حال بعد حال، أي: غير مشترين ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يختص بهم من الأجر. وهو ما وعده في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُوْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لنفوذ علمه في كل شيء.

٢٠٠ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ على الدين وتكاليفه. قال الجنيد - رحمه الله -: الصبر: حبس النفس على المكروه بنفي الجزع ﴿وَصَابِرُوا﴾ أعداء الله في الجهاد، أي: غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً ﴿وَرَابِطُوا﴾ وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها، مترصدين، مستعدين للغزو ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الفلاح: البقاء مع المحبوب بعد الخلاص عن المكروه. ولعل: لتغيب المال لثلا يتكلوا على الآمال عن تقديم الأعمال. وقيل: اصبروا في محبتي، وصابروا في نعمتي، ورابطوا أنفسكم في خدمتي، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: تظفرون بقربتي.

قال النبي ﷺ: «اقرأوا الزهراوين: البقرة، وآل عمران؛ فإنهما يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو: غيايتان، أو: فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما»^(١). والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

* * *

(١) رواه مسلم (٨٠٤). «كأنهما غمامتان أو غيايتان»: الغمامة والغياية: كل شيء أظلم الإنسان فوق رأسه: سحابة وغبرة وغيرهما. «أو فرقان من طير صواف»: الفرقان: القطعتان أو الجماعتان. و«طير صواف»: هي التي تبسط أجنحتها في الهواء. «تحاجان»: تدافعان، وهو كناية عن المبالغة في الشفاعة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يا بني آدم ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فرَّعكم من أصل واحد، وهو نفس آدم أبيكم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معطوف على محذوف، كأنه قيل: من نفس واحدة، أنشأها، وخلق منها زوجها. والمعنى: شعَّبكم من نفس واحدة هذه صفتها، وهي أنه أنشأها من تراب، وخلق منها زوجها حواء من ضلع من أضلاعه ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ [ونشر من آدم وحواء] ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ كثيرة، أي: وبثَّ منهما نوعي جنس الإنس، وهما: الذكور والإناث^(١). فوصفها بصفة هي بيان وتفصيل لكيفية خلقهم منها. أو: على خلقكم، والخطاب في ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ للذين بعث إليهم رسول الله ﷺ. والمعنى: خلقكم من نفس آدم، وخلق منها أمكم حواء، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً غيركم من الأمم الفاتئة للحصر. فإن قلت: الذي تقتضيه جزالة النظم أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يدعو إليها، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره داعياً إليها؟ قلت: لأن ذلك مما يدلُّ على القدرة العظيمة، ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء، ومن المقدورات عقاب

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ

الكفار والفجار، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه، ويخشى عقابه؛ ولأنه يدلُّ على النعمة السابعة عليهم، فحقَّهم أن يتقوه في كفرانها. قال ﷺ عند نزول الآية: «خُلقت المرأة من الرجل فهمَّها في الرجل، وخلق الرجل من التراب فهمَّه في التراب»^(١) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾^(٢) والأصل: تتساءلون، فأدغمت التاء في السين بعد إبدالها سيناً لقرب التاء من السين للهمس. «تساءلون به» - بالتخفيف - كوفي، على حذف التاء الثانية استثقلاً لاجتماع التاءين. أي: يسأل بعضكم بعضاً بالله وبالرحم، فيقول: بالله وبالرحم افعل كذا، على سبيل الاستعطاف ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالنصب على أنه معطوف على اسم الله تعالى، أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها. أو على موضع الجار والمجرور، كقولك: مررت بزيد وعمراً. أو: بالجر، حمزة، على عطف الظاهر على الضمير، وهو ضعيف؛ لأن الضمير المتصل كاسمه متصل، والجار والمجرور كشيء واحد، فأشبهه العطف على بعض الكلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ حافظاً أو عالماً.

٢ - ﴿وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني: الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم. واليتيم: الانفراد، ومنه: الدرة اليتيمة. وقيل: اليتيم في الأناسي من قبل الآباء، وفي البهائم من قبل الأمهات. وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار؛ لبقاء معنى الانفراد عن الآباء، إلا أنه قد غلب أن يسمُّوا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم زال هذا الاسم عنهم. وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يُتَمَّ بعد الحلم»^(٣) تعليم شريعة لالغة. يعني: أنه إذا احتلم لم تحجِّر عليه أحكام الصغار. والمعنى: وآتوا اليتامى أموالهم بعد

(١) ذكره السيوطي في (الدر المنثور ٢/٤٢٣) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿تَسَاءَلُونَ﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٠٣/٢).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٧٣).

وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ

البلوغ. وسماهم يتامى لقرب عهدهم - إذا بلغوا - بالصغر. وفيه إشارة إلى ألا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام - وهو مال اليتامى - بالحلal - وهو مالكم - أو: لا تستبدلوا الأمر الخبيث - وهو اختزال أموال اليتامى - بالأمر الطيب - وهو حفظها، والتورع عنها.. والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز، ومنه التعجل بمعنى الاستعجال ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ «إلى» متعلقة بمحذوف، وهو في موضع الحال، أي: مضافة إلى أموالكم. والمعنى: ولا تضموها إليها في الإنفاق حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم قلة مبالاة بما لا يحل لكم، وتسوية بينه وبين الحلal ﴿إِنَّهُ﴾ إن أكلها ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ذنباً عظيماً.

٣ - ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ أي: لا تعدلوا. أقسط، أي: عدل ﴿فِي الْيَنْبَىٰ﴾ [يقال للإنان اليتامى، كما يقال للذكور، وهو جمع يتيمة ویتيم، وأما أيتام فجمع یتيم لا غير] ^(١) ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ ما حل لكم ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ لأن منهن ما حرم الله كاللاتي في آية التحريم. وقيل: ﴿مَا﴾ ذهاباً إلى الصفة؛ لأن «ما» يجيء في صفات من يعقل، فكانه قيل: الطيبات من النساء. ولأن الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء. ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قيل: كانوا لا يتحرّجون من الزنى، ويتحرّجون من ولاية اليتامى، فقيل: إن خفتهم الجور في حق اليتامى فخافوا الزنى، فانكحوا ما حل لكم من النساء، ولا تحوموا حول المحرمات. أو: كانوا يتحرّجون من الولاية في أموال اليتامى، ولا يتحرّجون من الاستكثار من النساء، مع أن الجور يقع بينهما إذا كثرن، فكانه قيل: إذا تحرّجتم من هذا فتحرجوا من ذلك. وقيل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي﴾ نكاح «اليتامى فانكحوا» من البالغات. يقال: طابت الثمرة،

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

مَثْنٍ وَثُلَاثٍ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾
وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً

أي: أدركت ﴿مَثْنٍ وَثُلَاثٍ وَرُبْعٍ﴾ تكرات. وإنما مُنعت الصرف للعدل والوصف، وعليه دلّ كلام سيويه. ومحلّهن النصب على الحال من النساء، أو مما طاب، تقديره: فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً. فإن قلت: الذي أطلق للناكح في الجمع أن يجمع بين اثنتين أو ثلاث أو أربع، فما معنى التكرير في مثنى وثلاث ورباع؟ قلت: الخطاب للجميع، فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذي أطلق له. كما تقول للجماعة: اقتسموا هذا المال - وهو ألف درهم - درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. ولو أفردت لم يكن له معنى. وجيء بالواو لتدلّ على تجويز الجمع بين الفرق، ولو جيء بأو مكانها لذهب معنى التجويز ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعداد ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فالزموا، أو: فاختراروا واحدة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ سوى في اليسر بين الحرّة الواحدة وبين الإماء من غير حصر ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة والتسري ﴿أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أقرب من ألا تميلوا ولا تجوروا. يقال: عال الميزان عولاً: إذا مال، وعال الحاكم في حكمه: إذا جار. ويحكى عن الشافعي - رحمه الله - أنه فسّر ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾: ألا تكثر عيالكم. واعترضوا عليه بأنه يقال فيه أعال يعيل: إذا كثر عياله. وأجيب بأن يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم، كقولك: مائهم يمونها: إذا أنفق عليهم؛ لأنّ مَنْ كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفي ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال. وكلام مثله من أعلام العلم حقيق بالحمل على السداد، وألا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا، كأنه سلك في تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات.

٤ - ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ من: نحله كذا: إذا أعطاه إياه، ووهبه له عن طيبة من نفسه، نحلة ونحلاً. وانتصابها على المصدر؛ لأنّ النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء، فكانه قال: وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة، أي: أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم. أو: على الحال من المخاطبين، أي:

﴿فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ

آتوهم صدقاتهن ناحلين طيبين النفوس بالإعطاء. أو: من الصدقات، أي: منحولة معطاة عن طيبة الأنفس. وقيل: نحلة من الله تعالى: عطية من عنده وتفضلاً منه عليهن. وقيل: النحلة: الملة، وفلان ينتحل كذا، أي: يدين به، يعني: وآتوهم مهورهن ديانة، على أنها مفعول لها. والخطاب للأزواج، وقيل:، للأولياء؛ لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم ﴿فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ﴾ للأزواج ﴿عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾ أي: من الصداق، إذ هو في معنى الصدقات ﴿نَفْسًا﴾ تميز. وتوحيدها لأن الغرض بيان الجنس، والواحد يدل عليه. والمعنى: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق، وتجاافت عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم، وسوء معاشرتكم. وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس، فقيل: ﴿فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ ولم يقل: فإن وهبن لكم^(١) إعلاماً بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبة ﴿فَكُلُوهُ﴾ الهاء تعود على شيء ﴿هَنِيئًا﴾ لا إثم فيه ﴿مَرِيئًا﴾ لا داء فيه. فسرها النبي ﷺ. أو: هنيئاً في الدنيا بلا مطالبة، مريئاً في العقبى بلا تبعة. وهما صفتان من: هنؤ الطعام ومرؤ؛ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه. وهما وصف مصدر، أي: أكلاً هنيئاً مريئاً، أو حال من الضمير، أي: كلوه، وهو هنيء مريء. وهذه عبارة عن المبالغة في الإباحة، وإزالة التبعة. هنيئاً مريئاً بغير همز: يزيد. وكذا حمزة في الوقف. وهمزها الباقون. وعن عليّ - رضي الله عنه - : إذا اشتكى أحدكم شيئاً فليسأل امرأته ثلاثة دراهم من صداقها، ثم ليشتري بها عسلاً فليشربه بماء السماء، فيجمع الله له هنيئاً ومريئاً وشفاء ومباركاً.

٥ - ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾ المبذرين أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي، ولا قدرة لهم على إصلاحها، وتثميرها، والتصرف فيها. والخطاب للأولياء. وأضاف إلى الأولياء أموال السفهاء؛ بقوله: ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ لأنهم يملونها،

الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَأَبْلُوا أَلْيَسَىٰ حَقًّا إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿٦﴾

ويمسكونها. ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ أي: قواماً لأبدانكم، ومعاشاً لأهلكم وأولادكم. ﴿قِيَمًا﴾ بمعنى قياماً، نافع وشامي، كما جاء عوداً بمعنى عياداً. وأصل قيام: قوام: فجعلت الواو ياء لانكسار ما قبلها. وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالاً يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس. وعن سفيان - وكان له بضاعة يقلبها -: لولاها لتمندل بي بنو العباس^(١) ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم، بأن تتجروا فيها، وتترجحوا، حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال، فيأكلها الإنفاق ﴿وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن جريج: عدة جميلة: إن صلحتهم ورشدتهم سلمنا إليكم أموالكم. وكل ما سكنت إليه النفس لحسنه عقلاً أو شرعاً من قول أو عمل، فهو معروف. وما أنكرته لقبحه، فهو منكر.

٦ - ﴿وَأَبْلُوا أَلْيَسَىٰ﴾ واختبروا عقولهم، وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ. فالابتلاء عندنا: أن يدفع إليه ما يتصرف فيه حتى تبين حاله فيما يجيء منه. وفيه دليل على جواز إذن الصبي العاقل في التجارة ﴿حَقًّا إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي: الحلم؛ لأنه يصلح للنكاح عنده، ولطلب ما هو مقصود به، وهو: التوالد ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ تبينتم هداية في التصرفات، وصلاًحاً في المعاملات ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ. ونظم هذا الكلام أن ما بعد حتى إلى ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ جعل غاية للابتلاء. وهي «حتى» التي تقع بعدها الجمل كالتي في قوله:

..... حتى ماءٌ دجلةٌ أشكل^(٢)
والواقعة بعدها جملة شرطية؛ لأن إذا متضمنة معنى الشرط، وفعل الشرط:

(١) أي: لا نخذوني كالمندبل يتمسحون بي.

(٢) البيت لجريز، وهو بتمامه:

فما زالت القتلى تمجُّ دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾
لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

بلغوا النكاح، وقوله: ﴿فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ جملة من شرط وجزاء واقعة جواباً للشرط الأول؛ الذي هو «إذا بلغوا النكاح»، فكأنه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم. وتنكير الرشد يفيد أن المراد رشد مخصوص، وهو الرشد في التصرف والتجارة، أو يفيد: التقليل، أي: طرفاً من الرشد حتى لا ينتظر به تمام الرشد. وهو دليل لأبي حنيفة - رحمه الله - في دفع المال عند بلوغ خمس وعشرين سنة ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ ولا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم. فإسرافاً وبداراً مصدران في موضع الحال و﴿أَنْ يَكْبَرُوا﴾ في موضع المصدر منصوب الموضع بداراً. ويجوز أن يكونا مفعولاً لهما. أي: لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تُفَرِّطُونَ في إنفاقها، وتقولون: ننفق فيما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى، فينتزعوها من أيدينا ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قسم الأمر بين أن يكون الوصي غنياً، وبين أن يكون فقيراً، فالغني يستعف من أكلها، أي: يحتز من أكل مال اليتيم. واستعف أبلغ من عف، كأنه طالب زيادة العفة. والفقير يأكل قوتاً مقدراً محتطاً في أكله. عن إبراهيم: ما سدّ الجوعة، ووارى العورة ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم تسلموها وقبضوها دفعاً للتجاعد، وتفادياً عن توجه اليمين عليكم عند التخاصم، والتناكر ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً. فعليكم بالتصادق، وإياكم والتكاذب. أو: هو راجع إلى قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولا يسرف، فإن الله يحاسبه عليه، ويمجازه به. وفاعل كفى: لفظة الله، والباء زائدة. وكفى يتعدى إلى مفعولين، دليله: ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

٧ - ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾

وَالْأَقْرَبُونَ ﴿٧﴾ هم المتوارثون من ذوي القربابات دون غيرهم ﴿٨﴾ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴿٧﴾ بدل ﴿٨﴾ مما ترك ﴿٧﴾ بتكرير العامل. والضمير في ﴿٨﴾ منه ﴿٧﴾ يعود إلى ما ترك ﴿٧﴾ نَصِيبًا ﴿٧﴾ نصب على الاختصاص، بمعنى: أعني نصيباً ﴿٧﴾ مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ مقطوعاً لا بدّ لهم من أن يحوزوه. رُوي أن أوس بن ثابت ترك امرأته أم كُحّة وثلاث بنات، فزوى ابنا عمه ميراثه عنهن. وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرماح، وحاز الغنيمة. فجاءت أم كُحّة إلى رسول الله ﷺ فشكت. فقال: «ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله» فنزلت الآية. فبعث إليهما: «لا تفرقا من مال أوس شيئاً، فإن الله تعالى قد جعل لهن نصيباً، ولم يبين حتى يبين» فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ فأعطى أم كُحّة الثمن والبنات الثلثين، والباقي ابني العم^(١).

٨ - ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي: قسمة التركة ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا يرث ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ من الأجانب ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ﴾ فأعطوهم ﴿مِنْهُ﴾ مما ترك الوالدان والأقربون. وهو أمر ندب، وهو باق لم ينسخ. وقيل: كان واجباً في الابتداء، ثم نُسخ بآية الميراث ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ عذراً جميلاً، وعدة حسنة. وقيل: القول المعروف: أن يقولوا لهم: خذوا بارك الله عليكم، ويستقلوا ما أعطوهم، ولا يمتنوا عليهم.

٩ - ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ المراد بهم الأوصياء. أمروا بأن يخشوا الله فيخافوا على من في حوزهم من اليتامى، فيشفقوا عليهم خوفاً على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً، وأن يقدروا ذلك في أنفسهم، ويصوروه حتى لا يجسروا على خلاف

(١) قال الحافظ: هكذا أورده الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد (حاشية الكشاف ١ / ٤٧٧).

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ

الشفقة والرحمة. و«لو» مع ما في حيزه: صلة للذين، أي: وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً - وذلك عند احتضارهم - خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم. وجواب ﴿لو﴾ خافوا. والقول السديد من الأوصياء: أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن، والترحيب، ويدعوهم بـ: يا بني، ويا ولدي.

١٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَىٰ ظُلْمًا﴾ ظالمين، فهو مصدر في موضع الحال ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم ﴿نَارًا﴾ أي: يأكلون ما يجزى إلى النار. فكانه نار. روي أنه يُبعث آكل مال اليتامى يوم القيامة والدخان يخرج من قبره، ومن فيه، وأنفه، وأذنيه، فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا^(١) ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ شامي، وأبو بكر. أي: سيدخلون ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً من النيران، مبهمة الوصف.

١١ - ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ يعهد إليكم، ويأمركم ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ في شأن ميراثهم، وهذا إجمال تفصيله: ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: للذكر منهم، أي: من أولادكم، فحذف الراجع إليه؛ لأنه مفهوم، كقولهم: السمن متوان بدرهم. وبدأ بحظ الذكر، ولم يقل للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظّه لذلك، ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث، وهو السبب لورود الآية. فقليل: كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث، فلا يتمادى في حظهن حتى يحرم من مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به. والمراد: حال الاجتماع، أي: إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان، كما أن لهما سهمين. وأما في حال الانفراد فالابن يأخذ المال كله، والبنتان تأخذان الثلثين. والدليل عليه أنه أتبعه حكم الانفراد بقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٥٦٦) بلفظ: «يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً...».

فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ
وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ

نِسَاءً: أي: فإن كانت الأولاد نساء خالصاً، يعني: بنات ليس معهن ابن
﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ خبر ثان لكان، أو: صفة لنساء، أي: نساء زائدات على اثنتين
﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: الميت؛ لأن الآية لما كانت في الميراث علم أن التارك
هو الميت ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي: وإن كانت المولودة منفردة
﴿وَاحِدَةً﴾: مدني على كان التامة. والنصب أوفق لقوله: ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً﴾.
فإن قلت: قد ذكر حكم البنتين في حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات
والبنت في حال الانفرد، ولم يذكر حكم البنتين في حال الانفرد فما حكمهما؟
قلت: حكمهما مختلف فيه. فابن عباس - رضي الله عنهما -: نزلها منزلة
الواحدة، لا منزلة الجماعة. وغيره من الصحابة - رضي الله عنهم - أعطوها
حكم الجماعة بمقتضى قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِي﴾ وذلك لأن من مات،
وخلف بنتاً وابناً، فالثلث للبنت، والثلثان للابن، فإذا كان الثلث لبنت واحدة
كان الثلثان للبنتين. ولأنه قال في آخر السورة: ﴿إِنْ أَمْرٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ
وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ
فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ والبنتان أمسّ رحماً بالميت من الأخنتين، فأوجبوا لهما
ما أوجب الله للأختين، ولم ينقصوا حظهما عن حظّ مَنْ هو أبعد منهما. ولأنّ
البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كان أخرى أن يجب لها الثلث إذا كانت مع
أخت مثلها، ويكون لأختها معها مثل ما كان يجب لها أيضاً مع أخيها لو
انفردت معه، فوجب لهما الثلثان. وفي الآية دلالة على أنّ المال كله للذكر إذا
لم يكن معه أنثى؛ لأنه جعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وقد جعل للأنثى النصف
إذا كانت منفردة، فعلم أن للذكر في حال الانفرد ضعف النصف، وهو الكل.
والضمير في: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ للميت، والمراد: الأب والأم، إلا أنه غلب الذكر
﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ بدل من «لأبويه» بتكرير العامل. وفائدة هذا البديل
أنه لو قيل: ولأبويه السدس لكان ظاهره اشتراكهما فيه. ولو قيل: ولأبويه
السدسان لأوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية، وعلى خلافها. ولو قيل:

مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّاتِهِ يُوْصِي بِهَا أَوْ دِينَ

ولكل واحد من أبويه السدس لذهبت فائدة التأكيد، وهو التفصيل بعد الإجمال. والسدس: مبتدأ خبره: لأبويه، والبدل متوسط بينهما للبيان. وقرأ الحسن: السدس والرُبع والثمن والثُلث بالتخفيف ﴿مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ هو يقع على الذكر والأنثى ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ أي: مما ترك. والمعنى ﴿وورثه أبواه﴾ فحسب؛ لأنه إذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين كان للأم ثلث ما يبقى بعد إخراج نصيب الزوج، لا ثلث ما ترك؛ لأنَّ الأب أقوى من الأم في الإرث، بدليل أن له ضعف حظها إذا خلصا. فلو ضرب لها الثلث كَمَلًّا لأدى إلى حط نصيبه عن نصيبها. فإن امرأة لو تركت زوجاً وأبوين، فصار للزوج النصف وللأم الثلث، والباقي للأب، حازت الأم سهمين والأب سهماً واحداً، فينقلب الحكم إلى أن يكون للأنثى مثل حظ الذكـرين. فلأمه - بكسر الهمزة - حمزة، وعليّ لمجاورة كسر اللام ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ﴾ أي: للميت ﴿إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ إذا كان للميت اثنان من الإخوة والأخوات فصاعداً فلأمه السدس. والأخ الواحد لا يحجب. والأعيان والعلات والأخـياف في حجب الأم سواء ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّاتِهِ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة الموارث كلها، لا بما يليه وحده. كأنه قيل: قسمة هذه الأنصـباء ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّاتِهِ يُوْصِي بِهَا﴾^(١) هو وما بعده بفتح الصادين: مكّي، وشامي، وحامد. ويحيى وافق الأعشى في الأولى. وحفص في الثانية لمجاورة يورث. وكسر الأولى لمجاورة يوصيكم الله. الباـقون بكسر الصادين. أي: يوصي الميت ﴿أَوْ دِينَ﴾ والإشكال أن الدين مُقَدَّم على الوصية في الشرع، وقدمت الوصية على الدين في التلاوة. والجواب: أن أو لا تدلُّ على الترتيب، ألا ترى أنك إذا قلت: جاءني زيد أو عمرو كان المعنى: جاءني أحد الرجلين، فكان التقدير في قوله: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ من بعد أحد هذين الشيئين الوصية، أو الدين. ولو قيل بهذا اللفظ لم

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿يُوصَى﴾.

ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّيكُ بِهَا أَوْ ذِيئٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُهُ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ

يدر فيه الترتيب، بل يجوز تقديم المؤخر وتأخير المقدم كذا هنا. وإنما قدمنا الدين على الوصية بقوله عليه الصلاة والسلام: «ألا إن الدين قبل الوصية»^(١). ولأنها تشبه الميراث من حيث إنها صلة بلا عوض، فكان إخراجها مما يشق على الورثة، وكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين، فقدّمت على الدين ليسارعوا إلى إخراجها مع الدين ﴿ءَابَاؤُكُمْ﴾ مبتدأ ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ عطف عليه. والخبر ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ وقوله: ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبتدأ خبره: ﴿أَقْرَبُ لَكُمْ﴾ والجملة في موضع نصب بتدرون ﴿نَفْعًا﴾ تمييز. والمعنى: فرض الله الفرائض على ما هو عنده حكمة. ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيُّهم أنفع لكم، فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة. والتفاوت في السهام بتفاوت المنافع، وأنتم لا تدرون تفاوتها، فتولى الله ذلك فضلاً منه، ولم يكلها إلى اجتهدكم لعجزكم عن معرفة المقادير. وهذه الجملة اعتراضية مؤكدة، لا موضع لها من الإعراب ﴿فَرِيضَةٌ﴾ نصبت نصب المصدر المؤكد، أي: فرض ذلك فرضاً ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء قبل خلقها ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما فرض، وقسم من الموارث، وغيرها.

١٢ - ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: زوجاتكم ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: ابن، أو بنت. ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم، أو من غيركم ﴿فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّيكُ بِهَا أَوْ ذِيئٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُهُ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ

(١) رواه أحمد (٧٩/١ و ١٣١ و ١٤٤) والبخاري (٣٧٧/٥) تعليقا، والترمذي (٢٠٩٤) وابن ماجه (٢٧١٥) بلفظ: قضى رسول الله ﷺ بالدين قبل الوصية.

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ
 أَمْرًا وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
 فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَاكَرٍ
 وَصِيَّتِهِ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴿ والواحدة والجماعة سواء في الربع
 والثلث. جعل ميراث الزوج ضعف ميراث الزوجة؛ لدلالة قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ
 حِظِّ الْأُنثَى﴾ ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ﴾ يعني: الميت، وهو اسم كان ﴿يُورَثُ﴾ من
 ورث، أي: يورث منه، وهو صفة لرجل ﴿كَلَالَةً﴾ خبر كان. أي: وإن
 كان رجل موروث منه كلاله. أو: «يورث» خبر كان، و«كلالة» حال من
 الضمير في يورث. والكلالة: تطلق على من لم يُخلف ولداً ولا والدًا، وعلى من
 ليس بولد ولا والد من المخلفين. وهو في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو:
 ذهاب القوة من الإعياء ﴿أَوْ أَمْرًا﴾ عطف على رجل ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ﴾ أي:
 لأم. فإن قلت: قد تقدم ذكر الرجل والمرأة، فلم أفرد الضمير وذكره؟ قلت:
 أما إفراده: فلأن «أو» لأحد الشئين. وأما تذكيره: فلأنه يرجع إلى رجل؛ لأنه
 مذكر مبدوء به، أو يرجع إلى أحدهما وهو مُذَكَّر ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ
 كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ لأنهم يستحقون
 بقرابة الأم، وهي لا ترث أكثر من الثلث. ولهذا لا يفضل الذكر منهم على
 الأنثى ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ إنما كررت الوصية لاختلاف
 الموصين، فالأول: الوالدان والأولاد، والثاني: الزوجة، والثالث: الزوج،
 والرابع: الكلاله ﴿غَيْرَ مُضَاكَرٍ﴾ حال، أي: يوصي بها وهو غير مضار لورثته.
 وذلك بأن يوصي بزيادة على الثلث، أو لوارث ﴿وَصِيَّتِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ مصدر
 مؤكد، أي: يوصيكم بذلك وصية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن جار، أو عدل في وصيته
 ﴿حَلِيمٌ﴾ على الجائر لا يعاجله بالعقوبة، وهذا وعيد. فإن قلت: أين ذو الحال
 فيمن قرأ يوصي بها؟ قلت: يضمير يوصي فينتصب عن فاعله؛ لأنه لما قيل
 يُوصَى بها علم أن ثمَّ موصياً. كما كان ﴿رجال﴾ فاعل ما يدل عليه يسبح؛
 لأنه لما قيل ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ [النور: ٣٦] علم أن ثمَّ مسبِّحاً فأضمر يسبح.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ

واعلم أن الورثة أصناف: أصحاب الفرائض، وهم الذين لهم سهم مقدرة: كال بنت: ولها النصف، وللأكثر الثلثان. وبنت الابن وإن سفلت: وهي عند عدم الولد كال بنت، ولها مع البنت الصلبية السدس، وتسقط بالابن ويتي الصلب إلا أن يكون معها غلام فيعصبها. والأخوات لأب وأم: وهن عند عدم الولد وولد الابن كال بنات، والأخوات لأب، وهن كال أخوات لأب وأم عند عدمهن. ويصيرُ الفريقان عصبه مع البنت أو بنت الابن. ويسقطن بالابن وابنه وإن سفل والأب وبالجدة عند أبي حنيفة - رحمه الله - . وولد الأم، فللواحد السدس وللأكثر الثلث، وذكرهم كأنثاهم. ويسقطون بالولد وولد الابن وإن سفل والأب والجدة. والأب: وله السدس مع الابن أو ابن الابن وإن سفل، ومع البنت أو بنت الابن وإن سفلت السدس والباقي. والجدة: وهو أبو الأب، وهو كالأب عند عدمه، إلا في رد الأم إلى ثلث ما يبقى. والأم: ولها السدس مع الولد أو ولد الابن وإن سفل، أو الاثنين من الإخوة والأخوات فصاعداً من أي جهة كانا. وثلث الكل عند عدمهم. وثلث ما يبقى بعد فرض أحد الزوجين في زوج وأبوين، أو زوجة وأبوين. والجدة: ولها السدس وإن كثرت لأم كانت أو لأب. والبعدي تحجب بالقريب. والكل بالأم، والأبويات بالأب. والزوج: وله الربع مع الولد، أو ولد الابن وإن سفل. وعند عدمه النصف. والزوجة: ولها الثمن مع الولد أو ولد الابن وإن سفل. وعند عدمه الربع. والعصبات: وهم الذين يرثون ما بقي من الفرض. وأولاهم: الابن، ثم ابنه وإن سفل، ثم الأب، ثم أبوه وإن علا، ثم الأخ لأب وأم، ثم الأخ لأب، ثم ابن الأخ لأب وأم، ثم ابن الأخ لأب، ثم الأعمام، ثم أعمام الأب، ثم أعمام الجد، ثم المعتق، ثم عصبته على الترتيب. واللاتي فرضهن النصف والثلثان يصرن عصبه بإخوتهن لا غيرهن. وذوو الأرحام: وهم الأقارب الذين ليسوا من العصبات ولا من أصحاب الفرائض، وترتيبهم كترتيب العصبات.

١٣ - ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الأحكام التي ذكرت في باب اليتامى، والوصايا، والمواثيث ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ سمّاها حدوداً؛ لأن الشرائع كالحدود

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَلْحَشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

المضروبة للمكلفين، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٤ - ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ انتصب خالد بن خالد على الحال. وجمع مرة، وأفرد أخرى نظراً إلى معنى مَنْ ولفظها ﴿ندخله﴾ فيهما، مدني، وشامي ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لهوانه عند الله. ولا تعلق للمعتزلة والخوارج بالآية فإنها في حق الكفار، إذ الكافر هو الذي تعدى الحدود كلها، وأما المؤمن العاصي فهو مطيع بالإيمان غير متعد حد التوحيد. ولهذا فسّر الضحاك المعصية هنا بالشرك. وقال الكلبي: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ بكفره بقسمة الموارث ﴿ويتعد حدوده﴾ استحلالاً.

١٥ - ثم خاطب الحكام فقال: ﴿وَالَّذِي﴾ هي جمع التي، وموضعها رفع بالابتداء، ﴿يَأْتِيكَ الْفَلْحَشَةُ﴾ أي: الزنى لزيادتها في القبح على كثير من القبائح. يقال: أتى الفاحشة، وجاءها، ورهقها، وغشيها بمعنى. ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ للتبعيض. والخبر: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ﴾ فاطلبوا الشهادة. ﴿أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ من المؤمنين ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ بالزنى ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ فاحسوهن ﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي: ملائكة الموت، كقوله: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨] أو: حتى يأخذهن الموت، ويستوفي أرواحهن. ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ﴾ قيل: أو بمعنى: إلا أن ﴿سَبِيلًا﴾ غير هذه. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: السبيل للبكر جلد مئة وتغريب عام، ولثيب الرجم؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني، خذوا عني، قد

وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ

جعل الله لهم سبيلاً: البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مئة ورجم بالحجارة^(١).

١٦ - ﴿وَالَّذَانِ﴾ يريد: الزاني والزانية. وبتشديد النون، مكي ﴿يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ أي: الفاحشة ﴿فَأَذُوهُمَا﴾ بالتوبيخ والتعيير، وقولوا لهما: أما استحييتما؟ أما خفتما الله؟ ﴿فَإِن تَابَا﴾ عن الفاحشة ﴿وَأَصْلَحَا﴾ وغيرا الحال ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ فاقطعوا التوبيخ والمذمة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ يقبل توبة التائب ويرحمه. قال الحسن: أول ما نزل من حد الزنى الأذى، ثم الحبس، ثم الجلد أو الرجم، فكان ترتيب النزول على خلاف ترتيب التلاوة. والحاصل: أنهما إذا كانا محصنين فحدهما: الرجم لا غير. وإذا كانا غير محصنين فحدهما: الجلد لا غير. وإن كان أحدهما محصناً والآخر غير محصن، فعلى المحصن منهما الرجم، وعلى الآخر الجلد. وقال ابن بحر: الآية الأولى في السَّحَاقَاتِ، والثانية في اللُّوَاطِينَ، والتي في سورة النور في الزاني والزانية. وهو دليل ظاهر لأبي حنيفة - رحمه الله - في أنه يعزّر في اللُّوَاطَةِ ولا يحدّ. وقال مجاهد: آية الأذى في اللُّوَاطَةِ.

١٧ - ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ﴾ هي من: تاب الله عليه: إذا قبل توبته، أي: إنما قبولها ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وليس المراد به الوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيء، ولكنه تأكيد للوعد، يعني: أنه يكون لا محالة، كالواجب الذي لا يترك ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ الذنب لسوء عقابه ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: يعملون السوء جاهلين سفهاء؛ لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه. وعن مجاهد: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. وقيل: جهالته: اختياره اللذة الفانية على الباقية. وقيل: لم يجهل أنه ذنب، ولكنه جهل كنه

(١) رواه أحمد (٣١٣/٥) ومسلم (١٦٩٠) (١٢) وأبو داود (٤٤١٦) والترمذي (١٤٣٤).

ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾
وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْكَفَرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٨﴾

عقوبته ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب، وهو ما قبل حضرة الموت. ألا ترى إلى قوله: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة. وعن الضحاك: كل توبة قبل الموت فهو قريب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قبل أن ينظر إلى ملك الموت. وعنه عليه السلام «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(١). ومن: للتبعض، أي: يتوبون بعض زمان قريب، كأنه سمي ما بين وجود المعصية وبين حضرة الموت زماناً قريباً ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ عدة بأنه يفى بذلك، وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بعزمهم على التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ حكم بكون الندم توبة.

١٨ - ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْكَفَرَ﴾ أي: ولا توبة للذين يذنبون، ويسوقون توبتهم إلى أن يزول حال التكليف بحضور أسباب الموت، ومعاناة ملك الموت، فإن توبة هؤلاء غير مقبولة؛ لأنها حالة اضطراب لا حالة اختيار، وقبول التوبة ثواب، ولا وعد به إلا لمختار ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾ في موضع جر بالعطف على ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: ليست التوبة للذين يعملون السيئات ولا للذين يموتون ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. قال سعيد بن جبير: الآية الأولى في المؤمنين، والوسطى في المنافقين، والأخرى في الكافرين. وفي بعض المصاحف بلامين، وهو مبتدأ، خبره: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: هيأنا من العتيد، وهو الحاضر، أو الأصل أعددنا، فقلبت الدال تاء.

(١) رواه أحمد (١٣٢/٢) والترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣) من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

١٩ - كان الرجل يرث امرأة مورثه بأن يلقي عليها ثوبه فيتزوجها بلا مهر، فنزلت: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ أي: أن تأخذوهن على سبيل الإرث، كما تحاز الموارث، وهن كارهات لذلك، أو مكرهات ﴿كرها﴾ بالفتح من الكراهة. وبالضم: حمزة، وعلي، من الإكراه. مصدر في موضع الحال من المفعول. والتقييد بالكراه لا يدل على الجواز عند عدمه؛ لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه، كما في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا تَلْقَوْا﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ كان الرجل إذا تزوج امرأة، ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة لتفتدي منه بمالها وتختلع. ف قيل: ﴿ولا تعضلوهن﴾. وهو منصوب عطفاً على «أن ترثوا». و«لا» لتأكيد النفي، أي: لا يحل لكم أن ترثوا النساء ولا أن تعضلوهن. أو مجزوم بالنهي على الاستثناء، فيجوز الوقف حينئذ على ﴿كرها﴾. والعضل: الحبس، والتضييق ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهر. واللام متعلقة بـ «تعضلوا» ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ﴾ هي النشوز، وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء. أي: إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرتن في طلب الخلع. وعن الحسن: الفاحشة: الزنى، فإن فعلت حلّ لزوجها أن يسألها الخلع ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾ ويفتح الياء: مكى، وأبو بكر. والاستثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له، كأنه قيل: ﴿ولا تعضلوهن﴾ في جميع الأوقات إلا وقت ﴿أن يأتين بفاحشة﴾ أو ﴿ولا تعضلوهن﴾ لعل من العلل ﴿إلا أن يأتين بفاحشة﴾. وكانوا يسيئون معاشره النساء، ف قيل لهم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو: النصفه في المبيت، والنفقة، والإجمال في القول ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لقبهن، أو سوء خلقهن ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ في ذلك الشيء، أو في الكره. ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ثواباً جزيلاً، أو ولداً صالحاً. والمعنى: فإن كرهتموهن فلا تفارقوهن لكراهة الأنفس وحدها. فربما كرهت النفس ما هو أصلح في

وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

الدين، وأدنى إلى الخير، وأحب ما هو بضد ذلك. ولكن للنظر في أسباب الصلاح. وإنما صحَّ قوله ﴿فعسى أن تكرهوا﴾ جزاء للشرط؛ لأن المعنى: ﴿فإن كرهتموهن﴾ فاصبروا عليهن مع الكراهة، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه.

٢٠ - كان الرجل إذا رأى امرأة فأعجبته بهت التي تحته ورمها بفاحشة^(١)، حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها. فقيل: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ﴾ أي: تطليق امرأة وتزوج أخرى ﴿وَأَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ﴾ وأعطيت إحدى الزوجات، فالمراد بالزوج: الجمع؛ لأن الخطاب لجماعة الرجال ﴿قِنْطَارًا﴾ مالاً عظيماً كما مرَّ في آل عمران. وقال عمر - رضي الله عنه - على المنبر: لا تغالوا بصدقات النساء، فقالت امرأة: أنتبع قولك أم قول الله ﴿وَأَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا﴾؟ فقال عمر: كل أحد أعلم من عمر، تزوجوا على ما شئتم ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾ من القنطار ﴿شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ أي: بئناً. والبهتان: أن تستقبل الرجل بأمرٍ قبيح تقذفه به وهو بريء منه؛ لأنه يُبْهَت عند ذلك، أي: يتحير. وانتصب بهتاناً على الحال، أي: باهتين وأثمين.

٢١ - ثم أنكر أخذ المهر بعد الإفضاء، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: خلا بلا حائل، ومنه: الفضاء. والآية حجة لنا في الخلوة الصحيحة أنها تؤكد المهر، حيث أنكر الأخذ. وعلل بذلك ﴿وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهداً وثيقاً، وهو قول الله تعالى: ﴿فَأَمْسَاكُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. والله تعالى أخذ هذا الميثاق على عباده لأجلهن، فهو كأخذهن. أو قول النبي عليه الصلاة والسلام:

(١) أي: رماها بالباطل.

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كَانَتْ فُجُورًا وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

«استوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عوان في أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(١).

٢٢ - ولما نزل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرهًا﴾ قالوا: تركنا هذا، لا نرثهن كرهاً ولكن نخطبهن فننكحهن برضاهن، فقبل لهم: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾. وقيل المراد بالنكاح: الوطء، أي: لا تطؤوا ما واطئء آباؤكم. وفيه تحريم وطء موطوءة الأب بنكاح، أو بملك يمين، أو بزنى، كما هو مذهبنا، وعليه كثير من المفسرين. ولما قالوا: كنا نفعل ذلك، فكيف حال ما كان منا؟ قال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. أي: لكن ما قد سلف، فإنكم لا تؤخذون به. والاستثناء منقطع، عن سيوييه. ثم بين صفة هذا العقد في الحال فقال: ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ فُجُورًا﴾ بالغة في القبح ﴿وَمَقْتًا﴾ وبغضاً عند الله، وعند المؤمنين، وناس منهم يمقتونه من ذوي مروءاتهم، ويسئونونه: نكاح المقت، وكان المولود عليه يقال له: المقتي ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وبئس الطريق طريقاً ذلك.

٢٣ - ولما ذكر في أول السورة نكاح: ﴿مَا طَابَ﴾ أي: حَلَّ ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ وذكر بعض ما حرم قبل هذا، وهو نساء الآباء، ذكر المحرمات الباقيات، وهن: سبع من النسب، وسبع من السبب، وبدأ بالنسب فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾. والمراد: تحريم نكاحهن عند البعض. وقد ذكرنا المختار في «شرح المنار». والجددة من قبل الأم أو الأب ملحقة بهن ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وبنت الابن وبنت البنت ملحقات بهن. والأصل: أَنَّ الجمع إذا قُوِيَ بالجمع ينقسم الآحاد على الآحاد، فتحرم على كل واحد أمه وبنته.

(١) هذا مركب من حديثين: الأول بلفظ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنما هنَّ عَوَانٌ عندكم» رواه الترمذي (١١٦٣) وابن ماجه (١٨٥١). والثاني بلفظ: «فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» رواه مسلم (١٢١٨) (١٤٧) وأبو داود (١٩٠٥) وابن ماجه (٣٠٧٤). «العوان»: جمع عانية وهي الأسيرة.

وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّنُكُمْ وَحَلَائِكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ
الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
وَرَبِّبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ

﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ لأب أو أم، أو لأب أو لأم. ﴿وَعَمَّنُكُمْ﴾ من الأوجه الثلاثة. ﴿وَحَلَائِكُمْ﴾ كذلك. ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾ كذلك. ﴿وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ كذلك. ثم شرع في السبب فقال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾. الله تعالى نزل الرضاعة منزلة النسب، فسمي المرضعة أمًّا للرضيع، والمراضعة أختًا. وكذلك زوج المرضعة أبوه، وأبواه جداه، وأخته عمته، وكل ولد ولد له من غير الرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه، وأم المرضعة جدته، وأختها خالته، وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه. ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأم، وأصله قوله عليه الصلاة والسلام: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»^(١) ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وهن محرمات بمجرد العقد ﴿وَرَبِّبُكُمْ﴾ سمى ولد المرأة من غير زوجها ربيباً وربيبية؛ لأنه يرَبُّهما كما يرَبُّ ولده في غالب الأمر، ثم اتسع فيه فسميًّا بذلك وإن لم يرَبِّهما ﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ قال داود: إذا لم تكن في حجرة لا تحرم. قلنا: ذكر الحجر على غلبة الحال دون الشرط، وفائدته: التعليل للتحريم، وأنهن لاحتضانكم لهن، أو لكونهن بصدد احتضانكم، كأنكم في العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم ﴿وَمِنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ متعلق بربائبكم. أي: الربيبية من المرأة المدخول بها حرام على الرجل، حلال له إذا لم يدخل بها. والدخول بهن كناية عن الجماع، كقولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب، أي: أدخلتموهن الستر. والباء للتعدية. واللمس ونحوه يقوم مقام الدخول. وقد جعل بعض العلماء اللاتي دخلتم بهن وصفاً للنساء المتقدمه والمتأخرة. وليس كذلك؛ لأن الوصف الواحد لا يقع على موصوفين مختلفي العامل، وهذا لأن النساء

(١) رواه البخاري (٥٢٣٩) ومسلم (١٤٤٤) من حديث عائشة - رضي الله عنها - .

فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ
الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَنُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ

الأولى مجرورة بالإضافة والثانية بمن. ولا يجوز أن تقول: مررت بنسائك،
وهربت من نساء زيد الظريفات، على أن تكون الظريفات نعتاً لهؤلاء النساء
وهؤلاء النساء. كذا قال الزجاج وغيره، وهذا أولى مما قاله صاحب
«الكشاف» فيه ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فلا حرج
عليكم في أن تتزوجوا بناتهن إذا فارقتموهن، أو متن ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾
جمع حليلة، وهي: الزوجة؛ لأن كل واحد منهما يحل للآخر، أو يحل فراش
الآخر، من الحل، أو من الحلول ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ دون من تبنيتم،
فقد تزوج رسول الله ﷺ زينب حين فارقتها زيد، وقال الله تعالى: ﴿لِيَكُنْ لَا يَكُونُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وليس هذا لنفي الحرمة
عن حليلة الابن من الرضاع ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ أي: في النكاح،
وهو في موضع الرفع عطف على المحرمات، أي: وحرّم عليكم الجمع بين
الأختين ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ولكن ما مضى مغفور، بدليل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وعن محمد بن الحسن - رحمه الله -: إن أهل الجاهلية كانوا يعرفون هذه
المحرمات إلا نكاح امرأة الأب، ونكاح الأختين؛ فلذا قال فيهما: ﴿إِلَّا مَا قَدْ
سَلَفَ﴾.

٢٤ - ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: ذوات الأزواج لأنهن أحصن
فزوجهن بالتزوج. قرأ الكسائي بفتح الصاد هنا، وفي سائر القرآن بكسرها.
وغيره بفتحها في جميع القرآن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ بالسبي، وزوجها في
دار الحرب. والمعنى: وحرّم عليكم نكاح المنكوحات، أي: اللاتي لهن
أزواج إلا ما ملكتموهن بسبيهن، وإخراجهن بدون أزواجهن، لوقوع الفرقة
بتباين الدارين لا بالسبي، فتحل للغنم بملك اليمين بعد الاستبراء ﴿كَتَبَ اللَّهُ

عَلَيْكُمْ وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۖ فَمَا
 اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا
 تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

عَلَيْكُمْ ﴿٢٤﴾ مصدر مؤكد، أي: كتب الله ذلك عليكم كتاباً، وفرضه فريضة، وهو
 تحريم ما حرّم. وعطف ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ﴾^(١) على الفعل المضمر الذي نصب كتاب
 الله، أي: كتب الله عليكم تحريم ذلك ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ﴾ ﴿مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ ما
 سوى المحرمات المذكورة ﴿وَأَحِلَّ﴾ كوفي غير أبي بكر عطف على ﴿حُرِّمَتْ﴾
 ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ مفعول له. أي: بين لكم ما يحلّ مما يحرم لأن تبتغوا. أو بدل
 من ﴿ما وراء ذلك﴾. ومفعول ﴿تبتغوا﴾ مقدر، وهو: النساء. والأجود
 ألا يقدر ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ يعني: المهور. وفيه دليل على أن النكاح لا يكون إلا
 بمهر، وأنه يجب وإن لم يُسمَّ، وأن غير المال لا يصلح مهراً، وأنَّ القليل
 لا يصلح مهراً، إذا الحبة لا تعدّ مالاً عادة ﴿مُحْصِنِينَ﴾ في حال كونكم
 محصنين ﴿غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ لثلاث تضيعوا أموالكم، وتفقدوا أنفسكم فيما
 لا يجلّ لكم فتخسروا دينكم ودنياكم، ولا فساد أعظم من الجمع بين الخسرانين.
 والإحصان: العفة، وتحصين النفس من الوقوع في الحرام. والمسافح:
 الزاني، من: السفح، وهو: صبّ المني ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فـ«ما»
 نكحتموهنَّ ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن؛ لأن المهر ثواب على البُضع.
 فـ«ما» في معنى النساء. و﴿من﴾ للتبعيض، أو للبيان. ويرجع الضمير إليه
 على اللفظ في ﴿به﴾ وعلى المعنى في ﴿فَآتُوهُنَّ﴾ ﴿فَرِيضَةً﴾ حال من
 الأجور، أي: مفروضة، أو: وضعت موضع إيتاء؛ لأنَّ الإيتاء مفروض. أو
 مصدر مؤكّد، أي: فرض ذلك فريضة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ
 الْفَرِيضَةِ﴾ فيما تحط عنه من المهر، أو تهب له من كله، أو يزيد لها على
 مقداره. أو فيما تراضيا به من مقام، أو فراق ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء قبل
 خلقها ﴿حَكِيمًا﴾ فيما فرض لهم من عقد النكاح؛ الذي به حُفِظت الأنساب.

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿وَأَحِلَّ﴾.

وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ
فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ
مُسْتَفْحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ

وقيل: إن قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ نزلت في المتعة؛ التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسوله، ثم نُسخَت.

٢٥ - ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ فضلاً. يقال: لفلان علي طول، أي: فضل وزيادة. وهو مفعول يستطع ﴿أَنْ يَنْكِحَ﴾ مفعول الطول، فإنه مصدر فيعمل عمل فعله، أو بدلاً من ﴿طَوْلاً﴾ ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الحرائر المسلمات ﴿فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: فلينكح مملوكة من الإماء المسلمات. وقوله ﴿مِنْ فَتْيَاتِكُمْ﴾ أي: من فتيات المسلمين. والمعنى: ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة يبلغ بها نكاح الحرة، فلينكح أمة. ونكاح الأمة الكتابية يجوز عندنا. والتقيد في النص للاستحباب؛ بدليل أنَّ الإيمان ليس بشرط في الحرائر اتفاقاً مع التقيد به. وقال ابن عباس: ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة، واليهودية، والنصرانية، وإن كان موسراً. وفيه دليل لنا في مسألة الطول ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ فيه تنبيه على قبول ظاهر إيمانهم، ودليل على أنَّ الإيمان هو التصديق دون عمل اللسان؛ لأنَّ العلم بالإيمان المسموع لا يختلف ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: لا تستنكفوا من نكاح الإماء، فكلكم بنو آدم، وهو تحذير عن التعيير بالأنساب، والتفاخر بالأحساب ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ سادتهن. وهو حجة لنا في أنَّ لهن أن يباشرن العقد بأنفسهن؛ لأنه اعتبر إذن الموالي لا عقدهم، وأنه ليس للعبد أو للامة أن يتزوج إلا بإذن المولى ﴿وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وأدوا إليهن مهورهن بغير مطل وإضرار. وملاك مهورهن مواليهن، فكان أدائها إليهن أداء إلى الموالي؛ لأنهن وما في أيديهن مال الموالي. أو: التقدير: وآتوا مواليهن، فحذف المضاف ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عفائف. حال من المفعول في ﴿وَأَتُوهُنَّ﴾ ﴿غَيْرَ مُسْتَفْحَاتٍ﴾ زوان علانية ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ زوان سراً.

فَإِذَا أَحْصَيْتَ فَإِنَّ أَتَيْتَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْتَنَ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

والأخذان: الأخلاء في السر ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتَ﴾ بالتزويج. أَحْصَى: كوفي غير حفص ﴿فَإِنَّ أَتَيْتَ بِفَحْشَةٍ﴾ زنى ﴿فَعَلَيْتَنَ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: الحرائر ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾ من الحد، يعني: خمسين جلدة. وقوله: ﴿نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ يدلُّ على أنه الجلد لا الرجم، لأنَّ الرجم لا يتنصف، وأنَّ المحصنات هنا: الحرائر اللاتي لم يزوجن ﴿ذَلِكَ﴾ أي: نكاح الإمام ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ لمن خاف الإثم الذي تؤدِّي إليه غلبة الشهوة. وأصل العنت: انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر، ولا ضرر أعظم من مواجهة المأثم. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو الزنى؛ لأنه سبَّب الهلاك ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ في محل الرفع على الابتداء، أي: وصبركم عن نكاح الإمام متعفين ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن فيه إرقاق الولد، ولأنها خراجة، ولاجة، ممتنة، مبتذلة، وذلك كله نقصان يرجع إلى الناكح ومهانة. والعزة من صفات المؤمنين. وفي الحديث: «الحرائر صلاح البيت، والإمام هلاك البيت» (١) ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ يستر المحذور ﴿رَّحِيمٌ﴾ يكشف المحذور.

٢٦ - ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ﴾ أصله: يريد الله أن يبين لكم، فزيدت اللام مؤكدة لإرادة التبيين، كما زيدت في: لا أبالك؛ لتأكيد إضافة الأب. والمعنى: يريد الله أن يبين لكم ما هو خفي عليكم من مصالحكم، وأفاضل أعمالكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويوفِّقكم للتوبة عما كنتم عليه من الخلاف ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢٨٢٠). وقال ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وفي إسناده: أحمد بن محمد، وهو متروك، وكذبه أبو حاتم، ويونس لا أعرفه. (حاشية الكشاف ٥٠١/١).

حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ
يَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ

بمصالح عبادہ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع لهم.

٢٧ - ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ التكرير للتأكيد، والتقرير، والتقابل
﴿وَيُرِيدُ﴾ الفجرة ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ وهو الميل
عن القصد والحق، ولا ميل أعظم منه، بمساعدتهم وموافقتهم على اتباع
الشهوات. وقيل: هم اليهود؛ لاستحلالهم الأخوات لأب، وبنات الأخ،
وبنات الأخت. فلما حرمهن الله قالوا: فإنكم تحلون بنت الخالة والعمة،
والخالة والعمة عليكم حرام، فانكحوا بنات الأخت والأخ، فترلت. يقول:
يريدون أن تكونوا زناة مثلهم.

٢٨ - ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ بإحلال نكاح الأمة وغيره من الرخص.
﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات، وعلى مشاق الطاعات.

٢٩ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ بما لم
تُبْخه الشريعة من نحو السرقة، والخيانة، والغصب، والقمار، وعقود الربا
﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾^(١) إلا أن تقع تجارة، ﴿تِجَارَةً﴾ كوفي، أي: ﴿إِلَّا أَنْ
تَكُونَ﴾ التجارة ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ صفة لتجارة، أي: تجارة صادرة عن تراض
بالعقد، أو بالتعاطي. والاستثناء منقطع، معناه: ولكن اقصدا كون تجارة عن
تراض. أو: ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه. وخصّ التجارة
بالذكر؛ لأنّ أسباب الرزق أكثرها متعلّق بها. والآية تدلّ على جواز البيع
بالتعاطي، وعلى جواز البيع الموقوف إذا وجدت الإجازة لوجود الرضا،
وعلى نفي خيار المجلس؛ لأن فيها إباحة الأكل بالتجارة عن تراض من غير

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿تِجَارَةً﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر. معجم القراءات القرآنية (١٢٦/٢).

وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

تقييد بالتفرق عن مكان العقد. والتقييد به زيادة على النص ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ مَنْ كَانَ مِنْ جَنْسِكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، أو: ولا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة، أو: معنى القتل: أكل الأموال بالباطل، فظالم غيره كمهلك نفسه، أو: لا تتبعوا أهواءها فتقتلوها، أو: تركبوا ما يوجب القتل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ولرحمته بكم نبهكم على ما فيه صيانة أموالكم، وبقاء أبدانكم. وقيل: معناه: أنه أمر بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم، وتمحيصاً لخطاياهم، و﴿كَانَ بِكُمْ﴾ يأمة محمد ﴿رَحِيمًا﴾ حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة.

٣٠ - ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: القتل، أي: ومن يقدم على قتل النفس ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ لا خطأ ولا قصاصاً، وهما مصدران في موضع الحال، أو مفعول لهما ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ندخله ناراً مخصوصة، شديدة العذاب ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي: إصلاؤه النار ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ سهلاً. وهذا الوعيد في حق المستحل للتخليد، وفي حق غيره لبيان استحقاقه دخول النار، مع وعد الله بمغفرته.

٣١ - ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ عن ابن مسعود - رضي الله عنه - : الكبائر: كل ما نهى الله عنه من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وعنه أيضاً: الكبائر ثلاث: الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله. وقيل: المراد به أنواع الكفر بدليل قراءة عبد الله (كبير ما تنهون عنه) وهو الكفر ﴿وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا﴾ مدخلاً: مدني. وكلاهما بمعنى المكان والمصدر. ﴿كَرِيمًا﴾ حسناً. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة ممَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

يُخَوِّفَ عَنْكُمْ ﴿[النساء: ٢٨]﴾ ﴿إِنْ تَحْتَبِئُوا كِبَارًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٣١] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ﴾ [النساء: ١١٠] ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وتشبث المعتزلة بالآية على أن الصغائر واجبة المغفرة باجتناب الكبائر، وعلى أن الكبائر غير مغفورة، باطل، لأن الكبائر والصغائر في مشيئته تعالى سواء، إن شاء عذب عليهما، وإن شاء عفا عنهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فقد وعد المغفرة لما دون الشرك، وقرنها بمشيئته تعالى. وقوله: ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يَذْهَبِ السَّيِّئَاتِ﴾ فهذه الآية تدل على أن الصغائر والكبائر يجوز أن يذهبا بالحسنات؛ لأن لفظ السيئات ينطلق عليهما.

٣٢ - ولما كان أخذ مال الغير بالباطل، وقتل النفس بغير حق، بتمني مال الغير وجاهاه، نهاهم عن تمني ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله، صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما ينبغي لكل من بسط في الرزق، أو قبض. فعلى كل واحد أن يرضى بما قسم له، ولا يحسد أخاه على حظّه. فالحسد: أن يتمنى أن يكون ذلك الشيء له، ويزول عن صاحبه. والغبطة: أن يتمنى مثل ما لغيره. وهو مرخص فيه، والأول منهى عنه. ولما قال الرجال: نرجو أن يكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كالميراث، وقالت النساء: يكون وزرنا على نصف وزر الرجال كالميراث، نزل: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي: ليس ذلك على حسب الميراث ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن خزائنه لا تنفذ، ولا تتمنوا ما للناس من الفضل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فالتفضيل منه عن علم بمواضع الاستحقاق. قال ابن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي.

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ
 أَيْمَانُكُمْ فَنَاوُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾
 الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

وفي الحديث: «من لم يسأل الله من فضله غضب عليه»^(١). وفيه: «إن الله تعالى
 يمسك الخير الكثير عن عبده، ويقول: لا أعطي عبدي حتى يسألني». «وسلوا»: مكي، وعلي.

٣٣ - ﴿وَلِكُلِّ﴾ المضاف إليه محذوف، تقديره: ولكل أحد، أو:
 ولكل مال ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ ورأى يلونه ويحرزونه ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
 وَالْأَقْرَبُونَ﴾ هو صفة مال محذوف، أي: لكل مال مما تركه الوالدان. أو:
 هو متعلق بفعل محذوف دلّ عليه الموالي، تقديره: يرثون مما ترك ﴿وَالَّذِينَ
 عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ عاقدتهم أيديكم. وهو مبتدأ ضمن معنى الشرط، فوقع
 خبره، وهو ﴿فَنَاوُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾، مع الفاء. عقدت: كوفي. أي: عقدت
 عهودهم أيمانكم. والمراد به عقد الموالاة، وهي مشروعة، والوراثة بها ثابتة
 عند عامة الصحابة - رضي الله عنهم - وهو قولنا. وتفسيره: إذا أسلم رجل أو
 امرأة لا وارث له، وليس بعربي؛ ولا معتق؛ فيقول لآخر: واليتك على أن
 تعقلني إذا جنيت، وترث مني إذا مت، ويقول الآخر: قبلت، انعقد ذلك،
 ويرث الأعلى من الأسفل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: هو عالم
 الغيب والشهادة، وهو أبلغ وعد ووعد.

٣٤ - ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يقومون عليهن أمرين ناهين، كما يقوم
 الولاة على الرعايا، وسُمُوا قَوَّامًا لذلك ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾
 الضمير في ﴿بَعْضُهُمْ﴾ للرجال والنساء، يعني: إنما كانوا مسيطرين عليهن
 لسبب تفضيل الله بعضهم - وهم الرجال - على بعض - وهم النساء - بالعقل،
 والعزم، والحزم، والرّمي، والقوة، والغزو، وكمال الصوم والصلاة، والنبوة،
 والخلافة، والإمامة، والأذان، والخطبة، والجماعة، والجمعة، وتكبير

وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ قَالَ صَلِّحْتُ قَنِينْتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ
 اللَّهُ وَاللَّيِّ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعُظُّوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ
 فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

التشريق عند أبي حنيفة - رحمه الله - والشهادة في الحدود والقصاص، وتضعيف الميراث، والتعصيب فيه، وملك النكاح، والطلاق، وإليه الانتساب، وهم أصحاب اللحي والعمائم ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ويأن نفقتهن عليهم، وفيه دليل وجوب نفقتهن عليهم. ثم قسمهن على نوعين، النوع الأول: ﴿قَالَ صَلِّحْتُ قَنِينْتُ﴾ مطيعات، قائمات بما عليهن للأزواج ﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾ لمواجب الغيب، وهو خلاف الشهادة. أي: إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن حفظن ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة من الفروج، والبيوت، والأموال. وقيل: ﴿لِلْغَيْبِ﴾ لأسرارهم ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بما حفظهن الله حين أوصى بهن الأزواج بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. أو: بما حفظهن الله، وعصمهن، ووقّهن لحفظ الغيب. أو: بحفظ الله إياهن حيث صيرهن كذلك. والثاني: ﴿وَاللَّيِّ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ﴾ عصيانهن، وترفعهن عن طاعة الأزواج. والنشز: المكان المرتفع. عن ابن عباس - رضي الله عنهما: هو أن تستخف بحقوق زوجها، ولا تطيع أمره. ﴿فَعُظُّوهُمْ﴾ خوّفوهن عقوبة الله تعالى، والضرب. والعظة: كلام يلين القلوب القاسية، ويرغب الطبائع النافرة ﴿وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد، أي: لا تداخلوهن تحت اللحف. وهو كناية عن الجماع. أو: هو أن يوليها ظهره في المضجع؛ لأنه لم يقل عن المضاجع ﴿وَأَضْرِبُوهُمْ﴾ ضرباً غير مبرح. أمر بوعظهن أولاً، ثم بهجرانهن في المضاجع، ثم بالضرب إن لم ينجع فيهن الوعظ والهجران ﴿فَإِنْ أَطَعَكُمْ﴾ بترك النشوز ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فآزيلوا عنهن التعرض بالأذى. و﴿سَبِيلًا﴾ مفعول تبغوا. وهو من: بغيت الأمر، أي: طلبته ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ أي: إن علت أيديكم عليهن، فاعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم عليهن، فاجتنبوا ظلمهن. أو: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ وإنكم تعصونه على علو شأنه، وكبرياء سلطانه، ثم تتوبون فيتوب عليكم، فأنتم أحق بالعفو عمن يجنى عليكم إذا رجع.

وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ. وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَ
إِصْلَاحًا يُّوفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾ * وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا
بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

٣٥ - ثم خاطب الولاة بقوله: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾. أصله: شقاقاً بينهما، فأضيف الشقاق إلى الظرف على سبيل الاتساع، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] وأصله: بل مكر في الليل والنهار. والشقاق: العداوة والخلاف؛ لأن كلا منهما يفعل ما يشقُّ على صاحبه، أو: يميل إلى شق، أي: ناحية غير شق صاحبه. والضمير للزوجين، ولم يجر ذكرهما لجري ذكر ما يدلُّ عليهما، وهو الرجال والنساء ﴿فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾ رجلاً يصلح للحكومة والإصلاح بينهما ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وإنما كان بعث الحكمين من أهلها؛ لأنَّ الأفاربَ أعرفُ ببواطن الأحوال، وأطلبُ للصالح، ونفوس الزوجين أسكنُ إليهم، فيبرزان ما في ضمائرهما من الحب، والبغض، وإرادة الصلحة والفرقة. والضمير في: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا﴾ للحكمين. وفي: ﴿يُوفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ الضمير للزوجين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين، وكانت نيتهم صحيحة، بورك في وساطتهما، وأوقع الله بحسن سعيهما بين الزوجين الألفة والوفاق، وألقى في نفوسهما المودة والاتفاق. أو: الضميران للحكمين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين والنصيحة للزوجين، يوفق الله بينهما، فيتفقان على الكلمة الواحدة، ويتساندان في طلب الوفاق حتى يتمَّ المراد. أو: الضميران للزوجين، أي: إن يريد إصلاح ما بينهما، وطلبا الخير، وأن يزول عنهما الشقاق، يُلقِ الله بينهما الألفة، وأبدلهما بالشقاق الوفاق، وبالبغضاء المودة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بإدارة الحكمين ﴿حَكِيمًا﴾ بالظالم من الزوجين. وليس لهما ولاية التفريق خلافاً للمالك - رحمه الله -.

٣٦ - ﴿* وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قيل: العبودية أربعة: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ صنماً وغيره. ويحتمل المصدر، أي: إشراكاً ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا

وَيَذَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ
وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

بهما إحساناً بالقول، والفعل، والإنفاق عليهما عند الاحتياج ﴿وَيَذَى الْقُرْبَى﴾
وبكل من بينكم وبينه قربي من أخ، أو عم، أو غيرها ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ الذي قرب جواره ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي: الذي جواره
بعيد. أو: الجار: القريب النسيب، والجار الجنب: الأجنبي ﴿وَالصَّاحِبِ
بِالْجَنُبِ﴾ أي: الزوجة، عن علي - رضي الله عنه -: أو الذي صحبتك بأن
حصل بجنبك، إما رفيقاً في سفر، أو شريكاً في تعلّم علم، أو غيره، أو
قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الغريب، أو الضيف
﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبيد، والإماء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبّراً
يأنف عن قرابته وجيرانه، فلا يلتفت إليهم ﴿فَخُورًا﴾ يعدّد مناقبه كبراً. فإن
عدّها اعتزافاً كان شكوراً.

٣٧ - ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ نصب على البدل من ﴿من كان مختالاً فخوراً﴾.
وجمع على معنى من، أو على الذم، أو رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف
تقديره: هم ﴿الذين يبخلون﴾ ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بالبخل: حمزة،
وعلي، وهما لغتان كالرشد والرشد. أي: يبخلون بذات أيديهم، وبما في
أيدي غيرهم، فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتاً للسخاء. قيل: البخل أن يأكل
بنفسه، ولا يؤكل غيره. والشح: ألا يأكل ولا يؤكل. والسخاء: أن يأكل
ويؤكل. والجود: أن يؤكل ولا يأكل ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ﴾ ويخفون ما أنعم الله عليهم به من المال، وسعة الحال. وفي
الحديث: «إذا أنعم الله على عبده نعمة أحب أن يرى نعمته على عبده»^(١).
وبني عامل للرشيد قصراً حذاء قصره، فتم به. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين!

(١) رواه الترمذي (٢٨١٩) بلفظ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

إن الكريم يسره أن يرى أثر نعمته، فأحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك. فأعجبه كلامه. وقيل: نزلت في شأن اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: يهانون به في الآخرة.

٣٨ - ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ معطوف على الذين ييخلون، أو: على الكافرين ﴿رِيقًا النَّاسِ﴾ مفعول له، أي: للفخار، وليقال: ما أجودهم! لا لابتغاء وجه الله. وهم المنافقون، أو مشركو مكة ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر. ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن الشيطان يُقرن بهم في النار.

٣٩ - ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ وأي تبعة ووبال عليهم في الإيمان، والإنفاق في سبيل الله. والمراد: الدم والتوبيخ، وإلا فكل منفعة ومصلحة في ذلك. وهذا كما يقال للعاق: ما ضررك لو كنت باراً؟! وقد علم أنه لا مضرّة في البر، ولكنه ذم وتوبيخ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد.

٤٠ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ هي: النملة الصغيرة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنه أدخل يده في التراب، فرفعه، ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة. وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء في الكون ذرة ﴿وَإِنْ تَكَ مِثْقَالَ الذَّرَّةِ حَسَنَةً﴾ وإنما أنت ضمير الميثقال لكونه مضافاً إلى مؤنث. ﴿حَسَنَةً﴾: حجازي على كان التامة. وحذفت النون من تكن تخفيفاً لكثرة الاستعمال ﴿يُضْعَفْهَا﴾ يضاعف ثوابها. ﴿يُضْعَفْهَا﴾: مكّي، وشامي ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ويُعط صاحبها من عنده ثواباً عظيماً. وما وصفه الله بالعظم فمن يعرف مقداره مع أنه سمى متاع الدنيا

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ
يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾
يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ

قليلاً؟! وفيه إبطال قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة، مع أن له حسنات كثيرة.

٤١ - ﴿فَكَيْفَ﴾ يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يشهد عليهم بما فعلوا، وهو نبئهم. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: أمتك ﴿شَهِيدًا﴾ حال، أي: شاهداً على مَنْ آمَنَ بالإيمان، وعلى مَنْ كفر بالكفر، وعلى مَنْ نافق بالنفاق. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: أنه قرأ سورة النساء على رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فبكى رسول الله ﷺ، وقال: «حسبنا»^(١).

٤٢ - ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لقوله: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ لو يدفنون فـتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى. أو: يودون أنهم لم يبعثوا، وأنهم كانوا والأرض سواء. أو: تصير البهائم تراباً فيودون حالها ﴿تُسَوَّى﴾ بفتح التاء وتخفيف السين والإمالة وحذف إحدى التاءين من: تتسوى، حمزة وعلي. ﴿تُسَوَّى﴾ بإدغام التاء في السين: مدني، وشامي ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا﴾ مستأنف، أي: ولا يقدرّون على كتمانها؛ لأنّ جوارحهم تشهد عليهم.

٤٣ - لما صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً وشراباً، ودعا نفراً من الصحابة - رضي الله عنهم - حين كانت الخمر مباحة، فأكلوا وشربوا، فقدّموا أحدهم ليصلي بهم المغرب، فقراً: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد، نزل: ﴿يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾. أي: لا تقربوها في هذه الحالة ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي: تقرّون. وفيه دليل على أنّ ردة السكران ليست بردة؛ لأنّ قراءة سورة الكافرين بطرح اللامات كفر،

(١) رواه أحمد (٣٨٠/١) والبخاري (٤٥٨٢) ومسلم (٨٠٠).

وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْمَاءِ فَلَمْ يَجِدْهُ فَإِنَّهُ فَلَمَّ يَحْدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا

ولم يحكم بكفره حتى خاطبهم باسم الإيمان. وما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالتفريق بينه وبين امرأته، ولا بتجديد الإيمان، ولأن الأمة اجتمعت على أن من أجرى كلمة الكفر على لسانه مخطئاً لا يحكم بكفره ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾ لأن محل الجملة مع الواو النصب على الحال، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً، أي: ولا تصلُّوا جنباً. والجنب يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث؛ لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجنب ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ صفة لقوله: «جنباً»، أي: لا تقربوا الصلاة جنباً غير عابري سبيل، أي: جنباً مقيمين غير مسافرين، والمراد بالجنب: الذين لم يغتسلوا، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾. أي: إلا أن تكونوا مسافرين عادمين الماء متيِّمين. عبّر عن المتيمم بالمسافر؛ لأن غالب حاله عدم الماء. وهذا مذهب أبي حنيفة - رحمه الله - وهو مروي عن علي - رضي الله عنه - وقال الشافعي - رحمه الله -: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: مواضع الصلاة، وهي: المساجد ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ أي: ولا تقربوا المسجد جنباً ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ إلا مجتازين فيه. فيجوز للجنب العبور في المسجد عند الحاجة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْمَاءِ فَلَمْ يَجِدْهُ فَإِنَّهُ فَلَمَّ يَحْدُوا مَاءً﴾ أي: المطمئن من الأرض، وكانوا يأتونه لقضاء الحاجة، فكفى به عن الحدث ﴿أَوْ لَمْ يَجِدْهُ مَاءً﴾ جامعتموهن. كذا عن علي - رضي الله عنه - وابن عباس ﴿فَلَمْ يَجِدْهُ مَاءً﴾ فلم تقدرُوا على استعماله لعدمه، أو بعده، أو فقد آلة الوصول إليه، أو لمانع من حية، أو سبع، أو عدو ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أدخل في حكم الشرط أربعة، وهم: المرضى، والمسافرون، والمحدثون، وأهل الجنابة. والجزء الذي هو الأمر بالتيمم يتعلّق بهم جميعاً. فالمرضى إذا عدموا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول إليه، والمسافرون إذا عدموه بعده، والمحدثون وأهل الجنابة إذا لم يجدوه [لبعض الأسباب]^(١).

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

صَعِيدًا طَيِّبًا فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَضعِهِ

فلهم أن يتيمموا. ﴿لمستم﴾ حمزة وعلي. ﴿صعيداً﴾ قال الزجاج: هو وجه الأرض، تراباً كان أو غيره، وإن كان صخراً لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده ومسح، لكان ذلك طهوره. و﴿من﴾ في سورة المائدة لابتداء الغاية لا للتبعض ﴿طيباً﴾ طاهراً ﴿فأمسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ قيل الباء زائدة ﴿إن﴾ الله كان عفواً بالترخيص، والتيسير ﴿غفوراً﴾ عن الخطأ والتقصير.

٤٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من رؤية القلب. وعدّي بإلى على معنى: ألم ينته علمك إليهم. أو: بمعنى: ألم تنظر إليهم ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ خطأ من علم التوراة، وهم: أحبار اليهود ﴿يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ﴾ يستبدلون بها الهدى، وهو: البقاء على اليهودية بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله ﷺ، وأنه هو النبي العربي المبشر به في التوراة والإنجيل ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا﴾ أنتم أيها المؤمنون ﴿السَّبِيلَ﴾ أي: سبيل الحق كما ضلوه.

٤٥ - ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم، ولا تستنصحوهم في أموركم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ في النفع ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ في الدفع. فثقوا بولايته، ونصرتهم دونهم. أو: لا تبالوا بهم، فإن الله ينصركم عليهم، ويكفيكم مكرهم. «ولياً» و«نصيراً» منصوبان على التمييز، أو على الحال.

٤٦ - ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ بيان للذين أوتوا نصيباً من الكتاب، أو: بيان لأعدائكم. وما بينهما اعتراض. أو: يتعلق بقوله «نصيراً»، أي: ينصركم ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ كقوله: ﴿وَنَصَرْتَهُ مِّنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٧]. أو: يتعلق بمحذوف تقديره: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ قوم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾. فقوم: مبتدأ، ويحرفون: صفة له، والخبر من الذين هادوا مقدم عليه، وحذف الموصوف وهو «قوم»، وأقيم صفته، وهو: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَضعِهِ﴾

مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعَ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي
الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعَ

مَوَاضِعِهِ ﴿ يميلونه عنها، ويزيلونه؛ لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كَلِمًا غيره، فقد أمالوه عن مواضعه في التوراة؛ التي وضعه الله تعالى فيها، وأزالوه عنها. وذلك نحو تحريفهم: «أسمر ربعة» عن موضعه في التوراة بوضعهم: «آدم طويل» مكانه. ثم ذكر هنا ﴿عن مواضعه﴾ وفي المائدة ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١]. فمعنى عن مواضعه على ما بينا من إزالته عن مواضعه؛ التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها؛ بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه. ومعنى ﴿من بعد مواضعه﴾ أنه كانت له مواضع هو جدير بأن يكون فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارّه. والمعنيان متقاربان ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. قيل: أسروا به ﴿وَاسْمَعَ﴾ قولنا ﴿غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ حال من المخاطب، أي: اسمع وأنت غير مسمع. وهو قول ذو وجهين يحتمل الظم. أي: اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت؛ لأنه لو أُجيب دعوتهم عليه لم يسمع شيئاً، فكان أصم غير مسمع. قالوا ذلك اتكالا على أَنَّ قولهم: لا سمعت، دعوة مستجابة. أو: اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه. ومعناه: غير مسمع جواباً يوافقك، فكأنك لم تسمع شيئاً. أو: اسمع غير مسمع كلاماً ترضاه، فسمعك عنه ناب. ويحتمل المدح، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً، من قولك: أسمع فلان فلاناً: إذا سبه ﴿وَرَاعِنَا﴾ يحتمل راعنا: نكلمك، أي: ارقبنا، وانتظرنا. ويحتمل شبه كلمة عبرانية، أو سريانية كانوا يتسابون بها، وهي «راعيئا» فكانوا سخرية بالدين، وهزواً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل، ينوون به الشتيمة، والإهانة، ويظهرون به التوقير، والإكرام ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فتلاً بها. وتحريفاً، أي: يفتلون بالسنتهم الحق إلى الباطل، حيث يضعون ﴿راعنا﴾ موضع «انظرنا» و﴿غير مسمع﴾ موضع: «لا أسمع مكروهاً» أو يفتلون بالسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقاً ﴿وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ هو قولهم: لو كان نبياً حقاً لأخبر بما نعتقد فيه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ولم يقولوا: ﴿وَعَصَيْنَا﴾ ﴿وَاسْمَعَ﴾ ولم يلحقوا به ﴿غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾

وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَآ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ

﴿وَأَنْظُرْنَا﴾ مكان ﴿راعنا﴾ ﴿لَكَانَ﴾ قولهم ذاك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عند الله ﴿وَأَقْوَمَ﴾ وأعدل، وأسد ﴿وَلَكِنْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ طردهم، وأبعدهم عن رحمته بسبب اختيارهم الكفر ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم قد آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه. أو: إلا إيماناً قليلاً ضعيفاً لا يعبأ به، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره.

٤٧ - ولما لم يؤمنوا نزل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يعني: التوراة. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَآ﴾ أي: نمحو تخطيط صورها من عين، وحاجب، وأنف، وفم ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ فنجعلها على هيئة أدبارها، وهي الأقفاء مطموسة مثلها. والفاء للتسبيب. وإن جعلتها للتعقيب على أنهم توعّدوا بعقابين أحدهما عقيب الآخر، ردّها على أدبارها بعد طمسها، فالمعنى: أن نطمس وجوهاً فننكس الوجوه إلى خلف، والأقفاء إلى قدام. وقيل: المراد بالطمس: القلب والتغيير، كما طمس أموال القبط فقلبها حجارة، وبالوجوه: رؤوسهم ووجهاؤهم. أي: من قبل أن نغير أحوال وجهائهم، فنسلبهم إقبالهم، ووجاهتهم، ونكسوهم صغارهم، وإدبارهم ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أي: نخزيهم بالمسخ كما مسخنا أصحاب السبت. والضمير يرجع إلى الوجوه إن أريد الوجهاء، أو: إلى الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات. والوعيد كان معلقاً بالآية قافلاً من الشام، فأتى النبي ﷺ آمناً بعضهم، فإن ابن سلام قد سمع الآية قافلاً من الشام، فأتى النبي ﷺ مسلماً قبل أن يأتي أهله، وقال: ما كنت أرى أن أصل إلى أهلي قبل أن يطمس الله وجهي. أو: أن الله تعالى أوعدهم بأحد الأمرين بطمس الوجوه، أو بلعنهم. فإن كان الطمس تبدل أحوال رؤسائهم فقد كان أحد الأمرين، وإن كان غيره فقد حصل اللعن، فإنهم ملعونون بكل لسان. وقيل: هو منتظر في اليهود ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: المأمور به، وهو العذاب، الذي وعدوا به

مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾

﴿مَفْعُولًا﴾ كائناً لا محالة، فلا بُدَّ أن يقع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا.

٤٨ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ إن مات عليه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: ما

دون الشرك، وإن كان كبيرة مع عدم التوبة. والحاصل: أن الشرك مغفور عنه بالتوبة، وأنَّ وعْدَ غفران ما دونه لمن لم يتب، أي: لا يغفر لمن يشرك وهو مشرك، ويغفر لمن يذنب وهو مذب. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من لقي الله تعالى لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ولم تضره خطيئته»^(١). وتقييده بقوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ لا يخرج عن عموم، كقوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: ١٩]. قال علي - رضي الله عنه -: ما في القرآن آية أحب إليَّ من هذه الآية. وحمل المعتزلة على التائب، باطل؛ لأنَّ الكفر مغفور عنه بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فما دونه أولى أن يغفر التوبة. والآية سقت لبيان التفرقة بينهما. وذا فيما ذكرنا ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كذب كذباً عظيماً استحقَّ به عذاباً أليماً.

٤٩ - ونزل فيمن زكى نفسه من اليهود والنصارى، حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ ويدخل فيها كلُّ مَنْ زكى نفسه، ووصفها بزكاء العمل، وزيادة الطاعة، والتقوى ﴿بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ إعلام بأن تزكية الله هي التي يعتدُّ بها، لا تزكية غيره؛ لأنه هو العالم بمن هو أهل للتركية. ونحوه: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. أي: الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكية أنفسهم حق جزائهم، أو من يشاء يثابون على زكائهم، ولا ينقص من ثوابهم ﴿فَتِيلًا﴾ قدر فتيل، وهو: ما يحدث بقتل الأصابع من الوسخ.

أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنَ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ

٥٠ - ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في زعمهم أنهم عند الله أذكىاء ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ بزعمهم هذا ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ من بين سائر آثامهم.

٥١ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾ أي: الأصنام، وكل ما عبده من دون الله ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ الشيطان ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ وذلك أن حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل الكتاب، وأنتم إلى محمد أقرب منا، وهو أقرب منكم إلينا، فلا نأمن مكرهم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم. ففعلوا. فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت؛ لأنهم سجدوا للأصنام، وأطاعوا إبليس عليه اللعنة فيما فعلوا. فقال أبو سفيان: أنحن أهدي سبيلاً أم محمد؟ فقال كعب: أنتم أهدي سبيلاً.

٥٢ - ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنَ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يعتد بنصره.

٥٣ - ثم وصف اليهود بالبخل والحسد، وهما من شرِّ الخصال، يمنعون مالهم، ويتمنون ما لغيرهم، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ فـ«أم» منقطعة، ومعنى الهمزة: الإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك - أي: ملك أهل الدنيا، أو ملك الله - فإذا لا يؤتون أحداً مقدارَ نقير لفرط بخلهم. والنقير: النقرة في ظهر النواة. وهو مثل في القلّة كالفتيل.

٥٤ - ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ بل يحسدون رسول الله

فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

ﷺ والمؤمنين، على إنكار الحسد واستقباحه. وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصر، والغلبة، وازدياد العز، والتقدم كل يوم ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الموعظة، والفقه ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ يعني: ملك يوسف، وداود، وسليمان عليهم السلام. وهذا إلزام لهم بما عرفوه من إتياء الله الكتاب والحكمة آل إبراهيم الذين هم أسلاف محمد ﷺ، وأنه ليس ببدع أن يؤتيه الله مثل ما أوتي أسلافه.

٥٥ - ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ فمن اليهود من آمن بما ذكر من حديث آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ وأنكره مع علمه بصحته. أو: من اليهود من آمن برسول الله ﷺ، ومنهم من أنكر نبوته، وأعرض عنه ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ للصّادّين.

٥٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ندخلهم ﴿نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أحرقت ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أعدنا تلك الجلود غير محترقة، فالتبديل والتغيير لتغاير الهيئتين، لا لتغاير الأصليين عند أهل الحق، خلافاً للكرامية. وعن فضيل: يجعل النضيج غير نضيج ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ليدوم لهم ذوقه، ولا ينقطع، كقولك للعزیز: أعزك الله، أي: أدامك على عرك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ غالباً بالانتقام، لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يفعل بالكافرين.

٥٧ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من الأنجاس، والحيض، والثفاس. ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ هو صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه، كما يقال: ليل أليل،

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٥٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ

وهو ما كان طويلاً فينأنا: لا جُوب فيه، ودائماً لا تنسخه الشمس، وسَجَسَجاً لا حرَّ فيه ولا برد. وليس ذلك إلا ظل الجنة.

٥٨ - ثمَّ خاطب الولاة بأداء الأمانات، والحكم بالعدل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وقيل: قد دخل في هذا الأمر أداء الفرائض التي هي أمانة الله تعالى؛ التي حملها الإنسان، وحفظ الحواس التي هي ودائع الله تعالى. ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ قضيتم. ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ بالسوية، والإنصاف. وقيل: إنّ عثمان بن طلحة بن عبد الدار كان سادن الكعبة، وقد أخذ رسولُ الله ﷺ منه مفتاح الكعبة. فلما نزلت الآية أمر علياً - رضي الله عنه - بأن يرده إليه، وقال رسولُ الله ﷺ: «لقد أنزل الله في شأنك قرآناً» وقرأ عليه الآية. فأسلم عثمان. فهبط جبريل عليه السلام وأخبر رسول الله ﷺ أن السّدانة في أولاد عثمان أبداً^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ «ما» نكرة منصوبة موصوفة بـ: يعظكم به، كأنه قيل: نعم شيئاً يعظكم به. أو: موصولة مرفوعة المحل صلتها ما بعدها، أي: نعم الشيء الذي يعظكم به. والمخصوص بالمدح محذوف، أي: نعماً يعظكم به ذاك. وهو المأمورُ به من أداء الأمانات، والعدل في الحكم. وبكسر النون وسكون العين، مدني، وأبو عمرو. وبفتح النون وكسر العين، شامي، وحمزة، وعليّ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأعمالكم.

٥٩ - ولما أمر الولاة بأداء الأمانات والحكم بالعدل أمر الناس بأن يطيعوهم بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي: الولاة، أو: العلماء؛ لأن أمرهم ينفذ على الأمراء ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر في شيء من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي:

(١) قال ابن حجر: هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد، وذكره الواحدي في الوسيط والأسباب. انظر: حاشية الكشاف (١/٥٢٣).

إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ

ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إن الإيمان يوجب الطاعة دون العصيان. ودلت الآية على أن طاعة الأمراء واجبة إذا وافقوا الحق، فإذا خالفوه فلا طاعة لهم؛ لقوله ﷺ: « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »^(١). وحكي أن مسلمة بن عبد الملك بن مروان قال لأبي حازم: أستم أمرتم بطاعتنا بقوله ﴿وأولي الأمر منكم﴾؟ فقال أبو حازم: ليس قد نزع الطاعة عنكم إذا خالفتم الحق بقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾؟ أي: القرآن والرسول في حياته، وإلى أحاديثه بعد وفاته ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الرد. أي: الرد إلى الكتاب والسنة ﴿خَيْرٌ﴾ عاجلاً ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة.

٦٠ - كان بين بشر المنافق ويهودي خصومة، فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ لعلمه أنه لا يرتشي، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ليرشوه. فاحتكما إلى النبي ﷺ، ففضى لليهودي، فلم يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر. فقال اليهودي لعمر - رضي الله عنه -: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه، فقال عمر للمنافق: أكذاك؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما. فدخل عمر فأخذ سيفه، ثم خرج فضرب به عنق المنافق. فقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله. فنزل: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾. وقال جبريل عليه السلام: إن عمر فرق بين الحق والباطل، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق»^(٢) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿يزعمون﴾ ﴿أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أي: كعب بن الأشرف. سمّاه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان، وعداوة رسول الله ﷺ. أو: على التشبيه بالشیطان. أو جعل اختيار

(١) رواه أحمد (٤٠٩/١) و (٦٦/٥).

(٢) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٠٧ - ١٠٨).

وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

التحاكم إلى غير الله على التحاكم إليه تحاكماً إلى الشيطان، بدليل قوله: ﴿وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾ عن الحق ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ مستمراً إلى الموت.

٦٠ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ للمنافقين. ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ للتحاكم ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ يعرضون عنك إلى غيرك ليغروه بالرشوة، فيقضي لهم.

٦٢ - ﴿فَكَيْفَ﴾ تكون حالهم، وكيف يصنعون؟ ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ من قتل عمر بشراً ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك، واتهامهم لك في الحكم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ أي: أصحاب القتل من المنافقين ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ حال ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إِلَّا إِحْسَانًا﴾ لا إساءة ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ بين الخصمين، ولم نرد مخالفة لك، ولا تسخطاً لحكمك. وهذا وعيد لهم على فعلهم، وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم، ولا يغني عنهم الاعتذار. وقيل: جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه، وقد أهدره الله، فقالوا: ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالنا أنه يحكم له بما حكم به.

٦٣ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ فاعرض عن قبول الأعذار، وعظ بالزجر والإنكار، وبالغ في وعظهم بالتخويف والإنذار. أو: أعرض عن عقابهم، وعظهم في عتابهم، وبلغ كنه ما في ضميرك من الوعظ بازتكابهم. والبلاغة: أن يبلغ بلسانه كنه ما في جنانه. و﴿في أنفسهم﴾ يتعلق به: قل لهم، أي: ﴿قل لهم في﴾ معنى ﴿أنفسهم﴾ الخبيثة وقلوبهم المطوية على

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ

النفاق ﴿قولاً بليغاً﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم.

٦٤ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ﴾ أي: رسولا قط ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بتوفيقه في طاعته وتيسيره. أو: بسبب إذن الله في طاعته، وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه؛ لأنه مؤدّ عن الله، فطاعته طاعة الله ﴿وَمَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت ﴿جَاءُوكَ﴾ تائبين من النفاق، معتردين عما ارتكبوا من الشقاق ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ من النفاق والشقاق ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ بالشفاعة لهم. والعامل في ﴿إِذْ ظَلَمُوا﴾ خبر أن وهو ﴿جاءوك﴾. والمعنى: ولو وقع مجيئهم في وقت ظلمهم مع استغفارهم واستغفار الرسول. ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا﴾ لعلموه تواباً، أي: لتاب عليهم. ولم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفعيلاً لشأنه ﷺ، وتعظيماً لاستغفاره، وتنبهاً على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله بمكان. ﴿رَحِيمًا﴾ بهم. قيل: جاء أعرابي بعد دفنه ﷺ فرمى بنفسه على قبره، وحثاً من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله! قلت فسمعنا، وكان فيما أنزل عليك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ الآية وقد ظلمت نفسي، وجئتك أستغفر الله من ذنبي، فاستغفر لي من ربي. فتودي من قبره: قد غفر لك!

٦٥ - ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي: فوربك، كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾ [الحجر: ٩٢] و«لا» مزيدة لتأكيد معنى القسم. وجواب القسم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أو: التقدير ﴿فلا﴾ أي: ليس الأمر كما يقولون، ثم قال: ﴿وربك لا يؤمنون﴾ ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم واختلط، ومنه: الشجر؛ لتداخل أغصانه ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضيقاً ﴿وَمِمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: لا تضيق صدورهم من حكمك، أو شكاً؛ لأن الشاك في ضيق من أمره

وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنُهُمْ مِنَ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

حتى يلوح له اليقين ﴿وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ وينقادوا لقضائك انقياداً، وحقيقته: سلم نفسه له وأسلمها، أي: جعلها سالمة له، أي: خالصة. و﴿تسليماً﴾ مصدر مؤكد للفعل بمنزلة تكريره، كأنه قيل: وينقادوا لحكمك انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم. والمعنى: لا يكونون مؤمنين حتى يرضوا بحكمك وقضائك.

٦٦ - ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على المنافقين، أي: ولو وقع كتبنا عليهم ﴿أَنْ اقْتُلُوا﴾ أن هي المفسرة ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تعرّضوا للقتل بالجهاد، أو: ولو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل من قتلهم أنفسهم ﴿أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ بالهجرة ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ لنفاقهم، والهاء: ضمير أحد مصدرى الفعلين، وهو: القتل، أو الخروج، أو: ضمير المكتوب لدلالة كتبنا عليه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (قليلاً): شامي، على الاستثناء، والرفع على البدل من واو «فعلوه» ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من اتباع رسول الله ﷺ، والانقياد لحكمه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في الدارين ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ لإيمانهم، وأبعد عن الاضطراب فيه.

٦٧ - ﴿وَإِذَا﴾ جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: وما ذا يكون لهم بعد التثبیت؟ فقيل: ﴿وَإِذَا﴾ لو ثبتوا ﴿لَا تَأْتِنُهُمْ مِنَ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً كثيراً لا ينقطع.

٦٨ - ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا﴾ مفعول ثانٍ ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ أي: لثبتناهم على الدين الحق.

٦٩ - ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ كأفاضل صحابة الأنبياء. والصدق: المبالغ في صدق ظاهره بالمعاملة، وباطنه بالمراقبة. أو: الذي يصدق قوله بفعله ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ والذين استشهدوا

وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا ﴿٧١﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
 عَلِيمًا ﴿٧٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧٣﴾
 وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْثَلٌ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ

في سبيل الله ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ ومن صلحت أحوالهم، وحسنت أعمالهم ﴿وَحَسَنَ
 أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾ أي: وما أحسن أولئك رفيقاً! وهو كالصديق، والخليط في
 استواء الواحد، والجمع فيه.

٧٠ - ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ، خبره ﴿الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أو: الفضل صفته و(من
 الله) خبره. والمعنى: أن ما أعطى المطيعون من الأجر العظيم، ومرافقة
 المنعم عليهم، من الله؛ لأنه تفضل به عليهم. أو: أراد أن فضل المنعم عليهم
 ومزيّتهم من الله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ بعباده، وبمن هو أهل الفضل. ودلت الآية
 على أنَّ ما يفعل الله بعباده فهو فضل منه، بخلاف ما يقوله المعتزلة.

٧١ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ الحِذْر والحَذَر بمعنى، وهو:
 التَّحَرُّزُ، وهما كالإثر والأثر. يقال: أخذ حذره؛ إذا تيقظ، واحترز من
 المخوف، كأنه جعل الحذر آتته التي بقي بها نفسه، ويعصم بها روحه.
 والمعنى: احذروا واحترزوا من العدو ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ فاخرجوا إلى العدو
 جماعات متفرقة سرية بعد سرية. فالثبات: الجماعات، واحدها: ثبة ﴿أَوْ
 انفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين، أو مع النبي ﷺ؛ لأن الجمع بدون السمع
 لا يتم، والعقد بدون الوسطة لا ينتظم. أو: ﴿انفروا ثبات﴾ إذا لم يعم النفير
 ﴿أو انفروا جميعاً﴾ إذا عمَّ النفير. و«ثبات» حال، وكذا «جميعاً».

٧٢ - واللام في: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْثَلٌ﴾ للابتداء بمنزلتها في إن الله لغفور، ومن
 موصولة ﴿لَّيْثَلٌ﴾ اللام جواب قسم محذوف، تقديره: وإن منكم لمن أقسم
 بالله ليثطن. والقسم وجوابه صلة من. والضمير الراجع منها إليه ما استكن في
 ﴿ليثطن﴾ أي: ليتأقطن، وليتخلفن عن الجهاد. وبطؤ بمعنى: أبطأ، أي:
 تأخر. ويقال: ما بطؤ بك، فيتعدى بالباء. والخطاب لعسكر رسول الله ﷺ.
 وقوله ﴿منكم﴾ أي: الظاهر دون الباطن، يعني: المنافقين، يقولون: لم
 تقتلون أنفسكم، تأنوا حتى يظهر الأمر ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ قتل، أو هزيمة

قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧٤﴾

﴿قَالَ﴾ المبطيء ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً، فيصيني مثل ما أصابهم.

٧٣ - ﴿وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ فتح، أو غنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المبطيء متلهفاً على ما فاتته من الغنيمة، لا طلباً للمثوبة ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: كأنه ﴿لَمْ تَكُنْ﴾^(١) وبالياء، مكى، وحفص ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ وهي اعتراض بين الفعل، وهو ﴿ليقولن﴾ وبين مفعوله، وهو ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ والمعنى: كأن لم يتقدم له معكم مادة؛ لأن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين في الظاهر، وإن كانوا يبعون لهم الغوائل^(٢) في الباطن ﴿فَأَفُوزَ﴾ بالنصيب؛ لأنه جواب التمني ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فأخذ من الغنيمة حظاً وافراً.

٧٤ - ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ يبيعون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ والمراد: المؤمنون الذين يستحبون الحياة الآجلة على العاجلة، ويستبدلون بها. أي: إن صد الذين مرضت قلوبهم، وضعفت نياتهم عن القتال، فليقاتل الثابتون المخلصون. أو: يشترون. والمراد: المنافقون الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة. وعظوا بأن يغيروا ما بهم من النفاق، ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله، ويجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعد الله المقاتل في سبيل الله ظافراً، أو مظفوراً به إتياء الأجر العظيم على اجتهاده في إعزاز دين الله.

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿يَكُنْ﴾. وهي قراءة: نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، والكسائي، وحمة، وعاصم، وأبي جعفر المدني، وحفص، ورويس البرهمي. معجم القراءات القرآنية (١٤٥/٢).

(٢) «الغوائل»: جمع الغائلة، وهي الفساد والشر.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

٧٥ - ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر. وهذا الاستفهام في النفي للتنبيه على الاستبطاء، وفي الإثبات للإنكار ﴿لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حال، والعامل فيها الاستقرار، كما تقول: مالك قائماً؟! والمعنى: وأي شيء لكم تاركين القتال، وقد ظهرت دواعيه؟! ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ مجرور بالعطف على ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في سبيل الله، وفي خلاص المستضعفين. أو: منصوب على الاختصاص منه، أي: واختص من سبيل الله خلاص المستضعفين [من المستضعفين] ^(١)؛ لأن سبيل الله عام في كل خير، وخلاص المستضعفين المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير، وأخصه. والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة، وصدهم المشركون عن الهجرة، فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين، يَلْقَوْنَ منهم الأذى الشديد ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ ذكر الولدان تسجيلاً بإفراط ظلمهم، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم، ولأنَّ المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالاً لرحمة الله بدعاء صغارهم؛ الذين لم يذنبوا، كما فعل قوم يونس عليه السلام. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعني: مكة ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ الظالم: وصف للقرية، إلا أنه مسند إلى أهلها، فأعطي إعراب القرية؛ لأنه صفتها، وذكر لإسناده إلى الأهل، كما تقول: من هذه القرية التي ظلم أهلها ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يتولّى أمرنا، ويستنقذنا من أعدائنا ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا عليهم. كانوا يدعون الله بالخلاص، ويستنصرونه، فيسر لبعضهم الخروج إلى المدينة، وبقي بعضهم إلى الفتح، حتى جعل الله لهم من لدنه خير ولي وناصر، وهو محمد ﷺ، فتولاهم أحسن التولي، ونصرهم أقوى

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا
أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ
اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ

النصر. ولما خرج محمد ﷺ استعمل عتاب بن أسيد، فأروا منه الولاية
والنصرة كما أرادوا. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان ينصر الضعيف
من القوي، حتى كانوا أعزَّ بها من الظلمة.

٧٦ - ثُمَّ رَغِبَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ يِقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ وَلِيَهُمْ
وَنَاصِرُهُمْ، وَأَعْدَاؤُهُمْ يِقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ، فَلَا وَلِيَ لَهُمْ إِلَّا الشَّيْطَانُ
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أي: الشيطان
بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: الكفار ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: وساوسه،
وقيل الكيد: السعي في فساد الحال، على جهة الاحتيال ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ لأنه
غرور، لا يؤول إلى محصول، أو: كيده في مقابلة نصر الله تعالى ضعيف.

٧٧ - كَانَ الْمُسْلِمُونَ مَكْفُوفِينَ عَنِ الْقِتَالِ مَعَ الْكُفَّارِ مَا دَامُوا بِمَكَّةَ،
وَكَانُوا يَتَمَنُّونَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُمْ فِيهِ، فَنَزَلَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أي:
عن القتال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فَرِضَ بِالْمَدِينَةِ
﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يخافون أن يقاتلهم الكفار، كما يخافون
أن ينزل الله عليهم بأسه، لا شكاً في الدين، ولا رغبة عنه، ولكن نفوراً عن
الأخطار بالأرواح، وخوفاً من الموت. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -:
هذه خشية طبع، لا أنَّ ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقاداً، فالمرء
مجبولٌ على كراهة ما فيه خوف هلاكه غالباً. و«خشية الله» من إضافة المصدر
إلى المفعول، ومحله النصب على الحال من الضمير في «يخشون» أي:
يخشون الناس مثل أهل خشية الله، أي: مشبهين لأهل خشية الله ﴿أَوْ أَشَدَّ
خَشْيَةً﴾ هو معطوف على الحال، أي: أو أشد خشية من أهل خشية الله.
وأو: للتخيير، أي: أن قلت خشيتهم الناس كخشية الله فأنت مصيب، وإن
قلت: إنها أشد فأنت مصيب؛ لأنه حصل لهم مثلها وزيادة ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ

عَلَيْنَا الْفِتَالُ لَوْلَا أَخَرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ

عَلَيْنَا الْفِتَالُ لَوْلَا أَخَرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿﴾ هلا أمهلنا إلى الموت، فموت على الفرش. وهو سؤال عن وجه الحكمة في فرض القتال عليهم، لا اعتراض لحكمه؛ بدليل أنهم لم يوبخوا على هذا السؤال، بل أجيبوا بقوله: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ متاع الدنيا قليل زائل، ومتاع الآخرة كثير دائم، والكثير إذا كان على شرف الزوال فهو قليل، فكيف القليل الزائل؟! ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا تنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتل، فلا ترغبوا عنه. وبالباء، مكّي، وحمزة، وعليّ.

٧٨ - ثم أخبر أن الحذر لا ينجي من القدر بقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ﴾ «ما» زائدة لتوكيد معنى الشرط في أين ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾ حصون، أو قصور ﴿مُسَيَّدَةٍ﴾ مرفعة ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ نعمة من خصب، ورخاء. ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ نسبوها إلى الله ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلية من قحط، وشدة ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أضافوها إليك، وقالوا: هي من عندك، وما كانت إلا بشؤمك. وذلك: أن المنافقين واليهود كانوا إذا أصابهم خير حمدوا الله تعالى، وإذا أصابهم مكروه نسبوه إلى محمد ﷺ، فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ والمضاف إليه محذوف، أي: كل ذلك، فهو يسط الرزاق ويقبضها ﴿فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ يفهمون ﴿حَدِيثًا﴾ فيعلمون أن الله هو الباسط القابض، وكل ذلك صادر عن حكمة.

٧٩ - ثم قال: ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ يا إنسان! خطاباً عاماً، وقال الزجاج: المخاطب به النبي ﷺ، والمراد غيره ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة، وإحسان ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ تفضلاً منه، وامتناناً ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ من بلية، ومصيبة ﴿فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ فمن عندك، أي: فيما كسبت يداك ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ فما كسبت

وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

أيديكم ﴿٨١﴾ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴿٨٢﴾ لا مقدرًا حتى نسبوا إليك الشدة. أو: أرسلناك للناس رسولاً، فإليك تبليغ الرسالة، وليس إليك الحسنة والسيئة ﴿٨٣﴾ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٨٤﴾ بأنك رسوله. وقيل: هذا متصل بالأول، أي: ﴿لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ يقولون: ﴿ما أصابك﴾. وحمل المعتزلة الحسنة والسيئة في هذه الآية على الطاعة والمعصية، تعسف بين. وقد نادى عليه ﴿ما أصابك﴾ إذ يقال في الأفعال: ما أصبت، ولأنهم لا يقولون الحسنات من الله خلقاً وإيجاداً، فأتى يكون لهم حجة في ذلك؟! و﴿شهاداً﴾ تمييز.

٨٠ - ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه لا يأمر ولا ينهى إلا بما أمر الله به ونهى عنه، فكانت طاعته في أوامره ونواهيه طاعة لله ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن الطاعة فأعرض عنه ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم، وتحاسبهم عليها، وتعاقبهم.

٨١ - ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ﴾ ويقول المنافقون إذا أمرتهم بشيء ﴿طَاعَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: أمرنا وشأننا طاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خرجوا ﴿مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ زور، وسوى. فهو من البيوتة؛ لأنه قضاء الأمر وتدبيره بالليل، أو من أبيات الشعر لأن الشاعر يدبرها ويُسويها. وبالإدغام^(١) حمزة، وأبو عمرو ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ خلاف ما قلت، وما أمرت به. أو: خلاف ما قالت، وما ضمنت من الطاعة؛ لأنهم أبطنوا الرد لا القبول، والعصيان لا الطاعة، وإنما ينافقون بما يقولون، ويظهرون ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يشته في صحائف أعمالهم، ويجازيهم عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في شأنهم، فإن الله يكفيك مضرتهم، ويتقم لك منهم

(١) أي: بإدغام التاء مع الطاء ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾.

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
 اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ
 إِلَى الرَّسُولِ وَالْإِلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ

إذا قوي أمر الإسلام ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ كافياً لمن توكل عليه.

٨٢ - ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أفلا يتأملون معانيه ومبانيه. والتدبر: التأمل والنظر في أدبار الأمر، وما يؤول إليه في عاقبته، ثم استعمل في كل تأمل. والتفكر تصرف القلب بالنظر في الدلائل. وهذا يردُّ قول من زعم من الروافض أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول الله ﷺ، والإمام المعصوم. ويدلُّ على صحة القياس، وعلى بطلان التقليد ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ كما زعم الكفار ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: تناقضاً من حيث التوحيد، والتشريك، والتحليل، والتحريم. أو: تفاوتاً من حيث البلاغة، فكان بعضه بالغاً حدَّ الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته. أو: من حيث المعاني، فكان بعضه إخباراً بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم. وأما تعلق الملاحظة بآيات يدعون فيها اختلافاً كثيراً من نحو قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَأُ مُبَيَّنٌّ﴾ [الأعراف: ١٠٧] ﴿كَأَنَّهُمَا جَذٌّ﴾ [النمل: ١٠] ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَلَكَ أَجْعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] ﴿فَيَوْمِئِذٍ لَا يُشْلُ عَنْ ذُلِّهِ إِشٌّ وَلَا جَكَاةٌ﴾ [الرحمن: ٣٩] فقد تفصَّى عنها أهل الحق، وستجدها مشروحة في كتابنا هذا في مظانها إن شاء الله تعالى.

٨٣ - ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾ هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم يكن فيهم خبرة بالأحوال. أو: المنافقون؛ كانوا إذا بلغهم خبر من سرايا رسول الله ﷺ من أمن، وسلامة، أو خوف، وخلل ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أفشوه، وكانت إذاعتهم مفسدة. يقال: أذاع السر، وأذاع به. والضمير يعود إلى الأمر، أو: إلى الأمن، أو: الخوف؛ لأن أو تقتضي أحدهما ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي: ذلك الخبر ﴿إِلَى الرَّسُولِ﴾ أي: رسول الله ﷺ ﴿وَالْإِلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ يعني: كبراء الصحابة البصراء بالأمر، أو الذين كانوا يؤمرونهم ﴿لَعَلِمَهُ﴾

الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَنِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

لَعَلَّم تَدْبِيرَ مَا أَخْبَرُوا بِهِ ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ يَسْتَخْرِجُونَ تَدْبِيرَهُ بِفُطْنِهِمْ، وَتَجَارِبِهِمْ، وَمَعْرِفَتِهِمْ بِأُمُورِ الْحَرْبِ وَمَكَائِدِهَا. وَقِيلَ: كَانُوا يَقْفُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأُولَى الْأَمْرِ عَلَى أَمْنٍ وَوَثُوقٍ بِالظُّهُورِ عَلَى بَعْضِ الْأَعْدَاءِ، أَوْ عَلَى خَوْفٍ وَاسْتَشْعَارٍ، فَيَذِيعُونَهُ، فَيَتَشَرُّ، فَيَبْلُغُ الْأَعْدَاءَ، فَتَعُودُ إِذَاعَتِهِمْ مَفْسُدَةً، وَلَوْ رَدَّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ، وَفَوَّضُوهُ إِلَيْهِمْ، وَكَانُوا كَأَن لَّمْ يَسْمَعُوا، لَعَلَّم الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَ تَدْبِيرَهُ كَيْفَ يَدْبُرُونَهُ، وَمَا يَأْتُونَ، وَيَذَرُونَ فِيهِ. وَالنَّبْطُ: الْمَاءُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْبُئْرِ أَوَّلَ مَا تُحْفَرُ. وَاسْتَنْبَاطُهُ: اسْتِخْرَاجُهُ، فَاسْتَعِيرَ لَمَّا يَسْتَخْرِجُهُ الرَّجُلُ بِفَضْلِ ذَهْنِهِ مِنَ الْمَعَانِي، وَالتَّدَابِيرِ فِيمَا يَعْضَلُ ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بِإِزَالِ الْكِتَابِ ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ لَبْقِيتُمْ عَلَى الْكُفْرِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لَمْ يَتَّبِعُوهُ، وَلَكِنْ آمَنُوا بِالْعَقْلِ كَزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ، وَقَسِ بْنِ سَاعِدَةَ، وَغَيْرِهِمَا.

٨٤ - لَمَّا ذَكَرَ فِي الْآيِ قَبْلَهَا تَنْبِطَهُمْ عَنِ الْقِتَالِ، وَإِظْهَارَهُمُ الطَّاعَةَ، وَإِضْمَارَهُمْ خِلَافَهَا، قَالَ: ﴿فَقَنِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِنْ أَفْرَدُوكَ، وَتَرَكُوكَ وَحْدَكَ ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ غَيْرَ نَفْسِكَ وَحْدَهَا أَنْ تُقَدِّمَهَا إِلَى الْجِهَادِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَاصِرُكَ لَا الْجُنُودَ. وَقِيلَ: دَعَا النَّاسَ فِي بَدْرِ الصَّغْرَى إِلَى الْخُرُوجِ، وَكَانَ أَبُو سَفْيَانَ وَاعَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْلِقَاءَ فِيهَا، فَكَرِهَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَخْرُجُوا فَتَزَلَتْ، فَخَرَجَ وَمَا مَعَهُ إِلَّا سَبْعُونَ، وَلَوْ لَمْ يَتَّبِعْهُ أَحَدٌ لَخَرَجَ وَحْدَهُ ﴿وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا عَلَيْكَ فِي شَأْنِهِمْ إِلَّا التَّحْرِيزُ عَلَى الْقِتَالِ فَحَسَبَ، لَا التَّعْنِيفَ بِهِمْ ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيِ: بِطَشِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ، وَهَمَّ قَرِيشٌ. وَقَدْ كَفَّ بِأَسِهِمُ بِالرَّعْبِ فَلَمْ يَخْرُجُوا. وَ﴿عَسَى﴾ كَلِمَةٌ مَطْمَعَةٌ، غَيْرُ أَنْ إِطْمَاعَ الْكَرِيمِ أَعُودَ مِنْ إِنْجَازِ اللَّثِيمِ ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا﴾ مِنْ قَرِيشٍ ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ تَعْذِيبًا، وَهُوَ تَمْيِيزُ كَ: بِأَسًا.

مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَمْ نَصِيبْ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَمْ يَكْفُلْ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا

٨٥ - ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً﴾ هي الشفاعة في دفع شر، أو جلب نفع، مع جوازها شرعاً ﴿يَكُنْ لَمْ نَصِيبْ مِنْهَا﴾ من ثواب الشفاعة ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً﴾ هي خلاف الشفاعة الحسنة. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: مالها مفسر غيري: معناه: من أمر بالتوحيد، وقاتل أهل الكفر، وضده: السيئة. وقال الحسن: هو المشي بالصلح، وضده: النميمة ﴿يَكُنْ لَمْ يَكْفُلْ مِنْهَا﴾ نصيب ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾ مقتدرًا. من: أقات على الشيء: اقتدر عليه، أو حفيظًا. من القوت لأنه يمسك النفس، ويحفظها.

٨٦ - ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ﴾ أي: سُلم عليكم، فإنَّ التحية في ديننا بالسلام في الدارين ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النور: ٦١] ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وكانت العرب تقول عند اللقاء: حياك الله، أي: أطل حياتك فأبدل ذلك بعد الإسلام بالسلام ﴿بِنَحِيَةٍ﴾ هي تفعلة، من حيا يحتي تحية ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أي: قولوا: وعليكم السلام ورحمة الله، إذا قال: السلام عليكم، وزيدوا: وبركاته، إذا قال: ورحمة الله. ويقال: لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام: وبركاته ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي: أجيئوها بمثلها. ورد السلام: جوابه بمثله؛ لأنَّ المجيب يرُدُّ قولَ المسلم. وفيه حذف مضاف، أي: ردوا مثلها. والتسليم سُنَّة، والرد فريضة، والأحسنُ فضل. وما من رجل يمرُّ على قوم مسلمين فيسلمُ عليهم ولا يردون عليه إلا نزع عنهم روح القدس، وردت عليه الملائكة. ولا يرد السلام في الخطبة، وقراءة القرآن جهراً، ورواية الحديث، وعند مذاكرة العلم، والأذان، والإقامة. وعند أبي يوسف - رحمه الله -: لا يسلم على لاعب الشطرنج والنرد، والمُعْتَبِي، والقاعد لحاجته، ومُطَيَّرِ الحَمَام، والعارِي من غير عذر في حمام أو غيره. ويسلم الرجل إذا دخل على امرأته، والماشي على القاعد، والراكب على الماشي، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر،

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً

وإذا التقيا ابتدئا. وقيل: ﴿بأحسن منها﴾ لأهل الملة ﴿أو ردها﴾ لأهل الذمة. وعن النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم» ^(١) أي: وعليكم ما قلتم؛ لأنهم كانوا يقولون: السام عليكم. وقوله ﷺ: «لا غرار في تسليم» ^(٢) أي: لا يقال عليك، بل عليكم؛ لأن كاتبه معه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي: يُحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها.

٨٧ - ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر، أو اعتراض، والخبر: ﴿لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ﴾ ومعناه: الله، والله ليجمعنكم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ليحشرنكم إليه، والقيامة: القيام، كالطلابة والطلاب، وهي: قيامهم من القبور، أو: قيامهم للحساب ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ﴿لَارَيْبَ فِيهِ﴾ هو حال من يوم القيامة، والهاء يعود إلى اليوم. أو: صفة المصدر محذوف، أي: جمعاً لا ريب فيه، والهاء يعود إلى الجمع ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ تمييز. وهو استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أصدق منه في إخباره، ووعد، ووعيده؛ لاستحالة الكذب عليه لقبحه؛ لكونه إخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه.

٨٨ - ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً﴾ أي: ما لكم اختلفتم في شأن قوم قد نافقوا نفاقاً ظاهراً، وتفرقتم فيهم فرقتين، وما لكم لم تقطعوا القول بكفرهم. وذلك أَنَّ قوماً من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة. فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون فيهم، فقال بعضهم: هم كفار، وقال بعضهم: هم مسلمون. و﴿فتنتين﴾ حال، كقولك: مالك قائماً؟ قال سيبويه: إذا قلت مالك قائماً؟ فمعناه: لم قمت؟ ونصبه على

(١) رواه البخاري (٦٢٥٨) ومسلم (٢١٦٣).

(٢) رواه أحمد (٤٦١/٢) وأبو داود (٩٢٨ و ٩٢٩). ومعنى «لا غرار»: لا نقصان.

وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ

تأويل: أي شيء يستقرُّ لك في هذه الحال؟! ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ رَدَّهم إلى حُكْم الكفار ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من ارتدادهم ولحوقهم بالمشرِّكين. فردوهم أيضاً، ولا تختلفوا في كفرهم. ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾ أن تجعلوا من جملة المهتدين ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ مَنْ جعله الله ضالًّا. أو: أتريدون أن تسموهم مهتدين، وقد أظهر الله ضلالهم، فيكون تعبيراً لمن سماهم مهتدين. والآية تدلُّ على مذهبنا في إثبات الكسب للعبد، والخلق للرب جلَّت قدرته ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى الهداية.

٨٩ - ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ الكاف: نعت لمصدر محذوف، وما: مصدرية، أي: ودوا لو تكفرون كفراً مثل كفرهم ﴿فَتَكُونُونَ﴾ عطف على تكفرون ﴿سَوَاءً﴾ أي: مستويين أنتم وهم في الكفر ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا؛ لأنَّ الهجرة في سبيل الله بالإسلام ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ كما كان حُكْم سائر المشركين ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم.

٩٠ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾ أي: ينتهون إليهم، ويتصلون بهم. والاستثناء من قوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ دون الموالاة ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ القوم هم المسلميون، كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، وذلك أنه وادَّعَ قبل خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على ألا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال، والتجأ إليه، فله من الجوار مثل الذي لهلال. أي: فاقتلوهم إلا من اتصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ عطف على صفة قوم، أي: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم. أو: على صلة الذين، أي: إلا الذين يتصلون

حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩١﴾ سَتَجِدُونَ أَخْرَيْنَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْبِلُواهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩٢﴾ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً

بالمعاهدين، أو الذين لا يقاتلونكم ﴿حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ حال بإضمار قد. والحصر: الضيق، والانقباض ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ عن أن يقاتلوكم، أي: عن قتالكم ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ معكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بتقوية قلوبهم، وإزالة الحصر عنها ﴿فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾ عطف على «لسلطهم» ودخول اللام للتأكيد ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ أي: الانقياد، والاستسلام ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى القتال.

٩١ - ﴿سَتَجِدُونَ أَخْرَيْنَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالنفاق ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ بالوفاق. هم قوم من أسد وغطفان، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا، وعاهدوا ليأمنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا، ونكثوا عهودهم ﴿كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ كلما دعاهم قومهم على القتال المسلمين ﴿أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، وكانوا شراً فيها من كلِّ عدو ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ فإن لم يعتزلوا قتالكم ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ عطف على لم يعتزلوكم، أي: ولم ينقادوا لكم بطلب الصلح ﴿وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عطف عليه أيضاً، أي: ولم يمسكوا عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْبِلُواهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث تمكنتم منهم، وظفرتم بهم ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة واضحة لظهور عداوتهم، وانكشاف حالهم في الكفر والغدر، وإضرارهم بالمسلمين، أو تسلطاً ظاهراً حيث أذنّا لكم في قتلهم.

٩٢ - ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وما صح له، ولا استقام، ولا لاق بحاله ﴿أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا﴾ ابتداء من غير قصاص، أي: ليس المؤمن كالكافر الذي تقدّم إباحة دمه ﴿إِلَّا خَطَاً﴾ إلا على وجه الخطأ، وهو استثناء منقطع بمعنى:

وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

لكن، أي: لكن إن وقع خطأ. ويحتمل أن يكون صفة للمصدر، أي: إلا قتلاً خطأ. والمعنى: من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة، إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد بأن يرمي كافراً، فيصيب مسلماً، أو يرمي شخصاً على أنه كافر، فإذا هو مسلم ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً﴾ صفة مصدر محذوف، أي: قتلاً خطأ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليه تحرير رقبة. والتحرير: الإعتاق. والحر والعتيق: الكريم؛ لأن الكرم في الأحرار، كما أن اللؤم في العبيد، ومنه عتاق الطير، وعتاق الخيل لكرامها. والرقبة: النسمة، ويعبر عنها بالرأس في قولهم: فلان يملك كذا رأساً من الرقيق ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ قيل: لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكماً ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ولهذا منع من تصرف الأحرار. وهذا مشكل، إذ لو كان كذلك لوجب في العمد أيضاً. لكن يحتمل أن يقال: إنما وجب عليه ذلك لأن الله تعالى أبقي للقاتل نفساً مؤمنة، حيث لم يوجب القصاص، فأوجب عليه مثلها رقبة مؤمنة ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها، كما يقتسمون الميراث، لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء، فيُقضى منها الدين، وتنفذ الوصية، وإذا لم يبق وارث فهي لبيت المال. وقد ورث رسول الله ﷺ امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها أشيم. لكن الدية على العاقلة، والكفارة على القاتل ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية، أي: يعفوا عنه، والتقدير: فعليه دية في كل حال، إلا في حال التصديق عليه بها ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ فإن كان المقتول خطأ من قوم أعداء لكم، أي: كفرة، فالعدو يطلق على الجمع ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: المقتول مؤمن ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني: إذا أسلم الحربي في دار الحرب، ولم يهاجر إلينا، فقتله مسلم خطأ، تجب

وَأَن كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدَيْتُمْ مُسْلِمَهُ إِلَى أَهْلِهِ، وَتَحَرَّرَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَّتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

الكفارة بقتله للعصمة المؤتممة، وهي الإسلام، ولا تجب الدية؛ لأن العصمة المقومة بالدار، ولم توجد ﴿وَأَن كَانَ﴾ أي: المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ﴾ بين المسلمين. ﴿وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عهد ﴿فَدَيْتُمْ مُسْلِمَهُ إِلَى أَهْلِهِ، وَتَحَرَّرَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً﴾ أي: وإن كان المقتول ذمياً فحكمه حكم المسلم. وفيه دليل على أنَّ دية الذمي كدية المسلم، وهو قولنا ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ رقة، أي: لم يملكها، ولا ما يتوصل به إليها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ فعليه صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ قبولاً من الله، ورحمة منه، من: تاب الله عليه: إذا قبل توبته، يعني: شرع ذلك توبة منه، أو فليتب توبة، فهي نصب على المصدر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما أمر ﴿حَكِيمًا﴾ فيما قدر.

٩٣ - ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ حال من ضمير القاتل، أي: قاصداً قتله لإيمانه، وهو كفر، أو قتله مستحلاً لقتله، وهو كفر أيضاً ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي: إن جازاه. قال ﷺ: «هي جزاؤه إن جازاه»^(١). والخلود قد يراد به طول المقام. وقول المعتزلة بالخروج من الإيمان يخالف قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَابُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ أي: انتقم منه، وطرده من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لارتكابه أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً. في الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم»^(٢).

٩٤ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَّتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سرتم في طريق الغزو.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٢٧).

(٢) رواه الترمذي (١٣٩٥).

فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ
اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتثبتوا، حمزة، وعليّ. وهما من التفعّل بمعنى الاستفعال. أي: اطلبوا بيان الأمر وثباته، ولا تهوكوا فيه^(١) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ السَّلَام: مدني، وشامي، وحمزة. وهما الاستسلام، وقيل: الإسلام، وقيل: التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ في موضع النصب بالقول. روي أَنَّ مرداس بن نهيك أسلم، ولم يُسلم من قومه غيره، فغزتهم سرية لرسول الله ﷺ فهربوا، وبقي مرداس لثقتة بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى منعرج من الجبل وصعد، فلما تلاحقوا وكبروا كبر، ونزل، وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم. فقتله أسامة بن زيد، واستاق غنمه، فأخبروا رسول الله ﷺ فوجد وجداً شديداً، وقال: «قتلتموه إرادة ما معه؟!» ثم قرأ الآية على أسامة^(٢) ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تطلبون الغنيمة التي هي حطام سريع النفاد، فهو الذي يدعوكم إلى ترك الثبوت، وقلة البحث عن حال مَنْ تقتلونهم. والعَرَض: المال، سُمّي به لسرعة فناؤه. و﴿تَبْتَغُونَ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿تَقُولُوا﴾ ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ يغنمكموها، تغنيكم عن قتل رجل يُظهر الإسلام، ويتعوذ به من التعرض له لتأخذوا ماله ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أول ما دخلتم في الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة، فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطاة قلوبكم لألسنتكم. والكاف في ﴿كَذَلِكَ﴾ خبر كان، وقد تقدم عليها وعلى اسمها ﴿فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاستقامة، والاشتجار بالإيمان، فافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ كرّر الأمر بالتبين ليؤكد عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تتهافتوا في القتل، وكونوا محترزين، محتاطين في ذلك.

(١) «لا تهوكوا فيه»: أي: لا تنحروا أو تخطبوا بلا مبالاة.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ١/٥٥٢).

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى
وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً

٩٥ - ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ عن الجهاد ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بالنصب: مدني، وشامي، وعلي؛ لأنه استثناء من القاعدين، أو حال منهم. وبالجر: عن حمزة، صفة للمؤمنين. وبالرفع: غيرهم، صفة للقاعدين. والضرر: المرض، أو العاهة من: عمى، أو عرج، أو زمانة، أو نحوها ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ عطف على ﴿القاعدون﴾. ونفى التساوي بين المجاهد والقاعد بغير عذر، وإن كان معلوماً، وتوبيخاً للقاعد عن الجهاد، وتحريكاً له عليه، ونحوه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فهو تحريك لطلب العلم، وتوبيخ على الرضا بالجهل ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ ذكر هذه الجملة بياناً للجملة الأولى، موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين، كأنه قيل: ما لهم لا يستوون؟! فأجيب بذلك ﴿دَرَجَةً﴾ نصب على المصدر لوقوعها موقع المرة من التفضيل، كأنه قيل: كأنه فضلهم تفضلة، كقولك: ضربه سوطاً. ونصب ﴿وَكُلًّا﴾ أي: وكل فريق من القاعدين والمجاهدين، ونصب لأنه مفعول أول؛ لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ والثاني ﴿الْحُسْنَى﴾ أي: المثوبة الحسنی، وهي: الجنة، وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ بغير عذر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٩٦ - ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ قيل: انتصب ﴿أَجْرًا﴾ بـ «فضل» لأنه في معنى أجرهم أجراً. ودرجات، ومغفرة، ورحمة: بدل من «أجراً». أو انتصب «درجات» نصب «درجة»، كأنه قيل: فضلهم تفضيلات، كقولك: ضربه أسواطاً، أي: ضربات، و﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على أنه حال من النكرة؛ التي هي درجات مقدمة عليها. ومغفرة ورحمة بإضمار فعلهما، أي: وغفر لهم ورحمهم مغفرة ورحمة. وحاصله: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَضَّلَ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ بِعَذْرٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ؛ وعلى القاعدين بغير عذر بأمر النبي ﷺ اكتفاء بغيرهم،

وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ

درجات؛ لأنَّ الجهاد فرض كفاية ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا﴾ بتكفير العذر ﴿رَحِيمًا﴾ بتوفير الأجر.

٩٧ - ونزل فيمن أسلم ولم يهاجر، حين كانت الهجرة فريضة، وخرج مع المشركين إلى بدر مرتداً فقتل كافراً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يجوز أن يكون ماضياً لقراءة من قرأ (توفيتهم) ومضارعاً بمعنى: تتوفاهم، وحذفت التاء الثانية لاجتماع التاءين. والتوفي: قبض الروح. والملائكة: ملك الموت وأعوانه ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حال من ضمير المفعول في توفاهم، أي: في حال ظلمهم أنفسهم بالكفر، وترك الهجرة ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة للمتوفين ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: في أي شيء كنتم في أمر دينكم؟ ومعناه: التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ عاجزين عن الهجرة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة، فأخرجونا كارهين ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة موبخين لهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ أرادوا أنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد؛ التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم، ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ. ونصب ﴿فَتُهَاجِرُوا﴾ على جواب الاستفهام ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ خبر «إن»: ﴿فَأُولَئِكَ﴾. ودخول الفاء لما في الذين من الإيهام المشابه بالشرط. أو: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ والعائد محذوف، أي: قالوا لهم. والآية تدلُّ على أن من لم يتمكن من إقامة دينه في بلد كما يجب، وعلم أنه يتمكن من إقامته في غيره حقَّت عليه المهاجرة. وفي الحديث: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استُوجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد ﷺ»^(١).

٩٨ - ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ استثنى من أهل الوعيد

(١) قال ابن حجر: أخرجه الثعلبي مرسلًا. (حاشية الكشاف ٥٥٥/١).

لَا يَسْتَطِيعُونَ جِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾

المستضعفين الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ جِيلَةً﴾ في الخروج منها لفقرهم وعجزهم ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ولا معرفة لهم بالمسالك. و﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: صفة للمستضعفين، أو: للرجال، والنساء، والولدان. وإنما جاز ذلك والجميل نكرات؛ لأن الموصوف وإن كان فيه حرف التعريف، فليس بشيء بعينه، كقوله:

ولقد أمرُ على اللثيم يسيني^(١)

٩٩ - ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ وعسى وإن كان للإطماع فهو من الله واجب؛ لأنَّ الكريم إذا أطمع أنجز ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ لعباده قبل أن يخلقهم.

١٠٠ - ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾ مهاجراً وطريقاً، يراغم بسلوكه قومه، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم. والرغم: الذل، والهوان. وأصله لصوق الأنف بالرغام، وهو التراب. يقال: راغمت الرجل؛ إذا فارقتة وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ في الرزق، أو في إظهار الدين، أو في الصدر؛ لتبدل الخوف بالأمن ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾ حال من الضمير في ﴿يَخْرُجْ﴾ ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى حيث أمر الله ورسوله ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ قبل بلوغه مهاجرة. وهو عطف على ﴿يَخْرُجْ﴾ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: حصل له الأجر بوعد الله. وهو تأكيد للوعد، فلا شيء يجب على الله لأحد من خلقه ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قالوا: كل هجرة لطلب علم، أو حج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة، أو قناعة، أو زهداً، أو ابتغاء رزق طيب، فهي هجرة إلى الله ورسوله، وإن أدركه الموت في طريقه فقد وقع أجره على الله.

(١) صدر بيت، وعجزه: فمضيت ثمة قلت لا يعنيني.

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

١٠١ - ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ سافرتُم فيها، فالضرب في الأرض هو السفر ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ حرج ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾ في أن تقصروا ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ من أعداد ركعات الصلاة، فتصلوا الرباعية ركعتين. وظاهر الآية يقتضي أَنَّ القصر رخصة في السفر، والإكمال عزيمة، كما قال الشافعي - رحمه الله - لأن «لا جناح» يستعمل في موضع التخفيف والرخصة لا في موضع العزيمة. وقلنا: القصر عزيمة غير رخصة، ولا يجوز الإكمال لقول عمر - رضي الله عنه -: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ﷺ، وأما الآية فكأنهم ألفوا الإتمام، فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في القصر، فنفي عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر، ويطمئنوا إليه ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن خشيتُم أن يقصدكم الكفار بقتل، أو جرح، أو أخذ. والخوف: شرط جواز القصر عند الخوارج بظاهر النص. وعند الجمهور ليس بشرط؛ لما روي عن يعلى بن أمية أنه قال لعمر: ما بالنا نقصر وقد أمنا؟ فقال: عجبت مما تعجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»^(١). وفيه دليل على أنه لا يجوز الإكمال في السفر؛ لأنَّ التصديق بما لا يحتمل التملك إسقاط محض لا يحتمل الرد، وإن كان المتصدق ممن لا تلزم طاعته كولي القصاص إذا عفا، فمن تلزم طاعته أولى. ولأنَّ حالهم حين نزول الآية كذلك، فنزلت على وفق الحال. وهو كقوله: ﴿إِنْ أَرَدَنْتُمْ نَحْصًا﴾ [النور: ٣٣] دليله قراءة عبد الله (من الصلاة أن يفتنكم) أي: لئلا يفتنكم. على أنَّ المراد بالآية قصر الأحوال، وهو أن يوميء على الدابة عند الخوف، أو يخفف القراءة والركوع والسجود والتسبيح، كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ فتحرزوا عنهم.

(١) رواه أحمد (٢٥/١) ومسلم (٦٨٦) وأبو داود (١١٩٩) والترمذي (٣٠٣٤) وابن ماجه (١٠٦٥).

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ
يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ
عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ
بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ

١٠٢ - ﴿وَإِذَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمْ﴾ في أصحابك ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ
الصَّلَاةَ﴾ فأردت أن تقيم الصلاة بهم. ويظاھره تعلق أبو يوسف - رحمه الله -
فلا يرى صلاة الخوف بعده عليه الصلاة والسلام. وقالوا: الأئمة نواب عن
رسول الله ﷺ في كل عصر، فكان الخطاب له متناولاً لكل إمام، كقوله
تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. دليله فعل الصحابة
- رضي الله عنهم - بعده عليه الصلاة والسلام. ﴿فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾
فاجعلهم طائفتين، فلتقم إحداهما معك فصلّ بهم، وتقوم طائفة تجاه العدو
﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: الذين تجاه العدو. عن ابن عباس - رضي الله
عنهما - وإن كان المراد به المصلين، فقالوا: يأخذون من السلاح ما لا
يشغلهم عن الصلاة، كالسيف، والخنجر، ونحوهما ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: قيدوا
ركعتهم بسجدة. فالسجود على ظاھرہ عندنا، وعند مالك بمعنى الصلاة
﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ أي: إذا صلت هذه الطائفة التي معك ركعة،
فليرجعوا ليقفوا بإزاء العدو ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا﴾ في موضع رفع
صفة لطائفة ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أي: ولتحضر الطائفة الواقعة بإزاء العدو،
فليصلوا معك الركعة الثانية ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ﴾ ما يتحرّزون به من العدو،
كالدرع، ونحوه ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جمع سلاح، وهو: ما يقاتل به. وأخذ السلاح
شرط عند الشافعي - رحمه الله -، وعندنا مستحب. وكيفية صلاة الخوف
معروفة ﴿وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أي: تمتوا أن ينالوا
منكم غزاة في صلاتكم ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ فيشدون عليكم شدة واحدة
﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا﴾ في أن
تضعوا ﴿أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ رخص لهم في وضع الأسلحة إن ثقل

إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

عليهم حملها، بسبب ما يبلّهم من مطر، أو يضعفهم من مرض، وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا، فيهجم عليهم العدو ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أخبر أنه يهين عدوهم لتقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لتوقع غلبتهم عليهم، وإنما هو تعبد من الله تعالى.

١٠٣ - ﴿إِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ﴾ فرغتم منها ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: دوموا على ذكر الله في جميع الأحوال. أو: فإذا أردتم أداء الصلاة فصلّوا قياماً إن قدرتم عليه، وقعوداً إن عجزتم عن القيام، ومضطجعين إن عجزتم عن القعود ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ سكتتم بزوال الخوف ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فأتّموها بطائفة واحدة. أو: إذا أقمتهم فأتّموا ولا تقصّروا. أو: إذا اطمانتم بالصحة فأتّموا القيام، والركوع، والسجود ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ مكتوباً محدوداً بأوقات معلومة.

١٠٤ - ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا، ولا تتوانوا ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ في طلب الكفار بالقتال، والتعرض به لهم. ثم ألزمهم الحجة بقوله: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: ليس ما تجدون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم، بل هو مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم؟! مع أنكم أجدر منهم بالصبر؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون؛ من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما يجد المؤمنون من الألم ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبير أمورهم.

١٠٥ - رُوي أن طُعْمة بن أبيرق - أحد بني ظَفَر - سرق درعاً من جاري له اسمه قتادة بن النعمان، في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه،

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ
لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَجِدْ
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾

وخبأها عند زيد بن السمين - رجل من اليهود - فالتُمتست الدرع عند طعمة فلم
توجد، وحلف ما أخذها، وماله بها علم، فتركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى
انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال: دفعها إلي طعمة، وشهد له ناسٌ
من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يجادل
عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا، وافتضح، وبرىء اليهودي،
فهم رسول الله ﷺ أن يفعل فتزل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: مُحَقَّقًا
﴿لِنَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ﴾ بما عرَّفَكَ، وأوحى به إليك. وقال الشيخ
أبو منصور - رحمه الله -: بما ألهمك بالنظر في أصوله المنزلة. وفيه دلالة
جواز الاجتهاد في حقه ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ﴾ لأجل الخائنين ﴿خَصِيمًا﴾
مخاصمًا، أي: ولا تخاصم اليهود لأجل بني ظفر.

١٠٦ - ﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ﴾ مما هممت به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

١٠٧ - ﴿وَلَا تَجِدْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يخونونها بالمعصية. جعلت
معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم؛ لأن الضرر راجع إليهم. والمراد به:
طعمة، ومن عاونه من قومه، وهم يعلمون أنه سارق. أو: ذكر بلفظ الجمع
ليتناول طعمة، وكل من خان خيانتة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ وإنما
قيل بلفظ المبالغة؛ لأنه تعالى عالم من طعمة أنه مُفْطِر في الخيانة، وركوب
المآثم. وروي أنَّ طعمة هرب إلى مكة، وارتد، ونقب حائطاً بمكة ليسرق
أهله، فسقط الحائط عليه فقتله. وقيل: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم
أنَّ لها أخوات. وعن عمر - رضي الله عنه -: أنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت
أمه تبكي، وتقول: هذه أول سرقة سرقها فاعفُ عنه، فقال: كذبت إن الله
لا يؤاخذ عبده في أول مرة.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآَاءٌ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ

١٠٨ - ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ يستترون ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ حياء منهم، وخوفاً من ضررهم ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ وهو عالم بهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه خافٍ من سرهم. وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء، والخشية من ربهم، مع علمهم أنهم في حضرته لا ستره، ولا غيبة ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبرون. وأصله: أن يكون ليلاً ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو تدبير طعمة أن يرمي بالدرع في دار زيد لِيُسْرِقَ دونه، ويحلف أنه لم يسرقها. وهو دليل على أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، حيث سمى التدبير قولاً ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ عالماً علم إحاطة.

١٠٩ - ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآَاءٌ﴾ ها للتنبيه في «أنتم»، و«أولاء»، وهما مبتدأ وخبر. و﴿جدلتم﴾ خاصمتن وهي جملة مبينة لوقوع «أولاء» خبراً، كقولك لبعض الأسخياء: أنت حاتم تجود بمالك. أو: «أولاء» اسم موصول بمعنى الذين، وجدلتم صلته. والمعنى: هبوا أنكم خاصمتن ﴿عَنْهُمْ﴾ عن طعمة، وقومه ﴿فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه. وقرىء: عنه، أي: عن طعمة ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حافظاً ومحامياً من بأس الله، وعذابه.

١١٠ - ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ ذنباً دون الشرك ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بالشرك. أو ﴿سوءاً﴾ قبيحاً يتعدى ضرره إلى الغير، كما فعل طعمة بقتادة واليهودي، ﴿أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ يسأل مغفرته. ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ له. وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة.

١١١ - ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ لأن وبالها عليها ﴿وَكَانَ

اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ آخَضَ بِهِنَّ
وَأِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ لَا خَيْرَ
فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ

اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ فلا يعاقب بالذنب غير فاعله.

١١٢ - ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ صغيرة. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أو كبيرة. أو: الأول
ذنب بينه وبين ربه، والثاني ذنب في مظالم العباد ﴿ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا﴾ كما رمى
طعمة زيدا ﴿فَقَدْ آخَضَ بِهِنَّ﴾ كذبا عظيما ﴿وَأِثْمًا مُبِينًا﴾ ذنبا ظاهرا، وهذا
لأنه بكسب الإثم آثم، ويرمي البريء باهت، فهو جامع بين الأمرين.
والبهتان: كذب يبهت من قيل عليه مالا علم له به.

١١٣ - ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: عصمته، ولطفه من الاطلاع
على سرهم ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ من بني ظفر. أو: المراد بالطائفة بنو
ظفر، والضمير في ﴿منهم﴾ يعود إلى الناس. ﴿أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء
بالحق، وتوخي طريق العدل، مع علمهم بأن الجاني صاحبهم. ﴿وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن وبالهم عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأنك إنما
عملت بظاهر الحال، وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك.
﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ والسنة ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ
تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ من أمور الدين، والشرائع، أو من خفيات الأمور، وضمائر
القلوب ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فيما علمك، وأنعم عليك.

١١٤ - ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ من تناجي الناس. ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بِصَدَقَةٍ﴾ إلا نجوى من أمر. وهو مجرور بدل من «كثير» أو من «نجواهم»،
أو منصوب على الانقطاع بمعنى: ولكن من أمر بصدقة، ففي نجواه الخير.
﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: قرض، أو إغاثة ملهوف، أو كل جميل. أو: المراد
بالصدقة: الزكاة، وبالمعروف: التطوع. ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي:

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ
الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَاهُ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ
جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٨﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا

إصلاح ذات البين. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ المذكور. ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ طلب رضا الله. وخرج عنه من فعل ذلك رياء، أو ترؤساً. وهو مفعول له. والإشكال أنه قال: ﴿إلا من أمر﴾ ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ والجواب أنه ذكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله؛ لأنه إذا دخل الأمر به في زمرة الخيرين كان الفاعل فيهم أدخل، ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ فذكر الفاعل، وقرن به الوعد بالأجر العظيم. أو: المراد من يأمر بذلك، فعبر عن الأمر بالفعل ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يؤتيه: أبو عمرو، وحمزة.

١١٥ - ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ ومن يخالف الرسول من بعد وضوح الدليل، وظهور الرشد ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: السبيل الذي هم عليه من الدين الحنيفي. وهو دليل على أن الإجماع حجة لا تجوز مخالفتها، كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة؛ لأن الله تعالى جمع بين اتباع غير سبيل المؤمنين وبين مشاققة الرسول في الشرط، وجعل جزاءه الوعيد الشديد، فكان اتباعهم واجباً كمواالة الرسول ﴿تُولَاهُ مَا تَوَلَّى﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، وندعه وما اختاره في الدنيا ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ في العقبى ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ قيل: هي في طعمة، وارتداده.

١١٦ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مرّ تفسيره في هذه السورة ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الصواب.

١١٧ - ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ ما يعبدون من دون الله ﴿إِلَّا إِنثًا﴾ جمع أنثى، وهي: اللات، والعزى، ومناة، ولم يكن حي من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه، يسمونه: أنثى بني فلان. وقيل: كانوا يقولون في

وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْئَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾

أصنامهم: هنّ بنات الله ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾ ما يعبدون ﴿إِلَّا شَيْطَانًا﴾ لأنه هو الذي أغراهم على عبادة الأصنام، فأطاعوه، فجعلت طاعتهم له عبادة ﴿مَّرِيدًا﴾ خارجاً عن الطاعة، عارياً عن الخير، ومنه: الأمرد.

١١٨ - ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لَا تَخْذَنْ﴾ صفتان، يعني: شيطاناً مریداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع ﴿مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ مقطوعاً واجباً لي، من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون، وواحد لله.

١١٩ - ﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ﴾ بالدعاء إلى الضلالة، والتزيين، والوسوسة، ولو كان إنفاذ الضلالة إليه لأضلّ الكل ﴿وَلَا مَنِيْنَهُمْ﴾ ولألقين في قلوبهم الأمانى الباطلة من: طول الأعمار، وبلوغ الآمال ﴿وَلَا مَرْئَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَهُمْ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ البتك: القطع، والتبتيك: للتكثير والتكرير، أي: لأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام. كانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وحرّموا على أنفسهم الانتفاع بها ﴿وَلَا مَرْئَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَهُمْ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ بفقء عين الحامي، وإعفائه عن الركوب، أو: بالخصاء. وهو مباح في البهائم محظور في بني آدم. أو بالوشم، أو: بنفي الأنساب واستلحاقها، أو بتغيير الشيب بالسواد، أو: بالتحريم والتحليل، أو: بالتخنث، أو: بتبديل فطرة الله التي هي دين الإسلام؛ لقوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِحَاقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وأجاب إلى ما دعاه إليه ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ في الدارين.

١٢٠ - ﴿يَعِدُهُمْ﴾ يوسوسهم إليهم أن لا جنة، ولا نار، ولا بعث، ولا حساب ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ما لا ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ هو أن يرى شيئاً يظهر خلافه.

أُولَئِكَ مَاوْنُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

١٢١ - ﴿أُولَئِكَ مَاوْنُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلاً، ومفراً.

١٢٢ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يتبعوا الشيطان في الأمر بالكفر ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وقرأ النخعي: سيدخلهم ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ مصدران، الأول: مؤكد لنفسه، والثاني: مؤكد لغيره ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ قولاً. وهو استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أصدق منه. وهو تأكيد ثالث. وفائدة هذه التوكيدات مقابلة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه.

١٢٣ - ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ ليس الأمر على شهواتكم وأمانيتكم - أيها المشركون - أن تنفَعكم الأصنام ﴿وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ولا على شهوات اليهود والنصارى، حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ١٨] ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْبَاءاً مَقْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أي: من المشركين وأهل الكتاب، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. وهذا وعيد للكفار؛ لأنه قال بعده:

١٢٤ - ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فقوله: ﴿وهو مؤمن﴾ حال. ومن الأولى: للتبعض، والثانية: لبيان الإبهام فيمن يعمل. وفيه إشارة إلى أن الأعمال ليست من الإيمان ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ يُدْخِلُونَ: مكي، وأبو عمرو، وأبو بكر ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ قدر النقيير، وهو: النقرة في ظهر النواة. والراجع في ﴿ولا يظلمون﴾ لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً. وجاز أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دليلاً على ذكره

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

عند الآخر. وقوله: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ وقوله: ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ بعد ذكر تمني أهل الكتاب، كقوله: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١] وقوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ عقيب قوله: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾.

١٢٥ - ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله، وجعلها سالمة له، لا يعرف لها رباً ولا معبوداً سواه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ عامل للحسنات ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة، وهو حال من المتبع، أو: من إبراهيم ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ هو في الأصل: المخال، وهو: الذي يخالك، أي: يوافقك في خلالك، أو: يداخلك خلال منزلك، أو: يسد خللك كما يسد خلله. فالخلة: صفاء مودة توجب الاختصاص بتخلل الأسرار. والمحبة أصفى؛ لأنها من حبة القلب. وهي جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب كقوله:

... .. والحوادث جملة^(١)

وفائدها: تأكيد وجوب اتباع ملته وطريقته؛ لأن من بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلاً، كان جديراً بأن تتبع ملته وطريقته. ولو جعلتها معطوفة على الجمل قبلها لم يكن لها معنى. وفي الحديث: «اتخذ الله إبراهيم خليلاً لإطعامه الطعام، وإفشائه السلام، وصلاته بالليل والناس نيام»^(٢). وقيل: أوحى إليه: إنما اتخذتك خليلاً لأنك تحب أن تُعطي ولا تُعطى. وفي رواية: لأنك تعطي الناس ولا تسألهم.

(١) البيت بتمامه:

يأليت شعري والحوادث جملة هل أغدو يوماً وأمرى مجمع

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٩٦١٦).

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾
وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ
فِي يَتَمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

١٢٦ - وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ دليل على أن اتخاذ خليلاً لاحتياج الخليل إليه، لا لاحتياجه تعالى إليه؛ لأنه مُتَزَّه عن ذلك ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ عالماً.

١٢٧ - ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ ويسألونك الإفتاء في النساء. والإفتاء: تبين المبهم ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَمَى النِّسَاءِ﴾ أي: الله يفتيكم، والمتلو في الكتاب، أي: القرآن في معنى اليتامى، يعني قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣] وهو من قولك: أعجبنى زيد وكرمه. «وما يتلى» في محل الرفع بالعطف على الضمير في «يفتيكم» أو: على لفظ «الله». و﴿فِي يَتَمَى النِّسَاءِ﴾ صلة يتلى، أي: يتلى عليكم في معناه. ويجوز أن يكون «في يتامى النساء» بدلاً من «فيهن». والإضافة بمعنى من ﴿الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ ما فرض لهن من الميراث. وكان الرجل منهم يضمُّ اليتيمة إلى نفسه ومالها، فإن كانت جميلة تزوجها، وأكل المال، وإن كانت دميمة عضلها عن التزوج حتى تموت، فيرثها ﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي: في أن تنكحوهن لجمالهن، أو: عن أن تنكحوهن لدمامتهن ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أي: اليتامى، وهو مجرور معطوف على يتامى النساء. وكانوا في الجاهلية إنما يورثون الرجال القوام بالأمر، دون الأطفال والنساء ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ﴾ مجرور كالمستضعفين، بمعنى: يفتيكم في يتامى النساء وفي المستضعفين، وفي أن تقوموا، أو: منصوب بمعنى: ويأمركم أن تقوموا. وهو خطاب للائمة في أن ينظروا لهم، ويستوفوا لهم حقوقهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل في ميراثهم ومالهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ شرط وجوابه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ أي: فيجازيكم عليه.

وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

١٢٨ - ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ توقعته منه ذلك؛ لما لاح لها من مخايله، وأماراته. والنشوز: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته، وأن يؤذيها بسبب، أو ضرب ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها؛ بأن يقلل محادثتها وموانستها بسبب كبر سن، أو دمامة، أو شيء^(١) في خلق أو خلق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ كوفي، (يَصْلِحَا) غيرهم. أي: يتصالحا، وهو أصله، فأبدلت التاء صادًا، وأدغمت ﴿صُلْحًا﴾ في معنى مصدر كل واحد من الفعلين. ومعنى الصلح: أن يتصالحا على أن تطيب له نفساً عن القسمة، أو عن بعضها، أو تهب له بعض المهر، أو كله، أو النفقة ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة، أو من النشوز، أو: من الخصومة في كل شيء. أو: ﴿والصلح خير﴾ من الخيور، كما أن الخصومة شر من الشرور. وهذه الجملة اعتراض، كقوله: وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ أي: جعل الشح حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً، ولا تنفك عنه، يعني: أنها مطبوعة عليه. والمراد: أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمها، والرجل لا يكاد يسمح بأن يقسم لها إذا رغب عنها، فكل واحد منهما يطلب ما فيه راحته. وأحضرت يتعدى إلى مفعولين، والأول: الأنفس. ثم حث على مخالفة الطبع، ومتابعة الشرع بقوله: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ بالإقامة على نسائكم، وإن كرهتموهن، وأحببتم غيرهن، وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصالحة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض، وما يؤدي إلى الأذى، والخصومة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان، والتقوى ﴿خَبِيرًا﴾ فيشيككم عليه.

وكان عمران الخارجي من آدم بني آدم، وامراته من أجملهم فنظرت إليه، وقالت: الحمد لله على أنني وإياك من أهل الجنة. قال: كيف؟ فقالت: لأنك

(١) كذا في الأصل المخطوط، وفي المطبوع: سوء.

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ
فَتَذَرُوهُنَّ كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ
يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

رَزَقْتُ مثلي فشكرت، ورزقتُ مثلك فصبرتُ، والجنة موعودة للساكرين والصابرين.

١٢٩ - ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ﴾ ولن تستطيعوا العدل بين

النساء والتسوية حتى لا يقع ميل البتة. فتمام العدل أن يسوي بينهن بالقسمة،
والنفقة، والتعهد، والنظر، والإقبال، والممالحة، والمفاكهة، وغيرها.

وقيل: معناه أن تعدلوا في المحبة. وكان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول:
«هذه قسمتي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»^(١). يعني:

المحبة؛ لأن عائشة - رضي الله عنها - كانت أحب إليه ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ بالغتم
في تحري ذلك ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾ فلا تجوروا على المرغوب عنها كل

الجور فتمنعوها قسمها من غير رضا منها. يعني: أن اجتناب كل الميل في حد
اليسر، فلا تفرطوا فيه إن وقع منكم التفريط في العدل كله. وفيه ضرب من

التوبيخ. وكلّ نصب على المصدر؛ لأن له حكم ما يضاف إليه ﴿ فَتَذَرُوهُنَّ ﴾
كَالْمُعَلَّقَةِ وهي: التي ليست بذات بعل، ولا مطلقة ﴿ وَإِنْ تُصْلِحُوا ﴾ بينهن.

﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ الجور ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يغفر لكم ميل قلوبكم،
ويرحمكم فلا يعاقبكم.

١٣٠ - ﴿ وَإِنْ يَنْفَرَقَا ﴾ أي: إن لم يصطالح الزوجان على شيء، وتفرقا

بالخلع، أو بتطليقه إياها، وإيفائه مهرها، ونفقة عدتها ﴿ يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا ﴾ كل
واحد منهما ﴿ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ من غناه، أي: يرزقه زوجاً خيراً من زوجته، وعيشاً

أهنأ من عيشه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا ﴾ بتحليل النكاح ﴿ حَكِيمًا ﴾ بالإذن في السراح.
فالسعة: الغنى والقدرة. والواسع: الغنيُّ المُقْتَدِر.

(١) رواه أحمد (١٤٤/٦) وأبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٦٤/٧) وابن
ماجه (١٩٧١).

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

١٣١ - ثم بيّن غناه وقدرته بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً، والمتملكون عبيده رقاً ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ﴾ هو اسم للجنس فيتناول الكتب السماوية ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم السالفة، وهو متعلق بـ «وصينا» أو بـ «أوتوا» ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ عطف على الذين أوتوا ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأن اتقوا، أو: تكون «أن» المفسرة لأن التوصية في معنى القول. والمعنى: أن هذه وصية قديمة ما زال يوصي الله بها عباده - ولستم بها مخصوصين - لأنهم بالتقوى يسعدون عنده ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ عطف على «اتقوا» لأن المعنى: أمرناهم، وأمرناكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن خلقه، وعن عبادتهم ﴿حَمِيدًا﴾ مستحقاً لأن يحمد لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد. وتكرير قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقرير لما هو موجب تقواه؛ لأن الخلق لما كان كله له، وهو خالقهم ومالكهم، فحقه أن يكون مطاعاً في خلقه غير معصى. وفيه دليل على أن التقوى أصل الخير كله. وقوله: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ عقيب التقوى دليل على أن المراد: الاتقاء عن الشرك.

١٣٢ - ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ فاتخذوه وكيلاً، ولا تتكلوا على غيره.

١٣٣ - ثم خوفهم وبين قدرته بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم ﴿أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ ويوجد إنساً آخرين مكانكم، أو: خلقاً آخرين غير الإنس ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ بليغ القدرة.

١٣٤ - ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فماله يطلب أحدهما دون الآخر، والذي يطلبه

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ءَوَ ٱلْوَلَدَيْنِ
وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا ءَوْ فَقِيرًا فَٱللّٰهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن
تَلَوْا ءَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ ٱللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا

أخستهما ﴿وَكَانَ ٱللّٰهُ سَمِيعًا﴾ للأقوال ﴿بَصِيرًا﴾ بالأفعال. وهو وعد ووعيد.

١٣٥ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ مجتهدين في إقامة العدل حتى لا تجوروا ﴿شُهَدَآءَ﴾ خبر بعد خبر ﴿لِلّٰهِ﴾ أي: تقيمون شهادتكم لوجه الله ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم. والشهادة على نفسه هي: الإقرار على نفسه؛ لأنه في معنى الشهادة عليها بإلزام الحق، وهذا لأنَّ الدعوى والشهادة والإقرار يشترك جميعها في الإخبار عن حق لأحد على أحد. غير أنَّ الدعوى: إخبار عن حق لنفسه على الغير، والإقرار: للغير على نفسه، والشهادة للغير على الغير ﴿ءَوَ ٱلْوَلَدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: ولو كانت الشهادة على آبائكم، وأمهاتكم، وأقاربكم ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ فلا يمنع الشهادة: عليه لغناه طلباً لرضاه. ﴿ءَوْ فَقِيرًا﴾ فلا يمنعها ترشحاً عليه ﴿فَٱللّٰهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا﴾ بالغني والفقير، أي: بالنظر لهما والرحمة. وإنما ثنى الضمير في بهما، وكان حقه أن يوحد؛ لأن المعنى: إن يكن أحد هذين، لأنه يرجع إلى ما دل عليه قوله: «غنياً أو فقيراً» وهو جنس الغني والفقير، كأنه قيل: فالله أولى بجنسي الغني والفقير، أي: بالأغنياء والفقراء ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ﴾ إرادة ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾ عن الحق من: العدول، أو: كراهة أن تعدلوا بين الناس من العدل ﴿وَإِن تَلَوْا﴾^(١) بواو واحدة وضم اللام: شامي، وحمزة، من: الولاية ﴿ءَوْ تَعْرَضُوا﴾ أي: وإن وليتم إقامة الشهادة، أو عرضتم عن إقامتها. غيرهما: تلووا بواوين وسكون اللام، من: اللي، أي: وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق، أو حكومة العدل، أو تعرضوا عن الشهادة بما عندكم، وتمنعوها ﴿فَإِنَّ ٱللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم عليه.

١٣٦ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب للمسلمين ﴿ءَامَنُوا﴾ اثبتوا على

(١) في الأصل المخطوط أثبت قراءة: ﴿تَلُوا﴾.

يَا اللَّهُ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ
وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ
لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَخَذُونَ
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

الإيمان، ودوموا عليه. أو: لأهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسل، وكفروا ببعض. أو: للمنافقين، أي: يا أيها الذين آمنوا نفاقاً آمنوا إخلاصاً ﴿يَا اللَّهُ وَرَسُولِهِ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي: القرآن ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب، ويدل عليه قوله: ﴿وكتبه﴾. ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿أُنْزِلَ﴾: مكى، وشامى، وأبو عمرو. وعلى البناء للفاعل فيهما: غيرهم. وإنما قيل: نَزَّلَ على رسوله، وأنزل من قبل؛ لأن القرآن نزل مفزاً منجماً في عشرين سنة، بخلاف الكتب قبله ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ومن يكفر بشيء من ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لأن الكفر ببعضه كفر بأكمله.

١٣٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بموسى عليه السلام ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ حين عبدوا العجل ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ بموسى بعد عوده ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعبسى عليه السلام ﴿ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا﴾ بكفرهم بمحمد ﷺ ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إلى النجاة، أو إلى الجنة. أو: هم المنافقون آمنوا في الظاهر، وكفروا في السر مرة بعد أخرى، وازدياد الكفر منهم: ثباتهم عليه إلى الموت. يؤيده قوله:

١٣٨ - ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي: أخبرهم. ووضع ﴿بَشِّرَ﴾ مكانه تهكماً بهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً.

١٣٩ - ﴿الَّذِينَ﴾ نصب على الذم، أو رفع، بمعنى: أريد الذين، أو: هم الذين ﴿يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ﴾ كان المنافقون يوالون الكفرة، يطلبون منهم المنعة والثمرة، ويقولون: لا يتم أمر محمد ﷺ ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ولعن أعزّه كالنبي ﷺ، والمؤمنين، كما قال: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤١﴾ الَّذِينَ يَذَرِبُونَ بِكُمْ فَأَنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ

١٤٠ - ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بفتح النون: عاصم. وبضمها: غيره ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ حتى يشرعوا في كلام غير الكفر والاستهزاء بالقرآن. والخوض: الشروع. و«أَنْ» مخففة من الثقيلة، أي: إنه إذا سمعتم. أي: نزل عليكم أن الشأن كذا. والشأن: ما أفادته الجملة بشرطها وجزاؤها. وأن مع ما في حيزها في موضع الرفع بـ«نُزِّلَ»، أو: في موضع النصب بـ«نَزَلَ». والمنزل عليهم في الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزئون به، فنهى المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه. وكان المنافقون بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين بمكة، فنهوا أن يقعدوا معهم، كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ أي: في الوزر إذا مكثتم معهم. ولم يُرَدَّ به التمثيل من كل وجه، فإن خوض المنافقين فيه كفر، ومكث هؤلاء معهم معصية ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لاجتماعهم في الكفر والاستهزاء.

١٤١ - ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من «الذين يتخذون»، أو صفة للمنافقين، أو نصب على الذم منهم ﴿يَذَرِبُونَ بِكُمْ مَا يَتَجَدَّدُ لَكُمْ مِنْ ظَفَرٍ، أَوْ إِخْفَاقٍ^(١)﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ ﴿نَصْرَةٌ، وَغَنِيمَةٌ﴾ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ ﴿مُظَاهِرِينَ، فَأَشْرَكُونَا فِي الْغَنِيمَةِ﴾ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴿سَمَى ظَفَرُ الْمُسْلِمِينَ فَتَحًا؛ تَعْظِيمًا لَشَانِهِمْ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ فَتَحَ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَظَفَرُ

(١) «إخفاق»: أخفق الرجل: إذا غزا ولم يغنم.

قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

الكافرين نصيباً تخسباً لحظهم؛ لأنه لُمَظَةٌ^(١) من الدنيا يصيبونها ﴿قَالُوا﴾ للكفار ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نغلبكم، ونتمكّن من قتلكم، فأبقينا عليكم. والاستحواذ: الاستيلاء، والغلبة. ﴿وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن ثبطناهم عنكم، وخيّلنا لهم ما ضعفت قلوبهم به، ومرضوا عن قتالكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم. فهاتوا نصيباً لنا مما أصبتم ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون والمنافقون ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيدخل المنافقين النار، والمؤمنين الجنة ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: في القيامة؛ بدليل أول الآية، كذا عن عليّ - رضي الله عنه - . أو: حجة، كذا عن ابن عباس - رضي الله عنهما - .

١٤٢ - ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ﴾ أي: يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان، وإبطان الكفر. والمنافق: من أظهر الإيمان، وأبطن الكفر. أو: أولياء الله وهم المؤمنون. فأضاف خداعهم إلى نفسه تشريفاً لهم ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ وهو فاعل بهم ما يفعل المغالب في الخداع، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في العقبى. والخادع: اسم فاعل من: خادعته فخدعته: إذا غلبته، وكنت أخدع منه. وقيل: يجزئهم جزاء خداعهم ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ متثاقلين كراهة. أما الغفلة فقد يُبتلى بها المؤمن. وهو جمع كسلان، كسكارى في سكران ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ حال، أي: يقصدون بصلاتهم الرياء، والسمعة. والمرءاة: مفاعلة من الرؤية؛ لأن المرآئي يريهم عمله، وهم يُروونه استحساناً ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولا يصلون إلا قليلاً؛ لأنهم لا يصلون قط غائبين

(١) «المظّة»: لمظ: إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه.

مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَنْ يَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

عن عيون الناس. أو: لا يذكرون الله بالتسبيح، والتهليل إلا ذكراً قليلاً نادراً. قال الحسن: لو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيراً.

١٤٣ - ﴿مُذَبِّدِينَ﴾ نصب على الذم، أي: مرددين، يعني: ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر، فهم مترددون بينهما، متحIRON. وحقيقة المذبذب: الذي يُدْبُّ عن كلا الجانبين، أي: يُدْفَع فلا يقرّ في جانب واحد إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الكفر والإيمان ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ لا منسوبين إلى هؤلاء، فيكونوا مؤمنين ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ ولا منسوبين إلى هؤلاء، فيسمون مشركين ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى الهدى.

١٤٤ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَنْ يَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة بينة في تعذيبكم.

١٤٥ - ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١) أي: في الطبقة التي في قعر جهنم، والنار سبع دركات. سُمِّيَتْ بذلك لأنها متدركة، متتابعة، بعضها فوق بعض. وإنما كان المنافق أشدَّ عذاباً من الكافر؛ لأنه آمن بالسيف في الدنيا فاستحق الدرك الأسفل في العقبى تعديلاً، ولأنه مثله في الكفر، وضَمَّ إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله. والدرك - بسكون الراء - كوفي، غير الأعشى. وفتح الراء: غيرهم، وهما لغتان، وذكر الزَّجَّاج أن الاختيار فتح الراء. ﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يمنعهم من العذاب.

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿الدَّرَكِ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وأبي بكر، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٧٥/٢).

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۖ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

١٤٦ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ من النفاق، وهو استثناء من الضمير المجرور في ﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أسرارهم، وأحوالهم في حال النفاق. ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ ووثقوا به كما يثق المؤمنون الخالص ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم أصحاب المؤمنين، ورفاقهم في الدارين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيشاركونهم فيه. وحذفت الياء في الخط هنا إتباعاً للفظ.

١٤٧ - ثم استفهم مقررًا أنه لا يعذب المؤمن الشاكر، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ لله ﴿وَأَمَنْتُمْ﴾ به. فـ«ما» منصوبة بـ«يفعل». أي: أي شيء يفعل بعذابكم. فالإيمان: معرفة المنعم. والشكر: الاعتراف بالنعمة. والكفر بالمنعم والنعمة عناد؛ فلذا استحق الكافر العذاب. وقدم الشكر على الإيمان؛ لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع، فيشكر شكرياً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به، ثم شكر شكرياً مفصلاً، فكان الشكر متقدماً على الإيمان ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ يجزيكم على شكركم، أو: يقبل اليسير من العمل، ويعطي الجزيل من الثواب ﴿عَلِيمًا﴾ عالماً بما تصنعون.

١٤٨ - ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ولا غير الجهر، ولكن الجهر أفحش ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ إلا جهر من ظلم. استثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم، وهو أن يدعو على الظالم، ويذكره بما فيه من سوء. وقيل: ﴿الجهر بالسوء من القول﴾ هو الشتم ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ فإنه إن ردّ عليه مثله فلا حرج عليه ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لشكوى المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ بظلم الظالم.

إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ

١٤٩ - ثُمَّ حَتَّى عَلَى الْعَفْوِ، وَأَلَا يَجْهَرُ أَحَدٌ لِأَحَدٍ بِسُوءٍ وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْإِنْتِقَامِ بَعْدَ مَا أُطْلِقَ الْجَهْرُ بِهِ، حَتَّى عَلَى الْأَفْضَلِ. وَذَكَرَ إِبْدَاءَ الْخَيْرِ وَإِخْفَاءَهُ تَسْبِيحًا لِلْعَفْوِ، فَقَالَ: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ مَكَانَ جَهْرِ السُّوءِ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فَتَعْمَلُوهُ سِرًّا. ثُمَّ عَطَفَ الْعَفْوَ عَلَيْهِمَا فَقَالَ: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أَي: تَمْحُوهُ عَنْ قُلُوبِكُمْ. وَالِدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْعَفْوَ هُوَ الْمَقْصُودُ بِذِكْرِ إِبْدَاءِ الْخَيْرِ وَإِخْفَاءِهِ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أَي: أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ عَفْوًا عَنِ الْآثَامِ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَقْتَدُوا بِسُنَّتِهِ.

١٥٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ كَالْيَهُودِ كَفَرُوا بِعِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَالْإِنْجِيلَ، وَالْقُرْآنَ. وَكَالنَّصَارَى كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْقُرْآنَ. ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أَي: دِينًا وَسَطًا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا.

١٥١ - ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هُمُ الْكَامِلُونَ فِي الْكَفْرِ؛ لِأَنَّ الْكَفْرَ بِوَاحِدٍ كَفْرٌ بِالْكَلِّ ﴿حَقًّا﴾ تَأْكِيدٌ لِمُضْمَنِ الْجُمْلَةِ، كَقَوْلِكَ: هَذَا عَبْدُ اللَّهِ حَقًّا، أَي: حَقٌّ ذَلِكَ حَقًّا، وَهُوَ كَوْنُهُمْ كَامِلِينَ فِي الْكَفْرِ. أَوْ: هُوَ صِفَةُ لِمَصْدَرِ الْكَافِرِينَ، أَي: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَفْرًا حَقًّا، ثَابِتًا، يَقِينًا، لَا شَكَّ فِيهِ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ فِي الْآخِرَةِ.

١٥٢ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ وَإِنَّمَا جَازَ دُخُولَ «بَيْنَ» عَلَى أَحَدٍ؛ لِأَنَّهُ عَامٌ فِي الْوَاحِدِ، الْمَذْكُورِ، وَالْمُؤَنَّثِ، وَتَشْبِيهِمَا،

أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ

وجمعهما ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾^(١) وبالياء، حفص ﴿أَجْرُهُمْ﴾ أي: الثواب الموعود لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ يستر السيئات ﴿رَحِيمًا﴾ يقبل الحسنات. والآية تدلُّ على بطلان قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة؛ لأنه أخبر أنَّ مَنْ آمَنَ بالله ورسوله، ولم يفرِّق بين أحد منهم يؤتبه أجره. ومرتكب الكبيرة ممن آمن بالله ورسوله، ولم يفرِّق بين أحد منهم، فيدخل تحت الوعد. وعلى بطلان قول مَنْ لا يقول بقدَم صفات الفعل من المغفرة والرحمة؛ لأنه قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وهم يقولون: ما كان الله غفوراً رحيماً في الأزل، ثم صار غفوراً رحيماً.

١٥٣ - ولما قال فنحاص وأصحابه للنبي ﷺ: إن كنت نبياً صادقاً فائتنا بكتاب من السماء جملة، كما أتى به موسى عليه السلام، نزل: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ﴾ وبالتخفيف: مكى، وأبو عمر ﴿كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: جملة كما نزلت التوراة جملة. وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت. وقال الحسن: ولو سألوهم مسترشدين لأعطاهم؛ لأنَّ إنزال القرآن جملة ممكن ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ هذا جواب شرط مقدّر، معناه: إن استكبرت ما سألوهم منك، فقد سألوهم موسى أكبر من ذلك. وإنما أسند السؤال إليهم؛ وقد وجد من آبائهم في أيام موسى عليه السلام، وهم النقباء السبعون؛ لأنهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً، أي: أَرِنَا نره جهرة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ العذاب الهائل، أو النار المحرقة ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ على أنفسهم بسؤال شيء في غير موضعه، أو بالتحكم على نبيهم في الآيات، وتعتتهم في سؤال الرؤية، لا بسؤال الرؤية؛ لأنها ممكنة كإنزال القرآن جملة،

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿نُوتِيهِمْ﴾. وهي قراءة: حزة، وعاصم، وابن كثير، وأبي عمرو، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وأبي جعفر، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٧٦/٢).

ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٦﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٧﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَوْلِهِمْ الْأَنْبِيَاءُ بَغْيٌ حَقٌّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ

ولو كان ذلك بسبب سؤال الرؤية لكان موسى بذلك أحق، فإنه قال: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظِرْ إِلَيْكَ﴾ وما أخذته الصاعقة، بل أطمعه وقيده بالممكن، ولا يعلق بالممكن إلا ما هو ممكن الثبوت، ثم أحياهم ﴿ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ التوراة، والمعجزات التسع ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ تفضلاً، ولم نستأصلهم ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة ظاهرة على مَنْ خالفه.

١٥٤ - ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليخافوا، فلا ينقضوه ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ والطور مطلق عليهم ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوا باب إيلياء مطأطين عند الدخول رؤوسكم ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا﴾ لا تجاوزوا الحد ﴿تَعْدُوا﴾: ورش. ﴿تعدوا﴾ بإسكان العين وتشديد الدال: مدني غير ورش. وهما مدغماً (تعتدوا). وهي قراءة أبي، إلا أنه أدغم التاء في الدال، وأبقى العين ساكنة في رواية، وفي رواية نقل فتح التاء إلى العين ﴿فِي السَّبْتِ﴾ بأخذ السمك ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهداً مؤكداً.

١٥٥ - ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ﴾ أي: فنقضهم. وما: مزيدة للتوكيد. والباء يتعلق بقوله: ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ﴾ تقديره: حرّمنا عليهم طيبات بنقضهم ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَبَطَلْهُمْ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ بدل من قوله: ﴿فَبِمَا نَقُضُهُمْ﴾. ومعنى التوكيد: تحقيق أنّ تحریم الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد، وما عطف عليه من الكفر، وقتل الأنبياء، وغير ذلك ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: معجزات موسى عليه السلام ﴿وَقَوْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءُ﴾ كزكريا، ويحيى، وغيرهما ﴿بَغْيٌ حَقٌّ﴾ بغير سبب يستحقون به القتل ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف، أي: محجوبة لا يتوصل إليها شيء من الذكر، والوعظ ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ

فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

عَلَيْهَا يَكْفُرُهُمْ ﴿١٥٥﴾ هو ردّ وإنكار لقولهم: ﴿قلوبنا غلف﴾ ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كعبد الله بن سلام، وأصحابه.

١٥٦ - ﴿وَيَكْفُرُهُمْ﴾ معطوف على ﴿فبما نقضهم﴾ أو: على ما يليه من قوله: ﴿بكفرهم﴾. ولما تكرر منهم الكفر؛ لأنهم كفروا بموسى، ثم بعيسى، ثم بمحمد ﷺ عطف بعض كفرهم على بعض ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ هو النسبة إلى الزنى.

١٥٧ - ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ سُمِّيَ مسيحاً لأن جبريل عليه السلام مسح بالبركة، فهو ممسوح، أو: لأنه كان يمسحُ المريض^(١)، والأكمه، والأبرص فيبرأ، فسمِّيَ مسيحاً بمعنى الماسح ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ هم لم يعتقدوه رسول الله، لكنهم قالوا استهزاء كقول الكفار لرسولنا: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾. ويحتمل: أن الله وصفه به وإن لم يقولوا ذلك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رُوي أَنَّ رهطاً من اليهود سبّوه، وسبّوا أمه، فدعا عليهم: اللهم أنت ربي، وبكلمتك خلقتني، اللهم العن من سبني وسب والدتي. فمسخ الله من سبّهما قردة وخنازير. فاجتمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء، ويطهره من صحبة اليهود، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يُلقى عليه شبهي فيقتل، ويصلب، ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم: أنا! فألقى الله عليه شبهه، فقتل، وصلب. وقيل: كان رجل ينافق عيسى، فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه، فدخل بيت عيسى، ورفع عيسى، وألقى الله شبهه على المنافق، فدخلوا عليه، فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى، وجاز هذا على قوم متعتين حكّم الله بأنهم لا يؤمنون. و﴿شُبِّهَ﴾ مسند إلى الجار والمجرور وهو ﴿لهم﴾ كقولك: خيل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع

(١) الأرجح أن لفظة «المسيح» سريانية، وأصلها «مسيحا» فعربتها العرب، ومن الأسلم عدم الخوض في البحث عن معناها في اللغة العربية. انظر تاج العروس (١٢٤/٧).

وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ

لهم التشبيه. أو مسند إلى ضمير المقتول لدلالة: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا﴾ عليه، كأنه قيل: ﴿ولكن شبه لهم﴾ من قتلوه ﴿وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في عيسى، يعني: اليهود قالوا: إن الوجه وجه عيسى، والبدن بدن صاحبنا، أو: اختلف النصارى قالوا: إله، وابن إله، وثالث ثلاثة ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع؛ لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم، يعني: ولكنهم يتبعون الظن. وإنما وصفوا بالشك، وهو: ألا يترجح أحد الجانبين، ثم وصفوا بالظن، وهو أن يترجح أحدهما؛ لأن المراد: أنهم شاكون ما لهم به من علم، ولكن إن لاحت لهم أمارة، فظنوا فذاك. وقيل: ﴿وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: في قتله ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي: من قتله، لأنهم كانوا يقولون: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى؟ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: قتلاً يقيناً، أو: ما قتلوه متيقنين، أو: ما قتلوه حقاً، فيجعل يقيناً تأكيداً لقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ أي: حق انتفاء قتله حقاً.

١٥٨ - ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى حيث لا حكم فيه لغير الله، أو: إلى السماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ في انتقامه من اليهود ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر من رفعه إليه.

١٥٩ - ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ «ليؤمننَّ به»: جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف، تقديره: ﴿وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به﴾. ونحوه: ﴿وَمَا مِتَّا إِلَّا لِمَقَامٍ مَعْلُومٍ﴾ [الصفات: ١٦٤]. والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى عليه السلام، وبأنه عبد الله ورسوله، يعني: إذا عاين قبل أن تزهر روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف. أو: الضميران لعيسى، يعني: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله. رُوي أنه ينزل من السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة، وهي ملة

وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظَاهِرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

الإسلام. أو الضمير في ﴿به﴾ يرجع إلى الله، أو إلى محمد ﷺ، والثاني: إلى الكتابي ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذبوه، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

١٦٠ - ﴿فَيُظَاهِرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهي ما ذكر في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] الآية. والمعنى: ما حرمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبوه وهو ما عُدَّ قبل هذا ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وبمنعهم عن الإيمان ﴿كَثِيرًا﴾ أي: خلقاً كثيراً، أو: صداً كثيراً.

١٦١ - ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ﴾ وكان الربا محرماً عليهم، كما حرم علينا، وكانوا يتعاطونه ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بالرشوة، وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ دون من آمن ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

١٦٢ - ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي: الثابتون فيه، المتقون، كابن سلام وأضرابه. وارتفع الراسخون على الابتداء ﴿مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: المؤمنون منهم، والمؤمنون من المهاجرين والأنصار، وارتفع الراسخون على الابتداء ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خبره ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: سائر الكتب ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ منصوب على المدح لبيان فضل الصلاة.

وفي مصحف عبد الله (والمقيمون) وهي قراءة مالك بن دينار، وغيره ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ مبتدأ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عطف عليه، والخبر ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وبالياء: حمزة.

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (١١٦) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٧﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

١٦٣ - ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاجه عليهم بأن شأنه في الوحي إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا ﴿ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ك: هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ أي: أولاد يعقوب ﴿ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ ﴿ زَبُورًا ﴾ حمزة. مصدر بمعنى مفعول، سُمِّيَ به الكتاب المنزل على داود عليه السلام.

١٦٤ - ﴿ وَرُسُلًا ﴾ نصب بمضمر في معنى ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ وهو: أرسلنا، ونبأنا ﴿ قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ من قبل هذه السورة ﴿ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ سأل أبو ذر رسول الله ﷺ عن الأنبياء؟ قال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قال: كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمئة وثلاثة عشر، أول الرسل آدم، وآخرهم نبيكم محمد ﷺ وأربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد ﷺ»^(١). والآية تدلُّ على أن معرفة الرسل بأعيانهم ليست بشرط لصحة الإيمان، بل من شرطه أن يؤمن بهم جميعاً؛ إذ لو كان معرفة كل واحد منهم شرطاً لقصَّ علينا كل ذلك ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ أي: بلا واسطة.

١٦٥ - ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ الأوجه أن ينتصب على المدح، أي: أعني رسلاً. ويجوز أن يكون بدلاً من الأول، وأن يكون مفعولاً، أي: وأرسلنا رسلاً. واللام في: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ يتعلق

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٣٦١) وأبو نعيم في الحلية (١/١٦٦-١٦٨).

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ
وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ
وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

بمبشرين ومنذرين. والمعنى: أن إرسالهم إزاحة للعلّة، وتتميم لإلزامهم
الحجة؛ لثلا يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، فيوقظنا من سنة الغفلة،
وينبها بما وجب الانتباه له، ويعلمنا ما سبيل معرفته السمع كالعبادات،
والشرائع، أعني: في حق مقاديرها، وأوقاتها، وكيفياتها، دون أصولها؛ فإنها
مما يعرف بالعقل ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ في العقاب على الإنكار ﴿حَكِيمًا﴾
في بعث الرسل للإنذار.

١٦٦ - ولما نزل: «إنا أوحينا إليك» قالوا: ما نشهد لك بهذا، فنزل:
﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه: إثباته لصحته
بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعاوى بالبينات؛ إذ الحكيم لا يؤيد الكاذب
بالمعجزة ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي: أنزله وهو عالم بأنك أهل لأنزاله إليك،
وأنتك مبلغه، أو أنزله بما علم من مصالح العباد. وفيه: نفي قول المعتزلة في
إنكار الصفات؛ فإنه أثبت لنفسه العلم ﴿وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ لك بالنبوة
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ شاهداً، وإن لم يشهد غيره.

١٦٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتكذيب محمد ﷺ، وهم: اليهود ﴿وَصَدُّوا عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ومنعوا الناس عن سبيل الحق بقولهم للعرب: إنا لا نجد في كتابنا
﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الرشد.

١٦٨ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَزَلَمُوا﴾ محمدًا ﷺ بتغيير نعته، وإنكار
نبوته ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ما داموا على الكفر.

١٦٩ - ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا﴾ وكان تخليدهم في جهنم سهلاً عليه. والتقدير: يعاقبهم ﴿خالدين﴾

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَفَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ

فهو حال مقدرة. والآيتان في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون، ويموتون على الكفر.

١٧٠ - ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بالإسلام.

أو: هو حال، أي: محققاً ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ وكذلك ﴿أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] انتصابه بمضمر؛ وذلك: أنه لما بعثهم على الإيمان، وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم على أمر، فقال: ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي: اقصدوا، واتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث، وهو: الإيمان به والتوحيد ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يضره كفركم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن يؤمن، وبمن يكفر ﴿حَكِيمًا﴾ لا يسوي بينهما في الجزاء.

١٧١ - ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ لا تجاوزوا الحد، فغلت

اليهود في حط المسيح عن منزلته، حتى قالوا: إنه ابن الزنى، وغلت النصراني في رفعه عن مقداره حيث جعلوه ابن الله ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهو تنزيهه عن الشريك، والولد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ابن الله

﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ خبر المبتدأ، وهو المسيح، و«عيسى» عطف بيان، أو: بدل ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ عطف على «رسول الله» وقيل له: كلمة؛ لأنه يهتدى به كما

يهتدى بالكلام ﴿أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ حال، و«قد» معه مرادة، أي: أوصلها إليها، وحصلها فيها ﴿وَرُوحٌ﴾ معطوف على الخبر أيضاً، وقيل له: روح؛ لأنه كان

يحيي الموتى، كما سُمي القرآن روحاً بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾

[الشورى: ٥٢] لما أنه يحيي القلوب ﴿وَمِنْهُ﴾ أي: بتخليقه وتكوينه؛ كقوله

تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الباقية: ١٣] وبه أجاب

علي بن الحسين بن واقد غلاماً نصرانياً كان للرشيد في مجلسه، حيث زعم أن

فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً **﴿﴾** أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدٌ لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا **﴿﴾** لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ

في كتابكم حجة على أنَّ عيسى من الله **﴿﴾** فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً **﴿﴾** خبر مبتدأ محذوف، أي: ولا تقولوا الآلهة ثلاثة **﴿﴾** أَنْتَهُوا **﴿﴾** عن الثلاث **﴿﴾** خَيْرًا لَّكُمْ **﴿﴾** والذي يدلُّ عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة وأن المسيح ولد الله من مريم. ألا ترى إلى قوله: **﴿﴾** وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ **﴿﴾** [المائدة: ١١٦] **﴿﴾** وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ **﴿﴾** [التوبة: ٣٠] **﴿﴾** إِنَّمَا اللَّهُ **﴿﴾** مبتدأ **﴿﴾** إِلَهُ **﴿﴾** خبره **﴿﴾** وَحْدٌ **﴿﴾** توكيد **﴿﴾** سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدٌ **﴿﴾** أسبحة تسيحاً من أن يكون له ولد **﴿﴾** لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ **﴿﴾** بيان لتزهره مما نُسب إليه بمعنى أن كل ما فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه؟! إذ الثبوت والملك لا يجتمعان على أنَّ الجزء إنما يصحُّ في الأجسام، وهو يتعالى عن أن يكون جسماً **﴿﴾** وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا **﴿﴾** حافظاً، ومدبراً لهما، ولما فيهما، ومن عجز عن كفاية أمر يحتاج إلى ولدٍ يعينه.

١٧٢ - ولما قال وفد نجران لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا عيسى؟

قال: «وأي شيء أقول؟» قالوا: تقول: إنه عبد الله ورسوله. قال: «إنه ليس بعابر أن يكون عبداً لله». قالوا: بلى، فنزل قوله تعالى^(١): **﴿﴾** لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ **﴿﴾** أي لن يأنف **﴿﴾** أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ **﴿﴾** هو ردُّ على النصاري **﴿﴾** وَلَا الْمَلَائِكَةُ **﴿﴾** ردُّ على من يعبدهم من العرب، وهو عطف على المسيح **﴿﴾** الْمُقَرَّبُونَ **﴿﴾** أي: الكروبيون الذين حول العرش؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومن في طبقتهم. والمعنى: **﴿﴾** وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ **﴿﴾** أن يكونوا عباداً لله، فحذف ذلك لدلالة **﴿﴾** عَبْدًا لِلَّهِ **﴿﴾** عليه إيجازاً. وتشبث المعتزلة والقائلون بتفضيل الملك على البشر بهذه الآية، وقالوا: الارتقاء إنما يكون

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٢٥).

وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

إلى الأعلى، يقال: فلان لا يستنكف عن خدمتي، ولا أبوه، ولو قال: ولا عبده لم يحسن. وكان معنى قوله: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ ولا من هو أعلى منه قدرًا، وأعظم منه خطرًا، ويدلُّ عليه: تخصيص المقربين. والجواب: إنا نسلم تفضيل الثاني على الأول، ولكن هذا لا يمسُّ ما تنازعنا فيه؛ لأنَّ الآية تدلُّ على أنَّ الملائكة المقربين بأجمعهم أفضل من عيسى، ونحن نسلم بأنَّ جميع الملائكة المقربين أفضل من رسول واحد من البشر. إلى هذا ذهب بعض أهل السنة؛ ولأنَّ المراد أنَّ الملائكة مع مالهم من القدرة الفائقة قدر البشر والعلوم اللوحية، وتجردهم عن التولد الازدواجي رأساً لا يستنكفون عن عبادته، فكيف بمن يتولد من آخر، ولا يقدر على ما يقدر، ولا يعلم ما يعلمون؟! وهذا لأنَّ شدة البطش، وسعة العلوم، وغرابة التكون هي التي تورث الحمقى - أمثال النصارى - وهم الترفع عن العبودية، حيث رأوا المسيح ولد من غير أب، وهو يرى الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، وينبئ بما يأكلون، ويدخرون في بيوتهم فبرؤوه من العبودية. فقل لهم: هذه الأوصاف في الملائكة أتمُّ منها في المسيح، ومع هذا لم يستنكفوا عن العبودية، فكيف المسيح؟! والحاصل: أن خواصَّ البشر - وهم الأنبياء عليهم السلام - أفضل من خواصَّ الملائكة - وهم الرسل - منهم - كجبريل، وميكائيل، وعزرائيل، ونحوهم. وخواصَّ الملائكة أفضل من عوام المؤمنين من البشر، وعوام المؤمنين من البشر أفضل من عوام الملائكة. ودليلنا على تفضيل البشر على الملك ابتداء: أنهم قهروا نوازع الهوى في ذات الله تعالى، مع أنهم جُبلوا عليها، فضاهت الأنبياء عليهم السلام الملائكة عليهم السلام في العصمة، وتفضَّلوا عليهم في قهر البواعث النفسانية، والدواعي الجسدانية، فكانت طاعتهم أشقَّ، لكونها مع الصوارف بخلاف طاعة الملائكة؛ لأنهم جُبلوا عليها، فكانت أزيد ثواباً بالحديث ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يترفع، ويطلب الكبرياء ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم على استنكافهم، واستكبارهم. ثم فصل، فقال:

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ

١٧٣ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فإن قلت: التفصيل غير مطابق للمفصل؛ لأن التفصيل اشتمل على الفريقين، والمفصل على فريق واحد، قلت: هو مثل قولك: جمع الإمام الخوارج، فمن لم يخرج عليه كساه وحمله، ومن خرج عليه نكل به. وصحة ذلك لوجهين: أحدهما: أنه حذف ذكر أحد الفريقين للدلالة التفصيل عليه، لأن ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله تعالى بعد هذا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ والثاني: أن الإحسان إلى غيرهم مما يغتهم، فكان داخلا في جملة التنكيل بهم، فكانه قيل: ومن يستنكف عن عبادته، ويستكبر فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين، وبما يصيبه من عذاب الله.

١٧٤ - ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رسول يبهز المنكر بالإعجاز ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ قرآنا يُستضاء به ظلمات الحيرة.

١٧٥ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ بالله، أو بالقرآن ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: جنة ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة النعمة ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدهم ﴿إِلَىٰ﴾ إلى الله، أو: إلى الفضل، أو: إلى صراطه ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ فـ«صراطاً»: حال من المضاف المحذوف.

١٧٦ - ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ كان جابر بن عبد الله مريضاً، فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كلاله، فكيف أصنع في مالي؟

إِنْ أَمَرُوا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا
وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ
مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

فترت (١) ﴿إِنْ أَمَرُوا هَلَكَ﴾ ارتفع امرؤ بمضمر يفسره الظاهر. ومحل ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الرفع على الصفة، أي: إن هلك امرؤ غير ذي ولد. والمراد بالولد: الابن؛ وهو مشترك يقع على الذكر والأنثى. لأنَّ الابن يسقط الأخت، ولا تسقطها البنت ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ أي: لأب وأم، أو لأب ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: الميت ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ أي: الأخ يرث الأخت جميع مالها إن قدر الأمر على العكس من موتها، وبقائه بعدها ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي: ابن؛ لأن الابن يسقط الأخ دون البنت. فإن قلت: الابن لا يسقط الأخ وحده، فالأب نظيره في الإسقاط، فلم اقتصر على نفي الولد؟ قلت: يبين حكم انتفاء الولد، ووكلَ حكم انتفاء الوالد إلى بيان السنة، وهو قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى عَصَبَةٍ ذَكَرَ» (٢). والأب أولى من الأخ ﴿فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ﴾ أي: فإن كانت الأختان اثنتين. دلَّ على ذلك: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ ﴿فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً﴾ أي: وإن كان من يرث بالأخوة. والمراد بالأخوة: الإخوة والأخوات، تغليباً لحكم الذكورة ﴿رِجَالًا وَنِسَاءً﴾ ذكوراً وإناثاً ﴿فَلِلَّذَكَرِ مِنْهُمْ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الحق، فهو مفعول «يبين» ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ كراهة أن تضلوا. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء بكنهها قبل كونها وبعده.

* * *

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشف ١/٥٩٨).

(٢) رواه أحمد (١/٢٩٢) والبخاري (٦٧٣٢) ومسلم (١٦١٥).

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ
مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يقال: وفى بالعهد، وأوفى به. والعقد: العهد الموثق. شبه بعقد الحبل ونحوه. وهي: عقود الله التي عقدها على عباده، وألزمها إياهم من مواجب التكليف، أو: ما عقد الله عليكم، أو: ما تعاقدتم بينكم. والظاهر: أنها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله، وتحريم حرامه، وأنه كلام قدّم مجملًا، ثم عقب بالتفصيل، وهو قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ والبهيمة: كل ذات أربع قوائم في البر والبحر، وإضافتها إلى الأنعام للبيان، وهي بمعنى «من»، كخاتم فضة، ومعناه: البهيمة من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية. وقيل: بهيمة الأنعام: الطباء، وبقر الوحش، ونحوهما ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ آية تحريمه، وهو قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة...﴾ الآية ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ حال من الضمير في ﴿لكم﴾ أي: أحلت لكم هذه الأشياء، لا محلين الصيد ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ حال من محلي الصيد، كأنه قيل: أحللنا لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون؛ لثلا يضيق عليكم. والحُرْم: جمع حرام، وهو: المُحَرَّم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأحكام، أو: من التحليل والتحريم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوْا شَعَيْرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَنْتَفُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا

٢ - ونزل نهياً عن تحليل ما حرم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوْا شَعَيْرَ اللَّهِ﴾ جمع شعيرة، وهي: اسم ما أشعر، أي: جعل شعاراً وعلماً للنسك به من مواقف الحج، ومرامي الجمار، والمطاف، والمسعى، والأفعال التي هي علامات الحاج، يعرف بها من الإحرام، والطواف، والسعي، والحلق، والنحر ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: أشهر الحج ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ وهو ما أهدي إلى البيت، وتُقَرَّب به إلى الله تعالى من النسائك، وهو: جمع هَذِيَّة ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ جمع قلادة، وهي: ما قلد به الهدى من نعل، أو عروة مزادة، أو لحاء شجر، أو غيره ﴿وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ ولا تجلّوا قوماً قاصدين المسجد الحرام، وهم: الحجاج، والعمّار. وإحلال هذه الأشياء: أن يتهاون بحرمة الشعائر، وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها، وأن يحدثوا في أشهر الحج ما يصدون به الناس عن الحج، وأن يتعرضوا للهدى بالغصب، أو بالمنع من بلوغ محله. وأما القلائد فجاز أن يراد بها ذوات القلائد، وهي: البُذُن، وتعطف على الهدى للاختصاص؛ لأنها أشرف الهدى، كقوله: ﴿وَحَبْرِيلَ وَمِيكَئِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] كأنه قيل: والقلائد منها خصوصاً. وجاز أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدى مبالغة في النهي عن التعرض للهدى، أي: ولا تحلوا قلائدّها فضلاً أن تحلوها، كما قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١] فنهى عن إبداء الزينة مبالغة في النهي عن إبداء مواقعها ﴿يَنْتَفُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿ءَامِينَ﴾ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ثواباً ﴿وَرِضْوَانًا﴾ وأن يرضى عنهم. لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيماً لهم ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ خرجتم من الإحرام ﴿فَاصْطَادُوا﴾ إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم بقوله: ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ «جرم» مثل «كسب» في تعديته إلى مفعول واحد واثنين، تقول: جرم ذنباً، نحو:

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ
 وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ

كسبه، وجرمته ذنباً، نحو: كسبته إياه. وأول المفعولين ضمير المخاطبين،
 والثاني: أن تعتدوا. ﴿وَأَنْ صَدُوكُمْ﴾ متعلق بالشأن بمعنى العلة، وهو: شدة
 البغض. ويسكون النون: شامي، وأبو بكر. والمعنى: ولا يكسبنكم بغض
 قوم لأن صدوكم الاعتداء، ولا يحملنكم عليه. ﴿إِنْ صَدُوكُمْ﴾ على الشرط:
 مكي، وأبو عمرو. ومعنى: صدّهم إياهم عن المسجد منع أهل مكة رسول
 الله ﷺ والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة. ومعنى الاعتداء: الانتقام منهم
 بالحق مكرهه بهم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ على العفو والإغضاء ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا
 عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ على الانتقام والتشقي. أو: البر: فعل المأمور، والتقوى:
 ترك المحذور: والإثم: ترك المأمور، والعدوان: فعل المحذور. ويجوز أن
 يُراد العموم لكل برّ وتقوى، ولكل إثم وعدوان، فيتناول بعمومه: العفو،
 والانتصار ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، وما اتقاه.

٣ - ثم بين ما كان أهل الجاهلية يأكلونه فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ أي:
 البهيمة التي تموت حتف أنفها ﴿وَالدَّمُ﴾ أي: المسفوح، وهو: السائل ﴿وَلَحْمُ
 الْخِنْزِيرِ﴾ وكله نجس. وإنما خصّ اللحم لأنه معظم المقصود ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ
 بِهِ﴾ أي: رفع الصوت به لغير الله، وهو قولهم: باسم اللات والعزى عند
 ذبحه ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي خنقوها حتى ماتت، أو انخنقت بالشبكة، أو غيرها
 ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي أثنوها ضرباً بعضاً، أو: حجر، حتى ماتت ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾
 التي تردت من جبل، أو: في بئر فماتت ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ المنطوحة، وهي: التي
 نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ بعضه، ومات بجرحه ﴿إِلَّا مَا
 ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته، وهو يضطرب اضطراب المذبوح. والاستثناء
 يرجع إلى المنخنقة وما بعدها، فإنه إذا أدركها وبها حياة، فذبحها، وسمّى
 عليها حلت ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت

وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

يذبحون عليها يعظمونها بذلك، ويتقربون به إليها تسمى: الأنصاب. واحدها: نُصْب، أو: هو جمع، والواحد: نصاب ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ في موضع الرفع بالعطف على الميتة، أي: حرمت عليكم الميتة، كذا وكذا، والاستقسام بالأزلام: وهي القداح المعلمة واحدها زكَم وزَكَم. كان أحدهم إذا أراد سفراً، أو غزواً، أو تجارة، أو نكاحاً، أو غير ذلك يعتمد إلى قداح ثلاثة، على واحد منها مكتوب: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني، والثالث غُفْل، فإن خرج الأمر مضى لحاجته، وإن خرج الناهي أمسك، وإن خرج الغفل أعاده. فمعنى الاستقسام بالأزلام: طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم له بالأزلام. قال الزجاج: لا فرق بين هذا وبين قول المنجمين: لا تخرج من أجل نجم كذا، وأخرج لطلوع نجم كذا. وفي شرح التأويلات ردّ هذا، وقال: لا يقول المنجم: إن نجم كذا يأمر بكذا، ونجم كذا ينهى عن كذا، كما كان فعل أولئك. ولكن المنجم جعل دلالات وعلامات على أحكام الله تعالى، ويجوز أن يجعل الله في النجوم معاني وأعلاماً يدرك بها الأحكام، ويستخرج بها الأشياء، ولا لائمة في ذلك، إنما اللائمة عليه فيما يحكم على الله، ويشهد عليه. وقيل: هو الميسر، وقسمتهم الجزور على الأنصاب المعلومة ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ الاستقسام بالأزلام خروج عن الطاعة. ويحتمل أن يعود إلى كلِّ محرم في الآية ﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف لـ «يئس». ولم يردّ به يوم بعينه، وإنما معناه: الآن، وهذا كما تقول: أنا اليوم قد كبرت، تريد: الآن. وقيل: أريد يوم نزولها، وقد نزلت يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع ﴿يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ يئسوا منه أن يبطلوه، أو يئسوا من دينكم أن يغلبوه؛ لأن الله تعالى وفى بوعده من إظهاره على الدين كله ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ بعد إظهار الدين، وزوال الخوف من الكفار، وانقلابهم مغلوبين بعد ما كانوا غالبيين ﴿وَاخْشَوْنَ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف، أي: أخلصوا لي الخشية ﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف لقوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بأن كفيتمكم خوف عدوكم، وأظهرتكم

وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ

الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ

عليهم، كما يقول الملوك: اليوم كمل لنا الملك، أي: كُفينا من كُثَّا نخافه. أو: أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام، والتوقيف على شرائع الإسلام وقوانين القياس ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بفتح مكة، ودخولها آمنين ظاهرين، وهدم الجاهلية، ومناسكهم. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ حال. اخترته لكم من بين الأديان، وأذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ متصل بذكر المحرمات. وقوله: ﴿ذلكم فسق﴾ اعتراض أكد به معنى التحريم. وكذا ما بعده؛ لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة، والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل. ومعناه: فمن اضطُرَّ إلى الميتة، أو إلى غيرها ﴿فِي مَخْصَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرِ﴾ حال ﴿مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ مائل إلى إثم، أي: غير متجاوز سدّ الرمي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لا يؤاخذ به بذلك ﴿رَحِيمٌ﴾ بإباحة المحظور للمعذور.

٤ - ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ في السؤال معنى القول، فلذا وقع بعده: ماذا ﴿مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾ كأنه قيل: يقولون لك: ﴿ماذا أحل لهم﴾. وإنما لم يقل: ماذا أحل لنا؟ حكاية لما قالوا لأن «يسألونك» بلفظ الغيبة، كقولك: أقسم زيد ليفعلن، ولو قيل: لأفعلن، وأحل لنا لكان صواباً. و﴿ماذا﴾ مبتدأ و﴿أحل لهم﴾ خبره، كقولك: أي شيء أحل لهم؟ ومعناه: ماذا أحل لهم من المطاعم. كأنه حين تلا عليهم ما حرم عليهم من خبيثات المأكّل، سألوا عما أحل لهم منها، فقال: ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي: ما ليس بخبيث منها، أو هو كل مالم يأت تحريمه في كتاب الله، أو سنة، أو إجماع، أو قياس ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ عطف على الطيبات، أي: أحل لكم الطيبات، وصيد ما علمتم، فحذف المضاف. أو: تجعل ما شرعية وجوابها ﴿فَكُلُوا﴾ ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي: الكواشب للصيد من سباع البهائم والطيور، كالكلب، والفهد، والعقاب، والصقر، والبازي،

مُكَلِّينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ
وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ

والشاهين. وقيل: هي من الجراحة، فيشترط للحل الجرح ﴿مُكَلِّينَ﴾ حال من علمتم. وفائدة هذه الحال - مع أنه استغنى عنها بـ «علمتم» - أن يكون من يعلم الجوارح موصوفاً بالتكليب. والمكلب مؤذّب الجوارح ومعلمها، مشتق من الكلب، لأنّ التأديب في الكلاب أكثر، فاشتق من لفظه لكثرة في جنسه، أو: لأنّ السبع يُسمّى كلباً، ومنه الحديث: «اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك»^(١). فأكله الأسد ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ﴾ حال، أو: استئناف، ولا موضع له. وفيه دليل على أن على كلّ أخذ علماً ألا يأخذه إلا من أقتل أهله علماً، وأنحرهم دراية، فكم من أخذ عن غير متقن قد ضيع أيامه، وعضّ عند لقاء النحارير أنامله!! ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من التكليب ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ الإمساك على صاحبه: ألا يأكل منه. فإن أكل منه لم يؤكل إذا كان صيد كلب ونحوه، فأما صيد البازي ونحوه فأكله لا يحرمه، وقد عرف في موضعه. والضمير في: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يرجع إلى ﴿ما أمسكن﴾ على معنى: وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته. أو: إلى ﴿ما علمتم من الجوارح﴾ أي: سموا عليه عند إرساله ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا مهالفة أمره في هذا كله ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إنه محاسبكم على أفعالكم، ولا يلحقه فيه لبث.

٥ - ﴿الْيَوْمَ﴾ الآن ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ كرّره تأكيداً للمنة ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ أي: ذبائحهم؛ لأنّ سائر الأطعمة لا يختصّ حلّها بالملة ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ فلا جناح عليكم أن تطعموهم؛ لأنه لو كان حراماً عليهم طعام المؤمنين لما ساغ لهم إطعامهم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ هي الحرائر، أو العفاف. وليس هذا بشرط لصحة النكاح، بل هو للاستحباب؛ لأنه يصحّ نكاح الإماء من المسلمات، ونكاح غير العفاف. وتخصيصهن بَعَثَ على

وَأَخْصَنَتْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مَخْذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ

تخبر المؤمنين لنظفهم. وهو معطوف على الطيبات، أو: مبتدأ، والخبر: محذوف، أي: والمحصنات من المؤمنات حل لكم ﴿وَأَخْصَنَتْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هن الحرائر الكتابيات، أو: العفاف الكتابيات ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أعطيتموهن مهرهن ﴿مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ﴾ متزوجين غير زانين ﴿وَلَا مَخْذِي أَخْدَانٍ﴾ صدائق. والخذن: يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَنِ﴾ بشرائع الإسلام، وما أحل الله، وحرّم ﴿فَقَدْ حَبِطَ﴾ بطل ﴿عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

٦ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت أن تقرأ القرآن، فعبّر عن إرادة الفعل بالفعل؛ لأن الفعل مسبب عن الإرادة، فأقيم المسبب مقام السبب؛ لملازمة بينهما طلباً للإيجاز. ونحوه: كما تدين تدان، عبّر عن الفعل الابتدائي، الذي هو سبب الجزاء؛ بلفظ الجزاء؛ الذي هو مسبب عنه. وتقديره: وأنتم محدثون. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أو: من النوم؛ لأنه دليل الحدث. وكان رسول الله ﷺ والصحابة يتوضؤون لكل صلاة^(١). وقيل: كان الوضوء لكل صلاة واجباً أول ما فرض، ثم نسخ ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ إلى: تفيد معنى الغاية مطلقاً. فاما دخولها في الحكم وخروجها فأمر يدور مع الدليل. فما فيه دليل على الخروج: ﴿فَنَظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] لأن الإعسار علة الإنظار وبوجود الميسرة تزول العلة، ولو دخلت الميسرة فيه لكان منظراً في الحالتين معسراً وموسراً. وكذلك: ﴿أُتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] لو دخل الليل

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١١٢/٦).

وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ

لوجب الوصال. ومما فيه دليل على الدخول، قولك: حفظت القرآن من أوله إلى آخره، لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ أَلَمَسَ جِدَ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] لوقوع العلم بأنه ﷺ لا يُسْرَى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله. وقوله: ﴿إِلَى الْمِرْفَاقِ﴾ لا دليل فيه على أحد الأمرين. فأخذ الجمهور بالاحتياط، فحكموا بدخولها في الغسل. وأخذ زفر ودادو بالمتيقن فلم يدخلوها. وعن النبي ﷺ أنه كان يدير الماء على مرفقيه^(١) ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ المراد: إصااق المسح بالرأس. وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح برأسه. فأخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب، والشافعي باليقين فأوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح. وأخذنا ببيان النبي ﷺ، وهو ماروي: أنه مسح على ناصيته^(٢). وقدرت الناصية بربع الرأس ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ بالنصب: شامي، ونافع، وعلي، وحفص. والمعنى: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرفاق، وأرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم، على التقديم والتأخير. غيرهم: بالجر بالعطف على الرؤوس؛ لأن الأرجل، من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة، تغسل بصب الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المنهي عنه، فعطفت على الممسوح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها. وقيل: «إلى الكعبين» فجيء بالغاية إمطة لظن ظان يحسبها ممسوحة؛ لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة. وقال في «جامع العلوم»: إنها مجرورة للجوار. وقد صح أن النبي ﷺ رأى قوماً يمسحون على أرجلهم فقال: «ويل للأعقاب من النار»^(٣). وعن عطاء: والله ما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ مسح على القدمين، وإنما أمر بغسل هذه الأعضاء ليظهرها من الأوساخ؛ التي تتصل بها؛ لأنها تبدو كثيراً. والصلاة:

(١) رواه الدارقطني (٨٣/١).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤) (١٨ و ٨٣).

(٣) رواه أحمد (١٩٣/٢) والبخاري (٦٠) ومسلم (٢٤١).

وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

خدمة الله تعالى، والقيام بين يديه متطهراً من الأوساخ أقرب إلى التعظيم، فكان أكمل في الخدمة، كما في الشاهد إذا أراد أن يقوم بين يدي الملك. ولهذا قيل: إن الأولى أن يصلي الرجل في أحسن ثيابه، وإن الصلاة متعمداً أفضل من الصلاة مكشوف الرأس؛ لما أن ذلك أبلغ في التعظيم ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ فاغسلوا أبدانكم ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ﴾ قال الرازي: معناه: وجاء؛ حتى لا يلزم المريض والمسافر التيمم بلا حدث. ﴿مِنَ الْغَائِطِ﴾ المكان المظلم، وهو كناية عن قضاء الحاجة ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ جامعتم. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ في باب الطهارة، حتى لا يرخص لكم في التيمم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾ بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ وليتم برخصه إنعامه عليكم بعزائه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيشيبكم.

٧ - ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ﴿وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: عاقدكم به عقداً وثيقاً، وهو: الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر، والمنشط والمكره، فقبلوا، وقالوا: سمعنا وأطعنا. وقيل: هو الميثاق ليلة العقبة، وفي بيعة الرضوان ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في نقض الميثاق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بسرائر الصدور من الخير والشر، وهو وعد ووعد.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ وَلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ

٨ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿وَلَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ وَلَا تَعْدِلُوا﴾ عدى «يجرمكم» بحرف الاستعلاء
مضمناً معنى فعل يتعدى به، كأنه قيل: ولا يحملنكم بغض قوم على ترك
العدل فيهم ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العدل أقرب إلى التقوى. نهاهم
أولاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل. ثم استأنف، فصرح لهم بالأمر
بالعدل تأكيداً وتشديداً، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل، وهو قوله
تعالى: ﴿هو أقرب للتقوى﴾ وإذا كان وجوب العدل مع الكفار بهذه الصفة
من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه؟! ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾
فيما أمر ونهى ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعد؛ ولذا ذكر بعدها
آية الوعد، وهو قوله تعالى:

٩ - ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يتعدى إلى مفعولين، فالأول
الذين آمنوا، والثاني محذوف، استغنى عنه بالجملة التي هي قوله: ﴿لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ والزعيد وهو قوله:

١٠ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: لا
يفارقونها.

١١ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ﴾ روي أن

رسول الله ﷺ أتى بني قريظة، ومعه الشيخان أبو بكر وعمر، والختان،
يستقرضهم دية مسلمين^(١) قتلها عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما

(١) قال الحافظ: قوله: «مسلمين»: لم أجد ذلك في شيء من طريق الحديث، بل صرح=

أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۖ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ
 اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ

مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم! اجلس حتى نطعمك، ونقرضك، فأجلسوه في صُفَّةٍ، وهموا بالفتك به، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحي عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله يده، ونزل جبريل فأخبره بذلك، فخرج النبي ﷺ، ونزلت الآية. إذ: ظرف للنعمة ﴿أَنْ يَبْسُطُوا﴾ بأن يبسطوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل، يقال: بسط لسانه إليه؛ إذا شتمه، وبسط إليه يده: إذا بطش به ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ [المتحنة: ٢] ومعنى بسط اليد: مدها إلى المبطوش به ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ فمنعها أن تمدَّ إليكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي، والدافع، والمانع.

١٢ - ﴿ ۖ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ ﴾ هو الذي يتقب عن أحوال القوم، ويفتش عنها. ولما استقر بنو إسرائيل بمصر، بعد هلاك فرعون؛ أمرهم الله بالميسر إلى أريحاء أرض الشام، وكان يسكنها الكنعانيون الجابرة، قال لهم: إني كتبتها لكم داراً، وقراراً، فاخرجوا إليها، واجاهدوا من فيها، وإني ناصرکم. وأمر الله موسى - عليه السلام - أن يأخذ من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقاً عليهم، فاختر النقباء، وأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتكفل لهم به النقباء، وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون، فأروا أجراماً عظيمة، وقوة، وشوكة، فهابوا، ورجعوا، فحدثوا قومهم، وقد نهاهم أن يحدثوهم، فنكثوا الميثاق إلا كالب بن يوقنا، ويوشع بن نون، وكانا من النقباء ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: ناصرکم، ومعينکم. وتقف هنا

= موسى بن عقبة في المغازي أنهما كانا كافرين، وكان لهما عهد. وفي «الدلائل» لأبي نعيم من حديث ابن عباس: فلقى عمرو بن أمية رجلين من بني كلاب معهما أمان، ولم يعلم به، فقتلهما. (حاشية الكشف ١/٦١٤). و«الختان»: عثمان وعلي رضي الله عنهما زوجا ابنتي رسول الله ﷺ.

لَيْنَ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَحُفُّونَ أَلْكَامَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ

لا بتدائك بالشرط الداخل عليه اللام الموطئة للقسم، وهو: ﴿لَيْنَ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ وكاننا فريضتين عليهم ﴿وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ من غير تفريق بين أحدٍ منهم ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ وعظمتموهم، أو نصرتموهم بأن تردوا عنهم أعداءهم. والعزr في اللغة: الرد. ويقال: عزرت فلاناً، أي: أدبته، يعني: فعلت به ما يردعه عن القبيح، كذا قاله الزجاج ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا مَنْ، وقيل: هو كل خير ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ اللام جواب للقسم، وهذا الجواب ساد مسد جواب القسم والشرط جميعاً ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ أي: بعد ذلك الشرط المؤكد المتعلق بالوعد العظيم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأ طريق الحق، نعم مَنْ كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل أيضاً، ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم.

١٣- ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ «ما» مزيدة لإفادة تفخيم الأمر ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ طردناهم، وأخرجناهم من رحمتنا، أو مسخناهم، أو ضربنا عليهم الجزية ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً﴾ يابسة لا رحمة فيها، ولا لين. ﴿قَلْسِيَةً﴾: حمزة، وعلي، أي: رديئة من قولهم: درهم قسي، أي: رديء ﴿يَحُفُّونَ أَلْكَامَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ يُفسرونه على غير ما أنزل. وهو بيان لقسوة قلوبهم؛ لأنه لا قسوة أشد من الافتراء على الله، وتغيير وحيه ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ وتركوا نصيباً جزيلاً، وقسطاً وافياً ﴿وَمِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من التوراة. يعني: أن تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم. أو: قست قلوبهم، وفسدت، فحرفوا التوراة، وزلت أشياء منها عن حفظهم. عن ابن مسعود - رضي الله

وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا
 حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
 وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٧﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ

عنه -: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية، وتلا هذه الآية. أو: تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ، وبيان نعته ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد ﴿تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي: هذه عاداتهم، وكان عليها أسلافهم، كانوا يخونون الرسل، وهؤلاء يخونونك، ويهمون بالفتك بك. وقوله: ﴿عَلَى خَائِنَةٍ﴾ أي: على خيانة، أو: على فعلة ذات خيانة، أو: على نفس، أو: فرقة خائنة. ويقال: رجل خائنة، كقولهم: رجل راوية للشعر، للمبالغة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا منهم ﴿فَأَعْفُ عَنْهُمْ﴾ بعث على مخالفتهم، أو فاعف عن مؤمنهم، ولا تؤاخذهم بما سلف منهم ﴿وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

١٤ - و«مِنْ» في قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ﴾ وهو الإيمان بالله، والرسل، وأفعال الخير. يتعلق بأخذنا، أي: وأخذنا من الذين قالوا: إنا نصارى ميثاقهم. فقدم الفعل على الجار والمجرور، وفصل بين الفعل والواو بالجار والمجرور. وإنما لم يقل من النصارى؛ لأنهم إنما سمّوا أنفسهم بذلك ادعاء لنصر الله، وهم الذين قالوا لعيسى: ﴿نحن أنصار الله﴾ ثم اختلفوا بعد نسطورية، ويعقوبية، وملكانية أنصاراً للشيطان ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا﴾ فالصقنا، والزمنا، من غرى بالشيء: إذا لزمه، ولصق به: ومنه: الغراء؛ الذي يلصق به ﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾ بين فرق النصارى المختلفين ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ بالأهواء المختلفة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي: في القيامة بالجزاء والعقاب.

١٥ - ﴿يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ خطاب لليهود والنصارى، والكتاب للجنس.

قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ من نحو صفة رسول الله ﷺ، ومن نحوه الرجم ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يبينه. أو: يعفو عن كثير منكم لا يؤاخذه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولإبانتها ما كان خافياً على الناس من الحق، أو: لأنه ظاهر الإعجاز. أو: النور: محمد ﷺ؛ لأنه يهتدى به، كما سُمِّي: سراجاً.

١٦ - ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمْ﴾ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلامة والنجاة من عذاب الله، أو: سبل الله. فالسلام: السلامة، أو الله ﴿وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ﴿بِإِذْنِهِ﴾ [بإرادته، وتوفيقه] ^(١) ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

١٧ - ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ معناه: بَتَّ القول على أنَّ الله هو المسيح لا غير. قيل: كان في النصارى قوم يقولون ذلك، أو: لأن مذهبهم يؤدي إليه حيث اعتقدوا: أنه يخلق، ويحيي، ويميت ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنع من قدرته ومشيته شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: إن أراد أن

(١) ما بين حاصرتين من المطبوع.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يهلك من دعوه إلهاً من المسيح وأمه، يعني: إِنَّ المسيح عبدٌ مخلوق من كسائر العباد. وعطف «مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» عَلَى الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ إِبَانَةً أَنَّهُمَا مِنْ جِنْسِهِمْ، لَا تَفَاوُتَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُمْ. والمعنى: أَنَّ مَنْ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ رَحِمِ الْأُمُومَةِ مَتَى يَفَارِقُهُ نَقْصُ الْبَشَرِيَّةِ؟ وَمَنْ لَاحِثٌ عَلَيْهِ شَوَاهِدُ الْحَدِيثَةِ أَنِّي يَلِيقُ بِهِ نَعْتُ الرِّبَوِيَّةِ؟ وَلَوْ قَطَعَ الْبَقَاءُ عَنْ جَمِيعٍ مَا أَوْجَدَ لَمْ يَعُدْ نَقْصٌ إِلَى الصَّمَدِيَّةِ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَي: يَخْلُقُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَيَخْلُقُ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ كَمَا خَلَقَ عِيسَى، [وَيَخْلُقُ مِنْ ذَكَرٍ مِنْ غَيْرِ أُنْثَى كَمَا خَلَقَ حَوَاءَ مِنْ آدَمَ] ^(١) وَيَخْلُقُ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَأُنْثَى كَمَا خَلَقَ آدَمَ. أَوْ: يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ كَخَلْقِ الطَّيْرِ عَلَى يَدِ عِيسَى مُعْجِزَةً لَهُ، فَلَا عِتْرَاضَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الْفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٨ - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ أَي: أَعَزَّةٌ عَلَيْهِ كَالْأَبْنَاءِ عَلَى الْأَبِّ، أَوْ: أَشْيَاعُ ابْنِي اللَّهِ: عَزِيزٌ، وَالْمَسِيحُ، كَمَا قِيلَ لِأَشْيَاعِ أَبِي خَبِيبٍ - وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ -: الْخَبِيبِيُّونَ، وَكَمَا يَقُولُ رَهْطُ مَسِيلِمَةَ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ، وَيَقُولُ أَقْرَبَاءُ الْمَلِكِ وَحَشَمُهُ: نَحْنُ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ، أَوْ: نَحْنُ أَبْنَاءُ رَسْلِ اللَّهِ ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أَي: فَإِنْ صَحَّ أَنَّكُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، فَلِمَ تَعَذِّبُونَ بِذُنُوبِكُمْ بِالْمَسْخِ وَالنَّارِ أَيَّاماً مَعْدُودَةً عَلَى زَعْمِكُمْ؟ وَهَلْ يَمْسُخُ الْأَبُّ وَلَدَهُ؟ وَهَلْ يُعَذِّبُ الْوَالِدُ وَلَدَهُ بِالنَّارِ؟ ثُمَّ قَالَ رَدّاً عَلَيْهِمْ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أَي: أَنْتُمْ خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ، لَا بَنُوهُ ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ لِمَنْ تَابَ عَنِ الْكُفْرِ، فَضْلاً ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ مَنْ مَاتَ عَلَيْهِ عَدَلاً ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فِيهِ تَنْبِيهٌُ عَلَى عِبُودِيَّةِ الْمَسِيحِ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ وَالْبَنُوَّةَ مُتَنَافِيَانِ.

يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ فَدَجَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَرَقٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَالًا تَبْتَغُونَ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُورُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ

١٩ - ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ فَدَجَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أي: الشرائع. وحذف لظهوره. أو: ما كنتم تخفون. وحذف لتقدم ذكره، أو: لا يقدر المبين، ويكون المعنى: يبذل لكم البيان. وهو حال، أي: مبيناً لكم ﴿عَلَى فَرَقٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ متعلق بـ «جاءكم»، أي: جاءكم على حين فتورٍ من إرسال الرسل، وانقطاع من الوحي. وكان بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستمئة سنة، أو خمسمئة سنة وستون سنة. ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ «مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ» والفاء في: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ متعلق بمحذوف، أي: لا تعتذروا فقد جاءكم ﴿بَشِيرٌ﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرٌ﴾ للكافرين. والمعنى: الامتنان عليهم بأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي، أحوج ما يكونون إليه، ليهشوا إليه، ويعدوه أعظم نعمة من الله، وتلزمهم الحجة، فلا يَعتَلُوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من يُنبئهم من غفلتهم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على إرسال محمد ﷺ ضرورة.

٢٠ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ لأنه لم يبعث في أمة ما بعث بني إسرائيل من الأنبياء ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ لأنه ملكهم بعد فرعون ملكه، وبعد الجبابرة ملكهم، ولأن الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء. وقيل: الملك: من له مسكن واسع فيه ماء جار، وكانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية. وقيل: من له بيت وخدم. ولأنهم كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله، فسمي إنقاذهم ملكاً ﴿وَأَتَاكُمْ مَالًا تَبْتَغُونَ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ من فلق البحر، وإغراق العدو، وإنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام، ونحو ذلك من الأمور العظام. أو: أراد عالمي زمانهم.

٢١ - ﴿يَنْقُورُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة، أو المباركة، وهي:

الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِنَّ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

أرض بيت المقدس، أو الشام ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قسمها لكم، أو: سمّاها، أو: كتب في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا ترجعوا على أعقابكم مدبرين، منهزمين، منخوف الجبارة جبناً. أو؛ لا ترتدوا على أدباركم في دينكم ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة.

٢٢ - ﴿قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ الجبّار فعال: من: جبره على الأمر بمعنى: أجبره عليه. وهو: العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد ﴿وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا﴾ بالقتال ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بغير قتال ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بلا قتال ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ بلادهم حينئذ.

٢٣ - ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالب، ويوشع. ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله ويخشونه. كأنه قيل: رجلان من المتقين. وهو في محل الرفع صفة لرجلان، وكذا: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالخوف منه ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي: باب المدينة ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: انهزموا، وكانت الغلبة لكم، وإنما علما ذلك بإخبار موسى عليه السلام ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ إذ الإيمان به يقتضي التوكل عليه، وهو: قطع العلائق، وترك التملق للخلائق.

٢٤ - ﴿قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا﴾ هذا نفي لدخولهم في المستقبل على وجه التوكيد ﴿أَبَدًا﴾ تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاوّل ﴿مَا دَامُوا فِيهَا﴾ بيان للأبد ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ من العلماء من حمّله على الظاهر، وقال: إنه كفر منهم. وليس كذلك، إذ لو قالوا ذلك اعتقاداً، وكفروا به لحاربهم موسى، ولم تكن مقاتلة الجبارين أولى من مقاتلة هؤلاء. ولكن الوجه فيه أن يقال: ﴿فاذهب أنت وربك﴾ يعينك على قتالك. أو: ﴿وربك﴾ أي: وسيدك، وهو

فَقَتَلْنَا إِيَّاهُمَا فَتَعِدُوكَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ
فِي الْأَرْضِ

أخوك الأكبر هارون أو: لم يرد به حقيقة الذهاب، ولكن كما تقول: كلّمته
فذهب يُجيبني، تريد: معنى الإرادة، كأنهم قالوا: أريدنا قتالهم ﴿فَقَتَلْنَا إِيَّاهُمَا
هَهُنَا فَتَعِدُوكَ﴾ ماكنون، لا نقاتلهم لنصرة دينكم. فلما عصوه وخالفوه:

٢٥ - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ﴾ لنصرة دينك ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ وهو منصوب
بالعطف على «نفسي» أو: على اسم إن. أي: إني لا أملك إلا نفسي، وإن
أخي لا يملك إلا نفسه. أو: مرفوع بالعطف على محل إن واسمها، أو: على
الضمير في ﴿لَا أَمْلِكُ﴾ وجاز للفصل، أي: ولا يملك أخي إلا نفسه. أو:
هو مبتدأ، والخبر محذوف، أي: وأخي كذلك. وهذا من البث والشكوى إلى
الله، ورقة القلب التي يمثلها تُستجلب الرحمة، وتُستنزى النصره. وكأنه لم يثق
بالرجلين المذكورين كلّ الوثوق، فلم يذكر إلا النبي المعصوم. أو: أراد:
وَمَنْ يُوَافِقُنِي عَلَى دِينِي ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فافصل بيننا
وبينهم، بأن تحكم لنا بما هم أهل. وهو في معنى الدعاء عليهم. أو: فباعدنا
بيننا وبينهم، وخلصنا من صحبتهم، كقوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
[التحریم: ١١].

٢٦ - ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي: الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها،
وهو تحریم منع، لا تحریم تعبد، كقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾
[القصص: ١٢]. والمراد بقوله ﴿كتب الله لكم﴾ أي: بشرط أن تجاهدوا
أهلها، فلما أبوا الجهاد قيل: ﴿فإنها محرمة عليهم﴾. أو: المراد فإنها محرمة
عليهم ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فإذا مضى الأربعون كان ما كتب، فقد سار موسى عليه
السلام بمن بقي من بني إسرائيل، وكان يوشع على مقدمته ففتحها، وأقام فيها
ما شاء الله، ثم قُبِضَ. و﴿أربعين﴾ ظرف التحريم. والوقف على «سنة» أو:
ظرف ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يسرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً
أربعين سنة. والوقف على ﴿عليهم﴾. وإنما عُوِّقُوا بالحبس لاختيارهم

فَلَا تَأْسَ عَلَى الْفَوْرِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

المكث، فكانوا مع شدة سيرهم يصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا في سِتَّةِ فراسخ. ولما ندم على الدعاء عليهم قيل له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْفَوْرِ الْفَاسِقِينَ﴾ فلا تحزن عليهم؛ لأنهم فاسقون. قيل: لم يكن موسى وهارون معهم في التيه؛ لأنه كان عقاباً، وقد سأل موسى ربه أنه يفرق بينهما وبينهم. وقيل: كانا معهم إلا أنه كان ذلك رَوْحاً لهما، وسلاماً لا عقوبة. ومات هارون في التيه، وموسى فيه بعده بسنة. ومات النقباء في التيه إلا كالب ويوشع.

٢٧ - ثم أمر الله تعالى محمداً ﷺ أن يقصَّ على حاسديه ما جرى بسبب الحسد ليركوه ويؤمنوا، بقوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾: على أهل الكتاب ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ من صلبه هابيل وقابيل، أو: هما رجلان من بني إسرائيل ﴿بِالْحَقِّ﴾ نَبَأٌ ملتبساً بالصدق، موافقاً لما في كتب الأولين. أو: تلاوة ملتبسة بالصدق، والصحة. أو: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وأنت محق صادق ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ نصب بالنبأ، أي: قصتهما وحديثهما في ذلك الوقت، أو: بدل من النبأ، أي: اتل عليهم النبأ نَبَأٌ ذلك الوقت، على تقدير: حذف المضاف ﴿قُرْبَانًا﴾ ما يتقرب به إلى الله من نسكة، أو صدقة. يقال: قَرَّبَ صدقة، وتقرب بها؛ لأن تقرب مطاوع قرب. والمعنى: إذ قَرَّبَ كل واحد منهما قربانه، دليله: ﴿فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه، وهو: هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ قربانه وهو قابيل. روي: أنه أوحى الله تعالى إلى آدم أن يزوّج كلَّ واحدٍ منهما توأمة الآخر. وكانت توأمة قابيل أجمل، واسمها: إقليما، فحسده عليها أخوه، وسخط. فقال لهما آدم: قَرَّبَا قرباناً، فمن أيكما قبل يتزوجها. فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فازداد قابيل حسداً، وسخطاً، وتوعده بالقتل ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي: قال لهابيل ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وتقديره: قال: لم تقتلني؟ قال: لأن الله قبل قربانك، ولم يقبل قرباني! فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وأنت غير

لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِإِيْمِي وَإِيْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
 الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾
 فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَ أَخِيهِ

متق، فإنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي.
 وعن عامر بن عبد الله: أنه بكى حين حضرته الوفاة، فقيل له: ما يبكيك
 وقد كنتَ وكنتَ؟ قال: إني أسمع الله يقول: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

٢٨ - ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ﴾ مددت ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ بماد ﴿يَدِيَ﴾
 مدني، وأبو عمرو، وحفص ﴿لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: كان
 أقوى من القاتل، وأبطش منه، ولكن تحرّج عن قتل أخيه، واستسلم له خوفاً
 من الله تعالى؛ لأن الدفع لم يكن مباحاً في ذلك الوقت. وقيل: بل كان ذلك
 واجباً، فإن فيه إهلاك نفسه، ومشاركة للقاتل في إثمه. وإنما معناه: ما أنا
 بباسط يدي إليك مبتدئاً، كقصده ذلك مني. وكان هابيل عازماً على مدافعته
 إذا قصد قتله، وإنما قتله فتكاً على غفلة منه. ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ حجازي، وأبو
 عمرو.

٢٩ - ﴿إِنِّي أُرِيدُ﴾ ﴿إِنِّي﴾ مدني ﴿أَنْ تَبْشُرَ﴾ أن تحتمل، أو: ترجع
 ﴿بِإِيْمِي﴾ بإثم قتلي إذا قتلتني ﴿وَإِيْمِكَ﴾ الذي لأجله لم يتقبل قربانك. وهو:
 عقوق الأب، والحسد، والحقْد. وإنما أراد ذلك لكفرة برّده قضية الله تعالى،
 أو: كان ظالماً، وجزاء الظالم جائر أن يراد ﴿فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
 الظَّالِمِينَ﴾.

٣٠ - ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فوسّعت ويسرته، من: طاع له المرتع:
 إذا اتسع ﴿فَقَتَلَهُ﴾ عند عقبة حراء، أو بالبصرة، والمقتول ابن عشرين سنة
 ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

٣١ - ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ﴾ أي: الله، أو: الغراب.
 ﴿كَيْفَ يُورِى سَوْءَ أَخِيهِ﴾ عورة أخيه، وما لا يجوز أن ينكشف من جسده.

قَالَ يَوَيْلَیْٓ اَعَجَزْتُ اَنْ اَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِیْ سَوَءَۃً اٰخِیْٓ فَاصْبَحَ مِنْ
النَّٰدِمِیْنَ ﴿٣١﴾ مِنْ اَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلٰی بَنِیْٓ اِسْرَءٰیْلَ اَنْهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَیْرِ
نَفْسٍ اَوْ فَسَادٍ فِی الْاَرْضِ فَكَانَمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِیْعًا وَمَنْ اَحْيَاہَا
فَكَانَمَا اَحْيَا النَّاسَ جَمِیْعًا

روي: أنه أول قتيل قُتِلَ على وجه الأرض من بني آدم. ولما قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، فخاف عليه السباع، فحمله في جراب على ظهره سنة حتى أروّح، وعكفت عليه السباع. فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة، فحينئذ ﴿قَالَ يَوَيْلَیْٓ اَعَجَزْتُ اَنْ اَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِیْ﴾ عطف على: أكون ﴿سَوَءَۃً اٰخِیْٓ فَاصْبَحَ مِنْ النَّادِمِیْنَ﴾ على قتله، لما تعب فيه من حمله، وتحيره في أمره، ولم يندم ندم التائبين. أو: كان الندم توبة لنا خاصة. أو: على حمله لا على قتله. ورُوي: أنه لما قتله اسودَّ جسده، وكان أبيض، فسأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلًا، فقال: بل قتلته، ولذا اسودَّ جسدك. فالسودان من ولده. وما رُوي أن آدم رثاه بشعر فلا يصحُّ؛ لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر.

٣٢ - ﴿مِنْ اَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ بسبب ذلك، وبعلمته. و«ذلك» إشارة إلى القتل المذكور. قيل هو متصل بالآية الأولى، فيوقف على ذلك، أي: ﴿فَاصْبَحَ مِنْ النَّادِمِیْنَ﴾ لأجل حمله، ولأجل قتله. وقيل: هو مستأنف، والوقف على ﴿النَّادِمِیْنَ﴾ و﴿مَنْ﴾ يتعلّق بكتبنا، لا بالنادمين ﴿كَتَبْنَا عَلٰی بَنِیْٓ اِسْرَءٰیْلَ﴾ خصّهم بالذكر وإن اشترك الكلُّ في ذلك؛ لأن التوراة أول كتاب فيه الأحكام ﴿اَنْهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا﴾ الضمير للشأن، و«مَنْ» شرطية ﴿بِغَیْرِ نَفْسٍ﴾ بغير قتل نفس ﴿اَوْ فَسَادٍ فِی الْاَرْضِ﴾ عطف على نفس، أي: بغير فساد في الأرض. وهو: الشرك، أو قطع الطريق، أو كل فساد يُوجِبُ القتل ﴿فَكَانَمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِیْعًا﴾ أي: في الذنب، عن الحسن؛ لأنَّ قاتل النفس جزاؤه جهنم، وغضب الله عليه، والعذاب العظيم، ولو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك ﴿وَمَنْ اَحْيَاہَا﴾ ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة من: قتل، أو غرق، أو حرق، أو هدم، أو غير ذلك ﴿فَكَانَمَا اَحْيَا النَّاسَ جَمِیْعًا﴾ جعل قتل

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ

الواحد كقتل الجميع، وكذلك الإحياء ترغيباً وترهيباً؛ لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور أن قتلها كقتل الناس جميعاً عظم ذلك عليه، فثبطه. وكذا الذي أراد إحياءها إذا تصور أن حكمه كحكم إحياء جميع الناس، رغب في إحيائها ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿رُسُلُنَا﴾ ﴿رُسُلُنَا﴾: أبو عمرو ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالآيات الواضحات. ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد ما كتبنا عليهم، أو: بعد مجيء الرسل بالآيات. ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ في القتل، لا يبالون بعظمته.

٣٣- ﴿إِنَّمَا جَزَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: أولياء الله. في الحديث: «يقول الله تعالى: من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»^(١) ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مفسدين، ويجوز أن يكون مفعولاً له، أي: للفساد. وخبر «جزاء» ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ وما عطف عليه. وأفاد التشديد الواحد بعد الواحد. ومعناه: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ من غير صلب إن أفردوا القتل ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ مع القتل إن جمعوا بين القتل وأخذ المال ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ إن أخذوا المال ﴿مِّنْ خَلْفٍ﴾ حال من الأيدي والأرجل، أي: مختلفة ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ بالحبس إذا لم يزدوا على الإخافة ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا﴾ ذل، وفضيحة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٣٤- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ فتسقط عنهم هذه الحدود،

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) بلفظ: «مَنْ عَادَى اللَّهَ وَلِيًّا، فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ».

فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا
إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ
مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ
بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٨﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا

لا ما هو حق العباد ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم بالتوبة،
ويرحمهم فلا يعذبهم.

٣٥ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تؤذوا عباد الله ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ
الْوَسِيلَةَ﴾ هي: كل ما يتوسل به، أي: يتقرب من قرابة، أو صنعة، أو غير
ذلك. فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات، وترك
السيئات ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٣٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من صنوف الأموال
﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ وأنفقوه ﴿لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم. و«لو» مع
ما في حيزه خبر: «إِنَّ». و«وحد الراجع في» ليفتدوا به. وقد ذكر شيثان؛ لأنه
أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة؛ كأنه قيل: ليفتدوا بذلك ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فلا سبيل لهم إلى النجاة بوجه.

٣٧ - ﴿يُرِيدُونَ﴾ يطلبون، أو يتمنون ﴿أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ
مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ دائم.

٣٨ - ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ ارتفعوا بالابتداء، والخبر محذوف تقديره: ﴿و﴾
فيما يتلى عليكم ﴿السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾. أو: الخبر ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أي:
يديهما. والمراد: اليمينان، بدليل قراءة عبد الله بن مسعود. ودخول الفاء
لتضمنهما معنى الشرط؛ لأنَّ المعنى: والذي سرق، والتي سرقت ﴿فَاقْطَعُوا
أَيْدِيَهُمَا﴾ والاسم الموصول يضمن معنى الشرط. وبدأ بالرجل لأن السرقة من
الجرأة، وهي في الرجال أكثر. وأخر الزاني لأن الزنى ينبعث من الشهوة،
وهي في النساء أوفر. وقطعت اليد لأنها آلة السرقة، ولم تقطع آلة الزنى تفادياً

جَزَاءُ بِمَا كَسَبَ أَنْكَلَا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ مَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمِعُوا

عن قطع النسل ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَ﴾ مفعول له ﴿أَنْكَلَا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: عقوبة منه. وهو بدل من جزاء ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب، لا يعارض في حكمه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم من قطع يد السارق والسارقة.

٣٩ - ﴿مَن تَابَ﴾ من الشَّرَاق ﴿مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ سرقة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ برَدَّ المسروق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ يقبل توبته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنبه، ويرحمه.

٤٠ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد، أو: يا مخاطب ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ مَن مات على الكفر ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ لمن تاب عن الكفر ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من التعذيب، والمغفرة، وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر. وقَدَّمَ التعذيب على المغفرة هنا لتقدم السرقة على التوبة.

٤١ - ﴿يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: لا تهتم، ولا تبال بمسارعة المنافقين في الكفر، أي: في إظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام، ومن موالاته المشركين، فإني ناصرك عليهم، وكافيك شرهم. يقال: أسرع فيه الشيب، أي: وقع فيه سريعاً، فكذلك مسارعتهم في الكفر وقوعهم فيه أسرع شيء، إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ الذين يسارعون في الكفر ﴿آمَنَّا﴾ مفعول ﴿قَالُوا﴾ ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ متعلق بقالوا، أي: قالوا بأفواههم آمنا ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ في محل النصب على الحال ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ معطوف على ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ أي: من المنافقين واليهود. ويرتفع ﴿سَمِعُوا﴾

لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِكَلِمَةٍ مِنْ بَعْدِ
مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ
فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ
قُلُوبَهُمْ فِي الدُّنْيَا

لِلْكَذِبِ ﴿ على أنه خبر مبتدأ مضمر، أي: هم سماعون. والضمير
للفريقين. أو: ﴿سماعون﴾ مبتدأ، وخبره ﴿من الذين هادوا﴾. وعلى هذا
يوقف على «قلوبهم» وعلى الأول على «هادوا» ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾
يسمعون منك ليكذبوا عليك بأن يمسخوا ما سمعوا منك بالزيادة، والنقصان،
والتبديل، والتغيير ﴿سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ﴾ أي: سماعون منك
لأجل قوم آخرين من اليهود وجهوهم عيوناً؛ ليلغوهم ما سمعوا منك
﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: يزيلونه، ويميلونه عن مواضعه التي
وضعه الله فيها، فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا موضع. ﴿يحرفون﴾ صفة
لقوم، كقوله: ﴿لم يأتوك﴾. أو: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم يحرفون.
والضمير مردودٌ على لفظ الكلم ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ المحرف المزال عن
مواضعه. و﴿يقولون﴾ مثل ﴿يحرفون﴾. وجاز أن يكون حالاً من الضمير في
﴿يحرفون﴾ ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاعلموا أنه الحق، واعملوا به ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾
وأفتاكم محمد بخلافه ﴿فَاحْذَرُوا﴾ فإياكم وإياه، فهو الباطل. روي: أن شريفاً
زنى بشريفة بخير، وهما محصنان، وحُذِّمَما الرجم في التوراة، فكرها
رجمهما لشرفهما، فبعثوا رهطاً منهم ليسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، وقالوا:
إِنْ أَمَرَكُم بِالْجُلْدِ وَالتَّحْمِيمِ^(١) فاقبلوا، وَإِنْ أَمَرَكُم بِالرَّجْمِ فَلَا تَقْبَلُوا، فَأَمَرَهُم
بِالرَّجْمِ، فَأَبَوْا أَنْ يَأْخُذُوا بِهِ ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ ضلاله. وهو حُجَّةٌ على من
يقول: يريد الله الإيمان، ولا يريد الكفر ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ قطع
رجاء محمد ﷺ عن إيمان هؤلاء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾
عن الكفر لعلمه منهم اختيار الكفر. وهو حُجَّةٌ لنا عليهم أيضاً ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا

(١) «التحميم»: تسويد الوجه.

خَزِيٍّ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمِعْتُمْ لَكَذِبٍ أَكَلْتُمُونَ لِلشَّحْتِ
فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ
حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ
الْتَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

خَزِيٍّ ﴿للمنافقين فضيحة، ولليهود خزية﴾ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿أي: التَّخْلِيدُ فِي النَّارِ﴾.

٤٢ - ﴿سَمِعْتُمْ لَكَذِبٍ﴾ كَرَّرَ للتأكيد، أي: هم سماعون، ومثله: ﴿أَكَلْتُمُونَ لِلشَّحْتِ﴾ وهو كل ما لا يحلُّ كسبه. وهو من: سحته: إذا استأصله؛ لأنه مسحوتُ البركة. وفي الحديث هو «الرشوة في الحكم»^(١). وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام. وبالتثقيـل^(٢): مكى، وبصري، وعلي ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾ قيل: كان رسول الله ﷺ مخيراً إذا تحالكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم وبين ألا يحكم بينهم. وقيل: نسخ التخيير بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ فلن يقدروا على الإضرار بك؛ لأنَّ الله تعالى يعصمك من الناس ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين.

٤٣ - ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، مع أنَّ الحكمَ منصوصٌ في كتابهم الذي يدعون الإيمان به. ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ حال من ﴿التَّوْرَةِ﴾. وهي مبتدأ، وخبره ﴿عِنْدَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عطف على ﴿يُحْكِمُكَ﴾. أي: ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم، لا يرضون به ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بك، أو بكتابهم كما يدعون.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣ / ٨١).

(٢) أي قراءة: ﴿لِلشَّحْتِ﴾.

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا
تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ

٤٤ - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى﴾ يهدي للحق ﴿وَنُورٌ﴾ يبين ما استبهم
من الأحكام ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ انقادوا لحكم الله في التوراة.
وهو صفةٌ أجريثٌ للنبيين على سبيل المدح. وأريد بإجرائها التعريض باليهود؛
لأنهم بعداء من ملة الإسلام؛ التي هي دينُ الأنبياء كلهم ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ تابعوا
من الكفر. واللام يتعلّق بـيحكم ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ معطوفان على
«النبيون»، أي: الزهاد والعلماء ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾ استودعوا. قيل: ويجوز أن
يكون بدلاً من بها في ﴿يَحْكُمُ بِهَا﴾ ﴿مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ من التبيين والضمير في
﴿استحفظوا﴾ للأنبياء، والرّبانين، والأخبار جميعاً، ويكون الاستحفاظ من
الله، أي: كلفهم الله حفظه. أو: لـ «الرّبانين والأخبار» ويكون الاستحفاظ
من الأنبياء ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ رقباء لئلا يبدل ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ﴾
نهى للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم، وإمضائها على خلاف ما أمروا
به من العدل خشية سلطان ظالم، أو خيفة أذية أحد ﴿وَأَخْشَوُا﴾ في مخالفة
أمري، وبالباء فيهما^(١) سهل. وافقه أبو عمرو في الوصل ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾
ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو الرشوة، وابتغاء الجاه،
ورضا الناس ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مستهيناً به ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾
قال ابن عباس - رضي الله عنه -: من لم يحكم جاحداً فهو كافر، وإن لم يكن
جاحداً فهو فاسق ظالم. وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: هو عام في اليهود
وغيرهم.

٤٥ - ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ وفرضنا على اليهود في التوراة ﴿أَنْ النَّفْسَ﴾

(١) قوله: «فيهما» أي: في حالي الوقف والوصل.

يَا نَفْسِ وَالْعَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَنِ وَالْجُرُوحِ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ

مأخوذة ﴿يَا نَفْسِ﴾ مقتولة بها إذا قتلها بغير حق ﴿وَالْعَيْنِ﴾ مفقودة ﴿يَا نَفْسِ وَالْأَنْفِ﴾ مجدوع ﴿يَا نَفْسِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَنِ﴾ مقطوعة ﴿يَا نَفْسِ وَالْجُرُوحِ قِصَاصٌ﴾. أي: ذات قصاص، وهو: المقاصة. ومعناه: ما يمكن فيه القصاص. وإلا فحكومة عدل. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، فتزلت. وقوله: ﴿أَنْ نَفْسِ﴾ بالنفس يدلُّ على أن المسلم يُقتل بالذمي، والرجل بالمرأة، والحر بالعبد. نصب نافع وعاصم وحمزة المعطوفات كلها، للعطف على ما عملت فيه ﴿أَنْ﴾ ورفعها عليّ للعطف على محلّ «أن النفس»؛ لأنَّ المعنى: ﴿وكتبنا عليهم﴾ النفس بالنفس إجراء لكتبنا مجرى قلنا. ونصب الباقر الكل، ورفعوا ﴿الجروح﴾. و﴿الْأُذُنِ﴾ بسكون الذال حيث كان نافع والباقر بضمها. وهما لغتان كالسُحْتِ، والسُّحْتِ ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ﴾ من أصحاب الحق ﴿بِهِ﴾ بالقصاص، وعفا عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ فالتصدق به كفارة للمتصدق بإحسانه. قال ﷺ: «من تصدق بدم فما دونه كان كفارة له من يوم ولدته أمه»^(١) ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بالامتناع عن ذلك.

٤٦ - ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ معنى قفيت الشيء بالشيء: جعلته في أثره كأنه جعل في قفاه يقال: قفاه يقفوه: إذا اتبعه ﴿عَلَى آثَرِهِم﴾ على آثار النبيين الذين أسلموا ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا﴾ هو حال من عيسى ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ﴾ أي: ﴿وآتيناه الإنجيل﴾ ثابتاً ﴿فيه﴾ هدى ونور ومصداقاً. فنصب مصداقاً بالعطف على ثابت الذي تعلق به ﴿فيه﴾ وقام مقامه فيه. وارتفع ﴿هدى ونور﴾ بـ: ثابتاً؛ الذي قام مقامه ﴿فيه﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣ / ٩٢).

وَهْدَىٰ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ

﴿وَهْدَىٰ وَمَوْعِظَةً﴾ انتصبا على الحال، أي: هادياً وواعظاً ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم ينتفعون به.

٤٧ - ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ وقلنا لهم: احكموا بموجبه، فاللام: لام الأمر، وأصله الكسر، وإنما سكن استثقلاً لفتحة وكسرة وفتحة. ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾: بكسر اللام وفتح الميم: حمزة، على أنها لام كي، أي: وقفنا ليؤمنوا، وليحكم ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة.

قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: يجوز أن يحمل على الجحود في الثلاث، فيكون: كافراً، ظالماً، فاسقاً؛ لأن الفاسق المطلق، والظالم المطلق هو الكافر. وقيل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فهو كافر بنعمة الله، ظالم في حكمه، فاسق في فعله.

٤٨ - ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن. فَحَرَفُ التعريف فيه للعهد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بسبب الحق، وإثباته، وتبيين الصواب من الخطأ ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من الكتاب ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدمه نزولاً. وإنما قيل لما قبل الشيء: هو بين يديه؛ لأن ما تأخر عنه يكون وراءه وخلفه، فما تقدم عليه يكون قدامه، وبين يديه ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ المراد به جنس الكتب المنزلة؛ لأنَّ القرآن مصدق لجميع كتب الله، فكان حَرَفُ التعريف فيه للجنس. ومعنى تصديقه الكتب: موافقتها في التوحيد والعبادة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ وشاهداً؛ لأنه يشهد له بالصحة، والثبات ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: بما في القرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ نهي أن يحكم بما حَرَفُوه، وبدلوه اعتماداً على قولهم. ضُمِّنْ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ معنى: ولا تنحرف؛ فلذا عدِّي بعن، فكأنه قيل:

لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَآءِ اتَّكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرْبُّهُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ

ولا تنحرف ﴿عما جاءك من الحق﴾ متبعا أهواءهم. أو: التقدير: عادلا ﴿عما جاءك﴾ ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ وطريقا واضحا. واستدل به من قال: إن شريعة من قبلنا لا تلزمنا. ذكر الله إنزال التوراة على موسى عليه السلام، ثم إنزال الإنجيل على عيسى عليه السلام، ثم إنزال القرآن على محمد ﷺ، وبين أنه ليس للسمع فحسب، بل للحكم به. فقال في الأول: ﴿يحكم بها النبيون﴾، وفي الثاني: ﴿وليحكم أهل الإنجيل﴾، وفي الثالث: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة متفقة على شريعة واحدة ﴿وَلَكِنْ﴾ أراد ﴿لِنَبْلُوَكُمْ﴾ ليعاملكم معاملة المختبر ﴿فِي مَآءِ اتَّكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة، فتعبد كل أمة بما اقتضته الحكمة ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فابتدروها، وسابقوا نحوها قبل الفوات بالوفاة. والمراد بالخيرات: كل ما أمر الله تعالى به ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير المجرور. والعامل: المصدر المضاف؛ لأنه في تقدير: إليه ترجعون ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محققكم، ومبطلكم، وعاملكم، ومفترطكم في العمل.

٤٩ - ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ﴾ معطوف على ﴿بالحق﴾ أي: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، وبأن احكم ﴿بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ أي: يصرفوك، وهو مفعول له، أي: مخافة أن يفتنوك. وإنما حذره - وهو رسول مأمون - لقطع أطماع القوم ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الحكم بما أنزل الله إليك، وأرادوا غيره ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرْبُّهُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بذنب التولي عن حكم الله، وإرادة خلافه، فوضع ﴿ببعض ذنوبهم﴾ موضع ذلك. وهذا الإبهام لتعظيم التولي، وفيه تعظيم الذنوب، فإن بعضها مهلك،

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ

فكيف بكلها؟! ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ لخارجون عن أمر الله.

٥٠ - ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يطلبون. وبالتالي: شامي. يخاطب بني النضير في تفاضلهم على بني قريظة، وقد قال لهم رسول الله ﷺ: «القتلى سواء»^(١) فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك، فنزلت. وسئل طاووس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض، فقرأ هذه الآية. وناصب ﴿أفحكم الجاهلية﴾: ﴿يَبْغُونَ﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ مبتدأ وخبره. وهو استفهام في معنى النفي، أي: لا أحد أحسن ﴿مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ هو تمييز. ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ اللام للبيان، كاللام في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. أي: هذا الخطاب. وهذا الاستفهام ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فإنهم هم الذين يتبينون: أن لا أعدل من الله، ولا أحسن حكماً منه. وقال أبو علي: معنى ﴿لِقَوْمٍ﴾: عند قوم؛ لأن اللام و«عند» يتقاربان في المعنى.

٥١ - ونزل نهياً عن موالاته أعداء الدين: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم، وتستنصرونهم، وتؤاخونهم، وتعاشرונهم معاشرة المؤمنين. ثم علل النهي بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وكلهم أعداء المؤمنين. وفيه دليل على أن الكفر كله ملة واحدة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾ من جملتهم، وحكمه حكمهم. وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبته المخالف في الدين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بموالاته الكفرة.

٥٢ - ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق ﴿يُسْرِعُونَ﴾ حال، أو: مفعول ثان؛ لاحتمال أن يكون ﴿فترى﴾ من رؤية العين، أو القلب ﴿فِيهِمْ﴾ في

(١) قال ابن حجر: رواه ابن أبي شيبه من طريق الشعبي (حاشية الكشف ١/ ٦٤١).

يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۖ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۖ

معاونتهم على المسلمين، وموالاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: في أنفسهم، لقوله: ﴿على ما أسروا﴾ ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: حادثة تدور بالحال؛ التي يكونون عليها ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه، وإظهار المسلمين ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ أي: يؤمر النبي ﷺ بإظهار أسرار المنافقين، وقتلهم ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أي: المنافقون ﴿عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من النفاق ﴿تَدِيمِينَ﴾ خبر ﴿فَيُصْبِحُوا﴾.

٥٣ - ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يقول بعضهم لبعض عند ذلك. ﴿ويقول﴾ بصري عطفاً على ﴿أَنْ يَأْتِيَ﴾. ﴿يقول﴾ بغير واو شامي، وحجازي، على أنه جواب قائل يقول، فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ ف قيل: ﴿يقول الذين آمنوا﴾ ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: أقسموا لكم بأغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم، ومعاضدوكم على الكفار. و﴿جهد أيمانهم﴾ مصدر في تقدير الحال، أي: مجتهدين في تأكيد أيمانهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ضاعت أعمالهم التي عملوها رياء وسمعة، لا إيماناً وعقيدة. وهذا من قول الله - عز وجل - شهادة لهم بحبوط الأعمال، وتعجبياً من سوء حالهم ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ في الدنيا والعقبى لفوات المعونة، ودوام العقوبة.

٥٤ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى ما كان عليه من الكفر. (يرتدد): مدني، وشامي ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ يرضى عنهم أعمالهم، ويشي عليهم بها، ويطيعونه، ويؤثرون رضاه. وفيه دليل نبوته عليه الصلاة والسلام، حيث أخبرهم بما لم يكن فكان، وإثبات خلافة الصديق؛ لأنه جاهد المرتدين، وفي صحة خلافته وخلافة عمر - رضي الله عنهما -. وسئل النبي ﷺ عنهم، ف ضرب على عاتق

أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

سلمان وقال: «هذا وذووه. لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لناله رجالٌ من أبناء فارس»^(١). والراجعُ من الجزء إلى الاسم المتضمن لمعنى الشرط محذوف، معناه: «فسوف يأتي الله بقوم» مكانهم ﴿أَذَلَّةٌ﴾ جمع ذليل، وأما ذلول فجمعه: ذُلٌّ. ومن زعم أنه من الذِّل الذي هو ضد الصعوبة، فقد سها؛ لأنَّ ذلولاً لا يجمع على أذلة. قال الجوهرى: الذِّل ضد العز، ورجل ذليل: بين الذِّل. وقوم أذلاء، وأذلة. والذِّل - بالكسر -: اللين، وهو ضد الصعوبة، يقال: دابة ذلول، ودواب ذُلٌّ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: للمؤمنين؛ لتضمن الذل معنى الحنو والعطف، كأنه قيل: عاطفين عليهم، على وجه التذلل، التواضع ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أشداء عليهم. والعزاز: الأرض الصلبة. فهم مع المؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. ومع الكافرين كالسبع على فريسته ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقاتلون الكفار. وهو صفة لقوم ك: يحبهم، وأعزة، وأذلة ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ الواو يحتمل أن تكون للحال، أي: يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين، فإنهم كانوا موالين لليهود، فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم. وأما المؤمنون فمجاهدتهم لله لا يخافون لومة لائم. وأن تكون للعطف، أي: من صفتهم المجاهدة في سبيل الله، وهم صلاب في دينهم إذا شرعوا في أمرٍ من أمور الدين، لا تَزَعُهُمْ^(٢) لومة لائم. واللومة: المرة من اللوم. وفيها وفي التنكير مبالغتان، كأنه قيل: لا يخافون شيئاً قط من لوم واحدٍ من اللوام ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة، والذلة، والعزة، والمجاهدة، وانتفاء خوف اللومة ﴿فَضَّلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بمن هو من أهلها.

(١) قال ابنُ حجر: هو وهم، فإن هذا الكلام إنما ورد في آية الجمعة، وهو متفق عليه. وفي آية القتال، رواه الترمذي. (حاشية الكشاف ٦٤٦/١).

(٢) «لا تزعهم»: وَزَع: مَنَعَ وَزَجَرَ.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾
وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
لِنَخْذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

٥٥ - عقب النهي عن موالاة من تجب معاداتهم، ذكر من تجب موالاتهم بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ و﴿إِنَّمَا﴾ يفيد اختصاصهم بالموالاة. ولم يجمع الولي - وإن كان المذكور جماعة - تنبيهاً على أن الولاية لله أصل، ولغيره تبع. ولو قيل: إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع. ومحل ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الرفع على البدل من «الذين آمنوا»، أو: على «هم الذين» أو: النصب على المدح ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ والواو في: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ للحال، أي: يؤتونها في حال ركوعهم في الصلاة. قيل: إنها نزلت في علي - رضي الله عنه - حين سأل سائل وهو راکع في صلاته، فطرح له خاتمه، كأنه كان مرجأ^(١) في خنصره، فلم يتكلف لخلعه كثير عمل يفسد صلاته. وورد يلفظ الجمع، وإن كان السبب فيه واحداً ترغيباً للناس في مثل فعله لينالوا مثل ثوابه. والآية تدلُّ على جواز الصدقة في الصلاة، وعلى أنَّ الفعلَ القليلَ لا يفسد الصلاة.

٥٦ - ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يتخذه ولياً، أو يكن ولياً ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ من إقامة الظاهر مقام الضمير، أي: فإنهم هم الغالبون. أو: المراد بحزب الله: الرسول والمؤمنون، أي: ومن يتولهم فقد تولى حزب الله، واعتضد بمن لا يغالب. وأصل الحزب: القوم يجتمعون لأمرٍ حَزَبَهُم، أي: أصابهم.

٥٧ - رُوي أن رفاعه بن زيد، وسويد بن الحارث قد أظهرهما الإسلام، ثم نافقا، وكان رجالٌ من المسلمين يوادونهما، فنزل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا لِنَخْذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾. يعني: اتخاذهم دينكم هُزُوءاً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغضاء، والمنازعة ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا

(١) «مرجأ»: قال في اللسان: مَرَجَ الخاتم في إصبعي مَرَجاً، أي: قَلَقَ.

مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أُولِيَاءَ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ

الْكِتَابُ ﴿من﴾: للبيان ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ﴾ أي: المشركين. وهو عطف على ﴿الذين﴾ المنصوبة. و﴿الكفار﴾: بصري، وعلي، عطف على الذين المجرورة، أي: من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الكفار ﴿أُولِيَاءَ وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في موالاة الكفار ﴿إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقاً؛ لأن الإيمان حقاً يأبى موالاة أعداء الدين.

٥٨ - ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا﴾ أي: الصلاة أو: المنادة ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ ذلك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿لأنَّ لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة، فكأنهم لا عقل لهم. وفيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب، لا بالمنام وحده.﴾

٥٩ - ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: هل تعيبون منا، وتتكرون إلا الإيمان بالله، وبالكتب المنزل كلها؟! ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهو معطوف على المجرور، أي: ما تنقمون منا إلا الإيمان بالله، وما أنزل، وبأن أكثركم فاسقون. والمعنى: أعاديتمونا لأننا اعتقدنا توحيد الله، وصدق أنبيائه، وفسقكم لمخالفتكم لنا في ذلك؟! ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله، مع أنكم فاسقون.

٦٠ - ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ثواباً، وهو نصب على التمييز. والمثوبة وإن كانت مختصة بالإحسان، ولكنها وضعت موضع العقوبة، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وكان اليهود يزعمون أنَّ المسلمين مستوجبون للعقوبة، ف قيل لهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ شر عقوبة في الحقيقة من أهل الإسلام في زعمكم. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى المتقدم، أي:

وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن
 سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ
 لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

الإيمان، أي: بشرٌ مما نعمتم من إيماننا ثواباً، أي: جزاء. ولا بُدَّ مِنْ حَذْفِ
 مضاف قبله، أو قبل ﴿مَنْ﴾ تقديره: بشر من أهل ذلك، أو دينٌ مَنْ لعنه الله.
 ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ﴾ يعني: أصحاب السبت ﴿وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي: كفار
 أهل مائدة عيسى عليه السلام، أو كلا المسخين من أصحاب السبت، فشانهم
 مسخوا قرده، ومشايخهم مسخوا خنازير ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: العجل، أو
 الشيطان؛ لأن عبادتهم العجل بتزيين الشيطان. وهو عطف على صلة مَنْ،
 كأنه قيل: وَمَنْ عبد الطاغوت ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ حمزة، جعله اسماً موضوعاً
 للمبالغة، كقولهم: رجل حذر، وفطن، للبلغ في الحذر، والفطنة. وهو
 معطوف على القرده والخنازير، أي: جَعَلَ اللهُ مِنْهُمْ عبد الطاغوت ﴿أُولَئِكَ﴾
 الممسوخون؛ الملعونون ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ جعلت الشرارة للمكان، وهي لأهله
 للمبالغة. ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن قَصْدِ الطريق الموصل إلى الجنة.

٦١ - ونزل في ناس من اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ، ويظهرون له
 الإيمان نفاقاً: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ الباء للحال،
 أي: دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، وتقديره: ملتبسين بالكفر. وكذلك
 ﴿قَدْ دَخَلُوا﴾، ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا﴾ ولذا دخلت «قد» تقريباً للماضي من
 الحال. وهو متعلق بقالوا آمنا، أي: قالوا ذلك وهذه حالهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا
 يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق.

٦٢ - ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ الكذب ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾
 الظلم. أو: الإثم: ما يختصُّ بهم، والعدوان: ما يتعداهم إلى غيرهم.
 والمصارعة في الشيء: الشروع فيه بسرعة ﴿وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ﴾ الحرام ﴿لَيْتَسَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لبس شيئاً عملوه.

لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا

٦٣ - ﴿لَوْلَا﴾ هلاً، وهو تحضيض ﴿يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ هذا ذم للعلماء، والأول للعامّة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هي أشد آية في القرآن، حيث أنزل تارك النهي عن المنكر منزلة مرتكب المنكر في الوعيد.

٦٤ - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴿رُوي أَنَّ الْيَهُودَ - لعنهم الله - لما كذبوا محمداً عليه الصلاة والسلام كفَّ الله ما بسط عليهم من السعة، وكانوا من أكثر الناس مالا، فعند ذلك قال فنحاص: يد الله مغلولة، ورضي بقوله الآخرون، فأشركوا فيه. وغل اليد وبسطها: مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ولا يقصد المتكلم به إثبات يد، ولا غل، ولا بسط، حتى إنه يستعمله في ملك يعطي ويمنع بالإشارة من غير استعمال اليد، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزلاً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال! وقد استعمل حيث لا تصح اليد، يقال: بسط البأس كفيه في صدري، فجعل للبأس - الذي هو من المعاني - كفان. ومن لم ينظر في علم البيان يتحير في تأويل أمثال هذه الآية. وقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله. أو: تغل في جهنم، فهي كأنها غلت. وإنما ثبتت اليد في: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وهي مفردة في يد الله مغلولة؛ ليكون ردّ قولهم وإنكاره أبلغ، وأدل على إثبات غاية السخاء له، ونفي البخل عنه، فغاية ما يبذله السخي أن يعطيه بيديه ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد للوصف بالسخاء، ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة ﴿وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ اليهود ﴿مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: يزدادون عند نزول القرآن لحسد هم، تمادياً في الجحود، وكفراً بآيات الله. وهذا من إضافة الفعل إلى السبب، كما

وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ
وَسِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ
ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآ دَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ
أَرْجُلِهِمْ

قال: ﴿فَرَادَتْهُمْ رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فكلهم أبداً مختلف، وقلوبهم شتى، لا يقع بينهم اتفاق،
ولا تعاضد ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا
وقهروا، لم يبق لهم نصر من الله على أحد قط. وقد أتاهم الإسلام وهم في
ملك المجوس. وقيل: كلما حاربوا رسول الله ﷺ نصر عليهم. عن قتادة:
لا تلقى يهودياً في بلد إلا وقد وجدته من أذل الناس ﴿وَسِعُونَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا﴾ ويجهلون في دفع الإسلام، ومحو ذكر النبي عليه الصلاة والسلام
من كتبهم ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

٦٥ - ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا﴾ برسول الله ﷺ وبما جاء به مع ما عدنا
من سيئاتهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ أي: وقرنوا إيمانهم بالتقوى ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾
ولم نؤاخذهم بها ﴿وَلَآ دَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ مع المسلمين.

٦٦ - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: أقاموا أحكامهما، وحدودهما،
وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من سائر كتب الله؛
لأنهم مكلفون الإيمان بجميعها، فكانها أنزل إليهم. وقيل: هو القرآن
﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني: الثمار من فوق رؤوسهم ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾
يعني: الزروع. وهذه عبارة عن التوسعة، كقولهم: فلان في النعمة من
قرنه إلى قدمه. ودلت الآية على أن العمل بطاعة الله تعالى سبب لسعة
الرزق وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بُرْكَاتٍ مِنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٦٦] ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ الآيات

مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

[نوح: ١٠ وما بعدها] ﴿وَأَلِّوْا أَسْتَقِمُّوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ طائفة حالها أَمَمٌ^(١) في عداوة رسول الله ﷺ. قيل: هي الطائفة المؤمنة، وهم عبد الله بن سلام، وأصحابه، وثمانية وأربعون من النصارى ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ فيه معنى التعجب، كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم! وقيل: كعب بن الأشرف، وأصحابه، وغيرهم.

٦٧ - ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ جميع ما أنزل إليك، وأي شيء أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً، ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (رسالاته): مدني، وشامي، وأبو بكر. أي: فلم تبلغ إذا ما كُلِّفْتَ من أداء الرسالة، ولم تؤد منها شيئاً قط، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، فإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً. كما أنَّ مَنْ لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بأكملها، لكونها في حكم شيء واحد لدخولها تحت خطاب واحد. والشيء الواحد لا يكون مبلَّغاً غير مبلَّغ، مؤمناً به غير مؤمن. قالت الملحدة - لعنهم الله تعالى -: هذا كلام لا يفيد، وهو كقولك لغلامك: كل هذا الطعام، فإن لم تأكله فإنك ما أكلته. قلنا: هذا أمرٌ بتبليغ الرسالة في المستقبل، أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك في المستقبل، فإن لم تفعل، أي: إن لم تبلغ الرسالة في المستقبل، فكأنك لم تبلغ الرسالة أصلاً. أو: بلغ ما أنزل إليك من ربك الآن، ولا تنتظر به كثرة الشوكة والعُدَّة، فإن لم تبلغ كنت كمن لم يبلغ أصلاً. أو: بلغ ذلك غير خائف أحداً، فإن لم تبلغ على هذا الوصف، فكأنك لم تبلغ الرسالة أصلاً. ثم قال مشجعاً له في التبليغ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يحفظك منهم قتلاً، فلم يقدر عليه، وإن شج في وجهه يوم أحد، وكسرت رباعيته. أو: نزلت بعد ما أصابه ما أصابه.

(١) «أَمَمٌ»: القَصْدُ الذي هو الوسط.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيُزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾

والناس: الكفار بدليل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك.

٦٨ - ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ على دين يعتد به، حتى يسمى شيئاً لبطلانه ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن ﴿وَلَيُزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ إضافة زيادة الكفر والطغيان إلى القرآن بطريق التسبيب ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تتأسف عليهم؛ فَإِنَّ ضَرَرَ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَيْهِمْ، لا إليك.

٦٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالسنتهم، وهم المنافقون، ودلّ عليه قوله: ﴿لَا يَحْزَنُونَ﴾ الذين يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴿[المائدة: ٤١]﴾ وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَىٰ﴾ قال سيبويه، وجميع البصريين: ارتفع الصابغون بالابتداء، وخبره محذوف، والنية به التأخير عما في حيز «إن» من اسمها وخبرها، كأنه قيل: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والصابغون كذلك، أي: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا خوف عليهم فقدمه وحذف الخبر، كقوله:

فَمَنْ يَكُ أَمْسَىٰ بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ^(١)

أي: فإنني لغريب، وقيار كذلك. ودلّ اللام على أنه خبر إن. ولا يرتفع بالعطف على محل إن واسمها؛ لأن ذا لا يصحُّ قبل الفراغ من الخبر،

(١) البيت لضابيء البزجيمي. و«قيار»: اسم جمل ضابيء.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً

لا تقول: إن زيداً وعمرو منطلقان، وإنما يجوز: إن زيداً منطلق وعمرو. والصابئون مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله: (إن الذين آمنوا) إلى آخره. ولا محل لها، كما لا محل للتي عطفت عليها. وفائدة التقديم: التنبيه على أن الصابئين - وهم أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً، وأشدّهم غيًّا - يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان، فما الظن بغيرهم؟! ومحل ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ الرفع على الابتداء، وخبره ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾. والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط. ثم الجملة كما هي خبر «إن» والراجع إلى اسم إن محذوف، تقديره: من آمن منهم.

٧٠ - ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بالتوحيد ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ ليقفهم على ما يأتون، وما يذرون في دينهم ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ جملة شرطية وقعت صفة لرسل، والراجع محذوف، أي: رسول منهم ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم، ويضاد شهواتهم من مشاق التكليف، والعمل بالشرائع. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ كأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه. وقوله: فريقاً كذبوا: جواب مستأنف لقائل، كأنه يقول: كيف فعلوا برسلمهم؟ وقال: «يقتلون» بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية، استفظاعاً للقتل، وتنبيهاً على أنَّ القتل من شأنهم. وانتصب «فريقاً، وفريقاً» على أنه مفعول كذبوا، ويقتلون. وقيل: التكذيب مشترك بين اليهود والنصارى، والقتل مختص باليهود، فهم قتلوا زكريا، ويحيى.

٧١ - ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ﴾ «ألا تكون»: حمزة، وعليّ، وأبو عمرو، على أنَّ «أن» مخففة من الثقيلة، أصله: أنه لا تكون، فخففت أن، وحذف ضمير الشأن. ونزل حسبانهم لقوته في صدورهم منزلة العلم؛ فلذا دخل فعل حسبان على أن التي هي للتحقيق ﴿فِتْنَةً﴾ بلاء وعذاب، أي: وحسب بنو إسرائيل أنهم لا يصيبهم من الله عذاب بقتل الأنبياء، وتكذيب الرسل. وسدّ

فَعْمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِإِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ
اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ

ما يشتمل عليه صلة «أن، وأن»^(١) من المسند والمسند إليه مسدّ مفعولي حسب ﴿فَعْمُوا وَصَمُوا﴾ فلم يعملوا بما رأوا، ولا بما سمعوا. أو: فعموا عن الرشد، وصموا عن الوعظ ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ رزقهم التوبة ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ هو بدل من الضمير، أي: الواو، وهو بدل البعض من الكل، أو: هو خبر مبتدأ محذوف، أي: أولئك كثير منهم ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم بحسب أعمالهم.

٧٢ - ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِإِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ لم يفرق عيسى - عليه السلام - بينه وبينهم في أنه عبد مريب؛ ليكون حجة على النصارى ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ في عبادته غير الله ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الموحدين، أي: حرمة دخولها، ومنعه منه ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي: مرجعه. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وهو من كلام الله، أو: من كلام عيسى عليه السلام.

٧٣ - ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي: ثالث ثلاثة آلهة. والإشكال أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] وقال في الثانية: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ والجواب: أن بعض النصارى كانوا يقولون: كان المسيح بعينه هو الله؛ لأن الله ربما يتجلى في بعض الأزمان في شخص، فتجلى في ذلك الوقت في شخص عيسى، ولهذا كان يظهر من شخص عيسى أفعال

(١) أي: على القراءتين القراءة التي تعتبر «أن» حرف مصدر ونصب، أو القراءة التي تعتبرها مخففة من الثقيلة.

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ

لا يقدر عليها إلا الله. وبعضهم ذهبوا إلى آلهة ثلاثة: الله، ومريم، والمسيح، وأنه ولد الله من مريم. و«من» في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ للاستغراق، أي: وما إله قط في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية، لا ثاني له، وهو الله وحده، لا شريك له. وفي قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ للبيان كالتي في ﴿فَأَجْتَكِبُوا الْيَاسِرَ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحج: ٣٠] ولم يقل: ليمسهم؛ لأن في إقامة الظاهر مقام المضمّر تكريراً للشهادة عليهم بالكفر. أو: للتبعض، أي: ليمس الذين بقوا على الكفر منهم؛ لأن كثيراً منهم تابوا عن النصرانية ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نوع شديد الألم من العذاب.

٧٤ - ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ ألا يتوبون - بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر، وهذا الوعيد الشديد - مما هم عليه. وفيه تعجيب من إصرارهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهؤلاء إن تابوا، ولغيرهم.

٧٥ - ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فيه نفى الألوهية عنه ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ صفة لرسول، أي: ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله. وإبرأؤه الأكمه والأبرص، وإحياؤه الموتى لم يكن منه؛ لأنه ليس إلهاً، بل الله أبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى على يده، كما أحيا العصا، وجعلها حية تسعى على يد موسى. وخلقه من غير ذكر كخلق آدم من غير ذكر وأنثى ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: وما أمه أيضاً إلا كبعض النساء المصدقات للأنبياء المؤمنين بهم. ووقع اسم الصديقة عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْهُ﴾ [التحریم: ١٢]. ثم أبعدهما عما نسب إليهما بقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام،

أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّكَ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ

وما يتبعه من الهضم والنفص^(١) لم يكن إلا جسماً مركباً من لحم، وعظم، وعروق، وأعصاب، وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم ﴿ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّكَ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان. وهذا تعجيب من الله تعالى في ذهابهم عن الفرق بين الرب والمربوب.

٧٦ - ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ هو عيسى عليه السلام. أي: شيئاً لا يستطيع أن يضرَّكم بمثل ما يضركم به الله من البلاء، والمصائب في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان، والسعة، والخصب؛ ولأنَّ كلَّ ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبتخليقه تعالى، فكانه لا يملك منه شيئاً. وهذا دليل قاطع على أنَّ أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً، وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شيء لا يخرج مقدور عن قدرته ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ متعلق ب: أتعبدون، أي: أشركون بالله، ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولونه، ويعلم ما تعتقدونه.

٧٧ - ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الغلو: مجاوزة الحد، فغلو النصارى: رفعه فوق قدره باستحقاق الألوهية. وغلو اليهود: وضعه عن استحقاق النبوة ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: غلوأ غير الحق، يعني: غلوأ باطلاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أسلافكم

وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾

وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل مبعث النبي ﷺ ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم. ﴿وَضَلُّوا﴾ لما بُعث رسول الله ﷺ ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ حين كذبوه، وحسدوه، وبغوا عليه.

٧٨ - ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ قيل: إِنَّ أهل أيلة لما اعتدوا في السبت، قال داود: اللهم العنهم، واجعلهم آية، فمسخوا قرده. ولما كفر أصحاب عيسى بعد المائدة، قال عيسى: اللهم عذب مَنْ كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازير. وكانوا خمسة آلاف رجل ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ذلك اللعن بعصيانهم واعتدائهم.

٧٩ - ثم فسّر المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ عن قبيح فعلوه ومعنى وصف المنكر بفعلوه - ولا يكون النهي بعد الفعل - أنهم لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو: عن مثل منكر فعلوه، أو: عن منكر أرادوا فعله. أو: المراد: لا ينتهون عن منكر فعلوه، بل يصرون عليه. يقال: تناهى عن الأمر، وانتهى عنه: إذا امتنع منه، وتركه. ثم عجب من سوء فعلهم مؤكداً لذلك بالقسم، بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وفيه دليل على أَنَّ ترك النهي على المنكر من العظائم. فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عنه!

٨٠ - ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم منافقو أهل الكتاب، كانوا يوالون المشركين، ويصافونهم ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَدَسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَصْرِيَّ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿٨١﴾ لبس شيئاً قدموه لأنفسهم سخط الله عليهم، أي: موجب سخط الله ﴿٨٢﴾ وفي المذاب هم خلدون ﴿٨١﴾ أي: في جهنم.

٨١ - ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إيماناً خالصاً بلا نفاق ﴿وَالْيَوْمِ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ يعني: القرآن ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ما اتخذوا المشركين أولياء، يعني: أنَّ موالاة المشركين تدلُّ على نفاقهم ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَدَسِقُونَ﴾ مستمرون في كفرهم ونفاقهم. أو: معناه: ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله وبموسى وما أنزل إليه، يعني: التوراة، ما اتخذوا المشركين أولياء، كما لم يوالهم المسلمون، ولكن كثيراً منهم فاسقون، خارجون عن دينهم، فلا دين لهم أصلاً.

٨٢ - ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ﴾ هو مفعول ثان لتجدن. و«عداوة» تمييز ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ عطف عليهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ ذَٰلِكَ﴾ اللام تتعلق بعداوة ومودة. وصف اليهود بشدة الشكيمة، والنصارى بلين العريكة. وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين. ونبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على المشركين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَصْرِيَّ وَرَهْبَانًا﴾ أي: علماء وعباداً ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ علل سهولة مأخذ النصارى، وقرب مودتهم للمؤمنين؛ بأن منهم قسيسين ورهباناً، وأن فيهم تواضعاً واستكانة، واليهود على خلاف ذلك. وفيه دليل على أنَّ العلم أنفع شيء، وأهداه إلى الخير، وإن كان علم القسيسين. وكذا علم الآخرة وإن كان في راهب. والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ

٨٣ - ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ وصفهم بركة القلوب، وأنهم سيكون عند استماع القرآن، كما روي عن النجاشي أنه قال لجعفر بن أبي طالب - حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون وهم يقرؤونه عليهم -: هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر: فيه سورة تُنسب إلى مريم، فقرأها إلى قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٤] وقرأ سورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩] فبكى النجاشي. وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ، وهم سبعون رجلاً، حين قرأ عليهم سورة يس فبكوا ﴿تفيض من الدمع﴾ تمتلئ من الدمع حتى تفيض؛ لأنَّ الفيض أن يمتلئ الإناء، أو غيره، حتى يطلع ما فيه من جوانبه. فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها، أي: تسيل من أجل البكاء. ومن في ﴿مما عرفوا﴾ لابتداء الغاية، على أن فيض الدمع ابتداءً، ونشأ من معرفة الحق، وكان من أجله. و﴿مِنْ﴾ في: ﴿من الحق﴾ لتبيين الموصول الذي هو «ما عرفوا». أو: للتبويض على أنهم عرفوا بعض الحق، فأبكاهم، فكيف إذا عرفوا كله، وقرؤوا القرآن، وأحاطوا بالسنة؟! ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿عرفوا﴾ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بمحمد ﷺ، والمراد: إنشاء الإيمان، والدخول فيه ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع أمة محمد ﷺ؛ الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك.

٨٤ - ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان، مع قيام موجب، وهو الطمع في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين. وقيل: لما رجعوا إلى قومهم لاموهم، فأجابوهم بذلك. و﴿مالنا﴾ مبتدأ وخبر. و﴿لأنؤمن﴾ حال، أي: غير مؤمنين، كقولك: مالك قائماً ﴿وَمَا جَاءَنَا﴾ وبما جاءنا ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾

وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ فَأَتْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٧﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ

يعني: محمد ﷺ والقرآن ﴿وَنَطْمَعُ﴾ حال من ضمير الفعل في ﴿نؤمن﴾ والتقدير: ونحن نطمع ﴿أَنْ يَدْخِلَنَا رَبَّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ الأنبياء والمؤمنين.

٨٥ - ﴿فَأَتْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي: بقولهم ﴿ربنا آمنّا﴾ وتصديقهم لذلك ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دليل على أنّ الإقرار داخل في الإيمان، كما هو مذهب الفقهاء. وتعلّقت الكرامة في أنّ الإيمان مجرد القول بقوله: ﴿بما قالوا﴾ لكن الثناء بفيض الدمع في السياق، وبالإحسان في السياق، يدفع ذلك. وأنّى يكون مجرد القول إيماناً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]؟ نفى الإيمان عنهم مع قولهم ﴿آمنّا بالله﴾ لعدم التصديق بالقلب. قال أهل المعرفة: الموجود منهم ثلاثة أشياء: البكاء على الجفاء، والدعاء على العطاء، والرضا بالقضاء. فمن ادّعى المعرفة، ولم يكن فيه هذه الثلاثة، فليس بصادق في دعواه.

٨٦ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ هذا أثر الرد في حق الأعداء، والأول أثر القبول للأولياء ونزل في جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - حلفوا أن يترهبوا، ويلبسوا المسوح، ويقوموا الليل، ويصوموا النهار، ويسبحوا في الأرض، ويجتنبوا مذاكيرهم، ولا يأكلوا اللحم والودك^(١)، ولا يقربوا النساء والطيب.

٨٧ - ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ما طاب، ولذ من الحلال. ومعنى لا تحرموا: لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم. أو: لا تقولوا: حرمانها على أنفسنا، مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً

(١) «الودك»: الدّسم، أو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ
يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ

منكم، وتقشفاً. وروي: أَنَّ رسول الله ﷺ كان يأكل الدجاج والفالوذ^(١)، وكان يعجبه الحلواء والعسل، وقال: «إن المؤمن حلو يحب الحلوة»^(٢) وعن الحسن: أنه دُعي إلى طعام ومعه فرقد السَّبَخِي وأصحابه، فقعدها على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المُسَمَّن والفالوذ وغير ذلك، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا ولكنه يكره هذه الألوان، فأقبل الحسن عليه وقال: يا فريقد! أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن يعيبه مسلم؟ وعنه: أنه قيل له: فلان لا يأكل الفالوذ، ويقول: لا أؤدي شكره، فقال: أفيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم، قال: إنه جاهل أن نعمة الله عليه في الماء البارد أكبر من نعمته عليه في الفالوذ ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ ولا تجاوزوا الحد الذي حدَّ عليكم في تحليل أو تحريم. أو: ولا تتعدوا حدود ما أحلَّ لكم إلى ما حرم عليكم. أو: ولا تسرفوا في تناول الطيبات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ حدوده.

٨٨ - ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا﴾ حال مما رزقكم الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ توكيد للتوصية بما أمر به، وزاده توكيداً بقوله: ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ لأن الإيمان به يوجب التقوى فيما أمر به، ونهى.

٨٩ - ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو في اليمين: الساقط الذي لا يتعلق به حكم، وهو: أن يحلف على شيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن. وكانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنه قربة، فلما نزلت تلك الآية قالوا: فكيف بأيماننا؟ فنزلت. وعند الشافعي - رحمه الله - ما يجري على اللسان بلا قصد ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بتعقيدكم الأيمان،

(١) «الفالوذ، والفالوذج»: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل، وهي كلمة معربة.

(٢) قال الحافظ: ذكره الديلمي في الفردوس عن علي. (حاشية الكشف ١/٦٧١).

فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ
تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ
وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ

وهو توثيقها. وبالتخفيف: كوفي غير حفص^(١). والعقد: العزم على الوطء. وذا لا يتصور في الماضي، فلا كفارة في الغموس. وعند الشافعي - رحمه الله -: القصد بالقلب، ويمين الغموس مقصودة، فكانت معقودة، فكانت الكفارة فيها مشروعة. والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم، فحذف وقت المؤاخذه؛ لأنه كان معلوماً عندهم. أو: بنكث ما عقدتم، فحذف المضاف ﴿فَكَفَّرْنَاهُ﴾ أي: فكفارة نكثه، أو فكفارة معقود الأيمان والكفارة الفعلية التي من شأنها أن تكفر الخطيئة، أي: تسترها ﴿إِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ هو أن يغذيهم ويعشيهم. ويجوز أن يعطيهم بطريق التملك، وهو لكل واحد نصف صاع من بُرٍّ، أو صاع من شعير، أو صاع من تمر. وعند الشافعي - رحمه الله -: مد لكل مسكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: غداء وعشاء من بُرٍّ. إذ الأوسع: ثلاث مرات مع الإدام، والأدنى: مرة من تمر، أو شعير ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطف على ﴿إِطْعَامِ﴾ أو: على محل ﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾ ووجهه أن ﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾ بدل من ﴿إِطْعَامِ﴾ والبدل هو مقصود في الكلام. وهو: ثوب يغطي العورة. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما -: إزار، أو قميص، أو رداء ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة، أو كافرة لإطلاق النص. وشرط الشافعي - رحمه الله - الإيمان حملاً للمطلق على المقيد في كفارة القتل. ومعنى ﴿أَوْ﴾ التخيير، وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ إحداهما ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعة؛ لقراءة أبي وابن مسعود كذلك ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور. ﴿كَفَّرةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم. فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأن الكفارة لا تجب بنفس الحلف؛ ولذا لم يجز التكفير قبل الحنث ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فبروا فيها، ولا تحنثوا إذا لم يكن الحنث خيراً. أو: ولا تحلفوا أصلاً

(١) أي: قرأ الكوفيون وهم حزة والكساني وعاصم برواية شعبة عنه بالتخفيف، أما حفص عن عاصم فقرأ بالتشديد.

كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ
وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ
الصَّلَاةِ

﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك البيان ﴿ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ ﴾ أعلام شريعته، وأحكامه
﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمته فيما يعلمكم، ويسهل عليكم المخرج منه.

٩٠ - ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ أي: القمار ﴿ وَالْأَنْصَابُ ﴾ الأصنام؛
لأنها تنصب فتعبد ﴿ وَالْأَزْلَمُ ﴾ وهي القداح التي مرّت ﴿ رَجْسٌ ﴾ نجس، أو
حيث مستقذر ﴿ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ لأنه يحمل عليه، فكأنه عمله. والضمير في:
﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ يرجع إلى الرجس، أو: إلى عمل الشيطان، أو: إلى المذكور، أو:
إلى المضاف المحذوف، كأنه قيل: إنما تعاطى الخمر والميسر، ولذا قال:
﴿ رَجْسٌ ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أكد تحريم الخمر والميسر من وجوه، حيث صدر
الجملة بإنما، وقرنهما بعبادة الأصنام، ومنه الحديث: «شارب الخمر كعابد
الوثن»^(١)، وجعلهما رجساً من عمل الشيطان، ولا يأتي منه إلا الشر البحت،
وأمر بالاجتناب، وجعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان
الارتكاب خساراً.

٩١ - ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ ذكر ما يتولد منهما من الوبال، وهو: وقوع التعادي
والتباغض بين أصحاب الخمر والقمر، وما يؤديان إليه من الصّد عن ذكر الله،
وعن مراعاة أوقات الصلاة. وخصّ الصلاة من بين الذكر لزيادة درجتها، كأنه
قال: وعن الصلاة خصوصاً. وإنما جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام
أولاً، ثم أفردهما آخرأً لأنّ الخطاب مع المؤمنين. وإنما نهاهم عما كانوا
يتعاطونه من شرب الخمر، واللعب بالميسر، وذكر الأنصاب والأزلام؛ لتأكيد
تحريم الخمر والميسر، وإظهار أنّ ذلك جميعاً من أعمال أهل الشرك. فكأنه

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢٩٢٥).

فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ

لا مباينة بين عابد الصنم وشارب الخمر والمقامر. ثم أفردهما بالذكر ليعلم أنهما المقصودُ بالذكر ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والزواجر، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا، ولم ترجروا؟!.

٩٢ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا﴾ وكونوا حذرين خاشعين؛ لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة، وعمل كل حسنة ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ذلك ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ أي: فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول؛ لأنه ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات. وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه.

٩٣ - ونزل فيمن تعاطى شيئاً من الخمر والميسر قبل التحريم ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ أي: شربوا من الخمر، وأكلوا من مال القمار قبل تحريمهما ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿وَأَمَنُوا﴾ بالله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بعد الإيمان ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ الخمر والميسر بعد التحريم ﴿وَأَمَنُوا﴾ بتحريمهما. ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ سائر المحرمات. أو: الأول عن الشرك، والثاني: عن المحرمات، والثالث: عن الشبهات ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ إلى الناس ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٩٤ - ولما ابتلاهم الله بالصيد عام الحديبية، وهم محرمون، وكثر عندهم، حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده أخذاً بأيديهم، وطعناً برماحهم، نزل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ ومعنى يبلو: يختبر، وهو من الله لإظهار ما علم من العبد على ما علم، لا لعلم ما لم يعلم. و﴿مِّنَ﴾ للتبعيض، إذ لا يحرم كل صيد، أو: لبيان الجنس ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ ليعلم الله خوف الخائف منه بالامتناع عن

فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ

الاصطياد موجوداً، كما كان يعلم قبل وجوده أنه يوجد ليشبهه على عمله، لا على علمه فيه ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ﴾ فصاد ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الابتلاء ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قتل في قوله ﴿بشيء من الصيد﴾ ليعلم أنه ليس من الفتن العظام. و﴿تناله﴾ صفة لشيء.

٩٥ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ أي: المصيد، إذ القتل إنما يكون فيه ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي: محرمون، جمع حرام، كروح في جمع رداح. في محل النصب على الحال من ضمير الفاعل في ﴿تقتلوا﴾ ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ حال من ضمير الفاعل، أي: ذاكراً لإحرامه، أو عالماً: أن ما يقتله مما يحرم قتله عليه. فإن قتله ناسياً لإحرامه، أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فهو مخطئ. وإنما شرط التعمد في الآية - مع أنَّ محظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ - لأن مورد الآية فيمن تعمّد. فقد روي: أنه عَنَّ لَهُمْ في عمرة الحديبية حمار وحش، فحمل عليه أبو اليسر فقتله، ف قيل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم، فنزلت. ولأنَّ الأصل فعل المتعمد، والخطأ ملحق به للتغليظ. وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمد، ووردت السُّنَّة بالخطأ ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ كوفي^(١). أي: فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد. وهو قيمة الصيد. يُقَوَّم حيثُ صيد، فإن بلغت قيمته ثمن هدي خَيْر بين أن يهدي من النَّعْم ما قيمته قيمة الصيد، وبين أن يشتري بقيمته طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من برّ، أو صاعاً من غيره. وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً. وعند محمد والشافعي - رحمها الله تعالى - مثله: نظيره من النعم. فإن لم يوجد له نظير من النَّعْم فكما مر. (فجزاءٌ مثل) على الإضافة، غيرهم^(٢). وأصله: فجزاءٌ مثل ما قتل، أي: فعليه أن يجزي مثل ما قتل، ثم أضيف، كما تقول: عجبت من ضرب زيداً، ثم من ضرب زيد ﴿مِنَ النَّعْمِ﴾ حال من

(١) أي: قراءة حمزة والكسائي وعاصم.

(٢) أي: قراءة غير الكوفيين وهم: أبو عمرو وابن عامر وابن كثير ونافع.

يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بِلِغِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ

الضمير في قتل، إذ المقتول يكون من النعم، أو صفة لجزاء ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ بمثل ما قتل ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ حكمان عادلان من المسلمين. وفيه دليل على أنَّ المثلَّ القيمة؛ لأنَّ التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون الأشياء المشاهدة، ولأنَّ المثلَّ المطلق في الكتاب، والسنة، والإجماع مقيد بالصورة والمعنى. أو: بالمعنى لا بالصورة، أو بالصورة بلا معنى. والقيمة أريدت فيما لا مثل له صورة إجماعاً، فلم يبق غيرها مراداً، إذ لا عموم للمشترك. فإن قلت قوله: ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ ينافي تفسير المثل بالقيمة. قلت: من أوجب القيمة خَيْرٌ بين أن يشتري بها هدياً، أو طعاماً، أو يصوم كما خير الله تعالى في الآية، فكان من «النعم» بياناً للهدى المشتري بالقيمة في أحد وجوه التخيير؛ لأنَّ مَنْ قَوِّمَ الصيد واشترى القيمة هدياً فأهداه، فقد جزى بمثل ما قتل من النعم. على أن التخيير الذي في الآية بين أن يجزي بالهدى، أو يكفر بالطعام، أو الصوم إنما يستقيم إذا قَوِّمَ ونظر بعد التقويم، أي: الثلاثة يختار. فأما إذا عمد إلى النظر، وجعله الواجب وحده من غير تخيير، فإذا كان شيئاً لا نظير له قَوِّمَ حينئذ، ثم يُخَيَّر بين الطعام والصيام، ففيه نبؤٌ عما في الآية. ألا ترى إلى قوله ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَاماً﴾ كيف خيَّر بين الأشياء الثلاثة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم ﴿هَذَا﴾ حال من الهاء في به، أي: يحكم به في حال الهدى ﴿بِلِغِ الْكَعْبَةِ﴾ صفة لهدى؛ لأنَّ إضافته غير حقيقية. ومعنى بلوغه الكعبة: أن يذبح بالحرم، فأما التصديق به فحيث شئت. وعند الشافعي - رحمه الله -: في الحرم ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ﴾ معطوف على ﴿جزاء﴾ ﴿طَعَامُ﴾ بدل من كفارة، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي طعام. ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ﴾ على الإضافة: مدني وشامي. وهذه الإضافة لتبيين المضاف، كأنه قيل: أو كفارة من طعام ﴿مَسْكِينٍ﴾. كما تقول: خاتم فضة، أي: خاتم من فضة ﴿أَوْ عَدْلٌ﴾ وقرئ بكسر العين، قال الفراء: العَدْلُ: ما عادل الشيء من غير جنسه كالصوم والإطعام. والعَدْلُ مثله من جنسه، ومنه: عَدْلُ الحمل. يقال: عندي غلام عَدْلُ غلامك - بالكسر - إذا كان من جنسه. فإن أريد أن قيمته كقيمته، ولم يكن من جنسه، قيل: هو عَدْلُ غلامك

ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّذَوْقٍ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
ذُو أَنْقَامٍ ﴿٩٥﴾ أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَّعَا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ
الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

- بالفتح - ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الطعام ﴿صِيَامًا﴾ تمييز، نحو: لي مثله رجلاً.
والخيار في ذلك إلى القاتل. وعند محمد - رحمه الله - إلى الحكيمين ﴿لِذَوْقٍ
وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ متعلق بقوله ﴿فجزاء﴾ أي: فعليه أن يجازي، أو يُكَفِّرَ، ليدوق
سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام. والوبال: المكروه، والضرر الذي ينال في
العاقبة من عمل سوء لثقله عليه، من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾
[المزمل: ١٦] أي: ثقيلاً شديداً. والطعام الوبيل: الذي يثقل على المعدة فلا
يستمرأ. ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ لكم من الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل
الصيد بعد التحريم، أو: في ذلك الإحرام ﴿فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ بالجزاء. وهو
خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فهو ينتقم الله منه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ بالإنفاذ الأحكام.
﴿ذُو أَنْقَامٍ﴾ لمن جاوز حدود الإسلام.

٩٦ - ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾ مصيدات البحر مما يؤكل، ومما لا يؤكل.
﴿وَطَعَامَهُ﴾ وما يُطَعَم من صيده. والمعنى: أحلَّ لكم الانتفاع بجميع ما يُصَاد
في البحر، وأحلَّ لكم أكل المأكول منه، وهو السمك وحده ﴿مَتَّعَا لَكُمْ﴾
مفعول له، أي: أحلَّ لكم تمتيعاً لكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ وللمسافرين. والمعنى:
أحلَّ لكم طعامه تمتيعاً لتنائكم^(١) يأكلونه طرياً، ولسيارتكم يتزودونه قديداً،
كما تزود موسى عليه السلام الحوت في مسيره إلى الخضر ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ﴾
ما صيد فيه. وهو: ما يفرخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات،
كالبط؛ فإنه بري؛ لأنه يتولد في البر. والبحر له مرعى، كما للناس متجر ﴿مَا
دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ محرمين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاصطياد في الحرم، أو: في الإحرام
﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تبعثون فيجزئكم على أعمالكم.

(١) «لتنائكم»: أي: للمتوطنين منكم.

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَّتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَيْدَ ﴾
 ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ
 إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ

٩٧ - ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ ﴾ أي: صير ﴿ الْآبِيَّتَ الْحَرَامَ ﴾ بدل، أو: عطف بيان ﴿ قِيَمًا ﴾ مفعول ثان. أو: جعل بمعنى خلق، وقياماً: حال. ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي: انتعاشاً لهم في أمر دينهم، ونهوضاً إلى أغراضهم في معاشهم ومعادهم؛ لما يتم لهم من أمر حجهم، وعمرتهم، وأنواع منافعهم. قيل: لو تركوه عاماً لم ينظروا، ولم يؤخروا ﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ والشهر الذي يؤدَّى فيه الحج، وهو ذو الحجة؛ لأن في اختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأناً قد علمه الله. أو: أريد به جنس الأشهر الحرم، وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ﴿ وَالْهَدْيَ ﴾ ما يهدي إلى مكة ﴿ وَالْقَلْبَيْدَ ﴾ والمقلد منه خصوصاً، وهو البدن، فالثواب فيه أكثر، وبهاء الحج معه أظهر ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى جعل الكعبة قياماً، أو: إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد، وغيره ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي: لتعلموا أَنَّ الله يعلم مصالح ما في السموات وما في الأرض، وكيف لا يعلم وهو بكل شيء عليم؟!

٩٨ - ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن استخفَّ بالحرم والإحرام ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لأنَّام مَنْ عَظَّمَ المشاعر العظام ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بالجاني الملتجئ إلى البلد الحرام.

٩٩ - ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجة، ولزمتكم الطاعة، فلا عذر لكم في التفريط ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ فلا يخفى عليه نفاقكم، ووفاقكم.

١٠٠ - ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ لما أخبر أنه يعلم ما يبذون

وَلَوْ أَعَجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ أَلَّا تَلْبَسَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾ يَتَأَيَّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ
ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

وما يكتمون، ذكر أنه لا يستوي خبيثهم وطيبهم، بل يميز بينهما فيعاقب
الخبث، أي: الكافر، ويشيب الطيب، أي: المسلم ﴿وَلَوْ أَعَجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ
فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وآثروا الطيب - وإن قل - على الخبيث - وإن كثر - . وقيل: هو عام
في حلال المال وحرامه، وصالح العمل وطالحه، وجيد الناس وردئهم ﴿يَتَأُولَىٰ
أَلَّا تَلْبَسَ﴾ أي: العقول الخالصة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

١٠١ - كانوا يسألون النبي ﷺ عن أشياء امتحاناً، فنزل: ﴿يَتَأَيَّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ﴾ قال الخليل وسيبويه وجمهور البصريين: أصله: «شيء»
بهمزتين بينهما ألف، وهي فعلاء من لفظ «شيء» وهمزتها الثانية للتأنيث؛ ولذا
لم تنصرف كحمراء. وهي مفردة لفظاً، جمع معنى. ولما استثقلت الهمزتان
المجتمعتان قدّمت الأولى التي هي لام الكلمة، فجعلت قبل الشين، فصار وزنها
«لفعاء». والجملة الشرطية والمعطوفة عليها أي: قوله: ﴿إِن بُدَّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ وَإِن
تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ﴾ صفة لأشياء، أي: وإن تسألوا عن هذه
التكاليف الصعبة في زمان الوحي، وهو مادام الرسول بين أظهركم تبد لكم
تلك التكاليف التي تسوؤكم، أي: تغمكم، وتشقّ عليكم، وتؤمرون
بتحملها فتعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ عفا الله عما
سلف من مسألتكم، فلا تعودوا إلى مثلها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاقبكم
إلا بعد الإنذار.

١٠٢ - والضمير في: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ لا يرجع إلى أشياء حتى يعدى بعن ،
بل يرجع إلى المسألة التي دلّت عليها «لا تسألوا» أي: قد سأل هذه المسألة
﴿قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ من الأولين ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا﴾ صاروا بسببها ﴿كَافِرِينَ﴾
كما عرف في بني إسرائيل .

١٠٣ - ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ كان أهل الجاهلية إذا

وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ

نُتِجَتْ الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنبا - أي: شقوها - وامتنعوا من ركوبها، وذبحها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، واسمها: البهيرة. وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري، أو برأت من مرضي، فناقتي سائبة، وجعلها كالبهيرة في تحريم الانتفاع بها. وقيل: كان الرجل إذا أعتق عبداً قال: هو سائبة، فلا عقل بينهما، ولا ميراث. وكانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن، فإن كان السابع ذكراً أكله الرجال، وإن كان أنثى أرسلت في الغنم وكذا إن كان ذكراً وأنثى، وقالوا: وصلت أخاها. فالوصيلة بمعنى الواصلة. وإذا نُتِجَتْ من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره، فلا يركب، ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. ومعنى: ﴿مَا جَعَلَ﴾: ما شرع ذلك، ولا أمر به ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتحريمهم ما حرّموا ﴿يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في نسبتهم هذا التحريم إليه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَنَّ اللَّهَ لم يحرم ذلك. وهم عوامهم.

١٠٤ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي: هلموا إلى حكم الله ورسوله بأن هذه الأشياء غير محرمة ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: كافينا ذلك ﴿حسبنا﴾ مبتدأ. والخبر ﴿ما وجدنا﴾. و«ما» بمعنى: الذي. والواو في: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ للحال، قد دخلت عليها همزة الإنكار. وتقديره ﴿أ﴾ حسبهم ذلك ﴿ولو كان آبائهم﴾ ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: الاقتداء إنما يصحّ بالعالم المهتدي. إنما يعرف اهتداؤه بالحجة.

١٠٥ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ انتصب ﴿أنفسكم﴾ بـ «عليكم». وهو من أسماء الأفعال، أي: الزموا إصلاح أنفسكم. والكاف والميم في ﴿عليكم﴾ في موضع جر؛ لأنَّ اسمَ الفعل هو الجار والمجرور لا «على» وحدها ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ رفع على الاستئناف، أو: جزم على جواب الأمر، وإنما ضمت الراء إتباعاً لضمّة الضاد ﴿مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ كان المؤمنون تذهب أنفسهم

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مِّصْبِيَّةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا

حسرةً على أهل العناد من الكفرة، يتمنون دخولهم في الإسلام، فقليل لهم: ﴿عليكم أنفسكم﴾ وما كلفتم من إصلاحها ﴿لا يضركم﴾ الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين. وليس المراد: ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن تركهما مع القدرة عليهما لا يجوز ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ رجوعكم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم يجزيكم على أعمالكم.

١٠٦ - رُوي أنه خرج بديل مولى عمرو بن العاص - وكان من المهاجرين - مع عدي وتميم - وكانا نصرانيين - إلى الشام. فمرض بديل، وكتب كتاباً فيه ما معه، وطرحه في متاعه، ولم يخبر به صاحبيه. وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات. ففتشا متاعه، فأخذا إناء من فضة. فأصاب أهل بديل الصحيفة، فطالبوهما بالإناء، فجحدا. فرفعوا إلى رسول الله ﷺ، فنزل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾. ارتفع ﴿اثنان﴾ لأنه خبر المبتدأ، وهو ﴿شهادة﴾ بتقدير شهادة بينكم شهادة اثنين. أو: لأنه فاعل شهادة بينكم. أي: فيما فرض عليكم أن يشهد اثنين. واتسع في «بين» فأضيف إليه المصدر ﴿وإذا حضر﴾ ظرف للشهادة. و﴿حين الوصية﴾ بدل منه. وفي إبداله منه دليل على وجوب الوصية؛ لأنَّ حضور الموت من الأمور الكائنة. و﴿حين الوصية﴾ بدل منه. فيدلُّ على وجود الوصية. فلو وجدت بدون الاختيار لسقط الابتلاء. فنقل إلى الوجوب. وحضور الموت: مشاركته، وظهور أمارات بلوغ الأجل. ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لاثنتين ﴿مِّنْكُمْ﴾ من أقاربكم؛ لأنهم أعلم بأحوال الميت ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾ عطف على ﴿اثنان﴾ ﴿مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الأجانب ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ سافرتم فيها. و﴿أنتم﴾ فاعل فعل يفسره الظاهر ﴿فَأَصَبْتَكُمْ مِّصْبِيَّةُ الْمَوْتِ﴾ أو: ﴿منكم﴾ من المسلمين، و﴿من غيركم﴾ من أهل الذمة. وقيل: منسوخ؛ إذ لا يجوز شهادة الذمي على المسلم، وإنما جازت في أوّل الإسلام لقلّة المسلمين ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ تقفونهما

مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ
شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِضَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ
مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ

للحلف. هو استئناف كلام، أو: صفة لقوله: ﴿أو آخران من غيركم﴾ أي: ﴿أو آخران من غيركم﴾ محبوسان. و﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابكم مصيبة الموت﴾ اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ من بعد صلاة العصر؛ لأنه وقت اجتماع الناس. وعن الحسن - رحمه الله -: بعد العصر أو الظهر؛ لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما. وفي حديث بديل: أنها لما نزلت صَلَّى رسول الله ﷺ صلاة العصر، ودعا بـ: عديٍّ وتميم فاستحلفهما عند المنبر، فحلفا، ثم وجد الإناء بمكة. فقالوا: إنا اشتريناه من تميم وعديٍّ^(١) ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ فيحلفان به ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ إن شككتم في أمانتهما. وهو اعتراض بين يقسمان وجوابه، وهو ﴿لَا نَشْتَرِي﴾. وجواب الشرط محذوف أغنى عنه معنى الكلام. والتقدير: ﴿إن ارتبتم﴾ في شأنهما فحلفوهما ﴿بِهِ﴾ بالله، أو بالقسم ﴿ثَمَنًا﴾ عَرَضًا من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المقسم له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال، ولو كان من نقسم له قريباً منا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أمر الله بحفظها، وتعظيمها ﴿إِنَّا إِذَا﴾ إن كتماننا ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾. وقيل: إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين، وإن: أريد الوصيان فلم ينسخ تحليفهما.

١٠٧ - ﴿فَإِنْ عُرِضَ﴾ فَإِنْ أُطْلِعَ ﴿عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ فعلاً ما أوجب إثمًا، واستوجبا أن يقال: إنهما لمن الآثمين ﴿فَآخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: ﴿من الذين استحق عليهم﴾ الإثم. ومعناه: من الذين جُني عليهم، وهم أهل الميت وعشيرته. وفي قصة بديل: أنه لما ظهرت خيانة الرجلين حلف رجلان من ورثته أنه إناء صاحبهما، وأن شهادتهما أحق من شهادتهما ﴿الْأَوَّلَيْنِ﴾ الأحقان بالشهادة لقرابتهما، أو

(١) رواه الترمذي (٣٠٥٩) وقال: حديث غريب.

فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾
 ذَلِكَ أَدَقُّ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَاسْمِعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ * يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا
 أَجَبْتُمْ

معرفتهما. وارتفاعهما على: هما ﴿الأوليان﴾ كأنه قيل: ومن هما؟ فقيل:
 ﴿الأوليان﴾. أو: هو بدل من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾ أو من ﴿فَاخْرَأَنَّ﴾
 ﴿أَسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ﴾ حفص. أي: ﴿مِنَ﴾ الورثة ﴿الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
 الْأَوَّلَيْنِ﴾ من بينهم بالشهادة أن يجردوهما للقيام بالشهادة، ويظهروا بهما كذب
 الكاذبين. ﴿الأولين﴾ حزة، وأبو بكر، على أنه وصف للذين استحق عليهم
 مجرور، أو منصوب على المدح. وسموا: أولين؛ لأنهم كانوا أولين في الذكر في
 قوله: ﴿شهادة بينكم﴾ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا﴾ أي: ليميننا
 أحق بالقبول من يمين هذين الوصيين الخائنين ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ وما تجاوزنا الحقَّ
 في يميننا ﴿إِنَّا إِذْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن حلفنا كاذبين.

١٠٨ - ﴿ذَلِكَ﴾ الذي مرَّ ذكره من بيان الحكم ﴿أَدَقُّ﴾ أقرب ﴿أَنْ يَأْتُوا﴾
 أي: الشهداء على نحو تلك الحادثة ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا﴾ كما حملوها بلا خيانة
 فيها ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِمْ﴾ أي: تكرر أيمان شهود آخرين بعد أيمانهم،
 فيفتضحوا بظهور كذبهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الخيانة، واليمين الكاذبة ﴿وَاسْمِعُوا﴾
 سمع قبول، وإجابة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة. فإن
 قلت: ما معنى ﴿أَوْ﴾ هنا؟ قلت: معناه: ذلك أقرب من أن يؤدوا الشهادة
 بالحق والصدق، إما لله، أو لخوف العار والافتضاح برّد الأيمان. وقد احتج به
 مَنْ يرى ردّ اليمين على المدّعي. والجواب: أن الورثة قد ادّعوا على النصرانيين
 أنهما قد اختانا، فحلفا، فلما ظهر كذبهما ادّعيا الشراء فيما كتما، فأنكرت
 الورثة، فكانت اليمين على الورثة لإنكارهما الشراء.

١٠٩ - ﴿يَوْمَ﴾ منصوب باذكروا، أو: احذروا ﴿يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ
 مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ ما الذي أجابتكم به أعمكم حين دعوتهم إلى الإيمان. وهذا
 السؤال توبيخ لمن أنكرهم. و﴿ماذا﴾ منصوب بأجبتهم، نصب المصدر على

قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

معنى: أي إجابة أجبتهم؟ ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بإخلاص قومنا. دليله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾. أو: بما أحدثوا بعدنا. دليله ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. أو: قالوا ذلك تأديباً، أي: علمنا ساقط مع علمك، ومغمور به، فكانه لا علم لنا.

١١٠ - ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ بدل من: يوم يجمع ﴿يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ﴾ حيث طهرتها، واصطفيتها على نساء العالمين. والعامل في: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ أي: قويتك ﴿نِعْمَتِي﴾ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بجبريل عليه السلام. أيد به لتثبت الحجة عليهم، أو: بالكلام الذي يحيا به الدين. وأضافه إلى القدس لأنه سبب الطهر من أضرار الآثام. دليله: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ حال، أي: تكلمهم طفلاً، إعجازاً ﴿وَكَهْلًا﴾ تبليغاً ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾ معطوف على ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾. ونحوه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ﴾ ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ ﴿وَإِذْ أُوحِيَ﴾ ﴿الْكِتَابَ﴾ الخط ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الكلام المحكم الصواب ﴿وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تقدّر ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ هيئة مثل هيئة الطير. ﴿بِإِذْنِي﴾ بتسهيل. ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ الضمير للكاف؛ لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى، وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها؛ لأنها ليست من خلقه. وكذا الضمير في ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾. وعطف ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ على ﴿تَخْلُقُ﴾. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ من القبور أحياء ﴿بِإِذْنِي﴾ قيل: أخرج سام بن نوح، ورجلين، وامرأة، وجارية ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ أي: اليهود حين هموا بقتله ﴿إِذْ جِئْتَهُم﴾ ظرف لكففت ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿ساحر: حمزة، وعلي.﴾

وَاِذْ اَوْحَيْتُ اِلَى الْخَوَارِجِ اَنْ اٰمِنُوْا بِى وَرِسُوْا قَالُوْا ءَاٰمَنَّا وَاَشْهَدُ بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ ﴿١١١﴾ اِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ اَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللّٰهَ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ﴿١١٢﴾ قَالُوْا نُرِيْدُ اَنْ نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَضْمِيْنَ قُلُوْبُنَا وَنَعْلَمَ اَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُوْنُ عَلَيْهَا مِنَ الشّٰهِدِيْنَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اَللّٰهُمَّ

١١١ - ﴿وَاِذْ اَوْحَيْتُ﴾ ألهمت ﴿اِلَى الْخَوَارِجِ﴾ الخواص، أو: الأصفياء ﴿اَنْ اٰمِنُوْا﴾ أي: آمنوا ﴿بِى وَرِسُوْا قَالُوْا ءَاٰمَنَّا وَاَشْهَدُ بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ﴾ أي: اشهد باننا مخلصون. من: أسلم وجهه.

١١٢ - ﴿اِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ﴾ أي: اذكروا إذ قال الخواريون ﴿يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ «عيسى»: نصب على اتباع حركته حركة الابن، نحو: يا زيد بن عمرو ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هل يفعل؟ أو هل يطيعك ربك إن سألته؟ فاستطاع وأطاع بمعنى، كاستجاب وأجاب. (هل تستطيع ربك): عليّ. أي: هل تستطيع سؤال ربك، فحذف المضاف. والمعنى: هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله؟ ﴿اَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ «ينزل»: مكى، وبصري ﴿مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ هي: الخوان^(١) إذا كان عليه الطعام، من: مده: إذا أعطاه، كأنها تميد من تقدم إليها ﴿قَالَ اتَّقُوا اللّٰهَ﴾ في اقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ﴾ إذ الإيمان يوجب التقوى.

١١٣ - ﴿قَالُوْا نُرِيْدُ اَنْ نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تبركاً ﴿وَتَضْمِيْنَ قُلُوْبُنَا﴾ ونزداد يقيناً، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلٰكِنْ لِّتُطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] ﴿وَنَعْلَمَ اَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا﴾ أي: نعلم صدقك عياناً، كما علمناه استدلالاً ﴿وَنَكُوْنُ عَلَيْهَا مِنَ الشّٰهِدِيْنَ﴾ بما عاينا لمن بعدنا.

١١٤ - ولما كان السؤال لزيادة العلم لا للتعنت ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اَللّٰهُمَّ﴾

(١) «الخوان»: - بضم الخاء وكسرها -: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل، فإذا وضع عليه الطعام فهو مائدة.

رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

أصله: يا الله، فحذف يا، وعوض منه الميم ﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثان ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: يكون يوم نزولها عيداً. قيل: هو يوم الأحد. ومن ثم اتخذه النصارى عيداً، أو العيد: السرور العائد. ولذا يقال: يومٌ عيد، فكان معناه: تكون لنا سروراً وفرحاً ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من ﴿لَنَا﴾ بتكرير العامل، أي: لمن في زماننا من أهل ديننا، ولمن يأتي بعدنا. أو: يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم. أو: للمتقدمين منا والأتباع ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ على صحة نبوتي. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وأعطنا ما سألناك، وأنت خير المعطين.

١١٥ - ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ بالتشديد: مدني، وشامي، وعاصم. وعد الإنزال، وشرط عليهم شرطاً بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ بعد إنزالها ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أي: تعذيباً، كالسلام بمعنى التسليم. والضمير في: ﴿لَا أُعَذِّبُهُ﴾ للمصدر. ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بد من الباء ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ عن الحسن: أن المائدة لم تنزل، ولو نزلت لكانت عيداً إلى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَآخِرِنَا﴾. والصحيح أنها نزلت. فعن وهب: نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة، عليها كل طعام إلا اللحم. وقيل: كانوا يجيدون عليها ما شاؤوا. وقيل: كانت تنزل حيث كانوا بكرة وعشياً.

١١٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الجمهور على أن هذا السؤال يكون في يوم القيامة. دليله: سياق الآية وسابقتها^(١) وقيل: خاطبه به حين رفعه إلى السماء. دليله: لفظ ﴿إِذْ﴾ ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ من أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

(١) وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ...﴾ [المائدة: ١٠٩].

لِي يَحَقَّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ
 عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ
 شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ
 هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ

لِي يَحَقَّ ﴿١﴾ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا لَا يَحَقُّ لِي أَنْ أَقُولَهُ ﴿٢﴾ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴿٣﴾ إِنْ صَحَّ
 أَنِّي قُلْتُهُ فِيمَا مَضَى فَقَدْ عَلِمْتُهُ. والمعنى: أَنِّي لَا أَحْتَاجُ إِلَى الْإِعْتِدَارِ؛ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ
 أَنِّي لَمْ أَقُلْهُ، وَلَوْ قُلْتُهُ عَلِمْتُهُ؛ لِأَنَّكَ ﴿٤﴾ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴿٥﴾ ذَاتِي ﴿٦﴾ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
 نَفْسِكَ ﴿٧﴾ ذَاتِكَ. فنفس الشيء: ذاته، وهويته. والمعنى: تَعْلَمُ مَعْلُومِي،
 وَلَا أَعْلَمُ مَعْلُومَكَ ﴿٨﴾ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٩﴾ تَقْرِيرٌ لِلْجُمْلَتَيْنِ مَعًا؛ لِأَنَّ مَا انْطَوَتْ
 عَلَيْهِ النُّفُوسُ مِنْ جُمْلَةِ الْغُيُوبِ، وَلِأَنَّ مَا يَعْلَمُ عِلَامَ الْغُيُوبِ لَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ عِلْمُ
 أَحَدٍ.

١١٧ - ﴿١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴿٢﴾ أَي: مَا أَمَرْتَهُمْ إِلَّا بِمَا أَمَرْتَنِي بِهِ. ثُمَّ
 فَسَّرَ مَا أَمَرَ بِهِ فَقَالَ: ﴿٣﴾ إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴿٤﴾. فـ«أَنْ» مَفْسُورَةٌ بِمَعْنَى: أَي
 ﴿٥﴾ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿٦﴾ رَقِيبًا ﴿٧﴾ مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴿٨﴾ مَدَّةَ كَوْنِي فِيهِمْ ﴿٩﴾ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ
 الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴿١٠﴾ الْحَفِیْظُ ﴿١١﴾ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٢﴾ مِنْ قَوْلِي، وَفَعْلِي، وَقَوْلِهِمْ،
 وَفَعْلِهِمْ.

١١٨ - ﴿١﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ قَالَ
 الزَّجَّاجُ: عَلِمَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَقَامَ عَلَى الْكُفْرِ،
 فَقَالَ فِي جُمْلَتِهِمْ: ﴿٣﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ ﴿٤﴾ أَي: إِنْ تُعَذِّبْ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ ﴿٥﴾ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴿٦﴾
 الَّذِينَ عَلِمْتَهُمْ جَاحِدِينَ لِآيَاتِكَ، مَكْذِبِينَ لِأَنْبِيَائِكَ، وَأَنْتَ الْعَادِلُ فِي ذَلِكَ؛
 فَإِنَّهُمْ قَدْ كَفَرُوا بَعْدَ وَجُوبِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿٧﴾ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ ﴿٨﴾ أَي: لِمَنْ أَقْلَعَ مِنْهُمْ
 وَآمَنَ، فَذَلِكَ فَضْلُكَ مِنْكَ. وَأَنْتَ عَزِيزٌ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْكَ مَا تَرِيدُ، حَكِيمٌ فِي ذَلِكَ.
 أَوْ: ﴿٩﴾ عَزِيزٌ قَوِيٌّ، قَادِرٌ عَلَى الثَّوَابِ، ﴿١٠﴾ حَكِيمٌ لَا يَعْاقِبُ إِلَّا عَنْ حِكْمَةٍ
 وَصَوَابٍ.

١١٩ - ﴿١﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴿٢﴾ بَرَفَ الْيَوْمِ وَالْإِضَافَةُ عَلَى أَنَّهُ

لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

خبر هذا، أي: يقول الله تعالى: هذا يومُ ينفع الصادقين فيه صدقهم المستمر في دنياهم وآخرتهم. والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب على المفعولية، كما تقول: قال زيد: عمرو منطلق. وبالنصب نافع على الظرف، أي: قال الله هذا لعيسى عليه السلام يوم ينفع الصادقين صدقهم، وهو يوم القيامة ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالسعي المشكور. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بالجزاء الموفور. ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه باقٍ بخلاف الفوز في الدنيا، فهو غير باق.

١٢٠ - ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ عظم نفسه عما قالت النصارى: إن معه إلهاً آخر ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المنع، والإعطاء، والإيجاد، والإفناء.

نسأله أن يوفقنا لمرضاته، ويجعلنا من الفائزين بجنّاته. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾

١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعليم اللفظ والمعنى مع تعريض الاستغناء، أي: الحمد له وإن لم تحمدوه ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ جمع السموات؛ لأنها طباق بعضها فوق بعض، والأرض وإن كانت سبعة عند الجمهور، فليس بعضها فوق بعض، بل بعضها موالٍ لبعض. جعل يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وإلى مفعولين إن كان بمعنى صير، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَكِيَّةَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِّشَاءً﴾ [الزخرف: ١٩]. وفيه ردّ قول الثنوية بقدّم النور والظلمة. وأفرد النور لإرادة الجنس، ولأنّ ظلمة كلّ شيء تختلف باختلاف ذلك الشيء، نظيره: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الموضع المظلم، يخالف كل واحد منها صاحبه. والنور: ضرب واحد، لا يختلف كما تختلف الظلمات. وقدّم الظلمات لقوله عليه الصلاة والسلام: «خلق الله خلقه في ظلمة، ثم رشّ عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطاه ضلّ»^(١) ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد هذا البيان ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يساوون به الأوثان. تقول: عدلت هذا بذاء، أي: ساويته به. والباء في ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ صلة للعدل، لا للكفر. أو: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

(١) رواه أحمد (١٧٦/٢، ١٩٧) والترمذي (٢٦٤٢) وقال: حديث حسن.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ

يعدلون ﴿٢﴾ عنه، أي: يعرضون عنه، فتكون الباء صلة الكفر، وصلة ﴿يعدلون﴾ أي: عنه: محذوفة. وعطف ﴿ثم الذين كفروا﴾ على ﴿الحمد لله﴾ على معنى: أن الله حقيق بالحمد على ما خلق؛ لأنه ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا به يعدلون، فيكفرون نعمته. أو: على ﴿خلق السموات﴾ على معنى: أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. ومعنى ﴿ثم﴾ استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته.

٢ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ مِنْ﴾ لا ابتداء الغاية، أي: ابتداء خلق أصلكم، يعني: آدم منه ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ أي: حَكَمَ أَجَلَ الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أَجَلَ القيامة. أو: الأول ما بين أن يُخلق إلى أن يموت، والثاني: ما بين الموت والبعث، وهو البرزخ. أو: الأول: النوم، والثاني: الموت. أو: الثاني هو الأول، وتقديره ﴿و﴾ هو ﴿أَجَلَ مَسْمًّى﴾ أي: معلوم. و﴿أَجَلَ مَسْمًّى﴾ مبتدأ، والخبر ﴿عنده﴾. وقدم المبتدأ - وإن كان نكرة والخبر ظرفاً - وحقه التأخير؛ لأنه تخصص بالصفة، فقارب المعرفة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون، من: المرية، أو: تجادلون، من المراء. ومعنى ﴿ثم﴾ استبعاد أن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محيهم، ومميتهم، وباعثهم.

٣ - ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بمعنى اسم الله، كأنه قيل: وهو المعبود فيهما، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ أو هو المعروف بالإلهية فيهما؛ أو: هو الذي يقال له: الله فيهما. والأول تفريع على أنه مشتق، وغيره على أنه غير مشتق ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبر بعد خبر. أو: كلام مبتدأ، أي: هو ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من الخير والشر، ويثيب عليه، ويعاقب.

٤ - و﴿مِنْ﴾ في: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ للاستغراق. وفي: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ للتبويض. أي: وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر،

إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمُ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُؤْتَيْنِ ﴿٧﴾

والاعتبار ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين للنظر، لا يلتفتون إليه؛ لقلة خوفهم، وتدبرهم في العواقب.

٥ - ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ مردود على كلام محذوف، كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات ﴿فقد كذبوا﴾ ﴿بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: بما هو أعظم آية وأكبرها، وهو القرآن؛ الذي تُحدّوا به، فعجزوا عنه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: أنباء الشيء الذي كانوا به يستهزئون، وهو القرآن، أي: أخباره وأحواله، يعني: سيعلمون بأي شيء استهزؤوا، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا، أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام، وعلو كلمته.

٦ - ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: المكذبين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ هو مدة انقضاء أهل كل عصر، وهو ثمانون سنة، أو سبعون ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ في موضع جرّ صفة لـ «قرن». وجمع على المعنى ﴿فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمُ﴾ التمكين في البلاد: إعطاء المكنة. والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ الْمَطَرُ﴾ عليهم مِدْرَارًا كثيراً، وهو حال من السماء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ من تحت أشجارهم. والمعنى: عاشوا في الخصب بين الأنهار والثمار، وسُقيا الغيث المِدرار ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يغن ذلك عنهم شيئاً ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ بدلاً منهم.

٧ - ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ مكتوباً ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ في ورق ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ هو للتأكيد لثلاثا يقولوا: ﴿سَكِرَتْ أَبْصَرُنَا﴾ [الحجر: ١٥]. ومن المحتج عليهم: العمي ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُؤْتَيْنِ﴾ تعنتاً وعناداً للحق بعد ظهوره.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلِ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾

٨ - ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾ هلا . ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ على النبي ﷺ ﴿مَلَكٌ﴾ يكلّمنا أنّه نبي . فقال الله : ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لقضي أمر هلاكهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين ؛ لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون . ومعنى ﴿ثم﴾ بعد ما بين الأمرين : قضاء الأمر ، وعدم الإنظار . جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر ؛ لأنّ مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة .

٩ - ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ﴾ ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا ؛ لأنهم كانوا يقولون تارة : لولا أنزل على محمد مَلَكٌ ، وتارة يقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم ، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأرسلناه في صورة رجل ، كما كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ في أعمّ الأحوال في صورة دحية ؛ لأنهم لا ييقنون مع رؤية الملائكة في صورهم ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ ولخلطنا ، وأشكلنا عليهم من أمره إذا كان سبيله كسبيلك يا محمد ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة الإنسان : هذا إنسان ، وليس بملك . يقال : لبست الأمر على القوم ، وألبسته : إذا أشبهته ، وأشكلته عليهم .

١٠ - ثُمَّ سَلَى نَبِيَّهٖ عَلَى مَا أَصَابَهُ مِنْ اسْتَهْزَاءِ قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلِ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزئون به ، وهو الحق ، حيث أهلكوا من أجل استهزائهم به . و﴿منهم﴾ متعلق بسخروا ، كقوله : ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة : ٧٩] . والضمير للرسل . والبدال مكسورة عند أبي عمرو ، وعاصم لالتقاء الساكنين . وضمّتها غيرهما إتباعاً لضمّ التاء .

١١ - ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ والفرق

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا
سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾

بين فانظروا وبين ﴿ثم انظروا﴾ أن النظر جعل مسبباً عن السير في «فانظروا» فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. ومعنى «سيروا في الأرض ثم انظروا»: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها، وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك بـ «ثم» لتباعد ما بين الواجب والمباح.

١٢- ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿من﴾ استفهام و﴿ما﴾ بمعنى الذي في موضع الرفع على الابتداء، و﴿لمن﴾ خبره. ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ تقرير لهم، أي: هو لله لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدر أن تضيفوا منه شيئاً إلى غيره. ﴿كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أصل كتب: أوجب، ولكن لا يجوز الإجراء على ظاهره، إذ لا يجب على الله شيء للعبد، فالمراد به: أنه وعد ذلك وعداً مؤكداً، وهو منجزه لا محالة. وذكر النفس للاختصاص، ورفع الوسائط. ثم أوعدهم على إغفالهم النظر، وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله: ﴿لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ ليجازيكم على إشراككم. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم، أو: في الجمع. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ نصب على الذم، أي: أريد الذين خسروا أنفسهم باختيارهم الكفر ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وقال الأخفش: «الذين» بدل من ﴿كم﴾ في «ليجمعنكم» أي: ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم. والوجه هو الأول؛ لأن سيبويه قال: لا يجوز: مرت بي المسكين، ولا بك المسكين، فتجعل المسكين بدلاً من الياء، أو الكاف؛ لأنهما في غاية الوضوح، فلا يحتاجان إلى البدل والتفسير.

١٣- ﴿وَلَهُ﴾ عطف على ﴿الله﴾ ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من الشكنى، حتى يتناول الساكن والمتحرك، أو: من السكون، ومعناه: ما سكن وتحرك فيهما، فاكتمى بأحد الضدين عن الآخر كقوله: ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: الحر والبرد. وذكر السكون لأنه أكثر من الحركة. وهو احتجاج على المشركين؛ لأنهم لم ينكروا أنه خالق الكل، ومدبره ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع

قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَلْحَدُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبْ

كل مسموع، ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان^(١).

١٤ - ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَلْحَدُ وَلِيًّا﴾ ناصراً ومعبوداً. وهو مفعول ثانٍ لـ: ﴿أَتَّخِذُ﴾. والأوّل ﴿غير﴾. وإنما أدخل همزة الاستفهام على مفعول ﴿أَتَّخِذُ﴾ لا عليه؛ لأن الإنكار في اتّخاذ غير الله ولياً، لا في اتّخاذ الولي، فكان أحقّ بالتقديم ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالجذر، صفة لله، أي: مخترعهما. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم إليّ أعربيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: ابتدأتها ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ وهو يرزق ولا يُرزق. أي: المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبيّ سابق أمته في الإسلام؛ كقوله: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي: ﴿لا تكونن من المشركين﴾. ولو عطف على ما قبله لفظاً لقليل: وألا أكون، والمعنى: أُمِرْتُ بالإسلام، ونُهَيْتُ عن الشرك.

١٥ - ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إني أخاف عذاب يوم عظيم، وهو القيامة، إن عصيتُ ربي. فالشرط معترض بين الفاعل والمفعول به، محذوف الجواب.

١٦ - ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ﴾ الله الرحمة العظمى، وهي: النجاة الظاهرة. ﴿مَنْ يُصْرَفُ﴾ حمزة، وعليّ، وأبو بكر، أي: من يُصْرِفُ الله عنه العذاب ﴿وَبِذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

١٧ - ﴿وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبْ﴾ من مرض، أو فقر، أو غير ذلك من بلاياه

فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ
فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ
إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا
أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٌ﴾ من غنى، أو صيحة ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على إدامته، وإزالته.

١٨ - ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ مبتدأ وخبر. أي: الغالب المقتدر ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ خبر بعد خبر، أي: غالب عليهم بالقدرة. والقهر: بلوغ المراد بمنع غيره من بلوغه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في تنفيذ مراده ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأهل القهر من عباده.

١٩ - ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ ﴿أَيْ شَيْءٍ﴾ مبتدأ و﴿أكبر﴾ خبره و﴿شهادة﴾ تمييز. و﴿أَيْ﴾ كلمة يراد بها بعض ما تضاف إليه، فإذا كانت استفهاماً كان جوابها مسمى باسم ما أضيفت إليه. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ جواب، أي: الله أكبر شهادة. فالله: مبتدأ، والخبر: محذوف، فيكون دليلاً على أنه يجوز إطلاق اسم الشيء على الله تعالى، وهذا لأنَّ الشيء اسمٌ للموجود؛ ولا يُطلق على المعدم، والله تعالى موجود فيكون شيئاً؛ ولذا نقول: الله تعالى شيء لا كالأشياء. ثم ابتدأ ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ويجوز أن يكون الجواب ﴿الله شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، لأنه إذا كان الله شَهِيداً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فأَكْبَرُ شَيْءٍ شهادة شَهِيدٍ له ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: وَمَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. وفي الحديث: «مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ فَكَأَنَّمَا رَأَى مُحَمَّدًا ﷺ»^(١). و﴿مَنْ﴾ في محل النصب بالعطف على ﴿كُمُ﴾. والمراد به: أهل مكة، والعائد إليه محذوف، أي: ومن بلغه. وفاعل بلغ ضمير القرآن. ﴿أَتَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ استفهام إنكار، وتبكيك ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون. وكرر ﴿قُلْ﴾ تأكيداً ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ ما: كافة لـ: «أَنَّ» عن العمل. و﴿هو﴾ مبتدأ. و﴿إله﴾ خبره. و﴿واحد﴾ صفة. أو: بمعنى «الذي» في محل النصب بـ

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (١١/٢) موقوفاً على سعيد بن جبير.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّاوُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَنْ تَكُنْ فَتِنُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

«إِنَّ»، و«هو» مبتدأ. و«إله» خبره. والجملة: صلة الذي. و«واحد»: خبر إن. وهذا الوجه أوقع ﴿وَلَا تَرَىٰ بِمَنَا شُرَكَاءَ﴾ به.

٢٠ - ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: اليهود والنصارى. والكتاب: التوراة، والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: رسول الله ﷺ بحليته، ونعته الثابت في الكتابين ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بحلاهم، ونعوتهم. وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به، وبصحة نبوته. ثُمَّ قَالَ: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من المشركين، ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به.

٢١ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام يتضمن معنى النفي، أي: لا أحد أظلم لنفسه. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وأشنعه: اتخذ المخلوق معبوداً. ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ اختلق. ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيصفه بما لا يليق به ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بالقرآن، والمعجزات ﴿إِنَّهُمْ﴾ إن الأمر، والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ جمعوا بين أمرين باطلين، فكذبوا على الله ما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وسموا القرآن والمعجزات: سحراً.

٢٢ - ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ هو مفعول به، والتقدير: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشُرهم﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المفعول ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مع الله غيره، توبيخاً. وبالياء فيهما: يعقوب ﴿إِنَّا سُرَّاوُكُمْ﴾ ألهتكم التي جعلتموها شركاء لله ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان.

٢٣ - ﴿ثُمَّ لَنْ تَكُنْ﴾ وبالياء: حمزة، وعلي. ﴿فَتِنُهُمْ﴾ كفرهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يعني: ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وقتلوا عليه إلا جحوده، والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من التدين به. أو: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا، فسُمي فتنة لأنه كذب. ويرفع الفتنة: مكى،

أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا

وشامي، وحفص. فمن قرأ: ﴿تكن﴾ بالتاء، ورفع الفتنة، فقد جعل الفتنة اسم تكن، و﴿أن قالوا﴾ الخبر، أي: لم يكن فنتهم إلا قولهم. ومن قرأ بالتاء، ونصب الفتنة حمل على المقالة ﴿ربنا﴾ حمزة، وعلي، على النداء، أي: يا ربنا. وغيرهما بالجر على النعت من اسم الله.

٢٤ - ﴿أَنْظُرْ﴾ يا محمد. ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بقولهم: ما كنا مشركين. قال مجاهد: إذا جمع الله الخلائق، ورأى المشركون سعة رحمة الله، وشفاعة رسول الله ﷺ للمؤمنين، قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد، فإذا قال الله لهم: ﴿إِنَّ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]. قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فيختم الله على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحهم ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ وغاب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ إلهيته، وشفاعته.

٢٥ - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو القرآن. روي أنه اجتمع أبو سفيان، والوليد، والنضر، وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال: والله ما أدري ما يقول محمد إلا أنه يحرك لسانه، ويقول أساطير الأولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأراه حقاً، فقال أبو جهل: كلا. فنزلت ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كنان، وهو: الغطاء، مثل عنان وأعنة ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقلاً يمنع من السمع. ووحد الوقر لأنه مصدر، وهو عطف على أكنة، وهو حجة لنا في الأصلح^(١) على المعتزلة ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿حتى﴾ هي التي تقع بعدها الجمل. والجملة قوله: ﴿إِذَا جَاءُوكَ... يقول الذين كفروا﴾. و﴿يجادلونك﴾ في موضع الحال. ويجوز

(١) وهو قول المعتزلة: إن الله لا يفعل إلا الصلاح والخير، وسموا ذلك عدلاً.

إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلُنَا نَرُدُّ وَلَا نُنْكَذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ

أن تكون جارة، ويكون ﴿إذا جاؤوك﴾ في موضع الجر بمعنى حتى وقت مجيئهم. و﴿يجادلونك﴾ حال، و﴿يقول الذين كفروا﴾ تفسير له. والمعنى: أنه بلغ تكذيبهم: الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك. وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما القرآن ﴿إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فيجعلون كلام الله أكاذيب. وواحد الأساطير: أسطورة.

٢٦ - ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ينهون الناس عن القرآن، أو عن الرسول، واتباعه، والإيمان به ﴿وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ ويبعدون عنه بأنفسهم، فيضلّون ويضلّون ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يتعداهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنون أنهم يضرّون رسول الله. وقيل: غني به أبو طالب؛ لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرّض لرسول الله ﷺ، وينأى عنه فلا يؤمن به. والأوّل أشبه.

٢٧ - ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ حذف جوابه، أي: ولو ترى لشاهدت أمراً عظيماً ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أروها حتى يعاينوها، أو حُبسوا على الصراط فوق النار ﴿فَقَالُوا يَلَيْلُنَا نَرُدُّ﴾ إلى الدنيا. تمنّوا الردّ إلى الدنيا ليؤمنوا، وتمّ تمنّهم. ثم ابتدؤوا بقوله: ﴿وَلَا نُنْكَذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ واعددين الإيمان، كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب، ونؤمن. ﴿وَلَا نُنْكَذِبُ﴾ ونكون ﴿حزمة، وحفص، على جواب التمني بالواو، وبإضمار أن، ومعناه: إن رُدُّدُنَا لم نكذب، ونُكُنْ من المؤمنين. وافقهما في ﴿ونكون﴾ شامي.

٢٨ - ﴿بَلْ﴾ للإضراب عن الوفاء بما تمنّوا ﴿بَدَاهُمْ﴾ ظهر لهم ﴿مَّا كَانُوا يَخْشَوْنَ﴾ من الناس ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا من قبائحهم، وفضائحهم في صحفهم.

وقيل: هو في المنافقين، وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسترّونه، أو في أهل الكتاب، وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحّة نبوة رسول الله ﷺ ﴿وَلَوْ

رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوْا إِنِّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوْثِيْنَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوْا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ؕ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ؕ قَالُوْا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ؕ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِيْنَ كَذَبُوْا بِقَوْلِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوْا يَٰحَسْرَتُنَا

رُدُّوْا ﴿ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴾ لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ ﴿ من الكفر ﴾ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ ﴿ فيما وعدوا من أنفسهم، لا يوفون به .

٢٩ - ﴿ وَقَالُوْا ﴾ عطف على ﴿ لعادوا ﴾ أي: ولو رُدُّوا لكفروا، ولقالوا: ﴿ إِنِّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾، كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة [أو على قوله ﴿ وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي: وإِنَّهُمْ لِقَوْم كَاذِبُونَ في كل شيء، وهم الذين قالوا: إِنِّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا] ^(١). و﴿ هي ﴾ كناية عن الحياة، أو: هو ضمير القصة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوْثِيْنَ ﴾

٣٠ - ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوْا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاقبه، أو: وقفوا على جزاء ربهم ﴿ قَالَ ﴾ جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قال لهم ربهم إِذْ وَقَفُوا عَلَيْهِ؟ فقيل: قال ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا ﴾ أي: البعث ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالكائن الموجود. وهذا تعبيرٌ لهم على التكذيب للبعث، وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث: ما هو بحق ﴿ قَالُوْا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أقروا، وأكدوا الإقرار باليمين ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ ﴾ بكفركم.

٣١ - ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِيْنَ كَذَبُوْا بِقَوْلِ اللَّهِ ﴾ ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، أو: هو مجرى على ظاهره؛ لأنَّ منكر البعث منكر للرؤية ﴿ حَتَّىٰ ﴾ غاية لـ (كذبوا) لـ (خسر)؛ لأن خسranهم لا غاية له ﴿ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ ﴾ أي: القيامة؛ لأن مدة تأخرها مع تأبّد ما بعدها كساعة واحدة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة. وانتصابها على الحال يعني: باغته، أو: على المصدر، كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة. وهي: ورود الشيء على صاحبه من غير علمه بوقته ﴿ قَالُوْا يَٰحَسْرَتُنَا ﴾ نداء تفجّع، معناه: يا

(١) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل، وهو مستدرك من المطبوع.

عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُنَا الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾

حسرة احصري، فهذا أوانك ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ قَصَرْنَا ﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا، أو: في الساعة، أي: قَصَرْنَا في شأنها، وفي الإيمان بها ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أثامهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ خصَّ الظهر؛ لأن المجهود حمل الأثقال على الظهر كما عهد الكسب بالأيدي. وهو مجاز عن اللزوم على وجه لا يفارقهم. وقيل: إِنَّ الكافر إذا خرج من قبره استقبله أقبح شيء صورة، وأخبثه ربحاً، فيقول: أنا عمك السيء، فطالما ركبتني في الدنيا، وأنا أركبك اليوم ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾ بنس شيئاً يحملونه. وأفاد ﴿أَلَا﴾ تعظيم ما يذكر بعده.

٣٢ - ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ جواب لقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]. واللعب: ترك ما ينفع بما لا ينفع. واللهو: الميل عن الجد إلى الهزل. قيل: ما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو. وقيل: ما أعمال الحياة الدنيا إلا لعب ولهو؛ لأنها لا تُعَبِّ منفعة، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة ﴿وَلَلدَّارُ﴾ مبتدأ ﴿الْآخِرَةُ﴾ صفتها ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ بالإضافة: شامي، أي: ولدَار الساعة الآخرة؛ لأن الشيء لا يضاف إلى صفته. وخبر المبتدأ على القراءتين ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. وفيه دليل على أَنَّ ما سوى أعمال المتقين لعب ولهو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء: مدني، وحفص.

٣٣ - ولما قال أبو جهل: وما نكذبك يا محمد! وإنك عندنا لمصدق، وإنما نكذب ما جئتنا به نزل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُنَا الَّذِي يَقُولُونَ﴾ والهاء: ضمير الشأن ﴿لَيَحْزَنُنَا الَّذِي يَقُولُونَ﴾ لا ينسبونك إلى الكذب. وبالتخفيف: نافع، وعلي، من: أَكْذَبُهُ: إذا وجده كاذباً ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ من إقامة البظاهر مقام المضمّر. وفيه دلالة على أنهم ظلموا في جحودهم. والباء يتعلق بـ «يجحدون»، أو بـ «الظالمين»، كقوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣]. والمعنى: أن تكذيبك أمرٌ راجعٌ إلى الله؛ لأنك رسوله المصدق بالمعجزات، فهم لا يكذبونك في الحقيقة، وإنما يكذبون الله؛ لأن تكذيب الرسول تكذيب المرسل.

وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَمْرَسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ
أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ

٣٤ - ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ. وهو دليلٌ على أن قوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ ليس بنفي لتكذيبه. وإنما هو من قولك لغلامك إذا أهانه بعض الناس: إنهم لم يهينوك، وإنما أهانوني ﴿فَصَبَرُوا﴾ الصبر: حبس النفس على المكروه ﴿عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا﴾ على تكذيبهم، وإيذائهم ﴿حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لمواعيده، من قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِيعَادِنَا الْأَمْرَسَلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصفات: ١٧١ - ١٧٢] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَمْرَسَلِينَ﴾ بعض أنبيائهم، وقصصهم، وما كابدوا من مصابرة المشركين. وأجاز الأخفش أن تكون «من» زائدة، و«الفاعل»: نبي المرسلين. وسيبويه لا يميز زيادتها في الواجب.

٣٥ - كان يكبر على النبي ﷺ كفر قومه، وإعراضهم، ويحب مجيء الآيات ليسلموا، فنزل: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ عظم، وشق ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإسلام ﴿فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِي نَفَقًا﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض، حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صفة لنفقاً ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ﴾ منها ﴿بِآيَةٍ﴾ فافعل، وهو جواب ﴿فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ﴾. وإن استطعت وجوابها جواب ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ﴾. والمعنى: إنك لا تستطيع ذلك. والمراد: بيان حرصه على إسلام قومه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض، أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ لجعلهم بحيث يختارون الهدى، ولكن لما علم أنهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك، كذا قاله الشيخ أبو منصور - رحمه الله - ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من الذين يجهلون ذلك.

٣٦ - ثم أخبر أن حرصه على هدايتهم لا ينفع لعدم سمعهم كالموتى بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يجيب دعاءك الذين يسمعون

وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَّا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُفُّوا فِي الظُّلُمَاتِ

دعاءك بقلوبهم ﴿وَالْمَوْتَى﴾ مبتدأ. أي: الكفار ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فحينئذ يسمعون. وأما قبل ذلك فلا.

٣٧ - ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ هلا أنزل عليه ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كما نقترح من جعل الصفا ذهباً، وتوسيع أرض مكة، وتفجير الأنهار خلالها ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ كما اقترحوا ﴿وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، أو: لا يعلمون ما عليهم في الآية من البلاء لو أنزلت.

٣٨ - ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ﴾ هي اسم لما يدب، وتقع على المذكر والمؤنث ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في موضع جر صفة لدابة ﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قيد الطيران بالجناحين لنفي المجاز؛ لأن غير الطائر قد يقال فيه: طار: إذا أسرع ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ في الخلق، والموت، والبعث، والاحتياج إلى مدبر يدبر أمر مرادها ﴿مَّا فَرَقْنَا﴾ ما تركنا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من ذلك لم نكتبه، ولم نثبت ما وجب أن يثبت. أو: ﴿الكتاب﴾ القرآن. وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: من شيء يحتاجون إليه، فهو مشتمل على ما تعبدنا به عبارة، وإشارة، ودلالة، واقتضاء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني: الأمم كلها من الدواب والطيور، فينصف بعضها من بعض، كما روي: أنه يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً. وإنما قال «إلا أُمَم» مع أفراد الدابة والطائر لمعنى الاستغراق فيهما.

٣٩ - ولما ذكر من خلائقه وأثار قدرته ما يشهد لربوبيته، وينادي على عظمته قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُفُّوا فِي الظُّلُمَاتِ﴾ لا يسمعون كلام المنبه ﴿وَبِكُمْ﴾ لا ينطقون بالحق. خابطون ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: ظلمة الجهل، والحيرة، والكفر، غافلون عن تأمل ذلك، والتفكر فيه ﴿صَمٌّ وَبِكُمْ﴾ خبر الذين، ودخول الواو لا يمنع من ذلك. و﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر آخر. ثم قال إيذاناً بأنه

مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَعْيُنَكُمْ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا

فعال لما يريد: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ أي: من يشأ الله ضلاله يُضِلُّهُ ﴿وَمَنْ يَشَأِ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فيه دلالة خلق الأفعال، وإرادة المعاصي، ونفي الأصلح.

٤٠ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ وبتلويح الهمزة: مدني. وبتركه: علي. ومعناه: هل علمتم أن الأمر كما يقال لكم، فأخبروني بما عندكم. والضمير الثاني لا محل له من الإعراب. والتاء ضمير الفاعل. ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره: أرايتكم ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ﴾ من تدعون؟ ثم بكتهم بقوله: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ أي: أختصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرر، أم تدعون الله دونها؟! ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الأصنام آلهة، فادعوها لتخلصكم.

٤١ - ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تختصونه بالدعاء دون الآلهة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ما تدعونه إلى كشفه ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إن أراد أن يتفضل عليكم ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتركون آلهتكم، أو: لا تذكرون آلهتكم في ذلك الوقت؛ لأن أذهانكم مغمورة بذكر ربكم وحده، إذ هو القادر على كشف الضرر دون غيره. ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ كأنه قيل: أرايتكم أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله؟

٤٢ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ رسلاً، فالمفعول محذوف. فكذبوهم ﴿فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ بالبؤس والضرر. أو: الأول: القحط، والجوع، والثاني: المرض، ونقصان الأنفس، والأموال ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يتذللون، ويتخشعون لربهم، ويتوبون عن ذنوبهم، فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد.

٤٣ - ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي: هلا تضرعوا بالتوبة. ومعناه:

وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا
 ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً
 فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ
 كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَقُونَ ﴿٤٦﴾

نفي التضرع، كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا، ولكنه جاء بلولا
 ليفيد: أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾
 فلم يتزجروا بما ابتلوا به ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وصاروا
 مُعْجِبِينَ بأعمالهم التي زَيَّنَها الشيطان لهم.

٤٤ - ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من البأساء والضراء، أي: تركوا الاتعاظ
 به، ولم يزجرهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الصحة، والسعة،
 وصنوف النعمة. ﴿فَتَحْنَا﴾ شامي ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخير والنعمة
 ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون، متحسرون. وأصله: الإطراق حزناً لما
 أصابه، أو ندماً على ما فاته. وإذا: للمفاجأة.

٤٥ - ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أهلكوا عن آخرهم، ولم يترك منهم
 أحد ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة، وأنه
 من أجل النعم، وأجزل القسم، أو: احمدا الله على إهلاك من لم يحمد الله.

٤٦ - ثم دل على قدرته وتوحيده بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ
 وَأَبْصَرَكُمْ﴾ بأن أصمكم وأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ فسلب العقول، والتميز
 ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ بما أخذ، وختم عليه ﴿من﴾ رفع بالابتداء، و﴿إله﴾
 خبره، و﴿غير﴾ صفة لإله، وكذا ﴿يَأْتِيكُمْ﴾ والجملة في موضع مفعولي
 ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾. وجواب الشرط: محذوف: ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ﴿الْآيَاتِ﴾
 نكررها ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذَقُونَ﴾ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها. والصدوف:
 الإعراض عن الشيء.

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَفْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي
مَلَكٌ إِنِ اتَّبَعْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

٤٧ - ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَفْتَةً ﴾ بأن لم تظهر أماراته ﴿ أَوْ
جَهْرَةً ﴾ بأن ظهرت أماراته. وعن الحسن: ليلاً أو نهاراً ﴿ هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الظَّالِمُونَ ﴾ ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم
بربهم.

٤٨ - ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ بالجنان والنيران للمؤمنين
والكفار، ولم ^(١) نرسلهم ليقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين
القاطعة، والأدلة الساطعة ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أي: داوم على إيمانه ﴿ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فلا خوف ﴿ يعقوب.

٤٩ - ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ ﴾ جعل العذاب ماساً، كأنه حي
يفعل بهم ما يريد من الآلام ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم، وخروجهم عن
طاعة الله تعالى بالكفر.

٥٠ - ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ أي: قِسْمه ^(٢) بين الخلق، وأرزاقه.
ومحل ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ النصب، عطفاً على محل «عندي خزائن الله»؛ لأنه من
جملة المقول، كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول، ولا هذا القول ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ
إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي: لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن
الله، وعلم الغيب، ودعوى الملكية، وإنما أدعي ما كان لكثير من البشر، وهو
النبوة ﴿ إِنِ اتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أي: ما أخبركم إلا بما أنزل الله علي ﴿ قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ مثل للضالّ والمهتدي، أو: لمن اتبع ما يوحى إليه،

(١) في الأصل (ولن) والتصحيح من الكشف.

(٢) قِسْم: جمع قِسْمَة: وهي النصيب.

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ

ومن لم يتبع، أو لمن يدعي المستقيم، وهو النبوة، والمحال وهو الإلهية ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان، أو: فتعلموا أنني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر، أو: فتعلموا أن اتباع ما يوحى إليّ مما لا بدّ لي منه.

٥١ - ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ بما يوحى ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المسلمون المقرون بالبعث، إلا أنهم مفرطون في العمل، فينذرهم بما أوحى إليه، أو: أهل الكتاب لأنهم مقرون بالبعث ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من ﴿يُحْشَرُوا﴾ أي: ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ غير منصورين، ولا مشفوعاً لهم ﴿لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يدخلون في زمرة أهل التقوى.

٥٢ - لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِنْذَارِ غَيْرِ الْمُتَّقِينَ لِيَتَّقُوا، أمر بعد ذلك بتقريب المتقين، ونهى عن طردهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم، أي: عبادته، ويواظبون عليها. والمراد بذكر الغداة والعشي: الدوام؛ أو: معناه: يصلون صلاة الصبح والعصر، أو الصلوات الخمس. (بالغدوة) شامي. ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. فالوجه يعبر به عن ذات الشيء، وحقيقته. نزلت في الفقراء: بلال، وصهيب، وعمار، وأصراهم، حين قال رؤساء المشركين: لو طردت هؤلاء السقاط لجالسناك. فقال ﷺ: «ما أنا بطارد المؤمنين». فقالوا: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، وطلبوا بذلك كتاباً، فدعا علياً - رضي الله عنه - ليكتب، فقام الفقراء، وجلسوا ناحية، فنزلت. فرمى ﷺ بالصحيفة، وأتى الفقراء، فعانقهم^(١) ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ [الشعراء: ١١٣] ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم، فقال: حسابهم عليهم لازم لهم، لا يتعداهم إليك، كما أن

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٦).

فَطَرْدَهُمْ فِتْكَوْنَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

حسابك عليك لا يتعداك إليهم ﴿فَطَرْدَهُمْ﴾ جواب النفي، وهو: ﴿ما عليك من حسابهم﴾ ﴿فِتْكَوْنَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب النهي: وهو ﴿ولا تطرد﴾. ويجوز أن يكون عطفًا على ﴿فطردهم﴾ على وجه التسيب؛ لأنَّ كونه ظالمًا مسبَّب عن طردهم.

٥٣ - ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفتن العظيم ابتلينا الأغنياء بالفقراء ﴿لِيَقُولُوا﴾ أي: الأغنياء ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: أنعم الله عليهم بالإيمان. ونحن المقدمون والرؤساء، وهم الفقراء؟! إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق، وممنوناً عليهم من بينهم بالخير. ونحوه: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بمن يشكر نعمته.

٥٤ - ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم، وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم، وتطيباً لقلوبهم. وكذا قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ من جملة ما يقول لهم ليشرهم بسعة رحمة الله، وقبوله التوبة منهم. ومعناه: وعدكم بالرحمة وعداً مؤكداً ﴿أَنْتُمْ﴾ الضمير للشان ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ ذنباً ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: عملة وهو جاهل بما يتعلق به من المضرة، أو: جُعِلَ جاهلاً لإيثاره المعصية على الطاعة ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد السوء، أو العمل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ وأخلص توبته ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ «أنه» «فإنه» شامي، وعاصم. الأول: بدل الرحمة، والثاني: خبر مبتدأ محذوف، أي: فشأنه أنه غفور رحيم. «أنه»، «فإنه» مدني، الأول: بدل الرحمة، والثاني: مبتدأ.

وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيْعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ

«إنه» «فأنه» غيرهم على الاستئناف. كأن الرحمة استفسرت فقيل: «إنه من عمل منكم».

٥٥ - ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ﴾ وبالياء: حمزة، وعليّ، وأبو بكر. ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ بالنصب مدنيّ. غيره بالرفع. فرفع السبيل مع التاء والياء لأنها تذكر وتؤنث. ونصب السبيل مع التاء على خطاب الرسول ﷺ. يقال: استبان الأمر، وتبين، واستبنته، وتبينته. والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن، ونلخصها في صفة أحوال المجرمين من هو مطبوع على قلبه، ومن يرجى إسلامه. ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلّا منهم بما يجب أن يُعامل به، فصلنا ذلك التفصيل.

٥٦ - ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: صُرفت وزجرت بأدلة العقل والسمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله ﴿قُلْ لَا آتِيْعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ أي: لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل، وهو بيانٌ للسبب الذي منه وقعوا في الضلال ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فأنا ضالّ ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ في شيء. يعني: أنكم كذلك.

٥٧ - ولما نفى أن يكون الهوى متبعاً لله على ما يجب اتباعه بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: إني من معرفة ربّي، أنه لا معبود سواه على حجة واضحة. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ حيث أشركتم به غيره. وقيل: ﴿على بينة من ربي﴾ على حجة من جهة ربي، وهو القرآن ﴿وكذبتُم به﴾ بالبينّة. وذكر الضمير على تأويل البرهان، أو البيان، أو القرآن. ثم عقبه بما دلّ على أنهم أحقّاء بأن يعاقبوا بالعذاب، فقال: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني: العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْكَ حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تأخير عذابكم ﴿يَقْضُ الْحَقَّ﴾ حجازي،

وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجُلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ

وعاصم، أي: يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به، ويقدره، من: قص أثره. الباكون ﴿يَفْضُ الْحَقُّ﴾ في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل. ف ﴿الْحَقُّ﴾ أي القضاء: فالحق صفة لمصدر ﴿يقضي﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ﴾ أي: القاضين بالقضاء الحق، إذ الفصل هو: القضاء. وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين.

٥٨ - ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي﴾ أي: في قدرتي وإمكانتي ﴿مَا تَسْتَعِجُلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي^(١) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو ينزل عليكم العذاب في وقت يعلم أنه أردع.

٥٩ - ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ المفاتيح: جمع مفتاح، وهو: المفتاح، أو: هي خزائن العذاب والرزق، أو: ما غاب عن العباد من الثواب، والعقاب، والآجال، والأحوال. جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة؛ لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن المستوثق منها بالأغلاق، والأقفال. ومن علم مفاتيحها، وكيفية فتحها توصل إليها. فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده، لا يتوصل إليها غيره، كمن عنده مفتاح أقفال المخازن، ويعلم فتحها، فهو المتوصل إلى ما في المخازن. قيل: عنده مفاتيح الغيب، وعندك مفاتيح العيب، فمن آمن بغيبه، أسبل الله الستر على عيبه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾ من النبات، والدواب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ من الحيوان، والجواهر، وغيرهما ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنَ

(١) قال أبو السعود: وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيين الفاعل، الذي هو الله تعالى، وتهويل الأمر، ومراعاة حسن الأدب، مالا يخفى. فما قيل في تفسيره: «لأهلكتكم عاجلاً، غضباً لربي..» بمعزل من توفية المقام حقه. (تفسير أبي السعود: ١٤٢/٣).

وَرَقَةً إِلَّا يَٰعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمْتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَٰبِيسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً

وَرَقَةً إِلَّا يَٰعْلَمُهَا ﴿٥٩﴾ ما للنفي، ومن للاستغراق، أي: يعلم عددها، وأحوالها قبل السقوط وبعده ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمْتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَٰبِيسٌ﴾ عطف على ورقة، وداخل في حكمها. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ كالتركيب؛ لقوله: ﴿إِلَّا يَٰعْلَمُهَا﴾ لأن معنى ﴿إِلَّا يَٰعْلَمُهَا﴾ ومعنى ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ واحد، وهو عِلْمُ الله، أو اللوح.

٦٠ - ثم خاطب الكفرة بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ أي: يقبض أنفُسكم عن التصرف بالتمام في المنام ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه من الآثام ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ ثم يوقظكم في النهار. أو: التقدير: ثم يبعثكم في النهار، ويعلم ما جرحتم فيه، فقدّم الكسب لأنه أهم. وليس فيه أنه لا يعلم ما جرحنا بالليل، ولا أنه لا يتوفانا بالنهار. فدل أن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لتوفى الآجال على الاستكمال ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في ليلكم ونهاركم. قال بعض أهل الكلام: إن لكل حاسة من هذه الحواس روحاً تُقبض عند النوم، ثم تُردُّ إليها إذا ذهب النوم فأما الروح التي تحيا بها النفس، فإنها لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل. والمراد بالأرواح: المعاني والقوى التي تقوم بالحواس، ويكون بها السمع، والبصر، والأخذ، والمشي، والشم. ومعنى ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾: أي: يوقظكم، ويرد إليكم أرواح الحواس. فيستدل به على مُنكري البعث؛ لأنه بالنوم يذهب أرواح هذه الحواس، ثم يردّها إليها، فكذا يجبي الأنفس بعد موتها.

٦١ - ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة حافظين لأعمالكم، وهم الكرام الكاتبون؛ ليكون ذلك أزر للعباد عن ارتكاب الفساد

حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيسِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجِنَا مِنْ هَٰذَا ۖ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ

إذا تفكروا: أَنَّ صحائفهم تعرض على رؤوس الأشهاد ﴿ حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ «حتى» لغاية حفظ الأعمال. أي: وذلك دأبُ الملائكة مع المكلف مدة الحياة إلى أن يأتيه الممات ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أي: استوفت روحه، وهم: ملك الموت وأعوانه. توفيه واستوفيه بالإمالة: حمزة ﴿ رُسُلُنَا ﴾ أبو عمرو ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ لا يتوانون، ولا يؤخرون.

٦٢ - ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى حكمه وجزائه، أي: رُدُّ المتوفون برَدِّ الملائكة ﴿ مَوْلَاهُم ﴾ مالِكهم الذي يلي عليهم أمورهم ﴿ الْحَقُّ ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق. وهما صفتان لله ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ يومئذ، لا حكم فيه لغيره ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيسِينَ ﴾ لا يشغله حسابٌ عن حساب، يحاسب جميع الخلق في مقدار حَلْبِ شاة. وقيل: الردُّ إلى مَنْ رَبَّكَ خيرٌ من البقاء مع مَنْ أَذَاكَ.

٦٣ - ﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ ﴾ ﴿ يُنْجِيكُمْ ﴾ ابن عباس ﴿ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما، أو: ظلمات البرِّ: الصواعق، والبحر: الأمواج، وكلاهما في الغيم والليل ﴿ تَدْعُونَهُ ﴾ حال من ضمير المفعول في ﴿ يُنْجِيكُمْ ﴾ ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ معلنين الضراعة، وهو مصدر في موضع الحال. وكذا ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ أي: مسرين في أنفسكم. ﴿ خُفْيَةً ﴾ حيث كان: أبو بكر، وهما لغتان ﴿ لَّيْنٍ أَنْجِنَا ﴾ عاصم. وبالإمالة: حمزة، وعلي. الباقون: ﴿ أَنْجِيتَنَا ﴾. والمعنى: يقولون لئن خلصتنا ﴿ مِنْ هَٰذَا ﴾ الظلمات ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لله تعالى.

٦٤ - ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ ﴾ بالتشديد: كوفي ﴿ مِّنْهَا ﴾ من الظلمات ﴿ وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ﴾ وغم، وحزن ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ ولا تشكرون.

٦٥ - ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾ هو الذي عرفتموه قادراً، أو: هو الكامل القدرة. فاللام يحتمل العهد والجنس ﴿ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ كما أمطر على قوم

أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِسَكُمْ شِيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَلٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ

لوط، وعلى أصحاب الفيل الحجارة ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما غرق فرعون، وخسف بقارون. أو: من قبل سلاطينكم وسفلكم. أو: هو حبس المطر، والنبات ﴿أَوْ يَلِسَكُمْ شِيْعًا﴾ أو: يخلطكم فرقا مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم مشايعة لإمام. ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم، فيختلطوا، ويشتبكوا في ملاحم القتال ﴿وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يقتل بعضكم بعضاً. والبأس: السيف. وعنه عليه السلام: «سألت الله تعالى أن لا يبعث على أمتي عذاباً من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، فأعطاني ذلك، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعني، وأخبرني جبريل: أن فناء أمتي بالسيف»^(١) ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾.

٦٦ - ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ بالقرآن، أو بالعذاب ﴿قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الصدق، أو: لا بد أن ينزل بهم ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ وكل إلي أمركم، إنما أنا منذر.

٦٧ - ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ﴾ لكل شيء يُنبأ به. يعني: إنباءهم بأنهم يعذبون، وإيعادهم به ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ وقت استقرار وحصول لا بد منه ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد.

٦٨ - ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: القرآن. يعني: يخوضون في الاستهزاء بها، والظعن فيها. وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تجالسهم، وقم عنهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ غير القرآن مما يحل، فحينئذ يجوز أن تجالسهم ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ ما نهيت عنه. ﴿يُنْسِيَنَّكَ﴾

(١) قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي بغير سند. وهو في عدة أحاديث دون خبر جبريل. (حاشية الكشاف ٣٤/٢).

فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْنَاهُ أَنْ تُبَسِّلَ نَفْسُ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ لَأُتَّخَذَ مِنْهَا أُوْلِيَاكَ

شامي. نَسَى وَأَنْسَى واحد ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى﴾ بعد أن تذكر ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

٦٩ - ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ من حساب هؤلاء الذين يخوضون في القرآن تكديباً، واستهزاء ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيءٌ مما يحاسبون عليه من ذنوبهم ﴿وَلَكِنْ﴾ عليهم أن يذكروهم ﴿ذِكْرٌ﴾ إذا سمعوه يخوضون؛ بالقيام عنهم، وإظهار الكراهة لهم، وموعظتهم. ومحل ذكرى نصب، أي: ولكن يذكروهم ﴿ذِكْرٌ﴾، أي: تذكيراً. أو: رفع، والتقدير: ولكن عليهم ذكرى. فذكرى: مبتدأ، والخبر: محذوف ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ لعلهم يجتنبون الخوض حياء، أو كراهة لمساءتهم.

٧٠ - ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي كلّفوه، ودُعُوا إليه، وهو: دين الإسلام ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ سخروا به، واستهزؤوا. ومعنى ذَرَهُمْ: أعرض عنهم، ولا تبال بتكذيبهم، واستهزائهم. واللهو: ما يشغل الإنسان من هوى، أو طرب ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْنَاهُ﴾ وعظ بالقرآن ﴿أَنْ تُبَسِّلَ نَفْسُ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب، وترتَهَنَ بسوء كسبها. وأصل الإيسال: المنع ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ﴾ ينصرها بالقوة ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها بالمسألة. ولا وقَفَ على ﴿كَسَبَتْ﴾ في الصحيح؛ لأن قوله ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ صفة لنفس. والمعنى: وذكر بالقرآن كراهة أن تبسل نفس، عادمة وليّاً، وشفيعاً بكسبها ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ لَأُتَّخَذَ مِنْهَا أُوْلِيَاكَ﴾ فاعل ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ لا ضمير العدل؛ لأن العدل هنا مصدر، فلا يسند إليه الأخذ. وأما في قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] فبمعنى المفدى به، فصَحَّ إسنادُه إليه ﴿أُولِيَاكَ﴾ إشارة إلى المتخذين من دينهم لعباً ولهواً. وهو مبتدأ. والخبر:

الَّذِينَ أُتْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلُوبَكَ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمِرْنَا

﴿الَّذِينَ أُتْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ وقوله: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء سخين حار. خبر ثان لأولئك، والتقدير: أولئك المُبْسِلون ثابتٌ لهم شرابٌ من حميم. أو مستأنف ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم.

٧١ - ﴿قُلْ﴾ لأبي بكر، يقل لابنه عبد الرحمن، وكان يدعو أباه إلى عبادة الأوثان ﴿أَدْعُوا﴾ أعبد ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الضار النافع ﴿مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ ما لا يقدر على نفعنا إن دعوانه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركناه ﴿وَنُرَدُّ﴾ وَأُرَدُّ ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ راجعين إلى الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ للإسلام، وأنقذنا من عبادة الأصنام ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ كالذي ذهبت به الغيلان^(١)، ومردة الجن. والكاف في محل النصب على الحال من الضمير في ﴿نُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي: أننكص مشبهين من استهوته الشياطين. وهو استفعال من: هوى في الأرض: إذا ذهب فيها، كأن معناه: طلبت هويته ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في المهمة^(٢) ﴿حَيْرَانٌ﴾ حال من مفعول استهوته، أي: تائهاً ضالاً عن الجادة، لا يدري كيف يصنع ﴿لَهُ﴾ لهذا المستهوي ﴿أَصْحَابٌ﴾ رفقة ﴿يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَى﴾ إلى أن يهدوه الطريق. سمي الطريق المستقيم: بالهدى. يقولون له: ﴿أَتَيْنَا﴾ وقد اغتسفت المهمة^(٣) تابعاً للجن لا يحييهم، ولا يأتهم. وهذا مبني على ما يقال: إن الجن تستهوي الإنسان، والغيلان تستولي عليه. فشبه به الضال عن طريق الإسلام، التابع لخطوات الشيطان، والمسلمون يدعونه إليه، فلا يلتفت إليهم ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ وهو الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ وحده، وما وراءه ضلال ﴿وَأَمِرْنَا﴾ محله

(١) «الغيلان»: جمع غول، نوع من الشياطين كانت العرب تزعم أنها تظهر للناس في القلاة، فَتَلَوْنَ لَهُمْ فِي صَوْرٍ شَتَّى وَتُضَلِّلُهُمْ وَتُهْلِكُهُمْ.

(٢) «المهمة»: المفازة البعيدة، جمع: مهامه.

(٣) «اغتسفت الطريق»: سار فيه على غير هدى.

لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَقُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ
كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئَا
أَصْنَامَاءَ إِلَهَةٍ إِيَّيَّكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾

النصب بالعطف على محل ﴿إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى﴾ على أنهما مقولان: كأنه
قيل: قل هذا القول، وقل: أمرنا ﴿لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٧٢ - ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ والتقدير: وأمرنا لأن نسلم، ولأن أقيموا،
سلام وإقامة الصلاة ﴿وَأَتَقُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴿٧٢﴾ بالحكمة، أو محققاً
مُحْنٌ فَيَكُونُ ﴿٧٢﴾ على الخبر دون الجواب ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ مبتدأ، و﴿يَوْمَ﴾
مقدماً عليه، كما تقول: يوم الجمعة قولك الصدق، أي: قولك
يوم الجمعة. واليوم بمعنى الحين. والمعنى: أنه خلق السموات
، والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء: كن فيكون ذلك
نقّ والحكمة، أي: لا يكون شيئاً من السموات والأرض وسائر
ن حكمة وصواب ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ ظرف
الملك ﴿فِي الصُّورِ﴾ هو القَرْنُ بلغة اليمن، أو: جمع صورة^(١)
، هو ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ﴾ ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ أي: السر والعلانية ﴿وَهُوَ﴾
الإفناء والإحياء ﴿الْخَبِيرُ﴾ بالحساب والجزاء.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئَا ﴿٧٤﴾ هو اسم أبيه، أو لقبه؛ لأنه خلاف بين
أبيه تَارَحَ. وهو عطف بيان لأبيه، وزنه فاعل ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا
ءَالِهَةً﴾ استفهام توبيخ، أي: أتتخذها آلهة، وهي لا تستحق الإلهية ﴿إِيَّيَّكَ
وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

(١) الصُّور: قَرْنٌ من نور يُنْفَخُ فيه، النفخة الأولى للفناء، والثانية للإنشاء. وليس جمع
صورة كما زعم بعضهم؛ أي يُنْفَخُ في صُورِ الموتى على ما نُبَيِّنُهُ. (القرطبي: ٢٠/٧).

وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾

٧٥ - ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما أريناه فُتِّحَ الشرك ﴿نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: نري بصيرته لطائف خلق السموات والأرض. و﴿نري﴾ حكاية حال ماضية. والملكوت أبلغ من المُلْك؛ لأن الواو والتاء ترادان للمبالغة. قال مجاهد: فُرِجَتْ له السموات السبع، فنظر إلى ما فيهنّ، حتى انتهى نظره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع، حتى نظر إلى ما فيهنّ ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فعلنا ذلك. أو: ليستدل ﴿وليكون من الموقنين﴾ عياناً، كما أيقن بيانا.

٧٦ - ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: أظلم، وهو عطف على ﴿قال إبراهيم لأبيه﴾. وقوله: ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾ جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ أي: الزُّهْرَة، أو المشتري. وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام، والشمس، والقمر، والكواكب، فأراد أن ينبتهم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم: أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أنّ شيئاً منها ليس بآله لقيام دليل الحدوث فيها، ولأنّ لها مُخْدِثاً أحدثها، ومدبّراً دبّر طلوعها، وأفولها، وانتقالها، ومسيرها، وسائر أحوالها. فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: قال لهم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ في زعمكم، أو: المراد أهذا؟ استهزاء بهم، وإنكاراً عليهم. والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت. والصحيح أنّ هذا قول من ينصف خصمه، مع علمه أنّه مُبْطِل، فيحكي قوله كما هو غير متعصّب لمذهبه؛ لأنّه أدعى إلى الحقّ، وأنجى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته، فيبطله بالحقّة ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ غاب ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أي: لا أحبّ عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال؛ لأنّ ذلك من صفات الأجسام.

٧٧ - ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ مبتدئاً في الطلوع ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ

فَلَمَّا رَأَى السَّمَاسَ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِرَ إِلَيَّ بَرِّي ﴿٧٨﴾ وَمِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٩﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٠﴾ وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالِ أُنْحَاجُوْنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا

يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٨﴾ نَبه قومه على أن من اتخذ القمر إلهاً فهو ضالٌّ. وإنما احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؛ لأن الاحتجاج به أظهر، لأنه انتقال مع خفاء، واحتجاب.

٧٨ - ﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمَاسَ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وإنما ذكره لأنه أراد: الطالع، أو: لأنه جعل المبتدأ مثل الخبر؛ لأنهما شيء واحد معنى، وفيه صيانة الرب عن شبهة التأنيث. ولهذا قالوا في صفات الله تعالى: علام، ولم يقولوا: علامة، وإن كان الثاني أبلغ، تفادياً من علامة التأنيث ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ من باب استعمال التصفة أيضاً مع خصومه ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِرَ إِلَيَّ بَرِّي﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها. وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه، فحكاه الله تعالى، والأول أظهر لقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

٧٩ - ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: للذي دلت هذه المحدثات على أنه منشئها ﴿حَنِيفًا﴾ حال، أي: مائلاً عن الأديان كلها إلى الإسلام ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بالله شيئاً من خلقه.

٨٠ - ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ﴾ في توحيد الله تعالى، ونفي الشركاء عنه ﴿قَالَ أُنْحَاجُوْنِي فِي اللَّهِ﴾ في توحيده ﴿أُنْحَاجُوْنِي﴾^(١) مدني، وابن ذكوان ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ إلى التوحيد. وبالباء في الوصل: أبو عمرو. لما خوفوه أن معبوداتهم تصيبه بسوء قال: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي: لا أخاف معبوداتكم في وقت قط؛ لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة إلا إذا شاء ربي أن يصيبني منها بضر، فهو قادر على أن يجعل فيما شاء نفعاً، وفيما شاء ضراً، لا الأصنام

وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٧﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٨﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فلا يصيب عبداً شيء من ضر أو نفع إلا بعمله ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ فتميزوا بين القادر والعاجز .

٨١ - ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ معبوداتكم، وهي مأمونة الخوف ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ ﴾ بإشراكه ﴿ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ حجة، إذ الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة. والمعنى: وما لكم تنكرون علي الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ أي: فريقَي الموحدين والمشركين ﴿ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ من العذاب ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ولم يقل: فأينا، احترازاً من تركية نفسه. ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله:

٨٢ - ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ بِشرك، عن الصديق - رضي الله عنه - ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ تم كلام إبراهيم - عليه السلام - .

٨٣ - ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم - عليه السلام - على قومه من قوله: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ إلى ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ﴿ ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ هو خبر بعد خبر ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ في العلم والحكمة. وبالتنوين: كوفي^(١). وفيه نقض قول المعتزلة في الأصلح. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ بالرفع. ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالأهل.

٨٤ - ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ لإبراهيم. ﴿ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ أي:

(١) أي: ﴿درجاتٍ﴾، وبغير التنوين ﴿درجاتٍ﴾.

وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ

كلهم، وانتصب كلاً بهدينا ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ أي: وهدينا نوحاً ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ الضمير لنوح، أو: لإبراهيم، والأول أظهر، لأن يونس ولوطاً لم يكونا من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ والتقدير: وهدينا من ذريته هؤلاء ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ونجزي المحسنين جزاءً مثل ذلك. فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف.

٨٥ - ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ﴾ أي: كلهم ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وذكر عيسى معهم دليل على أن النسب يثبت من قبل الأم أيضاً؛ لأنه جعله من ذرية نوح - عليه السلام - وهو لا يتصل به إلا بالأم. وبذا أجيب الحجاج حين أنكر أن يكون بنو فاطمة أولاد النبي - عليه السلام -.

٨٦ - ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ «واللّٰسَع» حيث كان بلامين: حمزة، وعلي ﴿وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالنبوة، والرسالة.

٨٧ - ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ في موضع النصب عطفاً على ﴿كُلًّا﴾ أي: وفضلنا بعض آبائهم ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

٨٨ - ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما دان به هؤلاء المذكورون. ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ دين الله ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ فيه نقض قول المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الله شاء هداية الخلق كلهم، لكنهم لم يهتدوا ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ مع فضلهم، وتقدمهم، وما رفع لهم من الدرجات العلى ﴿لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لبطلت أعمالهم، كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

٨٩ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد الجنس ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة، أو:

وَالنُّبُوَّةُ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَشْتَكُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ

فهم الكتاب ﴿وَالنُّبُوَّةُ﴾ وهي أعلى مراتب البشر ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ بالكتاب، والحكم، والنبوة، أو: بآيات القرآن ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أي: أهل مكة ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ هم الأنبياء المذكورون، ومن تابعهم، بدليل قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، أو: أصحاب النبي ﷺ، أو: كل من آمن به، أو العجم. ومعنى توكيلهم بها: أنهم وفقوا للإيمان بها، والقيام بحقوقها، كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به، ويتعهده، ويحافظ عليه. والباء في: ﴿لَّيْسُوا بِهَا﴾ صلة كافرين. وفي: ﴿يَكْفُرِينَ﴾ لتأكيد النفي.

٩٠ - ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: الأنبياء الذين مرَّ ذكرهم ﴿فَبْهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ فاختص هداهم بالافتداء، ولا تقتد إلا بهم. وهذا معنى تقديم المفعول. والمراد بهداهم: طريقتهم في الإيمان بالله، وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع، فهي مختلفة. والهاء في ﴿اقْتَدِهْ﴾ للوقف، تسقط في الوصل. واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف. ويحذفها حمزة، وعلي في الوصل. ويختلسها شامي ﴿قُلْ لَا أَشْتَكُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على الوحي، أو: على تبليغ الرسالة، والدعاء إلى التوحيد ﴿أَجْرًا﴾ جُعلاً. وفيه دليل على أن أخذ الأجر على تعليم القرآن، ورواية الحديث لا يجوز ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ما القرآن إلا عظة للجن والإنس.

٩١ - ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده حين أنكروا بعثة الرسل، والوحي إليهم. وذلك من أعظم رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. روي أن جماعة من اليهود منهم مالك بن الصيف، كانوا يجادلون النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له: «أليس في التوراة أن الله يبغض الخبز السمين؟» قال: نعم. قال:

قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ

«فأنت الخبر السمين». فغضب، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء^(١). و﴿حق قدره﴾ منصوب نصب المصدر ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ حال من الضمير في ﴿به﴾ أو: من ﴿الكتاب﴾ ﴿وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مما فيه نعت رسول الله ﷺ. أي: بغضوه، وجعلوه قراطيس مقطعة، وورقات مفرقة؛ ليستمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء. وبالياء في الثلاثة: مكى، وأبو عمرو ﴿وَعِلَّمْتُمْ﴾ يا أهل الكتاب بالكتاب ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ من أمور دينكم، ودنياكم ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ جواب، أي: أنزله الله فإنهم لا يقدر أن ينكروك ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من ﴿ذرهم﴾ أو: من ﴿خوضهم﴾.

٩٢ - ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ على نبينا ﷺ ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير المنافع، والفوائد ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿وَلِتُنْذِرَ﴾ وبالياء: أبو بكر، أي: الكتاب. وهو معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب. كأنه قيل: أنزلناه للبركات، وتصديق ما تقدمه من الكتب، ولإنذار ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ مكة. وسميت أم القرى لأنها سرّة الأرض، وقبله أهل القرى، وأعظمها شأنًا، ولأن الناس يؤمنونها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يصدقون بالعاقبة، ويحافظونها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بهذا الكتاب. فأصل الدين: خوف العاقبة، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ خصت الصلاة بالذكر؛ لأنها علم الإيمان، وعماد الدين، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهراً.

٩٣ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هو مالك بن الصيف ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ

إِلَىٰ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي
 غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
 الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ
 جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ

إِلَىٰ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴿٩٣﴾ هو مسيلمة الكذاب ﴿وَمَنْ قَالَ﴾ في موضع جرّ عطف على
 ﴿من افترى﴾ أي: وممن قال ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: سأقول وأملي. هو
 عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتب الوحي. وقد أملى النبي ﷺ عليه: ﴿ولقد
 خلقنا الإنسان﴾ إلى ﴿خلقاً آخر﴾، فجرى على لسانه: ﴿فتبارك الله أحسن
 الخالقين﴾ فقال: «اكتبها فكذلك نزلت»، فشكّ وقال: إن كان محمد صادقاً فقد
 أوحى إليّ كما أوحى إليه، وإن كان كاذباً فقد قلتُ كما قال، فارتدّ ولحق
 بمكة^(١). أو: النضر بن الحارث، كان يقول: والطاحنات طحناً، فالعاجنات
 عجنأ، فالخابزات خبزأ، كأنه يعارض ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جوابه محذوف، أي: لرأيت
 أمراً عظيماً ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ يريد الذين ذكرهم من اليهود والمنتبهة، فتكون
 اللام للعهد. ويجوز أن تكون للجنس، فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله ﴿فِي غَمَرَاتِ
 الْمَوْتِ﴾ شدائده، وسكراته ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ أي:
 يبسطون إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم، أخرجوها إلينا من أجسادكم.
 وهذه عبارة عن التشديد في الإزهاق من غير تنفيس، وإمهال ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
 عَذَابَ الْهُونِ﴾ أرادوا وقت الإماتة، وما يعذبون به من شدة النزع. والهون:
 الهوان الشديد. وإضافة العذاب إليه، كقولك: رجل سوء. يريد العراقة في
 الهوان، والتمكّن فيه ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من أنّ له شريكاً،
 وصاحبة، وولداً. و﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ مفعول ﴿تَقُولُونَ﴾ أو: وصف لمصدر
 محذوف، أي: قولاً غير الحق ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تؤمنون بها.

٩٤ - ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب، والجزاء ﴿فُرْدَى﴾ منفردين بلا مال،
 ولا معين. وهو جمع: فريد، كأسير وأسارى ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ في محل نصب

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٤٨).

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَزَكَّيْتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَأَىٰ ظُهُورَكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۖ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ ۖ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۖ إِنَّ اللَّهَ قَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ۖ قَالِقُ الْإِصْبَاحِ

صفة لمصدر جتتمونا، أي: مجيئاً مثلما خلقناكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ على الهيئات التي وُلدتم عليها في الانفراد ﴿وَزَكَّيْتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ﴾ ملكناكم ﴿وَرَأَىٰ ظُهُورَكُمْ﴾ ولم تحتملوا منه نقيراً ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ في استعبادكم ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ واصلكم عن الزجاج. والبين: الوصل والهجر، قال:

فوالله لولا البينُ لم يكن الهوى ولولا الهوى ما حنَّ للبين ألف
﴿بَيْنَكُمْ﴾ مدني، وعلي، وحفص، أي: وقع التقطع بينكم ﴿وَصَلَّ عَنْكُمْ﴾ وضاع، وبطل ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفاعؤكم عند الله.

٩٥ - ﴿إِنَّ اللَّهَ قَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ بالنبات والشجر. أي: فلق الحب عن السنبلة، والنواة عن النخلة. والفلق: الشق. وعن مجاهد: أراد الشقين اللذين في النواة، والحنطة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ النبات الغض النامي من الحب اليابس ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ الحب اليابس من النبات النامي. أو: الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان. أو: المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. فاحتجَّ الله عليهم بما يشاهدونه من خلقه؛ لأنهم أنكروا البعث، فأعلمهم أنه الذي خلق هذه الأشياء، فهو يقدر على بعثهم. وإنما قال ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ بلفظ اسم الفاعل؛ لأنه معطوفٌ على قَالِقُ الْحَبِّ، لا على الفعل. و﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ موقعه موقع الجملة الميَّنة لقوله: ﴿قَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ لَأَنَّ فَلَاقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت؛ لأنَّ النامي في حكم الحيوان. دليله قوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ﴾ ذلکم المحي والميت هو الله؛ الذي تحق له الربوبية، لا الأصنام ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عنه، وعن توليه إلى غيره بعد وضوح الأمر بما ذكرنا.

٩٦ - ﴿قَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ هو مصدر سُمي به الصبح، أي: شاق عمود الصبح

وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ

عن سواد الليل، أو: خالق نور النهار ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ﴾ ^(١) كوفي؛ لأن اسم الفاعل الذي قبله بمعنى المضي، فلما كان فالتق بمعنى فلق عطف عليه جعل لتوافقهما معنى ﴿سَكَنًا﴾ مسكوناً فيه، من قوله: ﴿لَسْتُ كُنْتُ أَوِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]. أي: ليسكن فيه الخلق عن كد المعيشة إلى نوم الغفلة، أو عن وحشة الخلق إلى الأنس بالحق ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ انتصبا بإضمار فعل يدل عليه «جاعل الليل» أي: وجعل الشمس والقمر ﴿حُسْبَانًا﴾ أي: جعلهما علمي حسان، لأن حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما. والحُسان - بالضم - مصدر حسب، كما أن الحُسان - بالكسر - مصدر حسب ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حساناً، أي: ذلك التيسير بالحساب المعلوم ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما، وسخرهما ﴿الْعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما، وتدويرهما.

٩٧ - ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ خلقها ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: في ظلمات الليل بالبر والبحر، وأضافها إليهما للملاستها لهما. أو: شبه مشتبهات الطرق بالظلمات ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قد بينا الآيات الدالة على التوحيد لقوم يعلمون.

٩٨ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي آدم عليه السلام ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ - بالكسر - مكّي، وبصري. فمن فتح القاف كان المستودع اسم مكان مثله. ومن كسرهما كان اسم فاعل، والمستودع اسم مفعول. يعني: فلكم مستقر في الرحم، ومستودع في الصلب، أو: مستقر فوق الأرض، ومستودع تحتها. أو: فمنكم مستقر، ومنكم مستودع ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ

(١) في المخطوط ﴿وجاعل الليل﴾: وهي قراءة سبعية، وهي المناسبة لقوله: ﴿فالتق الإصباح﴾.

لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجٌ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وإنما قيل: يعلمون ثم، ويفقهون هنا؛ لأن الدلالة ثم أظهر، وهنا أدق؛ لأن إنشاء الإنس من نفس واحدة، وتصريفهم بين أحوال مختلفة أدق، فكان ذكر الفقه الدال على تدقيق النظر أوفق.

٩٩ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ من السحاب مطراً ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ بالماء ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ نبت كل صنف من أصناف النامي، أي: السبب، وهو الماء واحد، والمسببات صنوف مختلفة ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ﴾ من النبات. ﴿ خَضِرًا ﴾ أي: شيئاً غضاً أخضر يقال: أخضر وخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿ تُخْرِجُ مِنْهُ ﴾ من الخضر ﴿ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ وهو السنبل الذي تراكب حبه ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ هو رفع بالابتداء و﴿ مِنَ النَّخْلِ ﴾ خبره. و﴿ مِن طَلْعِهَا ﴾ بدل منه، كأنه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان. وهو جمع قنوة، وهو: العذق، نظيره: صنو، وصنوان ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ من المجتني لانحنائها بثقل حملها، أو: لقصر ساقها. وفيه اكتفاء، أي: وغير دانية لطولها كقوله: ﴿ سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ [النحل: ٨١] ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ بالنصب عطفاً على «نبات كل شيء» أي: وأخرجنا به جنات ﴿ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ أي: مع النخل وكذا: ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ﴾ وجنات بالرفع: الأعشى، أي: وثم جنات من أعناب، أي: مع النخل ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ يقال: اشتبه الشيطان وتشابها، نحو استويا وتساويا. والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً. وتقديره: والزيتون متشابهاً وغير متشابه، والرمّان كذلك، يعني: بعضه متشابه، وبعضه غير متشابه في القدر، واللون، والطعم ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يخرج ضعیفاً، لا ينتفع به ﴿ وَيَنْوِجُهُ ﴾ ونضجه. أي: انظروا إلى حال نضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع، نظر اعتبار واستدلال على قدرة مقدره، ومدبره، وناقله من حال إلى حال ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ ثَمَرِهِ ﴾ وكذا ما بعده: حمزة،

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ كُنتُمْ

وعلي، جمع ثمار، فهو جمع الجمع. يقال: ثمرة، وثمر، وثمرار، وثمرٌ.

١٠٠ - ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ إن جعلت ﴿الله شركاء﴾ مفعولي جعلوا، كان ﴿الجن﴾ بدلاً من شركاء. وإلا كان ﴿شركاء الجن﴾ مفعولين قدم ثانيهما على الأول. وفائدة التقديم: استعظام أن يتخذ الله شريك من كان ملكاً، أو جنياً، أو غير ذلك. والمعنى: أنهم أطاعوا الجن فيما سئلت لهم من شركهم، فجعلوهم شركاء لله ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد خلق الجن، فكيف يكون المخلوق شريكاً لخالقه؟! والجملة حال. أو: وخلق الجاعلين لله شركاء، فكيف يعبدون غيره؟! ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ أي: اختلقوا، يقال: خلق الإفك، وخرقه، واختلقه، واخترقه بمعنى؛ أو: هو من خرق الثوب: إذا شقه، أي: اشتقوا له ﴿بَنِينَ﴾ كقول أهل الكتابين في المسيح وعزير ﴿وَبَنَاتٍ﴾ كقول بعض العرب في الملائكة. ﴿وَخَرَقُوا﴾ بالتشديد للتكثير: مدني، لقوله: ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوا من خطأ أو صواب، ولكن رمية بقول عن جهالة. وهو حال من فاعل «خرقوا» أي: جاهلين بما قالوا ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من الشريك والولد.

١٠١ - ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقال: بدع الشيء فهو بديع. وهو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، يعني: بديع سمواته وأرضه. أو: هو بمعنى المبدع، أي: مبدعها. وهو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾. أو: هو فاعل ﴿تعالى﴾ ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ أي: من أين يكون له ولد، والولد لا يكون إلا من صاحبة ولا صاحبة له؟! أي: إن الولادة من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون له ولد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ما من شيء إلا وهو خالقه وعالمه، ومن كان كذلك كان غنياً عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج.

١٠٢ - ﴿ذَلِكَ كُنتُمْ﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدم من الصفات. وهو

اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

مبتدأ، وما بعده أخبار مترادفة، وهي: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾ مسبب عن مضمون الجملة، أي: من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة، فاعبدوه، ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: هو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق، والآجال، رقيب على الأعمال

١٠٣ - ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ لا تحيط به. أو أبصار من سبق ذكرهم. وتشبُّث المعتزلة بهذه الآية لا يستتب، لأنَّ المنفي هو الإدراك لا الرؤية، والإدراك: هو الوقوف على جوانب المرئي وحدوده. وما يستحيل عليه الحدود والجهات يستحيل إدراكه لا رؤيته، فنزّل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم، ونفي الإحاطة التي تقتضي الوقوف على الجوانب والحدود لا يقتضي نفي العلم به، فهكذا هذا. على أن مورد الآية، وهو التمدح، يوجب ثبوت الرؤية، إذ نفي إدراك ما تستحيل رؤيته لا تمدح فيه؛ لأنَّ كلَّ ما لا يرى لا يدرك، وإنما التمدح بنفي الإدراك مع تحقق الرؤية، إذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية دليل ارتفاع نقيصة التناهي والحدود عن الذات، فكانت الآية حجة لنا عليهم، ولو أنعموا النظر فيها لاغتنموا التفصي^(١) عن عهدها. ومن ينفي الرؤية يلزمه نفي أنه معلوم موجود، وإلا فكما يعلم موجوداً بلا كيفية وجهة بخلاف كلِّ موجود، لم لم يجوز أن يرى بلا كيفية وجهة بخلاف كلِّ مرئي؟. وهذا لأنَّ الرؤية تحقق الشيء بالبصر كما هو، فإن كان المرئي في الجهة يرى فيها، وإن كان لا في الجهة يرى لا فيها ﴿وَهُوَ﴾ للطف إدراكه ﴿يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ أي: العالم بدقائق الأمور، ومشكلاتها ﴿الْخَبِيرُ﴾ العليم بظواهر الأشياء، وخفياتها. وهو من قبيل اللف والنشر.

(١) «التفصي»: التلخيص منها، والبيان عنها.

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصْرِفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا لِقَوْمِهِمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ أَلَيْغَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

١٠٤ - ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصيرة: نور القلب الذي به يستبصر القلب، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر. أي: جاءكم من الوحي، والتنبيه ما هو للقلوب كالبصائر ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق، وآمن ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أبصر، وإياها نفع ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عنه وضل ﴿فَعَلَيْهَا﴾ فعلى نفسه عمي، وإياها ضرر بالعمى ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ أحفظ أعمالكم، وأجازيكم عليها. إنما أنا منذر، والله هو الحفيظ عليكم.

١٠٥ - الكاف في: ﴿وَكَذَلِكَ نُصْرِفُ الْآيَاتِ﴾ في موضع نصب صفة المصدر المحذوف، أي: نصرف الآيات تصرفاً مثل ما تلونا عليك ﴿وَلِيَقُولُوا﴾ جوابه محذوف، أي: وليقولوا: ﴿دَرَسْتَ﴾ نصرفها معنى ﴿درست﴾ قرأت كتب أهل الكتاب. ﴿دارست﴾ مكّي، وأبو عمرو، أي: دارست أهل الكتاب. ﴿دَرَسْتَ﴾ شامي، أي: قدمت هذه الآية، ومضت كما قالوا أساطير الأولين ﴿وَلِيُثَبِّتُ﴾ أي: القرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلوماً؛ أو: الآيات لأنها في معنى القرآن. قيل: اللام الثانية حقيقة، والأولى لام العاقبة والصورورة، أي: لتصير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا درست، وهو كقوله: ﴿فَالنَّفْطُ وَالْفِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهم لم يلتقطوه للعداوة، وإنما التقطوه ليصير لهم قرّة عين، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة، فكذلك الآيات صرفت للتبيين، ولم تصرف ليقولوا: درست، ولكن حصل هذا القول بتصرف الآيات، كما حصل التبيين فشبه به، وقيل: ﴿ليقولوا﴾ كما قيل ﴿لِيُثَبِّتُ﴾. وعندنا ليس كذلك لما عرف ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحق من الباطل.

١٠٦ - ﴿أَلَيْغَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولا تتبع أهواءهم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي، لا محل له من الإعراب، أو: حال من ربك مؤكدة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ في الحال إلى أن يرد الأمر بالقتال.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾
 تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ
 عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ
 أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
 جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

١٠٧ - ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إيمانهم، فالمفعول محذوف. ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ بين أنهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله، ولو علم منهم اختيار الإيمان لهداهم إليه ولكن علم منهم اختيار الشرك، فشاء شركهم، فأشركوا بمشيئته ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ مراعيًا لأعمالهم، مأخوذاً بإجرامهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ بمسلط.

١٠٨ - وكان المسلمون يستنون آلهتهم، فنهوا عنه، لئلا يكون سببهم سبباً لسبب الله بقوله: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ﴾ منصوب على جواب النهي ﴿عَدَاً﴾ ظلماً، وعدواناً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله، وبما يجب أن يذكر به ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من أمم الكفار ﴿عَمَلَهُمْ﴾ وهو كقوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]. وهو حجة لنا في الأصلح. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ مصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيخبرهم بما عملوا، ويجزيهم عليه.

١٠٩ - ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ جهد: مصدر وقع موقع الحال، أي: جاهدين في الإتيان بأوكد الأيمان ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وهو قادر عليها لا عندي، فكيف آتيكم بها؟! ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم ﴿أَنَّهَا﴾ أن الآية المقترحة ﴿إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها. يعني: أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وأنتم لا تعلمون ذلك. وكان المؤمنون يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية، ويتمنون مجيئها، فقال الله تعالى: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون، على معنى: إنكم لا تدرون ما سبق علمي من أنهم لا يؤمنون. ﴿إِنَّهَا﴾ - بالكسر - مكّي، وبصري، وأبو بكر، على أن

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَىٰ يَوْمِ الْمَلْتَمَةِ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ

الكلام تمّ قبله، أي: وما يشعركم ما يكون منهم. ثم أخبرهم بعلمه فيهم، فقال: إنها إذا جاءت لا يؤمنون ألبتة. ومنهم من جعل «لا» مزيدة في قراءة الفتح، كقوله: ﴿وَحَرَّمْ عَلَىٰ قَرَبَةٍ أَهْلَ كَنْهَاهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. ﴿لا تؤمنون﴾ شامي، وحمزة.

١١٠ - ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ عن قبول الحق ﴿وَأَبْصَرَهُمْ﴾ عن رؤية الحق عند نزول الآية التي اقترحوها، فلا يؤمنون بها. قيل: هو عطف على ﴿لا يؤمنون﴾ داخل في حكم: ﴿وما يشعركم﴾ أي: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أنا نقب أفئدتهم وأبصارهم، فلا يفقهون، ولا يبصرون الحق ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما كانوا عند نزول آياتنا أولاً لا يؤمنون بها ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قيل: وما يشعركم أنا نذرهم في طغيانهم يعمّهون يتحيرون؟!

١١١ - ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَىٰ يَوْمِ الْمَلْتَمَةِ﴾ كما قالوا: لولا أنزل علينا الملائكة ﴿وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتُ﴾ كما قالوا: فأتوا بأبائنا ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ جمعنا ﴿كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ كفلاء بصحة ما بشرنا به، وأنذرنا. جمع: قبيل، وهو: الكفيل. ﴿قُبُلًا﴾ مدني، وشامي، أي: عياناً. وكلاهما نصب على الحال ﴿مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إيمانهم، فيؤمنوا. وهذا جواب لقول المؤمنين: لعلهم يؤمنون بنزول الآية ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أن هؤلاء لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية المقترحة.

١١٢ - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ وكما جعلنا لك أعداء من المشركين، جعلنا لمن تقدّمك من الأنبياء أعداء، لما فيه من الابتلاء الذي هو سبب ظهور الثبات، والصبر، وكثرة الثواب والأجر. وانتصب ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ على البدل من: ﴿عَدُوًّا﴾؛ أو: على أنه المفعول الأول، و﴿عَدُوًّا﴾ مفعول ثان

يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُتْبِعَنِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٥﴾

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجنّ إلى شياطين الإنس، وكذلك بعض الجنّ إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض. وعن مالك بن دينار: إنّ شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجنّ؛ لأنّي إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجنّ عني، وشيطان الإنس يبيّثني، فيجرّني إلى المعاصي عياناً. وقال ﷺ: «قراءة السوء شرّ من شياطين الجنّ»^(١) ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ﴾ ما زينه من القول، والوسوسة، والإغراء على المعاصي ﴿غُرُورًا﴾ خدعاً وأخذاً على غرة، وهو المفعول له ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: الإيحاء، يعني: ولو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة، ولكنّه امتحن بما يعلم أنّه أجزل في الثواب ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ عليك وعلى الله، فإنّ الله يخزيهم، وينصرك، ويجزيهم.

١١٣ - ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولتميل إلى زخرف القول قلوب الكفار. وهي معطوفة على ﴿غُرُورًا﴾ أي: ليغتروا ﴿ولتصغى إليه﴾ ﴿وليقرضوه﴾ لأنفسهم ﴿وليقتربوا ما هم مقتربون﴾ من الآثام.

١١٤ - ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُتْبِعَنِي حَكَمًا﴾ أي: قل يا محمد: أغير الله أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم، ويفصل الحقّ منّا من المبطّل ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ المعجز ﴿مُفَصَّلًا﴾ حال من الكتاب، أي: مبيناً فيه الفصل بين الحقّ والباطل والشهادة لي بالصدق، وعليكم بالافتراء. ثمّ عَضِدَ الدلالة على أنّ القرآن حقّ بعلم أهل الكتاب أنّه حقّ؛ لتصديقه ما عندهم، وموافقه له ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ﴾ شاميّ، وحفص ﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيه أيها السامع!

(١) انظر الحديث بنحوه في تفسير ابن كثير (٢/٢١١) عن أبي ذر رضي الله عنه.

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَلَنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

أو: فلا تكونن من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق، ولا يربك جحود أكثرهم، وكفرهم به.

١١٥ - ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ما تكلم به. (كلمات ربك) حجازي، وشامي، وأبو عمرو. أي: تم كل ما أخبر به، وأمر، ونهى، ووعد، وأوعد ﴿صِدْقًا﴾ في وعده ووعيده ﴿وَعَدْلًا﴾ في أمره ونهيه. وانتصبا على التمييز، أو: على الحال ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ لا أحد يبدل شيئاً من ذلك ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لإقرار من أقر ﴿الْعَلِيمُ﴾ بإصرار من أصر. أو: السميع لما يقولون، العليم بما يضمرون.

١١٦ - ﴿وَلَنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الكفار لأنهم الأكثرون ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آبائهم كانوا على الحق، فهم يقلدونهم ﴿وَلَنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون في أن الله حرم عليهم كذا، وأحل لهم كذا.

١١٧ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو يعلم الكفار والمؤمنين. ﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام. والخبر ﴿يَضِلُّ﴾ وموضع الجملة نصب بـ يعلم المقدر، لا بأعلم؛ لأن أفعل لا يعمل في الاسم الظاهر النصب، ويعمل الجز. وقيل: تقديره: أعلم بمن يضل؛ بدليل ظهور الباء بعده في ﴿بالمهتدين﴾.

١١٨ - ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ هو مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال. وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله، فما قتل الله أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم. ف قيل للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان، فكلوا مما ذكر اسم

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظِلْهَرِ الْأَيْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِيمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِرَ إِلَى أُولِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

الله عليه خاصة، أي: على ذبحه، دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم، أو: مات حتف أنفه.

١١٩ - ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ ﴿مَا﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء، و﴿لَكُمْ﴾ الخبر. أي: وأبي غرض لكم في ألا تأكلوا؟ ﴿وَمَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ﴾ بين لكم. ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرم بقوله: ﴿حَرَّمْتُ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [المائدة: ٣] فصل وحُرِّمَ، كوفي غير حفص. ويفتحهما: مدني، وحفص. وبضمهما غيرهم ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرم عليكم، فإنه حلال لكم في حال الضرورة، أي: شدة المجاعة إلى أكله ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ﴾ يضلون: كوفي ﴿بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يضلون فيحرمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم، من غير تعلق بشريعة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمجاوزين من الحق إلى الباطل.

١٢٠ - ﴿وَذَرُوا ظِلْهَرِ الْأَيْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ علانيته وسره، أو: الزني في الخوانيت، والصديقة في السر، أو: الشرك الجلي والخفي ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِيمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون في الدنيا.

١٢١ - ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند الذبح. ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وإن أكله ﴿لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِرَ﴾ ليوسوسن ﴿إِلَى أُولِيَآئِهِمْ﴾ من المشركين ﴿لِيُجْدِلُوَكُمْ﴾ بقولهم: لا تأكلون مما قتله الله، وتأكلون مما تذبحون بأيديكم! والآية تحرم متروك التسمية. وخصت حالة النسيان بالحديث، أو بجعل الناسي ذاكراً تقديراً ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال ما حرمه الله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأن من اتبع غير الله في دينه فقد أشرك به، ومن حق المتدين ألا يأكل مما لم يذكر اسم

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا

الله عليه؛ لما في الآية من التشديد العظيم. ومن أول الآية بالميتة، وبما ذكر غير اسم الله عليه، لقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال: إن الواو في ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ للحال، لأن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يحسن، فيكون التقدير: ولا تأكلوا منه حال كونه فسقاً، والفسق مجمل، فبين بقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. فصار التقدير: ولا تأكلوا منه حال كونه مهلاً لغير الله به، فيكون ما سواه حلالاً بالعمومات المحلّة، منها قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥]، فقد عدل عن ظاهر اللفظ.

١٢٢ - ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: كافراً فهديناه؛ لأن الإيمان حياة القلوب. ﴿مَيِّتًا﴾ مدني ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ مستضيئاً به. والمراد به: اليقين ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ أي: صفته ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: خابط فيها ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ لا يفارقها، ولا يتخلص منها. وهو حال. قيل: المراد بهما: حمزة وأبو جهل. والأصح: أن الآية عامّة لكل من هداه الله، ولكل من أضله الله. فبين أن مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي، وجعل مستضيئاً يمشي في الناس بنور الحكمة والإيمان، ومثل الكافر مثل من هو في الظلمات التي لا يتخلص منها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما زين للمؤمن إيمانه ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾ بتزيين الله تعالى كقوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٤] ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أعمالهم.

١٢٣ - ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها ﴿جَعَلْنَا﴾ صيرنا ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ ليتجبروا على الناس فيها، ويعملوا بالمعاصي. واللام على ظاهرها عند أهل السنة، وليست بلام العاقبة. وخصّ الأكابر - وهم الرؤساء - لأن ما فيهم من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر من غيرهم. دليله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]. ثم سلّى رسوله ﷺ، ووعد له النصره ﴿وَمَا

وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا

يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿ لأن مكرهم يحيق بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه يحيق بهم ﴿أَكْبَرُ﴾ مفعول أول، والثاني: ﴿في كل قرية﴾، و﴿بجرميها﴾ بدل من ﴿أكابر﴾. أ: الأول: ﴿بجرميها﴾ والثاني: ﴿أكابر﴾، والتقدير: بجرميها أكابر.

١٢٤ - ولما قال أبو جهل: زاحنا بنو عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفريسي رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه. والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه نزل: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ الأكابر ﴿آيَةٌ﴾ معجزة، أ: آية من القرآن تأمرهم بالإيمان ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: نعطي من الآيات مثل ما أُعطي الأنبياء. فأعلم الله تعالى: أنه أعلم بمن يصلح للنبوة ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ مكّي، وحفص. ﴿رسالاته﴾ غيرها ﴿حيث﴾ مفعول به، والعامل محذوف، والتقدير: يعلم موضع رسالته ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ من أكابرها ﴿صَغَارٌ﴾ ذل، وهوان ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في القيامة ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدارين من القتل، والأسر، وعذاب النار ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ في الدنيا.

١٢٥ - ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يوسعه، وينور قلبه. قال ﷺ: «إذا دخل النور في القلب انشرح وانفتح». قيل: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»^(١) ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ أي: الله ﴿أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾ ﴿ضَيِّقًا﴾ مكّي ﴿حَرَجًا﴾ ﴿حَرَجًا﴾ صفة لضيقاً: مدني، وأبو بكر. بالغاً في الضيق

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٧/٨). وانظر: تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص ٣٧). تحقيق: يوسف بدوي.

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾
﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ
جَمِيعًا

﴿حَرَجًا﴾ غيرهما، وصفاً بالمصدر ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كأنه كلف أن
يصعد إلى السماء إذا دُعي إلى الإسلام، من: ضيق صدره عنه؛ أو ضاقت عليه
الأرض، فطلب مصعداً في السماء. أو: كعازب^(١) الرأي، طائر القلب في
الهواء. ﴿يَصَّعَّدُ﴾ مكِّي ﴿يَصَّاعِدُ﴾ أبو بكر، وأصله: يتصاعد. الباقون
﴿يَصَّعَّدُ﴾، وأصله: يتصعد ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ العذاب في
الآخرة، واللعنة في الدنيا ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والآية حجة لنا على المعتزلة
في إرادة المعاصي.

١٢٦ - ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ أي: طريقه الذي اقتضته الحكمة، وسنته في
شرح صدر من أراد هدايته، وجعله ضيقاً لمن أراد ضلاله ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ عادلاً،
مطرداً. وهو حال مؤكدة ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون.

١٢٧ - ﴿لَهُمْ﴾ أي: لقوم يذكرون ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ دار الله، يعني: الجنة.
أضافها إلى نفسه تعظيماً لها. أو: دار السلامة من كل آفة وكدر. أو: السلام:
التحية. سميت دار السلام لقوله: ﴿وَيَجِئُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠] ﴿إِلَّا قِيلًا
سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٦] ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في ضمانه ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ محبتهم، أو:
ناصرهم على أعدائهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأعمالهم. أو: متوليهم بجزاء
ما كانوا يعملون. أو: هو ولينا في الدنيا بتوفيق الأعمال، وفي العقبى بتحقيق
الآمال.

١٢٨ - ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ وبالياء حفص^(٢). أي: واذكر ﴿يوم

(١) «عازب الرأي»: الذي لا رأي له.

(٢) في الأصل المخطوط: ويوم نحشرهم، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو،
وابن عامر، وحزمة، والبكاسي. معجم القراءات القرآنية (٣١٨/٢).

يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ

نحشرهم. أَوْ: ﴿ويوم نحشرهم﴾ قلنا: ﴿يامعشر الجن﴾ ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أضللتهم منهم كثيراً، وجعلتموهم أتباعكم، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ الذين أطاعوهم، واستمعوا إلى وسوستهم ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع الإنس بالشياطين؛ حيث دلّوهم على الشهوات، وعلى أسباب التوصل إليها، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم، وساعدوهم على مرادهم في إغوائهم ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ يعنون: يوم البعث. وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين، وأتباع الهوى، والتكذيب بالبعث، وتحسر على حالهم ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ﴾ منزلكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال. والعامل معنى الإضافة، كقوله تعالى: ﴿أَتَدَّابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعِ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]. فمصباحين حال من هؤلاء، والعامل في الحال معنى الإضافة، إذ معناه: الممازجة والمضامة. والمثوى ليس بعامل؛ لأن المكان لا يعمل في شيء ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: يخلّدون في عذاب النار الأبد كله ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب السعير إلى عذاب الزمهرير. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴿فيما يفعل بأوليائه وأعدائه.﴾ عَلِيمٌ ﴿بأعمالهم فيجزى كلًّا على وفق عمله.﴾

١٢٩ - ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ نتبع بعضهم بعضاً في النار، أَوْ: نسلط بعضهم على بعض، أَوْ: نجعل بعضهم أولياء بعض ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. ثم يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ:

١٣٠ - ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ عن الضحاك: بعث إلى

الجن رسلاً منهم، كما بعث إلى الإنس رسلاً منهم؛ لأنهم بهم آنس. وعليه ظاهر النص. وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصة. وإنما قيل: ﴿رسل﴾

يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَنُذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا
وَعَرَّيْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ
يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا
وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ
يَذْهَبْكُمْ

منكم ﴿١﴾ لأنه لما جمع الثقلين في الخطاب صحَّ ذلك، وإن كان من أحدهما.
كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالزَّيْتُونَ﴾ [الرحمن: ٢٢]. أو: رسلهم رسل نبينا.
كقوله: ﴿وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾
يقرؤون كتبي ﴿وَنُذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ
أَنْفُسِنَا﴾ بوجوب الحجة علينا، وتبليغ الرسل إلينا ﴿وَعَرَّيْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا
عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ بالرسول.

١٣١ - ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم. وهو خبر مبتدأ
محذوف، أي: الأمر ذلك ﴿أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾
تعليل. أي: الأمر ما قصصنا عليك، لانتفاء كونه ربك مهلك القرى بظلم.
على أن «أن» مصدرية. ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة. والمعنى: لأنَّ الشأن
والحديث ﴿لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾ بسبب ظلم أقدموا عليه، أو:
ظالماً، على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب، لكان ظالماً،
وهو متعالٍ عنه.

١٣٢ - ﴿وَلِكُلِّ﴾ من المكلفين ﴿دَرَجَاتٍ﴾ منازل ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ من
جزاء أعمالهم. وبه استدل أبو يوسف ومحمد - رحمهما الله - على أن للجن
الثواب بالطاعات؛ لأنه ذكر عقيب ذكر الثقلين ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ﴾ بساه عنه. وبالتاء: شامي^(١).

١٣٣ - ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ عن عباده، وعن عبادتهم ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ عليهم
بالتكليف؛ ليعرضهم للمنافع الدائمة ﴿إِن يَشَأْ يَذْهَبْكُمْ﴾ أيها الظلمة

(١) أي: تعملون. انظر الإعراب، للنحاس (١/ ٥٨١).

وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ
 ءَاخِرِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ يَقَوْمِ
 اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَنَقَبَةُ الدَّارِ
 إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق المطيع ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ
 ءَاخِرِينَ﴾ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم. وهم أهل
 سفينة نوح عليه السلام.

١٣٤ - ﴿إِنَّ مَا﴾ ما: بمعنى: الذي ﴿تُوعَدُونَ﴾ من البعث،
 والحساب، والثواب، والعقاب ﴿لَآتٍ﴾ خبر إن، أي: لكائن. ﴿وَمَا أَنْتُمْ
 بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين. ردّ لقولهم: من مات فقد فات.

١٣٥ - المكانة تكون مصدراً. يقال: مكن مكانة: إذا تمكن أبلغ التمكن،
 وبمعنى: المكان يقال: مكان، ومكانة، ومقام، ومقامة وقوله: ﴿قُلْ يَقَوْمِ
 اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ يحتمل: اعملوا على تمكنكم من أمركم، وأقصى
 استطاعتكم وإمكانكم، واعمَلُوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال
 للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي: اثبت على
 ما أنت عليه ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكاني التي أنا عليها. أي: اثبتوا على كفركم
 وعداوتكم لي، فإنني ثابتٌ على الإسلام، وعلى مصابرتكم. وهو أمر تهديد
 ووعد، ودليله قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَنَقَبَةُ الدَّارِ﴾ أي: فسوف
 تعلمون أين تكون له العاقبة المحمودة. وهذا طريقٌ لطيفٌ في الإنذار [﴿إِنَّهُ لَا
 يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: الكافرون] ^(١). ﴿مَكَانَاتِكُمْ﴾ حيث كان: أبو بكر.
 ﴿يَكُونُ﴾ حمزة، وعلي. وموضع ﴿من﴾ رفع إذا كان بمعنى أي، وعلق عنه
 فعل العلم، أو: نصب إذا كان بمعنى الذي.

(١) ما بين حاضرتين ساقط من الأصل، وهو مستدرَك من المطبوع.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ
بِرْعِمِهِ وَهَذَا لَشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ
وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُزِدُوهُمْ وَلِيَلْجِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ

١٣٦ - ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ أي:
وللأصنام نصيباً، فاكتمى بدلالة قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْعِمِهِ وَهَذَا
لِشُرَكَائِنَا﴾ ﴿بِرْعِمِهِمْ﴾ علي. وكذا ما بعده. أي: زعموا أنه لله، والله لم
يأمرهم بذلك، ولا شرع لهم تلك القسمة ﴿فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا
يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى
الضعيفان، والتصدق على المساكين ﴿وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى
شُرَكَائِهِمْ﴾ من إنفاقهم عليها، والإجراء على سدنتها. روي أنهم كانوا
يعينون أشياء من حرث ونتاج لله، وأشياء منهما لآلهتهم. فإذا رأوا ما جعلوا
لله زاكياً نامياً، رجعوا فجعلوه للأصنام، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه
لها، وقالوا: إن الله غني. وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها. وفي قوله:
﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ إشارة إلى أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكي؛ لأنه هو الذي ذراه.
ثم ذم صنيعهم بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في إيثار آلهتهم على الله،
وعملهم على ما لم يشرع لهم. وموضع ﴿مَا﴾ رفع، أي: ساء الحكم حكمهم.
أو: نصب، أي: ساء حكماً حكمهم.

١٣٧ - ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: كما زين
لهم تجزئة المال؛ زين وأد البنات ﴿قَتَلَ﴾ مفعول زين ﴿أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَائِهِمْ﴾ هو فاعل زين. ﴿زَيْنَ﴾ بالضم، ﴿قَتَلَ﴾ بالرفع، ﴿أَوْلَادِهِمْ﴾
بالنصب، ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ بالجر، شامي: على إضافة القتل إلى الشركاء، أي:
الشياطين، والفصل بينهما بغير الظرف، وهو المفعول. وتقديره: زين لكثير من
المشركين قتل شركائهم أولادهم ﴿لِيُزِدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْجِسُوا
عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوا عليهم، ويشوبوه. ودينهم: ما كانوا عليه من دين

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً

إسماعيل حتى زلوا عنه إلى الشرك ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ فيه دليل على أن الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وما يفترونه من الإلفك، أو: وافتراءهم؛ لأن ضرر ذلك الافتراء عليهم، لا عليك، ولا علينا.

١٣٨ - ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ﴾ للأوثان ﴿حِجْرٌ﴾ حرام. «فعل» بمعنى «المفعول» كالذبح، والطحن. ويستوي في الوصف به المذكر، والمؤنث، والواحد، والجمع، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات. وكانوا إذا عتينا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم، قالوا: ﴿لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ﴾ يعنون: خدم الأوثان، والرجال دون النساء. الزعم: قول بالظن يشوبه الكذب ﴿وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ هي البحائر، والسوائب، والحوامي^(١) ﴿وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ حالة الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ هو مفعول له، أو: حال. أي: قسموا أنعامهم: قسم حِجْر، وقسم لا يُركب، وقسم لا يذكر اسم الله عليها، ونسبوا ذلك إلى الله افتراء عليه ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وعيد.

١٣٩ - ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب: ما ولد منها حياً فهو خالص للذكور، لا يأكل منه الإناث، وما ولد ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث. وأنت ﴿خالصة﴾ وهو خبر ﴿ما﴾؛ للحمل على المعنى؛ لأن ﴿ما﴾ في معنى الأجنة. وذكر ﴿ومحرم﴾ حملاً على اللفظ. أو: التاء للمبالغة كنسابة ﴿وإن يكن مَيْتَةً﴾ أي: ﴿وإن يكن﴾ ما في بطونها ﴿ميتة﴾. ﴿وإن تكن ميتة﴾. أبو بكر،

(١) انظر تفسير الآية رقم (١٠٣) من سورة المائدة.

فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءٌ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ

أي: إن تكن الأجنة ميتة ﴿وإن تكن ميتة﴾ شامي، على كان التامة. ﴿يكن ميتة﴾ مكّي؛ لتقدم الفعل. وتذكير الضمير في: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ لأنَّ الميتة اسم لكل ميت ذكر أو أنثى. فكأنه قيل: وإن يكن ميت فهم شركاء ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحرير ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في جزائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ باعتقادهم.

١٤٠ - ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ كانوا يندون بناتهم مخافة السبي والفقر. ﴿قتلوا﴾ مكّي، وشامي. ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لحقة أحلامهم، وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم، لا هم ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من البحائر، والسوائب، وغيرها ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ مفعول له. ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الصواب.

١٤١ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ خلق. ﴿جَنَّاتٍ﴾ من الكروم ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ مسموكات، مرفوعات ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرش. يقال: عرشت الكرم: إذا جعلت له دعائم وسمكاً، تعطف عليه القضبان ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا﴾ في اللون، والطعم، والحجم، والرائحة. وهو حال مقدرة؛ لأن النخل وقت خروجه لا أكل فيه حتى يكون مختلفاً، وهو كقوله ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ﴿أَكْلُهُ﴾ حجازي. وهو: ثمره الذي يؤكل. والضمير للنخل. والزرع داخل في حكمه؛ لأنه معطوف عليه، أو: لكل واحد ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتُ مُتَشَابِهًا﴾ في اللون ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في الطعم ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ من ثمر كل واحد. وفائدة: ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ أن يعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، ولا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك ﴿وَمَا آتَوْا حَقَّهُ﴾ عشره. وهو حجة أبي حنيفة - رحمه الله - في تعميم

يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَّذَكْرَيْنِ حَرَّمَ أَرِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتِ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ

العشر ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ﴿حَصَادِهِ﴾ بصري، وشامي، وعاصم. وبكسر الحاء: غيرهم، وهما لغتان ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بإعطاء الكل، وتضييع العيال، وقوله ﴿كُلُوا﴾ إلى ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ اعتراض.

١٤٢ - ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ﴾ عطف على جنات. أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يفرش للذبح. أو: الحمولة: الكبار التي تصلح للحمل، والفرش: الصغار كالفُصلان، والعجاجيل، والغنم؛ لأنها دانية من الأرض، مثل الفرش المفروش عليها ﴿كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: ما أحل الله لكم منها، ولا تحرموها كما في الجاهلية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرده في التحريم والتحليل، كفعل أهل الجاهلية ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فاتهموه على دينكم.

١٤٣ - ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ بدل من ﴿حمولة وفرسات﴾ ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين، يريد: الذكر والأنثى. والواحد إذا كان وحده فهو فرد، وإذا كان معه غيره من جنسه سُمِّي كل واحد منهما زوجاً، وهما زوجان؛ بدليل قوله: ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [النجم: ٤٥] ويدل عليه قوله: ﴿ثمانية أزواج﴾. ثم فسرها بقوله: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ ﴿ومِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾. والضأن، والمعز جمع: ضائن وماعز، كتاجر وتجر. وفتح عين المعز: مكّي، وشامي، وأبو عمرو. وهما لغتان. والهمزة في: ﴿قُلْ أَلَّذَكْرَيْنِ حَرَّمَ أَرِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتِ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ للإنكار. والمراد بالذكرين: الذكر من الضأن، والذكر من المعز، وبالأُنثيين: الأنثى من الضأن، والأنثى من المعز. والمعنى: إنكار أن يحرم الله من جنسي الغنم ضائناً ومعزاً شيئاً من نوعي ذكورها وإناثها، ولا تما تحمل الإناث. وذلك: أنهم كانوا يحرمون ذكورة الأنعام تارة، وإناثها طوراً، وأولادها كيفما كانت ذكوراً، أو إناثاً، أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون: قد حرّمها الله. فأنكر

نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ
الَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ
شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمُ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ
النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ
مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً

ذلك عليهم. وانتصب ﴿الذكرين﴾ بحرّم، وكذا ﴿أم الأنثيين﴾ أي: أم حرّم
الأنثيين، وكذا ما في ﴿أما اشتملت﴾ ﴿نبيؤني بعلم﴾ أخبروني بأمر معلوم من
جهة الله يدلّ على تحريم ما حرّمتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنّ الله حرّمه.
١٤٤ - ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ﴾ ﴿الذكرين﴾ منهما ﴿حرّم أم
الأنثيين﴾ منهما ﴿أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أم ما تحمل إناثها. ﴿أم
كنتم شهداء﴾ أم منقطعة، أي: بل أكنتم شهداء ﴿إذ وصّيكم الله
بهذا﴾ يعني: أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم. ولما كانوا
لا يؤمنون برسول الله، وهم يقولون: الله حرّم هذا الذي نحرّمه، تهكّم بهم في
قوله: ﴿أم كنتم شهداء﴾ على معنى: أعرفتم التوصية به مشاهدين؛ لأنكم
لا تؤمنون بالرسول ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ فنسب إليه تحريم ما لم
يحزّم ﴿ليضلّ الناس بغير علم﴾ إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿أي: الذين في
علمه أنهم يختمون على الكفر. ووقع الفاصل بين بعض المعداد وبعضه اعتراضاً
غير أجنبي من المعداد. وذلك أن الله تعالى من على عباده بإنشاء الأنعام
لمنافعهم، وبإباحتها لهم. فلا اعتراض بالاحتجاج على من حرّمها يكون تأكيداً
للتحليل. والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد.

١٤٥ - ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: في ذلك الوقت، أو: في وحي

القرآن؛ لأن وحي السّنة قد حرّم غيره، أو: من الأنعام لأن الآية في ردّ البحيرة
وأخواتها. وأما الموقودة، والمتردية، والنطيحة فمن الميتة. وفيه تنبيه على أنّ
التحريم إنّما يثبت بوحي الله وشرعه، لا بهوى النفس ﴿محرمًا﴾ حيواناً حرّم
أكله ﴿على طاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ على أكل يأكله ﴿إلا أن يكون ميتة﴾ إلا أن يكون
الشيء المحرّم ميتة. ﴿أن تكون﴾ مكّي، وشامي، وحمزة ﴿ميتة﴾ شامي ﴿أو دماً

أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمِنَ
 أَضْطَرَّ غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٦﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا
 كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ
 ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا
 لَصَادِقُونَ ﴿١٤٧﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ

مَسْفُوحًا ﴿ مصبوحاً سائلاً. فلا يحرم الدم الذي في اللحم، والكبد، والطحال
 ﴿ أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴿ نجس ﴿ أَوْ فِسْقًا ﴿ عطف على المنصوب قبله.
 وقوله: ﴿ فإنه رجس ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ
 بِهِ ﴾ منصوب المحل صفة لـ «فسقاً»، أي: رفع الصوت على ذبحه باسم غير
 الله. وسُمِّيَ بالفسق لتوغُّله في باب الفسق ﴿ فَمِنَ أَضْطَرَّ ﴾ فمن دعت الضرورة
 إلى أكل شيء من هذه المحرمات ﴿ غَيْرِ بَاغٍ ﴾ على مضطرٍّ مثله، تارك لمواساته
 ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لا يؤاخذ.

١٤٦ - ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ أي: ماله أصبع من
 دابة، أو طائر. ويدخل فيه الإبل، والنعام ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
 شُحُومَهُمَا ﴾ أي: حرَّمنا عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه، وكل شيء منه، ولم
 يحرم من البقر والغنم إلا الشحوم، وهي الثُّرُوب، وشحوم الكلى ﴿ إِلَّا مَا
 حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ إلا ما اشتمل على الظهر والجنوب من السَّحْفَةِ^(١) ﴿ أَوِ
 الْحَوَايَا ﴾ أو: ما اشتمل على الأمعاء، واحدها: حاوية، أو: حوية ﴿ أَوْ مَا
 اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ وهو الألية، أو: المخ ﴿ ذَلِكَ ﴾ مفعول ثانٍ لقوله: ﴿ جَزَيْنَاهُمْ
 وَالتقدير: جزيناهم ذلك ﴿ بِبَغْيِهِمْ ﴾ بسبب ظلمهم ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فيما أخبرنا
 به. وكيف نشكر من سبب معصيتهم لتحريم الحلال، ومعصية سالفنا لتحليل
 الحرام حيث قال: ﴿ وَعَقَّاعَنكُمْ فَأَلْقَنَ بُشْرُوهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

١٤٧ - ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ فيما أوحيت إليك من هذا ﴿ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ
 وَاسِعَةٍ ﴾ بها يمهل المكذِّبين، ولا يُعاجلهم بالعقوبة ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ ﴾ عذابه مع

(١) «السحفة»: سَحَفَ الجِلْدُ: كَشَطَ عنه الشعر.

عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا
 آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا
 قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
 تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدَآءُكُمْ

سعة رحمته ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ إذا جاء، فلا تغتر بسعة رحمته عن خوف
 نقمته.

١٤٨ - ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إخبار بما سوف يقولونه ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ألا
 نشرك ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ ولكن شاء، فهذا عذرنا،
 يعنون: أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله لهم بمشيئته، ولولا
 مشيئته لم يكن شيء من ذلك ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي:
 كتكذيبهم إياك كان تكذيب المتقدمين وتشبهوا بمثل هذا، فلم ينفعهم ذلك إذ لم
 يقولوه عن اعتقاد، بل قالوا ذلك استهزاء، ولأنهم جعلوا مشيئته حجة لهم على
 أنهم معذورون به. وهذا مردود، لا الإقرار بالمشيئة. أو: معنى المشيئة هنا:
 الرضا، كما قال الحسن، أي: رضي الله منا ومن آبائنا الشرك، والشرك مراد،
 لكنّه غير مرضي. ألا ترى أنه قال: ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ أخبر أنه لو شاء
 منهم الهدى لأمن كلهم، ولكن لم يشأ من الكل الإيمان، بل شاء من البعض
 الإيمان ومن البعض الكفر، فيجب حمل المشيئة هنا على ما ذكرنا دفعاً للتناقض
 ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ حتى أنزلنا عليهم العذاب ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ من
 أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فتظهِروه ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون.

١٤٩ - ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾ عليكم بأوامره ونواهيه، ولا حجة لكم على
 الله بمشيئته ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لو شاء هدايتكم. وبه تبطل صولة
 المعتزلة.

١٥٠ - ﴿قُلْ هَلَمْ شَهِدَآءُكُمْ﴾ هاتوا شهداءكم وقربوهم. ويستوي في هذه
 الكلمة الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، عند الحجازيين. وبنو تميم تؤنث

الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾
﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَا تَقْرَءُونَ
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

ونجمع ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي: ما زعموه محرماً ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا
تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فلا تسلم لهم ما شهدوا به، ولا تصدقهم؛ لأنه إذا سلم لهم،
فكانه شهد معهم مثل شهادتهم، فكان واحداً منهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمرة، للدلالة على أن من كذب
بآيات الله فهو متبع للهوى، إذ لو تبع الدليل لم يكن إلا مصداقاً بالآيات موحداً
لله ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ هم المشركون ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يسوون
الأصنام.

١٥١ - ﴿قُلْ﴾ للذين حرّموا الحرث، والأنعام ﴿تَعَالَوْا﴾ هو من الخاص
الذي صار عاماً. وأصله: أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه،
ثم كثر حتى عم ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ الذي حرّمه ربكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من
صلة ﴿حَرَّمَ﴾ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أن مفسرة لفعل التلاوة، ولا: للنهي
﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا بالوالدين إحساناً. ولما كان إيجاب الإحسان
تحريماً لترك الإحسان ذكر في المحرمات، وكذا حكم ما بعده من الأوامر ﴿وَلَا
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ من أجل فقر، ومن خشيته، كقوله: ﴿خَشِيَةَ
إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لأن رزق العبيد على مولاهم
﴿وَلَا تَقْرَءُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما بينك وبين الخلق. بدل من الفواحش
﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما بينك وبين الله ﴿ما ظهر﴾ بدل من ﴿الفواحش﴾ ﴿وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالقصاص، والقتل على الردة والرجم
﴿ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ﴾ أي: المذكور مفضلاً أمركم ربكم بحفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾
لتعقلوا عظمها عند الله.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ
بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ
اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا
فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ

١٥٢ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن، وهي حفظه، وتشميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أشدّه: مبلغ حلمه، فادفعوه إليه. وواحدة: شدّ كفلس وأفلس ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ﴾ بالسوية، والعدل ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها، ولا تعجز عنه، وإنما اتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك؛ لأن مراعاة الحدّ من القسط الذي لا زيادة فيه، ولا نقصان مما فيه حرج. فأمر ببلوغ الوسع، وأن ما وراءه معفو عنه ﴿وَلِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾ فاصدقوا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له، أو عليه في شهادة، أو غيرها من أهل قرابة القاتل، كقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾ يوم الميثاق، أو: في الأمر والنهي [والوعد والوعيد] ^(١) والنذر واليمين ﴿أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما مرّ ﴿وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف حيث كان: حمزة، وعليّ، وحفص، على حذف إحدى التاءين. غيرهم بالتشديد، أصله؛ تتذكرون، فادغم التاء الثانية في الذال. أي: أمركم به لتعظوا.

١٥٣ - ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي﴾ ولأنّ هذا صراطي، فهو علة للاتباع بتقدير اللام. ﴿وَأَنَّ﴾ بالتخفيف: شاميّ، وأصله: وأنه، على أن الهاء ضمير الشأن والحديث ﴿وَأَنَّ﴾ على الابتداء: حمزة، وعليّ ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الطرق المختلفة في الدين من اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وسائر البدع والضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فتفرقكم أيادي سبأ عن صراط الله المستقيم، وهو: دين الإسلام. روي أنّ رسول الله ﷺ خطّ خطاً مستويّاً، ثم قال: «هذا سبيل الرشد وصراط الله فاتبعوه» ثم خطّ على كلّ

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابُنَا أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

جانب ستة خطوط عمالة، ثم قال: «هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه فاجتنبوها» وتلا هذه الآية^(١) «ثم يصير كل واحد من الاثني عشر طريقاً ستة طرق، فتكون اثنان وسبعين». وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب. وعن كعب: إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لتكونوا على رجاء إصابة التقوى. ذكر أولاً تعقلون، ثم تذكرون، ثم تتقون؛ لأنهم إذا عقلوا تفكروا، ثم تذكروا، أي: اتعظوا فاتقوا المحارم.

١٥٤ - ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ أي: ثم أخبركم أنا آتينا. أو: هو عطف على قل، أي: ثم قل آتينا. أو: ثم مع الجملة تأتي بمعنى الواو، كقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [يونس: ٤٦] ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ على من كان محسناً صالحاً يريد جنس المحسنين، دليله قراءة عبد الله (على الذين أحسنوا) أو: أراد به موسى عليه السلام، أي: تنمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ في كل ما أمر به ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاجون إليه في دينهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون^(٢).

١٥٥ - ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿كِتَابُنَا أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لترحموا.

(١) رواه أحمد (٤٣٥/١ و٤٦٥) والدارمي (٦٧/١ - ٦٨) والحاكم (٣١٨/٢) وابن حبان (٧). بألفاظ متقاربة، ولكن ليس بينها التحديد برقم ستة. وانظر تفسير ابن كثير (٢٤٢/٢).

(٢) أي: بالبعث والحساب، وبالرؤية.

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَي طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ

١٥٦ - ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا، أو: لئلا تقولوا ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَي طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أي: أهل التوراة وأهل الإنجيل. وهذا دليل على أن المجوس ليسوا بأهل كتاب ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ عن تلاوة كتبهم ﴿لَغَافِلِينَ﴾ لا علم لنا بشيء من ذلك. ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية. والأصل: وإنه كنا عن دراستهم غافلين على أن الهاء ضمير الشأن. والخطاب لأهل مكة. والمراد: إثبات الحجة عليهم بإنزال القرآن على محمد ﷺ؛ كيلا يقولوا يوم القيامة: إن التوراة والإنجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا، وكنا غافلين عما فيهما.

١٥٧ - ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا ﴿لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ لحدة أذهاننا، وثقابة أفهامنا، وغزارة حفظنا لأيام العرب ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم فقد جاءكم ما فيه البيان الساطع، والبرهان القاطع. فحذف الشرط، وهو من أحسن الحذوف ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بعد ما عرف صحتها، وصدقها ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وهو: النهاية في النكاية ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ بإعراضهم.

١٥٨ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: أقمنا حجج الوحداية وثبوت الرسالة، وأبطلنا ما يعتقدون من الضلالة، فما ينتظرون في ترك الضلالة بعدها ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: ملائكة الموت لقبض أرواحهم ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾ حمزة، وعلي^(١) ﴿أَوْ

أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا

يَأْتِي رَبُّكَ ﴿١﴾ أي: أمر ربك، وهو: العذاب، أو القيامة. وهذا لأن الإتيان متشابه، وإتيان أمره منصوب عليه، محكم، فيرد إليه ﴿أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أي: أشرار الساعة، كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ لأنه ليس بإيمان اختياري، بل هو إيمان دفع العذاب والبأس عن أنفسهم ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ صفة «نفساً» ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: إخلاصاً. كما لا يقبل إيمان الكافر بعد طلوع الشمس من مغربها، لا يقبل إخلاص المنافق أيضاً، أو توبته. وتقديره: لا ينفع إيمان من لم يؤمن، ولا توبة من لم يتب قبل ﴿قُلِ انْظُرُوا﴾ إحدى الآيات الثلاث ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ بكم إحداها.

١٥٩ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ اختلفوا فيه، وصاروا فرقاً، كما اختلفت اليهود والنصارى. وفي الحديث: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية. وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة. وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة، وهي السواد الأعظم» وفي رواية: «وهي ما أنا عليه وأصحابي»^(١). وقيل: فرقوا دينهم، فأمنوا ببعض، وكفروا ببعض. ﴿فَارْقُوا دِينَهُمْ﴾ حمزة، وعليّ أي: تركوا ﴿وَكَانُوا شِيْعًا﴾ فرقاً، كلّ تشيع إماماً لها ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: من السؤال عنهم، وعن تفرقهم، أو: من عقابهم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازيهم على ذلك.

١٦٠ - ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ تقديره: عشر حسنات أمثالها، إلا

(١) رواه أحمد (٣٣٢/٢) وأبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩١) وابن حبان (٦٢٤٧).

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ بِإِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٢﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٤﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ أَمْرِي وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَزِدْ أُخْرَىٰ

أنه أقيم صفة الجنس المميّزة مقام الموصوف ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب، وزيادة العقاب.

١٦١ - ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ﴾ «رَبِّي»: أبو عمرو، ومدني ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ «إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» نصب على البدل من محلّ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لأنّ معناه: هدايتي صراطاً، بدليل قوله: ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠] ﴿قِيَمًا﴾ «قِيَمًا» فيعل، من: قام، كسيد من ساد، وهو أبلغ من القائم. ﴿قِيَمًا﴾ كوفي، وشامي، وهو مصدر بمعنى القيام وصف به ﴿مِثْلَهُ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بالله، يا معشر قريش.

١٦٢ - ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: عبادتي. والناسك: العابد. أو: ذبحي، أو: حجّي. ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أتيت في حياتي، وأموت عليه من الإيمان، والعمل لصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالصة لوجهه ﴿مَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ بسكون الياء الأول وفتح الثاني: مدني. وبعكسه غيره.

١٦٣ - ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في شيء من ذلك ﴿وَبِذَلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأنّ إسلام كلّ نبيّ متقدم على إسلام أمته.

١٦٤ - ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ أَمْرِي رَبًّا﴾ جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم، والهمزة للإنكار، أي: منكر أن أطلب ربّاً غيره. وتقديم المفعول للإشعار بأنّه أهمّ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وكلّ من دونه مربوب، ليس في الوجود من له الربوبية غيره ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ جواب عن قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] ﴿وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَزِدْ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تؤخذ نفس أئمة

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَسْأَلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٦﴾

بذنب نفس أخرى ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ من الأديان التي فرقتموها.

١٦٥ - ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ لأنَّ محمداً ﷺ خاتم النبيين فأتمته قد خلفت سائر الأمم، أو: لأن بعضهم يخلف بعضاً، أو: هم خلفاء الله في أرضه يملكونها، ويتصرفون فيها ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الشرف، والرزق، وغير ذلك ﴿دَرَجَاتٍ﴾ مفعول ثان، أو: التقدير: إلى درجات، أو: هي واقعة موقع المصدر، كأنه قيل: رفعة بعد رفعة ﴿لِّيَسْأَلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ﴾ فيما أعطاكم من نعمة الجاه والمال، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضع، والغني بالفقير، والمالك بالملوك؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن كفر نعمته ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن قام بشكرها. ووصف العقاب بالسرعة؛ لأنَّ ما هو آتٍ قريب ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] عن النبي ﷺ: «من قرأ ثلاث آيات من أول الأنعام حين يصبح، وكلَّ الله تعالى به سبعين ألف ملك يحفظونه، وكتب له مثل أعمالهم إلى يوم القيامة»^(١).

* * *

(١) رواه ابن الضريس في فضائل القرآن رقم (٢٠٠) وانظر الدر المنثور (٢٤٦/٣) وفتح القدير (١١٩/٢).

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ۝ كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ۝

١ - ﴿الْمَصَّ﴾ قال الزجاج: المختار في تفسيره ما قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنا الله أعلم، وأفصل.

٢ - ﴿كَتَبَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو كتاب ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ صفته. والمراد بالكتاب: السورة ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ شك فيه. وسُمِّي الشك: حرجاً؛ لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر، منفسحه. أي: لا تشك في أنه منزل من الله. أو: ﴿حرج منه﴾ بتبليغه؛ لأنه كان يخاف قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه، وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأذى، ولا ينشط له، فأمنه الله، ونهاه عن المبالاة بهم. والنهي متوجه إلى الحرج. وفيه من البلاغة ما فيه. والفاء للعطف، أي: هذا الكتاب أنزلته إليك، فلا يكن بعد إنزاله حرج في صدرك. واللام في: ﴿لِيُنذِرَ بِهِ﴾ متعلق بأنزل. أي: أنزل إليك لإنذارك به. أو: بالنهي؛ لأنه إذا لم يفهم أنذرهم. وكذا إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار به؛ لأن صاحب اليقين جسور، متوكل على ربه ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل النصب بإضمار فعلها، أي: لتنذر به، وتذكر تذكيراً. فالذكرى: اسم بمعنى التذكير، أو: الرفع بالعطف على كتاب، أي: هو كتاب، وذكرى للمؤمنين. أو: بأنه خبر مبتدأ

أَتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣﴾ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ

محذوف، أو: الجر بالعطف على محل لتندر، أي: للإنذار وللذكرى.

٣ - ﴿أَتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: القرآن، والسنة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس، فيحملوكم على عبادة الأوثان، والأهواء، والبدع ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ حيث تتركون دين الله، وتتبعون غيره. و﴿قَلِيلًا﴾ نصب بتذكرون، أي: تذكرون تذكراً قليلاً. و﴿مَا﴾ مزيدة لتوكيد القلة ﴿تتذكرون﴾ شامي.

٤ - ﴿وَكَمْ﴾ مبتدأ ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ تبين. والخبر ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، أي: أردنا إهلاكها، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦] ﴿فَجَاءَهَا﴾ جاء أهلها ﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيِّنًا﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى بائتين، يقال: بات يباتاً حسناً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ حال معطوفة على بياناً، كأنه قيل: فجاءهم بأسنا بائتين، أو: قائلين. وإنما قيل (هم قائلون) بلا واو، ولا يقال: جاءني زيد هو فارس بغير واو؛ لأنه لما عطف على حال قبلها حذفت الواو استقلاً لاجتماع حرفي عطف؛ لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل. وخص هذان الوقتان؛ لأنهما وقتا الغفلة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد، وأفظع. وقوم لوط - عليه السلام - أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب - عليه السلام - وقت القيلولة. وقيل: بياناً: ليلاً، أي: ليلاً وهم نائمون، أو: نهراً وهم قائلون.

٥ - ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ دعاؤهم، وتضرعهم ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ لما جاءهم أوائل العذاب: ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك. و﴿دعواهم﴾ اسم كان و﴿أَن قَالُوا﴾ الخبر، ويجوز العكس.

٦ - ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ «أرسل» مسند إلى ﴿إِلَيْهِمْ﴾، أي:

وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ

فلنسألن المرسل إليهم، وهم الأمم، عما أجابوا به رسلهم ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجيبوا به.

٧ - ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ عالين بأحوالهم الظاهرة، والباطنة، وأقوالهم، وأفعالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم وعما وجد منهم. ومعنى السؤال: التوبيخ، والتفريع، والتقرير، إذا فاهوا بالسنتهم، وشهد عليهم أنبياءهم.

٨ - ﴿وَالْوَزْنَ﴾ أي: وزن الأعمال، والتمييز بين راجحها وخفيفها. وهو مبتدأ، وخبره: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم يسأل الله الأمم ورسلهم، فحذفت الجملة، وعوض عنها التنوين ﴿الْحَقُّ﴾ أي: العدل. صفته. ثم قيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان؛ إظهاراً للنصفة، وقطعاً للمعذرة. وقيل: هو عبارة عن القضاء السوي، والحكم العادل، والله أعلم بكيفيته. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ جمع ميزان، أو: موزون. أي: فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر، وهي الحسنات. أو: ما توزن به حسناتهم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

٩ - ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ هم الكفار، فإنه لا إيمان لهم ليعتبر معه عمل، فلا يكون في ميزانهم خير، فتخفت موازينهم ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ يمحذون. فالآيات: الحجج. والظلم بها: وضعها في غير موضعها، أي: جحودها، وترك الانقياد لها.

١٠ - ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً، أو: مكناكم فيها، وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ جمع معيشة، وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرهما. والوجه: تصريح الياء؛ لأنها أصلية، بخلاف صحائف، فالياء فيها زائدة. وعن نافع: أنه همز، تشبيهاً

قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

بصحائف ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ مثل: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

١١ - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا أبابكم آدم - عليه السلام - طيناً غير مصور، ثم صورناه بعد ذلك. دليله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم - عليه السلام -.

١٢ - ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ ﴿مَا﴾ رفع، أي: أي شيء منعك من السجود؟! و﴿لَا﴾ زائدة بدليل ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٥]. ومثلها ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فيه دليل على أَنَّ الأمر للوجوب. والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به؛ للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وكبره، وافتخاره بأصله، وتحقيره أصل آدم - عليه السلام - ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ﴾ وهي: جوهر نوراني ﴿وَخَلَقْتُهُ مِن طِينٍ﴾ وهو ظلماني. وقد أخطأ الخبيث. بل الطين أفضل لرزاقته، ووقاره، ومنه: الحلم، والحياء، والصبر، وذلك دعاه إلى التوبة والاستغفار. وفي النار: الطيش، والحدة، والترفع، وذلك دعاه إلى الاستكبار. والتراب عدّة الممالك، والنار عدّة المهالك. والنار مظنة الخيانة والإفناء، والتراب مثنة الأمانة والإنماء. والطين يُطفئُ النَّارَ ويتلفها، والنار لا تتلفه. وهذه فضائل غفل عنها إبليس، حتى زلّ بفاسدٍ من المقاييس. وقول نافي القياس: أوّل من قاس إبليس، قياس، على أَنَّ القياس عند مثبتة مردودٌ عند وجود النص. وقياس إبليس عناد للأمر المنصوص. وكان الجواب لـ «ما منعك» أن يقول: منعني كذا. وإنما قال: أنا خير منه؛ لأنه قد استأنف قصّة، وأخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم - عليه السلام - وبعلّة فضله عليه، فعلم منها الجواب - كأنه قال: منعني من السجود فضلي عليه - وزيادة عليه، وهي إنكار الأمر، واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله؛ إذ سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب.

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْقِدَنَّ لَهُمْ سِرِّيَّكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ

١٣ - ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أو: من السماء؛ لأنه كان فيها، وهي مكان المطيعين والمتواضعين. والفاء في ﴿فاهبط﴾ جواب لقوله: ﴿أنا خير منه﴾، أي: إن كنت تتكبر فاهبط ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصي ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ من أهل الصغار، والهوان على الله، وعلى أوليائه، يذمك كل إنسان، ويلعنك كل لسان لتكبرك. وبه علم أن الصغار لازم للاستكبار.

١٤ - ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أمهلني إلى يوم البعث، وهو: وقت النفخة الأخيرة.

١٥ - ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إلى النفخة الأولى. وإنما أُجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاء. وفيه تقريب لقلوب الأحباب، أي: هذا برّي بمن يسبني، فكيف بمن يحبني؟! وإنما جسّره على السؤال مع وجود الزلل منه في الحال، علمه بحلم ذي الجلال.

١٦ - ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي﴾ أضللتني، أي: فسبب إغوائك إياي. والباء تتعلق بفعل القسم المحذوف، تقديره: فسبب إغوائك أقسم. أو: تكون الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك ﴿لَأَفْقِدَنَّ لَهُمْ سِرِّيَّكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأعرضن لهم على طريق الإسلام مترصداً للرد، متعرضاً للصّد، كما يتعرض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة. وانتصابه على الظرف؛ كقولك: ضرب زيد الظهر، أي: على الظهر. وعن طاووس: أنه كان في المسجد الحرام، فجاء رجل قدرني، فقال طاووس: تقوم أو تقام؟ فقام الرجل. فقيل له: أنقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبليس أفقه منه، قال: رب بما أغويتني، وهو يقول: أنا أغوي نفسي.

١٧ - ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشكّهم في الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في الدنيا. ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾ من قبل الحسنات ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ من قبل السيئات، وهو

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَكَادُمْ أَتُكَّنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَامٍ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ

جمع: شمال. يعني ﴿ثُمَّ لَا تَبْنِيَهُمْ﴾ من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الأغلب. وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد، من بين يدي، فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: ٨٢] ومن خلفي، فيخوفني الضيعة على مخلفي، فأقرأ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وعن يميني، فيأتييني من قبل الشئاء فأقرأ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ١٢٨] وعن شمالي فيأتييني من قبل الشهوات، فأقرأ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤] ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة. وقال في الأولين: ﴿من﴾ لا ابتداء الغاية. وفي الآخرين: ﴿عن﴾ لأن عن تدل على الانحراف ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ مؤمنين. قاله ظناً فأصاب، لقوله ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبا: ٢٠]؛ أو سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى إياهم.

١٨ - ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أو: من السماء ﴿مَذْمُومًا﴾ معيباً، من: ذامه إذا ذمه. والذام والذم: العيب ﴿مَدْحُورًا﴾ مطروداً، مبعداً من رحمة الله. واللام في: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ موطنه للقسم. وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وهو ساد مسد جواب الشرط ﴿مِنْكُمْ﴾ منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

١٩ - ﴿وَيَكَادُمْ﴾ وقلنا: ﴿يَا آدَمُ﴾ بعد إخراج إبليس من الجنة ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ اتخذها مسكناً ﴿فَكَلَامٍ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾ فتصيرا ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

٢٠ - ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ وسوس: إذا تكلم كلاماً خفياً، يكرره وهو غير متئد. ورجل موسوس بكسر الواو. ولا يقال: موسوس بالفتح، ولكن موسوس له وموسوس إليه. وهو: الذي يلقي إليه الوسوسة. ومعنى وسوس له: فعل الوسوسة لأجله. وسوس إليه: ألهاها إليه ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ

سَوَاءٌ لَّهُمَا وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ
الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيْ لَكُمَا لَئِنْ أَتَيْتُمَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ
بَدَّتْ لَكُمَا سَوْءٌ لَّهُمَا

سَوَاءٌ لَّهُمَا ﴿٢٠﴾ ليكشف لهما ما ستر عنهما من عوراتهما. وفيه دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور، وأنه لم يزل مُستقبِحاً في الطباع والعقول. فإن قلت: ما للوار المضمومة في ووري لم تقلب همزة، كما في: «أويصل» تصغير واصل، وأصله: وويصل، فقلبت الواو همزة كراهة لاجتماع الواوين؟ قلت: لأن الثانية مدة، كالف واري، فكما لم يجب همزها في: واعد، لم يجب في: ووري، وهذا لأن الواوين إذا تحركتا ظهر فيهما من الثقل ما لا يكون فيهما إذا كانت الثانية ساكنة، وهذا مدرك بالضرورة فالتزموا إبدالها في موضع الثقل لا في غيره. وقرأ عبد الله (أوري) بالقلب^(١) ﴿وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين تعلمان الخير والشر، وتستغنيان عن الغذاء. وقرئ ﴿مَلِكَيْنِ﴾ لقوله: ﴿وَمَلِكٌ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠] ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ من الذين لا يموتون، ويبقون في الجنة ساكنين.

٢١ - ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ وأقسم لهما ﴿إِيَّيْ لَكُمَا لَئِنْ أَتَيْتُمَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وأخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة؛ لأنه لما كان منه القسم، ومنهما التصديق، فكأنها من اثنين.

٢٢ - ﴿فَدَلَّيْنَهُمَا﴾ فنزل لهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرهما به من القسم بالله، وإنما يخدع المؤمن بالله. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما -: من خدعنا بالله انخدعنا له^(٢) ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ وجدا طعمها، آخذين في الأكل منها. وهي: السنبلة، أو: الكرم. ﴿بَدَّتْ لَكُمَا سَوْءٌ لَّهُمَا﴾ ظهرت لهما عورتهما لتهافت اللباس عنهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر. وقيل: كان لباسهما من جنس الأظفار، أي: كالظفر بياضاً في غاية اللطف

(١) لم تثبت هذه القراءة عند النحاس.

(٢) حلية الأولياء (١/٢٩٥).

وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

واللين، فبقي عند الأظفار تذكيراً للنعم، وتجديداً للندم ﴿وَطُفِقَا﴾ وجعلاً. يقال: طفق يفعل كذا، أي: جعل ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ يجعلان على عورتهما من ورق التين أو الموز، ورقة فوق ورقة ليستترا بها، كما تخصف النعل ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ هذا عتاب من الله، وتنبيه على الخطأ. وروي أنه قال لآدم - عليه السلام -: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى، ولكن ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: فبعزتي! لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا بكذب يمين، وعرق جبين، فأهبط، وعُلِّمَ صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث، وسقى، وحصد، وداس، وذرى، وطحن^(١)، وعجن، وخبز ﴿وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

٢٣ - ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فيه دليل لنا على المعتزلة؛ لأن الصغائر عندهم مغفورة.

٢٤ - ﴿قَالَ أَهْبِطُوا﴾ الخطاب لآدم وحواء بلفظ الجمع؛ لأن إبليس هبط من قبل، ويحتمل: أنه هبط إلى السماء، ثم هبطوا جميعاً إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال، أي: متعادين، يعاديهما إبليس، ويعاديانه ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار، أو: موضع استقرار ﴿وَمَتْنَعٌ﴾ وانتفاع بعيش ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى انقضاء آجالكم. وعن ثابت البناني: لما أهبط آدم - عليه السلام - وحضرته الوفاة، وأحاطت به الملائكة، فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلي ملائكة ربّي، فإنما أصابني ما أصابني^(٢) فيك، فلما توفي غسلته الملائكة

(١) مستدرک من المطبوع.

(٢) ما أصابه من وسوسة الشيطان أصابها، ولا وجه لوضع اللوم عليها، وهذه فكرة ظالمة ذهب إليها أهل الكتاب، ولا دليل عليها من الكتاب العزيز أو السنة النبوية.

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا

بماء وسدر وترأ، وخطته، وكففته في وتر من الثياب، وحفروا له وحدوا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنيه: هذه سُنَّتكم بعده.

٢٥ - ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ في الأرض ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للشواب والعقاب ﴿تُخْرَجُونَ﴾ حمزة، وعلي.

٢٦ - ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ جعل ما في الأرض منزلاً من السماء، لأن أصله من الماء، وهو منها ﴿يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكُمُ﴾ يستر عوراتكم. ﴿وَرِيشًا﴾ لباس الزينة استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سواتكم، ولباساً يزينكم ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾ ولباس الورع الذي يقي العقاب، وهو مبتدأ، وخبره: الجملة وهي: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر. أو: ﴿ذَلِكَ﴾ صفة للمبتدأ و﴿خير﴾ خبر المبتدأ، كأنه قيل: ﴿ولباس التقوى﴾ المشار إليه خير. أو: ﴿لباس التقوى﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: وهو لباس التقوى، أي: ستر العورة لباس المتقين، ثم قال: ذلك خير. وقيل: ولباس أهل التقوى من الصوف والحشن. ﴿ولباس التقوى﴾ مدني، وشامي، وعلي، عطفاً على لباساً وريشاً أي: وأنزلنا عليكم لباس التقوى ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده، يعني: إنزال اللباس ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه. وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوءات، وخصف الورق عليها إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري من الفضيحة، وإشعاراً بأن التستر من التقوى.

٢٧ - ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ لا يخذعكم، ولا يضلنكم بالألا تدخلوا الجنة، كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ حال، أي: أخرجهما نازعاً لباسهما، بأن كان سبباً في أن نزاعهما. والنهي في الظاهر للشيطان. وفي المعنى لبني آدم، أي: لا تتبعوا

لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْمَآءٍ إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

الشیطان فیفتنکم ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْمَآءٍ﴾ عوراتهما ﴿إِنَّهُ﴾ الضمیر للشأن والحديث ﴿يَرِنُّكُمْ هُوَ﴾ تعلیل للنهی، وتحذیر من فتنته بأنّه بمنزلة العدو المداجي^(١)، یکیدکم من حیث لا تشعرون ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ وذریته، أو وجنوده من الشیاطین. وهو عطف علی الضمیر فی: «یراکم» المؤکد بهو، ولم یعطف علیه؛ لأنّ معمول الفعل هو المستکنّ دون هذا البارز، وإنّما یعطف علی ما هو معمول الفعل ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ قال ذو النون: إن کان هو یراک من حیث لا تراه، فاستعن بمن یراه من حیث لا یراه، وهو الله الکریم، الستار، الرحیم، الغفار ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه دلالة خلق الأفعال.

٢٨ - ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً﴾ ما یبالغ فی قبحه من الذنوب، وهو: طوافهم بالبيت عراة وشركهم ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أي: إذا فعلوها اعتذروا بأنّ آباءهم كانوا يفعلونها: فاقصدوا بهم، وبأنّ الله أمرهم بأن يفعلوها؛ حیث أقرنا عليها؛ إذ لو کرهها لنقلنا عنها. وهما باطلان؛ لأنّ أحدهما تقلید للجهال، والثاني افتراء علی ذي الجلال ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ إذ المأمور به لا بدّ أن يكون حسناً، وإن کان فيه علی مراتب، علی ما عرف فی أصول الفقه ﴿اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام إنکار، وتوبيخ.

٢٩ - ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، وبما هو حسن عند كلّ عاقل، فكيف یأمر بالفحشاء؟! ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ﴿وَقُلْ﴾ قل ﴿أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: اقصدوا عبادته مستقیمین إليها، غیر عادلین إلى غیرها فی کل وقت سجود، أو: فی کل مكان سجود ﴿وَادْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾

(١) «المداجي»: المداجاة: المداراة. يقال: داجيته؛ إذا داريته، كأنك ساترته العداوة.

الَّذِينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا
الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ وَيَبْنِي مَادَمَ خُذُوا
زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

الَّذِينَ ﴿٢٩﴾ أي: الطاعة مبتغين بها وجهه خالصاً ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما أنشأكم
ابتداء يعيدكم. احتج عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق. والمعنى: أنه
يعيدكم فيجازيكم عن أعمالكم، فأخلصوا له العبادة.

٣٠ - ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم المسلمون ﴿وَفَرِيقًا﴾ أي: أضلَّ ﴿فَرِيقًا﴾ ﴿حَقَّ
عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ وهم الكافرون ﴿إِنَّهُمْ﴾ إنَّ الفريق الذين حقَّ عليهم الضلالة
﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أنصاراً ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ﴾.
والآية حجة لنا على الاعتزال في الهداية والإضلال.

٣١ - ﴿يَبْنِي مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ لباس زينتكم ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ كلما
صلَّيتم. وقيل: الزينة: المشط، والطيب. والسنة: أن يأخذ الرجل أحسن
هيئاته للصلاة؛ لأن الصلاة مناجاة الرب، فيستحب التزيين، والتعطر، كما
يجب التستر، والتطهر ﴿وَكُلُوا﴾ من اللحم، والدسم ﴿وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾
بالشروع في الحرام، أو: في مجاوزة الشبع ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. وعن ابن
عباس - رضي الله عنهما -: كُلُّ مَاشَتْ، واشرب مَاشَتْ، والبس مَاشَتْ،
ما أخطأتك خصلتان: سَرْفٌ، وَمَخِيلَةٌ. وكان للرشيد طيب نصراني حاذق،
فقال لعلني بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم
علمان علم الأبدان وعلم الأديان، فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في
نصف آية من كتابه، وهو قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، فقال
النصراني: ولم يرو عن رسولكم شيء في الطب. فقال: قد جمع رسولنا الطب في
ألفاظ يسيرة، وهي قوله عليه الصلاة والسلام: «المعدة بيت الداء، والحمية
رأس كل دواء، وأعط كل بدن ما عودته»^(١). فقال النصراني: ماترك كتابكم

(١) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشف ٢/ ١٠٠). قال في المقاصد (ص ٣٨٩):

لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره. =

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا

ولا نبيكم لجالينوس طباً.

٣٢ - ثم استفهم إنكاراً على محرم الحلال بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب، وكل ما يتجمل به ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: أصلها، يعني: القطن من الأرض، والقر من الدود ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ والمستلذات من المأكّل والمشارب. وقيل: كانوا إذا أحرّموا حرّموا الشاة، وما يخرج من لحمها، وشحمها، ولبنها ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم، لأنّ المشركين شركاءهم فيها ﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لا يشركهم فيها أحد، ولم يقل للذين آمنوا ولغيرهم، لينبّه على أنّها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة، والكفار تبع لهم. ﴿خالصة﴾ بالرفع: نافع، فهي مبتدأ، خبره ﴿للذين آمنوا﴾. و﴿في الحياة الدنيا﴾ ظرف للخبر. أو: ﴿خالصة﴾ خبر ثان، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هي خالصة. وغيره نصبها على الحال من الضمير، الذي في الظرف، الذي هو الخبر، أي: هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها يوم القيامة ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ نميّز الحلال من الحرام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنّه لا شريك له.

٣٣ - ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ حمزة. ﴿الفواحش﴾: ماتفاحش قبحه، أي: تزايد ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ سرّها وعلايتها ﴿وَالْإِثْمَ﴾ أي: شرب الخمر، أو: كلّ ذنب ﴿وَالْبَغْيَ﴾ والظلم، والكبر ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلّق بالبغي. ومحل ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ - حجة - النصب، كأنه قال: حرّم الفواحش، وحرّم الشرك ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتخفيف: مكّي، وبصري. وفيه تهكم، إذ

وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْقَىٰ مَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكُذْبِ حَقٌّ إِذَا جَاءَ نَهُم رُسُلُنَا

لا يجوز أن ينزل. برهاناً على أن يشرك به غيره ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ وأن تقولوا عليه، وتفتروا الكذب من التحريم، وغيره.

٣٤ - ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقت معين يأتيهم فيه عذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا. وهو وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله، كما نزل بالأمم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قيد بساعة، لأنها أقل ما يستعمل في الإمهال.

٣٥ - ﴿يَبْقَىٰ مَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هي: إن الشرطية، ضمت إليها «ما» مؤكدة لمعنى الشرط، لأن «ما» للشرط، ولذا ألزمت فعلها النون الثقيلة، أو الخفيفة ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ يقرؤون عليكم كتيبي. وهو في موضع رفع صفة لرسول. وجواب الشرط: ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ﴾ الشرك ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل منكم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أصلاً^(١) ﴿فلا خوف﴾ يعقوب.

٣٦ - ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا﴾ منكم ﴿بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ تعظموا عن الإيمان بها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٣٧ - ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ممن أشنع ظلماً ﴿مِمَّنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ممن تقول على الله ما لم يقله، أو: كذب ما قاله ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكُذْبِ﴾ ما كتب لهم من الأرزاق، والأعمار ﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَ نَهُم رُسُلُنَا﴾ ملك الموت، وأعوانه. و«حتى» غاية لنيلهم نصيبهم، واستيفائهم له، وهي «حتى» التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية، وهي: ﴿إِذَا جَاءَ نَهُم رُسُلُنَا﴾

(١) في المطبوع: (فلا خوف) يعقوب. وانظر إتحاف الفضلاء (ص ١٣٤).

يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ
 أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ
 وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ
 أُخْرَجْتُمْ لِأَوْلَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ
 وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أَوْلَئِهِمْ لِأُخْرَجْتُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا
 الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم، وهو حال من الرسل، أي: متوفاهم. و«ما»
 في: ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ في خطِّ المصحف موصولة بأين، وحقها أن
 تكتب مفصولة، لأنها موصولة. والمعنى: أين الآلهة الذين تعبدون؟! ﴿وَمِنْ
 دُونِ اللَّهِ﴾ ليزبوا عنكم ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عنا، فلا نراهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ
 أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ اعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة، التي هي لتحقيق الخبر.

٣٨ - ﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ أي: يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار:
 ﴿ادخلوا﴾ ﴿فِي أُمَمٍ﴾ في موضع الحال، أي: كائنين في جملة أُمم مصاحبين لهم
 ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ من كفار الجن والإنس ﴿فِي
 النَّارِ﴾ متعلق بادخلوا ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ النار ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ شكلها في الدين،
 أي: التي ضلّت بالاعتداء بها ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا﴾ أصله: تداركوا، أي:
 تلاحقوا واجتمعوا في النار، فأبدلت التاء دالاً، وسكنت للإدغام، ثم أدخلت
 همزة الوصل ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿قَالَتْ أُخْرَجْتُمْ﴾ منزلة، وهي الأتباع، والسفلة
 ﴿لِأَوْلَئِهِمْ﴾ منزلة، وهي: القادة، والرؤوس. ومعنى: ﴿لِأَوْلَاهُمْ﴾ لأجل
 أولاهم، لأن خطابهم مع الله لا معهم ﴿رَبَّنَا﴾ يا ربنا ﴿هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا
 ضِعْفًا﴾ مضاعفاً ﴿مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ للقادة بالغواية، والإغواء، وللأتباع
 بالكفر، والاعتداء ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب. ﴿لَا
 يَعْلَمُونَ﴾: أبو بكر، أي: لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر.

٣٩ - ﴿وَقَالَتْ أَوْلَئِهِمْ لِأُخْرَجْتُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ عطفوا هذا الكلام
 على قول الله تعالى للسفلة: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: فقد ثبت أن
 لا فضل لكم علينا، وأنا متساوون في استحقاق الضعف ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا

إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ

كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٤٠﴾ بكسبكم، وكفركم. وهو من قول القادة للسفلة، ولا وقف على ﴿فضل﴾. أو: من قول الله لهم جميعاً، والوقف على ﴿فضل﴾.

٤٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: لا يؤذن لهم في صعود السماء ليدخلوا الجنة، إذ هي في السماء. أو: لا يصعد لهم عمل صالح، ولا تنزل عليهم البركة. أو: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا، كما تصعد أرواح المؤمنين إلى السماء. وبالنسبة مع التخفيف: أبو عمرو. وبالياء معه: حمزة، وعلي ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة، أي: لا يدخلون الجنة أبداً؛ لأنه علقه بما لا يكون. والخياط والمخيط: ما يخاط به، وهو الإبرة. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزء الفظيع الذي وصفنا ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين؛ بدلالة التكذيب بآيات الله، والاستكبار عنها.

٤١ - ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية. جمع: غاشية. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر.

٤٢ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طاقتها. والتكليف: إلزام ما فيه كلفة، أي: مشقة ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ والجملة خبر الذين ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ اعتراض بين المبتدأ والخبر ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٤٣ - ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾ حقد كان بينهم في الدنيا، فلم يبق بينهم إلا التواذ والتعاطف. وعن علي - رضي الله عنه - : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ حال من ﴿هم﴾ في

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُّوا أَنْ تَلَكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَيَادَىٰ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ

﴿صدورهم﴾ والعامل فيها معنى الإضافة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ لما هو وسيلة إلى هذا الفوز العظيم، وهو: الإيمان ﴿وَمَا كُنَّا﴾ ﴿ما كنا﴾ بغير واو شامي، على أنها جملة موضحة للأولى ﴿لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ اللام لتوكيد النفي، أي: وما كان يصح أن نكون مهتدين لولا هداية الله. وجواب «لولا» محذوف، دل عليه ما قبله ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فكان لطفاً لنا، وتبهيها على الاهتداء، فاهتدينا. يقولون ذلك سروراً بما نالوا، وإظهاراً لما اعتقدوا ﴿وَتُودُّوا أَنْ تَلَكُمُ الْجَنَّةُ﴾ «أن» مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، والجملة بعدها خبرها، تقديره: ونودوا بأن تلكم الجنة. والهاء ضمير الشأن. أو بمعنى أي، كأنه قيل لهم: ﴿تلكم الجنة﴾ ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أعطيتموها، وهو حال من الجنة، والعامل فيها ما في «تلك» من معنى الإشارة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سماها ميراثاً لأنها لا تستحق بالعمل، بل هي محض فضل الله وعده على الطاعات، كالميراث من الميت ليس بعوض عن شيء، بل هو صلة خالصة. وقال الشيخ أبو منصور - رحمه الله - : إن المعتزلة خالفوا الله فيما أخبر ونوحاً - عليه السلام - وأهل الجنة والنار وإبليس؛ لأنه قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١] وقال نوح - عليه السلام - : ﴿وَلَا يَفْعَلُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقال أهل الجنة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ وقال أهل النار: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقال إبليس: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦].

٤٤ - ﴿وَيَادَىٰ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾ «أن» مخففة من الثقيلة، أو مفسرة. وكذلك: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب ﴿حَقًّا﴾ حال ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حَقًّا﴾. وتقديره: وعدكم ربكم، فحذف (كم) لدلالة ﴿وَعَدَنَا رَبَّنَا﴾ عليه. وإنما قالوا لهم ذلك شماتة بأصحاب النار، واعترافاً بنعم الله تعالى ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ وبكسر العين حيث كان:

فَإِذْ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا
أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ
أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

عليّ ﴿فَإِذْ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ﴾ نادى مناد، وهو ملك يسمع أهل الجنة والنار ﴿أَن لَعْنَةُ
اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿أَن لَعْنَةً﴾ مكّي، وشامي، وحمزة، وعليّ.

٤٥ - ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون. ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مفعول ثان
ليبغون، أي: ويطلبون لها الاعوجاج، والتناقض ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ بالدار الآخرة
﴿كَافِرُونَ﴾.

٤٦ - ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ وبين الجنة والنار، أو: بين الفريقين ﴿حِجَابٌ﴾ وهو السور
المذكور في قوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورٌ﴾ [الحديد: ١٣] ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ على أعراف
الحجاب، وهو السور المضروب بين الجنة والنار، وهي أعاليه، جمع: عُرف،
استعير من عرف الفرس، وعرف الديك ﴿رِجَالٌ﴾ من أفاضل المسلمين، أو: من
آخرهم دخولاً في الجنة لاستواء حسناتهم وسيئاتهم، أو: من لم يرض عنه أحد
أبويه، أو: أطفال المشركين ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من زمرة السعداء والأشقياء
﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ بعلامتهم. قيل: سيما المؤمنين: بياض الوجوه ونضارتها، وسيما
الكافرين: سواد الوجوه، وزرقة العيون ﴿وَنَادَوْا﴾ أي: أصحاب الأعراف
﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾ أنه سلام، أو: أي سلام. وهو تهنئة منهم لأهل
الجنة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: أصحاب الأعراف، ولا محلّ له؛ لأنه استئناف، كأن
سائلاً سأل عن أصحاب الأعراف ف قيل: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في
دخولها. أو: له محلّ، وهو صفة لرجال.

٤٧ - ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أبصار أصحاب الأعراف، وفيه: أن صارفاً
يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا. ﴿تِلْقَاءَ﴾ ظرف. أي: ناحية ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾
ورأوا ما فيه من العذاب ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فاستعاذوا بالله،
وفزعوا إلى رحمته ألا يجعلهم معهم.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ يُسَبِّحُهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾

٤٨ - ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا﴾ من رؤوس الكفرة ﴿يَعْرِفُونَهُمْ يُسَبِّحُهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ المال، أو: كثرتم واجتماعكم و﴿مَا﴾ نافية ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ واستكباركم على الحق، وعلى الناس. ثم يقولون لهم:

٤٩ - ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِينَ﴾ خبر مبتدأ مضمر، تقديره: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ هم الذين ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ حلفتهم في الدنيا. والمشار إليهم فقراء المؤمنين كصهيب، وسلمان، ونحوهما ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ جواب ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ وهو داخل في صلة الذين، تقديره: أقسمتم عليهم ألا ينالهم الله برحمة، أي: لا يدخلهم الجنة. يحتقرونهم لفقرهم، فقال لأصحاب الأعراف: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ وذلك بعد أن نظروا إلى الفريقين، وعرفوهم بسيماهم، وقالوا ما قالوا ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

٥٠ - ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ «أن»: مفسرة. وفيه دليل على أن الجنة فوق النار ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة. أو: أريد ﴿أَوْ﴾ ألقوا علينا ﴿تَمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام والفاكهة، كقوله:

علفتها تبناً وماء بارداً
.....
.....^(١)

أي: وسقيتها. وإنما سألوا ذلك مع بأسهم عن الإجابة؛ لأن المتحير ينطق بما يفيد؛ وبما لا يفيد ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هو تحريم منع، كما في ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]. وتقف هنا إن رفعت أو نصبت ما بعده ذمّاً. وإن جرته وصفاً للكافرين فلا.

(١) صدر بيت، وعجزه: حتى شئت همالة عينها.

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ
 كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ
 بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ
 يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ بِآلْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ
 شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ
 مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ

٥١ - ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ فحرّموا وأحلّوا ما شاؤوا. أو:
 دينهم: عيدهم ﴿وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ اغترّوا بطول البقاء ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ﴾
 تركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾
 أي: كنسيانهم، وجحودهم.

٥٢ - ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ ميّزنا حلاله، وحرامه، ومواعظه،
 وقصصه ﴿عَلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ عالّمين بكيفية تفصيل أحكامه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حال من
 منصوب ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ كما أنّ ﴿على علم﴾ حال من مرفوعه ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٥٣ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ إلا عاقبة أمره، وما يؤول إليه
 من تبين صدقه، وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾
 يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ تركوه، وأعرضوا عنه ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ بِآلْحَقِّ﴾ أي:
 تبين، وصحّ أنّهم جاؤوا بالحق، فأقروا حين لا ينفعهم ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ﴾
 فَيَشْفَعُوا لَنَا جواب الاستفهام ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ جملة معطوفة على الجملة قبلها داخله
 معها في حكم الاستفهام، كأنه قيل: فهل لنا من شفعاء، أو هل نرد؟ ورافعه
 وقوعه موقعاً يصلح للاسم، كقولك ابتداء: هل يضرب زيد؟ أو عطف على
 تقدير: هل يشفع لنا شافع، أو هل نرد؟ ﴿فَنَعْمَلْ﴾ جواب الاستفهام أيضاً
 ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا
 يعبدونه من الأصنام.

٥٤ - ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أراد السموات

ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ آلِئَلِ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمَ
مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۚ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۚ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً

والأرض وما بينهما. وقد فصلها في «حم السجدة» أي: من الأحد إلى الجمعة؛
لاعتبار الملائكة شيئاً فشيئاً، وللإعلام بالتأني في الأمور، ولأن لكل عمل يوماً،
ولأن إنشاء شيء بعد شيء أدل على عالم مدبر يريد يصرفه على اختياره،
ويجريه على مشيئته ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ﴾ استولى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أضاف الاستيلاء إلى
العرش، وإن كان سبحانه وتعالى مستولياً على جميع المخلوقات؛ لأن العرش
أعظمها، وأعلاها. وتفسير العرش بالسريـر، والاستواء بالاستقرار كما تقوله
المشبهة باطل؛ لأنه تعالى كان قبل العرش ولا مكان، وهو الآن كما كان؛ لأن
التغير من صفات الأكوان. والمنقول عن الصادق، والحسن، وأبي حنيفة،
ومالك - رحمهم الله -: أَنَّ الاستواء^(١) معلوم، والتكليف فيه مجهول،
والإيمان به واجب، والجحود له كفر، والسؤال عنه بدعة ﴿يُغْشَى آلِئَلِ النَّهَارِ﴾
﴿يُغْشَى﴾ حمزة، وعلي، وأبو بكر. أي: يلحق الليل بالنهار، والنهار بالليل
﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُا﴾ حال من الليل، أي: سريعاً. والطالب: هو الليل، كأنه لسرعة
مضيه يطلب النهار ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمَ﴾ أي: وخلق الشمس، والقمر،
والنجوم ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ حال، أي: مذللات ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ﴾
مسخرات: شامي. والشمس مبتدأ، والبقية معطوفة عليها، والخبر: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾ هو أمر تكوين. ولما ذكر أنه خلقهن مسخرات بأمره
قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾. أي: هو الذي خلق الأشياء، وله الأمر ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾ كثر خيره، أو: دام برّه. من البركة: النماء، أو من البروك: الثبات،
ومنه: البركة ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

٥٥ - ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ نصب على الحال، أي: ذوي تضرع
وخفية. والتضرع: تفعل، من: الضراعة، وهي: الذل، أي: تذللًا وتعلّقًا.
قال ﷺ: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إنه معكم

(١) وهذا هو مذهب السلف في عدم التأويل، وهو أسلم.

إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا

أينما كنتم»^(١). عن الحسن: بين دعوة السر والعلانية سبعون ضعفاً ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره. وعن ابن جريج: الرافعين أصواتهم بالدعاء. وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة. وقيل: هو الإسهاب في الدعاء. وعن النبي ﷺ: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل. ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾»^(٢).

٥٦ - ﴿وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: بالمعصية بعد الطاعة، أو بالشرك بعد التوحيد، أو: بالظلم بعد العدل ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ حالان، أي: خائفين من الرد، طامعين في الإجابة. أو: من النيران وفي الجنان. أو: من الفراق وفي التلاق. أو: من غيب العاقبة وفي ظاهر الهداية. أو: من العدل وفي الفضل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ذكر قريب على تأويل الرحمة بالرحم، أو: الترحم، أو: لأنه صفة موصوف محذوف، أي: شيء قريب، أو: على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول، [أو: لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي]^(٣)، أو: للإضافة إلى المذكور.

٥٧ - ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ ﴿الرِّيحَ﴾ مكّي، وحمة، وعلي ﴿بُشْرًا﴾ (نُشْرًا) حمزة، وعلي، مصدر نشر. وانتصابه إما لأن أرسل ونشر متقاربان، فكأنه قيل: نشرها نشرًا. وإما على الحال، أي: منشورات. ﴿بُشْرًا﴾ عاصم؛ تخفيف بُشْرًا، جمع بشير، لأن الرياح تبشر بالطر. (نُشْرًا) شامي، تخفيف نُشْر،

(١) رواه البخاري (٦٣٨٤) ومسلم (٢٧٠٤).

(٢) رواه أبو داود (١٤٨٠).

(٣) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِيَلْجِزَ مَمَاتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خُبْتُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا

كُرْسُلَ وَرُسُلَ، وهو قراءة الباقيين، جمع نشور، أي: ناشرة للمطر ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أمام نعمته، وهو: الغيث الذي هو من أجل النعم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾ حملت ورفعت. واشتقاق الإقلال من القلة؛ لأن الرافع المطبق يرى ما يرفعه قليلاً ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء؛ جمع سحابة ﴿سُقْنَهُ﴾ الضمير للسحاب على اللفظ. ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقليل ثقبلاً ﴿لِيَلْجِزَ مَمَاتٍ﴾ لأجل بلد ليس فيه مطر، ولسقيه. ﴿مَمَاتٍ﴾ مدني، وحمة، وعلي، وحفص ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ بالسحاب، أو: بالسوق. وكذلك: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج، وهو: إخراج الثمرات ﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيؤدبكم التذكير إلى الإيمان بالبعث، إذ لا فرق بين الإخراجين؛ لأن كل واحد منهما إعادة الشيء بعد إنشائه.

٥٨ - ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الأرض الطيبة الترب ﴿يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بتيسيره، وهو موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسناً وافياً؛ لأنه واقع في مقابلة ﴿نَكِدًا﴾ ﴿وَالَّذِي خُبْتُ﴾ صفة للبلد. أي: والبلد الخبيث ﴿لَا يَخْرِجُ﴾ أي: نباته، فحذف للاكتفاء ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ هو الذي لا خير فيه. وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ، وهو المؤمن، ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك، وهو الكافر. وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر مثل المطر، وإنزاله بالبلد الميت، وإخراج الثمرات به، على طريق الاستطراد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نرددها، ونكرزها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله - وهم المؤمنون - ليتفكروا فيها، ويعتبروا بها.

٥٩ - ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ ﴿نُوحًا

نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرِهِ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ أَلْمَأُومَةُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّ وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴿٥٩﴾ أرسل وهو ابن خمسين سنة، وكان نجاراً، وهو نوح بن لَمَك (١) بن مَتُوشَلَخ بن أَخْنُوخ، وهو اسم إدريس - عليه السلام - ﴿فَقَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾ «غيره»: عليّ. فالرفع على المحل، كأنه قيل: ما لكم إله غيره، فلا تعبدوا معه غيره. والجرّ على اللفظ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة، أو: يوم نزول العذاب عليهم، وهو الطوفان.

٦٠ - ﴿قَالَ أَلْمَأُومَةُ﴾ أي: الأشراف، والسادة ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ أي: بيّن في ذهاب عن طريق الصواب. والرؤية: رؤية القلب.

٦١ - ﴿قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ ولم يقل ضلال، كما قالوا؛ لأن الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال. ثم استدرك لتأكيد نفي الضلالة فقال: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأن كونه رسولاً من الله مبلغاً لرسالته في معنى كونه على الصراط المستقيم، فكان في الغاية القصوى من الهدى.

٦٢ - ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّ﴾ ما أوحى إليّ في الأوقات المتطاولة، أو: في المعاني المختلفة من الأوامر، والنواهي، والمواعظ، والبشائر، والنظائر. ﴿أَبْلَغُكُمْ﴾ أبو عمرو. وهو كلام مستأنف بيان لكونه رسول رب العالمين ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ وأقصد صلاحكم بإخلاص، يقال: نصحت، ونصحت له. وفي زيادة اللام مبالغة، ودلالة على إحاطة النصيحة. وحقيقة النصح: إرادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك، أو: النهاية في صدق العناية ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من صفاته، يعني: قدرته الباهرة، وشدة بطشه على أعدائه، وأن بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين.

(١) في تاريخ الطبري (١/١٦٥): لامك.

أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتُنقُوا وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

٦٣ - ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكنبتم وعجبتم؟! ﴿أَنْ جَاءَكُمْ﴾ من ﴿أَنْ جَاءَكُمْ﴾ ﴿ذِكْرٌ﴾ موعظة. ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ على لسان رجل منكم، أي: من جنسكم. وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح - عليه السلام - ويقولون: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] يعنون إرسال البشر ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] ليحذركم عاقبة الكفر ﴿وَلِتُنقُوا﴾ ولتوجد منكم التقوى، وهي: الخشية بسبب الإنذار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

٦٤ - ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فنسبوه إلى الكذب ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وكانوا أربعين رجلاً، وأربعين امرأة، وقيل: تسعة: بنوه سام، وحام، ويافث، وستة ممن آمن به ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ يتعلّق بـ: معه، كأنه قيل: والذين صحبوه في الفلك ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق. يقال: أعمى في البصر، وعم في البصيرة.

٦٥ - ﴿وَإِلَى عَادٍ﴾ وأرسلنا ﴿إِلَى عَادٍ﴾. وهو عطف على ﴿نوحاً﴾ ﴿أَخَاهُمْ﴾ واحداً منهم، من قولك: يا أخا العرب: للواحد منهم. وإنما جعل واحداً منهم؛ لأنهم عن رجل منهم أفهم، فكانت الحجة عليهم ألزم ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لـ ﴿أخاهم﴾. وهو: هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ﴿قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وإنما لم يقل: فقال، كما في قصّة نوح - عليه السلام - لأنه على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾. وكذلك:

٦٦ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾. وإنما وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؛ لأن في أشراف قوم هود من آمن به، منهم: مرثد بن

إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقَوْمٍ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

سعد، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشرف قوم نوح - عليه السلام - مؤمن ﴿إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ في خفة حلم، وسخافة عقل. حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر. وجعلت السفاهة ظرفاً مجازاً، يعني: أنه متمكن فيها، غير منفك عنها ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ في ادّعاك الرسالة.

٦٧، ٦٨ - ﴿قَالَ يَنْقَوْمٍ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ فيما أدعوكم إليه ﴿أَمِينٌ﴾ على ما أقول لكم. وإنما قال هنا: ﴿وَأَنَا لَكُمْ ناصح أمين﴾ لقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: ليقابل الاسم الاسم.

وفي إجابة الأنبياء - عليهم السلام - من ينسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به، من الكلام الصادر عن الحلم، والإغضاء، وترك المواجهة بما قالوا لهم، مع علمهم بأن خصومهم أضلّ الناس، وأسفهمهم، أدب حسن، وخلق عظيم. وإخبار الله تعالى ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغيضون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم.

٦٩ - ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: خلفتموهم في الأرض، أو: في مساكنهم. و﴿إِذْ﴾ مفعول به، وليس بظرف، أي: اذكروا وقت استخلافكم ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ طويلاً وامتداداً، فكان أقصرهم ستين ذراعاً، وأطولهم مئة ذراع. ﴿بَضْطَةً﴾ حجازي، وعاصم، وعليّ ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ في استخلافكم، وبسطة أجرامكم، وما سواها من عطايها. وواحد الآلاء: إلى، نحو: إني وآاء. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يِمَّا تَعِدُنَا
 إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
 أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ
 فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
 وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

٧٠ - ومعنى المجيء في: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا﴾ أن يكون ليهود - عليه السلام - مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه، كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراء قبل المبعث، فلما أوحى إليه جاء قومه يدعوهم ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أنكروا، واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه حباً لما نشؤوا عليه ﴿فَأَيْنَا يِمَّا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بنا.

٧١ - ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ أي: قد نزل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ جعل المتوقع - الذي لا بد من نزوله - بمنزلة الواقع، كقولك لمن طلب إليك بعض الطالب: قد كان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب ﴿وَغَضَبٌ﴾ سخط ﴿أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات؛ لأنكم تسمون الأصنام آلهة، وهي خالية عن معنى الألوهية ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ حجة ﴿فَانظُرُوا﴾ نزول العذاب ﴿إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ذلك

٧٢ - ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي: من آمن به ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدابر: الأصل، أو: الكائن خلف الشيء. وقطع دابرهم: استئصالهم، وتدميرهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فائدة: نفى الإيمان عنهم، مع إثبات التكذيب بآيات الله الإشعارُ بأن الهلاك خصّ المكذبين.

وقصّتهم: أن عاداً قد تبسّطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها: صداء، وصمود، والهباء. فبعث الله إليهم هوداً، فكذّبوه، فأمسك القطر عنهم ثلاث سنين. وكانوا إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله الفرج منه عند بيته الحرام، فأوفدوا إليه قَيْلَ بن عِزْر، ولَقَيْمَ بن هَزَال،

وَالْإِنَّمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي الْأَرْضِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ

ومرثد بن سعد - وكان يكتم إيمانه بهود عليه السلام - وأهل مكة إذ ذاك العماليق، أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيدهم: معاوية بن بكر، فنزلوا عليه بظاهر مكة. فقال لهم مرثد: لن تُسَقَوْا حتى تؤمنوا بهود. فخلفوا مرثداً، وخرجوا. فقال قيل: اللهم اسقِ عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحبات ثلاثاً: بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قيل! اختر لنفسك ولقومك، فاختار السوداء على ظن أنها أكثر ماء، فخرجت على عاد من واد لهم، فاستبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم منها ريح عقيم، فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة، فعبدوا الله فيها، حتى ماتوا^(١).

٧٣ - ﴿وَالْإِنَّمُودَ﴾ وأرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ وقرىء ﴿وإلى ثمود﴾ بتأويل الحي، أو باعتبار الأصل؛ لأنه اسم أبيهم الأكبر. ومنع الصرف بتأويل القبيلة. وقيل: سميت: ثمود لقلة ماؤها، من: الثمد، وهو: الماء القليل. وكانت مساكنهم: الحجر، بين الحجاز والشام ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ آية ظاهرة، شاهدة على صحة نبوتي. فكانه قيل: ما هذه البينة؟ فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ وهذه إضافة تخصيص وتعظيم؛ لأنها بتكوينه تعالى بلا صلب، ولارحم ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ حال من الناقة. والعامل معنى الإشارة في هذه، كأنه قيل: أشير إليها ﴿آيَةٌ﴾. ﴿ولكم﴾ بيان لمن هي له آية، وهي ثمود؛ لأنهم عاينوها ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربها من نبات ربها، فليس عليكم مؤنتها ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ﴾

(١) انظر الخبر في تاريخ الطبري (١/٢١٩ - ٢٢٠) نقلاً عن ابن إسحاق، وانظر الكشف (٨٨/٢).

فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ مُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صُلَيْحًا مُرْسَلٌ مِّن

ولا تضربوها، ولا تعقروها، ولا تطردوها إكراماً لآية الله ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ جواب النهي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٧٤ - ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ ونزلكم. والمباعدة: المنزل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض الحجر، بين الحجاز والشام ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ مُهُولِهَا قُصُورًا﴾ غراً للصيف ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ للشتاء. وبيوتاً حال مقدرة، نحو: خط هذا الثوب قميصاً؛ إذ الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، ولا الثوب قميصاً في حال الخياطة ﴿فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ روي أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها، وخلفوها في الأرض، وعمرها أعماراً طوالاً، فنحتوا البيوت من الجبال خشية الانهدام قبل الممات. وكانوا في سعة من العيش، فعتوا على الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحاً، وكانوا قوماً عرباً، وصالح من أوسطهم نسباً، فدعاهم إلى الله، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فأنذره، فسألوه أن يخرج من صخرة بعينها ناقة عُشراء، فصلى، ودعا ربه، فتمخضت تمخض التتوج بولدها، فخرجت منها ناقة كما شاؤوا، فأمن به جندع ورهط من قومه.

٧٥ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وقال: شامي ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ للذين استضعفهم رؤساء الكفار ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استضعفوا بإعادة الجار. وفيه دليل على أن البدل حيث جاء كان في تقدير إعادة العامل. والضمير في ﴿منهم﴾ راجع إلى ﴿قومه﴾. وهو يدل على أن استضعفهم كان مقصوراً على المؤمنين، أو: إلى الذين استضعفوا، وهو يدل على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صُلَيْحًا مُرْسَلٌ مِّن

رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنقُورِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾

رَبِّهِمْ ﴿٧٥﴾ قالوه على سبيل السخرية ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وإنما صار هذا جواباً لهم؛ لأنهم سألوهم عن العلم بإرساله، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مسلماً، كأنهم قالوا: العلم بإرساله، وبما أرسل به لا شبهة فيه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم: أنا به مؤمنون.

٧٦ - ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فوضعوا ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ موضع ﴿أُرْسِلَ بِهِ﴾ رداً لما جعله المؤمنون معلوماً مسلماً.

٧٧ - ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أسند العقر إلى جميعهم، وإن كان العاقر: قدار بن سالف؛ لأنه كان برضاهم. وكان قدار: أحمر، أزرق، قصيراً، كما كان فرعون كذلك. وقال ﷺ: «يا علي! أشقى الأولين: عاقر ناقة صالح، وأشقى الآخرين: قاتلك»^(١) ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وتولوا عنه، واستكبروا. وأمر ربهم: ما أمر به على لسان صالح - عليه السلام - من قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]. أو: شأن ربهم، وهو دينه ﴿وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

٧٨ - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الصيحة التي زلزلت لها الأرض، واضطربوا لها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ في بلادهم، أو: مساكنهم ﴿جَنِينَ﴾ ميتين قعوداً. يقال: الناس جنم، أي: قعود لا حراك بهم، ولا يتكلمون.

٧٩ - ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ لما عقروا الناقة ﴿وَقَالَ يَنقُورِ﴾ عند فراقه إياهم. ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ الأمرين

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٠٧/٤) وانظره في مجمع الزوائد (١٤/٧) و(٢٩٩).

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾
 إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا
 كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ

بالبهوى لاستحلاء الهوى. والنصيحة: منيحة تدرأ الفضيحة، ولكنها وخيمة، تورث السخيمة. رُوي: أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء، فقال صالح: تعيشون بعده ثلاثة أيام، تصفر وجوهكم أول يوم، وتحمّر في الثاني، وتسود في الثالث، ويصيبكم العذاب في الرابع. وكان كذلك. ورُوي أنه خرج في مئة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فلما علم أنهم هلكوا رجع بمن معه، فسكنوا ديارهم.

٨٠ - ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي: واذكروا ﴿لوطًا﴾. و﴿إِذْ﴾ بدل منه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أنفعلون السيئة المتبادية في القبح؟! ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ ما عملها قبلكم. والباء للتعدي. ومنه قوله ﷺ: «سبقك بها عكاشة»^(١) ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ «من» زائدة لتأكيد النفي، وإفادة معنى الاستغراق ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ «من» للتبعيض. وهذه جملة مستأنفة، أنكر عليهم أولاً بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ ثم ويخهم عليها فقال: أنتم أول من عملها.

٨١ - وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أنتم ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ بيان لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾. والهمزة مثلها في ﴿أَتَأْتُونَ﴾ للإنكار ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الإخبار مدني وحفص. يقال: أتى المرأة: إذا غشيها ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول له، أي: للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة، ولا ذم أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمية ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي: لا من النساء ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح، وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد.

٨٢ - ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي:

(١) رواه أحمد (١/ ٤٠٣ و ٤٥٤).

إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

لوطاً ومن آمن معه، يعني: ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط من إنكار الفاحشة، ووصفهم بصفة الإسراف؛ الذي هو أصل الشر؛ ولكنهم جاؤوا بشيء لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ يدعون الطهارة، ويدعون فعلنا الخبيث. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: عابوهم بما يتمدح به.

٨٣ - ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ ومن يختص به من ذويه، أو: من المؤمنين ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ من الباقيين في العذاب. والتذكير لتغليب الذكور على الإناث. وكانت كافرة موالية لأهل سدوم. ورؤي أنها التفتت، فأصابها حجر، فماتت.

٨٤ - ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيماً. قالوا: أمطر الله عليهم الكبريت والنار. وقيل: خسف بالقيمين منهم، وأمطرت حجارة على مسافريهم. وقال أبو عبيدة: «أمطر» في العذاب، و«مطر» في الرحمة ﴿فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين.

٨٥ - ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ و﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾ وهو اسم قبيلة ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكايل والموازين ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: معجزة وإن لم تذكر في القرآن ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أتموهما. والمراد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. أو: يكون «الميزان» كالميعاد، بمعنى المصدر ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا حقوقهم بتطيف الكيل ونقصان الوزن. وكانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعتهم. و«بخس» يتعدى إلى مفعولين، وهما: الناس، وأشياءهم. تقول:

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا

بخست زیداً حقّه، أي: نقصته إياه ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد الإصلاح فيها، أي: لا تفسدوا فيها بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء والأولياء. وإضافته كإضافة: ﴿بَلْ مَكْرُ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي: بل مكرهم في الليل والنهار ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان، وترك البخس، والإفساد في الأرض ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الإنسانية، وحسن الأحداث ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدّقين لي في قولي.

٨٦ - ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ بكلّ طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ من آمن بشعيب بالعذاب ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن العبادة ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ بالله. وقيل: كانوا يقطعون الطرق. وقيل: كانوا عشارين^(١) ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ وتطلبون لسبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة، غير مستقيمة، لتمنعوهم عن سلوكها. ومحلّ ﴿تُوعِدُونَ﴾ وما عطف عليه النصب على الحال، أي: لا تقعدوا موعدين، وصادين عن سبيل الله وباغين عوجاً ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾ ﴿إِذْ﴾ مفعول به غير ظرف. أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم ﴿فَكَثَرَكُمْ﴾ الله، ووفر عددكم. وقيل: إنّ مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط فولدت، فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء، فكثروا ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم؛ كقوم نوح، وهود، وصالح، ولوط - عليهم السلام -.

٨٧ - ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾ فانظروا. ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين بأن ينصر المحقّين

(١) «عشارين»: جمع عشار، وهو أخذ العُشْر وملتزمه.

وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَؤُ كُفْرِهِمْ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّعْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ

على المبطلين، ويظهرهم عليهم. وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله تعالى منهم، أو: هو حث للمؤمنين على الصبر، واحتمال ما كان يلحقهم من المشركين، إلى أن يحكم الله بينهم، ويتنقم لهم منهم، أو: هو خطاب للفريقين، أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، والكافرون على ميسوؤهم من إيمان من آمن منهم، حتى يحكم الله، فيميز الخبيث من الطيب ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾ لأن حكمه حق وعدل، لا يخاف فيه الجور.

٨٨ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم، وإما عودكم في الكفر ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿أُولَؤُ كُفْرِهِمْ﴾ الهمزة للاستفهام. والواو للحال. تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراحتنا، ومع كوننا كارهين. قالوا نعم:

٨٩ - ثم قال شعيب: ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ وهو قسم، على تقدير: حذف اللام، أي: والله لقد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم ﴿بَعْدَ إِذْ بَخَّعْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ خلصنا الله. فإن قلت: كيف قال شعيب ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ والكفر على الأنبياء - عليهم السلام - محال؟ قلت: أراد عود قومه، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم، وإن كان بريئاً من ذلك، إجراء لكلامه على حكم التغليب ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ وما ينبغي لنا، وما يصح ﴿أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ إلا أن يكون سبق في مشيئته أن نعود فيها، إذ الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى خيرها وشرها ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تمييز، أي: هو عالم بكل شيء، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول، وقلوبهم كيف تتقلب ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يُبَيِّنَنَا عَلَى الْإِيمَانِ، ويوفقنا لازدياد الإيقان ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: احكم. والفتاحة: الحكومة. والقضاء بالحق يفتح الأمر المغلق؛ فلذا سُمِّيَ

وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاحِشِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَنْفَعُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ بِكَيْفِ عَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ

فتحاً، ويُسمَّى أهل عُمان القاضي: فَتَحَا ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاحِشِينَ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَافِظِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

٩٠ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ مغبونون لفوات فوائد البخس والتطفيف باتباعه، لأنه ينهاكم عنهما، ويحملكم على الإيفاء والتسوية. وجواب القسم الذي وطأته اللام في ﴿لئن أتيتكم﴾ وجواب الشرط، ﴿إنكم إذا لخاسرون﴾ فهو ساذ مسدّ الجوابين.

٩١ - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ ميتين.

٩٢ - ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا﴾ مبتدأ، خبره: ﴿كَانَ لَمْ يَنْفَعُوا فِيهَا﴾ لم يقيموا فيها. غني بالمكان: أقام ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا﴾ مبتدأ، خبره: ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ لا من قالوا لهم: ﴿إنكم إذا لخاسرون﴾. وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنه قيل: الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا، كأن لم يقيموا في دارهم، لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله، الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه، فهم الراحون. وفي هذا التكرار مبالغة، واستعظام لتكذيبهم، ولما جرى عليهم.

٩٣ - ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ بعد أن نزل بهم العذاب ﴿وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ بِكَيْفِ عَاسَى﴾ أحزن ﴿عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. اشتد حزنه على قومه، ثم أنكر على نفسه، فقال: كيف يشدّ حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم؛ لكفرهم واستحقاقهم مانزل بهم؟! أو: أراد لقد أعذرت لكم في الإبلاغ والتحذير بما حلّ بكم، فلم تصدّقوني، فكيف آسى عليكم؟!.

٩٤ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ يقال: لكلّ مدينة قرية. وفيه حذف،

إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾

أي: فكذبوه ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ﴾ بالبؤس، والفقر ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ الضر، والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم. أو: هما نقصان النفس، والمال ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ليتضرعوا، ويتذللوا، ويخطوا أودية الكبر.

٩٥ - ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة: الرخاء والسعة والصحة ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ كثروا، ونموا في أنفسهم وأموالهم. من قولهم: عفا النبات: إذا كثر. ومنه قوله ﷺ: «وأعفوا للحي»^(١) ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أي: قالوا هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسرء. وقد مسَّ آباءنا نحو ذلك، وما هو بعقوبة الذنب، فكونوا على ما أنتم عليه ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

٩٦ - واللام في: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ إشارة إلى أهل القرى التي دلَّ عليها ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ كأنه قال: ولو أنَّ أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا ﴿ءَامَنُوا﴾ بدل كفرهم ﴿وَأَتَّقَوْا﴾ الشرك مكان ارتكابه ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ ﴿لَفَتَّحْنَا﴾ شامي ﴿بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أراد: المطر والنبات، أو: لآتيناهم بالخير من كل وجه ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ الأنبياء ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بكفرهم، وسوء كسبهم. ويجوز أن تكون اللام للجنس.

٩٧ - ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ يريد الكفار منهم ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيِّنًا﴾ ليلاً، أي: وقت نيات، يقال: بات بياناً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

(١) رواه الترمذي (٢٧٦٣) والنسائي (١٦/١ و ١٢٩/٨ و ١٨٢).

أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ

٩٨ - ﴿أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ نهاراً. والضحى في الأصل: ضوء الشمس إذا أشرقت. والفاء والواو في ﴿أفأمن﴾ و﴿أو آمن﴾ حرفا عطف، دخل عليهما همزة الإنكار. والمعطوف عليه ﴿فأخذناهم﴾ بغثة. وقوله ﴿ولو أنَّ أهل القرى﴾ إلى ﴿يكسبون﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه. وإنما عطف الأولى بالفاء؛ لأنَّ المعنى فعلوا، وصنعوا، فأخذناهم بغثة، أبعد ذلك آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟ ﴿أَوْ آمِنَ﴾: شامي، وحجازي على العطف بأو. والمعنى: إنكار الأمن من أحد هذين الوجهين من إتيان العذاب ليلاً، أو ضحى. فإن قلت: كيف دخل همزة الاستفهام على حرف العطف، وهو ينافي الاستفهام؟ قلت: التنافي في المفرد لا في عطف جملة على جملة؛ لأنَّه على استئناف جملة بعد جملة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يشتغلون بما لا يجدي عليهم.

٩٩ - ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ تكرير لقوله: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ أخذه العبد من حيث لا يشعر. وعن الشبلي - قدس الله روحه - العزيز: مكره بهم: تركه إياهم على ما هم عليه. وقالت ابنة الربيع بن خثيم لأبيها: مالي أرى الناس ينامون، ولا أراك تنام؟ قال: يا بنتاه! إنَّ أباك يخاف البيات. أراد قوله: ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتاً﴾ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إلا الكافرون؛ الذين خسروا أنفسهم، حتَّى صاروا إلى النار.

١٠٠ - ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يبين ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ «أن لو نشاء» مرفوع بأنَّه فاعل ﴿يهد﴾. وأن مخففة من الثقيلة، أي: أو لم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم، ويرثون أرضهم هذا الشأن، وهو: أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، كما أصبنا من قبلهم، فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين. وإنما عدى فعل الهداية باللام؛

وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠١﴾ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا

لأنه بمعنى التبيين ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستأنف، أي: ونحن نختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الوعظ.

١٠١ - ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ كقوله: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾

[هود: ٧٢] في أنه مبتدأ وخبر وحال. أو: تكون ﴿القرى﴾ صفة ﴿تلك﴾ و﴿نقص﴾ خبراً. والمعنى: تلك القرى المذكورة من قوم نوح إلى قوم شعيب نقص عليك بعض أنبائها، ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيء الرسل بالبيّنات ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ بما كذبوا من آيات الله من قبل مجيء الرسل. أو: فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين مع تنابع الآيات. واللام لتأكيد النفي ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع الشديد ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ لما علم منهم أنهم يختارون الثبات على الكفر.

١٠٢ - ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ الضمير للناس على الإطلاق. يعني:

أن أكثر الناس نقضوا عهد الله وميثاقه في الإيمان. والآية اعتراض. أو: للأمم المذكورين، فإنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرر وخفاة لئن أنجيتنا لنؤمنن، ثم أنجاهم، نكثوا ﴿وَإِنْ﴾ وإنَّ الشأن والحديث ﴿وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ لخارجين عن الطاعة. والوجود بمعنى العلم، بدليل دخول «أن» المخففة واللام الفارقة، ولا يجوز ذلك إلا في المبتدأ، والخبر، والأفعال الداخلة عليهما.

١٠٣ - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الضمير للرسل في قوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ﴾

أو: للأمم ﴿مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فكفروا بآياتنا. أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لأنهما من وإد واحد ﴿إِنَّ الشِّرْكَ

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرَعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾

لَظُمَ عَظِيمٌ ﴿١٠٣﴾ [لقمان: ١٣]. أو: فظلموا الناس بسببها حين آذوا من آمن. أو: لأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً، حيث وضعوا الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ حيث صاروا مغرقين.

١٠٤ - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرَعُونَ﴾ يقال للملوك مصر: الفراعنة، كما يقال للملوك فارس: الأكاسرة، فكأنه قال: يا ملك مصر. واسمه: قابوس، أو: الوليد بن مصعب بن الريان ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك. قال فرعون: كذبت. فقال موسى:

١٠٥ - ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ أي: أنا حقيق على قول الحق، أي: واجب على قول الحق أن أكون قائله، والقائم به. ﴿حَقِيقٌ عَلَى﴾ نافع، أي: واجب عليّ ترك القول على الله إلا الحق، أي: الصدق. وعلى هذه القراءة تقف على ﴿العالَمِينَ﴾ وعلى الأول يجوز الوصل على جعل حقيق وصف الرسول. و«على» بمعنى: الباء كقراءة أبي، أي: إني رسول خالق بألا أقول. أو: يعلّق على بمعنى الفعل في الرسول، أي: إني رسول حقيق جدير بالرسالة، أرسلت على ألا أقول على الله إلا الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بما بيّنت رسالتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فخلهم يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم. وذلك أن يوسف - عليه السلام - لما توفي غلب فرعون على نسل الأسباط، واستعبدهم، فأنقذهم الله بموسى - عليه السلام - وكان بين اليوم الذي دخل - عليه السلام - مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمئة عام. ﴿مَعِيَ﴾: حفص.

١٠٦ - ﴿قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فائتني بها لتصح دعواك، ويثبت صدقك فيها.

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

١٠٧ - ﴿فَأَلْقَى﴾ موسى - عليه السلام - ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ «إذا» هذه للمفاجأة، وهي من ظروف المكان بمنزلة ثمة، وهناك ﴿ثُعْبَانٌ﴾ حية عظيمة ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر أمره. رُوي أنه كان ذكراً فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر^(١). ثم توجه نحو فرعون فهرب، وأحدث، ولم يكن أحدث قبل ذلك. وحمل على الناس، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً. فصاح فرعون: يا موسى! خذه، وأنا أومن بك، فأخذه موسى، فعاد عصا.

١٠٨ - ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِينَ﴾ أي: فإذا هي بيضاء للنظارة، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضاً عجبياً خارجاً عن العادة، يجمع الناس للنظر إليه. رُوي: أنه أرى فرعون يده، وقال: ما هذه؟ فقال: يدك. ثم أدخلها في جيبه ونزعها، فإذا هي بيضاء غلب شعاعها شعاع الشمس. وكان موسى - عليه السلام - آدم، شديد الأدمة.

١٠٩ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ عالم بالسحر، ماهر فيه، قد خيل إلى الناس العصا حية والآدم أبيض. وهذا الكلام قد عُزي إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ. وهنا عزي إليهم، فيحتمل أنه قد قاله هو، وقالوه هم، فحكى قوله ثمة، وقولهم هنا. أو: قاله ابتداء، فتلقنه منه الملأ، فقالوه لأعقابهم.

١١٠ - ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ يعني: مصر ﴿فَأَمَّاذَا تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون، من: أمرته، فأمرني بكذا: إذا شاورته، فأشار عليك برأي. وهو من كلام فرعون قاله للملأ لما قالوا له: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ﴾.

(١) رحم الله النسفي! كيف قبل مثل هذه الرواية الإسرائيلية، وما فيها من المبالغات والخيالات المستحيلة!

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ
السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَمُوتُ أَوْ نَقُتْلُ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ
أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ

١١١ - ﴿قَالُوا أَرْجِهْ﴾ بسكون الهاء: عاصم، وحمة، أي: أخر، واحبس،
أي: أخر أمره، ولا تعجل. أو: كأنه هم بقتله، فقالوا: أخر قتله، واحبسه،
ولا تقتله ليتبين سحره عند الخلق ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ﴾
جامعين.

١١٢ - ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿سَحَارٍ﴾: حمزة، وعلي. أي: يأتوك
بكل ساحر عليم مثله في المهارة، أو بخير منه.

١١٣ - ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ يريد: فأرسل إليهم فحضروا ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا
لَأَجْرًا﴾ على الخبر، وإثبات الأجر العظيم. حجازي، وحفص. ولم يقل:
فقالوا، لأنه على تقدير سؤال سائل: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأجيب بقوله: ﴿قَالُوا
إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ لجعلاً على الغلبة. والتنكير للتعظيم، كأنهم قالوا: لا بد لنا من
أجر عظيم ﴿إِنْ كُنَّا نَمُوتُ أَوْ نَقُتْلُ﴾.

١١٤ - ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إِنَّ لَكُمْ لَأَجْرًا ﴿وَأِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي، فتكونون
أول من يدخل، وآخر من يخرج. وكانوا ثمانين ألفاً، وسبعين ألفاً، أو بضعة
وثلاثين ألفاً.

١١٥ - ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى﴾ عصاك ﴿وَأِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ لما
معنا. وفيه دلالة على أَنَّ رغبتهم في أن يلقوا قبله، حيث أكد ضميرهم المتصل
بالمفصل، وعرف الخبر.

١١٦ - ﴿قَالَ﴾ لهم موسى - عليه السلام - ﴿أَلْقُوا﴾ تخييرهم إياه أدب
حسن راعوه معه، كما يفعل المتناظرون قبل أن يتخاضوا في الجدال. وقد
سوَّغ لهم موسى ما رغبوا فيه، ازدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، واعتماداً على
أن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أروها بالحيل

وَأَسْرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَا لَكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ

والشعوذة، وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه. روي: أنهم ألقوا حبلاً غلاظاً وخشباً طوالاً، فإذا هي أمثال الحيات قد ملأت الأرض، وركب بعضها بعضاً ﴿وَأَسْرَهُبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعوا رهبتهم بالحيلة ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ في باب السحر، أو: في عين من رآه.

١١٧ - ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ «تلتف»: تبتلع. ﴿تَلْقَفُ﴾ حفص ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، يعني: ما يافكونه، أي: يقلبونه عن الحق إلى الباطل، ويزورونه. أو: إفكهم، تسمية للمأفوك بالإفك. روي أنها لما تلتقت ملء الوادي من الخشب والحبال، ورفعها موسى، فرجعت عصا كما كانت وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرقها أجزاء لطيفة، قالت السحرة: لو كان هذا سحر لبقيت حبالنا، وعصيتنا.

١١٨ - ﴿فَوَقَّعَ الْحَقُّ﴾ فحصل، وثبت ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر.

١١٩ - ﴿فَغُلِبُوا هُنَا لَكَ﴾ أي: فرعون، وجنوده، والسحرة ﴿وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ وصاروا أذلاء، مبهوتين.

١٢٠ - ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ﴾ وخرّوا سجداً لله. كأنما ألقاهم ملقٍ لشدة خروورهم، أو: لم يتمالكوا قماً رأوا، فكأنهم ألقوا، فكانوا أول النهار كفاراً سحرة، وفي آخره شهداء بررة.

١٢١ و ١٢٢ - ﴿قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿هو بدل مما قبله.

١٢٣ - ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ﴾ على الخبر، حفص. وهذا توبيخٌ منه لهم. وبهمزتين، كوفي غير حفص. فالأولى همزة الاستفهام، ومعناه: الإنكار، والاستبعاد ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ قبل إذني لكم. ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾

لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴿١٢٣﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ ﴿١٢٤﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسْلِبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِمَا نَزَّلَتْ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَءَالَهَتَكَ

لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴿١٢٣﴾ إِنَّ صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر، قبل أن تخرجوا إلى الصحراء، لغرض لكم، وهو أن تخرجوا من مصر القبط، وتسكنوا بني إسرائيل ﴿فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ﴾ وعيد أجمله، ثم فصله بقوله:

١٢٤ - ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ من كل شق طرفاً ﴿ثُمَّ لَأُسْلِبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو أول من قطع من خلاف، وصلب.

١٢٥ - ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ فلا نبالي بالموت لا نقلا بنا إلى لقاء ربنا، ورحمته. أو: إنا جميعاً - يعنون: أنفسهم وفرعون - ننقلب إلى الله، فيحكم بيننا.

١٢٦ - ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِمَا نَزَّلَتْ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنا﴾ وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله. أرادوا: وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر، وهو الإيمان. ومنه قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفهم بهنَ فلولٌ من قراعِ الكتائب^(١)
﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: اصعب صبراً ذريعاً. والمعنى: هب لنا صبراً واسعاً، وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا، كما يفرغ الماء إ فراغاً ﴿وَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام.

١٢٧ - ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر بالاستعلاء فيها، وتغيير دين أهلها؛ لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمئة ألف نفر ﴿وَيَذَرُكَ وَءَالَهَتَكَ﴾ عطف على ﴿ليفسدوا﴾. قيل: صنع فرعون لقومه أصناماً، وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه، كما يعبد عبدة الأصنام، ويقولون:

(١) البيت للناطقة الذيباني. «فلول»: انشلاطات في حدّ السيف. «القراع»: المضاربة. «الكتائب»: الجماعات.

قَالَ سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَلَسْتَعِجِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

ليقربونا إلى الله زلفى، ولذلك قال: ﴿أَتَأْتِيكُمُ الْأَطْلَٰقُ﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيئاً للملأ ﴿سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَلَسْتَعِجِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿سَنَقُولُ﴾ حجازي. أي: سنعيد عليهم قتل الأبناء ليعلموا أننا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، ولثلاثا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي تحدث المنجمون بذهاب ملكنا على يده، فيشطهم ذلك عن طاعتنا، ويدعوهم إلى اتباعه.

١٢٨ - ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ قال لهم ذلك حين جزعوا من قول فرعون ﴿سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ تسلية لهم، ووعداً بالنصر عليهم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ﴾ اللام للعهد، أي: أرض مصر. أو: للجنس، فيتناول أرض مصر تناولاً أولياً، ﴿لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيه تمنيته إياهم أرض مصر ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة بأن الخاتمة المحموده للمتقين منهم ومن القبط. وأخلت هذه الجملة عن الواو، لأنها جملة مستأنفة، بخلاف قوله: ﴿وقال الملأ﴾ لأنها معطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾.

١٢٩ - ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يعنون: قتل أبنائهم قبل مولد موسى إلى أن استنبىء، وإعادته عليهم بعد ذلك. وذلك اشتكاء من فرعون، واستبطاء لوعد النصر ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل، وكشف عنه. وهو إهلاك فرعون، واستخلافهم بعده في أرض مصر ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه، وشكر النعمة وكفرانها، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم. وعن عمرو بن عبيد: أنه دخل على المنصور قبل الخلافة، وعلى مائدته رغيف أو رغيفان، وطلب المنصور زيادة لعمرو، فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية. ثم دخل عليه بعد ما استخلف، فذكر له ذلك،

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ سَيِئَةٌ يَطْفِرُوا يَمْوِسُونَ وَمِنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا ظَلَمُوا رَبَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ يَمْؤُمِينَ ﴿١٣٢﴾

وقال: قد بقي ﴿فينظر كيف تعملون﴾.

١٣٠ - ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ سني القحط، ومن سبع سنين. والسنة من الأسماء الغالبة كالداية، والنجم ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قيل: السنون لأهل البوادي، ونقص الثمرات للأمصار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ليتعظوا، فينبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر، ولأن الناس في حال الشدة أضرع خدوداً، وأرق أفئدة. وقيل: عاش فرعون أربعمئة سنة لم ير مكروهاً في ثلاثمئة وعشرين سنة ولو أصابه في تلك المدة وجع، أو جوع، أو حمى لما ادعى الربوبية.

١٣١ - ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ الصحة، والخصب ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: هذه التي نستحقها ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جذب، ومرض ﴿يَطْفِرُوا﴾ أصله: يتطيروا، فادغمت التاء في الطاء، لأنها من طرف اللسان وأصول الشايا ﴿يَمْوِسُونَ وَمِنْ مَعَهُ﴾ تشاءموا بهم، وقالوا: هذه بشؤمهم، ولولا مكانهم لما أصابتنا. وإنما دخل ﴿إِذَا﴾ في الحسنة، وعرفت الحسنة، و﴿إِنْ﴾ في السيئة، ونكرت السيئة؛ لأن جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا شيء منها ﴿إِلَّا إِنَّمَا ظَلَمُوا رَبَّهُمْ﴾ سبب خيرهم، وشترهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حكمه ومشيتته، والله هو الذي يقدر ما يصيبهم من الحسنة والسيئة ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

١٣٢ - ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ يَمْؤُمِينَ﴾ أصل ﴿مهما﴾ ماما، فـ«ما» الأولى للجزاء، ضمت إليها «ما» المزيدة المؤكدة للجزاء، في قولك: متى ما تخرج أخرج، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ [البقرة: ١٤٨] ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف: ٤١]. إلا أن الألف قلبت هاء استثقلاً لتكرير المتجانسين، وهو المذهب السديد البصري. وهو في موضع النصب بـ«تأتنا»،

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا ثَجَرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَنْمُوسَى اادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا
عَهِدَ عِنْدَكَ

أي: أيما شيء [تحضرنا تأتينا به] (١). و﴿من آية﴾ تبيين لهما، والضمير في ﴿به﴾ و﴿بها﴾ راجع إلى ﴿مهما﴾، إلا أن الأول ذكر على اللفظ، والثاني أنت على المعنى لأنها في معنى الآية. وإنما سموها آية اعتباراً لتسمية موسى، أو قصدوا بذلك الاستهزاء.

١٣٣ - ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ ما طاف بهم، وغلبهم من مطر، أو سيل. قيل: طفا الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة، لا يرون شمساً ولا قمرأ، ولا يقدر أحد أن يخرج من داره. وقيل: دخل الماء في بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، فمن جلس غرق. ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة، أو: هو الجدري، أو الطاعون، ﴿وَالْجَرَادَ﴾ فأكلت زروعهم، وثمارهم، وسقوف بيوتهم، وثيابهم، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ وهي الدبى، وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنتها، أو البراغيث، أو كبار الفزدان ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ وكانت تقع في طعامهم وشرابهم حتى إذا تكلم الرجل تقع في فيه ﴿وَالْدَّمَ﴾ أي: الرعاف. وقيل: مياههم انقلبت دماً، حتى إن القبطي والإسرائيلي إذا اجتماعا على إناء فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء، وما يلي القبطي دماً. وقيل: سال عليهم النيل دماً ﴿ءَايَتٍ﴾ حال من الأشياء المذكورة ﴿مُفَصَّلَاتٍ﴾ مبینات ظاهرات، لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله. أو: مفرقات، بين كل آيتين شهر ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بموسى ﴿وَكَانُوا قَوْمًا ثَجَرِمِينَ﴾.

١٣٤ - ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ العذاب الأخير، وهو الدم. أو: العذاب المذكور واحداً بعد واحد ﴿قَالُوا يَنْمُوسَى اادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ ما مصدرية، أي: بعنده عندك، وهو النبوة. والباء تتعلق بادع، أي: ادع الله لنا متوسلاً

لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرَّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا أَلَيْ بُرْكَانَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا

إليه بعهده عندك ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

١٣٥ - ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرَّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُمْ بَلَغُوهُ﴾ لا محالة، فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال، وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جواب لما. أي: فلما كشفنا عنهم فاجزؤا النكث، ولم يؤخروه.

١٣٦ - ﴿فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ هو ضد الإنعام، كما أنّ العقاب هو ضد الثواب ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ هو البحر الذي لا يدرك قعره، أو: هو لجة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمم؛ لأنّ المتفعين به يقصدونه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلة فكرهم فيها.

١٣٧ - ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل، والاستخدام ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿أَلَيْ بُرْكَانَا فِيهَا﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وكثرة الأنهار والأشجار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] أو: ﴿وَرُبِّدَ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن، صفة للكلمة. و﴿على﴾ صلة «تمت» أي: مضت عليهم، واستمرت، من قولك: تمّ على الأمر: إذا مضى عليه ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم، وحسبك به حائثاً على الصبر، ودالاً على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَنَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغَيْكُمْ إِلَهًا

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا. ﴿مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمارات، وبناء القصور ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو: ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره. وبضم الراء: شامي، وأبو بكر.

وهذا آخر قصة فرعون والقبط، وتكذيبهم بآيات الله. ثم أتبعه قصة بني إسرائيل، وما أحدثوه - بعد إنقاذهم من فرعون، ومعابيتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر - من عبادة البقر، وغير ذلك ليسلي رسول الله ﷺ عما رآه من بني إسرائيل بالمدينة.

١٣٨ - ﴿وَجَنَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ روي أنهم عبر بهم موسى يوم عاشوراء، بعد ما أهلك الله فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ فمروا عليهم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يواظبون على عبادتها، وكانت تماثيل بقر. وبكسر الكاف: حمزة، وعلي ﴿قَالُوا يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ صنماً نعكف عليه ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها. و«ما»: كافة للكاف، ولذلك وقعت الجملة بعدها. قال يهودي لعلي - رضي الله عنه -: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه! فقال: قلتم: اجعل لنا إلهاً ولم تحف أقدامكم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكدته.

١٣٩ - ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿مُتَّبِعُوا مَهْلِكًا﴾ من: التبارك ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ أي: يتبر الله، ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي. وفي إيقاع هؤلاء اسماً لأن، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها، وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعترضون للتبارك، وأنه لا يعدوهم البتة ﴿وَيَطِلُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: ما عملوا من عبادة الأصنام باطل، مضمحل.

١٤٠ - ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغَيْكُمْ إِلَهًا﴾ أي: أغير المستحق للعبادة أطلب لكم

وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَخْبَجْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ
بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ
مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ

معبوداً؟! ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حال. أي: على عالمي زمانكم.

١٤١ - ﴿وَإِذْ أَخْبَجْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ «أنجاكم»: شامي
﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ييغونكم شدة العذاب، من: سام السلعة، إذا
طلبها. وهو استئناف لا محل له، أو: حال من المخاطبين، أو: من آل فرعون
﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ «يقتلون» نافع ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾ أي: في
الإنجاء، أو: في العذاب ﴿بَلَاءٌ﴾ نعمة، أو محنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٤٢ - ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطاء التوراة ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾
رؤي أن موسى - عليه الصلاة والسلام - وعد بني إسرائيل - وهو بمصر - إن
أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله. فلما هلك فرعون سأل موسى ربه
الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهي شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين
أنكر خلوف فيه، فتسوك. فأوحى الله إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم
أطيب عندي من ريح المسك؟! فأمره أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة
لذلك ﴿قَتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ﴾ ما وقت له من الوقت، وضر به له ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾
نصب على الحال، أي: تم بالغاً هذا العدد. ولقد أجل ذكر الأربعين في البقرة،
وفصلها هنا ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ هو عطف بيان لأخيه ﴿أَخْلِفْنِي فِي
قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل
﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه، ولا تطعه.

١٤٣ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له، وحددنا. ومعنى
اللام الاختصاص، أي: اختص مجيئه بميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بلا واسطة،
ولا كيفية. وروي أنه كان يسمع الكلام من كل جهة. وذكر الشيخ في
«التأويلات»: أن موسى - عليه السلام - سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى.

قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ

وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمع صوتاً تولّى تخليقه، من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق، وغيره يسمع صوتاً مكتسباً للعباد، فيفهم منه كلام الله تعالى. فلما سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾. ثاني مفعولي ﴿أرني﴾ محذوف. أي: أرني ذاتك أنظر إليك، يعني: مكّني من رؤيتك بأن تتجلّى لي حتى أراك. ﴿أرني﴾ مكّي. وبكسر الراء مختلسة: أبو عمرو. وبكسر الراء مشبعة: غيرهما. وهو دليل لأهل السنة على جواز الرؤية، فإن موسى - عليه السلام - اعتقد أن الله تعالى يرى حتى سأله، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر ﴿قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ بالسؤال بعين فانية، بل بالعطاء والنوال بعين باقية. وهو دليل لنا أيضاً، لأنه لم يقل: لن أرى ليكون نفيًا للجواز. ولو لم يكن مرثياً لأخبر بأنه ليس بمرثي، إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ بقي على حاله ﴿فَسَوْفَ تَرَنِي﴾ وهو دليل لنا أيضاً؛ لأنه علق الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن. وتعليق الشيء بما هو ممكن يدلّ على إمكانه، كالتعليق بالممتنع يدلّ على امتناعه. والدليل على أنه ممكن قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ ولم يقل: اندك، وما أوجده تعالى كان جائزاً ألا يوجد لو لم يوجد؛ لأنه مختار في فعله، ولأنه تعالى ما آيسه عن ذلك، ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك محالاً لعاتبه، كما عاتب نوحاً - عليه السلام - بقوله: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر، وبان ظهوراً بلا كيف. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: معنى التجلّي للجبل ما قاله الأشعري: إنه تعالى خلق في الجبل حياة وعلماً ورؤية، حتى رأى ربه. وهذا نصّ في إثبات كونه مرثياً.

وبهذه الوجوه يتبيّن جهل منكري الرؤية. وقولهم: بأن موسى - عليه السلام - كان عالماً بأنه لا يرى، ولكن طلب قومه أن يريهم ربّه، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فطلب الرؤية

جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمُْوسَىٰ إِنَّي أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا
 ءَاتَيْتَكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

ليبين الله تعالى أنه ليس بمرئي، باطل. إذ لو كان كما زعموا لقال: أرهم
 ينظروا إليك، ثم يقول له: لن يروني، لأنها لو لم تكن جائزة لما أخرج موسى
 - عليه السلام - الردّ عليهم - بل كان يردّ عليهم وقت قرع كلامهم سمعه - لما
 فيه من التقرير على الكفر. وهو - عليه السلام - بعث لتغييره لا لتقريره. ألا
 ترى أنهم لما قالوا له ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ لم يمهلهم، بل ردّ عليهم
 من ساعته بقوله: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾؟! ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ مذكوكاً. مصدر
 بمعنى المفعول، كضرب الأمير، والدقّ والدك: أخوان. ﴿دَكَّاءَ﴾: حمزة،
 وعليّ. أي: مستوية بالأرض لا أكمة فيها. وناقة دكّاء: لا سنام لها ﴿وَخَرَّ
 مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ حال: أي سقط مغشياً عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ من صعقته ﴿قَالَ
 سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ﴾ من السؤال في الدنيا ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك
 وجلالك، وبأنك لا تعطي الرؤية في الدنيا مع جوازها.

وقال الكعبي والأصم: معنى قوله: ﴿أرني أنظر إليك﴾ أرني آية أعلمك بها
 بطريق الضرورة كأنّي أنظر إليك. ﴿لن تراني﴾ لن تطيق معرفتي بهذه الصفة.
 ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ فإنّي أظهر له آية، فإن ثبت الجبل لتجليها، واستقرّ
 مكانه، فسوف تثبت لها، وتطيقها، وهذا فاسد؛ لأنه قال: ﴿أرني أنظر إليك﴾
 ولم يقل: إليها، وقال ﴿لن تراني﴾ ولم يقل: لن ترى آيتي. وكيف يكون
 معناه: لن ترى آيتي، وقد أراه أعظم الآيات، حيث جعل الجبل دكّاً؟!!

١٤٤ - ﴿قَالَ يَمُْوسَىٰ إِنَّي أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ﴾ اخترتك على أهل زمانك
 ﴿بِرِسَالَتِي﴾ هي أسفار التوراة. ﴿برسالتي﴾: حجازي ﴿وَبِكَلِمِي﴾ وبتكليمي
 إياك ﴿فَخُذْ مَا ءَاتَيْتَكَ﴾ أعطيتك من شرف النبوة، والحكمة ﴿وَكُن مِّنَ
 الشَّاكِرِينَ﴾ على النعمة في ذلك، فهي من أجل النعم.

قيل: خرّ موسى صعقاً يوم عرفة، وأعطى التوراة يوم النحر. ولما كان
 هارون وزيراً، وتابعا لموسى تخصّص الاصطفاء بموسى - عليه السلام -.

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ

١٤٥ - ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾ الألواح: التوراة. جمع لوح. وكانت عشرة ألواح. وقيل: سبعة. وكانت من زمرد. وقيل: من خشب. نزلت من السماء فيها التوراة ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في محل النصب على أنه مفعول ﴿كَتَبْنَا﴾ ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ بدل منه. والمعنى: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ، وتفصيل الأحكام. وقيل: أنزلت التوراة، وهي سبعون وقر بعير لم يقرأها كلها إلا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزيز، وعيسى ﴿فَخُذْهَا﴾ فقلنا له: ﴿خُذْهَا﴾ عطفاً على ﴿كَتَبْنَا﴾. والضمير للألواح، أو: لكل شيء؛ لأنه في معنى الأشياء ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِدٍّ وعزيمة، فِعْلٌ أولي العزم من الرسل ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن، كالإقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر. فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل في الحسن، وأكثر للثواب، كقوله: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥] ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه، وهي مصر، ومنازل عاد وثمود، والقرون المهلكة كيف أفقرت منهم؛ لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم، فينكل بكم مثل نكالهم. أو: جهنم.

١٤٦ - ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ﴾ عن فهمها. قال ذو النون - قدس الله روحه -: أبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ يتطاولون على الخلق، ويأنفون عن قبول الحق. وحقيقته: التكلف للكبرياء التي اختصت بالباري - عزت قدرته - ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ هو حال، أي: يتكبرون غير محقين؛ لأنَّ التكبر بالحق لله وحده ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ من الآيات المنزل عليهم ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الرَّشْدِ﴾ طريق صلاح الأمر، وطريق الهدى ﴿الرَّشْدِ﴾ حمزة، علي، هما كالشقم والسقم ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الْغَىِّ﴾ الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ ومحل ﴿ذَلِكَ﴾: الرفع، أي: ذلك

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ
مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارُ الَّذِينَ رَوَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا

الصرف ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ غفلة عناد
وإعراض، لا غفلة سهو وجهل.

١٤٧ - ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ هو من إضافة المصدر إلى
المفعول به، أي: ولقائهم الآخرة، ومشاهدتهم أحوالها. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾
خبر ﴿والذين﴾ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهو تكذيب الأحوال
بتكذيب الإرسال.

١٤٨ - ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾
وإنما نسبت إليهم مع أنها كانت عواري في أيديهم، لأن الإضافة تكون لأدنى
ملازمة. وفيه دليل على أنَّ مَنْ حلف ألا يدخل دار فلان، فدخل داراً استعارها
يحنث. على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين، كما ملكوا غيرها من أملاكهم. وفيه
دليل على أنَّ الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها. نعم المتخذ
هو السامري، ولكنهم رضوا به، فأسند الفعل^(١) إليهم. والحلي: جمع حلي،
وهو اسم ما يتحسن به من الذهب والفضة. ﴿حُلِيِّهِمْ﴾: حمزة، وعلي للإتباع
﴿عِجَلًا﴾ مفعول اتخذ. ﴿جَسَدًا﴾ بدل منه، أي: بدنًا ذا لحم ودم كسائر
الأجساد ﴿لَّهُمْ خَوَارُ﴾ هو صوت البقر. والمفعول الثاني محذوف، أي: إلهاً. ثم
عجب من عقولهم السخيفة فقال: ﴿الَّذِينَ رَوَوْا﴾ حين اتخذوه إلهاً ﴿أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ
وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ لا يقدر على كلام، ولا على هداية سبيل، حتى لا يختاروه
على مَنْ لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته، وهو الذي
هدى الخلق إلى سبيل الحق بما ركز في العقول من الأدلة، وبما أنزل في الكتب.

أَتَّخِذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ

ثم ابتداء فقال: ﴿أَتَّخِذُوهُ﴾ إلهاً، فأقدموا على هذا الأمر المنكر ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

١٤٩ - ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ولما اشتدّ ندمهم على عبادة العجل. وأصله: أَنَّ مِنْ شَأْن مَنْ اشْتَدَّ نَدَمُهُ أَنْ يَعْصِرَ يَدَهُ غَمًّا، فتصير يده مسقوطاً فيها؛ لأنّ فاه وقع فيها. و﴿سَقَطَ﴾ مسند إلى ﴿في أيديهم﴾ وهو من باب الكناية. وقال الزجاج: معناه: سقط الندم في أيديهم، أي: في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن استحال أن يكون في اليد، تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ وتبينوا ضلالهم تبيناً كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا: حمزة، وعليّ. وانتصاب ربنا على النداء ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة.

١٥٠ - ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى﴾ من الطور ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل ﴿غَضْبَانَ﴾ حال من موسى. ﴿أَسِفًا﴾ حال أيضاً، أي: حزينا. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ قمتم مقامي، وكنتم خلفائي ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ والخطاب لعبدة العجل من السامريّ وأشياعه، أو: لهارون ومن معه من المؤمنين. ويدلّ عليه قوله: ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢]. والمعنى: ﴿بئسما خلفتموني﴾ حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو: حيث لم تكفوا من عبد غير الله. وفاعل ﴿بئس﴾ مضمر يفسره: ﴿ما خلفتموني﴾ والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم. ومعنى: ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ بعد قوله ﴿خلفتموني﴾: من بعد ما رأيتم مني من توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، أو: من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد، وأكفهم عن عبادة البقرة، حين قالوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ومن حقّ الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف ﴿أَعِجَلْتُمْ﴾ أسبقتم بعبادة العجل ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ وهو:

وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمٍّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ

إنياني لكم بالتوراة بعد أربعين ليلة. وأصل العجلة: طلب الشيء قبل حينه. وقيل: عجلتم بمعنى تركتم ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ ضجراً عند استماعه حديث العجل غضباً لله. وكان في نفسه شديد الغضب. وكان هارون ألبن منه جانباً؛ ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى، فتكسرت، فرفعت ستة أسباعها، وبقي سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء، وفيما بقي هدى ورحمة ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه غضباً عليه، حيث لم يمنعهم عن عبادة العجل ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ عتاباً عليه لا هواناً به. وهو حال من موسى ﴿قَالَ ابْنَ أُمٍّ﴾ بني الابن مع الأم على الفتح كخمسة عشر. وبكسر الميم^(١): حمزة، وعلي، وشامي؛ لأن أصله أُمي، فحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة. وكان ابن أُمّه وأبيه. وإنما ذكر الأم؛ لأنها كانت مؤمنة، ولأن ذكرها أَدعى إلى العطف. ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أي: إني لم آل جهداً في كفهم بالوعظ والإنذار، ولكنهم استضعفوني، وهموا بقتلي ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ الذين عبدوا العجل، أي: لا تفعل بي ما هو أمنيته من الاستهانة بي، والإساءة إلي. ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قريناً لهم بغضبك علي. فلما اتضح له عذر أخيه قال:

١٥١ - ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي﴾ ليرضي أخاه، وينفي الشماتة عنه بإشراكه معه في الدعاء. والمعنى: اغفر لي ما فرطتني في حق أخي، ولأخي إن كان فرط في حسن الخلافة ﴿وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ عصمتك في الدنيا، وجنتك في الآخرة ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

١٥٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هو ما

(١) أي: (ابن أُمٍّ).

وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي تَشْخِطِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

أَمَرُوا به من قتل أنفسهم توبة ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ خروجهم من ديارهم، فالغربة تذلل الأعناق، أو: ضرب الجزية عليهم ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ الكاذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨].

١٥٣ - ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من الكفر، والمعاصي ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ رجعوا إلى الله ﴿مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: السيئات، أو التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لستور عليهم، تحاء لما كان منهم ﴿رَحِيمٌ﴾ منعم عليهم بالجنة. وإن مع اسمها وخبرها خبر ﴿الذين﴾ وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل وغيرهم، عظم جنايتهم أولاً، ثم أردفها بعظم رحمته؛ ليعلم: أن الذنوب وإن عظمت فعفوه أعظم.

١٥٤ - وَلَمَّا كَانَ الْغَضَبُ لَشِدَّتِهِ كَأَنَّهُ هُوَ الْأَمْرُ لِمُوسَى بِمَا فَعَلَ قِيلَ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ وقال الزجاج: معناه: سكن، وقرئ به ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي تَشْخِطِهَا﴾ وفيما نسخ منها، أي: كتب. فعلة بمعنى مفعول؛ كالخطبة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول، وضعف عمل الفعل فيه باعتباره.

١٥٥ - ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي: من قومه، فحذف الجار، وأوصل الفعل ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ قيل: اختار من اثني عشر سبطاً من كل سبط ستة، فبلغوا اثنين وسبعين رجلاً، فقال: ليتخلف منكم رجلان، فقعد كالب، ويوشع. ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ لاعتذارهم^(١) عن عبادة العجل. ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة

(١) أي: لامتناعهم. وفي المطبوع: لاعتذارهم.

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَلِمَئِنَّ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْغَافِرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ
عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٧﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ
النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ

الشديدة. ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ بما كان منهم من عبادة العجل.
﴿وَلِمَئِنَّ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أهلكنا عقوبة بما فعل
الجهال منا، وهم أصحاب العجل. ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ ابتلاؤك. وهو راجع إلى
قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥]. فقال موسى: هي تلك الفتنة
التي أخبرتني بها. أو: هي ابتلاء الله تعالى عباده بما شاء: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ
فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ بالفتنة. ﴿مَن تَشَاءُ﴾ من علمت منهم
اختيار الضلالة. ﴿وَتَهْدِي﴾ بها. ﴿مَن تَشَاءُ﴾ من علمت منهم اختيار الهدى.
﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ مولانا القائم بأمورنا. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

١٥٦ - ﴿وَكَتُبْنَا لَنَا﴾ وأثبت لنا، واقسم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ عافية،
وحياة طيبة، وتوفيقاً في الطاعة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الجنة. ﴿إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ﴾ تبنا
إليك. وهاد إليه، يهود: إذا رجع، وتاب. واليهود: جمع هائد، وهو: التائب.
﴿قَالَ عَذَابِي﴾ من صفته أني ﴿أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ﴾ أي: لا أعفو عنه.
﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: من صفة رحمتي أنها واسعة تبلغ كل شيء،
ما من مسلم ولا كافر إلا وعليه أثر رحمتي في الدنيا ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي: هذه
الرحمة. ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك من أمة محمد ﷺ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة
﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا﴾ بجميع كتبنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لا يكفرون بشيء منها.

١٥٧ - ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به، وهو القرآن
﴿النَّبِيِّ﴾ صاحب المعجزات ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ أي: يجد نعته أولئك
الذين يتبعونه من بني إسرائيل ﴿مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
وَعَزَّزُوا وَنَصَرُوا وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

بِالْمَعْرُوفِ ﴿ بخلع الأنداد، وإنصاف العباد ﴾ وَيَنْهَهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿ عبادة
الأصنام، وقطعية الأرحام ﴾ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴿ ما حرم عليهم من الأشياء
الطَّيِّبَةِ؛ كالشحوم وغيرها، أو: ما طاب في الشريعة مما ذكر اسم الله عليه من
الذبائح، وما خلا كسبه من السحت ﴾ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ ﴿ ما يستخبث؛
كالدم، والميتة، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، أو: ما خبث في الحكم؛
كالربا، والرشوة، ونحوهما من المكاسب الخبيثة ﴾ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴿ هو
الثقل الذي يأصره صاحبه، أي: يحبس عن الحراك لثقله. والمراد: التكليف
الصعبة؛ كقتل النفس في توبتهم، وقطع الأعضاء الخاطئة. ﴿ أَصَارَهُمْ ﴾ شامي
على الجمع ﴿ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ هي الأحكام الشاقة، نحو: بت القضاء
بالقصاص عمداً كان، أو خطأ من غير شرع الدية، وقرض موضع النجاسة من
الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وظهور الذنوب على أبواب البيوت. وشبهت
بالغلّ للزومها لزوم الغلّ ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ﴾ بمحمد ﷺ ﴿ وَعَزَّزُوا ﴾
وعظموه، أو: منعه من العدو حتى لا يقوى عليه عدو. وأصل العز: المنع،
ومنه التعزيز؛ لأنه منع عن معاودة القبيح كالحدّ، فهو المنع ﴿ وَنَصَرُوا وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ أي: القرآن. و«مع» متعلق بـ«اتَّبَعُوا»، أي: اتبعوا
القرآن المنزل مع اتباع النبي، والعمل بسنته ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون
بكل خير، والناجون من كل شر.

١٥٨ - ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بُعِثَ كُلُّ رَسُولٍ إِلَى قَوْمِهِ
خاصة، وبُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى كَافَّةِ الْإِنْسِ وَكَافَةِ الْجِنِّ ﴿ جَمِيعًا ﴾ حال من
﴿ إِلَيْكُمْ ﴾ ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فِي مَحَلِّ النِّصْبِ بِإِضْمَارِ أَعْنِي، وَهُوَ
نِصْبٌ عَلَى الْمَدْحِ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ بَدَلٌ مِنَ الصَّلَةِ وَهِيَ ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ

يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ
وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ
يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ
قَوْمُهُ أَنِ ابْنِ خِزْيَانًا خَبِيثًا ﴿١٦٠﴾ فَصَارَ خِزْيَانُ الْفِرْعَوْنَ كَذِّبًا

وَالْأَرْضِ. وكذلك ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. وفي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيان للجملية قبلها؛ لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة. وفي ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بيان لاختصاصه بالإلهية، إذ لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ﴾ أي: الكتب المنزلة ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولم يقل: فآمنوا بالله وبى بعد قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم: أن الذي وجب الإيمان به هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي؛ الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان، أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة، وتفادياً من العصبية لنفسه.

١٥٩ - ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يهدون الناس محقين، أو بسبب الحق الذي هم عليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون. قيل: هم قوم وراء الصين آمنوا بمحمد ﷺ ليلة المعراج، أو: هم عبد الله بن سلام وأضرابه.

١٦٠ - ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ وصيرناهم قطعاً، أي: فرقاً، وميّرنا بعضهم من بعض ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ كقولك: اثنتي عشرة قبيلة. والأسباط: أولاد الولد، جمع سبط. وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام. نعم مميّز ما عدا العشرة مفرد، فكان ينبغي أن يقال اثني عشر سبطاً. لكن المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباط موضع قبيلة ﴿أُمَمًا﴾ بدل من اثنتي عشرة، أي: وقطعناهم أُمَمًا؛ لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة، وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ ابْنِ خِزْيَانًا خَبِيثًا﴾ فضرب

فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ أَفْنَتَا عَشْرَةٍ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ
الْغَمَمَ ۖ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا
هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ
يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿فَأَنْبَجَسَتْ﴾ فانفجرت ﴿مِنْهُ أَفْنَتَا عَشْرَةٍ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ هو
اسم جمع غير تكسير ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ وجعلناه ظليلاً عليهم في التيه
﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى﴾ وقلنا لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم ﴿وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكن كانوا يضرّون أنفسهم، ويرجع وبال ظلمهم
إليهم.

١٦١ - ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ واذكر ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيت
المقدس ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا تَغْفِرَ لَكُمْ
خَطِيئَتَكُمْ﴾ ﴿تَغْفِرَ لَكُمْ﴾: مدني، وشامي، ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ مدني
﴿خَطَايَاكُمْ﴾ أبو عمرو ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾ شامي ﴿سَنُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

١٦٢ - ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا
مِنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ لا تناقض بين قوله: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ
الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا﴾ في هذه السورة، وبين قوله في سورة البقرة ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ
الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ [البقرة: ٥٨] لوجود الدخول والسكنى. وسواء قدّموا الحطة
على دخول الباب، أو آخروها، فهم جامعون بينهما. وترك ذكر الرغد
لا يناقض إثباته. وقوله: ﴿تَغْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ سَنُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ موعِد
بشيئين: بالغفران وبالزيادة. وطرح الواو لا يخلّ بذلك؛ لأنه استئناف مرتّب
على قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقل له: ﴿سَنُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾. وكذلك

وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَقُونَ ﴿١٦٤﴾

زيادة ﴿منهم﴾ زيادة بيان. و﴿أرسلنا﴾ و﴿أنزلنا﴾ و﴿يظلمون﴾ و﴿يفسقون﴾ من وإدٍ واحد.

١٦٣ - ﴿وَسَأَلْتَهُمْ﴾ واسأل اليهود ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ أيلة، أو: مدين. وهذا السؤال للتقريع بقديم كفرهم ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قرية منه ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ إذ يتجاوزون حدَّ الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد نهوا عنه. ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ في محلّ الجرّ بدل من القرية، والمراد بالقرية: أهلها. كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ منصوب بيعدون، أو: بدل بعد بدل. ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ جمع حوت، أبدلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ ظاهرة على وجه الماء، جمع شارع. حال من الحيتان. والسبت: مصدر سبتت اليهود: إذا عظمت سبتها بترك الصيد، والاشتغال بالتعبّد. والمعنى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ في تعظيم هذا اليوم، وكذا قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت. ويدلّ عليه: ﴿وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ و﴿يَوْمَ﴾ ظرف ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بفسقهم.

١٦٤ - ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ معطوف على ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ وحكمه كحكمه في الإعراب ﴿أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ جماعة من صلحاء القرية الذين أسوا من وعظهم بعد ما ركبوا الصعب والذلّول في موعظتهم، لآخرين لا يقلعون عن وعظهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وإنما قالوا ذلك لعلمهم: أنّ الوعظ لا ينفع فيهم ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي: موعظتنا إبلاء عذر إلى الله^(١)؛ لثلاث نسب في

(١) في القاموس: إبلاء عذراً: أذاه إليه فقبله.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ لِبَعَثَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مِنْ يُسُومِهِمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ

النهي عن المنكر إلى التفريط. ﴿مَعذَرَةٌ﴾ حفص على أنه مفعول له، أي: وعظناهم للمعذرة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولطمعنا في أن يتقوا.

١٦٥ - ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ أي: أهل القرية لما تركوا ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ما ذكّره به الصالحون ترك الناسي لما ينساه ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ من العذاب الشديد ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الراكبين للمنكر. والذين قالوا: لم تعظون من الناجين. فعن الحسن: نجت فرقتان، وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد. يقال: بؤس يبؤس بأساً: إذا اشتد، فهو بئيس. ﴿بِئْسَ﴾ شامي. ﴿بِئْسَ﴾ مدني. ﴿بِئْسَ﴾ على وزن فيعل: أبو بكر غير حماد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

١٦٦ - ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ عن ترك ما نهوا عنه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: جعلناهم قردة، أذلاء، مبعدين. وقيل: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ تكرير لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ والعذاب البئيس هو: المسخ. قيل: صار الشبان قردة، والشيوخ خنازير. وكانوا يعرفون أقاربهم، ويبكون، ولا يتكلمون. والجمهور على أنها ماتت بعد ثلاث. وقيل: بقيت، وتناسلت.

١٦٧ - ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ﴾ أي: أعلم. وأجري مجرى فعل القسم، ولذا أوجب بما يجاب به القسم، وهو قوله: ﴿لِبَعَثَنَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كتب على نفسه لیسلمطن على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مِنْ يُسُومِهِمْ﴾ من يوليهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فكانوا يؤدّون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث محمد ﷺ، فضر بها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر!! ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ للكفار ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للمؤمنين.

١٦٨ - ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وفرقناهم فيها، فلا تخلو بلد عن فرقة.

أُمَمًا مِّنْهُمْ أَصْلَحُوا وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ الَّذِي أَخْذُوا أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿أُمَمًا مِّنْهُمْ أَصْلَحُوا﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة، أو: الذين وراء الصين ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه، وهم: الفسقة. ومحل ﴿دون ذلك﴾ الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، أي: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالنعم والنقم، والخصب والجذب ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يتنبهون فيثابون.

١٦٩ - ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين ﴿خَلَفٌ﴾ وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ. والخلف: بدل السوء، بخلاف الخلف فهو الصالح ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة، ووقفوا على ما فيها من الأوامر والنواهي، والتحليل والتحریم، ولم يعملوا بها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ حال من الضمير في ﴿ورثوا﴾. والعرض: المتاع. أي: حطام هذا الشيء الأدنى، يريد: الدنيا، وما يتمتع به منها. وهو من الدنوّ، بمعنى القريب؛ لأنه عاجل قريب. والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام وعلى تحريف الكلم. وفي قوله: ﴿هذا الأدنى﴾ تحسيس، وتحقير ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذنا. والفعل مسند إلى الأخذ، أو: إلى الجار والمجرور، أي: ﴿لَنَا﴾ ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ الَّذِي أَخْذُوا﴾ الواو للحال، أي: يرجون المغفرة، وهم مصرون، عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي: الميثاق المذكور في الكتاب ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: أخذ عليهم الميثاق في كتابهم ألا يقولوا على الله إلا الصدق. وهو عطف بيان لميثاق الكتاب ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ وقرؤوا ما في الكتاب. وهو عطف على ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ﴾ لأنه تقرير. فكانه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ودرسوا ما فيه ﴿وَاللَّذَارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الرشا، والمحارم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُمْ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا

يعقلون ﴿١﴾ أنه كذلك . وبالناء : مدنيّ ، وحفص .

١٧٠ - ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾ ﴿ يُمَسِّكُونَ ﴾ أبو بكر . والإمساك والتمسك والتمسك : الاعتصام ، والتعلق بشيء ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ خصّ الصلاة مع أنّ التمسك بالكتاب يشتمل على كلّ عبادة ؛ لأنها عماد الدين ، و﴿ الَّذِينَ ﴾ مبتدأ ، والخبر : ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ أي : إنّنا لا نضيع أجرهم . وجاز أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون . و﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ ﴾ اعتراض .

١٧١ - ﴿ وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾ واذكر إذ قلعناه ورفعناه ، كقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ ﴾ [النساء : ١٥٤] . ﴿ كَانَهُمْ ظِلَّةٌ ﴾ هي كلّ ما أظلك من سقيفة ، أو سحاب ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ وعلموا أنّه ساقط عليهم . وذلك أنّهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها ، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم - وكان فرسخاً في فرسخ - وقيل لهم : إنّ قبلتموها بما فيها ، وإلا ليقعنّ عليكم . فلما نظروا إلى الجبل خرّ كلّ رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر ، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ، ويقولون : هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة . وقلنا لهم : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ ﴾ من الكتاب ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ وعزم على احتمال مشاقه ، وتكاليفه ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ من الأوامر والنواهي ، ولا تنسوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ما أنتم عليه .

١٧٢ - ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ ﴾ أي : ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إِذْ أَخَذَ ﴾ ﴿ مِن ﴾ ظُهُورِهِمْ ﴿ بدل من ﴾ بني آدم ﴿ . والتقدير : وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ . ومعنى أخذ ذريّاتهم من ظهورهم : إخراجهم من أصلاب آبائهم ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ هذا من باب التمثيل . ومعنى ذلك : أنّه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم التي

أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَنْتَ عَلَيْنَهُم نَبَأُ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا

رَكَّبَهَا فِيهِمْ، وجعلها مميّزة بين الهدى والضلالة، فكانه أشهدهم على أنفسهم، وقرّهم، وقال لهم: ﴿ألست بربكم﴾ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ مفعول له، أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ لم ننبه عليه.

١٧٣ - ﴿أَوْ قُولُوا﴾ ﴿أَوْ﴾ كراهة ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فاقدينا بهم؛ لأنّ نصب الأدلة على التوحيد، وما نبهوا عليه قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه، والاعتداء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك، وتركهم سنة لنا.

١٧٤ - ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نَقْصِلُ الْآيَاتِ﴾ لهم. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن شركهم نفسلها.

إلى هذا ذهب المحققون من أهل التفسير، منهم الشيخ أبو منصور، والزجاج، والزمخشري. وذهب جمهور المفسرين إلى أنّ الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهر آدم مثل الذر، وأخذ عليهم الميثاق أنّه ربهم بقوله: ﴿ألست بربكم﴾ فأجابوه ب: بلى. قالوا: وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أخرج الله من ظهر آدم ذريته، وأراه إيتاهم كهينة الذرّ وأعطاهم من العقل، وقال: هؤلاء ولدك، أخذ عليهم الميثاق أن يعبدوني. قيل: كان ذلك قبل دخول الجنة بين مكّة والطائف. وقيل: بعد النزول من الجنة. وقيل: في الجنة. والحجة للأولين أنّه قال: ﴿من بني آدم من ظهورهم﴾ ولم يقل: من ظهر آدم، ولأنّا لا نتذكّر ذلك، فأنتي يصير حجة!

﴿ذرياتهم﴾ مدني وبصريّ وشاميّ. ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ ﴿أَوْ يَقُولُوا﴾ أبو عمرو.

١٧٥ - ﴿وَأَنْتَ عَلَيْنَهُمْ﴾ على اليهود ﴿نَبَأُ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ هو عالم من

فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٦﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٧﴾

علماء بني إسرائيل. وقيل: هو بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله. ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾ فخرج من الآيات بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ فلحقه الشيطان وأدركه، وصار قريناً له ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فصار من الضالين الكافرين. رُوي أَنَّ قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى، ومن معه، فأبى. فلم يزالوا به حتى فعل، وكان عنده اسم الله الأعظم.

١٧٦ - ﴿لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿بِهَا﴾ بتلك الآيات ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا، ورغب فيها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في إثارة الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: تزجره، وتطرده ﴿يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ غير مطرود ﴿يَلْهَثُ﴾ والمعنى: فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أحسن أحواله وأذلها، وهي حال دوام اللهث به، سواء حمل عليه، أي: شد عليه، وهيج، فطرد، أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه. وذلك: أَنَّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا حرك، أما الكلب فيلهث في الحالين. فكان مقتضى الكلام أن يقال: ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه، ووضعنا منزلته. فوضع هذا التمثيل موضع فحططناه أبلغ حظ. ومحل الجملة الشرطية: النصب على الحال، كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلاً دائماً الذلة لاهئاً في الحالين. وقيل: لما دعا بلعم على موسى خرج لسانه، فوقع على صدره، وجعل يلهث كما يلهث الكلب. وقيل: معناه: هو ضالّ: وعِظْ أو تُرِكَ. وعن عطاء: من علم ولم يعمل فهو كالكلب ينبج إن طرد، أو ترك ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من اليهود بعد أن قرؤوا نعت رسول الله ﷺ في التوراة، وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ﴾ أي: قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا نحو سيرته.

سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَانْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ
 الْمُهْتَدَىٰ وَمَن يُضِلِّ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ
 الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا

١٧٧ - ﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾ أي: مثل القوم، فحذف
 المضاف. وفاعل ساء مضمَر، أي: ساء المثل مثلاً. وانتصاب مثلاً على التمييز
 ﴿وَانْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ معطوف على كَذَبُوا، فيدخل في حيز الصلة، أي:
 الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم. أو: منقطع عن الصلة،
 أي: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب. وتقديم المفعول به للاختصاص، أي:
 وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعد إلى غيرها.

١٧٨ - ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ﴾ حمل على اللفظ ﴿وَمَن يُضِلِّ﴾ أي:
 ومن يضلله ﴿فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [حمل على المعنى]^(١) ولو كان الهدى من الله
 البيان - كما قالت المعتزلة - لاستوى الكافر والمؤمن، إذ البيان ثابت في حق
 الفريقين. فدل أنه من الله تعالى التوفيق، والعصمة، والمعونة، ولو كان ذلك
 للكافر لا هتدى كما اهتدى المؤمن.

١٧٩ - ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ هم الكفار من الفريقين،
 المعرضون عن تدبر آيات الله. والله تعالى علم منهم اختيار الكفر، فشاء منهم
 الكفر، وخلق فيهم ذلك، وجعل مصيرهم جهنم لذلك. ولا تنافي بين هذا
 وبين قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦] لأنه إنما خلق
 منهم للعبادة من علم أنه يعبد، وأما من علم أنه يكفر به فإنما خلقه لما علم
 أنه يكون منه. فالحاصل: أن من علم منه في الأزل أنه يكون منه العبادة خلقه
 للعبادة. ومن علم منه أن يكون منه الكفر خلقه لذلك. وكم من عام يُراد به
 الخصوص! وقول المعتزلة بأن هذه لام العاقبة، أي: لما كان عاقبتهم جهنم
 جعل كأنهم خلقوا لها، فراراً عن إرادة المعاصي، عدول عن الظاهر ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ
 لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحق، ولا يتفكرون فيه ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الرشد ﴿وَلَهُمْ

وَلَهُمْ ءَآذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ أُولَٰئِكَ كَآلَ الْنَعِيرِ ۚ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

ءَآذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ الرعظ ﴿أُولَٰئِكَ كَآلَ الْنَعِيرِ﴾ في عدم الفقه والنظر للاعتبار، والاستماع للتفكر ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام، لأنهم كابروا العقول، وعاندوا الرسول، وارتكبوا الفضول. فالأنعام تطلب منافعها، وتهرب عن مضارها، وهم لا يعلمون مضارهم حيث اختاروا النار. وكيف يستوي المكلف المأمور والمُخْلِى المذدور؟! فالآدمي، روحاني، شهواني، سماوي، أرضي، فإن غلب روحه هواه فاق ملائكة السموات، وإن غلب هواه روحه فاقت بهائم الأرض ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

١٨٠ - ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ التي هي أحسن الأسماء، لأنها تدل على معان حسنة. فمنها: ما يستحقه بحقائقه؛ كالقديم قبل كل شيء، والباقي بعد كل شيء، والقادر على كل شيء، والعالم بكل شيء، والواحد الذي ليس كمثله شيء. ومنها: ما تستحسنة الأنفس لآثارها؛ كالغفور، والرحيم، والشكور، والحليم. ومنها: ما يوجب التخلق به؛ كالفضل، والعفو. ومنها: ما يوجب مراقبة الأحوال؛ كالسميع، والبصير، والمقتدر. ومنها: ما يوجب الإجلال؛ كالعظيم، والجبار، والمتكبر ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فسموه بتلك الأسماء ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، فيسمونه بغير الأسماء الحسنى. وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه، نحو أن يقولوا: يا سخي، يا رفيق، لأنه لم يسم نفسه بذلك. ومن الإلحاد تسميته بالجسم، والجوهر، والعقل، والعلّة. ﴿يُلْحِدُونَ﴾ حزة. لحد وألحد: مال ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١٨١ - ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ للجنة، لأنه في مقابلة ﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ ﴿أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ في أحكامهم. قيل: هم العلماء والدعاة إلى الدين. وفيه دلالة على ^(١) أن إجماع كل عصر حجة.

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ حِجَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ

١٨٢ - ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سنستدرجهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي، فكلما جدد عليهم نعمة ازدادوا بطراً، وجددوا معصية، فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانين: أن مواترة النعم أثره من الله تعالى وتقريب، وإنما هو خذلان منه وتبعيد. وهو استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة [﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يراد بهم] (١).

١٨٣ - ﴿وَأُمْلِ لَهُمْ﴾ عطف على ﴿سنستدرجهم﴾ وهو غير داخل في حكم السين. أي: أمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أخذي شديد. سماء: كيداً، لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان، وفي الحقيقة خذلان.

١٨٤ - ولما نسبوا النبي ﷺ إلى الجنون نزل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ محمد ﷺ. و﴿مَا﴾ نافية بعد وقف. أي: أو لم يتفكروا في قولهم؟! ثم نفى عنه الجنون بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ حِجَّةٍ﴾ جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ منذر من الله، موضح إنذاره.

١٨٥ - ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ نظر استدلال ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملكوت: الملك العظيم ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ﴿وَأَنْ عَسَى﴾ ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة. وأصله: وأنه عسى. والضمير ضمير الشأن. وهو في موضع الجز بالعطف على ملكوت. والمعنى: أولم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى ﴿أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ﴾ ولعلهم يموتون عما قريب فيسارعوا إلى النظر، وطلب الحق،

فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيَ لَمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا

وما ينجيهم قبل مفاجأة الأجل، وحلول العقاب ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به. وهو متعلق بعسى أن يكون قد اقترب أجلهم. كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب؛ فما لهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن قبل الفوت؟! وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق؟! وبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا؟! وماذا

١٨٦ - ﴿مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيَ لَمْ﴾ أي: يضلله الله ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ وبالياء: عراقى. وبالجزم: حمزة وعليّ عطفاً على محلّ ﴿فلا هادي له﴾، كأنه قيل: من يضلل الله لا يهده أحد، ﴿ويذرهم﴾ والرفع على الاستئناف، أي: وهو يذرهم. الباقون: بالنون ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون.

١٨٧ - ولما سألت اليهود، أو قریش عن الساعة: متى تكون؟ نزل: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ وهي من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا. وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة، أو: لسرعة حسابها، أو: لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق ﴿أَيَّانَ﴾ متى، واشتقاقه من أيّ، فعلان منه، لأن معناه: أي وقت؟ ﴿مُرْسَاهَا﴾ إرساؤها، مصدر مثل المدخل بمعنى الإدخال. أو: وقت إرسائها، أي: إثباتها، والمعنى: متى يرسىها الله؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، لم يخبر به أحداً من ملك مقرب، ولا نبي مرسل؛ ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أخفى الأجل الخاص - وهو وقت الموت - لذلك ﴿لَا يُجِيبُهَا لَوْفِهَا إِلَّا هُوَ﴾ لا يُظْهِرُ أمرها، ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة، ويتمنى أن يتجلى له علمها، وشق عليه خفاؤها، وثقل عليه. أو: ثقلت فيها، لأن أهلها يخافون شدائدها، وأحوالها ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ فجأة على غفلة منكم ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كأنك عالم بها. وحقيقته: كأنك بليغ في السؤال عنها؛ لأن من بالغ في المسألة عن الشيء، والتنقير عنه استحكم علمه فيها. وأصل

قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا

هذا التركيب المبالغه، ومنه: إحقاء الشارب. أو: ﴿عنها﴾ متعلق بيسألونك، أي: يسألونك عنها كأنك حفي، أي: عالم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وكرر يسألونك، وإنما علمها عند الله للتأكيد، ولزيادة كأنك حفي عنها. وعلى هذا تكرير العلماء في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة، منهم: محمد بن الحسن - رحمه الله - ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه المختص بالعلم بها.

١٨٨ - ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ هو إظهار للعبودية، وبراءة عما يختص بالربوبية من علم الغيب، أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع، ولا دفع ضرر كالممالك إلا ما شاء مالكي من النفع لي، والدفع عني ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أي: لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير، واجتناب السوء والمضارة، حتى لا يمسني شيء منها، ولم أكن غالباً مرة، ومغلوباً أخرى في الحروب. وقيل: الغيب: الأجل، والخير: العمل، والسوء: الوجل. وقيل: ﴿لاستكثر﴾ لأعددت من الخصب للجذب. والسوء: الفقر. وقد رد ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ إن أنا إلا عبد أرسلت نذيراً وبشيراً، وما من شأني أن أعلم الغيب. واللام في: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يتعلق بالنذير والبشير؛ لأنّ النذارة والبشارة إنما ينفعان فيهم. أو: بالبشير وحده، والمتعلق بالنذير محذوف، أي: ﴿إلا نذير﴾ للكافرين ﴿وبشير لقوم يؤمنون﴾.

١٨٩ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي نفس آدم - عليه السلام - ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء خلقها من جسد آدم، من ضلع من أضلاعه ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئن ويميل، لأنّ الجنس إلى الجنس أميل، خصوصاً إذا كان بعضاً منه كما يسكن الإنسان إلى ولده، ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه. وذكر ﴿ليسكن﴾ بعد ما أنث في قوله: ﴿واحدة وخلق منها زوجها﴾ ذهاباً إلى معنى

فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

النفس؛ ليبين أن المراد بها آدم ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾ خف عليها، ولم تلق منه ما يلقي بعضُ الحبال من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستقله كما يستقلنه ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده، من غير إخداج^(١) ولا إزلاق. أو: ﴿حملت حملاً خفياً﴾ يعني: النطفة ﴿فمرّت به﴾ فقامت به، وقعدت ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ حان وقت ثقل حملها ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا آدم وحواء ربهما، ومالك أمرهما، الذي هو الحقيق بأن يدعى، ويُلْتَجأ إليه، فقالا: ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا﴾ لئن وهبت لنا ولداً سواً قد صلح بدنه، أو: ولداً ذكراً؛ لأن الذكورة من الصلاح ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك. والضمير في ﴿آتَيْنَا﴾ و﴿لنكونن﴾ لهما، ولكل من يتناسل من ذريتهما.

١٩٠ - ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا﴾ أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السوي ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. وكذلك: ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: أتى أولادهما. دليله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريثان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناف، وعبد شمس، ونحو ذلك مكان: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم. أو: يكون الخطاب لقريش؛ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصي، أي: هو الذي خلقكم من نفس واحدة: قصي. وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلاهما له شركاء فيما آتاهما، حيث سميا أولادهما الأربعة بـ: عبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد الدار. والضمير في ﴿أيشركون﴾ لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك. ﴿شُرَكَاءَ﴾: مدني، وأبو بكر، أي: ذوي شرك، وهم الشركاء.

(١) من غير إخداج: من غير نقص.

أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَائِمُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ أَنْزِلْ بِعَشُونِهَا أَمْ لَمْ أَنْزِلْ بِعَطَشُونِهَا

١٩١ - ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعني: الأصنام ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أجريت الأصنام مجرى أولي العلم بناء على اعتقادهم فيها، وتسميتهم إياها إلهاً. والمعنى: أشركون ما لا يقدر على خلق شيء، وهم يخلقون؛ لأن الله خالقهم. أو: الضمير في ﴿وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا لَهُمْ نَصْرًا﴾ للعابدين، أي: أشركون ما لا يخلق شيئاً، وهم مخلوقو الله، فليعبدوا خالقهم. أو: للعابدين والمعبودين، وجمعهم كأولي العلم، تغليبا للعابدين.

١٩٢ - ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لعبدتهم ﴿نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعترها من الحوادث، كالكسر، وغيره. بل عبدهم الذين يدفعون عنهم.

١٩٣ - ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ إلى ما هو هدى ورشاد، أو: إلى أن يهدوكم، أي: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير، والهدى ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم، وطلبتكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾: نافع ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَائِمُونَ﴾ عن دعائهم: في أنه لا فلاح معهم، ولا يجيبونكم. والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية لرؤوس الآي.

١٩٤ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: تعبدونهم، وتسمونهم آلهة ﴿عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾ أي: مخلوقون مملوكون أمثالكم ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ لجلب نفع، أو: دفع ضرر ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فليجيبوا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنهم آلهة. ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم، فقال:

١٩٥ - ﴿أَلَمْ أَنْزِلْ بِعَشُونِهَا﴾ مشيكم ﴿أَمْ لَمْ أَنْزِلْ بِعَطَشُونِهَا﴾ يتناولون

أَمْ لَهُمْ آعَيْنٌ يُبْصِرُونَ ﴿١٩٥﴾ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ ﴿١٩٦﴾ قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴿١٩٧﴾ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٨﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠٠﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٠١﴾

بها ﴿أَمْ لَهُمْ آعَيْنٌ يُبْصِرُونَ﴾ بها أَمْ لَهُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ ﴿١٩٥﴾ أي: فلم تعبدون ما هو دونكم؟! ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعاً أنتم وشركاؤكم، وبالياء يعقوب وافقه أبو عمرو في الوصل ﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ فإنني لا أبالي بكم. وكانوا قد خوفوه آلهم، فأمر أن يخاطبهم بذلك. وبالياء: يعقوب.

١٩٦ - ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ﴾ ناصري عليكم ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أوحى إلي، وأعزني برسالته ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ومن سبته أن ينصر الصالحين من عباده، ولا يخذلهم.

١٩٧ - ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

١٩٨ - ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يشبهون الناظرين إليك؛ لأنهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حقيقته إلى الشيء ينظر إليه ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ المرئي.

١٩٩ - ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ هو ضد الجهد، أي: ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم، ولا تطلب منهم الجهد، وما يشق؛ حتى لا ينفروا؛ كقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»^(١) ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ بالمعروف، والجميل من الأفعال، أو: كل خصلة يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ولا تكافء السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عليهم. وفسرها جبريل عليه السلام

وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

بقوله: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعفُ عمن ظلمك»^(١). وعن الصادق: أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

٢٠٠ - ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ وإما ينخستك منه نخس، بأن يملكك بوسوسته على خلاف ما أمرت به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ولا تطعه. والنزغ: النخس، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي. وجعل النزغ نازغاً كما قيل: جدّ جدّه. أو: أريد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب، كقول أبي بكر - رضي الله عنه -: إنّ لي شيطاناً يعتريني ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لنزغه ﴿عَلِيمٌ﴾ بدفعه.

٢٠١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿طَافٍ﴾: مكّي، وبصريّ. وعليّ، أي: لمة منه. مصدر من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفاً. وعن أبي عمرو: هما واحد، وهي: الوسوسة. وهذا تأكيد لما تقدّم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأنّ عادة المتقين إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته ﴿تَذَكَّرُوا﴾ ما أمر الله به، ونهى عنه ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ فأبصروا السداد، ودفعوا وسوسته. وحقيقته: أن يفرّوا منه إلى الله، فيزدادوا بصيرة من الله بالله.

٢٠٢ - ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس، فإنّ الشياطين ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾، أي: يكونون مدداً لهم فيه، ويعضدوهم ﴿يَمُدُّوهُمْ﴾ من الإمداد: مدنيّ ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتّى يصروا، ولا يرجعوا. وجاز أن يراد بالإخوان: الشياطين، ويرجع الضمير المتعلّق به إلى الجاهلين. والأوّل أوجه؛ لأنّ إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا. وإنّما جمع الضمير في ﴿إِخْوَانُهُمْ﴾ والشيطان مفرد؛ لأنّ المراد به الجنس.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَآذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

٢٠٣ - ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ مقترحة ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا اخترتها. أي: اختلفتها كما اختلفت ما قبلها ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ ولست بمقترح لها ﴿هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هذا القرآن دلائل تبصركم وجوه الحق ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به.

٢٠٤ - ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في الصلاة وغيرها. وقيل: معناه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له. وجمهور الصحابة - رضي الله عنهم - على أنه في استماع المؤتم. وقيل: في استماع الخطبة. وقيل: فيهما، وهو الأصح.

٢٠٥ - ﴿وَآذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ هو عام في الأذكار من قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتلهيل، وغير ذلك ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعاً وخائفاً ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً دون الجهر؛ لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى حسن التفكير ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ لفضل هذين الوقتين. وقيل: المراد إدامة الذكر باستقامة الفكر. ومعنى: ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ بأوقات الغدو، وهي: الغدوات. والآصال: جمع أصل. والأصل جمع أصيل، وهو: العشي ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ من الذين يغفلون عن ذكر الله، ويلهون عنه.

٢٠٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ مكانة ومنزلة، لا مكاناً ومنزلاً، يعني: الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لا يتعظمون عنها ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ وينزهونه عما لا يليق به ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره. والله أعلم.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

١ - ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ النفل: الغنيمة؛ لأنها من فضل الله، وعطائه. والأنفال: الغنائم. ولقد وقع اختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها، فسألوا رسول الله: كيف نقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها للمهاجرين، أم للأنصار، أم لهم جميعاً؟ ف قيل له: قل لهم: هي لرسول الله، وهو الحاكم فيها خاصة، يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم. ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول: أن حكمها يختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والتخاصم، وكونوا متآخين في الله ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أحوال بينكم. يعني: ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة، وعجبة، واتفاق. وقال الزجاج: معنى ذات بينكم: حقيقة وصلكم. والبين: الوصل. أي: فاتقوا الله، وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله به. قال عبادة بن الصامت - رضي الله عنه -: نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله لرسول الله ﷺ، فقسمه بين المسلمين على السواء ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمرتم به في الغنائم، وغيرها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كاملي الإيمان.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

٢ - ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ إنما الكاملو الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزعت لذكره استعظماً له، وتهيباً من جلاله، وعزّه، وسلطانه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ﴾ أي: القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة؛ لأنّ تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه، وأثبت لقدمه. أو: زادتهم إيماناً بتلك الآيات؛ لأنهم لم يؤمنوا بأحكامها قبل ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون، ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربهم، لا يخشون، ولا يرجون إلا إياه.

٣ - ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ جمع بين أعمال القلوب من الوجل، والإخلاص، والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة، والصدقة.

٤ - ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ هو صفة لمصدر محذوف، أي: أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً. أو: هو مصدر مؤكّد للجملة التي هي: ﴿أولئك هم المؤمنون﴾ كقولك: هو عبد الله حقاً، أي: حقّ ذلك حقاً. وعن الحسن - رحمه الله -: أن رجلاً سأله: أمؤمن أنت؟ قال: إن كنت تسألني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والجنة، والنار، والبعث، والحساب، فأنا مؤمن. وإن كنت تسألني عن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ...﴾ الآية؛ فلا أدري أمنهم أنا أم لا؟ وعن الثوري: من زعم أنه مؤمن بالله حقاً، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية. أي: كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقاً، فلا يقطع بأنه مؤمن حقاً. وهذا يتشبت من يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. وكان أبو حنيفة - رحمه الله - لا يقول ذلك. وقال لقتادة: لم تستثن في إيمانك؟ قال: اتباعاً لإبراهيم في قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]. فقال له: هلاً اقتديت به في قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَال بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وعن إبراهيم التيمي: قل أنا مؤمن حقاً، فإن صدقت أثبت عليه، وإن كذبت فكفرك أشدّ من كذبك. وعن ابن عباس

لَهُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ
بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوهْنَ ﴿٥﴾

- رضي الله عنهما -: من لم يكن منافقاً فهو مؤمن حقاً. وقد احتج عبد الله على أحمد فقال: ايش اسمك؟ فقال: أحمد. فقال: أنقول أنا أحمد حقاً، أو أنا أحمد إن شاء الله؟ فقال: أنا أحمد حقاً. فقال: حيث سمّاك والدك لا تستثني، وقد سمّاك الله في القرآن مؤمناً تستثني؟! ﴿لَهُمْ دَرَجَتٌ﴾ مراتب بعضها فوق بعض على قدر الأعمال ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز لسيئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ضاف عن كذا الاكتساب، وخوف الحساب.

٥ - الكاف في: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ في محلّ النصب، على أنه صفة لمصدر الفعل المقدّر. والتقدير: قل الأنفال استقرّت لله والرسول، وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل إخراج ربك إياك من بيتك، وهم كارهون ﴿مِنْ بَيْتِكَ﴾ يريد بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها؛ لأنها مهاجرة ومسكنه، فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت لساكنه ﴿بِالْحَقِّ﴾ إخراجاً ملتبساً بالحكمة، والصواب ﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوهْنَ﴾ في موضع الحال. أي: أخرجك في حال كراهتهم، وذلك: أنّ عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون راكباً، منهم أبو سفيان، فأخبر جبريل النبي ﷺ، فأخبر أصحابه، فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير، وقلة القوم. فلما خرجوا علمت قريش بذلك، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة، وهو النفير في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير. فقليل له: إنّ العير أخذت طريق الساحل، ونجت. فأبى، وسار بمن معه إلى بدر. وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة. ونزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين إمّا العير وإمّا قريشاً. فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال: «العير أحب إليكم أم النفير؟» قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو. فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، ثم ردّد عليهم فقال: «إنّ العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل». فقالوا: يا رسول الله! عليك بالعير، ودع العدو. فقام عند غضب النبي ﷺ أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - فأحسنّا، ثم قام سعد بن عبادة

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ

فقال: انظر أمرك فامض، فوالله! لو سرت إلى عدن أبين^(١) ما تخلف عنك رجل من الأنصار. ثم قال المقداد بن عمرو: امض لما أمرك الله، فإننا معك حيث أحببت، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، ما دامت عين منا تطرف. فضحك رسول الله ﷺ. وقال سعد بن معاذ: امض يا رسول الله! لما أردت، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد. فسر بنا على بركة الله. ففرح رسول الله ﷺ، ونشطه قول سعد، ثم قال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين. والله! لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»^(٢). وكانت الكراهة من بعضهم لقوله: ﴿وَإِنَّ قَرِيحًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: يحتمل أنهم منافقون كرهوا ذلك اعتقاداً، ويحتمل أن يكونوا مخلصين، وأن يكون ذلك كراهة طبع، لأنهم غير متأهين له.

٦ - ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الحق الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ: تلقى النفي لإيثارهم عليه تلقى العير ﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ بعد إعلام رسول الله ﷺ بأنهم ينصرون. وجدالهم: قولهم ما كان خروجنا إلا للعر، وهلا قلت لنا لنستعد. وذلك لكراحتهم القتال ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ شبه حالهم في فرط فزعهم وهم يُسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يُعتل^(٣) إلى القتل، ويُساق على الصغار إلى الموت، وهو مشاهد لأسبابه، ناظر إليها لا يشك فيها. وقيل: كان خوفهم لقلّة العدد، وأنهم كانوا رجالة، وما كان فيهم إلا فارسان.

٧ - ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ «إذ»: منصوب باذكر، و﴿إِحْدَى﴾

(١) «أبين»: اسم رجل نسب إليه عدن، فقيل: عدن أبين.

(٢) القصة في سيرة ابن هشام (٣/ ٣١-٣٣).

(٣) «يُعتل»: يجذب جذباً عنيفاً.

أَنَّهُا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ
الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ

مفعول ثان ﴿أَنَّهُا لَكُمْ﴾ بدل من ﴿إحدى الطائفتين﴾ وهما: العير، والنفير. والتقدير: وإذ يعدكم الله أَنَّ إحدى الطائفتين لكم ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي: العير. وذات الشوكة: ذات السلاح. والشوكة كانت في النفير لعددهم وعُدَّتْهم، أي: تتمنون أن تكون لكم العير، لأنها الطائفة التي لا سلاح لها، ولا تريدون الطائفة الأخرى ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي: يثبتته، ويعليه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بآياته المنزلّة في محاربة ذات الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من قتلهم وطرحهم في قلب بدر ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ آخرهم. والدابر: الآخر، فاعل، من: دبر؛ إذا أدبر. وقطع الدابر: عبارة عن الاستئصال. يعني: أنكم تريدون الفائدة العاجلة، وسفّاسف الأمور، والله تعالى يريد معالي الأمور، ونصرة الحق، وعلو الكلمة، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوتهم بضعفكم، وأعزكم، وأذلهم.

٨ - ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متعلق بيقطع. أو: بمحذوف تقديره: ليحقّ الحقّ ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ فعل ذلك. والمقدّر متأخّر ليفيد الاختصاص، أي: ما فعله إلا لهما، وهو إثبات الإسلام وإظهاره، وإبطال الكفر ومحقه. وليس هذا بتكرار؛ لأنّ الأوّل تمييز بين الإرادتين، وهذا بيان لمراده فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم، ونصرتهم عليها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون ذلك.

٩ - ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من ﴿إذ يعدكم﴾ أو: متعلق بقوله: ﴿ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل﴾ واستغاثتهم أنهم لما علموا أنّه لا بدّ من القتال طفقوا يدعون الله، يقولون: أي ربّنا! انصرنا على عدوك! يا غياث المستغيثين أغثنا! وهي طلب الغوث، وهو: التخليص من المكروه ﴿فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ فأجاب. وأصل ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾: بأنّي ممدّكم، فحذف الجار، وسلّط عليه «استجاب»

بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ

فانصب محله ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ ﴿مُرَدِّفِينَ﴾ مدني. غيره بكسر الدال. فالكسر على أنهم أردفوا غيرهم، والفتح على أنه أردف كل ملك ملكاً آخر. يقال: ردفه: إذا تبعه، وأردفته إياه: إذا أتبعته.

١٠ - ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: الإمداد الذي دلّ عليه ﴿مَدَّكُمْ﴾ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني: أنكم استغثتم، وتضرعتم لقلوبكم، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر، وتسكيناً منكم، وربطاً على قلوبكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: ولا تحسبوا النصر من الملائكة، فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة. أو: ﴿وما النصر﴾ من الملائكة وغيرهم من الأسباب ﴿إلا من عند الله﴾ والمنصور من نصره الله.

واختلف في قتال الملائكة يوم بدر. فقيل: نزل جبريل - عليه السلام - في خمسمئة ملك على الميمنة، وفيها: أبو بكر - رضي الله عنه - وميكائيل في خمسمئة على الميسرة وفيها: علي - رضي الله عنه - في صورة الرجال عليهم ثياب بيض، وعمائم بيض، قد أرخوا أذنانها بين أكتافهم، فقاتلت حتى قال أبو جهل لابن مسعود: من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص؟ قال: من قبل الملائكة، قال: فهم غلبونا لا أنتم. وقيل: لم يقاتلوا، وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بنصر أوليائه ﴿حَكِيمٌ﴾ بقهر أعدائه.

١١ - ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ بدل ثان من: ﴿إِذْ يَدْعُوكُمُ﴾. أو: منصوب بالنصر، أو: بإضمار اذكر. ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ مدني ﴿النُّعَاسُ﴾ النوم، والفاعل هو الله على القراءتين ﴿يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ﴾ مكّي، وأبو عمرو ﴿أَمَنَةً﴾ مفعول له. أي: إذ تنعسون أمنة، بمعنى: أمانة، أي: لأمنكم. أو: مصدر، أي: فأمتم أمنة. فالنوم يزيح الرعب، ويريح النفس ﴿مِنَهُ﴾ صفة لها، أي: أمنة حاصلة لكم من الله ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتخفيف: مكّي، وبصري. وبالتشديد غيرهم ﴿عَلَيْكُمْ مِنَ

السَّمَاءَ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

السَّمَاءَ مَاءً ﴿١١﴾ مطراً ﴿١٢﴾ يُطَهِّرُكُمْ بِهِ ﴿١٣﴾ بالماء من الحدث، والجنابة. ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴿١٥﴾ وسوسته إليهم، وتخويفه إياهم من العطش، أو: الجنابة من الاحتلام؛ لأنه من الشيطان. وقد وسوس إليهم: أن لا نصرة مع الجنابة ﴿١٦﴾ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴿١٧﴾ بالصبر ﴿١٨﴾ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٩﴾ أي: بالماء. إذ الأقدام كانت تسوخ في الرمل. أو: بالربط؛ لأن القلب إذا تمكّن فيه الصبر يثبت القدم في مواطن القتال.

١٢ - ﴿١٣﴾ إِذْ يُوحِي ﴿١٤﴾ بدل ثالث من ﴿١٥﴾ إِذْ يَعِدْكُمْ ﴿١٦﴾ أو: منصوب بـ «يُثَبِّتُ» ﴿١٧﴾ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴿١٨﴾ بالنصر ﴿١٩﴾ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴿٢٠﴾ بالشرى. كان الملك يسير أمام الصف في صورة رجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم ﴿٢١﴾ سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴿٢٢﴾ هو امتلاء القلب من الخوف. و﴿٢٣﴾ الرُّعْبُ شامي، وعلي ﴿٢٤﴾ فَأَضْرِبُوا ﴿٢٥﴾ أمر للمؤمنين، أو للملائكة. وفيه دليل على أنهم قاتلوا ﴿٢٦﴾ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴿٢٧﴾ أي: أعالي الأعناق؛ التي هي المذابح تطيراً للرؤوس، أو: أراد الرؤوس؛ لأنها فوق الأعناق، يعني: ضرب الهام ﴿٢٨﴾ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٢٩﴾ هي الأصابع، يريد: الأطراف. والمعنى: فاضربوا المقاتل والشوى^(١)؛ لأن الضرب إما أن يقع على مقتل، أو غير مقتل، فأمرهم أن يجمعوا عليهم النوعين.

١٣ و ١٤ - ﴿١٥﴾ ذَلِكَ ﴿١٦﴾ إشارة إلى ما أصابهم من الضرب، والقتل، والعقاب العاجل. وهو مبتدأ، خبره: ﴿١٧﴾ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿١٨﴾. أي: ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاققتهم، أي: مخالفتهم. وهي مشتقة من الشق؛ لأن كلا المتعادين في شق خلاف شق صاحبه. وكذا المعادة والمخاصمة؛ لأن هذا في

(١) الشوى: أطراف الجسم.

وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَمَا كَانَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ
لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا
تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى
فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ

عدوة وخُصم، أي: جانب، وذاك في عدوة وخصم ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾
﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والكاف في ﴿ذلك﴾ لخطاب الرسول، أو لكل أحد.
وفي ﴿ذلكم﴾ للكفرة على طريقة الالتفات. ومحله: الرفع على ﴿ذلكم﴾
العقاب، أو: العقاب. ﴿ذَلِكَ كُمْ فَذُوقُوهُ﴾ والواو في: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ﴾ بمعنى مع. أي: ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم
في الآخرة. فوضع الظاهر موضع الضمير.

١٥ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ حال من ﴿الذين
كفروا﴾. والزحف: الجيش الذي يرى لكثرتة كأنه يزحف، أي: يدب ديباً،
من زحف الصبي: إذا دب على استه قليلاً قليلاً. سُمي بالمصدر ﴿فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَذْبَارَ﴾ فلا تنصرفوا عنهم منهزمين. أي: إذا لقيتموهم للقتال، وهم كثير،
وأنتم قليل، فلا تفروا، فضلاً أن تدانوهم في العدد، أو تساووهم، أو: حال
من المؤمنين، أو: من الفريقين، أي: إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم.

١٦ - ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ مائلاً ﴿لِقِتَالٍ﴾ هو الكر بعد الفر،
يخيل عدوه أنه منهزم، ثم يعطف عليه، وهو من خدع الحرب. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾
منضماً ﴿إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ إلى جماعة من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها. وهما
حالان من ضمير الفاعل في ﴿يُولِهِمْ﴾ ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ووزن متحيز متفعل لا متفعل؛ لأنه من حاز يحوز، فبناء
متفعل منه متحوز.

١٧ - ولما كسروا أهل مكة، وقتلوا، وأسروا، وكان القاتل منهم يقول
تفاخراً: قتل وأسرت، قيل لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ الفاء
جواب لشرط محذوف، تقديره: إن افتخرتم بقتلهم، فأنتم لم تقتلوهم ﴿ولكن

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ يَكُ اللَّهُ رَحْمَىٰ وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ
 اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ
 جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ

الله قتلهم. ولما قال جبريل للنبي ﷺ: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فرمى بها في وجوههم، قال: «شاهت الوجوه» فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه، فانهزموا، قيل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾^(١) يا محمد ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ يَكُ اللَّهُ رَحْمَى﴾ يعني: أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم. وفي الآية بيان أن فعل العبد مضاف إليه كسباً، وإلى الله تعالى خلقاً، لا كما تقول الجبرية والمعتزلة؛ لأنه أثبت الفعل من العبد بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ثم نفاه عنه وأثبتته الله تعالى بقوله: ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ رَمَى﴾، ولكن الله قتلهم ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ رَمَى﴾ بتخفيف لكن شامياً، وحمة، وعلي ﴿وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليعطيه ﴿مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ عطاء جيلاً. والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل، وما فعل إلا لذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

١٨ - ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن. ومحلّه الرفع، أي: المراد ذلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف على ﴿ذَلِكُمْ﴾. أي: المراد إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين ﴿مُوهِنٌ كَيْدٌ﴾ شامياً، وكوفي غير حفص ﴿مُوهِنٌ كَيْدٌ﴾ حفص. ﴿مُوهِنٌ كَيْدٌ﴾ غيرهم.

١٩ - ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم. وهو خطاب لأهل مكة لأنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهم إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على الحق فانصرنا. وقيل: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا﴾ خطاب للمؤمنين، و﴿إِنْ تَنْتَهُوا﴾ للكافرين ﴿وَأِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن عداوة رسول الله ﷺ ﴿فَهُوَ﴾ أي الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

وَأِنْ تَعُودُوا نَعَدْ وَلَنْ نُّغْفِرَ عَنْكُمْ فَتَحْتُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ
الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

وَأَسْلَم ﴿وَأِنْ تَعُودُوا﴾ لمحاربته ﴿نَعَدْ﴾ لنصرته عليكم ﴿وَلَنْ نُّغْفِرَ عَنْكُمْ فَتَحْتُمْ﴾ جمعكم ﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ عدداً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالفتح: مدني، وشامي، وحفص. أي: ولأن الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك. وبالكسر غيرهم. ويؤيده قراءة عبد الله «والله مع المؤمنين».

٢٠ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ عن رسول الله ﷺ؛ لأنَّ المعنى: أطيعوا رسول الله كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢] ولأنَّ طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما، كقولك: الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان. أو: يرجع الضمير إلى الأمر بالطاعة، أي: ولا تولّوا عن هذا الأمر وأمثاله. وأصله: ولا تتولّوا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: وأنتم تسمعون. أو ﴿ولا تتولّوا﴾ عن رسول الله ﷺ، ولا تخالفوه ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: تصدّقون؛ لأنكم مؤمنون، لستم كالصم المكذّبين من الكفرة.

٢١ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أي: ادّعوا السماع، وهم المنافقون، وأهل الكتاب ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنهم ليسوا بمصدّقين، فكأنهم غير سامعين. والمعنى: أنكم تصدّقون بالقرآن، والنبوة، فإذا تولّيتهم عن طاعة الرسول في بعض الأمور، من قسمة الغنائم وغيرها، أشبه سماعكم سماع من لا يؤمن. ثم قال:

٢٢ - ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: إنّ شرّ من يدبّ على وجه الأرض البهائم وإن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه. جعلهم من جنس البهائم، ثم جعلهم شرّها؛ لأنهم عاندوا بعد الفهم، وكابروا بعد العقل.

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

٢٣ - ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ في هؤلاء الصم البكم ﴿خَيْرًا﴾ صدقاً، ورغبة ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ لجعلهم سامعين حتى يسمعو سماع المصدقين ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ عنه. أي: ولو أسمعهم، وصدقوا، لا رتدوا بعد ذلك، ولم يستقيموا ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن الإيمان.

٢٤ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وخذ الضمير أيضاً، كما وحده فيما قبله؛ لأن استجابة رسول الله ﷺ كاستجابته. والمراد بالاستجابة: الطاعة، والامتثال، وبالدعوة: البعث، والتحريض ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من علوم الديانات والشرائع؛ لأن العلم حياة، كما أن الجهل موت، قال الشاعر:

لَا تُعْجِبَنَّ الْجَهْلُ حُلَّتُهُ فَذَاكَ مَيِّتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنٌ
أو لمجاهدة الكفار؛ لأنهم لو رفضوها لغلبوهم، وقتلوهم. أو: للشهادة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي: يميته، فتفوته الفرصة التي هو واجدها، وهي: التمكن من إخلاص القلب. فاغتنموا هذه الفرصة، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله. أو: بينه وبين ما تمناه بقلبه من طول الحياة، فيفسخ عزائمه ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ واعلموا أنكم إليه تحشرون، فيثيبكم على حسب سلامة القلوب، وإخلاص الطاعة.

٢٥ - ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً﴾ عذاباً ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ هو جواب للأمر، أي: إن أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة، ولكنها تعمكم. وجاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الأمر؛ لأن فيه معنى النهي، كما إذا قلت: انزل عن الدابة لا تطرحك، وجاز: لا تطرحنك. ﴿ومن﴾ في ﴿منكم﴾ للتبعيض ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَيَأْبَسُوا بِبَصَرِهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا

٢٦ - ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ مفعول به لا ظرف، أي: واذكروا وقت كونكم أقلّة أذلة ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة قبل الهجرة، تستضعفكم قريش ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ﴾ لأنّ الناس كانوا لهم أعداء مضادين ﴿فَتَأْوِنَكُمْ﴾ إلى المدينة ﴿وَيَأْبَسُوا بِبَصَرِهِمْ﴾ بمظاهرة الأنصار، وبإمداد الملائكة يوم بدر ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الغنائم، ولم تحل لأحد قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

٢٧ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ بأن تعطلوا فرائضه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ بالآلا تستنوا به ﴿وَتَخُونُوا﴾ جزم عطف على ﴿لا تخونوا﴾ أي: ولا تخونوا ﴿أَمْنَكُمْ﴾ فيما بينكم بالآلا تحفظوها ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تبعة ذلك، ووباله. أو: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون. يعني: أنّ الخيانة توجد منكم عن تعمد، لا عن سهو. أو: وأنتم علماء تعلمون حسن الحسن، وقبح القبيح. ومعنى الخون: النقص، كما أنّ معنى الوفاء: التمام. ومنه: تخونه: إذا انتقصه. ثمّ استعمل في ضد الأمانة والوفاء؛ لأنك إذا خنت الرجل في شيء، فقد أدخلت عليه النقصان فيه.

٢٨ - ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ فَتَنَةٌ﴾ أي: سبب الوقوع في الفتنة، وهي: الإثم، والعذاب، أو: محنة من الله ليلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فعليكم أن تحرصوا على طلب ذلك، وتزهدوا في الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحبّ الولد.

٢٩ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ نصراً، لأنّه يفرق بين الحق وبين الكفر، ياذلال حزبه؛ والإسلام بإعزاز أهله، أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم، ويبيّن صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض، من قولهم: سطع الفرقان،

وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ
الَّذِينَ كَفَرُوا

أي: طلع الفجر، أو مخرجاً من الشبهات، وشرحاً للصدور، أو: تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان، وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: الصغائر ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، أي: الكبائر ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ على عباده.

٣٠ - ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لَمَّا فَتَحَ عَلَيْهِ ذَكَرَهُ مَكْرَ قَرِيشَ بِهِ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ؛ لِيَشْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي نَجَاتِهِ مِنْ مَكْرِهِمْ، وَاسْتِيلَاةِ عَلَيْهِمْ. وَالْمَعْنَى: وَاذْكُرْ إِذْ يَمْكُرُونَ بِكَ. وَذَلِكَ: أَنَّ قَرِيشاً لَمَّا أَسْلَمَتِ الْأَنْصَارُ فَرَّقُوا^(١) أَنْ يَتَفَاقَمَ أَمْرُهُ، فَاجْتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ مُتَشَاوِرِينَ فِي أَمْرِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ، وَقَالَ: أَنَا شَيْخٌ مِنْ نَجْدٍ دَخَلْتُ مَكَّةَ، فَسَمِعْتُ بِاجْتِمَاعِكُمْ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَحْضِرْكُمْ، وَلَنْ تَعْدُمُوا مَنِّي رَأِياً وَنَصْحاً. فَقَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ: رَأَيْي أَنْ تَحْبِسُوهُ فِي بَيْتٍ، وَتَشْدُوا وَثَاقَهُ، وَتَسْدُوا بَابَهُ غَيْرَ كَوَّةٍ، تَلْقُونَ إِلَيْهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْهَا، وَتَرْتَبِّصُوا بِهِ رِيبَ الْمُنُونِ. فَقَالَ إِبْلِيسُ: بَشْ الرَأْيِ! يَأْتِيكُمْ مِنْ يِقَاتِلْكُمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَيَخْلُصُهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ. فَقَالَ هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو: رَأْيِي أَنْ تَحْمِلُوهُ عَلَى جَمَلٍ، وَتَخْرِجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ، فَلَا يَضُرْكُمْ مَا صَنَعَ، وَاسْتَرَحْتُمْ. فَقَالَ إِبْلِيسُ: بَشْ الرَأْيِ! يَفْسُدُ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَيَقَاتِلْكُمْ بِهِمْ. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ -: أَنَا أَرَى أَنْ تَأْخُذُوا مِنْ كُلِّ بَطْنٍ غَلاماً، وَتَعْطُوهُ سِيفاً فَيَضْرِبُوهُ ضَرْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَيَتَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ، فَلَا يَقْوَى بَنُو هَاشِمٍ عَلَى حَرْبِ قَرِيشَ كُلِّهِمْ. فَإِذَا طَلَبُوا الْعَقْلَ عَقْلَنَاهُ، وَاسْتَرَحْنَا. فَقَالَ اللَّعِينُ: صَدَقَ هَذَا الْفَتَى، هُوَ أَجُودُكُمْ رَأِياً! فَتَفَرَّقُوا عَلَى رَأْيِ أَبِي جَهْلٍ مُجْتَمِعِينَ عَلَى قَتْلِهِ. فَأَخْبَرَ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَمْرَهُ أَلَّا يَبِيتَ فِي مَضْجَعِهِ، وَأَذْنَ لَهُ اللَّهُ فِي الْهَجْرَةِ، فَأَمَرَ عَلِيّاً، فَنَامَ فِي مَضْجَعِهِ، وَقَالَ لَهُ: «اتَّشَحَّ بِرِدِّي، فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ أَمْرٌ تَكْرَهُهُ». وَبَاتُوا مَرْتَضِدِينَ. فَلَمَّا أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَى مَضْجَعِهِ،

(١) «الفرق»: الخوف.

لِيُنْشِئُكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا
ثَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا
أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ
عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

فأبصروا علياً، فبهتوا، وخيب الله سعيهم، واقتفوا أثره، فأبطل الله مكرهم ^(١)
﴿لِيُنْشِئُكَ﴾ ليحبسوك، ويوثقوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيفهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من
مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويخفون المكائد له ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ ويخفي الله ما أعد لهم حتى
يأتيهم بغتة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره، وأبلغ تأثيراً.

٣١ - كان ﷺ يقرأ القرآن، ويذكر أخبار القرون الماضية في قراءته، فقال
النضر بن الحارث: لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذي جاء من بلاد فارس
بنسخة حديث رستم، وأحاديث العجم، فنزل: ﴿وَإِذَا ثَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ أي:
القرآن ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذا
صلف منهم، ووقاحة؛ لأنهم دُعُوا إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا
القرآن، فلم يأتوا به.

٣٢ - ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا﴾ أي: القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾
﴿هَذَا﴾ اسم كان. و﴿هو﴾ فصل. و﴿الحق﴾ خبر كان. روي: أَنَّ النضر لما
قال: (إن هذا إلا أساطير الأولين) قال له النبي - عليه الصلاة والسلام -:
«ويلك هذا كلام الله». فرفع النضر رأسه إلى السماء، وقال: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ
الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: إن كان القرآن هو
الحق، فعاقبنا على إنكاره بالسجيل، كما فعلت بأصحاب الفيل ﴿أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ﴾ بنوع آخر من جنس العذاب الأليم. فقتل يوم بدر صبراً. وعن معاوية:
أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك! حين ملكوا عليهم امرأة! قال: أجهل
من قومي قومك، قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ

(١) قال ابن حجر: القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي . (حاشية الكشف ٢ / ٢١٥).

وَمَا كَانَتْ أَلَلَهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا
كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَفُونُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا
كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيكَةً

الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴿﴾ ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له!

٣٣ - ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلَلَهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ اللام لتأكيد النفي. والدلالة على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم؛ لأنك بعثت رحمة للعالمين وسنته ألا يعذب قوماً عذاب استئصال، ما دام نيتهم بين أظهرهم. وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلَلَهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ هو في موضع الحال. ومعناه: نفي الاستغفار عنهم. أي: ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم. أو: معناه: وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر، وهم المسلمون بين أظهرهم؛ ممن تخلف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين.

٣٤ - ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي: وما كان الله ليُعَذِّبَهُمْ وأنت فيهم، وهو معذبهم إذا فارقتهم، وما لهم ألا يعذبهم الله ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وكيف لا يعذبون وحالهم: أنهم يصدون عن المسجد الحرام، كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية. وإخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصد. وكانوا يقولون: نحن ولاية البيت والحرم، فنصد من نشاء، وندخل من نشاء. فقيل: ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاية أمر الحرم ﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَفُونُونَ ﴾ من المسلمين. وقيل: الضميران راجعان إلى الله ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك. كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند. أو: أراد بالأكثر الجميع؛ كما يُراد بالقلة العدم.

٣٥ - ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً ﴾ صغيراً كصوت المكاء، وهو طائر مليح الصوت. وهو فعال، من: مكا يمكو: إذا صفر ﴿ وَتَصْدِيكَةً ﴾ وتصفيقاً، تفعله من الصدى. وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم

فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

مشبكون بين أصابعهم، يصفرون فيها، ويصفقون. وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته، يخلطون عليه ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم.

٣٦ - ونزل في المطعمين يوم بدر. وكانوا اثني عشر رجلاً، وكلهم من قريش. وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: كان غرضهم في الإنفاق الصد عن اتباع محمد ﷺ، وهو سبيل الله ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثم تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة، فكان ذاتها تصوير ندماً، وتنقلب حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخر الأمر. وهو من دلائل النبوة؛ لأنه أخبر عنه قبل وقوعه، فكان كما أخبر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والكافرون منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ لأن منهم من أسلم، وحسن إسلامه.

٣٧ - واللام في: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث من الكفار ﴿وَمِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: من الفريق الطيب من المؤمنين. متعلقة بيحشرون، ﴿لِيَمِيزَ﴾: حمزة، وعلي ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث ﴿بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي: الفريق الخبيث ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: إشارة إلى الفريق الخبيث ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أنفسهم، وأموالهم.

٣٨ - ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أبي سفيان وأصحابه ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقاتله، بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لهم من العداوة ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ لقاتله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ بالإهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى.

وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّلُوا لِلَّهِ فَإِنَّ أُنْتَهَوْا
فَإِنَّ اللَّهَ إِعْمَا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نَعْمَ الْمَوْلَى
وَنَعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ

أو: معناه: أَنَّ الكفار إذا انتهوا عن الكفر، وأسلموا، غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي. وبه احتج أبو حنيفة - رحمه الله - في أَنَّ المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة.

٣٩ - ﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ إلى ألا يوجد فيهم شرك قطّ ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّلُوا لِلَّهِ﴾ ويضمحل عنهم كل دين باطل، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده ﴿فَإِنَّ أُنْتَهَوْا﴾ عن الكفر، وأسلموا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ إِعْمَا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ﴾ يشيهم على إسلامهم.

٤٠ - ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإيمان، ولم ينتهوا ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾ ناصركم، ومعينكم، فثقوا بولايته، ونصرته ﴿نَعْمَ الْمَوْلَى﴾ لا يضيع من تولاه ﴿وَنَعْمَ النَّصِيرُ﴾ لا يغلب من نصره، والمخصوص بالمدح محذوف.

٤١ - ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ «ما» بمعنى الذي. ولا يجوز أن يكتب إلا مفصلاً إذ لو كتب موصولاً، لوجب أن تكون ما كافة. وغنمتم صلته. والعائد محذوف، والتقدير: الذي غنمتموه ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيانه. قيل: حتى الخيط والمخيط ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ والفاء إنما دخلت لما في «الذي» من معنى المجازاة. وأنّ وما عملت فيه في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ، تقديره: فالحكم: أَنَّ لله خمسة ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فالخمس كان في عهد رسول الله ﷺ يقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله، وسهم لذي قرابته من بني هاشم وبني عبد المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل - استحقوه حينئذ بالنصرة لقصة عثمان وجبير بن مطعم - وثلاثة أسهم لليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وأما بعد رسول الله ﷺ فسهمة ساقط بموته، وكذلك سهم ذوي القربى. وإنما يعطون لفقرهم، ولا يعطى أغنياؤهم. فيقسم على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان

إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَمَآ أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ

على ستة: لله والرسول سهران، وسهم لأقاربه حتى قبض. فأجرى أبو بكر - رضي الله عنه - الخمس على ثلاثة، وكذا عمر ومن بعده من الخلفاء - رضي الله عنهم - ومعنى لله وللرسول: لرسول الله كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ﴾ فاعملوا به، وارضوا بهذه القسمة. فالإيمان يُوجب الرضا بالحكم، والعمل بالعلم ﴿وَمَا أُنزِلْنَا﴾ معطوف على ﴿بِاللّٰهِ﴾ أي: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ﴾ وبالمثل ﴿وَمَا أُنزِلْنَا﴾ يوم بدر ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين. والمراد: ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ. وهو بدل من يوم الفرقان ﴿وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على أن ينصر القليل على الكثير. كما فعل بكم يوم بدر.

٤٢ - ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾ بدل من يوم الفرقان. أو: التقدير: اذكروا ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾ ﴿بِالْعُدُوِّ﴾ شط الوادي. وبالكسر^(١) فيهما: مكّي، وأبو عمرو ﴿الدُّنْيَا﴾ القريبى إلى جهة المدينة، تأنيث الأدنى ﴿وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى﴾ البعدى عن المدينة، تأنيث الأقصى. وكلتاها فعلى من بنات الواو. والقياس قلب الواو ياء، كالعليا تأنيث الأعلى. وأما القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير، وهو جمع راكب في المعنى ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ نصب على الظرف، أي: مكاناً أسفل من مكانكم. يعني: في أسفل الوادي بثلاثة أميال، وهو مرفوع المحل لأنه خبر المبتدأ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وأهل مكة، وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ لخالف بعضهم بعضاً. فنبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وبططهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله ﷺ والمسلمين. فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه

وَلَكِنْ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ

الله، وسبب له ﴿وَلَكِنْ﴾ جمع بينكم بلا ميعاد ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته. أو: اللام تتعلق بمحذوف، أي: ليقضي الله أمراً كان ينبغي أن يفعل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: القضاء يحتمل الحكم، أي: ليحكم ما علم أنه يكون كائناً، أو ليتّم أمراً كان قد أراده - وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة - وهو عزّ الإسلام وأهله، وذللّ الكفر وحزبه. ويتعلق بـ «يقضي» ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ﴿حَيٍّ﴾ نافع، وأبو عمرو. فالإدغام لالتقاء المثليين، والإظهار؛ لأنّ حركة الثاني غير لازمة؛ لأنك تقول في المستقبل: يحيا، والإدغام أكثر. استعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام، أي: ليصدر كفر من كفر عن وضوح بيّنة لا عن مخالجة شبهة؛ حتى لا يبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنّه دين الحق؛ الذي يجب الدخول فيه، والتمسك به. وذلك أنّ وقعة بدر من الآيات الواضحة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه، مغالطاً لها، ولهذا ذكر فيها مراكز الفريقين، وأنّ العير كانت أسفل منهم، مع أنّهم قد علموا ذلك كلّ مشاهدة؛ ليعلم الخلق: أنّ النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والأسباب، بل بالله تعالى، وذلك: أنّ العدو القصوى؛ التي أناخ بها المشركون، كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوّة الدنيا وهي خبار^(١) تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة. وكان العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم وعدّتهم، وقلة المسلمين، وضعفهم. ثمّ كان ما كان ﴿وَلَا يَرْيأُ اللَّهُ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوالهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه، وبإيمان من آمن وثوابه.

٤٣ - ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ نصب بإضممار اذكر. أو: هو متعلق بقوله:

(١) «الخبار»: ما لان من الأرض واسترخى.

فِي مَنَاصِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْسَلْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّكُمْ عَلَيْهِ إِذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

﴿لسميع عليهم﴾ أي: يعلم المصالح، إذ يقللهم في عينك ﴿فِي مَنَاصِكٍ قَلِيلًا﴾. أي: في رؤياك. وذلك أَنَّ الله تعالى أراه إياهم في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فكان ذلك تشجيعاً لهم على عدوهم ﴿وَلَوْ أَرْسَلْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾ لجبستم، وهبتم الإقدام ﴿وَلَتَنزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أمر القتال، وترددتم بين الثبات والفرار ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ عصم، وأنعم بالسلامة من الفشل، والتنازع، والاختلاف ﴿إِنَّكُمْ عَلَيْهِ إِذَاتُ الصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة، والجبن، والصبر، والجزع.

٤٤ - ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضميران مفعولان، أي: يبصركم إياهم ﴿إِذِ التَّفَقُّتُمْ﴾ وقت اللقاء ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ هو نصب على الحال. وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ، وليعاینوا ما أخبرهم به، فيزداد يقينهم ويجدوا، ويثبتوا. قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: لقد قللوا في أعيننا، حتى قلتُ لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة. وكانوا ألفاً ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل منهم: إنما هم أكلة جزور. قيل: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء، ثم كثرهم فيما بعده؛ ليجترئوا عليهم قلة مبالاة بهم، ثم تفجأهم الكثرة فيبهتوا، ويهابوا. ويجوز أن يبصروا الكثير قليلاً، بأن يستر الله بعضهم بساتر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين. قيل لبعضهم: إنَّ الأحوال يرى الواحد اثنين، وكان بين يديه ديك واحد، فقال: مالي لا أرى هذين الديكين أربعة؟! ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيحكم فيها بما يريد ﴿تُرْجَعُ﴾: شامي، وحزة، وعلي.

٤٥ - ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ إذا حاربتم جماعة من الكفار.

فَاقْبِئُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٦﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ

وترك وصفها؛ لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار. واللقاء: اسم غالب للقتال ﴿فَاقْبِئُوا﴾ لقتالهم، ولا تفروا ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره، مستنصرين به، داعين له على عدوكم: اللهم اخذلهم، اللهم اقطع دابرهم! ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم، من النصر والتموية، وفيه إشعار بأن على العبد ألا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً، وأكثر ما يكون همّاً؛ وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك، وإن كانت متوزعة عن غيره.

٤٦ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأمر بالجهاد، والثبات مع العدو، وغيرها ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ فتجنبوا. وهو منصوب بإضمار أن، ويدل عليه: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: دولتكم. يقال: هبت رياح فلان: إذا دالت له الدولة، ونفذ أمره. شبهت في نفوذ أمرها، وتمشيته بالريح وهبوبها. وقيل: لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله. وفي الحديث: «نُصِرْتُ بالصبا، وأهلكْتُ عاد بالدبور»^(١) ﴿وَاصْبِرُوا﴾ في القتال مع العدو وغيره ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: معينهم، وحافظهم.

٤٧ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ هم أهل مكة حين نفروا لحماية العير، فاتاهم رسول أبي سفيان: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل، وقال: حتى نقدم بدرًا، ونشرب بها الخمر، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان، ونطعم بها العرب! فذلك بطرهم. ورياءهم الناس: ياطعامهم. فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان. فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين، طريين، مرثيين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى، والكآبة، والحزن من خشية الله،

(١) رواه أحمد (٣٢٤/١) والبخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠).

وَيَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّهُتْ أَلَاءَ دِينِهِمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

مخلصين أعمالهم لله. والبطر: أن تشغله كثرة النعمة عن شكرها ﴿وَيَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دين الله ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم. وهو وعيد.

٤٨ - ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ واذكر ﴿إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ التي عملوها في معاداة رسول الله ﷺ، ووسوس إليهم: أنهم لا يغلِبون. و﴿غَالِبٌ﴾ مبنى، نحو: لا رجل. و﴿لَكُمْ﴾ في موضع رفع خبر ﴿لَا﴾ تقديره: لا غالب كائن لكم ﴿وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ أي: مجير لكم. أو همهم أن طاعة الشيطان تما يجبرهم ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ﴾ فلما تلاقى الفريقان ﴿نَكَصَ﴾ الشيطان هارباً ﴿عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي: رجع القهقري ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ أي: رجعت عما ضمنت لكم من الأمان. روي: أن إبليس تمثل لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، في جند من الشيطان، معه راية، فلما رأى الملائكة تنزل نكص، فقال له الحارث بن هشام: أخذنا في هذه الحالة؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: الملائكة. وانهمزوا. فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقه، فبلغ ذلك سراقه، فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنني هزيمتكم. فلما أسلموا علموا أنه الشيطان ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي: عقوبته ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٤٩ - اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ بالمدينة ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هو من صفة المنافقين، أو: أريد: والذين هم على حرف، ليسوا بثباتي الأقدام في الإسلام ﴿غَرَّهُتْ أَلَاءَ دِينِهِمْ﴾ يعنون: أن المسلمين اغتروا بدينهم، فخرجوا وهم ثلاثمئة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. ثم قال جواباً لهم: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يكل إليه أمره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب، يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يسوي بين وليه وعدوه.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَھُمْ وَذُوقُوا
عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوْبِهِمْ إِنَّ
اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

٥٠ - ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ ولو عاينت وشاهدت، لأن «لو» تردّ المضارع إلى معنى الماضي، كما تردّ «إن» الماضي إلى معنى الاستقبال ﴿إِذْ﴾ نصب على الظرف ﴿يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بقبض أرواحهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ فاعل ﴿يَضْرِبُونَ﴾ حال منهم ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ إذا أقبلوا ﴿وَأَدْبَرَھُمْ﴾ ظهورهم واستأههم إذا أدبروا. أو: وجوھهم عند الإقدام، وأدبارهم عند الانهزام. وقيل: في ﴿يتوفى﴾ ضمير الله تعالى ﴿والملائكة﴾ مرفوعة بالابتداء ﴿ويضربون﴾ خبر. والأول الوجه. لأنّ الكفّار لا يستحقّون أن يكون الله متوفّيهم بلا واسطة. دليله قراءة ابن عامر ﴿تَتَوَفَّى﴾ بالتاء ﴿وَذُوقُوا﴾ يقولون لهم: ﴿ذُوقُوا﴾ معطوف على ﴿يَضْرِبُونَ﴾ ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: مقدّمة عذاب النار. أو: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ﴾ الآخرة بشارة لهم به. أو: يقال لهم يوم القيامة: ذوقوا. وجواب ﴿لو﴾ محذوف، أي: لرأيت أمراً فظيماً.

٥١ - ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ أي: كسبت، وهو ردّ على الجبريّة. وهو من كلام الله تعالى، أو من كلام الملائكة و﴿ذَلِكَ﴾ رفع بالابتداء و﴿بِمَا قَدَّمْت﴾ خبره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ عطف عليه، أي: ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأنّ الله ﴿لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾؛ لأنّ تعذيب الكفار من العدل. وقيل: «ظلام» للتكثير لأجل العبيد، أو: لنفي أنواع الظلم.

٥٢ - الكاف في: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ في محلّ الرفع، أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون. ودأبهم: عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه، أي: داوموا عليه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش، أو: من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُوا﴾ تفسير لدأب آل فرعون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوْبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والمعنى: جروا على عادتهم في التكذيب، فأجرى عليهم مثل ما فعل بهم في التعذيب.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۚ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٌ ۖ أَلِٰ فِرْعَوْنُ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ۖ أَلِٰ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلَّ ۖ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ۖ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ۖ

٥٣ - ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب، أو: الانتقام ﴿يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ بسبب: أن الله لم يصح في حكمته أن يغير نعمته عند قوم حتى يغيروا ما بهم من الحال. نعم لم يكن لآل فرعون ومشركي مكة حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة، لكن كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها. وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم بالآيات فكذبوه، وسعوا في إراقة دمه، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال، وعاجلهم بالعذاب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول مكذبو الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

٥٤ - ﴿كَذَّابٌ ۖ أَلِٰ فِرْعَوْنُ ۖ﴾ تكرير للتأكيد، أو: لأن في الأولى الأخذ بالذنوب بلا بيان ذلك، وهنا بين أن ذلك هو الإهلاك، والاستئصال ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وفي قوله: ﴿بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم، وجحود الحق ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ۖ أَلِٰ فِرْعَوْنَ ۖ﴾ بماء البحر ﴿وَكُلَّ ۖ﴾ وكلهم من غرقى القبط، وقتلى قريش ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر، والمعاصي.

٥٥ - ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ۖ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أصروا على الكفر فلا يتوقع منهم الإيمان.

٥٦ - ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ بدل من ﴿الذين كفروا﴾، أي: الذين عاهدتهم من الذين كفروا. وجعلهم شر الدواب؛ لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون، وشر المصرين الناكثون للعهود ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ۖ﴾

وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْفَائِضِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ

كل معاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يخافون عاقبة الغدر، ولا يبالون بما فيه من العار، والنار.

٥٧ - ﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ فإما تصادفهم، وتظفرون بهم ﴿فَشَرِدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ ففرق عن محاربتك، ومناصبتك بقتلهم شر قتلة، والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد اعتباراً بهم، واتعاضاً بحالهم. وقال الزجاج: افعل بهم ما تفرق به جمعهم، وتطرد به من عداهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لعل المشركين من ورائهم يتعظون.

٥٨ - ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ نكثاً بأمارات تلوح لك ﴿فَأَنذِرْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم العهد ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ على استواء منك ومنهم في العلم بنقض العهد. وهو حال من النابذ والمنبوذ إليهم، أي: حاصلين على استواء في العلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِضِينَ﴾ الناقضين للعهود.

٥٩ - ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء وفتح السين: شامي، وحزة، ويزيد، وحفص. وبالتاء وفتح السين: أبو بكر. وبالتاء وكسر السين: غيرهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ فاتوا، وأفلتوا من أن يظفر بهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ إنهم لا يفوتون، ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم. ﴿أَنَّهُمْ﴾: شامي. أي: لأنهم. وكل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل، غير أن المكسورة على طريقة الاستئناف، والمفتوحة تعليل صريح. فمن قرأ بالتاء ف﴿الذين كفروا﴾ مفعول أول، والثاني ﴿سبقوا﴾. ومن قرأ بالياء ف﴿الذين كفروا﴾ فاعل و﴿سبقوا﴾ مفعول، تقديره: أن سبقوا، فحذف أن. وأن مخففة من الثقيلة، أي: أنهم سبقوا، فسد مسد المفعولين. أو: يكون الفاعل مضمراً، أي: ولا يحسب محمد الكافرين سابقين. ومن ادعى تفرد حزة بالقراءة ففيه نظر، لما بيناه من عدم تفرد بها. وعن الزهري: أنها نزلت فيمن أفلت من فلل المشركين.

٦٠ - ﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُمْ﴾ لناقضي العهد، أو لجميع الكفار

مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب من عُدِّها. وفي الحديث: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّةَ»^(١) قالها ثلاثاً على المنبر. وقيل: هي الحصون ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ هو: اسم للخيل التي تُربط في سبيل الله أو: هو جمع: ربيط، كفصيل وفصال. وخصَّ الخيل من بين ما يتقوى به، كقوله: ﴿وَحَبْرِيلَ وَمِيكائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ بما استطعتم ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: أهل مكة ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ غيرهم. وهم اليهود، أو المنافقون، أو أهل فارس، أو كفرة الجن. وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَقْرُبُ صَاحِبَ فَرَسٍ، وَلَا دَاراً فِيهَا فَرَسٌ عَتِيقٌ»^(٢). ورؤي: أَنَّ صَهِيلَ الْخَيْلِ يَرْهَبُ الْجِنَّ. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوفّر عليكم جزاؤه. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ في الجزاء، بل تُعْطُونَ على التمام.

٦١ - ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ مالوا. جنح له، وإليه: مال ﴿لِلسَّلَامِ﴾ للصلح. وبكسر السين: أبو بكر. وهو مؤنَّث تَأْنِيثُ ضِدِّهَا، وهو الحرب ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ، وعاصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالك.

٦٢ - ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ يمكروا، ويغدروا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ كافيك الله ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعاً، أو بالأنصار.

(١) رواه أحمد (٤/ ١٥٦ - ١٥٧) ومسلم (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤) وابن ماجه (٢٨١٣).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ٢ / ٢٣٢).

وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِتِ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٤﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ

٦٣ - ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ قلوب الأوس والخزرج بعد تعدادهم مئة وعشرين سنة ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِتِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: بلغت عداوتهم مبلغاً لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال، لم يقدر عليه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ بفضلِهِ ورحمته، وجمع بين كلمتهم بقدرته، فأحدث بينهم التواد والتحاب، وأماط عنهم التباغض والتماقت ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهر من يمدعونك ﴿حَكِيمٌ﴾ ينصر من يتبعونك.

٦٤ - ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو بمعنى مع، وما بعد منصوب. والمعنى: كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصر. ويجوز أن يكون في محل الرفع، أي: كفاك الله، وكفاك المؤمنون. قيل: أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً، وست نسوة، ثم أسلم عمر، فنزلت.

٦٥ - ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التحريض: المبالغة في الحث على الأمر، من الحرص، وهو: أن ينهكه المرض حتى يشفى على الموت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه عِدَّةٌ من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار، بعون الله، وتأييده ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب، وطلب ثواب، كالبهائم، فيقل ثباتهم، ويعدمون لجهلهم بالله نصرته، بخلاف من يقاتل على بصيرة، وهو يرجو النصر من الله. قيل: كان عليهم ألا يفروا، ويثبت الواحد للعشرة. ثم ثقل عليهم ذلك، فنسخ، وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين بقوله:

٦٦ - ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ ضِعْفًا حمزة وعاصم ﴿فَإِنْ

يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخِجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا

يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ ﴿٦٦﴾ بالبلاء فيها، كوفي، وافقه البصري في الأولى، والمراد الضعف في البدن ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾. وتكرير مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على أَنَّ الحال مع القلّة والكثرة لا تتفاوت؛ إذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المئتين والمئة الألف. وكذلك بين مقاومة المئة والمئتين والألف الألفين.

٦٧ - ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ﴾ ما صحّ له، ولا استقام ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ بصرى ﴿حَتَّى يَشْخِجَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإثنان: كثرة القتل والمبالغة فيه من: الشخانة، هي: الغلظ والكثافة. يعني: حتى يذل الكفر بإشاعة القتل في أهله، ويعزّز الإسلام بالاستيلاء والقهر، ثم الأسر بعد ذلك. روي: أَنَّ رسول الله ﷺ أُتِيَ بسبعين أسيراً، فيهم العباس عمّه وعقيل، فاستشار النبي ﷺ أبا بكر فيهم، فقال: قومك وأهلك استبقهم لعلّ الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك. وقال عمر - رضي الله عنه -: كذبوك، وأخرجوك، فقدمهم، واضرب أعناقهم، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ، وَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَاكَ عَنِ الْفِدَاءِ. مَكَّنَ عَلِيّاً من عقيل، وحمزة من العباس، ومكني من فلان - لنسيب له - فلنضرب أعناقهم. فقال ﷺ: «مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حيث قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا عمر كمثل نوح حيث قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]». ثم قال رسول الله ﷺ لهم: «إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ، واستشهد منكم بعدتهم». فقالوا: بل نأخذ الفداء. فاستشهدوا بأحد. فلما أخذوا الفداء نزلت الآية^(١): ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ متاعها. يعني: الفداء، سمّاه عرضاً لقلّة بقائه، وسرعة فناؤه

وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهر الأعداء ﴿حَكِيمٌ﴾ في عتاب الأولياء.

٦٨ - ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ لولا حكم من الله ﴿سَبَقَ﴾ ألا يعذب أحداً على العمل بالاجتهاد. وكان هذا اجتهداً منهم؛ لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم، وأن فداءهم يُتَّقَوِي به على الجهاد، وخفي عليهم: أن قتلهم أعز للإسلام، وأهيب لمن وراءهم، أو: ما كتب الله في اللوح ألا يعذب أهل بدر، أو: ألا يؤاخذ قبل البيان والإعذار. وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد، فيكون حجة على منكري القياس. ﴿كتاب﴾ مبتدأ و﴿من﴾ الله ﴿صفته﴾ أي: لولا كتاب ثابت من الله. و﴿سَبَقَ﴾ صفة أخرى له. وخبر المبتدأ محذوف، أي: لولا كتاب بهذه الصفة في الوجود. و﴿سَبَقَ﴾ لا يجوز أن يكون خبراً، لأن «لولا» لا يظهر خبرها أبداً ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنالكم، وأصابكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من فداء الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ روي: أن عمر - رضي الله عنه - دخل على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله! أخبرني، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت. فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة» - لشجرة قريبة منه ^(١) - وروي: أنه ﷺ قال: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ» لقوله: كان الإثخان في القتل أحب إلي ^(٢).

٦٩ - ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ روي: أنهم أمسكوا عن الغنائم، ولم يمدوا أيديهم إليها فنزلت. وقيل: هو إباحة للفداء؛ لأنه من جملة الغنائم. والفاء للتيسير، والسبب محذوف، ومعناه: قد أحلت لكم الغنائم ﴿فَكُلُوا﴾ ﴿حَلَالًا﴾ مطلقاً

(١) رواه أحمد (٣١/١) ومسلم (١٧٦٣) (٥٨).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/٤٤).

طَيْبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

عن العتاب والعقاب. من: حلّ العقاب. وهو نصب على الحال من المغنوم، أو: صفة للمصدر، أي: أكلاً حلالاً ﴿طَيْبًا﴾ لذيذاً هنيئاً، أو: حلالاً بالشرع، طيباً بالطبع ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تقدموا على الشيء لم يعهد إليكم فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعلتم من قبل ﴿رَحِيمٌ﴾ بإحلال ما غنمتم.

٧٠ - ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ﴾ في ملكتكم، كأن أيديكم قابضة عليهم ﴿مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾ جمع أسير ﴿من الأسارى﴾ أبو عمرو، جمع: أسرى ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ خلوص إيمان، وصحة نية ﴿يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء، إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو: يثيبكم في الآخرة ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ روي: أنه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفاً، فتوضاً لصلاة الظهر، وما صلى حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه، فأخذ منه ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني، وأرجو المغفرة. وكان له عشرون عبداً، وإن أدناهم ليتجر في عشرين ألفاً، وكان يقول: أنجز الله أحد الوعدين، وأنا على ثقة من الآخر^(١).

٧١ - ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ أي: الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نكث ما بايعوك عليه من الإسلام بالردة، أو: منع ما ضمنوه من الفداء ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ في كفرهم به، ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فأمكنك منهم، أي: أظفرك بهم، كما رأيتم يوم بدر، فسيمكن منهم إن عادوا إلى الخيانة ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بالمآل ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر في الحال.

٧٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ من مكة حباً لله ورسوله ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَقٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٧٢﴾ هم المهاجرون ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا﴾ أي: آووههم إلى ديارهم، ونصروهم على أعدائهم. وهم الأنصار ﴿أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتولى بعضهم بعضاً في الميراث. وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة وبالنصرة، دون ذوي القربات، حتى نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]. وقيل: أراد به النصرة والمعاونة ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ من مكة ﴿مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم﴾ من توليهم في الميراث ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُم﴾ حمزة. وقيل: هما واحد ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ فكان لا يرث المؤمن الذي لم يهاجر ممن آمن وهاجر. ولما أبقي للذين لم يهاجروا اسم الإيمان، وكانت الهجرة فريضة، فصاروا بتركها مرتكبين كبيرة، دلّ على أن صاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ أي: من أسلم ولم يهاجر ﴿فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ أي: إن وقع بينهم وبين الكفار قتال، وطلبوا معونة، فواجب عليكم أن تنصروهم على الكافرين ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَقٌ﴾ فإنه لا يجوز لكم نصركم عليهم؛ لأنهم لا يبتدئون بالقتال، إذ الميثاق مانع من ذلك ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن تعدي حد الشرع.

٧٣ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم. ومعناه: نهي المسلمين عن موالاة الكفار، وموارثتهم، وإيجاب مباعدهم، ومصارمتهم، وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين، وتولي بعضهم بعضاً، حتى في التوارث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تجعلوا قرابة الكفار كلاً قرابة، ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، تحصل فتنة في الأرض،

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً، والفساد زائداً.

٧٤ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم، وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن، ومفارقة الأهل، والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا؛ لأجل الدين والعقبى ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لامتنة فيه، ولا تنغيص. ولا تكرار: لأن هذه الآية واردة للشئاء عليهم مع الوعد الكريم، والأولى للأمر بالتواصل.

٧٥ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ جعلهم منهم تفضيلاً وترغيباً ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ وأولو القربابات أولى بالتوارث. وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه وقسمته، أو: في اللوح، أو: في القرآن. وهو آية الموارث. وهو دليل لنا على توريث ذوي الأرحام ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه. قسم الناس أربعة أقسام: قسم آمنوا وهاجروا، وقسم آمنوا ونصروا، وقسم آمنوا ولم يهاجروا، وقسم كفروا ولم يؤمنوا.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لها أسماء: براءة، التوبة، المقشقة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدممة؛ لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشش من النفاق، أي: تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها، وتثيرها، وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكلهم، وتشردهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم.

وفي ترك التسمية في ابتدائها أقوال: فعن عليّ وابن عباس - رضي الله عنهم -: أنّ بسم الله أمان وبراءة نزلت لرفع الأمان. وعن عثمان - رضي الله عنه -: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه سورة أو آية، قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا، وتوفي رسول الله ﷺ، ولم يُبين لنا أين نضعها. وكانت قصتها تشبه قصة الأنفال؛ لأنّ فيها ذكر العهود، وفي براءة نبذ العهود؛ فلذلك قرنت بينهما. وكانتا تدعيان: القريتين. وتعدّان السابعة من الطوال، وهي سبع. وقيل: اختلف أصحاب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة، نزلت في القتال. وقال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت بسم الله؛ لقول من قال: هما سورة واحدة.

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

١ - ﴿بَرَاءَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه ﴿براءة﴾ ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿من﴾ لا ابتداء الغاية، متعلقٌ بمحذوف، وليس بصلة، كما في قولك: برئت من الدين. أي: هذه براءة واصله من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم، كما تقول: كتاب من فلان إلى فلان. أو: مبتدأ لتخصيصها بصفتها، والخبر ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ كقولك: رجل من بني تميم في الدار. والمعنى: أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين، وأنه منبوذ إليهم.

٢ - ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ فسيروا في الأرض كيف شئتم. والسيح: السير على مهل. رُوي: أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب، فمكثوا إلا ناساً منهم، وهم بنو ضمرة، وبنو كنانة. فنبد العهد إلى الناكثين، وأمروا أن يسبحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاؤوا، لا يتعرّض لهم. وهي الأشهر الحرم في قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها. وكان نزولها سنة تسع من الهجرة، وفتح مكة سنة ثمان. وكان الأمير فيها عتّاب بن أسيد. وأمر رسول الله ﷺ أبا بكر على موسم سنة تسع، ثم أتبعه عليّاً راكب العضاء ليقرأها على أهل الموسم. فقبل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر. فقال: «لا يؤذي عني إلا رجل مني» فلما دنا علي سمع أبو بكر الرغاء فوقف، وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم، وقام عليّ يوم النحر عند جرة العقبة فقال: يا أيها الناس! إني رسولُ رسولِ الله إليكم. فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين، أو أربعين آية. ثم قال: أمرت بأربع: ألا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتمّ إلى كل ذي عهد عهده. فقالوا عند ذلك: يا عليّ! أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه

وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ

ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح، وضرب بالسيوف^(١). والأشهر الأربعة: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، أو عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر. وكانت حرماً؛ لأنهم أومنوا فيها، وحرم قتلهم وقتالهم، أو: على التغليب؛ لأنّ ذا الحجة والمحرم منها. والجمهور على إباحة القتال في الأشهر الحرم، وأنّ ذلك قد نسخ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ مذلّهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالعذاب.

٣ - ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ ارتفاعه كارتفاع ﴿براءة﴾ على الوجهين. ثمّ الجملة معطوفة على مثلها. والأذان بمعنى الإيذان، وهو: الإعلام، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. والفرق بين الجملة الأولى والثانية: أنّ الأولى إخبار بثبوت البراءة، والثانية إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت. وإنّما علّقت البراءة بالذين عوّهوا من المشركين، وعلّق الأذان بالناس؛ لأنّ البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم. وأمّا الأذان فعام لجميع الناس؛ من عاهد، ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين، ومن لم ينكث ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ يوم عرفة، لأنّ الوقوف بعرفة معظم أفعال الحج، أو: يوم النحر؛ لأنّ فيه تمام الحجّ من الطواف، والنحر، والحلق، والرمي. ووصف الحجّ بالأكبر، لأنّ العمرة تُسمّى: الحجّ الأصغر ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بأن الله، حذف صلة الأذان تخفيفاً ﴿وَرَسُولُهُ﴾ عطف على المنوي في ﴿بريء﴾، أو: على الابتداء، وحذف الخبر، أي: ورسوله بريء. وقرئ بالنصب عطفاً على اسم إنّ، والجرّ على الجوار، أو: على القسم، كقولك: لعمرك. وحكي: أنّ أعرابياً سمع رجلاً يقرؤها، فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه بريء. فلبّيه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته، فعندها أمر عمر بتعلّم العربية ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ من الكفر والغدر. ﴿فَهُوَ﴾ أي: التوبة

(١) قال ابن حجر: هذا ملقّق من مواضع. (حاشية الكشاف ٢/٢٤٣).

خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَكُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإصرار على الكفر ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة، أو: تبتم على التولي والإعراض عن الإسلام ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ﴾ غير سابقين الله، ولا فائتين أخذه وعقابه ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مكان بشارة المؤمنين بنعيم مقيم.

٤ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من قوله: ﴿فسيحوا في الأرض﴾ والمعنى: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ فقولوا لهم: سيحوا إلا الذين عاهدتم منهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط العهد، أو: وفوا بالعهد ولم ينقضوه. وقرئ ﴿لم ينقضوكم﴾ أي: عهدكم، وهو أليق. لكن المشهورة أبلغ؛ لأنه في مقابلة التمام ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ ولم يعاونوا عليكم عدوًّا ﴿فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَكُمْ﴾ فأدوه إليهم تامًّا كاملاً ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى تمام مدتهم. والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين: لكن الذين لم ينكثوا فأتوا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الموفي كالغادر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أن قضية التقوى ألا يسوى بين الفريقين، فاتقوا الله في ذلك.

٥ - ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ﴾ مضى، أو خرج ﴿الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين نقضوكم، وظاهروا عليكم ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ من حل أو حرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم. والأخذ: الأسر ﴿وَأَحْضُرُوهُمْ﴾ وقيدوهم. وامنعوهم من التصرف في البلاد ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ كل ممر ومجتاز ترصدونهم به. وانتصابه على الظرف ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فاطلقوا عنهم بعد الأسر

إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ
 اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ
 عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
 اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

والحصر، أو: فكفوا عنهم، ولا تتعرضوا لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ بستر الكفر
 والغدر بالإسلام ﴿رَحِيمٌ﴾ برفع القتل قبل الأداء بالالتزام.

٦ - ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ «أحد» مرتفع بفعل شرط
 مضممر يفسره الظاهر، أي: وإن استجارك أحد استجارك. والمعنى: وإن جاءك
 أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه، واستأمنك لسمع
 ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ويتدبره، ويطلع
 على حقيقة الأمر ﴿ثُمَّ اتْلُغْهُ﴾ بعد ذلك ﴿مَأْمَنَهُ﴾ داره التي يأمن فيها إن لم
 يسلم، ثم قاتله إن شئت. وفيه دليل على أن المستأمن لا يؤذى، وليس له
 الإقامة في دارنا، ويُمكن من العود ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر بالإجارة في قوله:
 ﴿فَأَجِرْهُ﴾ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بسبب أنهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإسلام،
 وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا، أو يفهموا
 الحق.

٧ - ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ «كيف»
 استفهام في معنى الاستنكار، أي: مستنكر أن يثبت لهؤلاء عهد، فلا تطمعوا
 في ذلك، ولا تحدثوا به نفوسكم، ولا تفكروا في قتلهم. ثم استدرك ذلك
 بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ أي: ولكن الذين عاهدتم منهم ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ﴾ ولم يظهر منهم نكت كبنى كنانة، وبني ضمرة، فتريصوا أمرهم،
 ولا تقتلوهم ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ﴾ ولم يظهر منهم نكت، أي: فما أقاموا على
 وفاء العهد ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على الوفاء. و«ما» شرطية، أي: فإن ﴿استقاموا
 لكم فاستقيموا لهم﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أن التريص بهم من أعمال
 المتقين.

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ
سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْاٰيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

٨ - ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ تكرر لاستبعاد ثبات المشركين على العهد. وحذف الفعل لكونه معلوماً، أي: كيف يكون لهم عهد ﴿و﴾ حالهم أنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا﴾ لا يراعوا حلفاً، ولا قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهداً ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بالوعد بالإيمان، والوفاء بالعهد. وهو كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن، مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ الإيمان، والوفاء بالعهد ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ناقضون العهد، أو متمردون في الكفر، لا مروءة تمنعهم عن الكذب، ولا شمائل تردعهم عن النكث، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة من التفادي عنهما.

٩ - ﴿أَشْتَرُوا﴾ استبدلوا ﴿بِعَاقِبَتِ اللَّهِ﴾ بالقرآن ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً، وهو: اتباع الأهواء والشهوات ﴿فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فعدلوا عنه، وصرفوا غيرهم ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بش صنيع صنيعهم.

١٠ - ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ «ولا» تكرر، لأنَّ الأول على الخصوص حيث قال: ﴿فِيكُمْ﴾، والثاني على العموم، لأنه قال: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون الغاية في الظلم، والشرارة.

١١ - ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم؛ على حذف المبتدأ ﴿فِي الدِّينِ﴾ لا في النسب ﴿وَنُفَصِّلُ الْاٰيٰتِ﴾ ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون فيتفكرون فيها. وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإن من تأمل تفصيلها، فهو العالم تحريضاً على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

وَأِنْ لَّكَثُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ
إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ
وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةٌ

١٢ - ﴿وَأِنْ لَّكَثُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: نقضوا العهود المؤكدة
بالإيمان ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ وعابوه ﴿فَقَتَلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ فقاتلوهم.
فوضع ﴿أئمة الكفر﴾ موضع ضمير «هم» وهم ^(١) رؤساء الشرك، أو زعماء
قريش الذين هموا بإخراج الرسول. وقالوا: إذا طعن الدمي في دين الإسلام
طعنًا ظاهرًا جاز قتله، لأن العهد معقود معه على ألا يطعن. فإذا طعن فقد
نكث عهده، وخرج من الذمة. ﴿أئمة﴾ بهمزتين: كوفي، وشامي. الباقون
بهمزة واحدة غير ممدودة بعدها ياء مكسورة. أصلها: أئمة، لأنها جمع إمام؛
كعماد وأعمدة، فنقلت حركة الميم الأولى إلى الهمزة الساكنة، وأدغمت في الميم
الأخرى. فمن حَقَّق الهمزتين أخرجهما على الأصل، ومن قلب الثانية ياء
فلكسرتها ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ وإنما أثبت لهم الإيمان في قوله: ﴿وَأِنْ نَكَثُوا
أَيْمَانَهُمْ﴾ لأنه أراد أيمانهم التي أظهروها، ثم قال: ﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ على
الحقيقة. وهو دليل لنا على أن يمين الكافر لا تكون يميناً. ومعناه عند الشافعي
- رحمه الله - أنهم لا يوفون بها، لأن يمينهم يمين عنده حيث وصفها بالنكث.
﴿لَا إِيْمَانُ﴾: شامي، أي: لا إسلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ متعلق بـ ﴿فقاتلوا أئمة
الكفر﴾ وما بينهما اعتراض، أي: ليكون غرضكم في مقاتلتهم انتهاءهم عما هم
عليه بعد ما وجد منهم من العظائم. وهذا من غاية كرمه على المسيء.

١٣ - ثم حرَّض على القتال فقال: ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ﴾
التي حلفوها في المعاهدة ﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة ﴿وَهُمْ
بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةٌ﴾ بالقتال، والبادئ أظلم. فما يمنعكم من أن
تقاتلوهم؟! ونَجَّهم بترك مقاتلتهم، وحشهم عليها. ثم وصفهم بما يوجب
الحث عليها من نكث العهد، وإخراج الرسول، والبدء بالقتال من غير موجب

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَحقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ توبيخ على الخشية منهم ﴿فَاللَّهُ أَحقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ بأن تخشوه، فقاتلوا أعداءه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فاخشوه، أي: إِنْ قضية الإيمان الكامل الَّا يخشى المؤمن إلا ربه، ولا يبالي بمن سواه.

١٤- ولما ويخهم الله على ترك القتال جرّد لهم الأمر به بقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾، ووعدهم النصر ليثبت قلوبهم، ويصّح نياتهم بقوله: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلاً ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ أسراً ﴿وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يغلّبكم عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ طائفة منهم. وهم خزاعة عيبة^(١) رسول الله ﷺ.

١٥- ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم من المكروه. وقد حصل الله هذه المواعيد كلّها، فكان دليلاً على صحّة نبوته ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ابتداء كلام، وإخبار بأنّ بعض أهل مكّة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضاً، فقد أسلم ناس منهم؛ كأبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو. وهي تردّ على المعتزلة قولهم إنّ الله تعالى شاء أن يتوب على جميع الكفرة، لكنهم لا يتوبون باختيارهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما سيكون، كما يعلم ما قد كان ﴿حَكِيمٌ﴾ في قبول التوبة.

١٦- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أم. منقطعة، والهمزة فيها للتوبيخ على وجود الحسبان، أي: لا تكون على ما أنتم عليه حتّى يتبين الخلل منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة من الذين يضادّون رسول الله ﷺ والمؤمنين. ولما: معناها التوقع. وقد دلّت على أنّ تبين ذلك

(١) «عيبة الرجل»: موضع سرّه.

وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ

متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين. ﴿ولم يتخذوا﴾ معطوف على ﴿جاهدوا﴾ داخل في حيز الصلاة. كأنه قيل: ولما يعلم المجاهدين منكم والمخلصين، غير المتخذين وليجة من دون الله. والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كقولك: ما علم الله مني ما قيل في، تريد: ما وجد ذلك مني. والمعنى: أحسبتم أن تركوا بلا مجاهدة، ولا براءة من المشركين ﴿والله خير مما تعملون﴾ من خير أو شر، فيجازيكم عليه.

١٧ - ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم، وما استقام ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾: (مسجد الله) مكّي، وبصري. يعني: المسجد الحرام. وإنما جمع في القراءة بالجمع، لأنه قبله المساجد، وإمامها، فعامره كعامة جميع المساجد، ولأن كل بقعة منه مسجد. أو: أريد جنس المساجد. وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك ألا يعمروا المسجد الحرام، الذي هو صدر الجنس، وهو أكد؛ إذ طريقه طريق الكناية، كما تقول: فلان لا يقرأ كتب الله، فإنه أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ باعترافهم بعبادة الأصنام. وهو حال من الواو في ﴿يعمروا﴾. والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متضادين عمارة متعبدات الله، مع الكفر بالله وعبادته ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ دائمون.

١٨ - ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ عمارتها: رم ما استرم منها، وقمها، وتنظيفها، وتنويرها بالمصابيح، وصيانتها بما لم تبني له المساجد من أحاديث الدنيا، لأنها بنيت للعبادة والذكر. ومن الذكر: درس العلم ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ولم يذكر الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام لما علم أن الإيمان بالله قرينته الإيمان بالرسول، لاقتراحهما في الأذان، والإقامة، وكلمة الشهادة، وغيرها. أو: دل عليه بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾. وفي

وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ تنبيه على الإخلاص. والمراد: الخشية في أبواب الدين، بالأختيار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف؛ إذ المؤمن قد يخشى المحاذير، ولا يتمالك ألا يخشاها. وقيل: كانوا يخشون الأصنام، ويرجونها، فأريد نفي تلك الخشية عنهم ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء، وحسم لأطماعهم في الانتفاع بأعمالهم، لأن عسى كلمة إطماع. والمعنى: إنما تستقيم عمارة هؤلاء، وتكون معتداً بها عند الله دون سواهم.

١٩ - ﴿أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ السقاية والعمارة مصدران من: سقى، وعمر، كالصيانة والوقاية. ولا بد من مضاف محذوف، تقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله. وقيل: المصدر بمعنى الفاعل، يصدقه قراءة ابن الزبير: (سُقَاةُ الْحَاجِّ وَعَمَرَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ). والمعنى: إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يُسوَّى بينهم، وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر، لأنهم وضعوا المدح والفخر في غير موضعهما. نزلت جواباً لقول العباس حين أُسر، فطفق عليّ - رضي الله عنه - يوبّخه بقتال رسول الله ﷺ، وقطيعة الرحم: تذكر مساوينا وتدع محاسننا؟ فقل: أولكم محاسن؟ فقال: نعمر المسجد، ونسقي الحاج، ونفك العاني. وقيل: افتخر العباس بالسقاية، وشيية بالعمارة، وعليّ - رضي الله عنه - بالإسلام والجهاد. فصّدق الله تعالى علياً.

٢٠ - ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أولئك ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ من أهل السقاية، والعمارة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ لا أنتم المختصون بالفوز دونهم.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولِيَآءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيَكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

٢١ - ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾: يبشرهم: حمزة: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ﴾ تنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف، وتعريف المعرف ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم.

٢٢ - ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: لا ينقطع.

٢٣ - لما أمر الله النبي ﷺ بالهجرة جعل الرجل يقول لابنه، ولأخيه، ولقرابته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك، ويعجبه، ومنهم من تتعلق به زوجته أو ولده، فيقول: تدعنا بلا شيء فنضيع! فيجلس معهم، ويدع الهجرة. فنزل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولِيَآءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي: آثروه، واختاروه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيَكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

٢٤ - ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقاربكم (وعشيراتكم): أبو بكر ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فوات وقت نفاقها. ﴿وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ وهو عذاب عاجل، أو عقاب أجل، أو فتح مكة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ والآية تنعي على الناس مما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، إذ لا تجد عند أروع الناس ما يستحب له دينه على الآباء، والأبناء، والأموال، والحفظ.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدِيرِينَ ﴿٢٥﴾

٢٥ - ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ كوقعة بدر، وقریظة، والنضیر، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة. وقيل: إنَّ المواطن التي نصر الله فيها النبي ﷺ والمؤمنين ثمانون موطناً. ومواطن الحرب: مقاماتها، ومواقفها ﴿وَيَوْمَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكروا ﴿يوم حنين﴾ ﴿حُنَيْنٍ﴾ وإد بين مكة والطائف، كانت فيه الوقعة بين المسلمين، وهم اثنا عشر ألفاً، وبين هوازن وثقيف، وهم أربعة آلاف. فلما التقوا قال رجلٌ من المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلة! فسأى رسول الله ﷺ ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿يوم﴾ ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فأدرت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة، وزلَّ عنهم أنَّ الله هو الناصر لا كثرة الجنود، فانهزموا حتى بلغ فلهم^(١) مكة، وبقي رسول الله ﷺ وحده، وهو ثابت في مركزه، ليس معه إلا عمه العباس أخذاً بلجام دابته، وأبو سفيان بن الحارث ابن عمه أخذاً بركابه. فقال للعباس: «صح بالناس» - وكان صيئاً - فنأدى: يا أصحاب الشجرة! فاجتمعوا وهم يقولون: لبيك لبيك. ونزلت الملائكة عليهم الثياب البياض على خيول بلق^(٢). فأخذ رسول الله ﷺ كفاً من تراب فرماهم به. ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة». فانهزموا^(٣). وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام يومئذ: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان». وهذا دعاء موسى عليه السلام يوم انفلاق البحر ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ «ما» مصدرية. والباء بمعنى مع، أي: مع رُحْبها. وحقيقته ملتبسة برحبها، على أنَّ الجارَّ والمجرور في موضع الحال، كقولك: دخلت عليه بشياب السفر، أي: متلبساً بها. والمعنى: لم تجدوا موضعاً لفراركم عن أعدائكم، فكأنها ضاقت عليكم ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدِيرِينَ﴾ ثم انهزمت.

(١) «فلهم»: القل: الكتبية المنهزمة.

(٢) «بلق»: البلق: سواد وبياض في اللون.

(٣) رواه مسلم (١٧٧٥) (٧٧).

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

٢٦ - ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي سكنوا بها، وأمنوا ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكة، وكانوا ثمانية آلاف، أو خمسة آلاف، أو ستة عشر ألفاً ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل، والأسر، وسبي النساء، والذراري ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

٢٧ - ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ وهم الذين أسلموا منهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بستر كفر العدو بالإسلام ﴿رَحِيمٌ﴾ بنصر الولي بعد الانضمام.

٢٨ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي: ذوو نجس. وهو مصدر، يقال: نَجَسَ نَجَسًا، وَقَدِرَ قَدْرًا، لَأَنَّ مَعَهُمُ الشَّرْكَ الَّذِي هُوَ بِمَنْزِلَةِ النِّجَسِ، وَلَأَنَّهُمْ لَا يَتَطَهَّرُونَ، وَلَا يَغْتَسِلُونَ، وَلَا يَجْتَنِبُونَ النِّجَاسَاتِ، فَهِيَ مَلَابِسَةٌ لَهُمْ، أَوْ: جَعَلُوا كَأَنَّهُمُ النِّجَاسَةُ بَعَيْنِهَا، مَبَالِغَةٌ فِي وَصْفِهِمْ بِهَا ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فلا يحجوا، ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو عام تسع من الهجرة، حين أُمِّرَ أَبُو بَكْرٍ - رضي الله عنه - على الموسم. [ويكون المراد من نهي القريبان: النهي عن الحج والعمرة]^(١). وهو مذهبنا. ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندنا. وعند الشافعي - رحمه الله - يمنعون عن المسجد الحرام خاصة. وعند مالك: يمنعون منه ومن غيره. وقيل: نهي المشركين أن يقربوه راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً بسبب منع المشركين عن الحج، وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق، والمكاسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الغنائم، أو المطر والنبات، أو من متاجر حبيب

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

إِنْ شَاءَ إِنْكَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَلِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

الإسلام ﴿إِنْ شَاءَ﴾ هو تعليم لتعليق الأمور بمشيئة الله تعالى لتقطع الآمال إليه
﴿إِنْكَ اللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تحقيق آمالكم. أو ﴿عليم﴾
بمصالح العباد، ﴿حكيم﴾ فيما حكم، وأراد.

٢٩ - نزل في أهل الكتاب: ﴿قَلِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ لأن اليهود
مثنية والنصارى مثلثة ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنهم فيه على خلاف ما يجب، حيث
يزعمون: أن لا أكل في الجنة ولا شرب ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ لأنهم
لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة، أو: لا يعلمون بما في التوراة والإنجيل
﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ ولا يعتقدون دين الإسلام الذي هو الحق. يقال: فلان
يدين بكذا: إذا اتخذ دينه، ومعتقده ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان
لـ «الذين» قبله. وأما المجوس فملحقون بأهل الكتاب في قبول الجزية. وكذا:
الترك، والهنود، وغيرهما، بخلاف مشركي العرب، لما روى الزهري: أن النبي
عليه الصلاة والسلام صالح عبدة الأوثان على الجزية إلا من كان من العرب^(١).
﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ إلى أن يقبلوها. وسميت جزية لأنها مما يجب على أهلها أن
يجزوه، أي: يقضوه، أو: هي جزاء على الكفر على التمهيل في تذليل ﴿عَنْ
يَدٍ﴾ أي: عن يد مواتية غير ممتنعة لأن من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف
المطيع المنقاد. ولذا قالوا: أعطى بيده: إذا انقاد. وقالوا: نزع يده عن الطاعة.
أو: حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة، لا مبعوثاً على يد أحد، ولكن
عن يد المعطي إلى يد الآخذ ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: تؤخذ منهم على الصغار،
والذل. وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويُسَلِّمها وهو قائم والمتسلم
جالس، وأن يتلثلل^(٢) تلتلته، ويؤخذ بتليبيه، ويقال له: أذ الجزية ياذمي، وإن

(١) قال ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق في تفسيره. (حاشية الكشاف ٢/٢٦٣).

(٢) «يتلثلل»: يزعرع ويزلزل.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ أَخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهِبَنَهُمْ آزِبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

كان يؤدّيها، ويزخ^(١) في قفاه. وتسقط بالإسلام.

٣٠ - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ كلهم، أو بعضهم ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، كقوله: ﴿المسيح ابن الله﴾. وعزير: اسم أعجمي. ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه. ومن نون - وهم: عاصم، وعلي - فقد جعله عربياً ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: قول لا يعضده برهان، ولا يستند إلى بيان. فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ عن معنى تحته، كالألفاظ المهملة ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ لا بد فيه من حذف مضاف، تقديره: يضاهي قولهم قولهم. ثم حذف المضاف، وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه، فانقلب مرفوعاً، يعني: أن الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم، يعني: أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث. أو: الضمير للنصارى، أي: يضاهي قولهم ﴿المسيح ابن الله﴾ قول اليهود ﴿عزير ابن الله﴾ لأنهم أقدم منهم. ﴿يضاهئون﴾ عاصم. وأصل المضاهاة: المشابهة. والأكثر ترك الهمز^(٢). واشتقاقه من قولهم: امرأة ضياء، وهي التي أشبهت الرجال بأنها لا تحيض. كذا قاله الزجاج ﴿قَنَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: هم أحقاء بأن يقال لهم هذا. ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق بعد قيام البرهان.

٣١ - ﴿أَخَذُوا﴾ أي: أهل الكتابين ﴿أَخْبَارَهُمْ﴾ علماءهم ﴿وَرُهِبَنَهُمْ﴾ نساكهم ﴿آزِبَابًا﴾ آلهة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حيث أطاعوهم في

(١) «يزخ»: يُدْفَعُ وَيُرْمَى بِهِ.

(٢) أي: «يضاهئون» وهي قراءة: ابن عامر، وابن كثير، وحمزة، وأبي عمرو، ونافع، والكسائي، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب.

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشَمِّرُوا نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ

تحليل ما حرّم الله، وتحريم ما أحلّ الله، كما يطاع الأرباب في أوامرهم، ونواهيهم ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عطف على ﴿أحبارهم﴾، أي: اتخذه ربّاً، حيث جعلوه ابن الله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ يجوز الوقف عليه، لأن ما بعده يصلح ابتداء، ويصلح وصفاً لـ: ﴿واحدًا﴾ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن الإشراك.

٣٢ - ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشَمِّرُوا نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ مثل حالهم في طلبهم أن ييطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبعث في الآفاق، يريد الله أن يزيده، ويبلغه الغاية القصوى من الإشراق، ليطفئه بنفخه. أجرى ﴿ويأبى الله﴾ مجرى: لا يريد الله. ولذا وقع في مقابلة ﴿يريدون﴾. وإلا فلا يقال: كرهت، أو أبغضت إلا زيدا.

٣٣ - ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى﴾ بالقرآن ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الإسلام. ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على أهل الأديان كلهم. أو: ليظهر دين الحق على كل دين ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

٣٤ - ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ﴾ استعمار الأكل للاخذ ﴿بِالْبُطْلِ﴾ أي: بالرشا في الأحكام ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ سفلتهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾. يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأخبار والرهبان، للدلالة على

وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ

اجتماع خصلتين ذميتين فيهم: أخذ الرشا، وكنز الأموال، والضن بها عن الإنفاق في سبيل الخير. ويجوز أن يراد: المسلمون الكانزون غير المنفقين. ويقرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظاً. وعن النبي ﷺ: «ما أدّى زكاته فليس بكنز وإن كان باطنياً، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً»^(١). ولقد كان كثير من الصحابة - رضي الله عنهم - كعبد الرحمن بن عوف، وطلحة يقتنون الأموال، ويتصرفون فيها، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية، لأن الإعراض اختياراً للأفضل، والاقتناء مباح لا يذم صاحبه ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الضمير راجع إلى المعنى، لأن كل واحد منهما دنائير ودراهم، فهو كقوله: ﴿وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]. أو: أريد به الكنوز والأموال. أو: معناه: ولا ينفقونها والذهب. كما أن معنى قوله:

.... فإني وقّارٌ بها لغريب^(٢)

أي: وقّار كذلك. وخصاً بالذكر من بين سائر الأموال، لأنهما قانون التمول، وأثمان الأشياء. وذكر كنزهما دليل على ما سواهما ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٣٥ - ومعنى قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أن النار تحمى عليها، أي: توقد. وإنما ذكر الفعل، لأنه مسند إلى الجار والمجرور، أصله: يوم تحمى النار عليها، فلما حذفت النار قيل: ﴿يُحْمَى﴾ لانتقال الإسناد عن النار إلى ﴿عليها﴾ كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة قلت: رفع إلى الأمير ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وخصت هذه الأعضاء، لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمتهم وإياه مجلس ازوروا عنه،

(١) رواه الطبراني في الأوسط، كما في مجمع الزوائد (٦٤/٣).

(٢) عجز بيت لضابىء بن الحارث البرجي، وصدّره: فمن يك أمسى بالمدينة رحله.

هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَتِّلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ

وتولوا بأركانهم، وولوه ظهورهم. أو: معناه: يكونون على الجهات الأربع: مقاديمهم، ومآخيرهم، وجنوبهم ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يقال لهم: هذا ما كنزتموه لتنتفع به نفوسكم، وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم، وهو توبيخ ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: وبال المال الذي كنتم تكنزونونه، أو: بال كونكم كانزين.

٣٦ - ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ من غير زيادة. والمراد: بيان: أن أحكام الشرع تُبنى على الشهور القمرية المحسوبة بالأهلة دون الشمسية ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيما أثبتته، وأوجبه من حكمته، أو: في اللوح. ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثلاثة سرد: ذو القعدة للقيود عن القتال، وذو الحجة للحج، والمحرم لتحريم القتال فيه. وواحد فرد، وهو رجب لترجيح العرب إياه، أي: لتعظيمه ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الدين المستقيم، لا ما يفعله أهل الجاهلية. يعني: أن تحريم الأربعة الأشهر هو الدين المستقيم، ودين إبراهيم وإسماعيل. وكانت العرب تمسكت به، فكانوا يعظمونها، ويمحرمون القتال فيها، حتى أحدثت النسيء، فغيروا ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾ في الحرم، أو في الاثني عشر ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بارتكاب المعاصي ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ حال من الفاعل، أو المفعول ﴿كَمَا يُقَتِّلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ جميعاً ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ناصر لهم. حثهم على التقوى بضمان النصرة لأهلها.

٣٧ - ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ بالهمزة مصدر نساء: إذا أخره، وهو تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر. وذلك: أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام، وهم محاربون، شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه، ويمحرمون

زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا
عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ

مكانه شهراً آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون
من بين شهور العام أربعة أشهر ﴿زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ﴾ أي: هذا الفعل منهم
زيادة في كفرهم ﴿يُضِلُّ﴾ كوفي، غير أبي بكر ﴿بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالنسيء.
والضمير في: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ للنسيء، أي: إذا أحلوا شهراً من
الأشهر الحرم عاماً رجعوا فحرموه في العام القابل ﴿لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾
ليوافقوا العدة التي هي الأربعة، ولا يخالفوها. وقد خالفوا التخصيص الذي
هو أحد الواجبين. واللام تتعلق بـ ﴿يَحِلُّونَهُ﴾ و﴿يُحَرِّمُونَهُ﴾ أو بـ ﴿يُحَرِّمُونَهُ﴾
فحسب، وهو الظاهر ﴿فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ﴿فَيَحِلُّوا﴾ بمواطأة العدة
وحدها من غير تخصيص ﴿مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ من القتال، أو: من ترك الاختصاص
للأشهر بعينها ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ زين لهم الشيطان ذلك، فحسبوا
أعمالهم القبيحة حسنة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ حال اختيارهم
الثبات على الباطل.

٣٨ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ اخرجوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَنَا قُلْتُمْ﴾ ثاقلتهم، وهو أصله، إلا أَنَّ التاء أدغمت في التاء فصارت ثاء
ساكنة، فدخلت ألف الوصل لثلاثاً يبتدأ بالساكن، أي: تباطأتم ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾
ضمن معنى الميل والإخلاء فعددي بلى، أي: ملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم
مشاق السفر ومتاعبه. أو: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم. وكان ذلك في
غزوة تبوك، استنفروا في وقت عسرة، وقحط، وقبط مع بعد الشقة، وكثرة
العدو، فشق عليهم ذلك. وقيل: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوة إلا ورى
عنها بغيرها، إلا في غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ

الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا
 تَنَفَّرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا
 وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا
 تَخَظَّنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا

الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴿ بدل الآخرة ﴾ ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ في
 جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

٣٩ - ﴿إِلَّا تَنَفَّرُوا﴾ إلى الحرب ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ سخط عظيم على المتناقلين، حيث أوعدهم بعذاب
 أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم، ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً
 منهم، وأطوع، وأنه غني عنهم في نصره دينه، لا يقدر تناقلهم فيها شيئاً.
 وقيل: الضمير في: ﴿ولا تضروه﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام، لأن الله
 وعده أن يعصمه من الناس، وأن ينصره. ووعدته كائن لا محالة ﴿وَاللَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من التبديل، والتعذيب، وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾.

٤٠ - ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ﴾ فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد.
 فدلّ بقوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ على أنه ينصره في المستقبل، كما نصره في ذلك
 الوقت ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أسند الإخراج إلى الكفار، لأنهم حين هموا
 بإخراجه أذن الله له في الخروج، فكانهم أخرجوه ﴿ثَانِيًا﴾ أحد اثنين،
 كقوله: ﴿ثَالِثٌ ثَلَاثَةً﴾ [المائدة: ٧٣]. وهما: رسول الله، وأبو بكر. وانتصابه
 على الحال ﴿إِذْ هُمَا﴾ بدل من ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ ﴿فِي الْفَكَارِ﴾ هو نقب في أعلى
 ثور، وهو جبل في اليمنى مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً ﴿إِذْ يَقُولُ﴾
 بدل ثان ﴿لِصَاحِبِهِ لَا تَخَظَّنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصرة، والحفظ. قيل: طلع
 المشركون فوق الغار، فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ، فقال: إن تُصَبَّ اليوم
 ذَهَبٌ دِينَ اللَّهِ! فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١).

(١) قال ابن حجر: لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - =

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾
 أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ

وقيل: لما دخل الغار بعث الله حامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه^(١). وقال رسول الله ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم!»^(٢) فجعلوا يترددون حول الغار، ولا يفتنون، قد أخذ الله بأبصارهم عنه. وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ ما ألقى في قلبه من الأمانة التي سكن عندها، وعلم: أنهم لا يصلون إليه ﴿عَلَيْهِ﴾ على النبي ﷺ، أو على أبي بكر، لأنه كان يخاف، وكان عليه الصلاة والسلام ساكن القلب ﴿وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه، أو: أيده بالملائكة يوم بدر، والأحزاب، وحنين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: دعوتهم إلى الكفر ﴿السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ دعوته إلى الإسلام ﴿هِيَ﴾ فصل ﴿الْعُلْيَا﴾ وكلمة الله بالنصب: يعقوب، بالعطف. والرفع على الاستئناف أوجه، إذ هي كانت، ولم تزل عالية ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يعز بنصره أهل كلمته ﴿حَكِيمٌ﴾ يذل أهل الشرك بحكمته.

٤١ - ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا﴾ في النفور لنشاطكم له ﴿وَوَثِقَالًا﴾ عنه لمشقة عليكم، أو: خفافاً لقلّة عيالكم، وثقالاً لكثرتها، أو: خفافاً من السلاح، وثقالاً منه، أو: ركبناً ومشاة، أو: شباباً وشيوخاً، أو: مهازيل وسماناً، أو: صحاحاً ومراضاً ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال، والحاجة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ﴾ الجهاد ﴿خَيْرٌ

= قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما». (حاشية الكشف ٢/ ٢٧٢).

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (١٧٤١) والطبراني كما في مجمع الزوائد (٥٣/٦).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشف ٢/ ٢٧٢).

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكِ الْالِذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

لَكُمْ من تركه ﴿٤١﴾ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ كون ذلك خيراً فبادروا إليه .

٤٢ - ونزل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ هو ما عرض لك من منافع الدنيا. يقال: الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر. أي: لو كان ما دعوا إليه مغنماً ﴿قَرِيبًا﴾ سهل المأخذ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وسطاً مقارباً. والقاصد والقصد: المعتدل ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك في الخروج ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ﴾ المسافة الشاقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ من دلائل النبوة، لأنه أخبر بما سيكون بعد الفول فقالوا كما أخبر. و﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾، أو: هو من جملة كلامهم. والقول مراد في الوجهين، أي: ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾ يعني: المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتردين يقولون: ﴿بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾. أو: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ يقولون: ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾. وقوله: ﴿لَخَرَجْنَا﴾ سدّ مسدّ جوابي القسم، و﴿لَوْ﴾ جميعاً. ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدة، أو استطاعة الأبدان، كأنهم تمارضوا ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بدل من ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾. أو: حال منه، أي: مهلكين. والمعنى: أنهم يهلكونها بالحلف الكاذب، أو حال من ﴿لَخَرَجْنَا﴾ أي: لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا، وألقيناها في التهلكة بما نحملها على المسير في تلك الشقة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يقولون.

٤٣ - ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كناية عن الزلة، لأنّ العفو رادف لها. وهو من لطف العتاب، بتصدير العفو في الخطاب. وفيه دلالة فضله على سائر الأنبياء عليهم السلام، حيث لم يذكر مثله لسائر الأنبياء عليهم السلام ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ بيان لما كني عنه بالعفو، ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك، واعتلّوا لك بعلمهم، وهلاً استأنيت بالإذن؟! ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكِ الْالِذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يتبين لك الصادق في العذر من الكاذب فيه.

لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَآزَنَاتٍ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا لَهُمْ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ
الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

وقيل: شيان فعلهما رسول الله ﷺ، ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه
الفدية من الأسارى، فعاتبه الله. وفيه دليل جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم
السلام، لأنه عليه الصلاة والسلام إنما فعل ذلك بالاجتهاد، وإنما عوتب مع
أن له ذلك لتركه الأفضل، وهم يعاتبون على ترك الأفضل.

٤٤ - ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ ليس من
عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾
عادة لهم بأجزل الثواب.

٤٥ - ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني: المنافقين.
وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً ﴿وَأَزَنَاتٍ قُلُوبُهُمْ﴾ شكوا في دينهم، واضطربوا في
عقيدتهم ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيرون، لأن التردد ديدن المتحير، كما
أن الثبات ديدن المتبصر.

٤٦ - ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُمْ﴾ للخروج، أو للجهاد ﴿عُدَّةً﴾
أهبة، لأنهم كانوا مياسير. ولما كان ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معطياً معنى نفي
خروجهم واستعدادهم للغزو قيل: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ نهوضهم
للخروج. نهوضهم للخروج، كأنه قيل: ما خرجوا، ولكن تثبطوا عن الخروج
لكراهة انبعاثهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فكسلهم، وضعت رغبتهم في الانبعاث. والتثييط:
التوقيف عن الأمر بالتزهد فيه ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو
قاله الرسول ﷺ غضباً عليهم، أو: قاله الشيطان بالوسوسة ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾
هو ذم لهم، وإلحاق بالنساء، والصبيان، والزمى، الذين شأنهم القعود في
البيوت.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَكُولُ أُذُنَ لِي وَلَا نَفْتِيَّ

٤٧ - ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم معكم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ إلا فساداً وشرّاً. والاستثناء متصل؛ لأنّ المعنى ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً. والاستثناء المنقطع أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كقولك: ما زادوكم خيراً إلا خبالاً. والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور. وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من الشيء، فكان استثناء متصلاً؛ لأن الخبال بعبارة ﴿وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب، والنمائم، وإفساد ذات البين. يقال: وضع البعير وضعا: إذا أسرع. وأوضعتة أنا. والمعنى: ولأوضعوا ركائبهم بينكم. والمراد: الإسراع بالنمائم، لأن الراكب أسرع من الماشي. وخط في المصحف ﴿ولأوضعوا﴾ بزيادة الألف، لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربي. والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن. وقد بقي من تلك الألف أثر في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى. ونحوه: ﴿أَوْ لَا أَذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١] ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ حال من الضمير في: ﴿أوضعوا﴾ ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم، ويفسدوا نياتكم في مغزاكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ أي: نمامون يسمعون حديثكم، فينقلونه إليهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ بالنافقين.

٤٨ - ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ﴾ بصدّ الناس، أو: بأن يفتكوا به عليه الصلاة والسلام ليلة العقبة، أو بالرجوع يوم أحد ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ودبروا لك الحيل والمكائد، ودوروا الآراء في إبطال أمرك ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو تأييدك، ونصرك ﴿وَبَدَّ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وغلب دينه، وعلا شرعه ﴿وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ أي: على رغم منهم.

٤٩ - ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكُولُ أُذُنَ لِي وَلَا نَفْتِيَّ﴾ ولا توقعني في الفتنة - وهي الإثم - بالأذن لي، فإني إن تخلفت بغير إذنك أثمت. أو: لا تلقني في

أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾
 تُصِيبُكَ حَسَنَةٌ تَسُؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا
 مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا
 هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنًا إِلَّا
 إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ
 بِأَيْدِينَا فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ ﴿٥٢﴾

الهلكة، فإنني إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي. وقيل: قال الجد بن قيس
 المنافق: قد علمت الأنصار أنني مُستهتر بالنساء، فلا تفتني بنات [بني] ^(١)
 الأصفر، يعني: نساء الروم، ولكنني أعينك بمالي، فاتركني ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
 سَقَطُوا﴾ يعني: أَنَّ الفتنه هي التي سقطوا فيها، وهي فتنة التخلف ﴿وَإِنَّ
 جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ الآن؛ لأنَّ أسباب الإحاطة معهم. أو: هي
 تحيط بهم يوم القيامة.

٥٠ - ﴿إِنْ تُصِيبُكَ﴾ في بعض الغزوات ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر، وغنيمة.

﴿تَسُؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ نكبة، وشدة في بعضها، نحو ما جرى
 يوم أحد ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ الذي نحن متسمون به من الحذر، واليقظ،
 والعمل بالحزم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل ما وقع ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ عن مقام التحدث
 بذلك إلى أهاليهم ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون.

٥١ - ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: قضى من خير، أو شر
 ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: الذي يتولانا، ونتولاه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾
 وحق المؤمنين ألا يتوكلوا على غير الله.

٥٢ - ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنًا﴾ تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ وهما
 النصره، والشهادة ﴿وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ﴾ إحدى السوءيين، إمَّا ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ
 بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ وهو قارعة من السماء، كما نزلت على عاد، وثمود
 ﴿أَوْ﴾ بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو: القتل على الكفر ﴿فَتَرْتَضُوا﴾ بنا ما ذكرنا

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا
 مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
 الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تَعْجَبْكَ
 أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

﴿ إِنَّمَا مَعَكُمْ مُتْرِضُونَ ﴾ ما هو عاقبتكم.

٥٣ - ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا ﴾ في وجوه البر ﴿ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ طائعين، أو مكرهين
 نصب على الحال. ﴿ كَرْهًا ﴾: حمزة، وعلي. وهو أمر في معنى الخبر. ومعناه
 ﴿ لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ ﴾ أنفقتم طوعاً أو كرهاً. ونحوه ﴿ أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾
 [التوبة: ٨٠]. وقوله:

أَسِئْتُ بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مِلْمَةٌ لِدِينَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ ^(١)
 أي: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا نلومك أسأت
 إلينا أو أحسنت. وقد جاز عكسه في قولك: رحم الله زيداً. ومعنى عدم
 القبول: أنه ﷺ يرذها عليهم، ولا يقبلها، أو: لا يشيها الله. وقوله: ﴿ طَوْعًا ﴾
 أي: من غير إلزام من الله ورسوله. و﴿ كَرْهًا ﴾ أي: ملزمين. وسمي الإلزام
 إكراهاً لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالأكراه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ﴾
 تعليل لرد إنفاقهم ﴿ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ متمردين، عاتين.

٥٤ - ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ ﴾ وبالياء: حمزة، وعلي ﴿ إِلَّا أَنَّهُمْ
 كَفَرُوا ﴾ «أنهم»: فاعل منع. و﴿ هُمْ ﴾ و﴿ أَنْ تُقَبَلَ ﴾ مفعولاه. أي:
 وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم ﴿ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ
 كُسَالَى ﴿ جَمْعُ كَسَلَانِ ﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿ لَأَنَّهُمْ لَا يَرِيدُونَ بِهَا
 وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى. وصفهم بالطوع في قوله: ﴿ طَوْعًا ﴾ وسلبه عنهم هاهنا، لأن
 المراد بطوعهم: أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله ﷺ، أو من
 رؤسائهم. وما طوعهم ذلك إلا عن كراهة واضطرار، لا عن رغبة واختيار.

٥٥ - ﴿ فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
 الإعجاب بالشيء: أن تسر به سرور راض به، متعجب من حسنه. والمعنى:

وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُورٍ
وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَخْرَجًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ
وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا
مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

فلا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا، فإن الله إنما أعطاهم ما أعطاهم ليعذبهم بالمصائب فيها، أو بالإنفاق منه في أبواب الخير، وهم كارهون له، أو بنهب أموالهم، وسبي أولادهم، أو بجمعها، وحفظها، وحبها، والبخل بها، والخوف عليها. وكل هذا عذاب ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وتخرج أرواحهم. وأصل الزهوق: الخروج بصعوبة. ودلت الآية على بطلان القول بالأصلح، لأنه أخبر: أن إعطاء الأموال والأولاد لهم للتعذيب والإماتة على الكفر، وعلى إرادة الله تعالى المعاصي؛ لأن إرادة العذاب بإرادة ما يعذب عليه. وكذا إرادة الإماتة على الكفر.

٥٦ - ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَكُمْ﴾ لمن جملة المسلمين ﴿وَمَا هُمْ بِمَنْكُورٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يخافون القتل وما يفعل بالمشركون، فيتظاهرون بالإسلام تقيّة.

٥٧ - ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ مكاناً يلجؤون إليه متحصّنين، من رأس جبل، أو قلعة، أو جزيرة ﴿أَوْ مَخْرَجًا﴾ أو غيراً ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ أو نفقاً يندسون فيه. وهو مفتعل من الدخول ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا نحوه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء. من: الفرس الجموح.

٥٨ - ﴿وَمِنْهُمْ﴾ من المنافقين ﴿مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يعيبك في قسمة الصدقات، ويطعن عليك ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ «إذا»: للمفاجأة، أي: وإن لم يعطوا منها فاجؤوا السخط. وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين، وما فيه صلاح أهله، لأنه عليه الصلاة والسلام استعطف قلوب أهل مكّة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم، فضجر المنافقون منه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ

٥٩ - ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ جواب ﴿ لو ﴾ محذوف، تقديره: ﴿ ولو أنهم رضوا ﴾ لكان خيراً لهم. والمعنى: ﴿ ولو أنهم رضوا ﴾ ما أصابهم به الرسول من الغنيمة، وطابت به نفوسهم، وإن قل نصيبهم ﴿ وقالوا ﴾ كفانا فضل الله وصنعه، و﴿ حسبنا ﴾ ما قسم لنا، سيرزقنا غنيمة أخرى، فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ ﴾ في أن يغنمنا فضله ﴿ لراغبون ﴾. ثم بين مواضعها التي توضع فيها، فقال:

٦٠ - ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ قصر جنس الصدقات على الأصناف المحدودة، أي: هي مختصة بهم، لا تتجاوز إلى غيرهم، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم، كقولك: إنما الخلافة لقریش، تريد: لا تتعداهم، ولا تكون لغيرهم. فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها، وأن تصرف إلى بعضها كما هو مذهبنا. وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين أنهم قالوا: في أي صنف منها وضعتها أجزأك. وعند الشافعي - رحمه الله - لا بد من صرفها إلى الأصناف. وهو المروي عن عكرمة. ثم: الفقير: الذي لا يسأل، لأن عنده ما يكفيه للحال. والمسكين: الذي يسأل، لأنه لا يجد شيئاً، فهو أضعف حالاً منه. وعند الشافعي - رحمه الله - على العكس ﴿ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ هم السعاة الذين يقبضونها ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةُ فُلُوبِهِمْ ﴾ على الإسلام، أشرف من العرب، كان رسول الله ﷺ يتألفهم على أن يسلموا، وقوم منهم أسلموا، فيعطيهم تقريراً لهم على الإسلام ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ هم المكاتبون يعانون منها ﴿ وَالْغَرَمِينَ ﴾ الذين ركبته الديون ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فقراء الغزاة، أو: الحجيج المنقطع بهم ﴿ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ المسافر المنقطع عن ماله. وعدل عن اللام إلى ﴿ في ﴾ في الأربعة الأخيرة، للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم

فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنُ خَيْرٌ لَّكُمْ يَوْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ

من سبق ذكره، لأن في اللوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات، ويجعلوا مظنة لها. وتكرير ﴿في﴾ في قوله: ﴿وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ فيه فضل وترجيح لهذين على الرقاب والغارمين. وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين، ليدلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم، على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم، وإشعاراً بأنهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم ومالها، وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها. وسهم المؤلفة قلوبهم سقط بإجماع الصحابة في صدر خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - لأن الله أعز الإسلام، وأغنى عنهم. والحكم متى ثبت معقولاً لمعنى خاص يرتفع، وينتهي بذهاب ذلك المعنى ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ في معنى المصدر المؤكد، لأن قوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ معناه: فرض الله الصدقات لهم ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بالمصلحة. ﴿حَكِيمٌ﴾ في القسمة.

٦١ - ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ﴾ الأذن: الرجل الذي يصدق كلّ ما يسمع، ويقبل قول كل أحد. سُمّي بالجارحة التي هي آلة السماع، كأن جملة أذن سامعة. وإذاؤهم له: هو قولهم فيه: هو أذن. قصدوا به المذمة، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة. ففسره الله تعالى بما هو مدح له، وثناء عليه، فقال: ﴿قُلْ أَذُنُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ كقولك: رجل صدق، تريد: الجودة والصلاح، كأنه قيل: نعم هو أذن، ولكن نعم الأذن. ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحق، وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك. ثم فسر كونه أذن خير بأنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي: يصدق بالله لما قام عنده من الأدلة ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويقبل من المؤمنين الخالص من المهاجرين والأنصار. وعدى فعل الإيمان بالباء إلى الله، لأنه قصد به التصديق بالله الذي هو ضد الكفر به، وإلى المؤمنين باللام؛ لأنه قصد السماع من المؤمنين، وأن يسلم لهم ما يقولونه، ويصدقهم لكونهم صادقين عنده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] كيف ينبو عن الباء؟! ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالعطف على

لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْفُوتُ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبَقَ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤُاْ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿أذن﴾. ﴿ورحمة﴾: حمزة، عطف على ﴿خير﴾ أي: هو أذن خير، وأذن رحمة لا يسمع غيرهما، ولا يقبله ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: ﴿و﴾ هو ﴿رحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي: أظهروا الإيمان أيها المنافقون حيث يقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يفعل بكم مايفعل بالمشركين. أو: هو رحمة للمؤمنين حيث استنقذهم من الكفر إلى الإيمان، ويشفع لهم في الآخرة بإيمانهم في الدنيا ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدارين.

٦٢ - ﴿يَخْفُوتُ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن، أو يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم، ويرضوا عنهم. فقيل لهم: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون، فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاء. وإنما وُحِدَ الضمير، لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله، فكانا في حكم شيء واحد، كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني. أو: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

٦٣ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ﴾ أَنَّ الأمر والشأن ﴿مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يجاوز الحد بالخلاف. وهي مفاعلة، من: الحد، كالمشاقة من الشق ﴿فَأَبَقَ لَهُ﴾ على حذف الخبر، أي: فحق أن له ﴿نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

٦٤ - ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ خبر بمعنى الأمر، أي: ليحذر المنافقون ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ «تنزل» بالتخفيف: مكِّي، وبصري ﴿تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكفر والنفاق. والضمائر للمنافقين، لأن السورة إذا نزلت في معناتهم؛ فهي نازلة عليهم، دليله ﴿قل استهزؤا﴾. أو: الأولان للمؤمنين، والثالث للمنافقين. وصح ذلك؛ لأن المعنى يقود إليه ﴿قُلِ اسْتَهْزَؤُاْ﴾ أمر تهديد ﴿إِنَّ

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ
 كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ
 مِنْكُمْ يُغَذِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ

اللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ ﴿٦٧﴾ مظهر ما كنتم تحذرونه، أي: تحذرون إظهاره من
 نفاقكم. وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم، وفي استهزائهم
 بالإسلام وأهله، حتى قال بعضهم: وددتُ أني قدمت فجلدت مئة وأنه
 لا ينزل فينا شيء يفضحنا.

٦٥ - ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بينا رسول الله ﷺ
 يسير في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسرون بين يديه، فقالوا: انظروا إلى
 هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات هيهات! فأطلع الله
 نبيه على ذلك. فقال: «احبسوا عليّ الركب» فأتاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا».
 فقالوا: يانبي الله، لا والله ما كنا في شيء من أمرك، ولا من أمر أصحابك،
 ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر، أي:
 ﴿ولئن سألتهم﴾ وقلت لهم: لم قلتم ذلك؛ لقالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ
 وَنَلْعَبُ﴾^(١) ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لم يعبا
 باعتذارهم، لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم، وبأنه
 موجود فيهم، حتى وبخوا بإخطائهم موقع الاستهزاء، حيث جعل المستهزأ به
 يلي حرف التقرير. وذلك إنما يستقيم بعد ثبوت الاستهزاء.

٦٦ - ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فإنها لا تنفعكم بعد
 ظهور سرركم ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ قد أظهرتم كفركم باستهزائكم ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بعد
 إظهاركم الإيمان ﴿إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ بتوبتهم، وإخلاصهم الإيمان بعد
 النفاق ﴿تُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مُصْرِّينَ على النفاق، غير تائبين
 منه ﴿إِنْ يُعَفَّ﴾ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ غير عاصم.

٦٧ - ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ الرجال المنافقون كانوا ثلاثمئة، والنساء

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٤٥٥).

بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ

المنافقات مئة وسبعين ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي: كأنهم نفس واحدة. وفيه نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾، وتقرير لقوله: ﴿وما هم منكم﴾. وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ بالكفر، والعصيان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ عن الطاعة، والإيمان ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ شحاً بالمبار، والصدقات، والإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ تركوا أمره، أو أغفلوا ذكره ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من رحته، وفضله. ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هم الكاملون في الفسق، الذي هو التمرد في الكفر، والانسلاخ عن كل خير. وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش، الذي وصف به المنافقون حين بالغ في ذمهم.

٦٨ - ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿هِيَ﴾ أي: النار ﴿حَسْبُهُمْ﴾ فيه دلالة على عظم عذابهم، وأنه بحيث لا يزداد عليه ﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأهانهم مع التعذيب، وجعلهم مذمومين، ملحقين بالشياطين الملاعين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم معهم في العاجل، لا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، والظاهر المخالف للباطن خوفاً من المسلمين، وما يحذرونه أبداً من الفضيحة، ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

٦٩ - الكاف في: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ محلها رفع، أي: أنتم مثل الذين من قبلكم. أو: نصب على

وَحُضِّمْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ
 وَعَادُ وَثَمُودَ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ
 رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾
 وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

فعلتم، مثل فعل الذين من قبلكم، وهو أنكم استمتعتم بخلاصكم كما استمتعوا
 بخلاقهم، أي: تَلَذَّذُوا بملاذ الدنيا. والخلاق: النصيب، مشتق من الخلق،
 وهو: التقدير، أي: ما خلق للإنسان، بمعنى: قدر من خير ﴿وَحُضِّمْتُمْ﴾ في
 الباطل ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ كالفوج الذي خاضوا، أو: كالخوض الذي
 خاضوه. والخوض: الدخول في الباطل واللهو. وإنما قدم ﴿فاستمتعوا﴾
 بخلاقهم، وقوله: ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ مغن عنه، ليذم
 الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا، والتهائم بشهواتهم الفانية عن
 النظر في العاقبة، وطلب الفلاح في الآخرة، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين
 بحالهم ﴿أُولَئِكَ حَطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في مقابلة قوله: ﴿وَأَيَّتَنَّهُ
 أَجْرُ فِي الدُّنْيَا وَلَئِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ﴾ ثم ذكر نبا من قبلهم فقال:

٧٠ - ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ هو بدل من ﴿الذين﴾
 ﴿وَعَادُ وَثَمُودَ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين، وهم هم قوم
 شعيب ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ مدائن قوم لوط، وائتفاكهن: انقلاب أحوالهن عن
 الخير إلى الشر ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فما صح منه أن
 يظلمهم بإهلاكهم، لأنه حكيم، فلا يعاقبهم بغير جرم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
 يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر، وتكذيب الرسل.

٧١ - ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في التناصر، والتراحم
 ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالطاعة والإيمان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشرك،
 والعصيان ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُنْسِ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

اللَّهُ ﴿٧١﴾ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد في: سأنتقم منك يوماً ﴿٧١﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴿٧١﴾ غالب على كل شيء، قادر عليه، فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿٧٢﴾ حَكِيمٌ ﴿٧٢﴾ واضع كلاً موضعاً.

٧٢ - ﴿٧٢﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ ﴿٧٢﴾ يطيب فيها العيش. وعن الحسن - رحمه الله - : قصوراً من اللؤلؤ، والياقوت الأحمر، والزبرجد ﴿٧٢﴾ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ﴿٧٢﴾ هو عِلْمٌ بدليل قوله ﴿٧٢﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ أَلْقَى وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴿٧٢﴾ [مريم: ٦١]. وقد عرفت أَنَّ الذي والتي وضعا لوصف المعارف بالجمال. وهي مدينة في الجنة ﴿٧٢﴾ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ﴿٧٢﴾ وشيء من رضوان الله ﴿٧٢﴾ أَكْبَرُ ﴿٧٢﴾ من ذلك كله، لأنَّ رضاه سبب كل فوز، وسعادة ﴿٧٢﴾ ذَلِكَ ﴿٧٢﴾ إشارة إلى ما وعد، أو: إلى الرضوان ﴿٧٢﴾ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ وحده دون ما يعده الناس فوزاً.

٧٣ - ﴿٧٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ ﴿٧٣﴾ بالسيف ﴿٧٣﴾ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿٧٣﴾ بالحجة ﴿٧٣﴾ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴿٧٣﴾ في الجهادين جميعاً، ولا تحابهم. وكل من وَقَفَ منه على فساد في العقيدة، فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها ﴿٧٣﴾ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُنْسِ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ جهنم.

٧٤ - أقام رسول الله ﷺ في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين المتخلفين، فيسمع من معه منهم، منهم: الجلاس بن سويد، فقال: والله! لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم، وهم سادتنا، فنحن شر من الحمير. فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل والله إنَّ محمداً صادق، وأنت شر من الحمار! وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاستحضر، فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يده فقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ
لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ
يَسْتَوُوا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ

الصادق، وتكذيب الكاذب^(١)، فنزل: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ
الْكُفْرِ﴾^(٢) يعني: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شرّ من الحمير، أو: هي
استهزاؤهم. فقال الجلاس: يا رسول الله! والله لقد قلته، وصدق عامر، فتاب
الجلاس، وحسنت توبته ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم
الإسلام. وفيه دلالة على أنّ الإيمان والإسلام واحد، لأنه قال: ﴿وكفروا بعد
إسلامهم﴾ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ من قتل محمد ﷺ، أو: قتل عامر لردّه على
الجلاس. وقيل: أرادوا أن يتوجوا ابن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ ﴿وَمَا
نَقَمُوا﴾ وما أنكروا، وما عابوا ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وذلك أنهم
كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل،
ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم. وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول
الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً، فاستغنى^(٣) ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ عن النفاق ﴿يَكْ﴾
الثواب ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وهي الآية التي تاب عندها الجلاس ﴿وَإِنْ يَسْتَوُوا﴾ يصروا
على النفاق ﴿يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بالقتل، والنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي
الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينجيهم من العذاب.

٧٥ - ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ﴾ روي أنّ ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول
الله! ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال عليه الصلاة والسلام: «يا ثعلبة! قليل تؤدي
شكره، خير من كثير لا تطيقه». فراجعته وقال: والذي بعثك بالحق! لئن رزقني
مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. فدعا له. فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمي الدود،
حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً، وانقطع عن الجمعة والجماعة. فسأل عنه

(١) في الأصل المخطوط: تصديق الكاذب، وتكذيب الصادق، وهو خطأ.

(٢) أخرجه الثعلبي عن الكلبي. (حاشية الكشف ٢/٢٩١).

(٣) ذكره الزمخشري في تفسيره (٢/٢٩٢).

لَيْتَ أَتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ

رسول الله ﷺ ، فقيل : كثر ماله حتى لا يسعه واد . فقال «ياويح ثعلبة!» . فبعث رسول الله ﷺ مصدقين لأخذ الصدقات ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ، ومرآ بثعلبة فسألاه الصدقة ، فقال : ماهذه إلا جزية ، وقال : أرجعاً حتى أرى رأيي ، فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه : «ياويح ثعلبة!» مرتين . فنزلت . فجاء ثعلبة بالصدقة ، فقال : «إن الله منعني أن أقبل منك» فجعل التراب على رأسه ، فقبض رسول الله ﷺ ، فجاء بها إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فلم يقبلها . وجاء بها إلى عمر - رضي الله عنه - في خلافته فلم يقبلها ، وهلك في زمان عثمان - رضي الله عنه ^(١) - ﴿لَيْتَ أَتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي : المال ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لنخرجن الصدقة . والأصل : لتصدقن . ولكن التاء أدغمت في الصاد لقرها منها ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بإخراج الصدقة .

٧٦ - ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أعطاهم الله المال ، ونالوا منهاهم ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾ منعوا حق الله ، ولم يفوا بالعهد ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ مصرّون على الإعراض .

٧٧ - ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم ، لأنه كان سبباً فيه ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي : جزاء فعلهم ، وهو يوم القيامة ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدق ، والصلاح ، وكونهم كاذبين . ومنه : جعل خلف الوعد ثلث النفاق .

٧٨ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ يعني : المنافقين ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أسروه من النفاق بالعزم على إخلاف ما وعدوه ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢٩٠/٥) وفي إسناده ضعفاء لا يُحتج بحديثهم .

وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

من المطاعن في الدين، وتسمية الصدقة جزية، وتدبير منعها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء.

٧٩ - ﴿الَّذِينَ﴾ محله النصب، أو الرفع على الذم، أو الجزر على البدل من الضمير في ﴿سَرَّهُمْ وَنَجَوَاهُمْ﴾ ﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ يعييون المطَّوعين المتبرعين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ متعلق بيلمزون. روي: أن رسول الله ﷺ حثَّ على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت أربعة لعيالي. فقال عليه الصلاة والسلام: «بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمسكت»^(١) فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً. وتصدق عاصم بمئة وسق من تمر ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف على ﴿المطَّوعِينَ﴾ ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ طاقتهم. وعن نافع: ﴿جَهْدَهُمْ﴾ وهما واحد. وقيل: الجهد: الطاقة، والجهد: المشقة. وجاء أبو عقيل بصناع من تمر فقال: بت ليلتي أجز بالجرير^(٢) على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وأما صاع أبي عقيل، فالله غني عنه ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فيهزؤون ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جازاهم على سخريتهم. وهو خبر غير دعاء. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٨٠ - ولما سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله ﷺ أن يستغفر لأبيه في مرضه، نزل: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾. وقد مرَّ أن هذا الأمر في معنى الخير، كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم، أم لم تستغفر لهم ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم

(١) رواه البزار كما في: كشف الأستار (٢٢١٦)، وانظر: مجمع الزوائد (٧ / ٣٢).

(٢) «الجرير»: جبل البعير.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ

للتكثير، وليس على التحديد والغاية. إذ لو استغفر لهم مدة حياته لن يغفر الله لهم؛ لأنهم كفار، والله لا يغفر لمن كفر به. والمعنى: وإن بالغت في الاستغفار فلن يغفر الله لهم. وقد وردت الأخبار بذكر السبعين، وكلها تدل على الكثرة، لا على التحديد والغاية. ووجه تخصيص السبعين من بين سائر الأعداد: أن العدد قليل وكثير؛ فالقليل مادون الثلاث، والكثير الثلاث فما فوقها، وأدنى الكثير الثلاث، وليس لأقصاه غاية. والعدد أيضاً نوعان: شفع ووتر. وأول الأشفاع اثنان، وأول الأوتار ثلاثة. والواحد ليس بعدد، والسبعة أول الجمع الكثير من النوعين، لأن فيها أوتاراً ثلاثة وأشفاعاً ثلاثة، والعشرة كمال الحساب، لأن ما جاوز العشرة فهو إضافة الآحاد إلى العشرة، كقولك: اثنا عشر، وثلاثة عشر إلى عشرين، والعشرون تكرير العشرة مرتين، والثلاثون تكريرها ثلاث مرات، وكذلك إلى مئة، فالسبعون يجمع الكثرة والنوع والكثرة منه، وكمال الحساب والكثرة منه، فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كل وجه، ولا غاية لأقصاه، فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا المعنى، والله أعلم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اليأس من المغفرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولا غفران للكافرين ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن الإيمان ما داموا مختارين للكفر، والطغيان.

٨١ - ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المنافقون الذين استأذنوا رسول الله ﷺ، فأذن لهم، وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك. أو: الذين خلفهم كسلهم، ونفاقهم، والشيطان ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بعودهم عن الغزو ﴿خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مخالفة له. وهو مفعول له، أو حال، أي: قعدوا لمخالفته، أو: مخالفين له ﴿وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لم يفعلوا ما فعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله. وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان، وداعي الإيقان ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال بعضهم لبعض، أو: قالوا

لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٥﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٦﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا أَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَاصِبُوا ﴿١٣٨﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا

إليه بعنده عندك ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

١٣٥ - ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُمْ بَلِّغُوهُ﴾ لا محالة، فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال، وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جواب لما. أي: فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث، ولم يؤخروه.

١٣٦ - ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ هو ضد الإنعام، كما أنّ العقاب هو ضد الثواب ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ هو البحر الذي لا يدرك قعره، أو: هو لجة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمم؛ لأن المتفعين به يقصدونه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلة فكرهم فيها.

١٣٧ - ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل، والاستخدام ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿أَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وكثرة الأنهار والأشجار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] أو: ﴿وَرُبِّدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن، صفة للكلمة. و﴿على﴾ صلة «تمت» أي: مضت عليهم، واستمرت، من قولك: تمّ على الأمر: إذا مضى عليه ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم، وحسبك به حاثاً على الصبر، ودالاً على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَنُوزَنَا
 بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ
 لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَنَطَّلُوا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا. ﴿مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمارات، وبناء
 القصور ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو: ما كانوا يرفعون من الأبنية
 المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره. وبضم الراء: شامي، وأبو بكر.

وهذا آخر قصة فرعون والقبط، وتكذيبهم بآيات الله. ثم أتبعه قصة بني
 إسرائيل، وما أحدثوه - بعد إنقاذهم من فرعون، ومعانيتهم الآيات العظام،
 ومجاوزتهم البحر - من عبادة البقر، وغير ذلك ليسلي رسول الله ﷺ مما رآه من
 بني إسرائيل بالمدينة.

١٣٨ - ﴿وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ رُوي أنهم عبر بهم موسى يوم
 عاشوراء، بعد ما أهلك الله فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾
 فمروا عليهم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يواظبون على عبادتها، وكانت تماثيل
 بقر. وبكسر الكاف: حمزة، وعلي ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ صنماً نعكف
 عليه ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها. و«ما»: كافة للكاف، ولذلك
 وقعت الجملة بعدها. قال يهودي لعلّي - رضي الله عنه -: اختلفتم بعد نبيتكم
 قبل أن يجف ماؤه! فقال: قلت: اجعل لنا إلهاً ولم تجف أقدامكم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
 تَجْهَلُونَ﴾ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى، فوصفهم بالجهل
 المطلق، وأكدته.

١٣٩ - ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿مُتَّبِعُوا﴾ مهلك، من: التبار
 ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ أي: يتبر الله، ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي. وفي إيقاع
 هؤلاء اسماً لأن، وتقدير خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها، وسم لعبدة
 الأصنام بأنهم هم المعترضون للتبار، وأنه لا يعدوهم البتة ﴿وَنَطَّلُوا مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما عملوا من عبادة الأصنام باطل، مضمحل.

١٤٠ - ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ أي: أغير المستحق للعبادة أطلب لكم

وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤١﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٢﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ

معبوداً؟! ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حال. أي: على عالمي زمانكم.

١٤١ - ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أَنْجَاكُمْ﴾: شامي يسومونكم سوء العذاب ﴿يَبْغُونَكُمْ شِدَّةَ الْعَذَابِ﴾ من: سام السلعة، إذا طلبها. وهو استئناف لا محل له، أو: حال من المخاطبين، أو: من آل فرعون ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ نافع ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ أي: في الإنجاء، أو: في العذاب ﴿بَلَاءٌ﴾ نعمة، أو محنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٤٢ - ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطاء التوراة ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ روي أن موسى - عليه الصلاة والسلام - وعد بني إسرائيل - وهو بمصر - إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله. فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهي شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه، فتسوك. فأوحى الله إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك؟! فأمره أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك ﴿قَتْمٌ مِيقَتُ رَبِّهِ﴾ ما وقت له من الوقت، وضربه له ﴿أَزْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نصب على الحال، أي: تم بالغاً هذا العدد. ولقد أجل ذكر الأربعين في البقرة، وفصلها هنا ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ هو عطف بيان لأخيه ﴿أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه، ولا تطعه.

١٤٣ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له، وحددنا. ومعنى اللام الاختصاص، أي: اختص مجيئه بميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بلا واسطة، ولا كيفية. وروي أنه كان يسمع الكلام من كل جهة. وذكر الشيخ في «التأويلات»: أن موسى - عليه السلام - سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى.

قَالَ رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِيْ وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ
فَسَوْفَ تَرِنِيْ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ

وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمع صوتاً تولّى تخليقه، من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق، وغيره يسمع صوتاً مكتسباً للعباد، فيفهم منه كلام الله تعالى. فلما سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ﴾. ثاني مفعولي ﴿ارْنِيْ﴾ محذوف. أي: أرني ذاتك أنظر إليك، يعني: مكّني من رؤيتك بأن تتجلّى لي حتى أراك. ﴿ارْنِيْ﴾ مكّي. وبكسر الراء مختلسة: أبو عمرو. وبكسر الراء مشبعة: غيرهما. وهو دليل لأهل السنة على جواز الرؤية، فإن موسى - عليه السلام - اعتقد أن الله تعالى يرى حتى سأله، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِيْ﴾ بالسؤال بعين فانية، بل بالعطاء والنوال بعين باقية. وهو دليل لنا أيضاً، لأنه لم يقل: لن أرى ليكون نفيّاً للجواز. ولو لم يكن مرثياً لأخبر بأنه ليس بمرثي، إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ﴿وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ بقي على حاله ﴿فَسَوْفَ تَرِنِيْ﴾ وهو دليل لنا أيضاً؛ لأنه علق الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن. وتعليق الشيء بما هو ممكن يدلّ على إمكانه، كالتعليق بالممتنع يدلّ على امتناعه. والدليل على أنه ممكن قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكَاً﴾ ولم يقل: اندك، وما أوجده تعالى كان جائزاً ألا يوجد لو لم يوجد؛ لأنه مختار في فعله، ولأنه تعالى ما آيسه عن ذلك، ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك محالاً لعاتبه، كما عاتب نوحاً - عليه السلام - بقوله: ﴿إِنِّيْ اَعْطُكَ اَنْ تَكُوْنَ مِنَ الْجَاهِلِيْنَ﴾ [هود: ٤٦] حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر، وبيان ظهوراً بلا كيف. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: معنى التجلي للجبل ما قاله الأشعري: إنه تعالى خلق في الجبل حياة وعلماً ورؤية، حتى رأى ربه. وهذا نصّ في إثبات كونه مرثياً.

وبهذه الوجوه يتبيّن جهل منكري الرؤية. وقولهم: بأن موسى - عليه السلام - كان عالماً بأنه لا يرى، ولكن طلب قومه أن يريهم ربّه، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فطلب الرؤية

فَيَنْتِثِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَهَمُوهُمْ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

كل سر وعلانية ﴿فَيَنْتِثِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم على حسب ذلك.

٩٥ - ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّضُوا عَنْهُمْ﴾ لتركوهم، ولا توبخوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فأعطوهم طلبتهم ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ تعليل لترك معابيتهم، أي: أن المعاتبة لا تنفع فيهم، ولا تصلحهم، لأنهم أرجاس، لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿وَمَا وَهَمُوهُمْ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلفوا عتابهم ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: يجزون جزاء كسبهم.

٩٦ - ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي: غرضهم بالحلف بالله طلب رضاكم؛ لينفعهم ذلك في دنياهم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم، وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وأجلها. وإنما قيل ذلك لثلاث يتوهم: أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم.

٩٧ - ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر، لجفائهم، وقسوتهم، وبُعدهم عن العلم والعلماء ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ وأحقّ بألا يعلموا ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعني: حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام. ومنه قوله ﷺ: «إن الجفاء والقسوة في الفدّادين»^(١) يعني: الأكره، لأنهم يقدون، أي: يصيحون في حروثهم. والفديد: الصياح. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إمهالهم.

(١) رواه البخاري (٣٣٠٢) ومسلم (٥١). والفدّادون: الذين تلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم، واحدهم فدّاد.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُرِّ الدَّوَائِرِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُمْ
سَيِّدٌ لَهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٩٨ - ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ أي: يتصدق ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً؛ لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله، وابتغاء المثوبة عنده ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُرِّ الدَّوَائِرِ﴾ أي: دوائر الزمان، وتبدل الأحوال بدور الأيام، لتذهب غلبتكم عليه، فيتخلص من إعطاء الصدقة ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: عليهم تدور المصائب والحروب، التي يتوقعون وقوعها في المسلمين ﴿السَّوْءِ﴾: مكِّي، وأبو عمرو. وهو العذاب. والسَّوْء - بالفتح - ذمٌ للدائرة، كقولك: رجل سوء، في مقابلة قولك: رجل صديق ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بما يضمرونه.

٩٩ - ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ في الجهاد، والصدقات ﴿قُرْبَاتٍ﴾ أسباباً للقربة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾. وهي مفعول ثانٍ ليتخذ ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: دعاءه، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة، ويستغفر لهم، كقوله: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(١) ﴿أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: النفقة، أو: صلوات الرسول ﴿قُرْبَةً لَهُمْ﴾ ﴿قُرْبَةً﴾: نافع. وهذا شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه، على طريق الاستئناف، مع حربي التنبيه، والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر، وتمكّنه. وكذلك ﴿سَيِّدٌ لَهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: جنته، وما في السنين من تحقيق الوعد. وما أدل هذا الكلام على رضا الله عن المتصدقين! وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر عيب المخل. ﴿رَحِيمٌ﴾ يقبل جهد المقل.

(١) رواه أحمد (٣٥٣/٤) والبخاري (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨).

وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَبِمَنِّ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
 مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ

١٠٠ - ﴿وَالسَّيِّئُونَ﴾ مبتدأ ﴿الْأَوَّلُونَ﴾ صفة لهم ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ تبين لهم. وهم الذين صلوا إلى القبلتين، أو: الذين شهدوا بدرًا، أو بيعة الرضوان ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ عطف على المهاجرين، أي: ومن الأنصار. وهم أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية، وكانوا سبعين ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ من المهاجرين والأنصار، فكانوا سائر الصحابة. وقيل: هم الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة. والخبر: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم الحسنة ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أفاض عليهم من نعمته الدينية، والدينية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ عطف على ﴿رضي﴾ ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾: مكي ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٠١ - ﴿وَبِمَنِّ حَوْلَكُمْ﴾ يعني: حول بلدتكم، وهي المدينة ﴿مِنْ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ وهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار. وكانوا نازلين حولها ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ عطف على خبر المبتدأ، الذي هو: ﴿بِمَنِّ حَوْلَكُمْ﴾. والمبتدأ ﴿منافقون﴾. ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت: ﴿ومن أهل المدينة﴾ قوم ﴿مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾، أي: تمهروا فيه، على أن ﴿مردوا﴾ صفة موصوف محذوف. وعلى الوجه الأول لا يخلو من أن يكون كلاماً مبتدأ، أو صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره. ودل على مهارتهم فيه بقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾، أي: يخفون عليك مع فطنتك، وصدق فراستك لفرط تنوقهم^(١) في تحامي ما يشكك في أمرهم. ثم قال: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لا يعلمهم إلا الله، ولا يطلع على سرهم غيره، لأنهم يبطنون الكفر في سويداء قلوبهم، ويبرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾

(١) «تنوقهم»: أي: تأنفهم.

ثُمَّ يَرْدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَعَمَلًا سَيِّئًا عَسَىٰ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً

هما: القتل، وعذاب القبر، أو: الفضيحة، وعذاب القبر، أو: أخذ الصدقات من أموالهم، ونهك أبدانهم ﴿ثُمَّ يَرْدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذاب النار.

١٠٢ - ﴿وَأَخَرُونَ﴾ أي: قوم آخرون سوى المذكورين ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بشئ ما فعلوا نادمين. وكانوا عشرة: فسبعة منهم لما بلغهم ما نزل في المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد، فقدم رسول الله ﷺ، فدخل المسجد، فصلّى ركعتين - وكانت عادته كلما قدم من سفر - فرآهم موثقين، فسأل عنهم، فذكروا له: أنهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلهم، فقال: «وأنا أقسم ألا أحلهم حتى أؤمر فيهم». فنزلت، فأطلقهم، فقالوا: يا رسول الله! هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها، وطهرنا. فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً». فنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾^(١) ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ خروجاً إلى الجهاد ﴿وَعَمَلًا سَيِّئًا﴾ تخلفاً عنه. أو: التوبة: والإثم. وهو من قولهم: بعت الشاة شاة ودرهماً، أي: شاة بدرهم. فالواو بمعنى الباء، لأن الواو للجمع، والباء للإلصاق، فيتناسبان. أو: المعنى: خلط كل واحد منهما بالآخر، فكل واحد منهما مخلوط ومخلوط به، كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد: خلطت كل واحد منهما بصاحبه، بخلاف قولك: خلطت الماء باللبن، لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو فقد جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولم يذكر توبتهم، لأنه ذكر اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة.

١٠٣ - ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ كفارة لذنوبهم. وقيل: هي الزكاة

(١) قال الحافظ: أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه. (حاشية الكشاف ٣٠٧/٢).

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِينَ

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن الذنوب، وهو صفة لصدقة. والتاء للخطاب، أو لغيبة المؤنث. والتاء في: ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ للخطاب لا محالة ﴿بِهَا﴾ بالصدقة. والتزكية مبالغة في التطهير، وزيادة فيه، أو: بمعنى الإنماء، والبركة في المال ﴿وَصَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطف عليهم بالدعاء لهم، وترحم. والسنة أن يدعو المصدق^(١) لصاحب الصدقة إذا أخذها ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ صَلَاتُكَ كوفي غير أبي بكر. قيل: الصلاة أكثر من الصلوات، لأنها للجنس ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ يسكنون إليه، وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائكم، أو: سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم.

١٠٤ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ المراد: المتوب عليهم، أي: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم، وتقبل صدقاتهم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إذا صَحَّت ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ ويقبلها إذا صدرت عن خلوص النية. وهو للتخصيص، أي: أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ، إنما الله هو الذي يقبل التوبة، ويردها، فاقصدوه بها، ووجهوها إليه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ كثير قبول التوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ يعفو الحوبة.

١٠٥ - ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء التائبين: ﴿أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فإن عملكم لا يخفى، خيراً كان أو شراً، على الله وعباده، كما رأيتم، وتبين لكم. أو: غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة. فقد روي: أنه لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمر معنا لا يكلمون، ولا يجالسون، [فما لهم]^(٢)؟ فنزلت. وقوله تعالى: ﴿فسيرى الله﴾ وعيد لهم، وتحذير من عاقبة الإصرار، والذهول عن التوبة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِينَ﴾

(١) «المصدق»: اسم فاعل، وهو الذي يأخذ الصدقات.

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

وَالشَّهَادَةَ فَيَنْتَشِرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٧﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا

ما يغيب عن الناس ﴿وَالشَّهَادَةَ﴾ ما يشاهدونه ﴿فَيَنْتَشِرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تنبئة تذكير، ومجازاة عليه.

١٠٦ - ﴿وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ بغير همز: مدني، وكوفي غير أبي بكر. ﴿مُرْجُونَ﴾ غيرهم، من أرجيته، وأرجأته: إذا أخرته. ومنه المرجئة، أي: وآخرون من المتخلفين موقوفون إلى أن يظهر أمر الله فيهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا، ولم يتوبوا ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا. وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. والضابط: مكة. تخلفوا عن غزوة تبوك. وهم الذين ذكروا في قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ برجائهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إرجائهم. و«إمّا» للشك. وهو راجع إلى العباد، أي: خافوا عليهم العذاب، وارجوا لهم الرحمة. ورؤي: أنه عليه الصلاة والسلام أمر أصحابه إلا يسلموا عليهم، ولا يكلموهم، ولم يفعلوا كما فعل ذلك الفريق من شد أنفُسهم على السواري، وإظهار الجزع والغم، فلما علموا أن أحداً لا ينظر إليهم فوضوا أمرهم إلى الله، وأخلصوا نياتهم، ونصحت توبتهم، فرحمهم الله^(١).

١٠٧ - ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ تقديره ﴿و﴾ منهم ﴿الذين اتخذوا﴾ ﴿الذين﴾ بغير واو: مدني، وشامي. وهو مبتدأ، خبره محذوف، أي: جازيناهم. روي: أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم، فصلّى فيه، فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف^(٢)، وقالوا: نبني مسجداً، ونرسل إلى رسول الله يصلي فيه، ويصلي فيه

(١) قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق. والقصة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك. (حاشية الكشف ٢/ ٣٠٩).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد، وليس صدره بصحيح؛ =

ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرُّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا نَقُصُّ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى

أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام - وهو الذي قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين - فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، وقالوا للنبي ﷺ: بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه. فقال: «إني على جناح سفر، وإذا قدمنا من تبوك إن شاء الله صلينا فيه». فلما قفل من غزوة تبوك سأله إتيان المسجد، فنزلت عليه، فقال لوحشي قاتل حمزة ومعن بن عدي وغيرهما: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه، وأحرقوه» ففعل، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة. ومات أبو عامر بالشام ﴿ضِرَارًا﴾ مفعول له، وكذا ما بعده، أي: مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للنفاق ﴿وَتَفَرُّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء، فأرادوا أن يتفرقوا عنه، وتختلف كلمتهم ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ﴾ إعداداً لأجل من ﴿حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهو الراهب، أعدوه له ليصلي فيه، ويظهر على رسول الله ﷺ. وقيل: كل مسجد بني مباهاة، أو رياء، أو سمعة، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلق بـ «حارب»، أي: من قبل بناء هذا المسجد، يعني: يوم الخندق ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ﴾ كاذبين ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى، وهي الصلاة، وذكر الله، والتوسعة على المصلين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم.

١٠٨ - ﴿لَا نَقُصُّ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ اللام للابتداء، و﴿أُسِّسَ﴾ نعت له. وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ، وصلى

= فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبي ﷺ بقاء أول ما هاجر، وبنى مسجد الضرار، وكان في غزوة تبوك، فبينهما تسع سنين. (حاشية الكشف ٢ / ٣٠٩).

مِنْ أَوَّلَى يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَتَسَسَ بُيُوتُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
أَتَسَسَ بُيُوتُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ

فيه أيام مقامه بقاء^(١)، أو: مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ﴿مِنْ أَوَّلَى يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده. قيل: القياس فيه «مذ» لأنه لا ابتداء الغاية في الزمان، و«من» لا ابتداء الغاية في المكان. والجواب: أن «من» عام في الزمان والمكان ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ مصلياً ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ قيل: لما نزلت مشى رسول الله ﷺ، ومعه المهاجرون، حتى وقفوا على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس، فقال: «أؤمنون أنتم؟» فسكت القوم. ثم أعادها فقال عمر: يا رسول الله! إنهم لمؤمنون، وأنا معهم. فقال ﷺ: «أترضون بالقضاء؟» قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء؟» قالوا: نعم. قال: «أتشكرون في الرخاء؟» قالوا: نعم. قال ﷺ: «أؤمنون أنتم ورب الكعبة». فجلس، ثم قال: «يا معشر الأنصار! إن الله عز وجل قد أثنى عليكم، فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟» قالوا: يا رسول الله! نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء. فتلا النبي ﷺ: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾^(٢). قيل: هو عام في التطهر عن النجاسات كلها. وقيل: هو التطهر من الذنوب بالتوبة. ومعنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه، ويحرصون عليه حرص المحب للشيء. ومعنى محبة الله إياهم: أنه يرضى عنهم، ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبة.

١٠٩ - ﴿أَفَمَنْ أَتَسَسَ بُيُوتُهُ﴾ وضع أساس ما بينه ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَ بُيُوتُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ هذا سؤال تقرير، وجوابه مسكوت عنه لوضوحه. والمعنى: ﴿أفمن أسس﴾ ببيان دينه على قاعدة محكمة، وهي: تقوى الله ورضوانه ﴿خير أم من﴾ أسسه على قاعدة هي أضعف

(١) في المطبوع: وهي يوم الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس. وخرج يوم الجمعة.

(٢) قال ابن حجر: لم أجده هكذا، وكأنه ملفق من حديثين. (حاشية الكشاف ٢ / ٣١١).

فَأَنهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي
بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١١﴾

القواعد، وهو الباطل والنفاق؛ الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلة الثبات، والاستمسك. وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى. والشفا: الحرف، والشفير. وجرف الوادي: جانبه الذي يتحقر أصله بالماء، وتجرفه السيول، فيبقى واهياً. والهار: الهائر، وهو المتصدع؛ الذي أشفى على التهديم، والسقوط، ووزنه فعل قصر عن فاعل، كخلف من خالف. وألفه ليس بألف فاعل. وإنما هي عينه. وأصله: هور، فقلبت ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها. ولا ترى أبلغ من هذا الكلام، ولا أدل على حقيقة الباطل، وكنه أمره. ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيَانُهُ﴾ ﴿أَمَنْ أُسِّسَ بُيَانُهُ﴾: شامي، ونافع. ﴿جُرْفٍ﴾: شامي، وحمزة، ويحيى. ﴿هار﴾ بالامالة: أبو عمرو، وحمزة في رواية، ويحيى ﴿فَأَنهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فطاح به الباطل في نار جهنم. ولما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل، رشح المجاز، فجاء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليتصور أن المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف هار من أودية جهنم، فانهار به ذلك الجرف، فهوى في قعرها، قال جابر: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حين انهار ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يوقفهم للخير، عقوبة لهم على نفاقهم.

١١٠ - ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم، لما غاظهم من ذلك، وعظم عليهم ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: شامي، وحمزة، وحفص، أي: تنقطع. غيرهم ﴿تَقَطَّعَ﴾ أي: إلا أن تقطع قلوبهم قطعاً، وتفرق أجزاء، فحينئذ يسلمون عنه. وأما ما دامت سالمة مجتمعة، فالريبة باقية فيها، متمكنة. ثم يجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة عنها، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها، وما هو كائن منه بقتلهم، أو: في القبور، أو: في النار. أو: معناه: إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً، وأسفاً على تفريطهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعزائمهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جزاء جرائمهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ

١١١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ مثل الله إنابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله، بالشراء. ورؤي: تاجرهم فأغلى لهم الثمن. وعن الحسن: أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها. ومز برسول الله ﷺ أعرابي وهو يقرؤها، فقال: بيع والله مربح، لا نقيه، ولا نستقيه. فخرج إلى الغزو، واستشهد^(١) ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بيان محل التسليم ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: تارة يقتلون العدو، وطوراً يقتلهم العدو ﴿فَيُقَاتِلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾: حمزة، وعلي ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ﴾ مصدر، أي: وعدهم بذلك وعداً ﴿حَقًّا﴾ صفته، أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت، قد أثبتته ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾. وهو دليل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال، ووعدوا عليه. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ لأن إخلاف الميعاد قبيح، لا يقدم عليه الكريم منا، فكيف بأكرم الأكرمين؟! ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه، وأبلغ ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فافرحوا غاية الفرح، فإنكم تبيعون فانياً بياق ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قال الصادق: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها.

١١٢ - ﴿التَّائِبُونَ﴾ رفع على المدح، أي: هم التائبون، يعني: المؤمنين المذكورين. أو: هو مبتدأ، خبره: ﴿الْعَبِيدُونَ﴾، أي: الذين عبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة. وما بعده خبر بعد خبر، أي: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال. وعن الحسن: هم الذين تابوا من

(١) قال الحافظ: ذكره الثعلبي هكذا بلا سند، عن البصري مرسلاً، لكن سنده إلى الحسن البصري أول كتابه. (حاشية الكشف ٢ / ٣١٣).

الْحَمْدُوتِ السَّيِّئَاتِ الرَّكْعَتِ السَّجْدَتِ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ مَا كَانَ
لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ
مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

الشرك، وتبرؤوا من النفاق ﴿الْحَمْدُوتِ﴾ على نعمة الإسلام ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ الصائمون، لقوله ﷺ: «سباحة أمتي الصيام»^(١)، أو: طلبة العلم لأنهم يسبحون في الأرض، يطلبونه في مظانه، أو: السائرون في الأرض للاعتبار ﴿الرَّكْعَتِ السَّجْدَتِ﴾ المحافظون على الصلوات ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان، والمعرفة، والطاعة ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشرك، والمعاصي. ودخلت الواو للإشعار بأن السبعة عقد تام، أو: للتضاد بين الأمر، والنهي، كما في قوله: ﴿تَبَيَّنَ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أوامره ونواهيه، أو: معالم الشرع ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المتصفين بهذه الصفات.

١١٣ - هم عليه الصلاة والسلام أن يستغفر لأبي طالب، فنزل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى﴾ أي: ما صح له الاستغفار في حكم الله، وحكمته ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك. ثم ذكر عذر إبراهيم، فقال:

١١٤ - ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أي: وعد أبوه إياه أن يسلم، أو: هو وعد أباه أن يستغفر، وهو قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] دليله قراءة الحسن ﴿وعدها أباه﴾. ومعنى استغفاره: سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم، أو: سؤاله إعطاء الإسلام الذي به يغفر له ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ لَهُ﴾ لإبراهيم ﴿أَنَّهُ﴾ أن أباه ﴿عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ يموت كافراً، وانقطع رجاؤه عنه، ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقطع استغفاره ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

(١) رواه ابن جرير موقوفاً عن عائشة. (الدر المنثور ٤ / ٢٩٧). ورواه مرفوعاً من حديث أبي هريرة بلفظ: «السائحون هم الصائمون». المصدر السابق.

لَاؤُهُ حَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَمَوْلَىٰ مُلْكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحَيْثُ وَيُؤْتِي مَا يَلَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ

لَاؤُهُ ﴿﴾ هو التأوه شفقاً وفرقاً. ومعناه: أنه لفرط ترحمه ورقته كان يتعطف على أبيه الكافر ﴿حَلِيمٌ﴾ هو الصبور على البلاء، الصفوح عن الأذى؛ لأنه كان يستغفر لأبيه، وهو يقول: لأرجنك.

١١٥ - ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ﴾ أي: ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين، وغيره مما نهى عنه، وبين أنه محذور، لا يؤاخذ به عباده؛ الذين هداهم للإسلام، ولا يخذلهم إلا إذا قدموا عليه بعد بيان حظره، وعلمهم بأنه واجب الامتثال. وأما قبل العلم والبيان فلا. وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين. والمراد بما يتقون ما يجب اتقاؤه للنهي، فأما ما يعلم بالعقل فغير موقوف على التوقيف ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١١٦ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَوْلَىٰ مُلْكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحَيْثُ وَيُؤْتِي مَا يَلَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

١١٧ - ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي: تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه، كقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣] ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ فيه بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ في غزوة تبوك. ومعناه: في وقتها. والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق. وكانوا في عسرة من الظَّهْرِ يعتقب العشرة على بعير واحد، ومن الزاد تزودوا التمر المدود، والشعير المسوس، والإهالة الزنخة^(١)، وبلغت بهم الشدة

(١) الإهالة الزنخة: الدهن الممتن.

مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

حتى اقتسم التمرة اثنان، وربما مصّها الجماعة ليشربوا عليها الماء، ومن الماء حتى نحروا الإبل، وعصروا كرشها وشربوه، وفي شدة زمان من حمارة القيظ^(١)، ومن الجذب والقحط ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾^(٢) عن الثبات على الإيمان، أو: عن اتباع الرسول في تلك الغزوة، والخروج معه. وفي ﴿كَادَ﴾ ضمير الشأن، والجملة بعده في موضع نصب، وهو كقولهم: ليس خلق الله مثله أي: ليس الشأن خلق الله مثله. ﴿يَزِيغُ﴾ حمزة، وحفص ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير للتوكيد ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

١١٨ - ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ أي: ﴿و﴾ تاب ﴿على الثلاثة﴾^(٣) وهو عطف على النبي ﴿الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ عن الغزو ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برُحبتها، أي: مع سعتها. وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً، وجزعا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم ﴿وَزَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بعد خمسين يوماً ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ليكونوا من جملة التوابين ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ عن أبي بكر الوراق أنه قال: التوبة النصوح: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة.

١١٩ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم دون

(١) «حمارة القيظ»: شدة حرّه.

(٢) أثبت المصنف في الأصل ﴿تَزِيغُ﴾ وهي قراءة: الكسائي، وابن عامر، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع. معجم القراءات القرآنية (٤٩/٣).

(٣) وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ

المنافقين، أو: مع الذين لم يتخلفوا، أو: مع الذين صدقوا في دين الله نية، وقولاً، وعملاً. والآية تدل على أن الإجماع حجة؛ لأنه أمر بالكون مع الصادقين، فلزم قبول قولهم.

١٢٠ - ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ المراد بهذا النفي: النهي. وخص هؤلاء بالذكر - وإن استوى كل الناس في ذلك - لقرينهم منه، ولا يخفى عليهم خروجه ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا ﴾ ولا أن يضنوا ﴿ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ عما يصيب نفسه، أي: لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد، بل أمروا بأن يصحبوه في البأساء والضراء، ويلقوا أنفسهم بين يديه في كل شديدة ﴿ ذَلِكَ ﴾ النهي عن التخلف ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ عطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ تعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ مجاعة ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ في الجهاد ﴿ وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِنًا ﴾ ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بجوافر خيولهم، وأخفاف رواحلهم وأرجلهم ﴿ يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ يغضبهم، ويضيق صدورهم ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا ﴾ ولا يصيبون منهم إصابة بقتل، أو أسر، أو جرح، أو كسر، أو هزيمة ﴿ إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لكل روعة سبعون ألف حسنة. يقال: نال منه: إذا رزاه، ونقصه. وهو عام في كل ما يسؤوهم. وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام، وقعود، ومشى، وكلام، وغير ذلك، وعلى أن المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب؛ لأن وط ديارهم مما يغنيهم. وقد أسهم النبي ﷺ لابني عامر، وقد قدما بعد تقضي الحرب^(١). والموطىء: إما مصدر كال مورد، وإما مكان، فإن كان مكاناً

(١) قال الحافظ: لم أره هكذا. (حاشية الكشف ٢/٣٢٢).

إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً
وَلَا يَقْطَعُونَ وَإِدْيَاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾
﴿ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ
لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ﴿١٢٣﴾

فمعنى ﴿يَفِيطُ الْكُفَّارَ﴾: يغيظهم وطؤه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
أي: أنهم محسنون، والله لا يبطل ثوابهم.

١٢١ - ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً﴾ في سبيل الله ﴿صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا
كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان - رضي الله عنه - في جيش العسرة ﴿وَلَا
يَقْطَعُونَ وَإِدْيَاً﴾ أي: أرضاً في ذهابهم ومجيئهم. وهو: كل منفرج بين جبال
وأكام يكون منفذاً للسيل وهو في الأصل فاعل، من: ودى: إذا سال. ومنه:
الودي. وقد شاع الاستعمال بمعنى الأرض ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ذلك من
الإنفاق، وقطع الوادي ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ متعلق بكتب، أي: أثبت في
صحائفهم لأجل الجزاء ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجزيهم على كل واحد
جزاء أحسن عمل كان لهم، فيلحق ما دونه به توفيراً لأجرهم.

١٢٢ - ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ اللام لتأكيد النفي، أي:
أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح للإفضاء إلى المفسدة ﴿فَلَوْلَا
نَفَرَ﴾ فحين لم يكن نفير الكافة فهلاً نفر ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أي: من
كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم، يكفونهم النفير ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ليتكفوا
الفقاهة فيه، ويتجشّموا المشاق في تحصيلها ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ وليجعلوا مرمى
همتهم في التفقه إنذار قومهم وإرشادهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ دون الأغراض
الخسيسة من: التصدر، والترؤس، والتشبه بالظلمة في المراكب والملابس
﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ما يجب اجتنابه. وقيل: إن رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعثاً
بعد غزوة تبوك، بعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد، استبق المؤمنين
عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعاً عن التفقه في الدين. فأمرُوا أن ينفر من
كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد، ويبقى سائرهم يتفقهون، حتى لا ينقطعوا عن
التفقه الذي هو الجهاد الأكبر؛ إذ الجهاد بالحِجاج أعظم أثراً من الجهاد

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَبِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ
هَذِهِ ءِيمَنًا قَالُمَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ ءِيمَنًا وَهَرَّيَسْتَبِشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾
أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا
هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾

بالتضال. والضمير في ﴿لَيَتَفَقَّهُوا﴾ للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم. ﴿ولينذروا قومهم﴾ ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم، بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم. وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتحقق.

١٢٣ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَبِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ يقربون منكم ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾. القتال واجب مع جميع الكفرة قريهم وبعيدهم، ولكن الأقرب فالأقرب. أوجب. وقد حارب النبي ﷺ قومه، ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره. وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ﴿وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وعنفاً في المقاتل، قبل القتال ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالنصرة، والغلبة.

١٢٤ - ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ﴿مَا﴾ صلة مؤكدة ﴿فَمِنْهُمْ﴾ فمن المنافقين ﴿مَن يَقُولُ﴾ بعضهم لبعض ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿ءِيمَنًا﴾ إنكاراً، واستهزاء بالمؤمنين. وأيتكم: مرفوع بالابتداء. وقيل:

١٢٥ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك، ونفاق. فهو فساد يحتاج إلى علاج، كالفساد في البدن ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كفرة مضموماً إلى كفرهم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ هو إخبار عن إصرارهم عليه إلى الموت.

١٢٦ - ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني: المنافقين. وبالناء: حمزة، خطاب للمؤمنين ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بالقحط، والمرض، وغيرهما ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لا يعتبرون. أو:

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ
 أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ
 رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
 بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

بالجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿لايتوبون﴾ بما يرون من دولة الإسلام، ﴿وَلَا هُمْ
 يَذْكُرُونَ﴾ بما يقع بهم من الاصطدام^(١).

١٢٧ - ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً
 للوحي، وسخرية به، قائلين: ﴿هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين
 لننصرف، فإننا لانصبر على استماعه، ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح
 بينهم. أو: إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين أشار بعضهم إلى بعض: ﴿هل
 يراكم من أحد﴾ إن قمتم من حضرته ﷺ ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ عن حضرة النبي ﷺ
 مخافة الفضيحة ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن فهم القرآن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم قَوْمٌ
 لَا يَفْقَهُونَ لا يتدبرون حتى يفقهوا.

١٢٨ - ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ محمد ﷺ ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم،
 ومن نسبكم، عربي، قرشي مثلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ شديد عليه شاق
 - لكونه بعضاً منكم - عنتكم، ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم الوقوع في
 العذاب ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ على إيمانكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم
 ﴿رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾. قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ.

١٢٩ - ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك، وناصبوك ﴿فَقُلْ
 حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فاستعين بالله، وفوض إليه أموركم، فهو كافيك معرتهم، وناصركم
 عليهم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فوضت أمري إليه ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ﴾ هو
 أعظم خلق الله، خلق مطافاً لأهل السماء، وقبلة للدعاء ﴿الْعَظِيمِ﴾ بالجر.
 وقرئ بالرفع على نعت الرب جل وعز. عن أبي: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
 رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾... الآية.

(١) في الأصل المخطوط: الاستلام، والمثبت من المطبوع.

فهرس الآيات

(١) سورة الفاتحة

٢٥	تفسير الآية (١)
٢٩	تفسير الآية (٢)
٣٠	تفسير الآيتين (٣ - ٤)
٣١	تفسير الآية (٥)
٣٢	تفسير الآيتين (٦ - ٧)

(٢) سورة البقرة

٣٥	تفسير الآية (١)
٣٨	تفسير الآية (٢)
٤١	تفسير الآية (٣)
٤٢	تفسير الآية (٤)
٤٣	تفسير الآية (٥)
٤٤	تفسير الآية (٦)
٤٥	تفسير الآية (٧)
٤٦	تفسير الآية (٨)
٤٨	تفسير الآية (٩)
٤٩	تفسير الآية (١٠)
٥٠	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
٥١	تفسير الآية (١٣)
٥٢	تفسير الآية (١٤)

٥٣	تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)
٥٤	تفسير الآية (١٧)
٥٦	تفسير الآية (١٨)
٥٧	تفسير الآية (١٩)
٦٠	تفسير الآية (٢٠)
٦١	تفسير الآية (٢١)
٦٢	تفسير الآية (٢٢)
٦٣	تفسير الآية (٢٣)
٦٦	تفسير الآية (٢٤)
٦٧	تفسير الآية (٢٥)
٧١	تفسير الآية (٢٦)
٧٥	تفسير الآية (٢٧)
٧٦	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)
٧٧	تفسير الآية (٣٠)
٧٨	تفسير الآية (٣١)
٧٩	تفسير الآيتين (٣٢ - ٣٣)
٨٠	تفسير الآية (٣٤)
٨١	تفسير الآيتين (٣٥ - ٣٦)
٨٢	تفسير الآية (٣٧)
٨٣	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٠)
٨٤	تفسير الآيتين (٤١ - ٤٢)
٨٥	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
٨٦	تفسير الآيتين (٤٦ - ٤٧)
٨٧	تفسير الآيتين (٤٨ - ٤٩)
٨٨	تفسير الآيتين (٥٠ - ٥١)
٨٩	تفسير الآيات (٥٢ - ٥٤)
٩٠	تفسير الآيتين (٥٥ - ٥٦)

٩١	تفسير الآيتين (٥٧ - ٥٨)
٩٢	تفسير الآيتين (٥٩ - ٦٠)
٩٣	تفسير الآية (٦١)
٩٤	تفسير الآية (٦٢)
٩٥	تفسير الآيتين (٦٣ - ٦٤)
٩٦	تفسير الآيات (٦٥ - ٦٧)
٩٧	تفسير الآية (٦٨)
٩٨	تفسير الآيتين (٦٩ - ٧٠)
٩٩	تفسير الآيتين (٧١ - ٧٢)
١٠٠	تفسير الآية (٧٣)
١٠١	تفسير الآية (٧٤)
١٠٢	تفسير الآيتين (٧٥ - ٧٦)
١٠٣	تفسير الآيتين (٧٧ - ٧٨)
١٠٤	تفسير الآيات (٧٩ - ٨١)
١٠٥	تفسير الآيتين (٨٢ - ٨٣)
١٠٦	تفسير الآيتين (٨٤ - ٨٥)
١٠٧	تفسير الآيتين (٨٦ - ٨٧)
١٠٨	تفسير الآية (٨٨)
١٠٩	تفسير الآيتين (٨٩ - ٩٠)
١١٠	تفسير الآيات (٩١ - ٩٣)
١١١	تفسير الآيتين (٩٤ - ٩٥)
١١٢	تفسير الآية (٩٦)
١١٣	تفسير الآية (٩٧)
١١٤	تفسير الآيات (٩٨ - ١٠٠)
١١٥	تفسير الآيتين (١٠١ - ١٠٢)
١١٦	تفسير الآية (١٠٢)
١١٧	تفسير الآيتين (١٠٣ - ١٠٤)

١١٨	تفسير الآيتين (١٠٥ - ١٠٦)
١١٩	تفسير الآيتين (١٠٧ - ١٠٨)
١٢٠	تفسير الآيات (١٠٩ - ١١١)
١٢١	تفسير الآيتين (١١٢ - ١١٣)
١٢٢	تفسير الآية (١١٤)
١٢٣	تفسير الآيتين (١١٥ - ١١٦)
١٢٤	تفسير الآيتين (١١٧ - ١١٨)
١٢٥	تفسير الآيتين (١١٩ - ١٢٠)
١٢٦	تفسير الآيات (١٢١ - ١٢٤)
١٢٨	تفسير الآية (١٢٥)
١٢٩	تفسير الآيتين (١٢٦ - ١٢٧)
١٣٠	تفسير الآيتين (١٢٨ - ١٢٩)
١٣١	تفسير الآيات (١٣٠ - ١٣٢)
١٣٢	تفسير الآية (١٣٣)
١٣٣	تفسير الآيات (١٣٤ - ١٣٦)
١٣٤	تفسير الآيتين (١٣٧ - ١٣٨)
١٣٥	تفسير الآيتين (١٣٩ - ١٤٠)
١٣٦	تفسير الآيتين (١٤١ - ١٤٢)
١٣٧	تفسير الآية (١٤٣)
١٣٩	تفسير الآية (١٤٤)
١٤٠	تفسير الآية (١٤٥)
١٤١	تفسير الآيات (١٤٦ - ١٤٨)
١٤٢	تفسير الآيتين (١٤٩ - ١٥٠)
١٤٣	تفسير الآيات (١٥١ - ١٥٤)
١٤٤	تفسير الآيتين (١٥٥ - ١٥٦)
١٤٥	تفسير الآيتين (١٥٧ - ١٥٨)
١٤٦	تفسير الآيات (١٥٩ - ١٦٢)

١٤٧	تفسير الآيتين (١٦٣ - ١٦٤)
١٤٨	تفسير الآيتين (١٦٥ - ١٦٦)
١٤٩	تفسير الآيتين (١٦٧ - ١٦٨)
١٥٠	تفسير الآيات (١٦٩ - ١٧١)
١٥١	تفسير الآيتين (١٧٢ - ١٧٣)
١٥٢	تفسير الآيتين (١٧٤ - ١٧٥)
١٥٣	تفسير الآيتين (١٧٦ - ١٧٧)
١٥٤	تفسير الآية (١٧٨)
١٥٦	تفسير الآية (١٧٩)
١٥٧	تفسير الآيات (١٨٠ - ١٨٢)
١٥٨	تفسير الآيتين (١٨٣ - ١٨٤)
١٥٩	تفسير الآية (١٨٥)
١٦٠	تفسير الآية (١٨٦)
١٦١	تفسير الآية (١٨٧)
١٦٣	تفسير الآيتين (١٨٨ - ١٨٩)
١٦٥	تفسير الآيتين (١٩٠ - ١٩١)
١٦٦	تفسير الآيات (١٩٢ - ١٩٤)
١٦٧	تفسير الآيتين (١٩٥ - ١٩٦)
١٦٩	تفسير الآية (١٩٧)
١٧٠	تفسير الآية (١٩٨)
١٧١	تفسير الآيتين (١٩٩ - ٢٠٠)
١٧٢	تفسير الآية (٢٠١)
١٧٣	تفسير الآيتين (٢٠٢ - ٢٠٣)
١٧٤	تفسير الآيات (٢٠٤ - ٢٠٦)
١٧٥	تفسير الآيات (٢٠٧ - ٢٠٩)
١٧٦	تفسير الآيات (٢١٠ - ٢١٢)
١٧٧	تفسير الآية (٢١٣)

١٧٨	تفسير الآية (٢١٤)
١٧٩	تفسير الآيتين (٢١٥ - ٢١٦)
١٨٠	تفسير الآية (٢١٧)
١٨١	تفسير الآيتين (٢١٨ - ٢١٩)
١٨٣	تفسير الآية (٢٢٠)
١٨٤	تفسير الآيتين (٢٢١ - ٢٢٢)
١٨٥	تفسير الآية (٢٢٣)
١٨٦	تفسير الآية (٢٢٤)
١٨٧	تفسير الآية (٢٢٥)
١٨٨	تفسير الآيات (٢٢٦ - ٢٢٨)
١٩٠	تفسير الآية (٢٢٩)
١٩١	تفسير الآية (٢٣٠)
١٩٢	تفسير الآية (٢٣١)
١٩٣	تفسير الآية (٢٣٢)
١٩٤	تفسير الآية (٢٣٣)
١٩٦	تفسير الآية (٢٣٤)
١٩٧	تفسير الآية (٢٣٥)
١٩٨	تفسير الآية (٢٣٦)
١٩٩	تفسير الآيتين (٢٣٧ - ٢٣٨)
٢٠٠	تفسير الآيتين (٢٣٩ - ٢٤٠)
٢٠١	تفسير الآيات (٢٤١ - ٢٤٣)
٢٠٢	تفسير الآيتين (٢٤٤ - ٢٤٥)
٢٠٣	تفسير الآية (٢٤٦)
٢٠٤	تفسير الآية (٢٤٧)
٢٠٥	تفسير الآيتين (٢٤٨ - ٢٤٩)
٢٠٦	تفسير الآيتين (٢٥٠ - ٢٥١)
٢٠٧	تفسير الآية (٢٥٢)

٢٠٨	تفسير الآية (٢٥٣)
٢٠٩	تفسير الآيتين (٢٥٤ - ٢٥٥)
٢١١	تفسير الآية (٢٥٦)
٢١٢	تفسير الآيتين (٢٥٧ - ٢٥٨)
٢١٣	تفسير الآية (٢٥٩)
٢١٥	تفسير الآية (٢٦٠)
٢١٦	تفسير الآية (٢٦١)
٢١٧	تفسير الآيتين (٢٦٢ - ٢٦٣)
٢١٨	تفسير الآيتين (٢٦٤ - ٢٦٥)
٢١٩	تفسير الآية (٢٦٦)
٢٢٠	تفسير الآيات (٢٦٧ - ٢٦٩)
٢٢١	تفسير الآيتين (٢٧٠ - ٢٧١)
٢٢٢	تفسير الآيتين (٢٧٢ - ٢٧٣)
٢٢٣	تفسير الآية (٢٧٤)
٢٢٥	تفسير الآيات (٢٧٦ - ٢٧٨)
٢٢٦	تفسير الآيات (٢٧٩ - ٢٨١)
٢٢٧	تفسير الآية (٢٨٢)
٢٣٠	تفسير الآية (٢٨٣)
٢٣١	تفسير الآية (٢٨٤)
٢٣٢	تفسير الآية (٢٨٥)
٢٣٣	تفسير الآية (٢٨٦)

(٣) سورة آل عمران

٢٣٥	تفسير الآيات (١ - ٣)
٢٣٦	تفسير الآيات (٤ - ٦)
٢٣٧	تفسير الآية (٧)
٢٣٨	تفسير الآيات (٨ - ١٠)
٢٣٩	تفسير الآيات (١١ - ١٣)

٢٤٠	تفسير الآية (١٤)
٢٤١	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)
٢٤٢	تفسير الآيات (١٨ - ١٩)
٢٤٣	تفسير الآية (٢٠)
٢٤٤	تفسير الآية (٢١)
٢٤٥	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٥)
٢٤٦	تفسير الآية (٢٦)
٢٤٧	تفسير الآيتين (٢٧ - ٢٨)
٢٤٨	تفسير الآيتين (٢٩ - ٣٠)
٢٤٩	تفسير الآيات (٣١ - ٣٣)
٢٥٠	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٦)
٢٥١	تفسير الآية (٣٧)
٢٥٢	تفسير الآية (٣٨)
٢٥٣	تفسير الآية (٣٩)
٢٥٤	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٢)
٢٥٥	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
٢٥٦	تفسير الآيات (٤٦ - ٤٩)
٢٥٧	تفسير الآيتين (٥٠ - ٥١)
٢٥٨	تفسير الآيات (٥٢ - ٥٤)
٢٥٩	تفسير الآيات (٥٥ - ٥٧)
٢٦٠	تفسير الآيات (٥٨ - ٦١)
٢٦١	تفسير الآية (٦١)
٢٦٢	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٤)
٢٦٣	تفسير الآيات (٦٥ - ٦٧)
٢٦٤	تفسير الآيات (٦٨ - ٧٢)
٢٦٥	تفسير الآية (٧٣)
٢٦٦	تفسير الآيات (٧٤ - ٧٥)

٢٦٧	تفسير الآيات (٧٦ - ٧٨)
٢٦٨	تفسير الآية (٧٩)
٢٦٩	تفسير الآيتين (٨٠ - ٨١)
٢٧٠	تفسير الآيتين (٨٢ - ٨٣)
٢٧١	تفسير الآيات (٨٤ - ٨٦)
٢٧٢	تفسير الآيات (٨٧ - ٩٠)
٢٧٣	تفسير الآيتين (٩١ - ٩٢)
٢٧٤	تفسير الآيتين (٩٣ - ٩٤)
٢٧٥	تفسير الآيات (٩٥ - ٩٧)
٢٧٨	تفسير الآيات (٩٨ - ١٠٠)
٢٧٩	تفسير الآيات (١٠١ - ١٠٣)
٢٨٠	تفسير الآية (١٠٤)
٢٨١	تفسير الآيات (١٠٥ - ١٠٨)
٢٨٢	تفسير الآيات (١٠٩ - ١١١)
٢٨٣	تفسير الآية (١١٢)
٢٨٤	تفسير الآيات (١١٣ - ١١٥)
٢٨٥	تفسير الآيات (١١٦ - ١١٨)
٢٨٦	تفسير الآية (١١٩)
٢٨٧	تفسير الآيتين (١٢٠ - ١٢١)
٢٨٨	تفسير الآيتين (١٢٢ - ١٢٣)
٢٨٩	تفسير الآيتين (١٢٤ - ١٢٥)
٢٩٠	تفسير الآيات (١٢٦ - ١٢٨)
٢٩١	تفسير الآيات (١٢٩ - ١٣٢)
٢٩٢	تفسير الآيتين (١٣٣ - ١٣٤)
٢٩٣	تفسير الآية (١٣٥)
٢٩٤	تفسير الآيتين (١٣٦ - ١٣٧)
٢٩٥	تفسير الآيات (١٣٨ - ١٤٠)

٢٩٦	تفسير الآيتين (١٤١ - ١٤٢)
٢٩٧	تفسير الآيتين (١٤٣ - ١٤٤)
٢٩٨	تفسير الآيتين (١٤٥ - ١٤٦)
٢٩٩	تفسير الآيات (١٤٧ - ١٥٠)
٣٠٠	تفسير الآيتين (١٥١ - ١٥٢)
٣٠١	تفسير الآية (١٥٣)
٣٠٢	تفسير الآية (١٥٤)
٣٠٤	تفسير الآيتين (١٥٥ - ١٥٦)
٣٠٥	تفسير الآيات (١٥٧ - ١٥٩)
٣٠٦	تفسير الآية (١٦٠)
٣٠٧	تفسير الآيتين (١٦١ - ١٦٢)
٣٠٨	تفسير الآيات (١٦٣ - ١٦٥)
٣٠٩	تفسير الآيتين (١٦٦ - ١٦٧)
٣١٠	تفسير الآيات (١٦٨ - ١٧٠)
٣١١	تفسير الآيتين (١٧١ - ١٧٢)
٣١٢	تفسير الآية (١٧٣)
٣١٣	تفسير الآيات (١٧٤ - ١٧٦)
٣١٤	تفسير الآيات (١٧٧ - ١٧٩)
٣١٥	تفسير الآية (١٨٠)
٣١٦	تفسير الآيتين (١٨١ - ١٨٢)
٣١٧	تفسير الآيتين (١٨٣ - ١٨٤)
٣١٨	تفسير الآيتين (١٨٥ - ١٨٦)
٣١٩	تفسير الآيتين (١٨٧ - ١٨٨)
٣٢٠	تفسير الآيتين (١٨٩ - ١٩٠)
٣٢١	تفسير الآية (١٩١)
٣٢٢	تفسير الآيات (١٩٢ - ١٩٤)
٣٢٣	تفسير الآيات (١٩٥ - ١٩٦)

٣٢٤	تفسير الآيات (١٩٧ - ١٩٩)
٣٢٥	تفسير الآية (٢٠٠)
	(٤) سورة النساء
٣٢٦	تفسير الآية (١)
٣٢٧	تفسير الآية (٢)
٣٢٨	تفسير الآية (٣)
٣٢٩	تفسير الآية (٤)
٣٣٠	تفسير الآية (٥)
٣٣١	تفسير الآية (٦)
٣٣٢	تفسير الآية (٧)
٣٣٣	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
٣٣٤	تفسير الآيتين (١٠ - ١١)
٣٣٧	تفسير الآية (١٢)
٣٣٨	تفسير الآية (١٣)
٣٤٠	تفسير الآيتين (١٤ - ١٥)
٣٤١	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٣٤٢	تفسير الآية (١٨)
٣٤٣	تفسير الآية (١٩)
٣٤٤	تفسير الآيتين (٢٠ - ٢١)
٣٤٥	تفسير الآيتين (٢٢ - ٢٣)
٣٤٧	تفسير الآية (٢٤)
٣٤٩	تفسير الآية (٢٥)
٣٥٠	تفسير الآية (٢٦)
٣٥١	تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)
٣٥٢	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٣٥٣	تفسير الآية (٣٢)
٣٥٤	تفسير الآيتين (٣٣ - ٣٤)

٣٥٦	تفسير الآيتين (٣٥ - ٣٦)
٣٥٧	تفسير الآية (٣٧)
٣٥٨	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٠)
٣٥٩	تفسير الآيات (٤١ - ٤٣)
٣٦١	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٦)
٣٦٣	تفسير الآية (٤٧)
٣٦٤	تفسير الآيتين (٤٨ - ٤٩)
٣٦٥	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٤)
٣٦٦	تفسير الآيات (٥٥ - ٥٧)
٣٦٧	تفسير الآيتين (٥٨ - ٥٩)
٣٦٨	تفسير الآية (٦٠)
٣٦٩	تفسير الآيات (٦١ - ٦٣)
٣٧٠	تفسير الآيتين (٦٤ - ٦٥)
٣٧١	تفسير الآيات (٦٦ - ٦٩)
٣٧٢	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٢)
٣٧٣	تفسير الآيتين (٧٣ - ٧٤)
٣٧٤	تفسير الآية (٧٥)
٣٧٥	تفسير الآيتين (٧٦ - ٧٧)
٣٧٦	تفسير الآيتين (٧٨ - ٧٩)
٣٧٧	تفسير الآيتين (٨٠ - ٨١)
٣٧٨	تفسير الآيتين (٨٢ - ٨٣)
٣٧٩	تفسير الآية (٨٤)
٣٨٠	تفسير الآيتين (٨٥ - ٨٦)
٣٨١	تفسير الآيتين (٨٧ - ٨٨)
٣٨٢	تفسير الآيتين (٨٩ - ٩٠)
٣٨٣	تفسير الآيتين (٩١ - ٩٢)
٣٨٥	تفسير الآيتين (٩٣ - ٩٤)

٣٨٧	تفسير الآيتين (٩٥ - ٩٦)
٣٨٨	تفسير الآيتين (٩٧ - ٩٨)
٣٨٩	تفسير الآيتين (٩٩ - ١٠٠)
٣٩٠	تفسير الآية (١٠١)
٣٩١	تفسير الآية (١٠٢)
٣٩٢	تفسير الآيات (١٠٣ - ١٠٥)
٣٩٣	تفسير الآيتين (١٠٦ - ١٠٧)
٣٩٤	تفسير الآيات (١٠٨ - ١١١)
٣٩٥	تفسير الآيات (١١٢ - ١١٤)
٣٩٦	تفسير الآيات (١١٥ - ١١٧)
٣٩٧	تفسير الآيات (١١٨ - ١٢٠)
٣٩٨	تفسير الآيات (١٢١ - ١٢٤)
٣٩٩	تفسير الآية (١٢٥)
٤٠٠	تفسير الآيتين (١٢٦ - ١٢٧)
٤٠١	تفسير الآية (١٢٨)
٤٠٢	تفسير الآيتين (١٢٩ - ١٣٠)
٤٠٣	تفسير الآيات (١٣١ - ١٣٤)
٤٠٤	تفسير الآيتين (١٣٥ - ١٣٦)
٤٠٥	تفسير الآيات (١٣٧ - ١٣٩)
٤٠٦	تفسير الآيتين (١٤٠ - ١٤١)
٤٠٧	تفسير الآية (١٤٢)
٤٠٨	تفسير الآيات (١٤٣ - ١٤٥)
٤٠٩	تفسير الآيات (١٤٦ - ١٤٨)
٤١٠	تفسير الآيات (١٤٩ - ١٥٢)
٤١١	تفسير الآية (١٥٣)
٤١٢	تفسير الآيتين (١٥٤ - ١٥٥)
٤١٣	تفسير الآيتين (١٥٦ - ١٥٧)

٤١٤	تفسير الآيتين (١٥٨ - ١٥٩)
٤١٥	تفسير الآيات (١٦٠ - ١٦٢)
٤١٦	تفسير الآيات (١٦٣ - ١٦٥)
٤١٧	تفسير الآيات (١٦٦ - ١٦٩)
٤١٨	تفسير الآيتين (١٧٠ - ١٧١)
٤١٩	تفسير الآية (١٧٢)
٤٢١	تفسير الآيات (١٧٣ - ١٧٦)

(٥) سورة المائدة

٤٢٣	تفسير الآية (١)
٤٢٤	تفسير الآية (٢)
٤٢٥	تفسير الآية (٣)
٤٢٧	تفسير الآية (٤)
٤٢٨	تفسير الآية (٥)
٤٢٩	تفسير الآية (٦)
٤٣١	تفسير الآية (٧)
٤٣٢	تفسير الآيات (٨ - ١١)
٤٣٣	تفسير الآية (١٢)
٤٣٤	تفسير الآية (١٣)
٤٣٥	تفسير الآيتين (١٤ - ١٥)
٤٣٦	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٤٣٧	تفسير الآية (١٨)
٤٣٨	تفسير الآيات (١٩ - ٢١)
٤٣٩	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٤)
٤٤٠	تفسير الآيتين (٢٥ - ٢٦)
٤٤١	تفسير الآية (٢٧)
٤٤٢	تفسير الآيات (٢٨ - ٣١)
٤٤٣	تفسير الآية (٣٢)

٤٤٤	تفسير الآيتين (٣٣ - ٣٤)
٤٤٥	تفسير الآيات (٣٥ - ٣٨)
٤٤٦	تفسير الآيات (٣٩ - ٤١)
٤٤٨	تفسير الآيتين (٤٢ - ٤٣)
٤٤٩	تفسير الآيتين (٤٤ - ٤٥)
٤٥٠	تفسير الآية (٤٦)
٤٥١	تفسير الآيتين (٤٧ - ٤٨)
٤٥٢	تفسير الآية (٤٩)
٤٥٣	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)
٤٥٤	تفسير الآيتين (٥٣ - ٥٤)
٤٥٦	تفسير الآيات (٥٥ - ٥٧)
٤٥٧	تفسير الآيات (٥٨ - ٦٠)
٤٥٨	تفسير الآيتين (٦١ - ٦٢)
٤٥٩	تفسير الآيتين (٦٣ - ٦٤)
٤٦٠	تفسير الآيتين (٦٥ - ٦٦)
٤٦١	تفسير الآية (٦٧)
٤٦٢	تفسير الآيتين (٦٨ - ٦٩)
٤٦٣	تفسير الآيتين (٧٠ - ٧١)
٤٦٤	تفسير الآيتين (٧٢ - ٧٣)
٤٦٥	تفسير الآيتين (٧٤ - ٧٥)
٤٦٦	تفسير الآيتين (٧٦ - ٧٧)
٤٦٧	تفسير الآيات (٧٨ - ٨٠)
٤٦٨	تفسير الآيتين (٨١ - ٨٢)
٤٦٩	تفسير الآيتين (٨٣ - ٨٤)
٤٧٠	تفسير الآيات (٨٥ - ٨٧)
٤٧١	تفسير الآيتين (٨٨ - ٨٩)
٤٧٣	تفسير الآيتين (٩٠ - ٩١)

٤٧٤	تفسير الآيات (٩٢ - ٩٤)
٤٧٥	تفسير الآية (٩٥)
٤٧٧	تفسير الآية (٩٦)
٤٧٨	تفسير الآيات (٩٧ - ١٠٠)
٤٧٩	تفسير الآيات (١٠١ - ١٠٣)
٤٨٠	تفسير الآيتين (١٠٤ - ١٠٥)
٤٨١	تفسير الآية (١٠٦)
٤٨٢	تفسير الآية (١٠٧)
٤٨٣	تفسير الآيتين (١٠٨ - ١٠٩)
٤٨٤	تفسير الآية (١١٠)
٤٨٥	تفسير الآيات (١١١ - ١١٤)
٤٨٦	تفسير الآيتين (١١٥ - ١١٦)
٤٨٧	تفسير الآيات (١١٧ - ١١٩)
٤٨٨	تفسير الآية (١٢٠)

(٦) سورة الأنعام

٤٨٩	تفسير الآية (١)
٤٩٠	تفسير الآيات (٢ - ٤)
٤٩١	تفسير الآيات (٥ - ٧)
٤٩٢	تفسير الآيات (٨ - ١١)
٤٩٣	تفسير الآيتين (١٢ - ١٣)
٤٩٤	تفسير الآيات (١٤ - ١٧)
٤٩٥	تفسير الآيتين (١٨ - ١٩)
٤٩٦	تفسير الآيات (٢٠ - ٢٣)
٤٩٧	تفسير الآيتين (٢٤ - ٢٥)
٤٩٨	تفسير الآيات (٢٦ - ٢٨)
٤٩٩	تفسير الآيات (٢٩ - ٣١)
٥٠٠	تفسير الآيتين (٣٢ - ٣٣)

٥٠١	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٤)
٥٠٢	تفسير الآيات (٣٩ - ٣٧)
٥٠٣	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٠)
٥٠٤	تفسير الآيات (٤٦ - ٤٤)
٥٠٥	تفسير الآيات (٥٠ - ٤٧)
٥٠٦	تفسير الآيتين (٥٢ - ٥١)
٥٠٧	تفسير الآيتين (٥٤ - ٥٣)
٥٠٨	تفسير الآيات (٥٧ - ٥٥)
٥٠٩	تفسير الآيتين (٥٩ - ٥٨)
٥١٠	تفسير الآيتين (٦١ - ٦٠)
٥١١	تفسير الآيات (٦٥ - ٦٢)
٥١٢	تفسير الآيات (٦٨ - ٦٦)
٥١٣	تفسير الآيتين (٧٠ - ٦٩)
٥١٤	تفسير الآية (٧١)
٥١٥	تفسير الآيات (٧٤ - ٧٢)
٥١٦	تفسير الآيات (٧٧ - ٧٥)
٥١٧	تفسير الآيات (٨٠ - ٧٨)
٥١٨	تفسير الآيات (٨٤ - ٨١)
٥١٩	تفسير الآيات (٨٩ - ٨٥)
٥٢٠	تفسير الآيتين (٩١ - ٩٠)
٥٢١	تفسير الآيتين (٩٣ - ٩٢)
٥٢٢	تفسير الآية (٩٤)
٥٢٣	تفسير الآيتين (٩٦ - ٩٥)
٥٢٤	تفسير الآيتين (٩٨ - ٩٧)
٥٢٥	تفسير الآية (٩٩)
٥٢٦	تفسير الآيات (١٠٢ - ١٠٠)
٥٢٧	تفسير الآية (١٠٣)

٥٢٨	تفسير الآيات (١٠٤ - ١٠٦)
٥٢٩	تفسير الآيات (١٠٧ - ١٠٩)
٥٣٠	تفسير الآيات (١١٠ - ١١٢)
٥٣١	تفسير الآيتين (١١٣ - ١١٤)
٥٣٢	تفسير الآيات (١١٥ - ١١٨)
٥٣٣	تفسير الآيات (١١٩ - ١٢١)
٥٣٤	تفسير الآيتين (١٢٢ - ١٢٣)
٥٣٥	تفسير الآيتين (١٢٤ - ١٢٥)
٥٣٦	تفسير الآيات (١٢٦ - ١٢٨)
٥٣٧	تفسير الآيتين (١٢٩ - ١٣٠)
٥٣٨	تفسير الآيات (١٣١ - ١٣٣)
٥٣٩	تفسير الآيتين (١٣٤ - ١٣٥)
٥٤٠	تفسير الآيتين (١٣٦ - ١٣٧)
٥٤١	تفسير الآيتين (١٣٨ - ١٣٩)
٥٤٢	تفسير الآيتين (١٤٠ - ١٤١)
٥٤٣	تفسير الآيتين (١٤٢ - ١٤٣)
٥٤٤	تفسير الآيتين (١٤٤ - ١٤٥)
٥٤٥	تفسير الآيتين (١٤٦ - ١٤٧)
٥٤٦	تفسير الآيات (١٤٨ - ١٥٠)
٥٤٧	تفسير الآية (١٥١)
٥٤٨	تفسير الآيتين (١٥٢ - ١٥٣)
٥٤٩	تفسير الآيتين (١٥٤ - ١٥٥)
٥٥٠	تفسير الآيات (١٥٦ - ١٥٨)
٥٥١	تفسير الآيتين (١٥٩ - ١٦٠)
٥٥٢	تفسير الآيات (١٦١ - ١٦٤)
٥٥٣	تفسير الآية (١٦٥)

(٧) سورة الأعراف

٥٥٤	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥٥٥	تفسير الآيات (٣ - ٦)
٥٥٦	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
٥٥٧	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
٥٥٨	تفسير الآيات (١٣ - ١٧)
٥٥٩	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٥٦٠	تفسير الآيتين (٢١ - ٢٢)
٥٦١	تفسير الآيتين (٢٣ - ٢٤)
٥٦٢	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٧)
٥٦٣	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)
٥٦٤	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٥٦٥	تفسير الآيتين (٣٢ - ٣٣)
٥٦٦	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٧)
٥٦٧	تفسير الآيتين (٣٨ - ٣٩)
٥٦٨	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٣)
٥٦٩	تفسير الآية (٤٤)
٥٧٠	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٧)
٥٧١	تفسير الآيات (٤٨ - ٥٠)
٥٧٢	تفسير الآيات (٥١ - ٥٤)
٥٧٣	تفسير الآية (٥٥)
٥٧٤	تفسير الآيتين (٥٦ - ٥٧)
٥٧٥	تفسير الآيتين (٥٨ - ٥٩)
٥٧٦	تفسير الآيات (٦٠ - ٦٢)
٥٧٧	تفسير الآيات (٦٣ - ٦٦)
٥٧٨	تفسير الآيات (٦٧ - ٦٩)
٥٧٩	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٢)

٥٨٠	تفسير الآية (٧٣)
٥٨١	تفسير الآيتين (٧٤ - ٧٥)
٥٨٢	تفسير الآيات (٧٦ - ٧٩)
٥٨٣	تفسير الآيات (٨٠ - ٨٢)
٥٨٤	تفسير الآيات (٨٣ - ٨٥)
٥٨٥	تفسير الآيتين (٨٦ - ٨٧)
٥٨٦	تفسير الآيتين (٨٨ - ٨٩)
٥٨٧	تفسير الآيات (٩٠ - ٩٤)
٥٨٨	تفسير الآيات (٩٥ - ٩٧)
٥٨٩	تفسير الآيات (٩٨ - ١٠٠)
٥٩٠	تفسير الآيات (١٠١ - ١٠٣)
٥٩١	تفسير الآيات (١٠٤ - ١٠٦)
٥٩٢	تفسير الآيات (١٠٧ - ١١٠)
٥٩٣	تفسير الآيات (١١١ - ١١٦)
٥٩٤	تفسير الآيات (١١٧ - ١٢٣)
٥٩٥	تفسير الآيات (١٢٤ - ١٢٧)
٥٩٦	تفسير الآيتين (١٢٨ - ١٢٩)
٥٩٧	تفسير الآيات (١٣٠ - ١٣٢)
٥٩٨	تفسير الآيتين (١٣٣ - ١٣٤)
٥٩٩	تفسير الآيات (١٣٥ - ١٣٧)
٦٠٠	تفسير الآيات (١٣٨ - ١٤٠)
٦٠١	تفسير الآيات (١٤١ - ١٤٣)
٦٠٣	تفسير الآية (١٤٤)
٦٠٤	تفسير الآيتين (١٤٥ - ١٤٦)
٦٠٥	تفسير الآيتين (١٤٧ - ١٤٨)
٦٠٦	تفسير الآيتين (١٤٩ - ١٥٠)
٦٠٧	تفسير الآيتين (١٥١ - ١٥٢)

٦٠٨	تفسير الآيات (١٥٣ - ١٥٥)
٦٠٩	تفسير الآيتين (١٥٦ - ١٥٧)
٦١٠	تفسير الآية (١٥٨)
٦١١	تفسير الآيتين (١٥٩ - ١٦٠)
٦١٢	تفسير الآيتين (١٦١ - ١٦٢)
٦١٣	تفسير الآيتين (١٦٣ - ١٦٤)
٦١٤	تفسير الآيات (١٦٥ - ١٦٨)
٦١٥	تفسير الآية (١٦٩)
٦١٦	تفسير الآيات (١٧٠ - ١٧٢)
٦١٧	تفسير الآيات (١٧٣ - ١٧٥)
٦١٨	تفسير الآية (١٧٦)
٦١٩	تفسير الآيات (١٧٧ - ١٧٩)
٦٢٠	تفسير الآيتين (١٨٠ - ١٨١)
٦٢١	تفسير الآيات (١٨٢ - ١٨٥)
٦٢٢	تفسير الآيتين (١٨٦ - ١٨٧)
٦٢٣	تفسير الآيتين (١٨٨ - ١٨٩)
٦٢٤	تفسير الآية (١٩٠)
٦٢٥	تفسير الآيات (١٩١ - ١٩٥)
٦٢٦	تفسير الآيات (١٩٦ - ١٩٩)
٦٢٧	تفسير الآيات (٢٠٠ - ٢٠٢)
٦٢٨	تفسير الآيات (٢٠٣ - ٢٠٦)

(٨) سورة الأنفال

٦٢٩	تفسير الآية (١)
٦٣٠	تفسير الآيات (٢ - ٤)
٦٣١	تفسير الآية (٥)
٦٣٢	تفسير الآيتين (٦ - ٧)
٦٣٣	تفسير الآيتين (٨ - ٩)

٦٣٤	تفسير الآيتين (١٠ - ١١)
٦٣٥	تفسير الآيات (١٢ - ١٤)
٦٣٦	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)
٦٣٧	تفسير الآيتين (١٨ - ١٩)
٦٣٨	تفسير الآيات (٢٠ - ٢٢)
٦٣٩	تفسير الآيات (٢٣ - ٢٥)
٦٤٠	تفسير الآيات (٢٦ - ٢٩)
٦٤١	تفسير الآية (٣٠)
٦٤٢	تفسير الآيتين (٣١ - ٣٢)
٦٤٣	تفسير الآيات (٣٣ - ٣٥)
٦٤٤	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٨)
٦٤٥	تفسير الآيات (٣٩ - ٤١)
٦٤٦	تفسير الآية (٤٢)
٦٤٧	تفسير الآية (٤٣)
٦٤٨	تفسير الآيتين (٤٤ - ٤٥)
٦٤٩	تفسير الآيتين (٤٦ - ٤٧)
٦٥٠	تفسير الآيتين (٤٨ - ٤٩)
٦٥١	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)
٦٥٢	تفسير الآيات (٥٣ - ٥٦)
٦٥٣	تفسير الآيات (٥٧ - ٦٠)
٦٥٤	تفسير الآيتين (٦١ - ٦٢)
٦٥٥	تفسير الآيات (٦٣ - ٦٦)
٦٥٦	تفسير الآية (٦٧)
٦٥٧	تفسير الآيتين (٦٨ - ٦٩)
٦٥٨	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٢)
٦٥٩	تفسير الآية (٧٣)
٦٦٠	تفسير الآيتين (٧٤ - ٧٥)

(٩) سورة التوبة

٦٦٢	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٦٦٣	تفسير الآية (٣)
٦٦٤	تفسير الآيتين (٤ - ٥)
٦٦٥	تفسير الآيتين (٦ - ٧)
٦٦٦	تفسير الآيات (٨ - ١١)
٦٦٧	تفسير الآيتين (١٢ - ١٣)
٦٦٨	تفسير الآيات (١٤ - ١٦)
٦٦٩	تفسير الآيتين (١٧ - ١٨)
٦٧٠	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٠)
٦٧١	تفسير الآيات (٢١ - ٢٤)
٦٧٢	تفسير الآية (٢٥)
٦٧٣	تفسير الآيات (٢٦ - ٢٨)
٦٧٤	تفسير الآية (٢٩)
٦٧٥	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٦٧٦	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٤)
٦٧٧	تفسير الآية (٣٥)
٦٧٨	تفسير الآيتين (٣٦ - ٣٧)
٦٧٩	تفسير الآية (٣٨)
٦٨٠	تفسير الآيتين (٣٩ - ٤٠)
٦٨١	تفسير الآية (٤١)
٦٨٢	تفسير الآيتين (٤٢ - ٤٣)
٦٨٣	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٦)
٦٨٤	تفسير الآيات (٤٧ - ٤٩)
٦٨٥	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)
٦٨٦	تفسير الآيات (٥٣ - ٥٥)
٦٨٧	تفسير الآيات (٥٦ - ٥٨)

٦٨٨	تفسير الآيتين (٥٩ - ٦٠)
٦٨٩	تفسير الآية (٦١)
٦٩٠	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٤)
٦٩١	تفسير الآيات (٦٥ - ٦٧)
٦٩٢	تفسير الآيتين (٦٨ - ٦٩)
٦٩٣	تفسير الآيتين (٧٠ - ٧١)
٦٩٤	تفسير الآيات (٧٢ - ٧٤)
٦٩٥	تفسير الآية (٧٥)
٦٩٦	تفسير الآيات (٧٦ - ٧٨)
٦٩٧	تفسير الآيتين (٧٩ - ٨٠)
٦٩٨	تفسير الآية (٨١)
٦٩٩	تفسير الآيات (٨٢ - ٨٤)
٧٠٠	تفسير الآيات (٨٥ - ٨٨)
٧٠١	تفسير الآيات (٨٩ - ٩٢)
٧٠٢	تفسير الآيتين (٩٣ - ٩٤)
٧٠٣	تفسير الآيات (٩٥ - ٩٧)
٧٠٤	تفسير الآيتين (٩٨ - ٩٩)
٧٠٥	تفسير الآيتين (١٠٠ - ١٠١)
٧٠٦	تفسير الآيتين (١٠٢ - ١٠٣)
٧٠٧	تفسير الآيتين (١٠٤ - ١٠٥)
٧٠٨	تفسير الآيتين (١٠٦ - ١٠٧)
٧٠٩	تفسير الآية (١٠٨)
٧١٠	تفسير الآية (١٠٩)
٧١١	تفسير الآية (١١٠)
٧١٢	تفسير الآيتين (١١١ - ١١٢)
٧١٣	تفسير الآيتين (١١٣ - ١١٤)
٧١٤	تفسير الآيات (١١٥ - ١١٧)

٧١٥	تفسير الآيتين (١١٨ - ١١٩)
٧١٦	تفسير الآية (١٢٠)
٧١٧	تفسير الآيتين (١٢١ - ١٢٢)
٧١٨	تفسير الآيات (١٢٣ - ١٢٦)
٧١٩	تفسير الآيات (١٢٧ - ١٢٩)
٧٢٠	فهرس الآيات

* * *